

الإحاطة
في

اختيار شعرنا طرية

تأليف

أبو محمد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلافي
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى سنة ٥٢٢ هـ

بسمه ورضيه وقدم له

الأستاذ الدكتور يوسف عاي طویل
أستاذ الأدب العربي في جامعة القاهرة
بجامعة اللبنانية

تقديم

وضعنا الفهارس العامة للمكتتاب في آخر الجزء الرابع

المجلد الثاني

ملاحظات

محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلافي
لقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٢٢٢ هـ
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الإحاطة في اختيار شعرنا طرية

تأليف
أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلافي
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

ترجمة و ضبطه و قدم له
الأستاذ الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب العربي في جامعة القاهرة
بالمهنة اللبنانية

تنويه:
وضعنا الفهارس العامة للكتاب في آخر الجزء الرابع

الجزء الثاني

منشورات
محمد عيسى بيضون
لتنشر كتب التراث و الجملة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات دار الكتب العلمية بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والعلمية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزأً أو تسجيله على أي وسيلة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أي أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur
cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريرف - شارع البحري - بقية ملكات
الإدارة العامة: صرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (٩٦١ ٥)
صندوق بريد: ٩١٢٤ - بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7431-3319-5



9 782743 133199

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

beydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج
ابن يوسف بن نصر الخزرجي^(١)

أميرُ المسلمين لهذا العهد بالأندلس، صدرُ الصدور، وعلمُ الأعلام، وخليفةُ الله، وعمادُ الإسلام، وقدوةُ هذا البيت الأصيل، ونيرُ هذا البيت الكريم، ولُبّابُ هذا المجدي العظيم، ومعنى الكمال، وصورة الفضل، وعنوانُ السَّعْدِ، وطائرُ اليُمن، ومحوّلُ الصُّنْعِ، الذي لا تبلغُ الأوصافُ مداه، ولا تُوفي العبارةُ حقّه، ولا يَخْجِي النظم والنثر في ميدان ثنائه، ولا تنتهي المدائحُ إلى غليائه.

أُولِيَّتُهُ: أشهرُ من إمتاع الضُّحَى، مستوليةٌ على المدى، بالغةٌ بالسَّعَةِ بالانتساب إلى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ عَنان السماء، مُبْتَجِّحَةٌ في جِهَادِ العِدا، بحالة من مَلَكِ جزيرة الأندلس، وحَسْبُكَ بها، وهي بها في أَسْنَى المَزَايِنِ والحَلِيِّ، وقُدِّمًا فيه بحسب لمن سَمِعَ ورَأَى.

حاله: هذا السلطان أيمُنُ أهلِ بيته نقيّةً، وأسعدُهم ميلادًا وولايةً، قد جمع الله له بين حُسْنِ الصورة، واستقامة البنية، واعتدالِ الخُلُقِ، وصحّةِ الفكر، وثَقُوبِ الذَّهْنِ، ونُفُوذِ الإدراك، ولطافةِ المسائل، وحُسْنِ التَّأْنِي، وجمعَ له من الظَّرْفِ ما لم يُجمعَ لغيره، إلى الجِلْمِ والأناة اللذين يُحِبُّهُما الله، وسَلَامَةِ الصدر، التي هي من علامة الإيمان، ورُقّةِ الحاشية، وسُرْعَةِ العَبْرَةِ، والتبريز في ميدان الطهارة والعقّة، إلى ضخامة التَّنْجُدِ، واستجداءِ الآلات، والكَلْفِ بالجهاد، وثَبَاتِ القَدَمِ، وقوّةِ الجَأَشِ، ومشهورِ البَسَالَةِ، وإيثارِ الرَّفَقِ، وتَوَخُّي السُّدَادِ، وتُجَحُّ المحاولة. زادهُ الله من فضله،

(١) ترجمة الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر في اللوحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩) وأزهار

وأبقى أمره في ولده، وأمتع المسلمين بعمره. ساق الله إليه المُلْك طواعيةً واختياراً، إثر صلاة عيد الفطر على بَغْتَةِ وفاة المُقدَّس أبيه، من عام خمسة وخمسين وسبعمئة، لمخايل الخير، ومزية السَّن، ومَقْطَعَةُ^(١) البركة، وهو يافع، قريب العهد^(٢) بالمُراهقة، فائِثَةُ الله الثِّبات الحَسَن، وسَدَل به السُّتْر، وسَوَّغ العافية، وهنَّا العِش؛ فلم تشخَّ في مدته السماء، ولا كَلِب الأعداء، ولا تبدلت الألقاب، ولا عُوييت الشدائد، ولا عُرف الخوف، ولا فُورق الخُصْب، إلى أن كانت عليه الحادثة، ونابَهُ التَّمحيص الذي أكسبه الحُكَّة، وأفاده العِبرة، فشهد بعناية الله في كَفِّ الأيدي العادية، وأخطأ أَلَم السُّهام الرَّاشقة، وتُخَيِّب الآمال المكايِدة، وأنسَدَّال أزِقة السُّتْر والعِصمة، ثم العودة، الذي عَرَف الإسلام بدار الإسلام قَدَرها، وتملاً عِزَّها ورَجَح وزُئها، كما اختبر ضِدَّها فرصة المُلْك، وشاع العدل، وبعُد الصيِّت، وانتشر الذِّكْر، وفاص الخير؛ وعَزَز القَطْر، فظهرت البركات، وتوالت الفتوح، وتخلَّدت الآثار. وسيرد من بيان هذه الجمل، ما يسهه الترتيب بحول الله.

ترتيب دولته الأولى: إذ هو ذو دُولتين، ومُسَوَّغ ولايتين، عَزَّهما الله، بُمُلْك الآخرة، بعد العُمَر الذي يملأ صحايف البرِّ، ويخلَّد حُسن الذِّكْر، ويُعرف إلى الوسيلة، ويرفع في الرفيق الأعلى الدَّرَجَة، عند الله خير وأبقى للذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون.

وزراؤه وحجابه: انتدب إلى الثَّيابة عنه، والتَّشْمير إلى الحِجَابَة ببابه، الشيخ القائد المعتمد بالثَّجَلَة، المُتَحَوِّل من الخُدَّام الثُّبَّاء، المتسود الأبوة؛ المخصوص بالقيِّد المَعْلَى من المزية، المُسَلَّم في خُصُوصِيَّة الملك والتربية، ظهير العلم والأدب، وأمين الجِدِّ، ومولى السُّلْف، ومُفَرِّغ الرأْي إلى هذا العهد، وعِفْد سُفْرَة^(٣) السلطان، وبقية رجال الكمال من مشيخة^(٤) المماليك، وخيار الموالي، أبا النعيم رضوان، رحمه الله، فحمد الكلَّ، وخلف السلطان، وأبقى الرُّتَب، وحَفِظ الألقاب، وبذل الإنصاف، وأوسع الكَنَف، واستدعى النُصِيحة، ولم يأل جَهْدًا في حُسن السَّيرة، وتظاهر المَخْض، وأفردني بالمزية وعاملني بما يرتدُّ عنه جسرُ أطْرَف الموالاة والصُّحبة، ووفَّى لي الكَيْل الذي لا يقتضيه السَّن، والقُرْبَة من الاشتراك في الرتبة، والتَّزحُّج عن الهُضبة، والاختصاص باسم الوزارة على المُشْهَر والغَيْبة، والمحافظة على التَّشْييع والقِدْمة، بلغ في ذلك أقصى الغايات، مدارج التخلُّق الماثور عن الجَلَة،

(١) في اللوحة البدرية (ص ١١٣): «ومظنة الحصافة». ^(٢) في اللوحة البدرية (ص ١١٣): «ومظنة الحصافة».

(٢) في اللوحة: «قريب عهد بحال المراهقة». (٣) في اللوحة البدرية: «وعقدة السلطان...».

(٤) في اللوحة البدرية: «مشيخة ولاء بيتهم أبو النعيم رضوان».

والتودد إلي المرأة بعد المرأة، واختصصت بقوت المدة بالسلطان، فكنت المنفرد بسره
دونه، ومفضي همه، وشفاء نفسه، فيما يُتكره من فتنة تقع في سيرته، أو تُصير توجيه
السداجة في معاملاته، وصلاح ما يتغير عليه من قلبه، إلى أن لحق بربه.

شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره:

أقر على الغزاة شيخهم على عهد أبيه، أبا زكريا يحيى بن عمر بن رحو بن
عبد الله بن عبد الحق، مَطْمَح الطَّوَابِ^(١)، ومَوْفَى الاختيار، ولَبَاب القوم، وبقية
السلف، جَزْمًا ودهاء، وتجربةً وحُكْمًا وإدراكًا، ناهيك من رجل قَدْ المَنَازَع،
غريبها، مستحق التقديم، شجاعةً وأصالةً، ورأيًا ومباحثةً، نسابه قبيله، وأضحى
قُشْم، وكسرى ساسيتهم، إلى لُطْف السَّجِيَّة، وحُسن التَّائِي، لغرض السلطان، وطرق
التَّنَزُّل للحاجات، ورقة غزل الشِّفَاعَات، وإمتاع المجلس، وثقوب الذَّهْن والفهم،
وحُسن الهيئة. وزادة خصوصية ملازمته^(٢) مجلس الرِّقَاع^(٣) المعروضة، والرسل
الواردة. وسيأتي ذكره في موضعه بحول الله تعالى.

كاتب سره: قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إلي أبوه المولى
المقدس، رحمه الله، من الوقوف على رأسه، والإمساك في التهاني والمبايعات بيده،
والكتابة والإنشاء والعرض والجواب، والخلة والمجالسة، جامعًا بين خدمة القلم،
ولقب الوزارة، معزز الخطط برسم القيادة، مخصوصًا بالنيابة عنه في الغيبة، على كل
ما اشتمل عليه سور القلعة والحضرة، مطلق أمور الإيالة، محكمًا في أشداته تحكيم
الأمانة، مطلق الراية، ظاهر الجاه والنعمة. ثم تضاعف العز، وتأكد الرعي، وتمخض
القرب، فنقلني من جلسة المواجهة، إلى صف الوزارة؛ وعاملني بما لا مزيد عليه من
العناية، وأحلني المحل الذي لا فوقه في الخصوصية، كافأ الله فضله، وشكر رعيه،
وأعلى محله عنده.

وأضدّر لي هذا الظهير لثاني يوم ولايته: هذا ظهير كريم، صفي شربه. وسفرني
في الرسالة عنه، إلى السلطان، الخليفة الإمام، ملك المغرب، وما إليه من البلاد
الإفريقية، أبي عنان، حسبما يأتي ذكره. ثم أغفاني في هذه المدة الأولى، عن كثير
من الخدمة، وتوّه بي عن مباشرة الغرض بين يديه بالجملة، فاخترت للكلّ والبذلة،
وما صان عنه في سبيل التجلّة، وإن كان منتهى أطوار الرُفعة، الفقيه أبا محمد بن

(١) في اللوحة البدرية (ص ١١٦): «الطرف ومرمى الاختيار».

(٢) في اللوحة البدرية (ص ١١٧): «بملازمة».

(٣) في اللوحة البدرية (ص ١١٧): «مجلس العرض وملقى الرسل الواردة وإجالة قدام المشورة».

عطية^(١)، مُسْتَنْزِلًا عَنْ قِضَاهِ وَادِي آش وَخَطَابَتِهَا، فَكَانَ يَتَوَلَّى مَا يُكْتَبُ بِنَظَرِي، وَرَاجِعًا لِحُكْمِي، وَمُتَرَدِّدًا لِبَالِي، مُكْفًى الْمُؤَنَةُ فِي سَبِيلِ الْحَمَلِ الْكَلْبِيِّ، إِلَى وَقْعِ الْحَادِثَةِ، وَنَفْوَذِ الْمَشِينَةِ بِتَحْوِيلِ الدَّوْلَةِ.

قضااته: جَدَّدَ أَحْكَامَ الْقَضَاءِ وَالْخُطَابَةِ لِقَاضِي أَبِيهِ الشَّيْخِ الْأَسَاطِذِ الشَّرِيفِ^(٢)، نَسِجَ وَخِيْدَهُ، وَفَرِيدِ دَهْرِهِ، إِغْرَابًا فِي الْوَفَارِ، وَحُسْنِ السُّمْتِ، وَأَصَالَةِ الْبَيْتِ^(٣)، وَتَبَحُّرًا فِي عُلُومِ اللُّسَانِ، وَإِجْهَازًا فِي فَضْلِ الْقَضَايَا، وَانْفِرَادًا بِبِلَاغَةِ الْخُطْبَةِ، وَسَبْقًا فِي مِيدَانِ الدِّهَاءِ وَالرَّجَاحَةِ، أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْحَسَنِيِّ، الْجَانِحِ إِلَى الْإِيَالَةِ النَّصْرِيَّةِ مِنْ مَدِينَةِ سَبْتَةِ^(٤). وَسَيَّاتِي التَّعْرِيفِ بِهِ فِي مَكَانِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَتَوَفَّى، رَحِمَهُ اللَّهُ، بَيْنَ يَدَيِ حَدُوثِ الْحَادِثَةِ، فَأَرْجَىءُ الْأَمْرَ بِمَكَانِهِ، إِلَى قُدُومِ مُتَلَقِّفِ الْكُورَةِ، وَمُتَعَاوِرِ تِلْكَ الْخُطَّةِ، الشَّيْخِ الْفَقِيهِ الْقَاضِي، أَبِي الْبَرَكَاتِ قَاضِي أَبِيهِ، وَوَلِيِّهَا الْأَحَقُّ بِهَا بَعْدَهُ، إِذْ كَانَ غَايِيًا فِي السَّفَارَةِ عَنْهُ، فَوَقَعَ التَّمَحِيصُ قَبْلَ إِبْرَامِ الْأَمْرِ عَلَى حَالِ الْاسْتِنَابَةِ.

الملوك على عهده: وَأَوَّلَهُمْ بِالْمَغْرِبِ، السُّلْطَانُ، الْإِمَامُ^(٥)، أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ، أَبُو عِيْنَانَ^(٦)، ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَسَنِ^(٧)، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي سَعِيدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ، الْبَعِيدُ الشَّأْوُ^(٨) فِي مِيدَانِ السَّعَادَةِ، وَالْمُضْمِي أَغْرَاضِ السُّدَادِ، وَمُعْظَمُ^(٩) الظُّفَرِ، وَمُخَوَّلُ الْمُؤَهَّبَةِ، الْمُسْتَوَلِي عَلَى أَمَادِ الْكَمَالِ^(١٠)، عَقْلًا وَفَضْلًا وَأَبْهَةً وَرَوَاءًا، وَخَطًّا وَبِلَاغَةً، وَحِفْظًا وَذِكَاةً^(١١) وَفَهْمًا وَإِقْدَامًا^(١٢)، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، بَعَثَنِي إِلَى بَابِهِ رَسُولًا عَلَى إِثْرِ بَيْعَتِهِ، وَتَمَامِ أَمْرِهِ،

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٦): «الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية...».

(٢) كلمة «الشريف» ساقطة في اللمحة البدرية (ص ١١٦).

(٣) قوله: «وأصالة البيت» ساقط في اللمحة البدرية (ص ١١٦).

(٤) في اللمحة البدرية (ص ١١٦): «سبته إلى أخريات شعبان من عام ستين وسبعمئة، وتوفي رحمه الله».

(٥) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «الشهير».

(٦) في اللمحة البدرية: «المسلمين فارس ابن...».

(٧) في اللمحة البدرية: «أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب...».

(٨) في اللمحة البدرية: «شأو السعادة، المعنى...».

(٩) في اللمحة البدرية: «مُطْعَم».

(١٠) في اللمحة البدرية: «الأماد البعيدة الكمالية أبهة...».

(١١) في اللمحة البدرية (ص ١١٧): «وإدراكًا...» (١٢) في اللمحة البدرية: «وإقدامًا وشجاعة».

وخاطباً إثره وودّه، مُسترفِداً من بثنة قبوله، فالفيتُ بشراً مبدولاً، ورفداً ممنوحاً، وعزاً باذخاً، يضيق الزمان عن جلالته، وتقصر الألسنة عن كُنه وصفه، فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي قعدة عام خمسة وخمسين المذكور، وأنشدته بين يدي المُخاطبة، ومُضمن الرسالة: [المنسرح]

خليفةُ الله ساعِدَ القَدَرِ علاك ما لاح في الدجى قمرُ

فأخسب وكفى، واحتفل واحتفى، وأفضتُ بين يديه كرمته، إلى الحضور معه في بعض المواضع المطلة على مورد رحب. هاج به الخُدام أسداً، أزود، شثن الكفّين، مُشعر اللبدة، حتى مَرَق عن تابوت خشبي كان مسجوناً به، من بعد إقلاعه، من بعض كُواه، وأثارته من خلفه، واستشاط وتوقد بأساً. وجلب ثورَ عَبلِ الشوى، متصبّب المروى، يقدمه صوّار من الجواميس، فقرئت الخطى، وحُميت الوغى، وبلغ الزئير والجوار ما شاء، في موقف من ميلاد الشيم العلى يخشى الجبانُ مقارعة العدا، ويوطنُ نفسه الشجاعُ على ملاقة الردى، وخار الأسدُ عن المبارزة، لما بَلَغ منه ثقافاً عن رد المناوشة، ومضطلعاً بأعباء المُحاملة، فتخطاه إلى طائفة من الرّجاله، أولي عُدّة، وذوي دُزيّة، حمل نفسه متطارحاً كشهاب الرّجم، وسرّك الدجى، وأخذته رماحهم بإيادته، بعد أن أزدى بعضهم، وجذل بين يدي السلطان، متخبطاً في دمه. وعرض بعض الحاضرين، وأغرى بالنظم في ذلك، فأنشدته: [الكامل]

أنعامُ أرضِكَ تَقْهَرُ الآسادا	طبيعاً كَسا الأرواح والأجسادا
وخصائصُ الله بثّ ضروبها	في الخَلْق ساد لأجلها من سادا
إن الفضائل في حماك بضائعُ	لم تخش من بعد النُفاق كسادا
كان الهَزْبُ محارباً فجزيته	بجزاء مَن في الأرض رام فسادا
فابغ المزيّد من آلائه بشكره	وارغم بما حوّلته الحُسنادا

فاستحسن تأثي القريحة، وإمكان البديهة، مع قَيْد الصّفة، وهيبة المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفيرٌ، من واد أصيل، وإمدادٍ موهوبٍ، ومهاداةٍ أثيرة، وقطارٍ مَجْنُوبٍ، وصامتٍ مَحْمُولٍ، وطُعْمَةٍ مَسُوعَةٍ. وكان الوصول في وسط محرم من عام ستة وخمسين وسبع مائة، وقد نجح السُغي، وأثمر الجهد، وصَدَقَتِ المَخِيلَةُ، وقد تَضَمَّنَ رَحْلي الوُجْهَة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة. وتوفي، زعموا، بحيلة، وقيل: خُتِفَ آنفَه، لما نَهَكَه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبناء. وخاف مُدَبِّرُ أمره، عابدةً ملامته، على توقع بُزته، وكان سيفُه يسبق على سوطه، والقبر أقرب إلى مَن

تعرض لعتبه من سجنه، ففضى موضع هذا السبيل خاتمة الملوك الجلة، من أهل بيته. جدّد الملك، وحفظ الرسوم، وأجرى الألقاب، وأغلظ العقاب، وصير إيلاته أضيّق من الخدّ. وأمدّ الأندلس، وهزم الأضداد، وخلد الآثار، وبنى المدارس والزوايا، واستجلب الأعلام. وتحرك إلى تلمسان فاستضافها إلى إيلاته، ثم الحق بها قُسنطينة وبجاية، وجهاز أسطوله إلى تونس، فدخلها وتملكها ثقاته في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، واستمرت بها دعوته إلى ذي قعدة من العام، رحمة الله عليه. وكانت وفاته في الرابع عشر^(١) لذي حجة من عام تسعة^(٢) وخمسين وسبعمائة. وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسعيد، المكنى بأبي بكر، مختار وزيره ابن عمر القُدودي. ورام ضبط الإيالة المشرقية فأعياه ذلك، وبايع الجيش الموجه إليها منصور بن سليمان^(٣)، ولجأ الوزير وسلطانه إلى البلد الجديد، مشى الخلافة المرينية، فكان أملك بها. ونازله منصور بن سليمان، ثم استقضى إليه أمر البلد لحزم الوزير وقوة شكيمته. وغادر السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن^(٤)، أخو الهالك السلطان أبي عنان، الأندلس، وقد كان استقر بها بإزعاج أخيه إياه عن المغرب، كما تقدم في اسمه، فطلع على الوطن الغربي بإعانة من ملك النصارى، عانى فيها هولا كثيرا، واستقر بأخرة بعد إخفاق شيعته المراكشية، بساحل طنجة، مستدعى ممن بجبال غمارة، ودخلت سبتة وطنجة في طاعته. وفرّ الناس عن منصور بن سليمان، ضربة لازب، وتقبض عليه وعلى ابنه، فقتلا صبرا، نفعهما الله. وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة، بنزول الوزير وسلطانه عنها إليه. ثم دالت الدولة. وكان من لحاق السلطان برنّدة، واستعانيه على ردّ ملكه ما يأتي في محله، والبقاء لله سبحانه.

وبتلمسان السلطان أبو حمّو موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمّرس^(٥) بن زيان، قريب العهد باسترجاعها، لأول أيام السعيد.

ويتونس^(٦) الأمير إبراهيم ابن الأمير أبي بكر ابن الأمير أبي حفص ابن الأمير أبي بكر بن أبي حفص بن إبراهيم بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد، لنظر الشيخ

(١) في اللوحة البدرية (ص ١١٧): «الرابع والعشرين من ذي حجة عام تسعة...».

(٢) في الأصل: «تسع» وهو خطأ نحوي.

(٣) في اللوحة البدرية: «منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق».

(٤) في اللوحة البدرية: «أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب».

(٥) في الأصل: «يغمّراس» والتصويب من اللوحة البدرية (ص ١١٩).

(٦) في اللوحة البدرية: «وبإفريقية إبراهيم ابن الأمير أبي يحيى أبي بكر بن أبي حفص...».

رأس الدولة، وبقية الفضلاء، الشهير الذكر، الشائع الفضل، المعروف السياسة، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن تافرايين، تحت مضايقة من عرب الوطن.

ومن ملوك النصارى بَقَشْتَالَة^(١)، بِطَرُء بن ألهنشه بن هِراندة بن شانجه بن ألفنش^(٢) بن هِرانده، إلى الأربعين^(٣)، وهو كما اجتمع وجهه، تولى^(٤) الملك على أخريات أيام أبيه في محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة. وعقد معه سلم^(٥) على بلاد المسلمين. ثم استمر ذلك بعد وفاته في دولة ولده المترجم به، وغمرت الروم فتنة^(٦) وألقت العصا، وأغضت القضاء، وأجالت على الكثير من الكبار الردى، بما كان من إخافته سائر إخوانه لأبيه، من خاصته، العجلة الغالبة على هواه، فبذوه على سوء بعد قتلهم أمهم، وانتزوا عليه بأفطار غرسهم فيها أبوهم قبل موته بمرعية أمهم. وسلك لأول أمره سيرة أبيه في عدوله عن عهوده بمكاييه لمنصبه، إلى اختصاص عجلة، أنف بحرّاه كبار قومه، من أجل ضياع بذره وانقراض عقيه، فمال الخوارج عليه، ودبروا القبض عليه، وتحصل في أنشوطه، يقضي أمره بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلع، لولا أنه أفلت وتخلص من شرارها. فاضطره ذلك إلى صلة السلم، وهو الآن بالحالة الموصوفة.

الأحداث في أيامه:

لم يحدث في أيامه حدث إلا العافية المُسِيحَة والهُدنة المتصلة، والأفراح المتجددة، والأمنة المُستَحْكَمَة، والسلم المُنعقدة. وفي آخر جمادى عام ستة^(٧) وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح^(٨)، فشتم شعبته، وأبر مَبْتوتَه^(٩)، كان على ثغره العزيز على المسلمين، من لدن افتتاحه، المؤسوم الخطة، المخصوص بمزية تشييده، عيسى بن الحسن بن أبي منديل^(١٠)، بقتية الشيوخ أولي الأصالة والذهاء، والتزيي بزي الخير، والمثل السائر في الانسلاخ من آية السعادة، والإغراق في سوء العقبي، والله غالب على أمره، فكان أملك بمصامه، وقر عينه بلقاء ولده، والتمتع منه بجواد عتيق. مُلّي من خلال السياسة، أزداه سوء الحظ، وشؤم النُصبة، واطلم ما بينه وبين

(١) في اللوحة البدرية: «وبقشتالة». (٢) في اللوحة البدرية: «ألهنش».

(٣) في اللوحة البدرية: «أربعين». (٤) في اللوحة البدرية: «تولى».

(٥) في اللوحة البدرية: «السلم».

(٦) كلمة «فتنة» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللوحة.

(٧) في الأصل: «ست» وهو خطأ نحوي. (٨) هو جبل طارق.

(٩) أي قام بتعليق أسواره وإصلاح أجزائه الخربة الهالكة. الإحاطة (ج ٢ ص ٢٣) حاشية رقم ٣.

(١٠) في اللوحة البدرية (ص ١٢٠): «منديل العسكري».

سلطانه، مسوغه برداء العافية على تَفِه صِغَر، وملبسه رداء العفة على قَذَح الأمور، أبدى منها الخوف على ولده، وعَرَضَ دَيْسَم عزمه، على ذوبان الجبل، فانحطوا في هواه، وغرّوه بكاذب عُصْبَةٍ، فأظهر الامتناع سادس ذي قعدة من العام المذكور، واتصلت الأخبار، وساءت الظنون، وضاعت الصدور، ونُكست الرؤوس لتوقع الفاقة، بانسداد باب الصُريج، وأثبتت سبب^(١) النُصرة، وانبعث طمع العدو، وانحطت الأطماع في استرجاعه واستقالته، لمكان حصانته، وسمو الذروة، ووفور العدة، ووجود الطعمة، وأخذ بتلاشي القرصة. ثم رِدِفَت الأخبار بخروج جيشه صُحبة ولده إلى مُنازلة أَشْتَبُونَة^(٢)، وإخفاق أمله فيها، وامْتِساك أهلها بالدعوة، وانتصافهم من الطائفة العادية؛ فبُودِر إليها من مألقة بالعدد. وخُوِطِب السلطان من ملك المغرب، أيده الله، بالجلية، فتحققت المُنايضة؛ واستقرت الظنون. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي قعدة، ثار به أهل الجبل، وتبرأ منه أشياعه، وخذلوه بالفرار، فأخذت شُعباؤه ونقابها، فكَرَّرَ راجعاً أذراجها إلى القاعدة الكبيرة، وقد أعجله الأمر، وحملت الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها، وكوثر^(٣) فألقى به، وقد لحق به بعض الأساطيل بسببته، لداعي تسوُّر تُوْطَى على إمارته، فقيد هو وابنه، وخيض بهما البحر للحين، ولم ينتطح فيها عِزْزان، رحمه الله؛ سَنام فِتة أَلَقَتْ بَرَكها، وأناخت بكَكَلها، وقد قَدَّر أنها واقعة، ليس لها من دون الله كاشفة، فقد كان مَنْ بالجبل برموا على إيالة ذينك المرتسمين، وألقوا أجوارها، وأعطوها الصفقة، بما أطمعهما في الثورة، ولكل أجل كتاب. واحتمل إلى الباب السلطاني بمدينة فاس، وبرز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبيين في مَنَصَّة الشهرة، مرفوعين في هُضبة المثلة. ثم أمضى السلطان فيهما حُكْم الفساد، بعد أيام الحرابة، فقتل الشيخ بخارج باب السمارين من البلد الجديد، بأيدي قرابته، فكان كما قال الأول: [الكامل]

أضحت رماح بني أبيه تنوشه لله أرحامُ هناك تُشَقُّوْ

وقُطعت رِجُل الولد ويده، بعد طول عمل وسوء تناول، ولم ينشب أن استنقذه جِمامه فأضحى عِبرة في سُرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسن طلعة، وذِباع حَمْد، وقُضِل شهرة، واستفاضة خَيْرية، ونباهة بيت، وأصالة عِز، إلى ضد هذه الخلال، وقانا الله مصارع سوء، ولا سلب عنا جِلباب السُّر والعافية.

(١) كلمة «سبب» ساقطة في اللمعة البدرية.

(٢) أَشْتَبُونَة بالإسبانية Estepona: وهي بلدة تقع على البحر المتوسط، وشمال جبل طارق.

الإحاطة (ج ٢ ص ٢٤) حاشية رقم ٣.

(٣) أي كثر خصومه.

وسد السلطان ثغر الجبل بآخر من ولده اسمه السعيد، وكنيته أبو بكر، فلقق به في العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ورتب له بطانته، وقدر له أمره، وسوَّغه رزقاً رغداً، وعيشاً خفصاً. وبادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله؛ قاضياً حقّه، مقرّز السُرور بجواره، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من برّ ومهاداة ونزل، وتعقبت بعد أيام المكافات، فاستحكم الوُدُّ، وتحسنت الألفة إلى هذا العهد، والله وليّ توفيقهم ومُسنّي الخير والخيرة على أيديهم.

الحادثة التي جرت عليه:

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول، خفص عيش، وتوالي خصب، وشياع آمن، إلا أنّ شيخ الدولة القائد أبا النعيم، رحمه الله، أضاع الحزم. وإذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم، بما كان من أمنه جانب القصر الملمزم دار سكناه، من علية فيها أخو السلطان، بتهاونه، يحيل أمه المداخلة في تحويل الأمر إليه، جملة من الأشرار، دار أمرهم على زوج ابنتها الرئيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف، وإبراهيم بن أبي الفتح، والدليل الموروري، وأمدته بالمال، فداخل القوم جملة من فرسان القيود، وعمرة السُجون، وقلاميد الأسوار. وكانت تردّد إليه في سبيل زيارة بنتها الساكنة في عصمة هذا الخبيث، المتزوع العصمة، خارج القلعة حتى تمّ يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام، اجتمعوا وقد خفي أمرهم، وقد تألفوا عدداً يناهز المائة بالقوس الداخل من وادي هُدّاره إلى البلد، لصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء، وكان بسورها ثلم، لم يتمّ ما شرعوا فيه من إصلاحه؛ فنصبوا سلماً أعدّ لذلك، وصعدوا منه. ولما استوفوا، قصدوا الباب المضاع المسلّح، للثقة بما قبله؛ فلما تجاوزوه أعلنوا بالصياح، واستغلظوا بالتهويل، وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء، فقصدت طائفة منهم دار الشيخ القائد أبي النعيم؛ فافتحمت غلاباً وكسرت أبوابه؛ وقتلته في مضجعه؛ وبين أهله وولده، وانتهبت ما وجدت به. وقصدت الأخرى دار الأمير، الذي قامت بدعوته، فاستنجزته واستولت على الأمر. وكان السلطان متحوّلاً بأهله إلى سكنى «جّة العريف» خارج القلعة، فلما طرقه النبا؛ وقرعت سمعه الطبول سدّده الله؛ وساند أمره في حال الحيرة، إلى امتطاء جواد كان مُرتبطاً عنده في ثياب تبذّله ومصاحباً لأفراد من ناسه؛ وطار على وجهه، فلقق بوادي آش قبل سُبوق نكبته، وطرق مكانه بأثر ذلك، فلم يُلَفّ فيه، وأتبع فأغيا المُتبع. ومن الغد، استقام الأمر لأولي الثورة، واستكملوا لصاحبهم أمر البيعة، وخاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم بالأزمة، وأرسلوا إلى ملك النصارى في عقد الصلح. وشرعوا في منازل وادي آش، بعد أن ثبت أهلها مع

المُعْتَصِمُ بِهَا، فَلَا زِمَتَهُ الْمَحَلَّاتُ وَوَلِيَّ عَلَيْهِ التَّضْيِيقُ، وَخِيفَ فَوَاتُ الْبَدْرِ وَنَفَادُ الْقُوَّةِ، فَشَرَعَ السُّلْطَانُ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِهِ، وَخَاطَبَ السُّلْطَانُ أَبَا سَالِمٍ مَلِكَ الْمَغْرِبِ فِي شَأْنِ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ وَبَعَثَ مَنْ يَمْهَدُ الْحَدِيثَ فِي شَأْنِهِ، فَتَمَّ ذَلِكَ ثَانِي يَوْمٍ عِيدِ النَّحْرِ مِنَ الْعَامِ. وَكُنْتُ عِنْدَ الْحَادِثَةِ عَلَى السُّلْطَانِ، سَاكِنًا بِجَنَّتِي الْمُنَسُوبَةِ إِلَيَّ مِنَ الْحَضْرَةِ، مُنْتَقِلًا إِلَيْهَا بِجَمْلَتِي، عَادَةُ الْمُتَرْفِّينَ، إِذْ ذَاكَ مِنْ مِثْلِي، فَتَخَطَّانِي الْحَتْفُ، وَنَالَتْنِي النَكْبَةُ، فَاسْتَأْصَلْتُ النِّعْمَةَ الْعَرِيضَةَ، وَالْجِدَّةَ الشَّهِيرَةَ، فَمَا ابْتَقَتْ طَارِقًا وَلَا تَلِيدًا، وَلَا دَرَزَتْ قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُخَفِّفِ الْحَسَابِ، وَمَوْقِظِ أُولِي الْأَلْبَابِ، وَلَطَفِ اللَّهِ بِأَنْ تَعَطَّفَ السُّلْطَانُ بِالْمَغْرِبِ إِلَى شَفَاعَةِ بِي بِخَطِّهِ، وَجَعَلَ أَمْرِي مِنْ فُصُولِ قُضْدِهِ. فَفُكَّتْ عَنِّي أَصَابِعُ الْأَعْدَاءِ، وَاسْتُخْلَصْتُ مِنْ أَنْيَابِهِمْ، وَلِجِئْتُ بِالسُّلْطَانِ بِوَادِي آشٍ، فَذَهَبَ الْبَاسُ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ. وَكَانَ رَحِيلُ الْجَمِيعِ ثَانِي عِيدِ النَّحْرِ الْمَذْكُورِ، فَكَانَ النَّزُولُ بِفَحْصِ الْفُنْتِ، ثُمَّ الْإِنْتِقَالُ إِلَى لَوْشَةٍ، ثُمَّ إِلَى أَنْتَقِيرِهِ، ثُمَّ إِلَى ذُكُونٍ، ثُمَّ إِلَى مَزْبَلَةٍ، يَضُمُّ أَهْلُ كُلِّ مَحَلٍّ مِنْ هَذِهِ مَاتَمًا لِلْحَسْرَةِ، وَمِنَاحَةً لِلْفُرْقَةِ. وَكَانَ رُكُوبُ الْبَحْرِ صُخُوةَ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَالِاسْتِقْرَارُ بِمَدِينَةِ سَبْتَةٍ، وَكَفَى بِالسَّلَامَةِ غُنْمًا، وَالْأَرْضُ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

وَكَانَ الرَّحِيلُ إِلَى بَابِ السُّلْطَانِ، تَحْتَ بَرْ لَا تَسْعُهُ الْعِبَارَةُ، وَلِقَاؤُنَا إِيَّاهُ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ الْجَدِيدِ لِلْإِمَامِ أَلَمْ عَاقَةُ عَنِ الْإِصْحَارِ وَالتَّغْيِي عَلَى الْبَعْدِ، يَوْمَ الْخَمِيسِ السَّادِسِ لِمَحْرَمٍ مِنْ عَامٍ أَحَدٍ وَسَتِينَ بَعْدَهُ، فِي مَرْكَبٍ هَائِلٍ، وَاحْتِفَالٍ رَائِعٍ رَائِقٍ، فَعُورُضٌ فِيهِ النَّزُولُ عَنِ الصُّهَوَاتِ، وَالْبَرُّْ اللَّائِقُ بِمَنَاصِبِ الْمُلُوكِ، وَالْوَصُولُ إِلَى الدَّارِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَالطَّعَامُ الْجَامِعُ لِلطَّبَقَاتِ وَشُبُوحِ الْقَبِيلِ. وَقَمْتُ يَوْمَئِذٍ فَوْقَ رَأْسِ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ يَدَيْ مَوْمَلِهِ، فَأَنْشَدْتُهُ مُغْرِبًا بِنَصْرِهِ، كَالْوَسِيلَةِ بِقَوْلِي^(١): [الطويل]

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُحَبَّرَةٍ ذُكِّرُ؟ وَهَلْ أَغْشَبَ الْوَادِي وَتَمَّ بِهِ الرُّهْرُ؟

فَهَا جِ الْإِمْتِعَاضُ، وَسَالَتْ الْعَبْرَاتُ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا، وَمَوْقِفًا مَشْهُورًا، طَالَ بِهِ الْحَدِيثُ، وَعَمَّرَتْ بِهِ النُّوَادِي، وَتَوَزَّعَتْنَا النَّزَائِلُ عَلَى الْأَمَلِ، شَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ وَكَتَبَهُ لَأَمَلِهِ، يَوْمَ الْإِفْتِقَارِ إِلَى رَحْمَتِهِ. وَاسْتَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَدَالَتْ الدَّوْلَةُ لِلرَّئِيسِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَالسُّلْطَانُ تَغَلَّبَهُ الْمَوَاعِيدُ، وَتَوَسَّهَ الْأَمَالُ، وَالْأَسْبَابُ تَتَوَفَّرُ، وَالْبِوَاعُثُ تَتَأَكَّدُ. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا هَيَأَ أَسْبَابَهُ، وَاسْتَقَرَّتْ بِي الدَّارُ بِمَدِينَةِ سَلَا، مُرَابِطًا، مُسْتَمْتَعًا بِالْعَيْيَةِ، تَحْتَ نِعْمَةٍ كَبِيرَةٍ، وَإِعْفَاءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ.

(١) البيت مطلع قصيدة من ٧٥ بيتًا وردت في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٢ - ١٢٥) وكتاب العبر (م ٧ ص ٦٣٨ - ٦٤٢) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٨٠ - ٨٤) وأزهار الرياض (ج ١ ص ١٩٦ - ٢٠٠).

وفي اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، قَعَدَ السلطان بقبة العرض بظاهر جنة المُصارة لتشيعه^(١)، بعد اتخاذ ما يصلح لذلك؛ من آلةٍ وجَلِيّةٍ، وقد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المُسيل للدموع، الباعث للرفقة، المُتّبع بالدُّعوات، لما قَدَفَ الله في القلوب من الرحمة، وصَحِبَه به في التغرُّب من العناية، فلم تَنَبَّ عنه عين، ولا حَمَلَ له مَوَكِب، ولا تقلّصت عنه هيبةٌ، ولا فارقت حشمةً، كان الله له في الدنيا والآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال، بما كان من هلاك مُعيّنه السلطان أبي سالم، وعَظُرَ الخبيث المُؤثَمَن على قَلْعته به، عمر بن عبد الله بن علي، صَعَّرَ الله جِزْيَه، وخَلَدَ جِزْيَه، وسَقِطَ في يده، إلّا أنه ثَبَّتَ في رُئدة من إيالة الأندلس، الراجعة إلى إيالة المغرب، قدّمه، فتعلّل بها، وارتأش بسببها، إلى أن فتح الله عليه، وسدّد عَزْمَه، وأراه لما ضَعُفَت الحيل صُنْعَه، فتحرّك إلى برّ مالقة، وقد فَعَّرَ عليها العدو فَمَه، ثم أقبل على مالقة، مستميّاً دونها، فسهّل الله الصُّعب، وأنجح القصد، واستولى عليها، واثّالت عليه لحينها البلاد، وبدأ الرّيس المُتَوَكِّب على الحضرة، بعد أن استَوْعَبَ الذّخيرة والعُدّة، في جُملةٍ ضخمةٍ ممن خاف على نفسه، لو وُقِيَ بذمّة الغادر وعهده، واستَقَرَّ ينادي صاحب قُشّالة، فأخَذَه بجريّته^(٢)، وحَكَمَ الحيلة في جنائته وعُذْرَه، وألْحَقَ به من شاركه في التَّسَوُّر من شيعته، ووجّه إلى السلطان برؤوسهم تَبِعَ رأسه. وخَتَّ السلطان أسعده الله خُطاه إلى الحضرة، يتلقاه الناس، مُسْتَبْشِرِينَ، وتزاحم عليه أفواجهم مُسْتَقْبِلِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته، وقَطَعَ دابر الكافرين.

وكان دخولُ السلطان دار مُلْكه، وعَوْدَه إلى أريكة سلطانه، وحلوله بمجلس أبيه وجَدّه، زوال يوم السبت المُوفى عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمئة، جعلنا الله من همّ الدنيا على حَذَرٍ، وألْهَمْنَا لِمَا يَخْلُصُ عنده من قول وعمل. وتخلّف الأميرُ وولَدُه بكرةً، أسعده الله، بمدينة فاس فيمن معه من جملة، وخلفه من حاشية ولد المُستُولي على مُلْك المغرب في إمساكه إلى أن يسترجع رُئدة في مُعارضة هدفه. ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شمله، وتَمَّ المقاصد بما عَمّه من سعده. وكان وُضُولي إليه معه، في مَحْمَل اليُمن والعافية، وعلى كِشَر التيسير من الله والعناية يوم السبت المُوفى عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمئة.

(١) أي لتشيع سلطان غرناطة المخلوع.

(٢) الجريرة: الذنب والجناية. لسان العرب (جر).

ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور:

هنا المسلمين ببركتها الوافرة، ومزاياها المتكاثرة، السلطان، أيده الله، قد مر ذكره، ويسر الله من ذلك ما تيسر.

وزراؤه: اقتضى حزمه إغفال هذا الرسم جملة، مع ضرورته في السياسة، وعظم الدخول، حذرا من انبعاث المكروه له من قبله، وإن كان قدّم بهذا اللقب في طريق مُنصرفه إلى الأندلس، وأياما من مقامه برُنْدَة، فنَحَله عن كُزّه، علي بن يوسف بن كُماشَة، من عِثاق خُدّامه وخُدّام أبيه، مُستصحبا إياه، مُسدول التَّجْمُل على باطن نُفْرَة، مختوم الجُزْم، على شوكة، في خطبه في حبل المتغلب، وإقراضه السيئة من الحسنة، والمنزل الحُشِن، إلى الإنفاق منه على الجلال الدميعة، ترأسها خاصّة الشوم، علاوة على حَمَل الشيخ الغريب الأخبار، والطمع في أرزاق الدور، والاستراية بمودة الأب، وضيق العَطَن، وقصر الباب، وعي اللسان، ومشهور الجُبْن. ولما وقع القَبْضُ، وساء الظن، بعثه من رُنْدَة إلى الباب المَرِيني ليخلي منه جُنْدَه، ويجسُ مرض الأيام، بعد أن نقل من الخُطَة كعبه، فتيسر بعد مُنصرفه الأمر، وتسنى الفتح. وحمله الجَشْعُ الفاضح، والهوى المُنْتِع، على التشطُّط لنفسه، والكَذْح لخواصته بما أقطعه الجَفْوَة، وعَسُر عليه العودة على السلطان بولده، إلى أن بلغ الخبرُ برجوع أمره، ودخول البلاد في طاعته، فألقى ما تَعَيّن إليه، وأهوى به الطمعُ البالغ في عَرْش الدولة، ويزترأس في ريق انتقامها. وتحرك وراية الإخفاق خافقة على رأسه، قُطِب مَحْلَصه، وجُوجوة عودِه، من شيخ تدور بين فُتْكه رَحَى جَعْجَعَة، وتثور بين أضلاعه حية مكيدة، ويتنق فوق مساعيه غرابُ شوم وطيرة. وحدث حرفاؤه صَرْفا من مداخلة سلطان قشتالة، أيام هذه المجاورة، فبلغ أمنيته من ضربٍ وعدٍ؛ واقتناء عهدٍ، واتخاذ مددٍ، وتَرْصيد دار قرارٍ، موهما نفسه البقاء والتعمير والتعلي، وانفساح المدّة والأمر، وقيادة الدَجَن^(١) عند تحوّل الموطِن لِمَلّة الكُفْرِ، يَسْمَح لذلك، لنقصان عقله، وقلة حيائه وضعف غيْرته. وطوى المراحل، وقبض حُمَى تَزَلُّل لها فكاؤه، أضلها الحسرة، وانتزأ الخبائث. وتلقاه بمالقة، إيعاز السلطان بالإقامة بها، لما يتصل به من سوء تصرفه، ثم أطلع شافع الحياء في استقامة وطنه طوق غثبه، وصرفه إلى منزله، ناظرا في علاج مَرَضه. ثم لما أفاق وقفه دون حده، ولم يسند إليه شيئا من أموره، فشرع في دَيْدَنه من الفساد عليه، وتمرس سلطان قشتالة، شاكيا إليه بئّه، وأصْجَر لسُكنى باديته بالثغر، فراب السلطان أمره، وأهمه شأنه، فتَقَبَّض عليه وعلى ولده، وصرفا في

(١) يقصد بهم المدجنين وهم المسلمون الأندلسيون الذين بقوا في أرضهم التي افتتحها النصارى.

جُمْلَةً من دائرة السَّوءِ ممن ثَقُلَتْ وَطْأَتُهُ، فَعَزَّبُوا إلى تونس، أوائل شهر رمضان من عام ثلاثة وستين. ثم لما قَفَلَ من الحج، واستقرَّ بِبِجَاية يُريد المغرب، حَنَّ إلى جوار النُصْرانية، التي رَمَمَ سَلْفُهُ العبودية إليها، فعبر البحر إلى بَرْجِلونة^(١)، يَنْقُضُ عَناء طريق الحج على الصُّلبان، وَيَقْفُو على آثار تَقْبِيل الحجر الأسود، تَقْبِيلَ أَيْدِي الكُفَّار. ثم قصد باب المَغْرِبِ رسولاً عن طاغية بَرْجِلونة في سبيل فسادٍ على المسلمين، فلم ينجح فيه قصده، فتقاعد لَمَّا خَسِرَ فيه ضِمَانَهُ، وَصَرَفَ وَكْرَهُ إلى الاتصال بصاحب قُشتالة، وَعَنَّ على كَتَبٍ إليه بِخَطِّهِ، يَتَنَقَّقُ عنده وَيُغْرِيه بالمسلمين، فَتُقْبَضُ عليه، وَسُجِنَ بفاس مع أرباب الجرائم. وعلى ذلك استقرَّ حاله إلى اليوم، وأبرأ إلى الله من التَّجاوز في أمره. ومن يُضِلِّل الله فما له من هاد.

ولَمَّا وَقَدْتُ على السلطان بولده، وَقَرَّتْ عيني بِلِقَائِهِ، تحت سَدَادِهِ وعِزِّهِ، وفوق أريكةٍ مُلْكِهِ، وأَذِيتُ ما يجب من حَقِّهِ؛ عَرَضْتُ عليه عَرَضِي، وَتَقَضَّضْتُ له خِزَانَةَ سِرِّي، وكاشفَتُهُ ضَمِيرِي بما عقدْتُ مع الله عهدي، وَصَرَفْتُ إلى التَّشْرِيقِ^(٢) وَجْهِي، فعَلِقْتُ بي لِرُكُومِهِ علوقُ الكرامة، ولاطَفَنِي بما عاملت البرَّ بين الدَّعَرِ والضَّنَانَةِ، ويضربُ الآماد، وخرج لي عن الضرورة، وأراني أن مُؤازرتَهُ أَبْرَ القُرْب، وراكنني إلى عَهْدٍ بِخَطِّهِ، فَسَحَ فيه لعامين أمدَ الثَّوَاءِ، واقتدى بِشُعَيْبٍ، صلوات الله عليه، في طلب الزِّيَادَةِ على تلك النُّسْبَةِ، وأشهد من حضر من العِلْيَةِ، ثم رمى إلي بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكَّم عقلي في اختيار عَقْلِهِ، وَعَطَى من جَفَائِي بِحُلْمِهِ، وَحَنَّا في وجوه شهواته ترابَ زَجْرِي، وَوَقَّفَ القبولَ على وَعْظِي، وَصَرَفَ هواه في التحولِ نَانِيًا وقصدي، واعترف بقبول نصحي، فاستعنتُ بالله، وعاملتُ وجهه فيه. وصادقني مُقَارَضَةُ الحقِّ بالجهد، ورمى إلي بِدُنْيَاهُ، وحكمني فيما مَلَكَته يده، وَعَلَّبَنِي على أمره لهذا العهد، والله غالبٌ على أمره. فأكمل المقامُ ببابه إلى هذا التاريخ مُدَّةَ أَجْرِي الله فيها، من يَمْنِ الثَّقِيْبَةِ، وأطراد السُّدَادِ، وطَرْدِ الهوى، وَرَفُضِ الزُّورِ، واسْتِشْعَارِ الجَدِّ، وتَضَحُّعِ الدِّينِ، وسَدِّ الثَّغُورِ، وَصَوْنِ الجِبَايَةِ، وإنْصَافِ المُزْتَزِقَةِ، ومُحَاوَلَةِ العَدُوِّ، وَفَرْعِ الأَسْمَاعِ بِلِسَانِ الصُّدُقِ، وإيقاظِ العُيُونِ من نوم العَقْلَةِ، وَقَدْحِ زِنَادِ الرُّجُولَةِ، ما هو معلوم، يُعْضِدُ دعواه، والله المَتَّةُ، سَجِيَّةُ السُّدَاجَةِ، وَرَفْعُ التَّسْمُتِ، وَتَكْوُّرِ المِئْسَاءِ، وَتَفْوِيتِ العَقَارِ في سبيل القُرْبَةِ، والزُّهْدِ في الزُّبْرِجِ^(٣)، وبَثِّ جِبَالِ الآمالِ، والتَّعْزِيزِ بالله عن الغَنِيْمَةِ، وجعل الثوب غطاء الليل، ومقعد المطالعة فراش

(٢) يريد أنه قصد مكة لقضاء فريضة الحج.

(١) هي برشلونة.

(٣) الزُّبْرِج: الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك، والذهب. محيط المحيط (زبرج).

الثوم، والشغل لمصلحة الإسلام، لرزيم الأنفاس، فأثمر هذا الكرخ، وأنبج هذا المسعى مناقب الدولة، بلغت أعتان السماء^(١)، وآثارا خالدة ما بقيت الخضراء على الغبراء، وأخبارا تُنقل وتُروى، إن عاندها الحاسد، فُضحه الصُّباح المنير، وكأثره القطر المُثال، وأغياه السيل المُتدافع.

فما يختص من ذلك بالسلطان، فخامة الرتبة، ونباهة الألقاب، وتجميل الرياش، وتريع الشريعة، وارتفاع الشَّجَر ببابه، والمنافسة والاعتباط منه، بمجالس التنبيه والمذاكرة، ويدارُ الديموع في حال الرِّقة، والإشادة باحتقار الدنيا بين الخاصة، وتعيين الصدقات في الأوقات العديدة، والقعود لمباشرة المظالم ستة عشر يوما في كل شهر من شهور الأهلّة، يصلُّ إليه فيها اليتيم والأزمنة، فيفرح الضعيف، ويتنظر حضور الزمن، ويتنمذ هفوة الجاهل، ويتأثر لشكوى المصاب، ويعاقب الوزعة على الأغلاط، إلى إحسان الملكة في الأسرى، والإغراب في باب الجلم، والإغياء في ترك الحظ، والتبري من سجيّة الانتقام، والكلف بارتباط الخيل، واقتناء أنواع السلاح، ومباشرة الجهاد، والوقار في الهيئات^(٢)، وإرسال سجيّة الإيمان، وكساد سوق المكيدة، والتصائم عن السعاية؛ هذا مع الشباب الغض، والفاحم الجعد، وتعدد حبال الشيطان في مسالك الغمر، ومطاردة قانص اللذات في ظلّ السُّلم، ومغازلة عيون الشهوات من ثنايا الملوك. وأيم الله الذي به تُستخلص الحقوق، وتُيسر السُّتور، وتُستوثق العهود، ولا تطمئن القلوب إلّا به؛ ما كاذبته، ولا راضيت في الهوادة طوله، ولا سامحته في نقيض هذه الخلال. ولقد كنتُ أعجب من نفاق أسواق الذكري لديه، وانتظام أقيسة النصح عنده، وإيقاع نبات الرشد فيه نصيحة، وأقول: بارك الله فيها من سجيّة، وهنّا المسلمين بها من نفس زكية. وسيأتي بيان هذه النتائج، وتفسير مُجمل هذه الفضائل بحول من لا حول إلّا به سبحانه. والحال متصلة على عهده الوثير من إعانته بالسوس والخروج له عن هذه العُهدة، والتسليم له في البقية، إرهافا لسيف جهاده، وجلّاء لمرأة نُصح، وتسوية لميزان عدله، وإهابة لمُحمد رُشده، شدُّ العقدة، عقدةً وغيره على حرمة ماله وعرضه، ورعاية للسان العِلْم المُنبئ عن شأنه، ونياحة عنه في معقل مُلكه، ومُستودع ماله وذخيرته، ومحافظة على سيره وعلايته لحرمة ولده، وعمرانا للجوانح بتفضيله وحبه، معاملة أخلص الله قصدها لوجهه، وأمحصها من أجله، ترفعه عن جِراية

(١) كلمة «السماء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليكمل المعنى والسجعة معاً.

(٢) الهيئات: جمع هيعة وهي كل ما أفرعك من صوت أو فاحشة تُشاع. محيط المحيط (هـ).

رَحَلَ هَلْأُهَا، واقطاع تَنَجَّع قدرته، أو فصلة تعبتُ البنان بنشيرها، وخُطَّة تشدَّ إليه على منشورها. والله يُزَجِّج ميزاني عنده، ويحظى وسيلتي لديه، ويحرك مكافأة سعبي في خراطر حَجَّه، وَيُنْبِه لتبليغ أُملي من حَجِّ بيت الله، وزيارة رسول الله، بمئه وكرمه، فما على استِخْثاث الأجل من قرار، ولا بَغْد الشَّيب من إعدار، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أولاده^(١): كُمَل له في هذا الوقت من الولد أربعة؛ ثلاثهم ذُكُورٌ، يوسف بكره، وأراه يتلوه سعد، ثم نصر، غِلْمة رُوقة، قد أفرغهم الله في قالب الكمال، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا مشورًا، فَسَحَّ الله لهم أَمَدَ السعادة، وجعل مساعيهم جانحةً إلى حُسنى العُقْبى، سالكا بهم سبيل الاهتداء بفضل الله ورحمته.

قضاته^(٢): قَدَم لأول قدومه، الفقيه القاضي، الحسيب، الخير، أبا جعفر بن أحمد بن جُزَي، شاكراً بلاءه بمالقة، إذ كان قد ألقاه قاضياً بها للمُتَعَلِّب، فلم يأل جهداً في الإجلاب على مَنْ اعتصم بِقَصَبِها، والتحريض على استِزْالهم، فاتخذ زُلْفَةً لديه، فأجرى الأحكام، وتوَحَّى السُّداد. ثم قَدَم^(٣) إليها الفقيه القاضي الحسيب، أبا الحسن علي بن عبد الله بن الحسن، عَيْنَ الأعيان ببلده مالقة، والمخصوص برسم التَّجَلَّة، والقيام بوظيفة^(٤) العَقْد والحلِّ بها^(٥) في الدولة الأولى، وأصالة البيت، والانقطاع إليه، ومصاحبة رِكا به في طلب المُلْك، ومُتَسَوِّر المشاق من أجله، وأولى الناس باستِدرار خلف دولته، فسَدَّد وقارب، وحَمَلَ الكُلَّ^(٦)، وأحسن فصاحة^(٧) الخطبة والخطبة، وأكرم المشيخة وأرضى، واستشعر التَّزاهة، ولم يَقِف في حُسْن التَّائِي عند^(٨) غاية، واشتمل معها لِفَق الخطابة، فأبرز وأعلم، تَسْمِيًا وجَفْظًا وَجَهْورَةً، فَاتَّفَق في ذلك على رجاحته، واستصحب نظره على الأحباس، فلم يقف في النصيح عند غاية، أعانه الله.

(١) في اللمحة البدرية (ص ١١٥): «ولده: وُلِدَ له إلى هذا العهد وَلَدٌ ذَكَرَ اسمه يوسف على اسم أبيه».

(٢) تحت عنوان «قضاته» ذكر ابن الخطيب في اللمحة البدرية (ص ١١٦) قاضياً واحداً هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسن، وقال: إن الغني بالله جَدَّدَ له أحكام القضاء والخطابة إلى أخريات شعبان من عام ٧٦٠ هـ.

(٣) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ١١٦). (٤) في النفح: «والقيام بالعقد والحل».

(٥) من هنا حتى قوله: «باستدرار خلف دولته» غير وارد في النفح.

(٦) الكل، بفتح الكاف وتشديد اللام: الضعيف. لأن العرب (كلل).

(٧) في النفح: «مصاحبة». (٨) في النفح: «على».

كُتَابُهُ^(١): أسند الكتابة إلى الفقيه المذرك، المبرز في كثير من الخلال، ملازمه أيضًا في طلب الملْك، ومطاردة قُنْص الحظ، أبي عبد الله بن زَمَرْك، ويأتي التعريف بجمعهم.

شيخ غزاته: مُتولي ذلك في الدولة الأولى، الشيخ أبو زكريا يحيى بن عمر بن رَحُو بن عبد الله بن عبد الحق^(٢)، قدّمه إليها مُغْتَبًا إياه، طاوياً بساط العدو بالجملة، قدّموها بابنه عثمان على الخاصّة يومئذ، لمظاهرتة في الوجّه، وسعيه في عَوْدَة الدّولة، واستمرّت الحال إلى اليوم الثالث عشر لشهر رمضان من عام أربعة وستين وسبعمائة، وكان القبض على جُمْلَتهم، وأجلى هذا البيت من سُفرة السياسة مدّة، مجتزئًا فيه بنظره على رسمه في الوزارة من قبيله. ثم قدّم إليها موعوده بها القديم الخدمه، وسالف الأدمه، لما لجأ إلى وادي آش مفلتًا من وَبَقَة الحادثة، الشيخ أبا الحسن علي بن بدر الدين بن موسى بن رَحُو بن عبد الله بن عبد الحق، حلف السّداد أيامه، والمقاربة والفضل والدّمائة، المخصوص على اختصار بيضن الثّقيبه، واستمرّت أيامه إلى نُقْبَة القفول عن غزوة جَيّان أخريات محرم من عام تسعة وستين، وتوفي، رحمه الله، خُتِف أنفه، فاحتُفل لمواراته، وإقرا به من تأييه، واستغفاره، والاعتراف بصدق موالاته، وتَفْجيعة لفقيده، وما أعرب به من وفاء نَجْده، وقَدَم لها عَهْدًا طُرف اختيائه، الأمين، الشّهم، البُهمه، جُذَن الشهرة، والمشار إليه بالبسالة، وفرع الملْك والأصالة، عبد الرحمن ابن الأمير أبي الحسن علي بن السلطان أبي علي عمر ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، إذ كان قد لحق به، بعد ظهور أتيح له بوطنه من المغرب، استقرّ مبايعًا بعمالة سبجلماسة وما إليها، وطن جدّه، وميراث سلفه، ففَسَح له جانب قبوله، وأخلّه من قُزبه محلّ مثله، وأنزله بين ثغر الاغتياط ونَحْره، ثم استظهر به على هذا الأمر، فأحسن الاختيار، وأعزّ الخُطة، وهو القائم عليها لهذا العهد، وإلى الله أسباب توفيقه.

ظَرَف السلطان وخُسن توقيعه:

بَذ في هذا الباب من تقدّمه، وكثرة وقوعه، بحيث لا يُعَدّ نادره، وقليلُ الشيء يَدُلّ على كثيره. مَرّ بي يومًا ومعِي ولَدُه، يروم اتخاذ حذق القرآن، فقلتُ له: أيّذك

(١) في عنوان: «كتابه» ذكر ابن الخطيب في اللّمة البدرية (ص ١١٦) أنه هو الذي أجرى للغني بالله رسم العرض والإنشاء، ثم هو نفسه قد استخدم في أخريات أيام الغني بالله كاتب الدولة التونسية الفقيه الكاتب أبا محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية.

(٢) كذا ذكره ابن الخطيب في اللّمة البدرية (ص ١١٦) وقال إن الغني بالله أقرّه على الغزاة على عهد أبيه.

الله، الأمير يريد كذا، ولا بدّ له من ذلك، وأنا وكيله عليك في هذا، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. ولا خفاء ببراعة هذا التوقيع، وغبابة مقاصده، ومجالسُه على الأيام معمورة بهذا ومثله.

الملوك على عهده: بالمغرب^(١) السلطان الجليل إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. تولى مُلك المغرب حسبما تقدم في اسمه^(٢)، وألقى إليه بالمقاليد، واستوسقت له الطاعة، وبحسب ما بئى الله من إشراب^(٣) الخلق إليه، وتعطشهم إلى لقائه، ورغبتهم في إنهاضه إلى ملك أبيه، كان انقلابهم إلى ضد هذه الخلال، شرقاً بأيامه وإحصاء لسقطاته، وولعاً باغتيابه وتربصاً لمكروه به، إذ أخفقت فيه الآمال، واستولت الأيدي من خُذامه على مُلكه. وقبض الله لإياديه أمره، وتغيّر حاله وهذا ركنه، الخائن الغادر نسمه السوء وقذار ناقة الملك، وصاعقة الوطن وخرد السيد عمر بن عبد الله بن علي^(٤) مؤتمنة على البلد الجديد، دار ملكه ومستودع ماله وذخيرته، فسد الباب دونه، وجهّز بخُلعاؤه. وفض في أثباع الناعق المشؤوم سور ماله، وأقام الدعوة باسم أخيه أبي عمر، ذي اللوثة، الميؤوس من إفاقتة، وذلك ضحوة اليوم الثامن عشر لشوال من عام اثنين وستين وسبعمائة. وبادر السلطان أبو سالم البيعة من مُتحول سكناه بقصر البلد القديم^(٥)، وصابر الأمر عامة اليوم. ولما جنّ الليل، فرّ لوجهه، وأسلم وزراءه وخاصته، وقيدت خطاه الخيرية، فأوى إلى بعض البيوت، وبه تلاحق متبوعه، فقيّد إلى مصرعه السوء بظاهر بلده، وخز رأسه، وأوتي به إلى الغادر. وكان ما بين انفصال السلطان عنه مُودّعاً إلى الأندلس بإعانتة، ومطوّق فضل تلقيه وقفوله وحسن كفالته، ثمانية أشهر ويوم واحد. واستمرت دعوة أخيه المُمَوّه به إلى الرابع والعشرين من صفر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة،

(١) ضمن العنوان نفسه جاء في اللمحة البدرية (ص ١١٧): أن سلطان المغرب في عهد الغني بالله هو أبو عنان فارس بن أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، وولي بعده ولده السعيد أبو بكر.

(٢) المراد إبراهيم بن أبي الحسن بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

(٣) الإشراب: المحبة؛ يقال: أشرب فلان حبّ فلانة، أي خالط قلبه. وأشرب قلبه محبة هذا: أي حلّ محلّ الشراب. لسان العرب (شرب).

(٤) في اللمحة البدرية (ص ١١٨ - ١١٩): «عمر ابن الوزير عبد الله بن علي البياني».

(٥) البلد القديم هو مدينة فاس القديمة، والبلد الجديد هو ضاحية أنشأها بنو مرين بجوار مدينة فاس.

واستدعي من باب قُشتالة الأمير محمد أبو زيان ابن الأمير أبي زيد بن عبد الرحمن ابن السلطان المعظم أبي الحسن. وقد استقر نازعاً إليه أيام عمه السلطان أبي سالم، وقع عليه اختيار هذا الوزير الغادر، إذ وافق شئ تغلبه طبق ضعفه^(١)، وأعمل الحيلة في استجلابه، فوصل حسب غرضه، وأجريت الأمور باسمه، وأعيد أخوه المعتوه إلى مكانه، واستمرت أيام هذا الأمير مغلوباً عليه، مغرئ بالشراب على فيه وبين الضحج إلى أن ساءت حاله، وامتلات بالموجدة على الوزير نفسه، فعاجله بحتفه، وبأشر اغتياله، وأوعز إلى خدامه بخنقه، وطرحه بحاله في بعض سواقي قصره، مُتبعاً ببعض أواني خمره، يومئذ بذلك قاتله، تربيته سكرًا، وهويه طفوحًا. ووقف عليه بالعدول عند استخراجيه، ونذب الناس إلى مواراته، وبائع يومه ذلك أبا فارس عبد العزيز وارث ملك أبيه السلطان أبي الحسن، المنفرد به، وخاطب الجهات بدعوته، وهو صبيٌّ ظاهر النبل والإدراك، مشهور الصون، وأعمل الحيلة لأول أمره، على هذا الوزير مخيف أريكة مُلكه، ومظنة البدا في أمره، فطرقه الحمام واستأصل ما رزاه من مال وذخيرة، شكر الله على الدولة صنيعة، وفي ذلك يقول: [الطويل]

لقد كان كالحجاج في فتكاته تحاذره البراء دوماً وتخشاؤه
تغدى به عبد العزيز مبادراً وعاجله من قبل أن يتعشأه

وكان بعده وليه الحق ونصيره لا إله إلا هو. وهو اليوم ملك المغرب، مزاحماً بابن أخيه، السلطان أبي سالم، المعقود البيعة بمراكش وما إليها، جمع الله شتات الإسلام، ورفع عن البلاد والعباد مضرة الفتنة.

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى ابن الأمير أبي يعقوب يوسف^(٢) بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان. حسبما كان في الدولة الأولى، متفقها منه على خلال الكرم والحزم، مضطلماً بأمره والقيام على ما بيده.

وبتونس^(٣)، الأمير أبو سالم إبراهيم ابن الأمير أبي يحيى بن أبي حفص، حسبما تقدم ذكره.

(١) أخذه من المثل: «رَأْفَقَ شَيْئٌ طَبَقَةً». وشئ هو رجل من ذُهاء العرب، وطبقة بنته، يضرب للمتوافقين. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٣٥٩).

(٢) في اللوحة البدرية (ص ١١٩): «يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن».

(٣) في اللوحة البدرية (ص ١١٩): «وبلافريقية إبراهيم ابن الأمير أبي يحيى أبي بكر بن أبي حفص بن إسحق ابن الأمير أبي زكرياء».

ومن ملوك التصارى:

فبَقِشْتَالَة سلطانها المتقدم الذكر في الدولة الأولى، بِطَرَه ابن السلطان أَلْهَنْشَة^(١) بن هراندة بن شانجَه بن أَلْهَنْشَة^(٢) بن هراندة، متأكدة بينهما السلم الجَمَّة، والهُدنة المُبرمة، بما سَلَف من مظاهرتة إِيَّاه، والحرص على ما اسْتَحَانه من المغرب في أسطوله، وبعثه إليه برأسِ عدوِّه المتوثَّب على ملكه، ورؤوس أشياعه، الظالمين العُدرة، وأتباعه الفَجْرة، مستمرَّة أيامه إلى وسط شعبان عام سبعة وستين، صارفًا وجهه إلى محاربة صاحب برجلونة^(٣)، مستوليًا على كثير من قواعده الشهيرة، وقلاعه المنيعه، لما أسْلَفه به من إجازته، أخيه أُنْدَرِيْق المدعو بِالْقُنْد، ومظاهرتة حتى ساءت أحواله وأحوالُ عدوِّه، وأَوْهَنْت الحركات قوى جيشه، وأَضَعَف الاحتشادُ عَمرة أرضه، واشترَّبت القلوبُ إلى الانحراف عن دعوته، ومالت النفوس إلى أخيه، وقامت البلاد بدعوته، وتلاحقت الوجوه بجهته، ورام التمسُّك بإشيبيلية دارِ ملكه، فثار أهلها به في عام سبعة وستين. فخرج فازًا عنها...^(٤) به والسلاح يهشُّ إليه، وبعد أن استظهر بخويصته، وأخمل ما قَدَّر عليه من ذخيرة، ورفع من له من ولدٍ وحرمة، رأى سُخنة العين من انتهاب قصوره، وتَشْعِيت منازل، وعباث الأيدي في خزائنه، وأسمعه الناس من مَحْض التأنيب وأعراض الشَّمات، ما لا مزيد عليه، ولاذ بصاحب بُرْتغال، فتأى عنه جانبُه لما يجنيه أبواه من مخالفة رأي الأمة فيه، فقصد بلاد غَلِيْسِيَّة، وتلاحق أخوه أُنْدَرِيْق بحضرة إشيبيلية، فاستوى على المُلْك وطاعت لأمره البلاد، وعاجله المسلمون لأول أمره، فاستولوا على كثير من الثغور، والحمد لله.

ولما تَوَسَّد له الأمر تحوَّل لاستئصال شأفة المخلوع، فأجلى عن غَلِيْسِيَّة في البحر، واستقرَّ ببلد بَيُونَة، ممَّا وراء دُرُوب قَشْتَالَة، وانتبذ عن الخِطَّة القشتالية وأمر نفسه، ولجأ إلى ابن صاحب الأَتَكِيَّة^(٥)، وهو المعروف بِبِرَقْسِين أبي الأمير، وبين أول أرضه وبين قَشْتَالَة؛ ثمانية أيام، فقَبِلَه ولدُ السلطان المذكور، الساكن بأول ما تلقَّاه من تلك الأرض، وسَمَّرَ بينه وبين أبيه فأنكر الأب استئذانه إِيَّاه، والمراجعة في نَصْره، حَيَّةً له، وامتعاضًا للواقع. وحال هذه الأمة غريبة في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقَّة، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمد، وبين يدي العَشَاق، عادة العرب الأول. وأخبارهم في القتال غريبة، من الاسترجال والزحف على الأقدام، أميرهم ومأمورهم، والجُئُو في الأرض، أو دفنٍ ببعض الأرض في الثراب، والاستظهار في

(٢) هي مدينة برشلونة.

(٤) الأَتَكِيَّة: هي إنكلترا.

(١) في اللوحة البدرية: «ألهونش».

(٣) بياض في الأصل.

حال المُحاربة ببعض الألحان المُهَيَّجَة، ورماتهم قَسِيهِمْ غريبة جافيةً، وكلُّهم في دُرُوع، والإحجامُ عندهم، والتقهُّرُ مقدار الشُّبر ذُنْبٌ عظيم، وعَارٌ شنيع، ورماتهم يثْبُتُونَ للخيَل في الطُّراد، وحالُّهم في باب التَّحْلِيّ بالجواهر، وكثرة آلات الفضة، غريبٌ. وبعد انقضاء سبعة عَشْرَ يوماً كان رجُوعه ورجُوع البرنس المذكور معه مُصاحِبًا بأمراء كثيرين من خُثْرانهِ^(١) وقربته، وبعد أن أسلفوه مالاً كثيراً، واختص منه صاحب الأنتكيرة، بمائتي ألف دينار من الذهب إلى ما اختص به غيره، وارتهنوا فيه ولَدَه وذخيرته. وكان ينفق على نفسه وجيشه بحسب دينارٍ واحد من الذهب للفراس في ثلاثة أيام. وكان تأليف الجيوش في بَنِيْلُوْتَة في أزيد من ثلاثين ألفاً، وعَسَر عليهم المجازُ على فحَص أحدونه، لبلاد تُمسك لطاعة القُنْد أخيه؛ فصالح القوم صاحب نَبَاَرَه^(٢) على الإفراج لهم، ونزلت المحلات في قَحْص نَبَاَرَه، ما بين حدود أرض نَبَاَرَه وقُشتالة، ونزل المُتَصَيِّر إليه أمر قُشتالة، القُنْد بإزائها في جموع لم تنتظم لمثله، إلا أنه لشهامته واغتراره، أجاز خندقاً كان بين يديه، وعبر جِسْراً نُشِب فيه عند الجَوْلَة. وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس إبريل العجمي، وبموافقة شعبان من عام ثمانية وستين. وكان هذا الجَمْع الإفرنجي الآتي من الأرض الكبيرة^(٣) في صفوف ثلاثة، مرتبة بعضها خلف بعض، ليس فيهم فارسٌ واحد، إنما هم رجالة، سواء أميرهم ومأمورهم، في أيديهم عصي جافية في غِلظ المعاصم؛ يَشْرَعُونَهَا أمامهم، بعد إثبات زجاجها^(٤) فيما خلفهم من الأرض، يستقبلون منها وجوه عدوهم، ونحو حَيْلَه، ويجعلونها دعائم وتُكَات لبناء مصافهم، فلم تُثْقِلْهم المحلات، وبين أيديهم من الرُماه النَّاشِبة الذارعة، ما لا يُحصيهم إلا الله عز وجل. وسائرهم السلطان، مُستدعى نُضْرهم راجلاً أميلاً برأيهم؛ إلى أن أعيأ بعد ميلين منها فأكبره بغلة حَمَلوه بينهم عليها، إلى موقف اللقاء والقُنْد، وكان على مقدمة القوم الدك أخو البرنس، والبرنس مع السلطان مُسْتَجِيره في القلب، والقُنْد المعروف بقُنْدَار مانيان، وكثير من الأمراء؛ ردى وسيفه دونهم، ومن خَلْف الجميع الخيلُ بِجَنْبِهَا ساستهم وغلمائهم وخُدامهم، ووراءها دوابُّ الظَّهْر وأبغالهم، وفي أثناء هذه العَبِيَّة من البنود وآلات الحرب والطرب والأبواق ما يطول ذكره. وكان في مقدمة القُنْد المُسْتَأْثَر بِمُلْك قُشتالة؛ أخوه شائجه في رَجَل قُشتالة، قد ملأ السَّهْل والجَبَل، ومن خلفهم أولو

(١) الخُثْران: جمع خاتر أو خُثَار، وهو المخادع، لسان العرب (خثر).

(٢) نَبَاَرَه: بالإسبانية Navarra وهي بلاد البشكس، وعاصمتها بنبلونة.

(٣) المراد بالأرض الكبيرة فرنسا.

(٤) الزَّجَاج: جمع زُج وهو الحديد التي في أسفل الرمح. محيط المحيط (زجاج).

الخييل الجافية القبيلية، المُسَبَّغَةُ الدُّرُوع، من رأس إلى حافر، في نحو ألف وخمسمائة، وفي القلب أخوه الآخر دَنْطِيَّة في جمهور الزُعماء والفرسان والدُّرُق، وهو الأكثر من رجال الجيش اليوم، ومن ورائهم السلطان أُنْدَرِيْق في لفيْف من الناس. ولما حمل بعضهم على بعض أقدم رِماةُ الْفِرَنْج، ثَقَّةٌ بدرُوعهم، فعظَّم أثرهم فيمن بإزائهم من رِماةِ عدوهم ورجالهم، لكونهم كَشْفَاء، فكشفوا إياهم. وحملت خيل قشتالة الدَّارعة، فزحزحت كُرَّ المَصَافِ الْإِفْرَنْجِي، واتصل الحرب بالبرنس، وهو مطلقٌ عليهم في رِزْوَة، فصاح بهم بحيث أسمع، وتناول شيئاً من التراب فاستفقه، وكسر ثلاث عَصِيي، وفعل مَنْ معه يثل فعله، وهي عادتهم عند الغضب، وعلامةُ الإقدام الذي لا نكوصَ بعده. ووجه إلى أخيه في المقدمة، يقول له: إن وجدت في نفسك ضعفاً، فاذكر أنك ولدُ صاحب الانتكيرة. وحمل الكلُّ حملةً رَجُلٍ واحدٍ، فلم تجد الخيلُ الدَّارعة سبيلاً، وقامت في نحرها تلك الأسيئة، فولَّوا منهزمين.

ولما رأى القُنْد هزيمة أخيه، تقدَّم بنفسه بمن معه من مدد الأمة الرَغُونِيَّة^(١)، وهو ينادي: يا أهل قشتالة، يا مَوَالِي، إياكم والعار، هاأنذا، فلم يثبت أمره، وتراجع قُلُّه. فعند ذلك فر في أربعة من أولي ثقته، واستولى القَتْلُ والأشْرُ على خاصته، وتردَّى المنهزمون في الوادي خلفهم، فكان ذلك أعْوَن الأسباب على هَلْكهم، فأناف عددٌ مَنْ هلك في هذه الواقعة، حسبما اشتهر، خمسين ألفاً. وامتلات أيدي هذه الأمة من الأسلحة والأموال والأمتعة والأسرى الذين يُفادونهم بمال عظيم، واتصل القُنْد المنهزم بأرض رَغُون، ثم نَجَم من البلاد الفرنسية، ودخل أخوه بهذه الأمة أوائل البلاد معترفاً بحميد سَغيهم، وعزیز نَصْرهم، وقد رابه استيلاؤهم، وأوجسَه تغلبهم، وساء في الأرض الرُّعادة عيائهم فاستأذنهم في اللُّحُوق بقواعد أرضه، وقَبْض الأموال التي تجبي منها نفقاتهم، وقَبْض منها ديونهم قَبْلَه. وحثَّ السَّير، فوصل طُلَيْطَلَة، لا يُصدَّق بالنجاة، وخاطب السلطان المُترجم به، وقدَّر وده، وحذَّره سَوْرَة هذه الأمة التي فاض بَحْرُها وأعايا أمرُها، وأنهى إليه شرُّها، وشَرِه إلى استيصال المسلمين، وحذَّ له مواعِدَها التي جُعِلت لذلك. ووصل إشبيلية؛ واثالثت البلاد عليه، وعادت الإيالة إلى حُكْمه، ثم شرع في جعل الضرائب، وفرض الأموال، وأخاف الناس بالطَّلَب والتُّبْعَات، فعاد نفورُهم عنه جَزَعاً، وامتنعوا من العَرْم، وطرَدوا العُمال، وأحسن

(١) نسبة إلى رَغُون، وهي مملكة أراجون Aragon في الشطر الأعلى - إلى الجنوب الشرقي من

بالشَّرِّ، فتحصَّن بإشيلية وجهاتها على نفسه، وطال على الأمة الواصلة في سبيل نَصْرِهِ الأَمْرُ. فرجعت إلى بلادها، ووقيت نُفْرة الفرسان، وأولي الأتباع، وأظهروا الخلاف، وكشفت جَيَّان وجهها في خلعانه، والرُّجوع إلى دعوة أخيه المُتَصَرِّف، فتحرَّك إليها السلطان المترجمُ به، بعد أن احتشد المسلمين، فكان من دخولها عَنُوةً، واستباحة المسلمين إياها وتخريبها، ما هو مذكور في موضعه. ثم ألحقت بها مدينة أُبْدَة، الذاهبة في مخالفة مذهبها والحمد لله. وخالفت عليه قرطبة، واستقر بها من الكبار جُملة، كاتبوا أخاه، واستعجلوا، فتعرَّف في هذه الأيام، أنه قد بلغ أرض بُرْعَش، وناز الفتنة بينهم، ويد الإسلام لهذا العهد، والمُنية لله، وحده غالبية.

وإنما مددنا القول في ذكر هذه الأحوال الرومية، لغرابة تاريخها، وليستشعر الحذر، ويُؤخذ من الأمة المذكورة وغيرها، والله ولي نصر المؤمنين بفضله. وبأرض رَعُون سلطانها الكائن على الدولة الأولى.

بعض مناقب الدولة لهذا العهد:

وأولا ما يَرُجَع إلى مناقب الجِلم والكَظَم من مآزق الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس.

فمن ذلك أن السلطان لما جَرَت الحادثة، وَعَظَه التمهيص، وألجا إلى وادي آش، لا يملك إلا نفسه في خبر طويل، بادر إلى مخاطبة ثقته بقصبة ألمرية، قلعة المُلْك، ومظنة الامتناع، وبهاد السلامة، ومَخَزَن الجباية والعُدَّة، وقد أصبح محلُّ استِقْراره، بينها، وبين المُنتزى سِداً، وبيعة أهلها لم ينسخ الشرع منها حُكماً يناشده الله في رَمَقه، ويتملقه في رَغِي دُمته، والوفاء له، وإبراء غُرْبته، وتمسكه من أمانته، فردَّ عليه أسوأ الردِّ، وسجن رسوله في المُطَبَّق، وخرج منها لعدوّه، وناصح بعد في البَغْي عليه. فلما ردَّ الله الأمر، وجَبَرَ الحق، أغتَب وأجرى عليه الرِّزْق. ولما ثار في الدولة الثانية الدليلُ البركي^(١)، هاتفاً بالدعوة لبعض القرباء، وأخذ به الله، وعقَّه الشيطان بعد نُشْر راية الخلاف، وجَعَلَ للدولة، علوَّ اليد، وحسنَ العاقبة، وتمكَّن من المذكور، أبقى عليه، وغلب حكم المصلحة العامة في استحيائه، وهو من مُغْرِبَات الجِلم المبني على أساس الدين، وإيتغاء وجه الله.

ولما أجلي عن الترتيح من القرباء، بعد تَقَرَّب التهمة، وغَمَس الأيدي في المعصية، صُرفوا إلى المغرب صَرَف العافية، وأجرى على مَنْ تخلفوه عوائد

(١) الدليل البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة الغني بالله.

الأرزاق، ومرافق المواسم، ووعد ضعفاءهم بالإزفاد، وتجوفي عما يزجج للجميع من عَقَار ورباع، وأسعفت آمالهم في لحاق ذويهم من أهل وولد.

ومما يرجع إلى عوائد الرفق، ومرافق العدل من مازق في جهاد النفس، وقوف وكيل الدولة، مع من يجاور مُستخلص^(١) السلطان من العامرين^(٢) ومما ولي الفلاحة، وقد ادعوا أضرارًا، يجره الحوار بين يدي القاضي بالحضرة، حتى بعد مُنقطع الحق، على ما يخص السلطان من الأصول التي جرّها الميراث عن كريم السلف. ولا كفضية التاجر المعروف بالحاج اللباس، من أهل مدينة وادي آش، وقد تحصّلت في داره، من قبل التاجر المذكور جارية من بنات الروم، في سبيل تفوت الذمم، ومُسْتَهْلَك المَتَوَلَّات، وترقت إلى تربية ولده، وأصبحت بعض الأظَار^(٣) لأمرائه، واتصل بها كلفه، وزاد هيمائه، وغشي مدافن الصالحين من أجلها، وأنهيت إليه خبره وبثه، وقزرت عنده شجوه، وألمعت بما يُنقل في هذا الباب عن الملوك قبله، فبادر إلى إخراجها من القصر بنفسه، وانتزاعها من أيدي الغبطة، انتزاع القهر، بحاله في جميل الزبي، فمكنت منها يد عاشقها الداهل، وقد خفت نفسه، وسكن جسده، وكاد لقاؤه إياها أن يقضي عليه. ونظائر هذا الباب متعددة.

ومن مواقف الصدق والإحسان من خارق جهاد النفس، بناء المارستان الأعظم، حسنة هذه التحوم القصوى، ومزية المدينة الفضلى. لم يهتد إليه غيره من الفتح الأول، مع توفر الضرورة، وظهور الحاجة، فأغرى به همّة الدين، ونفس التقوى، فأبرزه موقف الأخدان^(٤)، ورحلة الأندلس، وفذلكة الحسنات، فخامة بيت، وتعدد مساكن، ورخب ساحة، ودور مياه، وصحة هواء، وتعدد خزائن ومتوضآت، وانطلاق جارية، وحسن ترتيب، أبر على مارستان مصر^(٥)، بالساحة العريضة، والأهوية الطيبة، وتدقق المياه من فورات المرمل، وأسود الصخر، وتموج البحر، وانسدال الأشجار، إلى موافقة إياي، وتسويغه ما اخترعته بإذنه، وأجزئته بطيب نفسه، من اتخاذ المدرسة والزاوية، وتعيين التربة، مُغيرًا في ذلك كله على مقاصد

(١) المراد بمستخلص السلطان: الأملاك السلطانية الخاصة.

(٢) العامريون: هم الذين يفلحون الأرض ويعمرونها. لسان العرب (عمر).

(٣) الأظَار: جمع ظَر، والظَر: المرضعة غير ولدها، وظَر الرجل: ابنه من الرضاع. لسان العرب (ظار).

(٤) الأخدان: جمع خَدْن وهو الصاحب والرفيق والصديق. محيط المحيط (خدن).

(٥) أغلب الظن أنه المارستان المنصوري الكبير الذي أنشأ السلطان المنصور بن قلاوون سنة

الملوك، نقشاً عليه، بطيب اسمه في المزيد، وتخليد في الجُدُرات للذكر، وصوتاً للمدافن غير المعتادة، في قلب بلده بالمقاصر والأصونة، وترتيل التلاوة، آناء الليل^(١)، وأطراف النهار. وكل ذلك إنما يُنسب إلى صدقاته، وعلو همته. ويشهد بما ينه الحس إلى المثقبة العظمى؛ في هذا الباب، من إمداد جبل الفتح، مع كونه في إيالة غيره، وخارج عن مُلكة حُكمه، وما كان من إعانتته، وسد ثغره، فانهار إليه على خطر السرى، والظهر البعيد المسعى، ما ملا الأهواء، وقطع طمع العدا، أنفقت عليه الأموال، ما إن مفاتحه لتنوء بالعضبة أولى القوة، بُودر بذلك، بين يدي التفاوض، بنزول العدو إياه، فكان الكرى^(٢) على إيصال الطعام إليه، بحساب درهم واحد وربع درهم للرطل من الطعام، منفعة فذة، وحسنة كبرى، وبدعاً من بدع الفتوى.

وفي موقف الاستعداد لعدو الإسلام، من خارق جهاد النفس، إطلاق البنى^(٣)، للمدة القريبة، والزمان الضيق، باثنين وعشرين تُغرّاً من البلاد المجاورة للعدو، والمشاركة الحدود، مع أراضيه، المترامية النيران لقرب جوابه، منها ثغر أُرجدونة^(٤)، المستولي عليه الخراب، أنفق في تجديد قصبته؛ واتخاذ جُبه، ما يناهز عشرين ألفاً من الذهب، فهو اليوم شجى العدو، ومُعْتَصَم المسلمين، وحصن أثير، وما كان من تحصين جبله بالأسوار والأبراج، على بعد أقطاره، واتخاذ جباب الماء به، واحتفار السانية^(٥) الهائلة برَبْضه، ترك بها من الآثار ما يشهد بالقوة لله، والعناية بالإسلام. ثم ختم ذلك بنديد حصن الحمراء، رأس الحضرة، ومَقِيل الإسلام، ومَفْرَع المُلْك، ومَقِيد الأيدي، وصوان المال والذخيرة، بعد أن صار قاعاً صفصفاً، وخراباً بَلْقَعاً، فهو اليوم عروسُ بُجلي المَهْضَب، ويغازل الشهب، سكن لمكانه الإزجاف، وذوت نجوم الأطماع، ونقل إليه مال الجباية، الْمُتَقَضِّل لهذا العهد، بحسب التدبير، ونفد الخراج، وصون الألقاب، وقمع الخزانة بما لم يتقدم به عهد، من ثمانين سنة، والحمد لله، وتجديد أساطيل الإسلام، وإزاحة علل جيوش المَزَج، وعساكر البحر، فهي لهذا العهد، مَلَس الأديم، شارعة الشبا، مُنْقَضَة جفائنها إلى مساواة الأعداء، رابكة ظهور المحاسن، قلقمة الموافق، قُدماً إلى الجهاد، قد تعدد إغزاؤها، وجاست

(١) آناء الليل: ساعاته.

(٢) الكرى: الأجر.

(٣) البنى: جمع بناء.

(٤) أُرجدونة وأرشدونة، بالإسبانية Archidona: قاعدة كورة ريه، وهي قبلي قرطبة، ومن مدنها مالقة، وتبعد عنها ثمانية وعشرين ميلاً. الروض الممطار (ص ٢٥).

(٥) السانية: الساقية.

البحر سوابحها، وتُعْرِفَتْ بركتها، والحمد لله، وأنصاب جيش الجهاد، استغرق الشهور المستقبلية، لرود الصفراء والبيضاء الأهلة إلى أكف أهلها، على الدوام، بعد أن كانت يتحيفها المَطل، وينقصها المطال، والحمد لله.

وفي مواقف الجهاد الحسي، وبيع النفوس من الله، وهو ثمرة الجهاد الأول، ما لا يحتاج عليه إلى دليل، من الجوف^(١) إلى حصن أشعر، قُبِلَ الشجر، والجارجُ المَطلُ على الإسلام، والعزم على افتتاحه، وقد غاب الناس من مساورته، وأغيا عليهم فتحه، فلزمه السلطان بنفسه، بياض يوم القَيْظ، مُحْرَضًا للمقاتلة، مُوَسِّيًا لهم، خالطًا نفسه بالمُسْتَنْقَرَة، يصابر لهيب النار، ووقع السلاح، وتعميم الدُخان، مُقْدِيًا للكلمات، مُحْرَضًا لذوي الجراح، مباشرًا الصلاة على الشهداء، إلى أن فتحه الله على يده، بعزمه وصبره، فباشر رَمَّ سورة بيده، وتحصين عَوْرته بنفسه، ينقل إليه الصخر، وينال الطين، ويخالط الفَعْلَة، لقرب محلّ الطاغية، وتوقع المفاجأة. ثم كان هذا العمل قانونًا مُطْرَدًا في غيره، وَدَيَدْنَا في سواه، حسبما نذكر في باب الجهاد.

وفي باب النصيحة للمسلمين من مآزق الجهاد الأكبر، ما صدر في هذه الدولة، من مخاطبة الكافة، بلسان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، صَدَعَتْ بذلك الخطباء من فوق أعواد المنابر، وَأَسْمَعَتْ آذان المحافل، ما لم يتقدم به عهد في الزمان الغابر.

نص الكتاب: ولَمَّا صَحَّت الأخبار بخروج الأمة الإفريقية إلى استتصال هذه البَقِيعة، والله متم نوره، ولو كره الكافرون، صدر من مخاطبة الجمهور في باب التحريض بما نصّه:

«من أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد نصر، أيده الله ونصره، وأوى أمره، وخَلَدَ مآثره، إلى أوليائنا الذين تُوقِظ من الغفلة أحلامهم، وندعوهم لما يظهّر من الارتباب إيمانهم، ويُخَلِّص لله أسرارهم وإعلانهم، يرثي لعدم إحسانهم، وخيبة قياسهم، ويفار من استيلاء الغفلات على أنوعهم وأجناسهم، ونسأل الله لهم ولنا إقالة العَثَرَات، وتخفيض الشدائد المُعْتَوِرَات، وَكَفَّ أَكْفُ العوادي المُبْتَدِرَات. إلى أهل فلانة، دافع الله عن فئتهم الغربية، وعرفهم في الذراري والحُرَم عوارف اللطائف القريبة، وتداركهم بالصنائع العجيبة، سلام عليكم أجمعين، ورحمة الله وبركاته.

(١) الجوف في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقبلة، أي الشمال. اللسعة البدوية (ص ٢٢،

أما بعد حمد الله الذي لا نشرك به أحداً، ولا نجد من دونه مُلتحداً، مبتلي قلوب المؤمنين أيها أقوى جلداً، وأبعد في الصبر مدى، ليزيد الذين اهتدوا هدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اتَّخذ من الردى، وتكفل الشفاعة لمن غدا، ضارباً هام العدا، ومجاهداً من اتخذ مع الله ولداً، والرضى عن آله الذين كانوا لسماء ملته عمداً، فلم ترعهم الكتاب الوافرة وكانوا لهم أقل عدداً، ولا هالتهم أمم الكفر وإن كانت أظهر جمعاً وأكثر عدداً، صلاة لا تنقطع أبداً، ورضى لا يبلغ مدى. فإنا كتبنا إليكم، كتبكم الله فيمن امتلأ قلبه غضباً لأعدائه وحميةً، ورمى بفكره غرض السداد، فلم يخط منه هدفاً ولا رمية. وقد^(١) اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام، ورغى الجوار والذمام، وما جعل الله تعالى^(٢) للمأموم على الإمام، فوجب علينا^(٣) إيقاظكم من مراقدكم المستغرقة، وجمع أهوائكم المفتقرة^(٤)، وتهييتكم إلى مصادمة الشدائد المُرعدة المُبرقة، وهو أن كبير^(٥) النصرانية، الذي إليه يُنقادون، وفي مَرْضاته يُصادقون ويُعادون، وعند رؤية صليبه يكون^(٦) ويسجدون، لما رأى الفتن قد أكلتهم خضماً وقضماً^(٧)، وأوسعتهم قضمًا فلم يُثبِّ لهم^(٨) عصباً ولا عظماً، ونثرت ما كان نُظماً، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، ويرفع ما طَرَق، ويرفو^(٩) ما مَزَّق الشَّتات وخَرَق، فرمى الإسلام بأمة عددها كالقَطَر^(١٠) المُثَال، والجراد الذي تضرب به الأمثال، وعاهدهم وقد حضر التمثال، وأمرهم وشأنهم الامتثال، أن يدمنوا^(١١) لمن ارتضاه^(١٢) الطاعة، ويجمعوا من^(١٣) ملته الجماعة، ويَطْلُع الكل على هذه الفئة القليلة الغربية بَغْة كقيام الساعة، وأقْطعهم، قطع الله بهم، العباد والبلاد، والطَّارف والثَّلاذ^(١٤)، وسوَّعهم الحريم المستضعف^(١٥) والأولاد، وبالله نَسْتَدْفَع ما لا نُطيقه، ومنه نسأل عادة الفَرَج، فما سُدَّتْ لديه طريقة، إلَّا أنا رأينا عَفْلة الناس مع

(١) من هنا حتى الآية الكريمة (إحدى الخسنتين) ورد في نفع الطيب (ج ٦ ص ٢٠٤ - ٢٠٥).

(٢) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٣) قوله: «فوجب علينا» ساقط في النفع. (٤) في النفع: «المفتقرة».

(٥) في المصدر نفسه: «كبير دين النصرانية». (٦) في المصدر نفسه: «يكبرون».

(٧) خضم الطعام: قطعه وأكله. والقضم: التقطيع بأطراف الأسنان. لسان العرب (خضم) و(قضم).

(٨) كلمة «لهم» ساقطة في النفع.

(٩) في الأصل: «ويرفو» والتصويب من النفع. ويرفو: يرفع. لسان العرب (رفا).

(١٠) في النفع: «القَطَر». (١١) في النفع: «يدمنوا».

(١٢) في النفع: «ارتضاه من أمته الطاعة». (١٣) في النفع: «في».

(١٤) الطارف: الجديد المستحدث. الثلاذ: القديم الموروث. لسان العرب (طرف) و(تلد).

(١٥) كلمة «المستضعف» ساقطة في النفع.

تصميمهم مؤذنةً بالبوار^(١)، وأشفقنا للذين^(٢) من وراء البحار، وقد أصبح معظمهم^(٣) في لهوات الكفار، وأردنا أن نهزهم^(٤) بالموعظة التي تكحل البصائر بميل الاستبصار، وتلهمكم الاستنصار بالله عند عدم الانتصار، فإن جبر الله الخواطر بالضراعة إليه، والانكسار، ونسخ الإغسار بالإيسار، وأنجد اليمين بانتهاه اليسار، وإلا فقد تعين في الدنيا والآخرة حظُّ الخسار، فإن مَنْ ظهر عليه عدوُّ دينه^(٥)، وهو عن^(٦) الله مضروف، وبالباطل مشغوف، وبغير العُزف معروف، وعلى الخطام المسلوب ملهوف^(٧)، فقد تله^(٨) الشيطان للجبيين، وخسير^(٩) الدنيا والآخرة، وذلك^(١٠) هو الخسران المبين. ومَنْ نفذ فيه قَدْرُ الله عن أداء الواجب وبَدَلُ المجهود، وآجر^(١١) بالعبودية وَجْهَ الواحد الأخذ المعبود، ووطن النفس عن^(١٢) الشهوات الموبقة في دار الخلود، العائدة بالحياة الدائمة والوجود، أو الظهور على عدوِّه المحشور إليه المحشود^(١٣)، صبراً على المقام المحمود، وبيعاً^(١٤) تكون الملائكة فيه من^(١٥) الشهود، حتى تعيث^(١٦) يد الله في ذلك البناء المهدوم، بقوة الله المحمود، والسواد الأعظم الممدود، كان على أمر ربه^(١٧) بالحياء المردود: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِمَّنْ عِنْدَهُ أَوْ يَأْتِيَنَا قَرِيبُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ﴾^(١٨). فالله^(١٩) الله في الهمم، فقد خبت^(٢٠) ريحها. والله الله في العقائد، فقد خفَّت^(٢١) مصابيحها. والله الله في الرجولة^(٢٢)، فقد قُلَّ حُدَّها. والله الله في الغيرة، فقد نَعَس^(٢٣) جُدَّها، والله الله في الدين، فقد طمع

-
- (١) في النفع: «البوار». والبوار: الهلاك. لسان العرب (بور).
 (٢) في النفع: «الذين المنقطع من...». (٣) في النفع: «مُضَغَّة».
 (٤) في النفع: «نهزكم». (٥) في النفع: «عدو دين الله تعالى».
 (٦) في النفع: «من». (٧) في النفع: «عنه ملهوف».
 (٨) تله: صرعه، وتله للجبين: صرعه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَتَكَلَّمُ فَلْيَجِيبْ﴾ سورة الصافات ٣٧، الآية ١٠٣. وانظر محيط المحيط (تلل).
 (٩) في النفع: «وقد خسر». (١٠) في النفع: «ذلك».
 (١١) في النفع: «وأفرد». (١٢) في النفع: «على الشهادة المبوبة دار...».
 (١٣) في الأصل: «عدوه المحشود إليه...»، والتصويب من النفع.
 (١٤) في النفع: «وبيعاً من الله تكون». (١٥) كلمة «من» ساقطة في النفع.
 (١٦) في النفع: «تعين». (١٧) في النفع: «أمره».
 (١٨) سورة التوبة ٩، الآية ٥٢. وهنا ينتهي النص في نفع الطيب.
 (١٩) النص في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٣٢). (٢٠) في النفع: «خدمت».
 (٢١) في النفع: «خبت». (٢٢) في النفع: «الرجولية».
 (٢٣) في النفع: «نعس».

العدو في تحويله . والله الله في الحريم ، فقد مَدَّ إلى استرقاقه يَدَ تأميله . والله الله في المساكن التي رَخَفَ لُسْكُنَها ، والله الله في الجملة التي يريد إطفاء نورها وسَنَها^(١) ، وقد كُمِّلَ فضلُها وتناهى ، والله الله في القرآن العظيم^(٢) . والله الله في الجيران . والله الله في الطَّارِفِ والثَّالِدِ ، والله الله في الوطن الذي توارثه الولدُ عن الوالد . اليوم تُستَأْسَدُ النفوسُ المَهِينَةُ ، اليوم يُسْتَنْزَلُ الصَّبْرُ والسَكِينَةُ . اليوم^(٣) تحتاجُ الِهَمُّ أن ترعى هذه النفوسَ الكريمةَ الذَّمَّ ، اليوم يُسَلِّكُ سبيلَ العزمِ والحزمِ والشدةِ والشَّمَمِ ، اليوم يَرْجِعُ إلى الله تعالى المَصْرُونَ ، اليوم يُفَيِّقُ من نومه الغافلون^(٤) والمغتزون ، قبل أن يتفاقمَ الهولُ ، ويحقِّقَ القولُ ، ويسدَّ البابُ ، ويحيقَ العذابُ ، ويُسْتَرْقَ بالكفر^(٥) والرقابُ ، فالنساءُ تقي بأنفسهنَّ أولادهنَّ الصغارَ ، والطُّيُورُ ترفرفُ لتحمي الأوكار^(٦) ، إذا أحست العيَاثُ^(٧) بأفراخها والإضرارُ . تمرَّ الأيامُ عليكم مرَّ السحابِ ، وذهابُ الليالي لكم ذهابُ ، فلا خبر يقضي إلى العينِ ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كَذْ إلَّا لَزِينَةٍ يُحَلِّى بها تَخَرَّ وجيد ، ولا سَمِي إلَّا في^(٨) متاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد . وبالأَمْسِ تُدْبِثُمُ إلى التماسِ رُحْمَى أو رضى^(٩) مُسْخَرِ السحابِ ، واستقالة كاشفِ العذابِ ، وسؤالِ مرسلِ الدِّيمَةِ ، ومُحييِ البَشَرِ والبهيمةِ ، وقد أَمْسَكَتْ عنكم رحمةُ السماءِ ؛ واغبرث جوانبكم المخضرةَ احتياجًا إلى بلالةِ الماءِ ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(١٠) وإليها الأكفُ تمدُّونَ ، وأبوابها بالدعاءِ تقصدونَ ، فلم يُضَجِرْ^(١١) منكم عددٌ معتبرٌ ، ولا ظَهرٌ للإنبابةِ ولا للصدقةِ^(١٢) خَبِرٌ ، وتتوقَّونَ عن^(١٣) إعادةِ الرغبةِ إلى الغنى^(١٤) الحميدِ ، والولي الذي ﴿إِنْ يَشَأْ^(١٥) يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١٦) . وأيُّمُ الله لو كان لَهَوًا لارتُقِبَتِ الساعاتُ ، وضاقَتِ المُتَسَعَاتُ ، وتزاحمت على جماله وُعُصَتِ الجماعاتُ^(١٧) . أَنْعَزُزَا على الله وهو القوي العزيز؟ وتلبسَا^(١٨) على الله وهو

(١) في النفع : «إطفاء سناها» . (٢) كلمة «العظيم» ساقطة في النفع .

(٣) في النفع : «اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذَّمَّ» .

(٤) في المصدر نفسه : «الغفلة المغتزون» . (٥) في المصدر نفسه : «الكفر الرقاب» .

(٦) الأوكار : جمع وكُر وهو عش الطائر . لسان العرب (وكر) .

(٧) في النفع : «الغَيْثُ» . (٨) كلمة «في» ساقطة في النفع .

(٩) قوله : «أو رضى» ساقط في النفع . (١٠) سورة الذاريات ٥١ ، الآية ٢٢ .

(١١) يُضَجِرُ : يسير في الصحراء . لسان العرب (صحِر) .

(١٢) في النفع : «ولا الصدقة» . (١٣) في النفع : «من» .

(١٤) في النفع : «الولي الحميد والغنيّ الدني» .

(١٥) في الأصل : «شاء» . (١٦) سورة إبراهيم ١٤ ، الآية ١٩ .

(١٧) في الأصل : «وتزاحمت على أنديته الجماعات» .

(١٨) في الأصل : «أنلبسَا» .

الذي يُعَيِّرُ الخبيث من الطيب والشَّبه من الإبريز؟ أُمُنابذة والنواصي بيده^(١)؟ أغرورًا في الشدائد^(٢) بالأمل والرجوعُ بَعْدُ إليه؟. مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده؟ ثم^(٣) يُنزل الرزق ويفيده؟ مَنْ يُزَجِّعُ إليه في المُلَمَّات؟ مَنْ يُرَجِّي في الشدائد والأزمات؟ من يوجد في المَخيا والممات؟ أفني الله شَكَّ يختلج القلوب؟ أم^(٤) غيرُ الله يدفعُ المكروه، ويُيسِّرُ المطلوب؟ تفضلون على اللجأ إليه في الشدائد، بواسمِ الجهل^(٥)، وثرّة الأهل^(٦) وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته، تمدُّ إليه الأيدي والرقاب، وتستكشف بالخضوع لعزته^(٧) العقاب، وتستعجل إلى مواعد^(٨) إجابته الارتقاب، وكأنكم أنتم^(٩) عن كَرَمِهِ قد استغفنتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه بَنَيْتُمْ. أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله وسلامه عليه من التبليغ باليسير، والاستعداد إلى دار الرحيل^(١٠) الحقِّ والمَسِير، ومُداومة الجوع، وهَجْر الهجوع، والعمل على الإياب إلى الله والرجوع؟ دَخَلَتْ عليه^(١١) فاطمة، رضي الله عنها، ويدها كسرة شعير، فقال: ما هذه^(١٢) يا فاطمة؟ فقالت: يا رسول الله، خَبَزْتُ قرصَةً، وأحببت أن تأكل منها. فقال: يا فاطمة، أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث؟ وكان ﷺ يستغفر في اليوم سبعين مرة، يلتمسُ رَحْمَةً، ويقوم وهو المغفور له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ وما تأخَّر، حتى تورَّمت^(١٣) قدماه، وكان شأنه الجهاد، ودأبه الجِدُّ والاجتهاد، ومواقف صبره تعرفها الرُّبى والرهاد. فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون؟ وإذا لم تهتدوا بهديه^(١٤) فبمن تهتدون؟ وإذا لم تُرضوه باتِّباعكم فكيف تَعْتَزُّون^(١٥) إليه وتنتسبون؟ وإذا لم ترغبوا في الاتِّصاف بصفاته غضبًا لله تعالى وجهادًا، وتقللاً من العَرَض الأدنى وسُهاذا، فبمَن ترغبون؟ فابتروا حبال الآمال، فكلَّ آت قريب، واعتبروا بِمَثَلات ما دَهَمَ^(١٦) من تقدَّم من أهل البلاد والقواعد، فذهولكم عنها غريب، وتفكُّروا في منابرها التي كان^(١٧) يعلوها واعظٌ أو خطيب، ومطيلٌ ومطيب، ومساجدها المتعددة الصفوف، والجماعات

(٢) قوله: «في الشدائد» ساقط في النسخ.

(١) في النسخ: «في يديه».

(٤) في النسخ: «أنتم».

(٣) في النسخ: «مَنْ».

(٥) في النسخ: «إليه موائد الفضل، ونزه الجهل». (٦) قوله: «ثرّة الأهل» ساقطة في النسخ.

(٧) في النسخ: «لعظمته».

(٨) في النسخ: «مواعيد».

(٩) كلمة «أنتم» ساقطة في النسخ.

(١٠) في النسخ: «والاستعداد للرحيل إلى دار الحق...».

(١٢) في النسخ: «هذا».

(١١) كلمة «عليه» ساقطة في النسخ.

(١٤) في النسخ: «به».

(١٣) في النسخ: «ورمت».

(١٥) تعتزُّون: تنتسبون إليه. لسان العرب (عزا). (١٦) قوله: «ما دهم» ساقط في النسخ.

(١٧) في النسخ: «التي يعلو عليها واعظ وخطيب».

المعمورة بأنواع الطاعات^(١)، وكيف أخذ الله فيها بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغمضوا^(٢) عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عُقْبَى جميعهم، وذهبت النعمات بعاصيهم، ومن داهن في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، واستبدلت مآذِنهم بالنواقيس من الأذان. هذا والناس ناس، والزمان زمان. فما هذه الغفلة عن من إليه الرُّجْعَى وإليه المصير؟ وإلى متى التَّساهل في حقوقه وهو السميع البصير؟ وحتى متى مَدَّ الأمل في الزمن القصير؟ وإلى متى نسيان اللُّجْأ إلى الولي النصير؟ قد تداعت الصلبان مُجْلِبَةً^(٣) عليكم، وتحزَّكت الطواغيت من كلِّ جهة إليكم. أفيَحْذَلُكم الشيطان وكتابُ الله قائم فيكم؟ وألَيْسَ الآيات تناديكم؟ لم تُنمَّ سطورها، ولا احتجب نورها، وأنتم بقايا من افْتَتَحَهَا^(٤) من عدد قليل، وصابر فيها كلَّ خَطْبٍ جليل، فوالله لو تمخَّض الإيمان، ورَضِيَ الرحمن، ما ظهر الثَّلاثُ في هذه الجزيرة على التوحيد، ولا عَدِمَ الإسلام فيها عِزُّهُ^(٥) التأييد. ولكن شمل الداء، وضَمَّ النداء، وعَمِيَت الأبصار، فكيف الاهتداء والباب مفتوح، والفضل ممنوح؟ فتعالوا نستغفر الله جميعاً، فهو الغفور الرحيم، ونستقبل مُقْبِلَ العُثْرَاتِ^(٦)، فهو الرؤوف الحليم، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قَدِمَتْ أيدينا، فقبُولُ المعاذير من شأن الكريم. سُدَّتْ الأبواب، وضَعُفَت الأسباب، وانقطعت الآمال إلا منك يا كريم^(٧)، يا فتاح، يا وهَّاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ نُصَرِّحْكُمْ وَنُبَيِّنْ لَكُمْ آيَاتِنَا﴾^(٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قِيلُوا لِلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِيَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَافِلُونَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١١). أعدوا الخيل وارتبطوها، وروِّضوا النفوس على الشهادة واغبطوها^(١٢)، فمن خاف الموت رَضِيَ بالدِّينَةِ، ولا بدَّ على كلِّ حال من المَنِيَةِ، والحياة مَعَ الدَّلِّ ليست مِنْ شَيْمٍ^(١٣) أهل العقول والنفوس السَّيِّئَةِ، واقتنوا السلاح والعُدَّة، وتعرَّفوا إلى الله في الرِّخاء يعرفكم في الشِّدَّة، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم، واستميتوا من دون أبنائكم، وكونوا كالْبَنِيَّانِ^(١٤) المرصوص

(٢) في النفع: «أَغْضَوْا عَنْهُ عَيْنَهُمْ».

(٤) في النفع: «فتحها».

(٦) في النفع: «العنار».

(٨) سورة محمد ٤٧، الآية ٧.

(١٠) سورة آل عمران ٣، الآية ١٣٩.

(١٢) في النفع: «وغيبطوها».

(١٤) في النفع: «كالبنيان».

(١) في النفع: «الطاعة».

(٣) في النفع: «متركمة».

(٥) في النفع: «عادة».

(٧) قوله: «يا كريم» ساقط في النفع.

(٩) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.

(١١) سورة آل عمران ٣، الآية ٢٠٠.

(١٣) في النفع: «شيم النفوس السيئة».

لحملات العدو^(١) النازل بِفَنَائِكُمْ، وَخُطُّوا^(٢) بالتعويل على الله وَخَدَّةً بِلَادِكُمْ، واشتروا من الله جَلَّ جلاله أبناءكم^(٣).

ذَكَرُوا أَنَّ امْرَأَةً احْتَمَلَ السَّبْعَ وَلَدَهَا، وَشَكَتْ إِلَى بَعْضِ الصَّالِحِينَ، فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِالصَّدَقَةِ فَتَصَدَّقَتْ بِرَغِيفٍ، فَأَطْلَقَ السَّبْعَ وَلَدَهَا. وَسَمِعَتْ النِّدَاءَ: يَا هَذِهِ، لُقْمَةٌ بِلْقَمَةِ، وَإِنَّا لَمَّا اسْتَوَدَّغْنَاهُ لِحَافِظُونَ. اهْجُرُوا^(٤) الشهوات، وَاسْتَذْكُرُوا الْبَاقِيَّاتِ^(٥) مِنْ قَبْلِ الْفَوَاتِ، وَأَفْضِلُوا^(٦) لِمَسَاكِينِكُمْ مِنَ الْأَقْوَاتِ، وَاخْشَعُوا لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ، وَخَذُوا نَفُوسَكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْأَزْمَاتِ، وَالْمَوَاسَاةِ فِي الْمُهْمَّاتِ، وَأَيِّقِظُوا جَفُونَكُمْ مِنَ السَّنَاتِ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ رَضَعُ^(٧) تُذِي كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ، وَجِيرَانِ الْبَلَدِ الْغَرِيبِ، وَالذِّينِ الْوَحِيدِ، وَحِزْبِ التَّمَحِيصِ، وَتَقَرُّ الْمَرَامِ الْعَوِيصِ^(٨)، فَتَفْقَدُوا مُعَامَلَتَكُمْ^(٩) مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَهْمَا رَأَيْتُمْ^(١٠) الصَّدَقَ غَالِبًا، وَالْقَلْبَ لِلْمَوْلَى الْكَرِيمِ مُرَاقِبًا، وَشَهَابَ الْيَقِينِ^(١١) ثَاقِبًا، فَيَقُوا بِعِنَايَةِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَغْلِبُكُمْ مَعَهَا غَالِبٌ، وَلَا يَنَالُكُمْ مِنْ أَجْلِهَا^(١٢) عَدُوٌّ مُطَالِبٌ، وَأَنْكُمْ^(١٣) فِي السُّتْرِ الْكَثِيفِ، وَعَصْمَةِ^(١٤) الْخَبِيرِ اللَّطِيفِ. وَمَهْمَا رَأَيْتُمُ الْخَوَاطِرَ مُتَبَدِّدَةً، وَالظُّنُونُ بِاللَّهِ مَرْتَدَّةً، وَالْجِهَاتِ الَّتِي تَخَافُ وَتَرْجُو مُتَعَدِّدَةً، وَالْغَفْلَةَ عَنِ اللَّهِ مَلَابِسُهَا^(١٥) مُتَجَدِّدَةً، وَعَادَةَ دَوَاعِي الْخِذْلَانِ دَائِمَةً، وَأَسْوَاقِ الشَّهَوَاتِ قَائِمَةً، وَاعْلَمُوا^(١٦) أَنَّ اللَّهَ مُتَّفَقٌ فِيكُمْ وَعَدَهُ وَوَعِيدَهُ فِي الْأَمَمِ الْغَافِلِينَ، وَأَنْكُمْ قَدْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. وَالتَّوْبَةُ تُرَدُّ الشَّارِدَ وَاللَّهُ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾^(١٧). وَمَا أَقْرَبُ صَلَاحِ الْأَحْوَالِ، إِذَا صَلَحَتِ الْعِزَائِمُ، وَتَوَالَتْ عَلَى حِزْبِ الشَّيْطَانِ الْهَزَائِمُ، وَخُمِلَتِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةُ فِي الْعُمُيُونِ، وَصَدَقَتْ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ الظُّنُونُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْهَيُوءَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرُقْكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُودُ﴾^(١٨).

(١) في النفع: «هذا العدو».

(٢) في النفع: «أولادكم».

(٣) في النفع: «البقية من بعد الفوات».

(٤) أفضل من الشيء: ترك منه بقية. محيط المحيط (فضل).

(٥) في النفع: «رضعاه».

(٦) في النفع: «معاملاتكم».

(٧) في النفع: «البنين».

(٨) في النفع: «فإنكم».

(٩) في النفع: «ملاسه».

(١٠) في النفع: «أولادكم».

وَتُوبُوا^(١) سِرَاعًا إِلَى طَهَارَةِ الْقُلُوبِ، وَإِزَالَةِ الشُّوبِ^(٢)، وَاقْصِدُوا أَبْوَابَ غَافِرِ الذُّنُوبِ^(٣) وَقَابِلِ التُّوبِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَوْءَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الشَّدَائِدِ، وَيُسَدُّ طَرِيقَ^(٤) الْعَوَائِدِ، فَلَا تَمْطُلُوا بِالتَّوْبَةِ أَرْزَامَكُمْ، وَلَا تَأْمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَتَغْشُوا إِيْمَانَكُمْ، وَلَا تُعَلِّقُوا مَتَابِكُمْ بِالضَّرَائِرِ^(٥)، فَهُوَ عَلَامُ السَّرَائِرِ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا مَعَاشِرَ الْأَوْلِيَاءِ^(٦) أَنْ نُنْصَحَكُمْ وَإِنْ كُنَّا أَوْلَى بِالنُّصِيحَةِ، وَنَعْتَمِدْكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الصَّرِيحَةِ، الصَّادِرَةِ - عَلِيمُ اللَّهِ - عَنْ صَدَقِ الْقَرِيحَةِ، وَإِنْ شَارَكْنَاكُمْ فِي الْعَقْلَةِ، فَقَدْ نَادَيْنَاكُمْ^(٧) إِلَى الْاسْتِزْجَاعِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَإِنَّمَا لَكُمْ لَدُنْيَا^(٨) نَفْسٌ مَبْدُولَةٌ فِي جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَتَقْدُمُ^(٩) إِلَى رَبِّكُمْ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، وَتَقْدُمُ لَدَيْكُمْ إِلَى مَوَاقِفِ الصَّبْرِ الَّتِي لَا تَرْضَى^(١٠) بِتَوْفِيقِ اللَّهِ الْفَرَارِ، وَاجْتِهَادِ فِيمَا يَعُودُ بِالْحُسْنَى وَعُقْبَى الدَّارِ، وَالِاخْتِيَارِ لِلَّهِ وَلِيَّ الْإِخْتِيَارِ، وَمُصَرِّفِ الْأَقْدَارِ. وَهَذَا نَحْنُ نَسْرِعُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى مَدَافِعَةِ هَذَا الْعَدُوِّ، وَنَقْدِي بِفُؤُسِنَا الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَالْحَرِيمَ الْمُسْتَضْعَفَ وَالْأَوْلَادَ، وَنُضَلِّي^(١١) مِنْ دُونِهِمْ نَارَ الْجَلَادِ، وَنُسْتَوْهَبُ مِنْكُمْ الدُّعَاءَ إِلَى^(١٢) مَنْ وَعَدَ بِإِجَابَتِهِ، وَتَقَبَّلَ^(١٣) مِنْ صَرَفِ إِلَيْهِ وَجْهَ إِبَابَتِهِ. اللَّهُمَّ كُنْ لَنَا فِي هَذَا الْإِنْقِطَاعِ^(١٤) نَصِيرًا، وَعَلَى أَعْدَائِكَ ظَهِيرًا، وَمَنْ أُنْتَقِمَ عَبْدُ الْأَصْنَامِ مُجِيرًا^(١٥). اللَّهُمَّ قُوْ مَنْ ضَعُفَتْ حِيلَتُهُ، فَأَنْتَ الْقَوِيُّ الْمَعِينُ، وَانصُرْ مَنْ لَا نَصِيرَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ، إِيَّاكَ^(١٦) نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نُسْتَعِينُ. اللَّهُمَّ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عِنْدَ تَزَلُّزِ الْأَقْدَامِ، وَلَا تُسَلِّمْنَا عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ أَلْقَيْنَا إِلَيْكَ يَدَ الْإِسْتِسْلَامِ. اللَّهُمَّ دَافِعْ بِمَلَائِكَتِكَ الْمُسَوِّمِينَ، [عَمَّنْ ضُيِّقَتْ أَرْجَاؤُهُ، وَانْقَطَعَ إِلَّا مِنْكَ رَجَاؤُهُ. اللَّهُمَّ هَيِّئْ لضعفائنا، وَكُلْنَا ضَعِيفٌ فَقِيرٌ، إِلَيْكَ، ذَلِيلٌ بَيْنَ يَدَيْكَ حَقِيرٌ، رَحْمَةً تُرَوِّى بِالْأَزْمَةِ وَتَشْبِعُ، وَقُوَّةً تَطْرُدُ وَتُسْتَنْبِعُ. يَا غَلَابَ الْغُلَابِ، يَا هَازِمَ الْأَحْزَابِ، يَا كَرِيمَ الْعَوَائِدِ، يَا مُفَرِّجَ الشَّدَائِدِ، رَبَّنَا أَقْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ^(١٧)]. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا^(١٨) مِمَّنْ تَبْقِظُ فَتَبْقِظُ، وَذَكَرَ

(١) ثَاب: رَجَعَ. لسان العرب (توب).

(٢) الشُّوب: المخالط من الأدران - لسان العرب (شوب).

(٣) فِي النَّفْعِ: «الذَّنْبِ». (٤) فِي النَّفْعِ: «طَرَقَ».

(٥) فِي النَّفْعِ: «بِالضَّرَائِرِ». (٦) قَوْلُهُ: «مَعَاشِرَ الْأَوْلِيَاءِ» سَاقَطٌ فِي النَّفْعِ.

(٧) فِي النَّفْعِ: «سَبَقْنَاكُمْ». (٨) فِي الْأَصْلِ: «الدُّنْيَا» وَالتَّصْرِيحُ مِنَ النَّفْعِ.

(٩) فِي النَّفْعِ: «وَتَقْدُمُ قَبْلَكُمْ إِلَى مَوَاقِفِ الصَّبْرِ...».

(١٠) فِي النَّفْعِ: «تَرْضَى بِالْفَرَارِ».

(١١) نُضَلِّي النَّارَ: نَحْتَرِقُ بِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْأَلُنَا إِلَّا عَنَّا﴾ سورة الليل ٩٢، الآية ١٥.

(١٢) فِي النَّفْعِ: «الْمَنْ». (١٣) فِي النَّفْعِ: «فَإِنَّهُ يَقْبَلُ».

(١٤) فِي النَّفْعِ: «الْإِهْتِمَامُ». (١٥) فِي النَّفْعِ: «كَفِيلًا».

(١٦) فِي النَّفْعِ: «فَإِيَّاكَ». (١٧) مَا بَيْنَ قَوْسَيْنِ سَاقَطٌ فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ.

(١٨) فِي النَّفْعِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا عَلَى تَبْقِظٍ وَتَذَكُّرٍ مَنْ قَالَ...».

فَتَذَكَّرْ، وَمَنْ ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) ﴿فَاتَّقَلَّبُوا فِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلَ لَكُمْ يَتِيمَكُمْ سُوًى وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) (١). وقد وَرَدَتْ علينا المخاطبات من قِبَل (٢) إخواننا المسلمين الذين عَرَفْنَا في القديم والحديث اجتهداهم، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم، بني مَرَيْن، أولي الامتِعاَض لله والْحَمِيَّة، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المِزْيَةِ، بعَزْمهم على الامتِعاَض لحَقِّ الجِوَار، والمُصَارَخَةِ التي تليق بالأحرار، والثُّفْرَةِ لانْهَاجِ ذِمَارِ نَبِيَّهِمْ (٣) المختار، وحركة سلطَانهم (٤) محلُّ أخينا بمن له من الأولياء والأنصار، إلى الإعانة على هؤلاء الكُفَّار، ومداغمة أحزاب الشيطان وأهل النار، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المَقْصِدِ الكريم الآثار، والسعي الضَّمِين للعزِّ والأجر والفَخَار، والسلام الكريم يخصُّكم أيها الأولياء، ورحمة الله وبركاته (٥). في الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من عام سبع وستين وسبع مائة. عَرَفْنَا الله خيرَه، صَحَّ هذا، فكان دَفَاعُ الله أقوى، وعصمته أَكْفَى. والحمد لله على عوائده الحُسْنَى.

ومن الغيرة على الدين، وتغيُّر أحوال الملحدِين، من مَآزِقِ جهاد النفس، ما وقع به العمل من إخماد البِدْع، وإذهاب الآراء المضلَّة، والاشْتِدَاد على أهل الزَيْغ والزُنْدَقَة. وقد أضاعت أرباب هذه الأضاليل الشريعة، وسُدَّتْ مضرُّهم في الكافَّة، فَيَسْلُطُ عليهم الحُكَّام، واستدعيت الشهادات، وأخذهم التَّشْرِيد، فهل تُحِسُّ منهم أحدًا، أو تسمع لهم رِكْزًا؟

وَقَيَّدَ في ذلك عني مقالات أخرى. منها رسالة «الغيرة على أهل الخيرَة»، ورسالة «حَمْلُ الجمهور على السنن المشهور». ورسالة «أَنْشَدْتُ على أهل الرَّد». فارتفع الخوض، وكسَدَتْ تلك الأسواق الخبيثة، وَصُمَّ منها الصُّدى، ووضَّح نار الهدى، والحمد لله، ولو تتبععت مناقب الهدى، لأخرج ذلك عن الغرض.

الأحداث: وفي غرة ذي الحجة كانت الثورة الشَّعْواء المُجَحِّفة بالدولة، وقد كان السلطان أَثْذِرَ بطائفة، تُداخل بعض القرابة، فعاجَلَه بالقبض عليه، وهو في محل ولايته، فَصُقِّدَ وأُخْمِلَ إلى قَصْبَةِ المِريَّة، وخاف أرباب المكيدة افتضاح الأمر، فتعجَّلوا إبراز الكامن، وإظهار الخَبِث، وتولَّى ذلك جُمْلَةٌ من بني غرون دُنَابِي بيت

(١) سورة آل عمران ٣، الآيةان ١٧٣، ١٧٤. (٢) في النفع: «من إخواننا».

(٣) في الأصل: «يَتِيمهم» والتصويب من النفع.

(٤) في النفع: «سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار، ومداغمة...».

(٥) هنا ينتهي النص في نفع الطيب.

الإديار، وقد عابهم من بني مطرون، يدور أمرهم على الدليل البركي^(١)، فأكذب الله دَعْوَتَهُمْ، بعد أن أركبوا الشيخ علياً بن نصر، ونصبوه تلقاء القلعة بباب البنود^(٢)، ودَعَوْا الناس إلى بيعته. وأخذ السلطان حَذْرَهُ، وناصبهم القتال، وأشاع العطاء، واستركب الجيش. وعمر الأسوار، فأخفق القصد، وفرّ الدليل البركي، وتقبّض على الرئيس المذكور، وجعل الله العاقبة الحسنة للسلطان.

وكان ممّا أَمَلْتُهُ يومئذ بين يدي السلطان، من الكلام المُرسَل، ما هو نصه، بعد الصُّدر: وإلى هذا فَمِمّا أفادته الفِطْرُ السليمة، والجَلَم والقضاء بالشرعية، والنقل الشرعي والسُنن المزعى، أنّ مُغالِب الحق مغلوب، ومزاحم الله مهزوم، ومكابِر البُزْهان بالجهل موسوم، ومرتع الغي مهجور، وسيف العُدوان مفلول، وحظّ الشيطان موكوس، وحزب السلطان منصور. ولا خفاء بنعمة الله علينا، التي أطردّها في المواطن العديدة؛ والهَضَبات البعيدة، والشُّبْهات غير المُيَسِّنة، والظُّلُمات الكثيفة، معلنٌ بوفور الحظّ من رحمته، وإبراز القِداح في مجال كرامته، والاختصاص بسيما اختياره، فجعلَ العصمة ليلة الحادث علينا من دون مَضْجَع أمانا، ونَهَجَ لنا سبيل النجاة بين يَدَي كسبه علينا، وسَخَّرَ لنا ظَهري الطَّريف والطريق، بعد أن فَرَّقَ لنا بحر الليل، وأوضح لنا خفيّ المسلك، وعَبَّدَ لنا عاصي الحَزَم، ودمّت غَمْر الشُّغراء^(٣)، وأزطّانا ضهوة المَنعة، وضرب وجوه الشُّرْذمة المُتَبِّعة، بعد أن ركضوا قَتِيب البراذن البادية، من خزائن إهدائنا، المَتَجَمِّلة بحلي رَكْبنا؛ وتحملوا السلاح والرياش المُختار من أثير صِلاتنا، وأبْهَرُوا الأنفاس التي طال ما رفعها إيناسنا وأبلعها الريق تَأْمِيننا، وصَبَّيُوا العَرَق الذي أفضله طعائنا، شَرِهين إلى دِمْننا، المَحْظُور بالكتاب والسُّنة، المحوِّط بسياج النِّبْية، المحصَّن عنهم بتقديم النُّعمة، وحُرْمة الأب ومُتَعَدِّد الأذمة، فجعل الله بيننا وبينهم حاجزاً، وسَدَّ لِيَأْجُوجَهُمْ من المَرْدَةِ مانعاً، وانقلبوا يعضون الأنامل الغَضّة من سُرَيْط جفاننا، ويقلبون الأَكُف التي أجذبها الدهر، ترفيعاً من المهن المُتَرَبِّة في خدمتنا، قد حالهم صِغار القَدْر، وذلّ الحَيِّية، وكَبَّحَ الله جماعتهم عن التَّفَنُّق بتلك الوسيلة. واحتلّلنا قَصْبة وادي آش، لا نملك إلّا أنفُسنا، لم يَشُبْها غشُّ الجَلّة، ولا كِياذُ الأُمّة، ولا دَنَسها والحمد لله عازُ الفاحشة، ولا وَسْمها الشُّوم في الولاية، ولا

(١) الدليل البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة، الغني بالله.

(٢) باب البنود: من أبواب غرناطة، يفصله عن قصبة الحمراء نهر حَذْرُهُ، وما يزال هذا الباب قائماً حتى اليوم. راجع نهاية الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان (ص ٢١) ومملكة غرناطة في

عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٩٤).

(٣) الشُّغراء: الأرض الكثيرة الشجر. محيط المحيط (شعر).

أحبط عمل نجابتها دَخَلَ العقيدة، ولا مرضُ السريرة، مذ سَلَمْنَا المَقَادَةَ لِمَنْ عَطَفَ علينا القلوب، وصَيَّرَ إلينا مُلْكَ أبينا من غير حَوْلٍ ولا حيلة، نرى أَنّهَا أَمْلَكَ لِحَرَمَتِنَا، وأَعْلَمَ بِمَا كُنَّا، وأَرْحَمَ بِنَا، فَتَشَبَّثَتْ بِهَا الْقَدَمُ، وَحَمَيْتْ لَنَا مِنْ أَهْلِهَا، رَعَاهُمُ اللَّهُ الْهَمَمُ، وَصَدَقَتْ فِي الذَّبِّ عَنَّا الْعَزَائِمُ، وَحَاصَرْنَا جَيْشُ الْعَدُوِّ، وَأَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ، وَظَهَرَ الْبَاطِلُ، فَبَانَ الظُّفَرُ وَالْإِسْتِقْبَالُ، وَظَهَرَتِ الْفِتْنَةُ الْقَلِيلَةُ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، فَغَلَبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَمَعَ مَا لَنَا مِنَ الضُّيْقِ، وَأَهْمُنَا مِنَ الْأَمْرِ، فَلَمْ نُطْلَقْ بِهِ غَارَةً، وَلَا شَرَّهْنَا إِلَى تَغْيِيرِ نَعْمَةٍ، وَلَا سَرَّخْنَا عَنَّا اكْتِسَاحَ عَلَى هَجْمَةٍ، وَلَا شِعْنَا لِنِسَا فِي بَيْتٍ وَلَا حُلَّةٍ، وَأَمْسَكْنَا الْأَزْمَاقَ بِبَيْسِيرِ الْحَلَالِ الَّذِي اشْتَمَلَتْهُ خَزَائِنُنَا مِنْ أَغْشَارِ وَرُكُوتٍ، وَحُظُوظٍ مِنْ زِرَاعَاتٍ، وَارْتَقَبْنَا الْفَرْجَ مِمَّنْ مَحْصُصٌ بِالشَّدَةِ، وَالْإِقَالَةِ مِمَّنْ نَبَهُ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَاللَّهُمَّ الْإِقْلَاعَ وَالتَّوْبَةَ. ثُمَّ وَقَفْنَا سَبْحَانَهُ، وَاللَّهُمَّ مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا، وَسَلِّكْ بِنَا طَرِيقًا فِي بَحْرِ الْفِتْنَةِ يَبْسَا، فِذْنَاهُ بِحَقْنِ الدِّمَاءِ، وَتَأْمِينِ الْأَرْجَاءِ، وَشَكَرْنَا عَلَى الْبَلَاءِ؛ كَشُكْرِنَا إِيَّاهُ عَلَى الْآلَاءِ. وَخَرَجْنَا عَلَى الْأَنْدَلُسِ، وَلَقَدْ كَادَ، لَوْلَا عِصْمَتُهُ، بَأَن نَذْهَبَ مَذَاهِبَ الزُّورَاءِ، وَنَسْتَأْصِلَ الشَّافَةَ^(١)، وَنَسْتَأْصِلَ الْقَرْصَةَ^(٢)، سَبْحَانَهُ مَا أَكْمَلَ صُنْعَهُ، وَأَجْمَلَ عَلَيْنَا سِتْرَهُ، إِلَى أَنْ جُزْنَا الْبَحْرَ، وَلَحِقْنَا بِجَوَارِ سُلْطَانِ الْمَغْرِبِ. لَمْ تَنْبُ عَنَّا عَيْنٌ، وَلَا شَمَخَ عَلَيْنَا أَنْفٌ، وَلَا حَمَلَ عَلَيْنَا بَرَكَبٌ^(٣)، وَلَا هَتَفَتْ حَوْلَنَا غَاشِيَةٌ، وَلَا تُزِعَ عَنَّا لِلتَّقْوَى وَالْعَفَافِ سِتْرٌ، بَلْ كَانَ النَّاسُ يُوجِبُونَ لَنَا الْحَقَّ الَّذِي أَغْفَلَهُ الْأَوْغَادُ مِنْ أَبْنَاءِ دَوْلَتِنَا، وَالضُّفَادُ بِبِرْكَاتِنَا، حَتَّى إِذَا النَّاسُ عَافُوا الصُّيْحَةَ، وَتَمَلُّوا الْحُسْرَةَ، وَبَسِمُوا الْخُسَارَ وَالْخَبِيَّةَ، وَسَامَهُمُ الطَّغَامُ^(٤) الَّذِينَ يَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارًا، وَلَا يَأْلُونَ لَشَعَائِرِهِ الْمَعْظَمَةَ احْتِقَارًا، كَلَابُ الْأَطْمَاعِ، وَعَبْدَةُ الطَّاغُوتِ^(٥)، وَمُدَبِّرُو حُجُوجِ الْجَهْلِ، وَمِيَايِسُ أَسْوَاقِ الْبُعْدِ عَنِ الرَّبِّ، وَعِرَائِسُ مَحْرَمِ الزَّيْنَةِ، وَدُودُ الْقَرْزِ، وَغَارُ النَّهْمِ الْأَعْزَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَاطِلِ، الْأَذَلَّةُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِالْحَقِّ، مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ الْمَحَاوَلَةَ، وَلَا يَلْزِمُ الصُّهُوَّةَ، وَلَا يَحْمِلُ السَّلَاحَ، وَلَا يُنْزِعُ مَجْتَمَعَ الْجِشْمَةِ عَنِ الْفَحْشَاءِ، وَلَا يُطْعِمُ الْمَسْكِينَ، وَلَا يَشْعُرُ بِوُجُودِ اللَّهِ، جَارُوا مِنْ شَقِيهِمُ الْمَحْرُومِ، عَلَى مُضْعُوفٍ مُلْتَفٍّ فِي الْحَرَمِ الْمَحْصُورِ، مُحْتَفٍ بِلُطْفِ الْمَهْدِ، مُعَلِّلٌ بِالْخِدَاعِ، مَسْلُوبُ الْجَرَاءِ بِأَيْدِيِ انْتِهَازِهِمْ، شَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَعْرُةٌ فِي وَجْهِ الدِّينِ، أَخَذَ اللَّهُ

(١) الشَّافَةُ: قَرْحَةٌ تَخْرُجُ فِي أَسْفَلِ الْقَدَمِ، وَإِذَا قُطِعَتْ مَاتَ صَاحِبُهَا، وَقَوْلُهُ: اسْتَأْصِلَ شَافَتَهُ: أَيِ أَذْهِهِ كَمَا تَذْهَبُ تِلْكَ الْقَرْحَةُ، أَوْ أَزَالَهُ مِنْ أَصْلِهِ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (شَاف).

(٢) الْقَرْصَةُ: سَاحَةُ الدَّارِ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (عَرَص).

(٣) الرِّكَبُ: الْجَمَاعَةُ مِنْ عَشْرَةِ فِصَاعِدًا. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (رَكَب).

(٤) الطَّغَامُ: أَوْغَادُ النَّاسِ، الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ فِيهِ سَوَاءٌ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (طَغَم).

(٥) الطَّاغُوتُ: اللَّاتُ وَالْعُزَّى، وَالشَّيْطَانُ، وَالْأَصْنَامُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (طَغَا).

منهم حق الشريعة، وأنصف أئمة الملة، فلم ينشئوا أن تهارشوا، فغض بعضهم، واستأصلهم البغي، وألحم للسيف، وتفنن القتل، فمن بين مجدل يوارى بأحلاس الدواب الوبرة، وغريق يزف به إلى سوء المينة، واستبينت حرمة الله، واستضيف الدين، واستبيحت المحرمات، واستبضعت الفروج في غير الرشدة، وساءت في عدو الدين الحيلة، فتحررنا عن اتفاق من أرباب الفتيا، وعزم من أولي الحرية، وتحريض من أولي الحفيظة والهمة، وتداخر من الشوكة، وتحريك من وراء البحر من الأمة، فكان ما قد علمتم من تسكين الثائرة وإشكا العديم، وإضامات الصارخ، وشغب الثأري^(١)، ومعالجة البلوى، وتدارك القطر، وقد أشقى، وكشف الضر والبأس، أما الخبوة فالتسمها، وجل الرب، واستشاط عليها جو السماء. وأما مرافق البحر ومرافده، فسدت طرقها أساطيل الأعداء. وأما الحمية، فبدها فساد السيرة، وغمط الحق، وتفضيل الأذى. وأما المال، فاضطم السفة ببيضاء وصفراءه، وكبس خزائنه حتى وقع الإدقاع والإعدام، وأقوى العامر، وافتقرت المجابي والمغابن، واغتربت جفون السيوف من حلاها، وجردتموا الآلة إلى أعلاها، والدغل المستبطن الفاضح، ويمحض الحين، وأسلمت للدواء العرصة، وتخربت الشغور من غير مدافعة، واكتسحت الجهات فلم يترك بها نافخ، ووقع القول، وحق البهت، وخذل الناصر، وتبرأت الأواصر، فحاكمتا العدو إلى النصفة، ولم نقره على الدنية، وبايناه أحوج ما كنا إلى كدحه، وأطمع ما أصبحنا في مظاهرتة على الكفار مثله، اعتزازا بالله، وثقة به، ولجأ إليه، وتوكلنا عليه، سبحانه ما أبهر قدرته، وأسرع نصرتة، وأوحى أمره، وأشد قهره. وركبنا بحر الخطر، بجيش من التجربة، ونهذنا قدما، لا نهاب الهول ولا نراقبه، وأطللنا على أحواز ربه^(٢) في الجمع القليل، إلا من مدد الضبر المفرد، إلا من مظاهره الله الغفل، إلا من زينة الحق المظلل جناح عقابه يجتاح الروح، تسد جياده بصهيل العز، المطالعة غرره بطليعة النصر. فلما أحسن بنا المؤمنون المظهرون بساحتهم انتزوا من عقال الإيالة الظالمة، والدعوة الفاجرة، وتبرأوا من الشؤمة الغاوية، والطائفة المناصبة لله المحاربة، وأقبلوا ثنيات وأفرادا، وزرافات ووحدا، ينظرون بعيون لم تزو من غيبتنا، من محيا رحمة، ولا اكتحلت بمنظر رافة، ووجوه عليها قسوة الخسف، وإشار عليها بوس الجهد، يتعلقون بأذيالنا تعلق الغريق، يثنون من الجوع والخوف أنين المرضى، ويجهشون بالبكاء، ويعلنون لله ولنا بالشكوى، فعرفناهم الأمان من الأعداء، وأول عارفة جعلونا

(١) الثأري والثأري: الضعف والركاكة، وأثار الجرح.

(٢) ربه: كورة من كور الأندلس كثيرة الخيرات. الروض المعطار (ص ٢٧٩).

عليهم، وصرفنا وجه التأمين والتأنيس، وجميل الوذ إليهم، وخارطناهم^(١) الإجهاش والرقة، ووئبنا^(٢) لهم من الذلة، واستولينا على دار الملك ببلدهم، فأنزلنا منها أخابيث كان الأشقياء مخلقوهم بها، من أخلاف لا يزال تطاً إشارهم الحدود، وتأنف من استكفائهم اليهود، واثالت علينا البلاد، وشمر الطاغية ذيله عن الجهات، وراجع الإسلام رَمَق الحياة، وحششنا السير إلى دار الملك، وقد فر عنها الشقي الغاصب، بشوكة بغيه، التي أمدته في الغي، وأجرته على حرمة الله. وقصد دار قشتالة، بكل ما صائت الحقائق من ذخيرة، وحجبت الأمهاء من خرزة ثمينة، يتوعدون المسلمين بإدالة الكفر من الإيمان، واقتياد جيوش الصليبان، وشد الحيازيم إلى تبديل الأرض غير الأرض، وسوم الدين، وطمس معالم الحق، كياداً لرسول الله في أمته، ومناصة له في حنيفيته، وتبديلاً لنعمة الله كُفراً، ولمعروف الحق نُكراً، أصبح له الناس على مثل الرضف، يرتقبون إطلال الكريهة، وسقوط الظلة، وعودة الكرة، وعقبي المعرة، والله من ورائهم محيط، وبما يعملون محيط، ولدعاء المستضعفين من المؤمنين مجيب، ومنهم وإن قعدوا في أقصى الأرض قريب. ولم نُقدم مذ حللنا بدار الملك شيئاً على مراسلة صاحب قشتالة في أمره، تناشده العهد، وتطري له الوفاء، وتناجزه إلى الحق، ونقوده إلى حُسن التلطف، إلى الذي نشاء من الأمن، فحسم الداء، واجتث الأعداء، وناضح الإسلام وهو أعدا عدوه، وحزم الدين، وهو المعطل من أذوائه، وصارت صُغرى عناية الله بناء، التي كانت العظمى، واندرجت أولاهها في الأخرى، وأنت ركائب اليمن واليمين تترى، ورأى المؤمنون أن الله لم يخلق هذا الضُفَع سدى ولا هباء عبثاً، وأن له فينا خبيثة غيب، وسر عناية، يبلُغنا إياها، ويطوقنا طرقها، لا مانع لعطائه، ولا مُعَدُّ لآلائه، له الحمد ملة أرضه وسمائه.

فمن اضطردت له هذه المعجائب، فحملته عوائق الاستقامة مزية جيوب التقوى، كيف لا يتمنى، ويدين الله بمناصحته، ويحذر عناد الله بمخالفته، ويخشى عاقبة أمره، إنها لا تُغمي الأبصار، ولكن تُغمي القلوب التي في الصدور. فقللنا أظفار المطالبة وأغضينا عن البقية وسوغنا من كشف وجهه في خزينا نعمة الإبقاء، وأقطننا رجم من قطع طاعتنا جانب الصُفح، وأدزنا لكثير ممن شح عنا ولو بالكلمة الطيبة جوربة الرزق، ووهنا ما وجب لنا من الحق، ودنا له بكظم الغيظ؛ وعمرنا الرُتب بأربابها،

(١) لم ترد هذه الصيغة في معاجم اللغة، والمراد أنهم بكوا بكاء شديداً.

(٢) وئب: أقعد على رسادة، والمراد هنا أنه أكرمهم وأقالهم من الذلة. محيط المحيط (رئب).

وجردنا الألقاب بعد خرابها، وقَبَضْنَا الجبابة مُحَمَّلَةً كَتَدَ العادة، مقودة بزمام الرِّفْق،
ممسوخاً عطفها بكف الطراعية، فبللنا صداً الجيش المَمْطُول بالأماني، المَعْلَل
بالكذب، المُسْتَعْدَم في الذب عن مجاثم الفحشاء، ومراقد العَهر، ودارينا الأعداء،
وحسمنا الداء، وظَهَرَ أمر الله وهم كارهون، إلّا أن تلك الشَّرْذمة الخبيثة أَبْقَتْ جراثيم
يفاق، ركبها انحجار العَدْر، وبَذَر بها حصيدُ الشرِّ، وأخلطوا الحقائق اللعنة ممن ساء
ظنه، وخَبَث فكره، وظنَّ أن العقاب لا يفلته، والحق لا يذره، والسياسة لا تُخْفِزُه،
قدبَت عقاربُهم، وتدارت طوافاتهم، وتَأَبَّت فسادهم، فدَبَرُوا أمراً ثَبَره الله تَثْبِيرًا،
وأوسعه خِزْيًا وبيلاً، وجفلوا يرتادون من أذيال القرابة، مَنْ اسْتَخْلَصه الشيطان
وأصبحه الخِذلان، مَنْ لا يصلح لِشيء من الوظائف، ولا يستقلُّ ببعض الكُلف،
فحركوا منهم زاهق زمانه، من شَرَّ الدَّواب الذين لا يسمعون، فأَجْرهم رُسْنه، وتوقف
وقفة العين بين الورد والصُّدر، بخلال ما أطلعنا الله طلع نَبْتِه، فعاجلناه بالقبض،
واستودعناه مَضْفِيًا ببعض الأطباق البعيدة، والأجباب العميقة، فخرج أمرهم، وخافوا
أن نحترش السعايات، صباب مكرهم، وتتبع نفاقهم، فأقدموا إقدام العير على الأُسد،
استعجالاً للحين، ورجعاً لحكم الخيار، وإقداماً على التي هي أشدُّ، تولَّى كبرها،
وكشف وجهه في معصيتها الخبيث البركي^(١) جلف التهور والخُرق، المموه بالبسالة
وهو الكَذُوب الثُّكُوث القُلُوب، تحملنا هفوته، وتغمَّدنا بالعفو قديمًا وحديثًا زلته،
وأعرضنا فيه عن النصيحة، وأبقينا له حكم الولاية، وأنسنا من نُفرتِه، وتعافنا عن
غُرَّتِه، وسوَّغنا الجرائم التي سبقت، والجرائر التي سلفت، من إفساد العهد وأسر
المسلمين، والافتيات على الشرع، والصُّدُوع بدعوى الجاهلية، فلم يفده إلّا بَطْرًا،
ولم يزدَه إلّا مَكْرًا، والخير في غير أهله يستحيل شُرًا، والنفع ينقلب ضُرًا. والتفت
عليه طائفة من الخلائق، بنو غُرُون قُرعاء الجبل والمُشامة، وأذئاب بيت الإديار،
ونفاية الشُّرار، عَزَّكَ جرأتهم مكان صهرهم البائس، ابن بطرون، الضعيف المُتَّة
السقيط الهِمَّة، الخامل التفصيل والجُملة، وغيرهم ممن يأذن الله بضلال كيدهم
وتخيب سَغِيهم، فاقتحموا البلد صبيحةً يهتفون بالناس أن قد طرق جِمامهم، وأن
العدو قد دَهَمَهم، مُلتفتين يرون أنهم في أذيالهم، وأن رماحهم تنهشهم وتنوشهم،
وسُرعانهم تَرهقهم، كأنهم سقطوا من السماء، أو ثاروا من بين الحَضَباء، ثم جالوا
في أَرْزَقَة البلد يقدفون في الصُّفاح نازَ الحُبَّاحب^(٢) ركضًا فوق الصُّخر المرصوف،

(١) الخبيث البركي: هو أحد وزراء سلطان غرناطة، الغني باله.

(٢) الحُبَّاحب: ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج، وبنار الحُبَّاحب يضرب المثل في الضعف. محيط المحيط (حب).

وخوضًا في الماء غير المرهوف. ثم قصدوا دار الشيخ البانس علي بن أحمد بن نصر، نفاية البيت، ودردى القوم، ممسوخ الشكل، قبيح اللثغ، ظاهر الكدر، لإدمان المعاقرة، مزنون بالمعاقرة والرئت على الكبرة، ساقط الهمة، عديم الدين والجشمة، مُتَنَّمَت في البخل والهلع، إلى أقصى درجات الخسة، مثل في الكذب والنميمة، معيَّب المثانة، لا يُرق بؤله، ولا يجفُّ سَلِسُه، فاستخرجوه مُبايَعًا في الخلافة، منصوبًا بأعلى كرسي الإمامة، مدعومًا بالأيدي لكونه قلقًا لا يثبت على الصهوة، مختارًا لحماية البيضة، والعدل في الأمة، مُتَنَّمًا للذب عن الحيفية السَّمْحَة، وصعدوا به إلى ربوة بإزاء قلعتنا، مُتَنَتِّرًا باب البنود^(١)، مستندًا إلى الرِيش، مطلقًا على دار الملك، قد أقام له رسم الوزارة ابن مطرون الكاري، الكسيح الدروب برسم المَسُومة، الخَرْدُ، المهيئ الحجة، فحل طاحونة الغدر، وقدر السُّوق والخيانة، واليهودي الشكل والنحل، وقرعت حوله طبول الأعراس، إشادة بخمول أمره، واستهجان آله، ونشرت عليه رايةً قال رأيها، وخاب سعيها، ودارت به زَغِيفَة من طعام مَنْ لا يُملي ولا يزيد المكا والصغير من حيله، وانبثت في سكك البلد مُتَاديه، وهتف أولياء باطله باسمه وكُتِبته، وانتجروا مواعيد الشيطان فأخلفت، ودعوا سَمَاسير الغرور فضمت، وقدحوا زناد الفتنة فصلدت وما أوارت. ولحين شعرنا بالحادثة، ونظرنا إلى مَرَج الناس، واتصل بنا ريح الخلاف، وجهير الخلعان، استعنا بالله وتوكلنا عليه، وقوضنا أمرنا إلى خير الناصرين، وقلنا: رَبَّنَا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، واستركبنا الجند، وأدغنا خَبَر العطاء، وأطلقنا بريح الجهاد، وتغيير الجِلال. وملأنا الأكف بالسلاح، وعمرنا الأبراج بالرجال، وقرعنا طبول الملك، ونشرنا ألوية الحق؛ واستظهرنا بخالصة الأمراء أولياء الدعوة، وخاطبنا فقيه الرِيش، نخبر مخبره؛ ونُسِر عَورَه، فالفينا متواريًا في وكره، مُرعيًا على دينه، مُشَفِّقًا من الإخطار برُمه، مشيرًا بَكُمه. وتفقدنا البلد، فلم تَرْتَب بأحد من أهله. فلما كَمَلت البيعة، وقُحِمت الجملة، أنهدنا الجيش، ولي أمرنا، الذي اتخذناه ظهيرًا؛ واستنبطنا مشيرًا، والتزمناه جليسا وصهيرا، ولم ندخر عنه محلا أثيرا، الشيخ الأجل، أبا سعيد عثمان ابن الشيخ أبي زكريا يحيى بن عمر بن زُخُو، مُمَهَّد الرعب بقدمه، والسَّعْد في خدمتنا بخدمه، في جيش كثيف الجملة، سابغ العُدَّة، مُزاح العِلة، وافر النَّاشِية، أخذ بباب الرِيش وشعابه، ولف عليه أطنابه، وشرع إليه أمله. ولم يكن إلَّا كَلًا ولا، حتى داسه

(١) باب البنود: أحد أبواب مدينة غرناطة، وما يزال قائمًا حتى اليوم. راجع نهاية الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان (ص ٢٩٤) ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٩٤).

بالسَّنابك، وتخلّفه مجرّ العوالي، ومجرى السوابق، وهو الجَمَى الذي لا يُتوعد، والمجدّ الذي لا يغرب، فلولا تظاهر مشيخته بشعار السّلم؛ واستظلاله بظلال العافية، لحثّ الفاقرة، ووقعت به الرّزية. وفرّ الأعداء لأول وهلة، وأسلموا شقيهم أذلّ من وتّد في قاع، وسلّخفة في أعلى يقاع، فتقبّض عليه، وأخذت الخيلُ أعقاب الغدرة أشياعه، وقيد إلينا يرُسّف في قيد المُهزم، تُعلبان مكيدة، وشكّية ضلال ومظنّة فضيحة، وأضحوكة سمر. فتضرع بين أيدينا، وأخذته الملامة، وعلاه الجيزي، وثلّ إلى المُطبّق، حتى نستدعي حكم الله في جرّمه، ونقتضي الفتيا في جريرته، ونختار في أقسام ما عرضه الوحي من قتلته. وهذأت الثائرة، والحمد لله من يومها، واجتثت شجرة الخلاف من أصلها، فالحمد لله الذي أتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّنَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١). وماذا رابهم منّا، أصغر الله مُنقلبهم، وأخزى مرّدهم، واستأصل فلّكهم؟ أولا يتبنّى أمر وارثه، ثم عوده إلينا طواعية، ثم رفعنا وطأة العدو وخزبه، ومددنا ظلال الأمن دفعة، وأنفأنا رَمَق الثغور، حين لم يجدوا حيلة إلّا ما عرفوا من أمنه، وبلوا من خيطة تسوُّغا من هذنة، وانسحبت فوق آمالهم وحریمهم من عِقّة، وأظهر الله علينا من نعمة. ربّنا أنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. اللهمّ ألبسنا سريرتنا، وعاملنا بدخلتنا فيهم، وإن كُنا أردنا لجماعتهم شراً، وفي دينهم إغماضاً، وعن العدل فيهم عدولاً، فعاملنا بحسب ما تبلوه من عقيدنا، وتستكشفه من خبيثتنا، وإن كنت تعلم صحة مُناصحتنا لسوادهم؛ واستنفادنا الجهد في إتاحة عافيتهم، ورعي صلاحهم، وتكيف آمالهم، فصل لنا عادة صنّعتك فيهم، ومسلنا طاعتهم، واهد بنا جماعتهم، وارفع بنظرنا إطاعتهم، يا أرحم الراحمين.

ولما أسفر صبح هذا الصُّنع عن حُسن العفو، واستقرّ على التي هي أزكى، وظهر لنا، لا تخاف بالله دركاً ولا تخشى، وأن سبيل الحق أنجى ومحجّته أخصى، خاطبنا كم نجلو نعم الله قبلنا عليكم، ونُشيد بتقوى الله بتأديكم، وعنايته لدينا ولديكم، ونهدي طرف صنّعه الجميل قبلنا إليكم ليكسبكم اعتباراً، فزجوا الله وقاراً، وتزيدوا يقيناً واستينصاراً، وتصفّوا العين من اختار لكم اختياراً. وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. كتب في كذا. والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

الجهاد في شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة:

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشهر الذكر، واكتسحت الماشية، وألحم السيف. وكان ثغر بُرْغَة، الفائزة به يد الكفرة، لهذه السنين القريبة، قد أهم القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبثات^(١) مدينة رُنْدَة، بحيث لا يخلص الطيف، ولا تبلغ الرسالة من الطير وغيرها إلى ناحية العدو، فوقع العمل على قصده واستعانة الله عليه، واستنفر لِمنازلته أهل الجهات الغربية من مألقة ورندة، وما بينهما، ويسر الله في فتحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلات أيديهم أثاثًا وسلاحًا ورياشًا وآلة، وطُهرت للحين مساجده، وزينت بكلمة الله مشاهده، وأنست بالمؤمنين معاهده، ورُتبت فيه الحماة والرماء، والفرسان الكماة، واتصلت بفتح الأيدي، وارتفعت العوائق، وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السبل، والحمد لله. وتوجهت بفتح الرسائل، وعظمت المنن الجلائل، وفر العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحفرة اللُونِشِيَّة، وسُدَّ الطريق المائلة، وذلك كله في العشر الأوسط لشعبان من هذا العام. ثم أجلب المسلمون في رُنْدَة في أخرياته وقصدوا باغة وجزيرة فاستنزلوا أهلها، وافتتحوها، فعظمت النعمة، وأطرد الفتح، واتسعت الجهة.

وكانت مما خطبت به الجهة المرينية^(٢) من إملائي:

المقام الذي نُبشِر به بالفتح ونحييه، ونعيد له خبر المسرة بعد أن نبديه؛ ونسأل الله أن يضع لنا البركة فيه، ونشرك مساهمته فيما نهضه من أغصان الزهور ونجنيه، ونعلم أن عزة الإسلام وأهله أسنى أمانيه، وإعانتهم أهم ما يعنيه. مقام محل أخينا الذي نعظم قدره، ونلتزم برّه، ونعلم سرّه في مساهمة المسلمين وجهزه؛ السلطان الكذا، الذي أبقاء الله في عمل الجهاد ونيتّه؛ متكفلة بنشر كلمة الله طويته، متممة من ظهور الدين الحنيف أمنيته، معظّم جلاله، ومُجَزَل ثنائه، ومؤمل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادي واعتنائه، أيد الله أمره، وأعز نصره. سلام كريم عليكم، ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله، وأصل سبب الفتوح، ومُجَزَل مواهب النصر الممنوح، ومؤيد الفئة القليلة بالملائكة والروح، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه، الآتي بنور الهدى بين الوضوح، الداعي من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح، والرضا عن آله وأصحابه، أسود السروج وحماة السروج، والمقتفين

(١) الانبثات: الانقطاع. لسان العرب (بث). (٢) المراد بالجهة المرينية بلاط بني مرين بفاس.

نهجه في جهاد عدو الله بالعين القارئة والصدر المشروح، والدعاء لمقامكم العلي بالعز الرفيع الصروح، فإننا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سُبُوح المواهب، ووضوح المذاهب، وعزة الجانِب، وظفرة الكتائب. من حمراء غرناطة حرسها الله، ونعم الله واكفة السحائب، كفيلة بنيل الرغائب، والله يصل لنا ولكم عوارف اللطائف، ويجعل الشهيد دليلاً على الغائب. وإلى هذا وصل الله إعزازكم، وحرس أخوازكم، وعَمَر بالحقيقة من أُمُراد مجازنا ومجازكم. فإننا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام، العائد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، وممكن حياة المضرات، ومخيف الطريق السابلة؛ والمسارح الآهلة، حصن بُرْغة. ويسر الله في استرجاعه، مع شهرة امتناعه، وتطهر من دنس الكفار، وأنيرت مثذنته بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار، وعجلنا ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، ووفت الأوتار أوبارها، فسار الكتاب إليكم، وأجير الأجر لم يَجِفْ عرقه، وعذر الاستعجال لاجبة طرقه. ولما عُذنا إلى حضرتنا، بعد ما حصّناه وعمّرناه، وأجزلنا نظر الحزم له وفرقناه، لم تكد البنود لمسرة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها، مرتقبة عادة الله في عونها، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالي الصنع وانفراده، بتشفيع أفراده، وذلك أن أهل رُنْدَة، حرسها الله، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان الله لجميعهم، وتولى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم بحصن برْغة، الجار المُصَاقب لها، فحميت همهم السنيّة، وهانت في الله موارد المنيّة، وتضافر العمل والنية، وظهر نُجَح المقاصد الدينية في إتاحة الفتوح الهيّة، فوجهوا نحو حصن وحبر، وهو الداين صحر المدينة ونحرها، والعدو الذي لا يفتر عن ضرّها، والحيّة الذكر التي هي مروان أمرها؛ ففتحوه بعون الله وقوته، وتهنؤا بعده سلوك الطريق، وإشاعة الريق، ومراصد الحرس، ومجلو الجرس، وأنصفوا، وانصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة، فناشبهوه القتال، وأذاقوه الوبال، وفوقوا إليه النبال، ففتح الله فتحاً هيناً، لم تُقَّت فيه للمسلمين نفس، ولا تطرّق لنصر التيسير لُبْس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتواليّة، واليمن المتقدّمة والتالية، وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المراقب، والطبول إلى قرعها عملاً من الإشارة بالواجب، وشكرنا الله على اتصال المواهب، ووضوح المذاهب، وخاطبنا مقامكم الذي نرى الصنائع متواترة بنيته الصالحة وقصده، ويُعتد في الحرب والسلم بمجده، علماً بأن هذه المسرات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ وارتياحكم إلى مثلها لا يخفى. ونحن نرقب ما تنجلي عنه هذه النكايات التي تُقَّت كبد العدو تتاليها، وتروع أحوازه وما يليها، ولا بدّ له من امتعاض يروم به صرع المترّة، ويأبى الله أن ذلك يأتي بالكرّة، والله يجعلها محركات لحثفه المرقوب، وجينه المجلوب، ويحقق حقّ القلوب، في نُصرة المطلوب، عرفناكم بما تريدون

عملاً بواجب برّكم، ومعرفةً بقدركم، وما يتزايد نعرفكم به، ويتصل سبب التأكيد والتعجيل بسببه، والسلام.

الغزاة إلى حصن أشر^(١):

وفي أوائل شهر رمضان بعده، أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشر، وهو قُفل الثغر الذي فضّه الطاغية، وسورها الذي فرغه الكفر، وجارحه المحلّق على البلاد، والمتحكم لولا فضل الله في الأموال والأولاد، فتأذن الله برد مُغتَصِبِه، والشفا من وَصْبِه، وأحاط به وناصبه الحرب، ففتح الله على يده عَنوةً، على سمو ذروته، وبعُد صِيته وشهرته، واختيار الطاغية في حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كلّها فوق كاهله، واتقاد ما حَمَد من الحِمِيّة بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من استخلاص القَصْبة وسدّ ثُلُمِها بيده، ومصابرة جو القيظ عاتة يومه، فحاز ذكراً جميلاً وحلّ من القلوب محلاً أثيراً، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة مُتَخَيِّرة، ومن الرُماة جُملة، وتخلّف سلاحاً وعُدّة، فكان الفتح على المسلمين، في هذا المَغْغِل العزيز عليهم جليلاً، والتمنّ من الله جزيلاً، والصنع كثيرًا، وصدرت المخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلي من السجع الغني.

الغزاة المُعمّلة إلى أطريرة^(٢):

في شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أطريرة بنت إشبيلية، وبلدة تلك الناحية الآمنة، مهاد الهدنة البعيدة عن الصُرْمَة، حرك إليها بعدد المدى، وآثرها بمحض الرّدى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم في العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، وناشبا الحرب واستباح المدينة وَرِيضَهَا عَنوةً، ولجأ أهلها إلى قصبتها المنيعه، ذات الأبراج المشيدة، وأخذ القتال بِمُخْتَنَقِهِمْ، وأعان الزحام على استنزالهم، فاستنزّلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ ولا اكتسحت به في هذه المدة عين، ولا تلقته عنها أذن، وامتلات أيدي المسلمين، بما لم يعلمه إلا الله، من شتى الغنائم، وأنواع الفوائد، واقتسم الناس السبي رُبْعاً على الأكفال والظهور، وتقديرًا بقدر الرجال، وحملًا فوق الظهور للفرسان، وعُمرانًا للسروج

(١) أشر: بالإسبانية Izajor، وهو حصن يقع على الضفة نهر شنبل.

(٢) أطريرة: بالإسبانية Utrera وهي مدينة تقع جنوب شرقي إشبيلية. راجع: أزهار الرياض (ج ٤

والأعضاء بالصُّبِيَّة، وبرز الناس إلى ملاقاته السلطان، في هول من العزُّ شهير من الفُخْر، وبعيد من الصبى، قُرَّت له أعينهم، وقعد لبيعتهم أياماً تباغاً، وملأ بهم البلاد هدايا وتحفاً والحمد لله، وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائي.

الغزاة إلى فتح جيان:

وفي آخر محرم من عام تسعة وستين وسبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيان، إحدى دور الملك، ومدن المَعْمود، وكرسيّة الإمارة، ولو أن المدن الشهيرة افتتحتها الله عثوة، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدُّواب والسلاح، ومكُنهم من قتل المُقاتلة، وسبني الذرية، وتخريب الديار، ومحو الآثار، واستئساد النعم، وقطع الأشجار. وهذا الفتح خارق، تعالى أن يحيط به التَّظْم والنشر. فذكره أَطير، وفخره أشهر. وصدرت في ذلك المخاطبة من إملاني إلى ملك المغرب. وأصاب الخلق عقب القُفول في هذه الغزاة، مرضٌ وافد، فشا في الناس كافة، وكانت عاقبته السَّلامة؛ وتدارك الله بلطفه، فلم يتسع المجال لإنشاد الشعراء، ومواقف الإطراء، إلى شغل عن ذلك.

الغزاة إلى مدينة أبلدة:

وفي أول ربيع الأول من هذا العام، كان الغزو إلى مدينة أبلدة، واحتلُّ بظاهرها جيش المسلمين، وأبلى السلطان في قتالها، وقد أخذت بعد جارتها جيان أقصى أهبة، واستعدت بما في الوُسع والقوة، وكانت الحرب بها مشهورة. وافتتحتها المسلمون فانتهبوها، وأغفروا مساكنها العظيمة البناء، وكنائسها العجيبة المرأى، والصقوا أسوارها بالثرى، ورأوا من سعة ساحتها، وبُعد أقطارها، وضخامة بنائها، ما يُكذِّب الخبر فيه المرأى، ويُبكِّد الأفكار، ويُخَيِّرُ التَّهْي. والله الحمد على آلائه التي لا تحصى. وقفل المسلمون عنها، وقد أخربوها، بحيث لا تَعْمُر رباها، ولا تاتلف حجورها وجموعها. وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائي بما نصه:

والى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة، بطرُه بن أذفونش بن هيراندة بن شائجه، وهو الذي تهيأ به الكثير من الصُّنع للمسلمين، بمزاحمة أخيه أندريق في الملك وتضييقه عليه، وجياز سبعة من كبار أصحابه، وأهل ملته إليه، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين، وإجلابهم على مَنْ آثر طاعته ضده، فانهزم بظاهر حصن مُثَيِّل، ومعه عدد من فرسان المسلمين، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة

ولا استعداد، فأخذ أخوه الذي هزمه بمُخَنَّفَه، وأدار على الحصن البناء، وفرّ جيشُ المحصور، فاجتمع فلُه بأحواز أبدَة، وراسلوا المسلمين في مظاهرتهم على استنقاذهم، فتوجهت القُتيا بوجوب ذلك. ووقع الاستيفار والاحتشاد حرصًا على تخليصه، ليسبب بقاءه بقاء الفتنة تستأصل الكفر، وتشغل بعض العدو ببعضه.

وفي أثناء هذه المحاولة تباطأ الحايئ المحصور بمن معه، وبعد عليه الخلاص من ورطته، ومساهمة المسلمين إياه في محنته؛ وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته، فداخل بعض أمراء أخيه وظُهرائه، ممن يباشر حصاره، وكان قومًا شهيرًا من المدد الذي ظاهره، من أهل إفرنسية، ووعد به بكل ما يطمع من مال ومَهْد، وتَوْفِيَة عهد، فأظهر له القبول، وأضمر الخديعة. ولما نزل إليه، سَجَنَه ومن لحق به من الأدلاء وأولي الحرّة بالأرض وأمسكه، وقد طير الخبر إلى أخيه، فأقبل في شِرْذِمَة من خواصه وخُدامه، فهاجم عليه وقتله، وأوسع العفو من كان محصورًا معه، وطير إلى البلاد برأسه، وأوغر الثُبن في جُثته، ولبس ثياب الحزن من أجله، وإن كان معترفًا بالصواب في قتله، وخاطب البلاد التي كانت على مثل الجمر من طاعة الجاهر بمظاهرة المسلمين، وما جَرَّ ذلك من افتتاح بلادهم، وتخريب كنائسهم، والإتيان على نِعَمهم، فأجابته ضربة، وانفقت على طاعته، فلم يختلف عليه منها اثنان، إلا ما كان من مدينة قَرْمُونَة. واجتمعت كلمة النصارى، ووقع ارتفاع شتاتهم، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين، وشاع استدعاؤهم جميع من بأرض الشرق من العدوّ الثقيل ببرجلونة^(١)، وعدوّ الأَشْبُونَة، والعدو الثقيل الوطاة بإفرانسيّة. وقد كان الله، جلّ جلاله، ألهم أهل البصائر النظر في العواقب، والفكر فيما بعد اليوم أَعْمَل. ووقع لي إذن السلطان، المُخَلِّي بيني وبين النصائح، في مخاطبة سلطان النصارى المَنكُوب لهذا العهد، فأشرت عليه بالاحتراز من قومه، والتَّقَطُّن لمكايد من يَحْطُب في حَبْل أخيه، وأرئته اتخاذ مَعْقِل يحرز ولده وذخيرته، ويكون له به الخيار على دهره، واستظهرت له على ذلك بالحكايات المتداولة، والتواريخ المعروفة، لتتصل الفتنة بأرضهم، فقبل الإشارة وشكر النصيحة، واختار لذلك مدينة قَرْمُونَة المختصّة بالجوار المُكْتَب، من دار مُلكهم إشبيلية، فشيد هضابها، وحصّن أسوارها، وملأها بالمخازن طعامًا وعُدّة، واستكثر من الآلات، واستظهر عليها بالثقات، ونقل إليها المال والذخيرة، وسجن بها رِهان أكابر إشبيلية، وأسرى المسلمين، وبالف في ذلك، فيما لا غاية وراءه ولا مطمع، ولا ينصرف إلى مصرعه الذي دعاه القَدَر إليه، حتى تركها عُدّة خلفه، وأودع

(١) هي مدينة برشلونة، عاصمة مملكة أراغون في أيام ابن الخطيب.

بها ولده وأهله، ولجأ إليها بعض من خُدَّامه ممن لا يقبل مَهْدَنَة ضده، ولا يَقَرُّ أمان عدوه، والتفوا على صغير من وَلَدِه كالتُّخْل على شَهْدِه، ولجأوا إلى المسلمين، فَبَغَضَ عليهم الكُرَّة والفتح بقاء هذا الشُّجى المُعْتَرِض في حَلْقِه، وأهمُّه تغيير أمره، وجَفَّج به المسلمون لأجله، وأظهروا لمن انحاز بقرمونة الامتسك بعهدِه، فعَظُم الحَرْق، وأظهر الله نُجج الحيلة، وصدَّق بها المُخَيَّلَة، وتَفَتَّر الأمر، وخَمَدت نار ذلك الإرجاف، واشتغل الطاغية بقرمونة، بخلال ما خوطب به صاحب الأرض الكبيرة^(١)، فطَمَعه في المظاهرة، وتَخَطَّب له مُلْك قَشْتَالَة، وعقد السِّلْم مع صاحب بُرْطُغال^(٢) والأشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم، وخرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة، وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أخوازها، وجعل الخصص مُوجَّهة قَرْمُونَة، وانصرف إلى سَدِّ الفتوق التي عليه بِلُطْف الحيلة، ببواطن أرضه، وأحشَاء عِمَالَتِه، وصار في مُلْكِه أَشْغَل من ذات الثَّحِين، فساغ الرِّيُّ، وأمكن العُذْر، وانتَهز العُرَّة، واستؤنفت الحركة، فكانت إلى حصن مُنْتِيل والحويز، ففتحهما الله في رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر رُوْطَة، ففتحها الله عن جَهْد كبير، واتصل به حصن زَمْرَة، فأَمَّن الإسلام عادية العدو بتلك الناحية، وكَبَس أهل رُنْدَة بإيعاز من السلطان إليها وإلى مَن بالجَبَل، جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقُشْتور، فبَسَّر الله فتحهما في رمضان أيضًا.

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء^(٣)، باب الأندلس، وبِكُرِّ الفتح الأول، فكانت الحركة إليها شهر ذي الحجة من العام المذكور. ووقع تحريض الناس بين يدي قصدها في المساجد بما نصَّه:

معاشر المسلمين المجاهدين، وأولي الكفاية عن ذوي الأعدار من القاعدين، أعلى الله بعلو أيديكم كلمة الدين، وجعلكم في سِوَى الأجر والفخر من الزاهدين، اعلَمُوا، رحمكم الله، أن الإسلام بالأندلس ساكن دار، والجزيرة الخضراء بائِه، ومُبعد مغار، والجزيرة الخضراء رِكاِبِه، فمن جهتها اتصلت في القديم والحديث أسبابه، ونَصَرَتِه على أعدائه وأعداء الله أحبَّائِه، ولم يشكَّ العدو الكافر الذي استباحها، وطَمَسَ بظُلْمَة الكفر صباحها، على أثر اغتصابها، واشوداد الوجوه المؤمنة لمصابها، وتبديل محاربها، وعلوق أصله الخبيث في طيِّب ثرائها، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف لا ينتعش ولا يقوم، بعد أن فُري الحُلُقُوم، وأن الباقي

(٢) برطغال: هي البرتغال Portugal.

(١) الأرض الكبيرة هي فرنسا.

(٣) راجع: أزهار الرياض (ج ٤ ص ٧٢).

رمت يذهب، وقد سُدَّ إلى التدارك المذهب، لولا أن الله دفع الفارقة^(١) ووقاها، وحَفِظَ الْمَسْكَنَةَ وَاسْتَبْقَاهَا، وإن كان الجبل^(٢) عصمة الله بنعم البقية، وبمكانه حُقَّتْ التقية، فحسبك من مصراع باب فُجِعَ بثانيه، ومُضايِقِ جَوَارِ حِيلَ بينه وبين أمانيه. والآن، يا عباد الله، قد أمكنكم الانتهاز، فلا تُضَيِّعُوا الفرصة، وفتَرَ الْمُحْتَقُ فلا تُسَوِّغْهُ غُصَّةً، وَاغْمُرُوا البواطن بحميَّةِ الأحرار، وتعاهدوا مع الله معاهد الأولياء الأبرار، وانظروا للعون من الذراري والأبكار، والنشأة الصغار، رُغِبَ الحواصل في الأكوار، والدين المنتشر بهذه الأقطار، واعملوا للعواقب: تحمدوا عملكم، وأخلصوا لله الضمان: يُبَلِّغْكُمْ من فضله أهلكم، فما غُذِرَ مَنْ سَلِمَ في باب وَكْرِهِ، وماذا ينتظر من أذعن لكَيْدَ عدوِّه ومكره. من هذه الفُرْصَةِ، دخل الإسلام تروُّعُ أسوده، ومن هذه الجهة طلع الفتح الأول تُخَفِّقُ بُنوده، ومنها تَقْتَحِمُ الطير الغريب، إذا رامت الجَواز وفُوده، فيبصر بها صافات والدليل يقوده. البابُ المسدود، يا عباد الله، فافتحوه، وَجْهَ النصر تجلَّى يا عباد الله فالْمَحْوُ، الداءُ الغُضالُ يا عباد الله فاستأصلوه، حَبْلُ الله يا رجال الله قد انقطع فصيلوه. في مثلها تَرْخُصُ النفوس الغالية، في مثلها تُخْتَبِرُ الهممُ العالية، في مثلها تُشْهِرُ العقائد الوثيقة، وتُدَسُّ الأحباس العريقة، فتَضُرُّ الله وجه من نظر إلى قلبه، وقد امتلأته حميَّةِ الدين، وأصبح لأن تكون كلمة الله هي العليا مُتَهَلِّلُ الْجَبِينِ.

اللهم إِنَّا نتوسَّلُ إليك بأسرار الكتاب الذي أنزلته، وعناية النبي العربي الذي أَوْفَدَتْ من خصوص الرِّحَمَاتِ وَأَجَزَلَتْ، وبكل نَبِيٍّ رَكَعَ لوجهك الكريم وسجد، وبكل وَلِيٍّ سَدَّه من إمدادك كما وجد، أَلَا ما رَدَّدَتْ علينا ضالَّتنا الشاردة، وهتأتنا بفتحها من نعمك الواردة، يا مُسهِّلَ المآربِ العسرة، يا جابرِ القلوب المنكسرة، يا وَلِيَّ الأمة الغربية، يا مُنْزِلَ اللطائف القريبة، اجعل لنا من ملائكة نُضْرِكُ مدداً، وأنجز لنا من تمام نُورِكَ الحقَّ موعداً. رَبُّنَا آتِنَا من لَدُنْكَ رحمةً، وهَيِّئْ لنا من أَمْرِنَا رَشْداً.

فوقع الانفعال، وانتشرت الحميَّة، وجُهزت الأساطيل. وكانت مُنازلتها يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور، وعاطاها المسلمون الحرب، فدُخِلَتْ البنية وهي المدينة الملاصقة لها عثوة، قتل بها من الفرسان الدَّارعة عِدَّة، وصُرفَت الغنائم إلى المدينة الكبرى، فأروا من أمر الله، ما لا طاقة لهم به، وخذلهم الله جلَّ

(١) الفارقة: الداهية التي تكسر الفقار، والجمع فواقر. محيط المحيط (فقر).

(٢) المقصود هنا جبل الفتح، أي جبل طارق.

جلاله، على منعة الأسوار وبُعد مهاوي الأغوار، وكثرة العدِّ والعُدَد، وطلبوا الأمان لأنفسهم، وكان خروجهم عنها يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، في العيد والسرور، برد الدين، والله الحمد على آلائه، وتوالي نعمه وإرغام أعدائه.

وفي وسط ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة، أعمَل الحركة إلى أخواز إشبيلية دار الملك، ومحل الشوكة الحادة، وبها نائب سلطان النصارى، في الجمع الخشين من أنجاد فرسانهم، وقد عظم التضيق ببلدة قَرْمُونَة، المنفرد بالانتياء على مَلِك النصارى، والانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أُشُونَة^(١)، ودخلوا جفنها غنوة، واعتصم أهلها بالقصبة، فتعاصت، واستعجل الإقلاع منها لعدم الماء المزوي والمحلات، فكان الانتقال قُدْماً إلى مدينة مَرشانة وقد أحرقوا بها، وبها العُدَّة والعديد من الفرسان الصناديد، ففتحها الله سبحانه، إلّا القصبة، واستولى المسلمون فيها، وفي جارتها، من الدواب والآلات على ما لا يأخذه الحضر، وقُتل الكثير من مُقاتلتها، وعمَّ جميعها العَدَم والإحراق، ورَفعت ظهور دواب المسلمين من طعامها ما ثَقُلَهُ أظهرُ مراكب البحار، ما أوجب في بلاد المسلمين التوسعة، وانحطاط الأسعار، وأوجب الغلاء في أرض الكُفَّار، وقفل، والحمد لله، في عزِّ وظهور، وفرح وسرور.

مولده السعيد النشيط^(٢)، الميمون الطلوع والحيثية:

المقترن بالعافية، منقولاً من تهليل نشأته المباركة، وجرَّز طفولته السعيدة، في نحو ثلث ليلة الاثنين والعشرين من جمادى الآخرة عام تسعة وثلثين وسبعمائة. قُلْتُ: ووافقه من التاريخ الأعجمي ربيع ينير من عام ألف وثلثمائة وسبعة وسبعين^(٣) لتاريخ الصُفَر. واقتضت صناعة التعديل بحسب قيمودا وبطليموس، أن يكون الطالع ببرج القَمَر؛ لاستيلائه على مواضع الاستقبال المتقدم للولادة، ويكون التخمين على ربع ساعة وعشر ساعة، وثلث عشر الساعة السادسة من ليلة الاثنين المذكورة، والطالع من بُرج السُّنبلة، خمس عشرة درجة، وثمان وأربعون دقيقة من درجة. كان الله له في الدنيا والآخرة، وحبَّبنا الله ونعم الوكيل.

(١) أُشُونَة، بالإسبانية: Osuna، وهي مدينة من كور إستمجة الأندلس. الروض المعطار (ص ٦٠).

(٢) النشيط: النشأة.

(٣) الصواب: ٢١ كانون الثاني من عام ١٣٣٨م.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجي الأنصاري^(١)

من ولد سعد بن عبادة، صاحب رسول الله ﷺ، ابن سليمان بن حارثة بن خليفة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمر بن يغرب بن يشجب بن قحطان بن هُمَيْسَع بن يُمَن بن نُبْت بن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها خدمة التَّضَرِّييين بها. يكنى أبا عبد الله، ويلقب بالغالب بالله.

أُولَيْتُهُ: وقد اشتهر عند كثير ممن عُنِيَ بالأخبار أن هذا البيت التَّضَرِّي من ذُرِّية سَعْد بن عبادة سيد الخزرج، وصاحب رسول الله ﷺ. وصُنِّف الناس في اتصال نَسَبهم بقيس بن سعد بن عبادة غير ما تصنيف. وأقوى ما ذُكِر قول الرَّاَزي: دخل الأندلس من ذُرِّية سعد بن عبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تَاكُرُوتَا، ونزل الآخر قرية من قرى سقرسطونة، تعرف بقرية الخزرج، ونشأ بأحواز أَرْجُونَة من كُتُبَانِيَّة^(٢) قرطبة، أطيّب البلاد مَنَرَة، وأوفرها غَلَة، وهو بلدُه، وبلدُ جَدّه، في ظل نعمة، وعلاج فَلَاحَة، وبين يدي نَجْدَة وشهرة، بحيث اقتضى ذلك، أن يفيض شِرْزيان الرياسة، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة، ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلاً، فَقَدَحُوا رغبته، وأثاروا طمعه.

حدّث شيخنا الكاتب الشاعر، محمد بن محمد بن عبد الله اللُّؤْشي اليَخْصُبي، وقد أخبرني أنه كان يوجد بمدينة جِيَّان رجل من أهل المَالِيَّة، وكان له فَرَس أنثى من عِتَاق الخيل، على عادة أولي المَالِيَّة، وكان له من أهل الثَّغُور، من ارتباط الخيل، والتنافس في إعداد القوة. وشهّرت هذه الفرس في تلك الناحية، وبعث الطَّاغِيَة ملك الروم في ابتاعها، فَعَلِقَتْ بها كَفُّ هذا الرجل، وآثر بها نفسه، وازداد غِبْطَة بها لديه، ورأى في النوم قائلاً يقول له: سِرْ إلى أَرْجُونَة، بفرسك، وابحث عن رجل اسمه كذا، وصفته كذا، فأعطه إياها، فإنه سيملك جِيَّانًا وسواها، يتنفع بها عَقَبُكَ. وأزجىء الأمر، فَعَرِضَ عليه ثانية، وحُثَّ في ذلك في الثَّالِثَة، فسأل ثَقَّةً له خبيرًا بتلك الناحية وأهلها، فقال له المُخْبِر، وكان يُعرف بابن يَعِيش، فوصفه له، فتوجه الفقيه إلى

(١) ترجمة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر في المغرب (ج ٢ ص ١٠٩) والبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٩٦، ٣٤١) واللمحة البدرية (ص ٣٦).

(٢) كُتُبَانِيَّة: كلمة إسبانية Campaña، وتعني الأرض الجرداء. راجع نفع الطيب (ج ٤ ص ١٩١) حاشية المحقق.

أرجونة، ونزل بها، وتُسمع به، وأقبل السلطان وأظهاره، وتكلموا في شأنه، فذكر غرضه فيه، وأظهر العجز عن الثمن، وسأل منه تأخير بعضه، فأسغفه، واشترى منه الفرس بمال له خطر. فلما كُمل له القصد، طلب منه الخلوة به في المسجد من الحصن، وخرج له عن الأمر، وأعطاه بيعته، وصرف عليه الثمن، واستكتمه السلطان خيفة على نفسه، وانصرف إلى بلده.

قال: وفي العام بعده، دعا إلى نفسه بأرجونة، وتملك مدينة جيان، واختلف في السبب الذي دعاه إلى ذلك، فقيل: إن بعض العمال أساء معاملته في حق مخزني، وقيل غير ذلك.

حاله: هذا الرجل كان آية من آيات الله في السداجة والسلامة والجمهورية، جندياً، ثغرياً شهماً، أيّداً، عظيم الثجلد، رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً للتشفي، والاختيار باليسير، متبلاً بالقليل، بعيداً عن التضع، جافي السلاح، شديد العزم، مَرهوب الإقدام، عظيم الثمير، مُقرباً لضيئه، مُضطنماً لأهل بيته، فظاً في طلب حظه، مُحِمياً لقربته وأقرانه وجيرانه، مباشراً للحروب بنفسه، تتغالى الحكاة في سلاحه، وزينة دُبره. يَخْصِف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة، ويستشعر الجذ في أسوره. سَعَد بيوم الجمعة، وكان فيه تملكه جيان؛ ثم حضرة المُلْك غرناطة، وقيل: يوم قيامه شرع فيه الصّدقة الجارية على ضِعفاء الحضرة، ومناهم إلى اليوم. وتملك مدينة إشبيلية^(١) في أخريات ربيع الأول من عام ظهوره، وهو عام تسعة وعشرين وستمئة نحواً من ثلاثين يوماً. وملك قرطبة في العشر الأول لرجب من العام المذكور، وكلاهما عاد إلى مُلك ابن هود.

ولما تم له القصد من تملك البَيْضة، والحصول على العُمال، مباشراً للحسابات بنفسه، فتوقر ماله، وغُصّت بالصامت خزائنه، وعقد السُلْم الكبير، ونهتأ أمره، وأمكنه الاستعداد، فأنعم الأهواء، وملاً بطن الجبل المتصل بالقلعة حُبوباً مختلفة، وخزائن دَرّة، ومالاً وسلاحاً واريةً ظهراً، وكُرَاعاً، فوجد فائدة استعداده، ولجأ إلى ما أدخره من عتاده.

سيرته: تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالمُؤدّة وإفريقية، يَخْطُب لهم زماناً يسيراً، وتوصل بسبب ذلك إلى إمدادٍ منهم وإعانة، ولقبل ما افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد، حاذياً حذو سميّه ابن هود، للهِج العامة في وقته، بتقلد تلك الدعوة، إلى أن نزع عن ذلك كله.

(١) في المغرب: وقد ملك إشبيلية وقتل ملكها المعتضد الباجي.

وكان يعقد للناس مجلسًا عامًا، يومين في كل أسبوع، فترتفع إليه الظلامات، ويُشافه طالب الحاجات، وتنشده الشعراء، وتدخل إليه الوفود، ويُشافه أرباب النصائح في مجلس اختص به أهل الحضرة، وقضاة الجماعة، وأولي الرتب النبيلة في الخدمة، بقراءة أحاديث من الصّحّاحين، ويختم بأغشار من القرآن. ثم يتقل إلى مجلس خاص، ينظر فيه في أموره، فيصرف كل قصد إلى مَنْ يليق به ذلك، ويؤاكل بالعشيّات خاصته من القرابة؛ ومَنْ يليهم من نُبهاء القوّاد.

أولاده: أعقب ثلاثة من الذكور، محمدًا وليّ عهده وأمير المسلمين على أثره؛ والأميرين أبا سعيد فرج، وأبا الحجاج يوسف؛ تُوفّيّا على حياته؛ حسبما يتقرر بعد إن شاء الله.

وزراء دولته: وزر له جماعة؛ الوزير أبو مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد، زعيم قاعدة جيّان؛ وهو الذي مكّنه من ناصية جيّان المذكورة. واستوزر علي بن إبراهيم الشيباني من وجوه حضّرتة، وذوي النّسب من الفضلاء أولي الدّمات والوقار. واستوزر الرئيس أبا عبد الله ابن الرئيس أبي عبد الله الرّميمي. واستوزر الوزير أبا يحيى ابن الكاتب من أهل حضّرتة، وغيرهم ممن تبلغ به الشهرة مبلغًا فيهم.

كُتّابه: كتب له من الجلّة جماعة، كالكاتب المحدث الشهير أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن سعيد اليحصبي اللّوشي، ولما توفي كتب عنه ولده أبو بكر بن محمد. هؤلاء مشاهير كُتّابه، ومن المرؤوسين أعلام، كأبي بكر بن خطاب وغيره.

قضائته: ولي له قضاء الجماعة، القاضي العالم الشهير، أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، من جلّة أهل الأندلس في كِبَر البيت، وجلالة المنصب، ووزارة العلم. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الجليل بن غالب الأنصاري الخزرجي. ثم ولي بعده الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد السلام التميمي، وهذا الرجل من أهل الدين والأصالة، وآخر قضاة العدل. ثم ولي بعده الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض بن موسى اليحصبي. ثم ولي بعده الفقيه القاضي الحسيب أبو عبد الله بن أضْحَى، وبيته شهير، ولم تطل مدته. وولي بعده آخر قضائته أبو بكر محمد بن فتح بن علي الإشيلي، الملقب بالأشبيرون.

الملوك على عهده:

بمراكش المأمون إدريس، مأمون الموحدين، مُزاحمًا بأبي زكريا يحيى بن الناصر بن المنصور بن عبد المؤمن بالجبَل. ولما توفي المأمون ولي الرشيد أبو محمد عبد الواحد في سنة ثلاثين وستمائة، وولي بعده أبو حفص عمر بن إسحق المرتضى، إلى أن قتله إدريس الواصل أبو دُبُوس في عام خمسة وستين. وولي بعده يسيرًا بنو عامر بن علي بمراكش، وتعاقب منهم على عهده جَلَّة؛ كالأمير عثمان وابنه حَمُو، وأخيه أبي يحيى بن عبد الحق. واستمر الملك في أسر أملاكهم، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو إلى آخر أيامه.

وبتلمسان، شبيهه يَغْمَراسن بن زيان، أول ملوكهم، وتقدمه أخوه أكبر منه برهة. ويَغْمَراسن أول من أثل الملك، وحاز الذكر، واستحق الشهرة.

وبتونس، الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص. وخاطبه السلطان المترجم به، والتمس رِفْدَه، وقد حصل على إعانته، وولي بعد موته ولده المستنصر أبو عبد الله، ودامت أيامه إلى أول أيام ولد السلطان المترجم له عام أربعة وسبعين.

وبقشتالة هِراندة بن ألهنشة بن شائجَه الإنبَرطور. وهراندة هذا هو الذي ملك قرطبة وإشبيلية، ولما هلك ولي بعده أَلْفُوش ولده ثلاثًا وثلاثين سنة، واستمر ملكه مدة ولايته، وصدّرًا من دولة ولده بعده.

وبرغون جايمش ابن بطَرَه ابن أَلْفُوش قُمَط بَزْجلونه. وجايمش هذا هو الذي ملك بَلَنْسية وصيرها دار ملكه من يد أبي جميل زيان بن مَرْدَنيش.

لمع من أخباره: قام ابن أبي خالد بدعوته بغرناطة، كما ذكر في اسمه، ودعاه وهو بجيان، فبادر إليها في أخريات رمضان من عام خمسة وثلاثين وستمائة، بعد أن بعث إليه المَلَأ من أهلها ببيعتهم مع رجلين من مشيختهم؛ أبي بكر^(١) الكاتب، وأبي جعفر التيزولي.

قال ابن عذاري في تاريخه^(٢): أقبل وما زيه بفاخر، ونزل^(٣) عشي اليوم الذي

(١) في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٤٢): «أبي بكر ابن الكاتب، وأبي جعفر التيزولي».

(٢) البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٤٢).

(٣) في البيان المغرب: «ونزل بخارج غرناطة على أن يدخلها من الغد غدًا ثم بدا له غير ذلك فدخلها مع غروب الشمس يوم نزوله».

وصل بخارج غرناطة، على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له فدخلها عند غروب الشمس، نظرًا للحزم.

وحدث أبو محمد البسطي قال^(١): عاينته^(٢) يوم دخوله وعليه شاشية^(٣) ملف مضلعة أكتافها مخرقة^(٤). وعندما نزل بباب جامع القصبية، كان مؤذن المغرب في الخيعة، وإمامه يومئذ أبو المجد المرادي قد غاب، فدفع الشيخ السلطان إلى المحارب، وصلى^(٥) بهم، على هيئته تلك، بفاتحة الكتاب. ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٦). والثانية بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧). ثم وصل قصر باديس، والشمع بين يديه^(٨).

وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة، صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم الذي طاحت في شروطه جيان. وكان واقع بالعدو الراتب تجاه حضرته، المختص بحصن بليش على بريد من الحضرة، وكان الفتح عظيمًا، ثم حالفه الضع بما يضيق المجال عن استيعابه. وفي حدود اثنين وستين وستمائة صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم، وعقد البيعة لولي عهده، واستدعى القبائل للجهاد.

مولده: في عام خمسة وتسعين وخمسمائة بأزجونة، عام الأرك^(٩).

وفاته: في منتصف جمادى الثانية من عام واحد وسبعين وستمائة، وزد عليه وقد أسن، جملة من كُتاب الرُعائم، يقودون جيشًا من أتباعهم، فبرز إلى لقائهم بظاهر حضرته، ولما كثر آيًّا إلى قصره، سقط ببعض طريقه، وخامره خصر، وهو راكب، وأردفه بعض مماليكه، واسمه صابر الكبير، وكانت وفاته ليلة الجمعة التاسع

(١) النص في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٤٢ - ٣٤٣).

(٢) في البيان المغرب: «فعاينته».

(٣) في المصدر نفسه: «دخوله بشاية». والشاية والشاشية: لباس حربي محشو بالقطن لوقاية المحارب.

(٤) في المصدر نفسه: «مقطعة».

(٥) في المصدر نفسه: «فصلى بهم على هيئة سفره بفاتحة».

(٦) سورة النصر ١١٠، الآية ١. (٧) سورة الإخلاص ١١٢، الآية ١.

(٨) في البيان المغرب: «ثم خرج إلى قصر باديس ابن حبوس والشمع بين الأبواب يتقد».

(٩) كانت وقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ وليس سنة ٥٩٥ هـ، وذلك بين المنصور يعقوب بن يوسف الموحد وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكان النصر فيها للموحدين، وكان عدد قتلى النصاري ثلاثين ألفًا، واستشهد من المسلمين نحو الخمسمائة. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢١٨).

والعشرين لجمادى الثانية المذكورة، ودفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة، وعلى قبره اليوم منقوش:

«هذا قبر السلطان الأعلى، عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة، قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة، سيف الحق، كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قانع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة، أمير المؤمنين، علم المهتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك والسلاطين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أمير المسلمين، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري، رفعه الله إلى أعلى عليين، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين. ولد، رضي الله عنه، وأتاه رحمة من لدنه، عام أحد وتسعين وخمسائة، وبويع له يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان عام خمسة وثلاثين وستمائة، وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لجمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة، فسبحان من لا يفنى سلطانه، ولا يبيد ملكه، ولا ينقضي زمانه، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم».

ومن جهة أخرى: [البسيط]

قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
ومن شيم علوية الشيم
لا بأس عنترة ولا ندى هرم
فخر الملوك الكريم الذات والشيم
كالغيث في مجد وكالليث في أجم
تقرّ بالحق فيها جملة الأمم
تضيّق عنه بلاد العُزْب والعجم
يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
لا تشرب الماء إلا من قليب دم
تاوي رعيته منه إلى حرم
وما حواه لدين الله من حرم
أبدى وأوضح من نار على علم
سحائب الرحمة الوكافة الدّيم

هذا محلّ العلى والمجد والكرم
لله ما ضمّ هذا اللحد من شرف
بالجود والبأس ما تحوي صفائحه
مُغني الكرامة والرضوان يعهده
مقامه في كلا يومي ندى ووغى
مآثر ثلّيت آثارها سوراً
كأنه لم يسر في محفل لُجب
ولم يباد العدا منه ببادرة
ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة
ولم يقم حكم عدل في سياسته
مَنْ كان يجهل ما أولاه من نعم
فتلك آثاره في كل مَكْرَمَة
لا زال تهومي على قبر تضمّنه

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر
ابن محمد بن أبي الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري،
المنصور بن أبي عامر^(١)

مُعْظَمُ الظَّفَر، وَجَذَن السُّغْد، وَمَلَقَى عُصَيَّ الْجَذ، وَجَوَّ رِيَّاحَ الشَّهْرَةِ، وَدِيَّوَانَ
فَنُونِ السِّيَاسَةِ، وَحِجَاجَ الدَّوْلَةِ الْعَبْشِمِيَّةِ^(٢)، فِي الثُّخُومِ الْمَغْرِبِيَّةِ، الْمَزْيِ^(٣) بِالظَّرْفِ
وَكَمَالِ السُّجِيَّةِ، وَالْجِهَادِ الْعَظِيمِ، الْعَرِيقِ فِي بَخْبُوحَةِ بِلَادِ الْكُفَّارِ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

أَوَّلَيْتُهُ: دَخَلَ جَدُّهُ عَبْدَ الْمَلِكِ الْأَنْدَلُسِيِّ مَعَ طَارِقِ مَوْلَى مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ فِي أَوَّلِ
الِدَاخِلِينَ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَكَانَ لَهُ فِي فَتْحِهَا أَثَرًا جَمِيلًا، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ مَا دَحَهُ
مُحَمَّدُ بْنُ حَسَّانَ^(٤): [الطويل]

وَكُلُّ عَدُوٍّ أَنْتَ تَهْزِمُ^(٥) عَرْشُهُ وَكُلُّ قُتُوحٍ عَنْكَ يُفْتَحُ بِأَبْهَا
وَإِنَّكَ^(٦) مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ الَّذِي لَهُ خُلِيَ فَتَحُ قَرْطَاجَتَهُ^(٧) وَانْتَهَابُهَا

وَنَزَلَ عَبْدَ الْمَلِكِ الْجَزِيرَةَ الْخَضِرَاءَ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ، فَسَادَ أَهْلُهَا، وَكَثُرَ عَقِبُهُ بِهَاءٍ
وَتَكَرَّرَتْ فِيهِمُ الثَّبَاهَةُ، وَجَاوَرُوا الْخُلَفَاءَ بِقَرْطَبَةِ. وَكَانَ وَالِدُ مُحَمَّدٍ هَذَا، مِنْ أَهْلِ
الِدِينِ وَالْعَفَافِ وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْقَعُودِ عَنِ السُّلْطَانِ. سَمِعَ الْحَدِيثَ، وَأَدَّى
الْفَرِيضَةَ، وَمَاتَ مَنْصَرَفًا عَنِ الْحُجِّ بِإِطْرَابُلُسَ.

حَالُهُ: كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يَكْرَهُ الدَّهْرَ، وَفَائِدَةُ الْأَيَّامِ، وَيَبْغِي الْعَمَرَ، وَفَرَدَ الْخَلْقَ
فِي اضْطِرَادِ السُّعْدِ، وَتَمَلَّدَ الْعَاجِلَ مِنَ الْحِظِّ، حَازِمًا، دَاهِيَةً، مُشْتَمَلًا عَلَى أَقْطَارِ
السُّوَدِّ، هَوِيًّا إِلَى الْأَفَاصِي، وَطُمُوحًا، سَوْسًا حَمِيًّا، مُضْطَنَعًا لِلرَّجَالِ، جَالِبًا

(١) ترجمة المنصور العامري في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦) والذخيرة (ق ٤ ص ٥٦) وأعمال
الاعلام (القسم الثاني ص ٥٩) والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٦٨) ومطمع الأنفس (ص ٣٨٨)
وجذوة المقتبس (ص ١٧، ٧٨) وبغية الملتبس (ص ٢١، ١١٥) والمعجب (ص ٧٢) وكتاب
العبر (م ٤ ص ٣١٨) والمغرب (ج ١ ص ١٩٥) والمختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ١١٧،
١٣٦) وتكملة المختصر في أخبار البشر (ج ١ ص ٤٧٧) ونفع الطيب (ج ١ ص ٣٨٢).

(٢) العبشمية: نسبة إلى عبد شمس، وهي من أوصاف الدولة الأموية. محيط المحيط (شمس).

(٣) المزْي: الظريف. محيط المحيط (مزي).

(٤) البيتان في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٦) وجاء فيه أن المادح هو محمد بن حسين الشاعر
العالم بأخبار الأندلس.

(٥) في البيان المغرب: «تَهْدِمُ».

(٦) في الأصل: «برأيك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من البيان المغرب.

(٧) في الأصل: «قرطبة» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من البيان المغرب.

للأشرف، مستمياً للقلوب، مطبقاً المفاصل، مُزيحاً للعِلل، مستبصراً في الاستبداد، خاطباً جميل الذكر، عظيم الصبر، رحيب الذرع، طموح الطرف، جشيع السيف، مُهادي جياذ العقاب والمثوبة، مهيأ، جزلاً، مُنكسف اللون، مُضفر الكف، آية الله، جلّ جلاله، في النضر على الأعداء ومصاحبة الظفر، وتوالي الصنع.

نباهته: قال المؤرخ^(١): سلك سبيل القضاء^(٢) في أوليته، مقتفياً آثار عُموته وخُوولته، يطلب^(٣) الحديث في حديثه. وكتب منه كثيراً، ولقي الجلة من رجاله، ثم صحب الخليفة الحكم^(٤) مُتَحزباً في زمرته، وولي له الأعمال من القضاء والإمامة، ثم استكفاه، فعدل عن سبيله، وصار في أهل الخدمة. ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام، فزاد بخاصته لولي العهد، عزاً ومكانة من الدولة، فاحتاج الناس إليه، وغشوا بابه، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه، إسعاف، وكرّم لقاء، وسهولة حجاب، وحسن أخلاق، فاستطار ذكره، وعُمّر بابه، وساعده الجَد. ولما صار أمر المسلمين إليه، بلغ^(٥) التي لا فوقها عزاً وشهرة.

الثناء عليه: قال: وفي الدولة العامرية، وأعين محمد على أمره، مع قوة سعده، بخصال مؤلفة لم تجتمع لمن قبله، منها الجود، والوقار، والجَد والهيبة، والعدل والأمن، وحبّ العمارة، وتأمير المال، والضبط للرعية، وأخذهم بترك الجدل والخلاف والتشغيب، من غير وَهْن في دينه، وصحة الباطن، وشرح كل فضل، وجلب كل ما يوجب عن المنصور فيه.

غزواته وظهوره على أعدائه:

واصل، رحمه الله، الغزو بنفسه، فيما يناهز خمسين غزوة، وفتح فيها البلاد، وحَصَد شوكة الكفر، وأذلّ الطواغيت وفضّ مصاف الكفار، وبلغ الأعماق، وضرب على العدو الضرائب، إلى أن تلقاه عظيم الروم بنفسه وأتحفه بابتته في سبيل الرغبة في صِهره، فكانت أحظى عقائله، وأبرزت في الدين والفضل على سائر أزواجه، وعقد اثني عشر بروزاً إلى تلقي ملوك الروم القادمين عليه مُضطَّهرين بإلحاح سيفه، مُنكيين على لثم سريره.

(١) النص في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨) بتصرف.

(٢) في البيان المغرب: «القضاء». (٣) في البيان المغرب: «يطلب».

(٤) هو خليفة الأندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر، المعروف بالحكم المستنصر، وقد حكم الأندلس من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٦٦ هـ.

(٥) في الأصل: «بلغ».

شعره: وما يؤثر من شعره^(١): [الطويل]

رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَوْلَ كُلِّ عَظِيمَةٍ^(٢) وَخَاطَرْتُ وَالْحُرَّ الْكَرِيمَ يُخَاطِرُ^(٣)
وما صاحبي إِلَّا جَنَانٌ مُشْتَعٍ وَأَسْمَرُ خَطِيٍّ وَأَبْيَضُ بَايَرٍ^(٤)
ومن شيمتي^(٥) أَنِي عَلَى كُلِّ^(٦) طَالِبٍ أَجُودُ بِمَالٍ لَا تَقِيهِ الْمَعَاذِرُ
وإني لَزَجَاءُ الْجِيُوشِ إِلَى الْوَعَى أَسُودُ تَلَاقِيهَا أَسُودُ خَوَادِرُ
فَسُدْتُ^(٧) بِنَفْسِي أَهْلَ كُلِّ سِيَادَةٍ وَكَانَزْتُ^(٨) حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَنْ أَكَاثِرُ
وما شِدْتُ بِنِيَانًا^(٩) وَلَكِنْ زِيَادَةً عَلَى مَا بَنَى عَبْدُ الْمَلِكِ وَعَامِرُ
رَفَعْنَا الْعَوَالِي^(١٠) بِالْعَوَالِي سِيَاةً^(١١) وَأَوْرَثْنَاهَا فِي الْقَدِيمِ مَعَايِرُ^(١٢)

وبلغ في ملكه أقطار المغرب، إلى حدود القبيلة^(١٣)، ويمدينة فاس، إثر ولده المقلد فتح تلك الأقطار، ونهد أولئك الملوك الكبار.

دخوله غرناطة: قال صاحب الديوان في الدولة العامرية، وقد مر ذكر المنصور، قُومِسَ الْفَرَنْجَةُ بِمَدِينَةِ بَرَشْلُونَةِ: وهذه الأمة أكثر النصرانية جمعًا، وأوسعها، وأوفرها من الاستعداد، وما أوطىء من الممالك والبلاد، وفتح من القواعد، وهُزِمَ مِنَ الْجِيُوشِ. وقفل المنصور عنها، وهو أطمع الناس في استئصالها؛ ثم خَصَّصَهُمْ بِصَائِفَةِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، وهي الثالثة عشرة^(١٤) لغزواته؛

(١) الأبيات في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٧٤) والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٧٤) ونفع الطيب (ج ١ ص ٣٨٣). وورد منها ثلاثة أبيات في المغرب (ج ١ ص ٢٠٣).

(٢) في البيان المغرب: «كريمة».

(٣) في البيان المغرب والحلة السيرة: «مخاطر».

(٤) الجنان: القلب. المشتع: الجريء. الأسمر: الرمح. الخطي: المنسوب إلى الخط وهو موضع باليمامة كانت تصنع منه الرماح. الأبيض: السيف. لسان العرب (جنن) و(شيع) و(سمر) و(خطط) و(بيض).

(٥) في الحلة السيرة: «شيمي».

(٦) كلمة «كل» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الحلة السيرة.

(٧) في الحلة والبيان: «لَسُدْتُ». (٨) في النفع: «وفاخرت... من أفاخر».

(٩) في المغرب: «بيتا لي».

(١٠) في الأصل: «العلی» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الأربعة.

(١١) في المغرب: «بساله». وفي الحلة: «حديثه». وفي البيان المغرب والنفع: «حديثه».

(١٢) رفعا العوالي: رفعا المجد. والعوالي: الرماح. معافر: قبيلة المنصور العامري.

(١٣) تقع بلاد القبلة في جنوب المغرب. (١٤) في الأصل: «عشر» وهو خطأ نحوي.

وقد احتفل لذلك، واستبلغ في التغير، واستوفى أتم الأبهة، وأكمل العدة، فجعل طريقه على شرقي الأندلس؛ لاستكمال ما هنالك من الأطعمة، فسلك طريق إلبيرة، إلى بسطة، إلى تدمير؛ وعزم في هذه الغزوات بربل ملك فرنجة ونازل مدينة برجلونة؛ فدخلها عتوة يوم الاثنين النصف من صفر، سنة أربع وسبعين أو خمس بعدها.

قلت: وفي دخول المنصور بجيشه بلد إلبيرة؛ ما يحقق دعوى من ادعى دخول المعتمدين من أهل الأندلس لذلك العهد؛ إذ كان يصحب المنصور في هذه الغزوة، من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر؛ فضلاً عن سائر الأصناف على ندادة هذا الصنف من الخدام؛ بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم.

والذي صَحَّ أنه حضر ذلك، أبو عبد الله محمد بن حسين الطنبلي، أبو القاسم حسين بن الوليد، المعروف بابن العريف، أبو الوضاح بن شهيد، عبد الرحمن بن أحمد، أبو العلا صاعد بن الحسن اللغوي، أبو بكر زيادة الله بن علي بن حسن اليميني، عمر بن المنجم البغدادي، أبو الحسن علي بن محمد القرشي العباسي، عبد العزيز بن الخطيب المحرود، أبو عمر يوسف بن هارون الزياتي، موسى بن أبي طالب، مروان بن عبد الحكم بن عبد الرحمن، يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل المكفوف، سعد بن محمد القاضي، ابن عمرو القرشي المرواني، علي النقاش البغدادي، أبو بكر يحيى بن أمية بن وهب، محمد بن إسماعيل الزبيدي، صاحب المختصر في اللغة، أحمد بن دزاح القسطلي، مُتَنَبِّي الأندلس، أبو الفرج مُنِيل بن مُنِيل الأشجعي، محمد بن عبد البصير، الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد، محمد بن عبد الملك بن جهور، محمد بن الحسن القرشي، من أهل المشرق، أبو عبيدة حسان بن مالك بن هاني، طاهر بن محمد المعروف بالمُهَئِد، محمد بن مُطَرِّف بن شَحِيص، سعيد بن عبد الله الشُّنْتَرِينِي، وليد بن مُسْلَمَة المرادي، أغلب بن سعيد، أبو الفضل أحمد بن عبد الوهاب، أحمد بن أبي غالب الرُّصَافِي، محمد بن مسعود البَلْخِي، عُبَادَة بن محمد بن ماء السماء، عبد الرحمن بن أبي الفهد الإلبيري، أبو الحسن بن المضيء البجلي الكاتب، عبد الملك بن سهل، الوزير عبد الملك بن إدريس الجزيري، قاسم بن محمد الجيتاني.

قال المؤرخ: هؤلاء مَنْ حَفِظَتْهُ مِنْهُمْ، وهم أكثر من أن يحصوا، فعلى هذا يتبنى القياس في ضخامة هذا الملك، وانفساح هذا العِرَ.

وفاته: توفي، رحمه الله، منصرفاً من غزاته المسماة بقنالش والرّيد، وقد دوّخ أقطار قشتالة، ليلة الاثنين سبع وعشرين لرمضان عام اثنين وتسعين وثلاثمائة^(١)، وقد عهد أن يُدفن ببلد وفاته، بعد وصية شهيرة صدرت عنه، إلى المُظفر ولده، فدفن بمدينة سالم، التي بناها في نحر العدو من وادي الحجارة، وبقصرها، وقبره معروف إلى اليوم. وكان قد اتخذ له من غبار ثيابه الذي علاها في الجهاد، وعاء كبيراً بحديه، رحمه الله. وكتب على قبره هذا الشعر^(٢): [الكامل]

آثارُهُ تُثَبِّيكُ عَنْ أَخْبَارِهِ^(٣) حَتَّى كَأَنَّكَ بِالْعِيَانِ^(٤) تَرَاهُ
تَالله لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ أَبَدًا وَلَا يَخْمِي الشُّغُورُ سِرَاهُ^(٥)

محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل
ابن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطف
ابن نعيم، لخمى النسب^(٦)

أُولَيْتِهِ: دخل الأندلس جدّه عطف مع بلّج بن بشر القشيري، من أشراف الطّالعة البلجية، وهم من عرب حمص من أرض الشام، وموضعه بها يعرف بالعريش في آخر الجفار بين مصر والشام. ونزل عطف بقرية تعرف بيومين من إقليم طُشانة على ضفة النهر الأعظم من أرض إشبيلية. ولما هلك قريش، ورث السيادة إسماعيل بن قريش، وهو القاضي المشهور بالفضل والدهاء، يكنى أبا الوليد. وليّ الشرطة الوسطى لهشام بن الحكم، وخُطّة الإمامة إلى صلاة الجمعة. ثم خلفه أبو القاسم المنفرد برئاسة إشبيلية، المُتخف فيها بخُطط الوزارتين والقضاء

(١) في كتاب العبر لابن خلدون: هلك المنصور سنة ٣٧٤ هـ بعد ٢٧ سنة من ملكه. وفي جذوة المقتبس وبغية الملتبس والمعجب والمختصر في أخبار البشر، وتمة المختصر في أخبار البشر: توفي المنصور سنة ٣٩٣ هـ.

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ٣٠١) والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٧٣) والمغرب (ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) في المغرب: «عن أوصافه».

(٤) في البيان المغرب: «في البيت في المغرب هي».

(٥) تالله ما ملّك الجزيرة مثله خفّا ولا قاد الجيوش سواه

(٦) ترجمة المعتمد بن عباد في فلائد العقيان (ص ٤) والذخيرة (ق ٢ ص ٤١) والمعجب (ص ١٥٨) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٥٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٥٧) والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٤٤، ٢٥٧) والوافي بالوفيات (ج ٣ ص ١٨٣) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٧٤) والصلة (ص ٤٩٩، في ترجمة القاضي عبد الرحمن بن سوار).

والمظالم. وعزَّ جاهه، وكثرت حاشيته، وتعددت غلمانته، وأذعنت له عُداته. ثم خلفه الأمير المعتمد ولده، وكان خَيْرًا حازمًا، سديد الرأي، مَضْئوعًا له في الأعداء، فلَمَّا توفي، تَصَيَّر الأمر إلى ولده المترجم به، المكني أبا القاسم إلى حين خلعه.

حاله: قالوا كلُّهم: كان المعتمد، رحمه الله، فارسًا شجاعًا، بطلاً مقدِّمًا، شاعرًا ماضيًا، مشكور السيرة في رعيته. وقال أبو نصر في قلائده^(١): «وكان المعتمد على الله ملكًا قمع العدا، وجمع^(٢) بين البأس والثدا، وطلع على الدنيا بِذُرِّ هُدى، لم يتعطل يومًا كُفُّه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنائه، وكانت أيامه مواسم، وثغور^(٣) برّه بواسم». لقبه أولًا الظافر، ثم تلقب^(٤) بالمعتمد، كَلَفًا بجاريته اعتماد، لَمَّا مَلَكَهَا، لَسْتَقَّ حروف لقبه بحروف اسمها، لشدة ولوعه بها.

وزراؤه: ابن زيدون. وابن عمَّار، وغيرهما.

أولاده المملكون: عبيد الله، يكنى أبا الحسن، وهو الرُّشيد، وهو الذي لم يوافق أباه على استِضْرَاح المرابطين، وعَرَضَ يزوال الملك عنهم، فقال: أحبُّ إليَّ أن أكون راعي إبل بالعدوة من أن ألقى الله، وقد حُوِّلَت الأندلس دار كفر، وكان قد ولَّاه عهده، وبويع له بإشبيلية، وهو المحمول معه إلى العدو. ثم الفُتْح، وهو الملقب بالمأمون، كان قد بويع له بقرطبة، وهو المقتول بها، المُخْمَلُ رأسه إلى محلَّة العدو المرابطين، المحاصرة لأبيه بإشبيلية. ثم يزيد الراضي، وكان قد ولَّاه رُنْدَةَ، فقتل لما مَلَكَهَا اللُمْتُونِيُّونَ. ثم عبد الله، ويكنى أبا بكر. هؤلاء الأربعة من جاريته اعتماد، السيدة الكبرى، والمدعوة بالرُّمَيْكِيَّة منسوبة إلى مولاها رُمَيْكُ بن حجاج، الذي ابتاعها منه المعتمد.

ملمته: لَمَّا تكالب أذفونش بن فردلان على الأندلس بعد أخذه مدين طَلَيْطَلَة ضيق بالمعتمد، وأجحف في الجزية التي كان يَتَّقِي بها على المسلمين عاديته، وعلى ذلك أقسم أخذها وتجنَّى عليه، وطمع في البلاد، فحكى بعض الإخباريين أنه وجَّه إليه رسله في آخر أمره لقبض تلك الضريبة، مع قوم من رؤساء النصاري، ونزلوا خارج باب إشبيلية، فوجَّه إليهم المال، مع بعض الوزراء، فدخلوا على اليهودي

(١) قلائد العقيان (ص ٤).

(٢) كلمة «بين» غير واردة في القلائد.

(٣) في الأصل: «وثغور برّة»، والتصويب من القلائد.

(٤) عن لقبه بالمعتمد لتتفق حروف لقبه بحروف اسم زوجته اعتماد ورد في الحلة السيرة (ج ٢ ص

المذكور في خبائه، وأخرجوا المال، فقال لهم: لا أَخَذْتُ منه هذا العيار ولا أَخَذْتُ منه إِلَّا ذَهَبًا مَشْجَرًا، ولا يُؤْخَذُ منه في هذا العام إِلَّا أَجْفَانُ الْبِلَادِ، ونُقِلَ كلامه إلى المعتمد، فبادر بالقبض عليه وعلى النصاري، ونكّل بهم، وقتل اليهودي بعد أن بذل في نفسه زنة جسمه ذهبًا، فلم يُقبل منه، واحتبس النصاري، وراسله الطاغية في إطلاقهم، فأبى إِلَّا أن يُخلي منه حصن الحدود، فكان ذلك. واستصرخ اللُمُونِيُّنَ، وأجاز البحر بنفسه، وأقسم الطاغية بإيمانه المغلطة ألا يرفع عنه يده. وهاجت حفيظة المعتمد، واجتهد في جواز المرابطين، وكان مما هو معلوم من الإيقاع بالطاغية في وقعة الزَّلَاقَةِ^(١)، فإنه الذي أصلى نارها بنفسه، فعظم بلاؤه، وشهر صبره، وأصابته الجراح في وجهه ويده، رحمه الله. وفي ذلك يقول أبو بكر بن عُبَادَةَ المَرِّي^(٢):

[الوافر]

وقالوا كَفُّهُ جُرِحَتْ فَقَلْنَا	أعاديهِ تُوَاقِعُهَا ^(٣) الجراح
وما أَثَرُ ^(٤) الجراحة ما رأيتُم	فَتُوهِنُهَا الْمَنَاصِلُ وَالرِّمَاحُ
ولكن فاضَ سَيْلُ الْبَاسِ ^(٥) منها	ففيها من مجاريهِ انْثِيَا ^(٦)
وقد صَحَّحَتْ وَسَحَّحَتْ بِالْأَمَانِي	وقاضَ الْجُودُ مِنْهَا وَالسَّمَاحُ
رأى منه أبو يعقوب فيها	عُقَابًا لَا يُهَاضُ لَهُ جَنَاحُ ^(٧)
فقال له لك الْقِدْحُ الْمُعَلَى	إِذَا ضُرِبَتْ بِمَشْهَدِكَ الْقِدَاحُ

ولما اتصلت به الضيحة؛ بين يدي دخول المدينة، ركب في أفراد من عبيده؛ وعليه قميص يَشْفُفُ عن بدنه، والسيف مُتَنَضِّي بيده، ويتم باب الفَرَجِ، فقدم الداخلين، فردّهم على أعقابهم؛ وقتل فارسًا منهم؛ فانزعجوا أمامه؛ وخَلَفُوا الباب؛ فأمر بإغلاقه؛ وسكنت الحال؛ وعاد إلى قصره. وفي ذلك

(١) كانت وقعة الزلافة في سنة ٤٧٩ هـ بين المرابطين وملوك الطوائف من جهة والإسبان من جهة ثانية. وكان النصر فيها للمسلمين. وهناك دراسة مستفيضة عنها في كتاب: مملكة غرناطة في

عهد بني زيري البربر (ص ١٨٣ - ٢٠٤) فلتنظر.

(٢) هو أبو بكر بن عباد، المعروف بابن القزاز، والأبيات في قلائد المعيان (ص ١٣) والمغرب (ج ٢ ص ١٣٥) وأعمال الأعلام (القسم الثالث ص ١٤٩).

(٣) في المغرب: «تَوَاقَعُهَا».

(٤) في الأصل: «وما لمرتد» والتصويب من القلائد والمغرب.

(٥) في المغرب «الجود».

(٦) رواية عجز البيت في المغرب هي: فأسى في جوانبها انسياح.

(٧) هذا البيت والذي يليه غير وارد في المغرب.

يقول^(١): [مجزوء الكامل]

إن يَسْلُبِ القَوْمُ العِدا ^(٢)	مُلْكِي وتُسَلِّمَنِي الجُمُوعُ
فَالْقَلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ	لَمْ تُسَلِّمِ الْقَلْبَ الضُّلُوعُ
قَدْ رُمْتُ يَوْمَ نِزَالِهِمْ	أَلَا تُخَصِّنِي الدُّرُوعُ
وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيهِ	صَ عَنْ الْحِشَاءِ شَيْءٌ دَفُوعُ
أَجَلِي تَأَخَّرَ لَمْ يَكُنْ	بِهَوَايَ دُلِّي وَالْخُضُوعُ
مَا سَزْتُ قَطُّ إِلَى الْقِتَا	لِي ^(٣) وَكَانَ مِنْ أَمَلِي الرُّجُوعُ
شَيْمُ الْأُولَى ^(٤) أَنَا مِنْهُمْ	وَالْأَصْلُ تَتْبَعُهُ الْفُرُوعُ

جوده: وأخبار^(٥) جوده شهيرة، ومما يؤثر من ذلك، على استصحاب حال العز، ووفور ذات اليد، وأدوات الملك، غريب. والشاهد المقبول بقاء السجية ومصاحبة الخلق الملكية، مع الإقترار والإيسار، وتقلب الأطوار. وتعرض له الحضري القرموني الضرير بخارج طنجة؛ وهو يجتاز عليها في السواحل من قُهر واعتقال، بأشعار ظاهرة المقت، غير لائقة بالوقت، ولم يكن بيده، زعموا، غير ثلاثين ديناراً^(٦) كانت بحقه، معدة لضرورة ضرر وأزمة، وأطبع عليها دمه، وأدرج قطعة شعر طيها اعتذار عن نزرها، راغباً في قبول أمرها، فلم يراجعه الحضري بشيء عن ذلك، فكتب إليه^(٧): [مجزوء الرمل]

قُلْ لِمَنْ جَمَعَ الْعِدُ	مَ وَمَا ^(٨) أَخْصَى صَوَابَهُ
كَانَ فِي الصُّرَّةِ شِعْرُ	فَتَنَظَّرْنَا ^(٩) جَوَابَهُ
قَدْ أَتَيْنَاكَ ^(١٠) فَهَلَا	جَلَبَ الشُّعْرُ جَوَابَهُ ^(١١) ؟

(١) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٨٨ - ٨٩) وقلائد العقيان (ص ٢١ - ٢٢) والحلة السيرة (ج ٢ ص ٦٥ - ٦٦).

(٢) رواية صدر البيت في الحلة السيرة هي: إن تستلب عني الذنا.

(٣) في الحلة السيرة: «إلى الكماة». (٤) في الديوان: «الألى».

(٥) قارن بالذخيرة (ص ٢ ص ٦٦ - ٦٧). (٦) في الذخيرة (ق ٢ ص ٦٧): «مثنوياً».

(٧) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٩١) والذخيرة (ق ٢ ص ٦٧) والمعجب (ص ٢٠٦).

(٨) في الذخيرة: «ومن».

(٩) في الأصل: «فانتظرنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان والمصدرين الآخرين.

(١٠) في الأصل: «أتيناك» وهو تحريف، والتصويب من الديوان والمصدرين الآخرين.

(١١) في الديوان والمصدرين الآخرين: «نوابه».

حلمه: رُفِعَ إِلَيْهِ صَدْرُ دولته شعر، أَغْرِي فِيهِ بِأَبِي الوليد بن زيدون، وهو شهير، وَتُخَيَّرَ لَهُ مَوْقِعٌ وَتَرَصَّدَ حِينَ، وَانْتَظَرَ بِهِ مُؤَجَّرَهُ، وهو^(١): [الكامل]

يا أيها الملك الأعز^(٢) الأعظم
واحسبْ بسيفك داء^(٣) كلِّ منافقٍ
لا تتركنْ للناس مَوْضِعَ شُبْهَةٍ^(٤)
قد قال شاعرٌ كِنْدَةَ فيما مضى
«لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَفِيعُ مِنَ الْأَذَى
فَوَقَّعَ عَلَى الرِّقْعَةِ»^(٥): [الكامل]

كَذَبْتَ مُنَاكِمَ، صرُّحُوا أَوْ جَمَّجُمُوا
خُشِّنْ وَرُمُثْنِ أَنْ أَخُونِ وَإِنَّمَا
وَأَرْدُثْ تَضْيِيقَ صَدْرِ لَمْ يَضِقْ
وَرَحَفْشُ بِمُحَالِكُمْ لِمُجَرَّبِ
أَتَى رَجَوْنُكُمْ غَدَرَ مَنْ جَرُّنُكُمْ
أَنَا ذَا^(٦) كُمْ لَا السُّغْيَ^(٧) يَفْمِرُ غَرْسُهُ
كُفُّوا وَإِلَّا فَارْقُبُوا لِي بَطْشَةً
الدِّينُ أَمْتَنُ وَالسَّجِيَّةُ^(٨) أَكْرَمُ
حَاوَلْتُمْ أَنْ يُسْتَخَفَّ يَلْمَلَمُ^(٩)
وَالسُّمُرُ فِي صَدْرِ^(١٠) الثُّحُورِ تُحَطَّمُ
مَا زَالَ يَثْبُتُ لِلْمُحَالِ^(١١) فَيَهْزُمُ
مِنْهُ الْوَفَاءُ وَظُلْمُ^(١٢) مَنْ لَا يَظْلِمُ
عِنْدِي وَلَا مَبْنَى الصَّنِيعَةِ يُهْدَمُ^(١٣)
يَبْقَى^(١٤) السَّفِيَّةُ بِمِثْلِهَا يَتَحَلَّمُ^(١٥)

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٥١) وفلائد العقيان (ص ١٤ - ١٥).

(٢) في المصدرين: «العلي».

(٣) في الذخيرة: «يتم». وفي الفلاند: «يتم».

(٤) كلمة «داء» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.

(٥) في الفلاند: «تهمة».

(٦) البيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص ٦٣٠).

(٧) الأبيات في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٦٧) والذخيرة (ص ٢ ص ٥١ - ٥٢) وفلائد العقيان (ص ١٥ - ١٦).

(٨) في الديوان والذخيرة: «والمروءة».

(٩) يَلْمَلَمُ: موضع على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٤١).

(١٠) في الديوان والفلاند: «في تُغَر». وفي الذخيرة: «ما في تُغَر الصدور».

(١١) في الديوان: «في المجال». وفي الذخيرة: «في المحال».

(١٢) في الديوان والذخيرة: «وجود».

(١٣) في الفلاند: «أنا ذلكم».

(١٤) في الذخيرة: «يُثْلَم».

(١٥) في الديوان والمصدرين: «يُلْقَى».

(١٦) في الديوان والمصدرين: «يُحَلَّم».

توقيعه ونثره في البديهة:

كتب مع الحماثم إلى ولده الرشيد عَقِب الفراغ من وقعة الرُلّاقة:

يا بني، وَمَنْ أبقاه الله وسَلَّمه، ووقاه الأسواء وعَصَمه، وأسبغ عليه آلاءه وأنعمه، كتبته، وقد أعز الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم على يدي مستدعيات الفتح المبين، بما يسره الله في أمسه وسناه، وقدّره سبحانه وقضاه، من هزيمة أدفونش ابن فرذلند لعنه الله وأصلاده، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهل العيش الذميم، كما قنعه الخزّي العظيم. وأتى القتل على أكثر رجاله وحُماته، واتصل النهب سائر اليوم، والليلة المتصلة به، جميع محلاته، وجمع من رؤوسهم بين يدي، من مشهورى رجالهم، ومذكورى أبطالهم، ولم يختر منهم إلّا من شهر وقرب، وامتلأت الأيدي مما سلب ونهب. والذي لا مرية فيه، أن الناجي منهم قليل، والمُقتل من سيوف الجزع والبعد قتيل، ولم يُصنني بفضل الله إلّا جرح أشوى، وحسن الحال عندنا والله ورزى، ولا يُشغل بذلك بال، ولا يُتوهم غير الحال التي أشرت إليها حال، والأدفونش بن فرذلاندا، إن لم يصبح تحت السيوف فسيموت لا محالة كمدًا، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغدا، فإن برأسه طمرة ولحام. فإذا ورد كتابي هذا، فمر بجمع الخاص والعام، من أهل إشبيلية، وجيرانها الأقربين، وأصفيائنا المحبين، في المسجد الجامع، أعزهم الله، وليقرأ عليهم فيه، لياخذوا من المسرة بأنصباتهم، ويضيفوا شكرًا لله إلى صالح دعائهم، والحمد لله على ما صنع حقّ حمده، جلّ المزيد لأمر حين، إلّا من عنده والسلام.

تلطفه وظرفه: قال أبو بكر الداني: سألني في بعض الأيام عند قدومي عليه بأغمات، قاضيًا حقّ نعمته، مُستكثرًا من زيارته، مُستمتعًا برائق أدبه، على حال محنته، عن كُتبي، فأعلمته بذهابها في نهب حضرته. وكنت قد جُلّيت في سفرتي تلك، الأشعار الستة، بشرح الأستاذ أبي الحجاج الشنمري الأعم، وكانت مستعارة، فكتمتها عنه. ووَشى إليه أحد الأصحاب، فحجل بكرمه وحسن شيمته، من الأخذ معي في ذكر ما كتمته، فاستطرد إلى ذلك بغرض نبيل، ونحا فيه نحوًا، يغرب عن الشرف الأصيل، وأملى عليّ، في جملة ما كان يُمليه: [الكامل]

وكواكب لم أذر قبل وجوها	أن البدور تدور في الأزوار
نادمُها في جَنح ليل دامس	فأعزّه مثلاً من الأنوار
في وَسْطِ رَوْضة نرجس كعيونها	ما أشبه الثوار بالثوار
فلذا تواصفنا الحديث حبيبتي	ألهو بمُلْتَقِط لدرٍ ينثار

فلماذا اكتحلْتُ برقَّ ثغرٍ باسم سَكَبْتُ جُفُونِي أغزر الأمطار
حَذَرَ الملامِ وخيفةً من جفوة تذر الصدور على شفيرِ هار
تركَ الجواري الآنسات مذهبِي وسَوَّلَهَا ظَفَرٌ بريشة الأشعار

فلم أتمالك عند ذلك ضحكًا، وعلمت أن الأمر قد سُري إليهِ، فأعلمته قصَّتُها، فبسط العُذر بفضلِهِ، وتأول الأمر، وقسم الأشعار، على ثلاثة من بنيهِ؛ ذوي خطِّ رائع، ونقل حَسَن، وأدب بارع، أخذوا في نسخها، وصرفوا الأصل لأجل قريب.

محتته: ولم يلبث أمير الممتونين بعد جوازه إلى الأندلس، وظهوره على طائفة الروم، أن قَسَد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس، وعزم على خلعهم، فأجاز من سَبَّته العساكر، وسيرِب الأمداد. وأخذ المعتمد بالعزم يحصِّن حصونه، وأودع المعازل عُدته، وقَسَم على مظان الامتناع ولده، وصمَدت الجموع صَمْدة بنيهِ، ونازل الأمير سِيْرُ إشبيلية، دار المعتمد، وحَضْرَة ملكه، ونازل الأمير محمد ابن الحاج قرطبة، وبها المأمون، ونزل جُرُور من قواده زُئدة، وبها الرّاضي ابن المعتمد. واستمرّ الأمر، واتصلت المحاصرة، ووقعت أمور يضيّق الكتاب على استقصائها. فدخلت قرطبة في جمادى الآخرة عام أربعة وثمانين وأربعمئة، وقُتل الرّاضي، وجُلِب رأسه فطيف به بمرأى من أبيهِ. وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القُهر والغلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب، وشملت الغارة، واقتُحمت الدُور، وخرج ابن عباد في شِكْته^(١)، وابنه مالك في أُمته معهما، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة وزَهقت الخيل، وكَثُر، فدخل القصر مُلقياً بيده. ولما جَنّ الليل، وجّه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فحُجِب عنه، ووُكِّل بعض خدمه به، وعاد إلى المعتمد فأخبره بالإعراض عنه، فأيقن بالهَلَكَة، وودَّع أهله، وعلا البكاء، وكَثُر الصُّراخ، وخرج هو وابنه، فأنزلا في خِباء حصين، ورُقبا بالحرس، وأخرج الحَرَم من قصره، وضَم ما اشتمل عليه، وأمر بالكُتْب إلى ولده برُئدة ففعل. ولما نزل، واستوصلت ذخيرته، سلا، وأجيز المعتمد البحر، ومَن معه إلى طنجة، فاستقرَّ بها في شعبان من العام، وفي هول البحر عليه في هذا الحال، يقول رحمه الله: [البسيط]

لم أنس والموت يُذَنِّبِي وَيُقْصِيْنِي والموت كأَنّ المني يَأْتِينِي
أبصرْتُ هَوْلًا لو أَنَّ الدهرَ أَبْصَرَهُ لما خُوفًا لأمرٍ ليس بالدُون

قد كنت ضائاً بنفس لا أجود بها فبغتها باضطرارٍ بئع مغبون
كم ليلة بث مطوياً على حرق في عسرٍ من عيون الدبر في العين
فتلك أحسن أم ظلمت به في ظل عزة سلطان وتمكين؟
ولم يكن والذي تغنو الوجوه له عرّضي مهاناً ولا مالي بمخزون
وكم خلوت من الهيجا بمعترك والحرب تزفل في أثوابها الجون
يا رب إن لم تدع حالاً أسر به فهب لعبدك أجراً غير ممنون

وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، واضطرتهن الضيقة إلى معيشتهن من غزل أيديهن، وجرت عليه محن طال لها شجنه وأقعده قيده، إلى أن نقل إلى أغمات وريكة، وحل عنه الاعتقال، وأجرى عليه رزقه، تبلغ به لمدة من أعوام أربعة، واستنقذه جمامه، رحمة الله عليه.

وصوله إلى غرناطة: قال ابن الصيرفي: وقد أجرى ذكر تملك يوسف بن تاشفين غرناطة، وخلع أميرها عبد الله بن بلقين حفيد باديس، يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب عام ثلاثة وثمانين^(١)، ولحق ابن عباد^(٢) وحليفه ابن مسلمة^(٣) بخيل ورجل وزمالة وعدد، وحل ذلك من ابن عباد تضمناً لمسرة أمير المسلمين، وتحققاً بموالاته، فدخل عليه، وهنأه، وقد تحكمت في نفس ابن عباد الطماعية في إسلام غرناطة إلى ابنه^(٤)، بعد استئصاف نعمة صاحبها، عوضاً عن الجزيرة الخضراء، وكان قد أشخصه معه، فعرض بغرضه، فأعرض أمير المسلمين عن الجميع إعراضاً، كانت منية كل منهما التخلص من يده، والرجوع إلى بلده، فأعمل ابن عباد الحيلة، فكتب، يزعم أنه وردت عليه تحثه من إشبيلية في اللحاق أنباء مهمة طرقت بتحريك العدو، واستأذن بها في الصدور، فأخذ له ولحليفه ابن مسلمة، فانتهزا الفرصة، وإبتدرا الرجعة، ولحق كل بموضعه يظن أنه ملك رئاسة أمره.

مولده: ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. وولي سنة إحدى وستين. وخلع سنة أربع وثمانين.

(١) كذا ورد في الإعلام بمن حلّ مراكز وأغمات من الأعلام (ص ٣٢٠).

(٢) هو المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية. وقصته والمتوكل بن الألفس مع ابن تاشفين الواردة هنا، انظرها في رقيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٨٥) والحلل الموشية (ص ٥١ - ٥٢) والبيان المغرب (ج ٤ ص ١٢٧، ١٤٣ - ١٤٤).

(٣) هو المتوكل بن الألفس، صاحب بطليوس. (٤) هو الراضي يزيد ابن المعتمد بن عباد.

وفاته: كانت وفاة المعتمد على الله بأغصات في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، بعد أن تقدمت وفاته وفاة الحرة اعتماد، وجزع عليها جزعاً أقرب سرعة لحاقه بها. ولما أحس بالمنية رثى نفسه بهذه الأبيات وأمر أن تُكتب على قبره^(١):
[البسيط]

فَبَرَّ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحِ الْغَادِي	حَقًّا ظَفِرْتَ بِأَسْلَاءِ ابْنِ عَبَادٍ
بِالْجَلْمِ بِالْعِلْمِ بِالْتَّعْمَى إِذَا اتَّصَلَتْ	بِالْخُضْبِ إِنَّ أَجْدَبُوا بِالرَّيِّ لِلصَّادِي
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَلُوا	بِالْمَوْتِ أَحْمَرُ بِالضَّرْغَامَةِ الْعَادِي
بِالدَّهْرِ فِي نَيْمٍ بِالْبَحْرِ فِي نَيْمٍ	بِالْبَذْرِ فِي ظُلْمٍ بِالضُّدْرِ فِي النَّادِي
نَعَمْ هُوَ الْحَقُّ فَاجَانِي ^(٢) عَلَى قَدَرٍ	مِنَ السَّمَاءِ وَوَأَفَانِي ^(٣) لِمِيعَادٍ
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ التَّغَشَّ أَغْلَمُهُ	أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادَى فَوْقَ أَعْوَادٍ
كَفَاكَ فَارَقْتُ بِمَا اسْتَوْدَعْتَ مِنْ كَرَمٍ	رَوَاكَ كُلُّ قَطُوبٍ الْبَرْقِ رَعَادٍ
يَبْكِي أَخَاهُ الَّذِي غَيَّبَتْ وَابِلُهُ	تَحْتَ الصُّفِيحِ بِدَمْعٍ رَائِحِ غَادِي
حَتَّى يَجُودَكَ دَمْعُ الطَّلِّ مِنْهُمْ رَا	مِنْ أَغْنَى الزُّهْرِ لَمْ تَبْخُلْ بِإِسْعَادٍ
فَلَا ^(٤) تَزَلْ صَلَوَاتُ اللَّهِ نَازِلَةً ^(٥)	عَلَى دِفِينِكَ لَا تُخْصِي بِتَعْدَادٍ

بعض ما رثى به: قال ابن الصيرفي: وخالف في وفاة المعتمد، فقال: كانت في ذي حجة. فلما انفصل الناس من صلاة العيد، حفَّ بقبره ملأً، يتوجعون ويترحمون عليه، وأقبل ابن عبد الصمد، فوقف على قبره وأنشد^(٦):
[الكامل]

مَلِكُ الْمَلُوكِ، أَسَامِعُ فَنَادِي	أَمْ قَدْ عَذَّتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِي؟
لَمَّا خَلَّتْ ^(٧) مِنْكَ الْقُصُورُ فَلَمْ ^(٨) تَكُنْ	فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ فِي هَذَا الشَّرَى لَكَ خَاضِعًا	وَتَّخِذْتُ ^(٩) قَبْرَكَ مَوْضِعَ الْإِنْشَادِ

(١) الأبيات في المعجب (ص ٢٢٢)، وهي غير واردة في ديوانه.

(٢) في الأصل: «فاجاني» وهكذا يتكسر الوزن. وفي المعجب: «نعم هو الحق حاباني به قَدَرًا».

(٣) في المعجب: «فوافاني». (٤) في المعجب: «ولا».

(٥) في المعجب: «دائمة».

(٦) الأبيات في قلاند المقيان (ص ٣٠) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٨٩) وجاء في الأخير أن الشاعر هو: أبو بحر عبد الصمد.

(٧) في وفيات الأعيان: «نقلت عن».

(٨) في المصدر: «ولم».

(٩) في وفيات الأعيان: «وجعلت».

ثم خَرَّ يبكي، ويُقْبَلُ القبر ويعفُر وجهه في التراب، فبكى ذلك الملاً حتى أخضَلوا ملابسهم، وارتفع نسيجهم، فلله درُّ ابن عبد الصمد، وملاذ ذلك البلد.

محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مَرْدَنِيَش الجُدَامِي^(١)

قال بعضهم: ينتمي في تُجِيب، الأمير أبو عبد الله.

أُولَيْتِه: معروفة. وعلى يد أبيه جَزَتِ الوقعة الكبرى بظاهر إفراغة^(٢)، على ابن رُذْمِير الطاغية، فجَلَّتْ الشُّهرة، وعُظِّمَت الأثرة. قال بعضهم: تولى أبوه سعد قيادة إفراغه وما إليها، وضبطها. ونازلها ابن رذمير، فشهر غناؤه بها في دفاعه، وصبره على حصاره، إلى أن هزمه الله عزَّ وجلَّ، على يدي ابن غانية. وظهر بعد ذلك فحسُن بلاؤه، وبعُدَ صيته. ورأس ابنه محمد، ونَقَّقَ في أُلُقَتِه. وكان بينه وبين ابن عياض المتأمر بمُرْسِيَةِ صِهْرٍ، ولَّاه لأجله بِلَنَسِيَةِ. فلما توفي ابن عياض، بادرها ابن سعد، وبلغه أثناء طريقه غدر العدو بحصن جلال، فكَرَّ وقاد له وفتح. وعاد فملك بِلَنَسِيَةِ، وقد ارتفع له صيْتُ شهير، ثم دخلت مُرْسِيَةُ في أمره، واستقام له الشُّرق، وعُظِّمَت حاله.

حالُه: قال ابن حمامة: ساد من صغره بشجاعته ونجابته، وصيت أبيه، فمال بذلك إلى القيادة، وسُنَّه إحدى وعشرون سنة. ثم ارتقى إلى المُلْكِ الراسخ، والسلطان الشامخ، بباهر شجاعته وشهامته، فسَمَا قُدْرُه، وعظم أمره، وقَسَى في كل أمة ذكره.

وقال غيره: كان بعيد الغور، قويَّ الساعد، أصيل الرأي، شديد العزم، بعيد العفو، مؤثراً للانتقام، مرهوب العقوبة.

وقال في مختصر «ثورة المُريدين»^(٣): كان عظيم القوة في جسِّمه، ذا أيدٍ في عظمتِه، جَزَارَةٌ في لحمه، وكان له فروسيَّة، وشجاعة، وشهامه، ورناسة.

(١) ترجمة ابن مردنیش في المعجب (ص ٢٧٨) والمغرب (ج ٢ ص ٢٥٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٥٩) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٥٧) واسمه فيه: محمد بن أحمد بن سعيد بن مردنیش، ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٨٥، ٢٨٩) و(ج ٥ ص ٤١، ٤٥) و(ج ٦ ص ١٤٧، ٢١٥، ٢٣٥).

(٢) إفراغه بالإسبانية Fraga، وهي مدينة بغربي لاردة، لها حصن منيع وبساتين كثيرة. حاصرها ابن رذمير سنة ٥٢٨ هـ، فتصدى له يحيى بن علي بن غانية فهزمه بعد أن قُتل أكثر رجاله بالجملة، وفرَّ ابن رذمير. الررض المعطار (ص ٤٨).

(٣) هذا الكتاب لابن صاحب الصلاة، صاحب كتاب: «تاريخ المن بالإمامة». ولسوء الحظ، فقد =

بطالته وجوده: قال: وكان له يومان في كل جمعة؛ الاثنين والخميس، يشرب مع ندمائه فيهما، ويجرد على قواده، وخاصته وأجناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القيان بمزاميرهن وأغواذهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملّك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وقب المال في مجالس أنسه.

ذكر أنه استدعى يوماً ابن الأزرق أحد قواده، فشرب معه ومع القرابة، في مجلس قد كساه بأحمر الوشي والوطيء والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى في لهو وشراب عامة اليوم، فلما كمل نهاره معهم، وهبهم الآنية، وكل ما كان في المجلس من الوشي وغير ذلك.

ما نقم عليه ووصم به:

قالوا: كان عظيم الانهماك في ميدان البطالة، واتخذ جُملة من الجواري، فصار يُراقِد منهن جملة تحت لحاف واحد^(١). وانهمك في حُب القيان، والزُمَر والرقص. قالوا: وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقبة سمينة، وقفاً عريض، فإذا شرب، كان يرزّه، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلًا. وفي ذلك يقول كاتبه المعروف بالسالمي، وكان يحضر شرابه ويخمر: [المنسرح]

أدِرْ كَوُوسَ الْمُدَامِ وَالرُّزْ	فَقَدْ ظَفِرْنَا بِدَوْلَةِ الْعِرْ
وَنِعِمَّ الْكَفُّ مِنْ قَفَا حَسَنِ	فَإِنَّهَا فِي لِيَانَةِ الْخَرْ
وَصَاحِبٌ إِنْ طَلَبْتُ أَخْدَعَهُ	فَلَمْ يَكْ ^(٢) فِي بَذْلِهِ بِمَعْتَزْ
انحنى على أخداعي فأطربني	وَهَزَّ عَطْفِي أَيْمًا هَزْ

وأجزل صلة السالمي حين أنشدّها إياه، واشتهرت هذه الأبيات بالشرق، واستظرفها الناس. فردّ مرسية دار مجونه، وبلغ في زمانه ألفاً وأربعين. وأثر زِيّ النصارى من الملابس، والسلاح، واللّجم، والسروج. وكَلَّفَ بلسانهم يتكلم مُباهتة، والجأه الخروج عن الجماعة، والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصاري، ومُصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم، فصالح صاحب بَزْشِلُونَة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك

= هذا الكتاب، وهو يتناول تاريخ طائفة دينية دعت إلى الزهد والتقشف بزعامة أبي العباس أحمد بن قسي. راجع تاريخ المن بالإمامة (مقدمة المحقق).

(١) قال ابن الخطيب في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١): «فكان يُراقِد أَزِيدَ من مائتي جارية تحت لحاف واحد».

(٢) في الأصل: «فلم يكن» وهكذا ينكسر الوزن.

فُشْتَالَة على أخرى؛ فكان يبذل لهم في السنة خمسين ألف مثقال. وابتنى لجيشه من
التصارى منازل معلومات وحانات للخمور، وأجحف برعيته لأرزاق مَنْ استعان به
منهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت، واتخذ حوانيت بيع الأذم والمرافق، تختنق
بجانبه، وجعل على الأغنام وعروض البقر، مَوْناً غريبة. وأما رسوم الأعراس
والملاهي، فكانت قبالاتها غريبة. حدث بعض المؤرخين عن الثقة، قال: كنت بجيان
مع الوزير أبي جعفر الوَقْشي، فوصل إليه رجل من أهل مرسية، كان يعرفه، فسأله
الوزير عن أحوال ابن مردنیش وعن سيره، فقال الرجل: أخبرك بما رأيته من جَوْر
عَمَّاله وظلمهم؛ وذلك أن أحد الرعية بشاطبة واسمه محمد بن عبد الرحمن، كان له
بنظر شاطبة، ضُويعة يعيش بها، وكان لازمها أكثر من فائدها، فأعطى لازمها حتى
افتقر، وفرَّ إلى مُرسية. وكان أمر ابن مردنیش، أنه مَن فرَّ من الرعية أمام الغزو، أخذ
ماله للمخزن. قال الرجل الشاطبي: فلما وصلت إلى مرسية فارّاً عن وطني، خدمتُ
الناس في البَتَّيان، فاجتمع لي مثقالان سَعْدَيَان، فبينما أنا أمشي في السوق، وإذا بقوم
من أهل بلدي شاطبة، ومن قرابتي، فسألتهم عن أولادي وزوجتي، فقالوا: إنهم في
عافية، ففرحت فرحاً عظيماً، وسألتهم عن الضُويعة، فقالوا: إنها باقية بيد أولادك،
فقلت لهم: عسى تَبْتَوا عندي الليلة، فاشتريت لحماً وشراباً، وضربنا دُفّاً. فلما كان
عند الصباح، وإذا بنقر عنيف بالباب. فقلت: مَنْ أنت؟ فقال: أنا الطَّرْقُون الذي بيده
قَبَالَة اللّهُو، وهي مثقفة بيدي، وأنتم ضربتم البارحة الدُف فاعطنا حق العُرس الذي
عَمِلْت. فقلت له: والله ما كانت لي عُرس، فأخذتُ وسُجِنْتُ، حتى افتديت بمثقال
واحد من الذي خدمت به، وجئت إلى الدار، فقبل لي إن فلاناً وصل من شاطبة
الساعة، فمشيت لأسأله عن أولادي، فقال: تركتهم في السَّجْن، وأخذت الضُويعة من
أيديهم في رسم الجبالي، فرجعت إلى الدار، إلى قرابتي، وعزفتهم بالذي طرأ عليّ،
وبكيت طول ليلتي، وبكوا معي، فلما كان من الغد، وإذا بناقر بالباب، فخرجت،
فقال: أنا رجل صاحب الموارث، أعلمنا أنكم بكيتم البارحة، وأنه قد مات لكم
ميت من قرابتكم غني، وأخذتم كلَّ ما ترك، فقلت: والله ما بكيتُ إلّا نفسي،
فكذبني وحملني إلى السَّجْن، فدفعت المِثْقَال الثاني، ورجعت إلى الدار وقلت:
أخرج إلى الوادي، إلى باب القنطرة، أغسل ثيابي من دَرَن السَّجْن، وأفرُّ إلى العدوّة،
فقلت لامرأة تغسل الثياب: اغسلي مما عليّ، وجَرِّدْتها، ودَفَعْتُ لي زنازاً ألبسه. فينا
أنا كذلك، وإذا بالخصيِّ قائد ابن مردنیش، يسوق ستين رجلاً من أهل الجبل، لابسي
الزنانير، فرآني على شكلهم، فأمر بحملي إلى السُّخرة والخدمة بحصن مسقوط عشرة
أيام، فلبثت أخدم وأحضّر مدة عشرة أيام، وأنا أبكي وأشتكي للقائد المذكور، حتى
أشفق عليّ وسرّحني. فرجعتُ أريد مرسية، فقبل لي عند باب البلد: كيف اسمك؟

فقلت: محمد بن عبد الرحمن، فأخذني الشرطي، وحملت إلى القابض بباب القنطرة، فقالوا: هذا من كتبه من أرباب الحالي بكذا وكذا دينار، فقلت: والله ما أنا إلا من شاطبة، وإنما اسمي وافق ذلك الاسم، ووصفت له ما جرى علي، فأشفق وضحك مني؛ وأمر بتسريحي، فسرت على وجهي إلى هنا.

بعض الأحداث في أيامه، ونبد من أخباره:

استولى على بلاد الشرق، مرسية وبَلَنَسِيَّة وشاطبة ودانية، ثم اتسع نطاق ملكه، فولّي جِيَّان، وأبدة، وبَيَّاسَة، وبَسْطَة، ووادي آش. وملك قَرْمُونَة، ونازل قرطبة وإشبيلية، وكاد يستولي على جميع بلاد الأندلس، فولّي صهره ابن هَمْشُك، وقد مر في باب إبراهيم، مدينة جِيَّان وأبدة وبَيَّاسَة، وضيّق منها على قرطبة، واستولى على إستجة، ودخل غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وثار عليه يوسف بن هلال من أصهاره بحصن مطريش وما إليه. ثم تفسد ما بينه وبين صهره الآخر ابن هَمْشُك، فكان سبب إظهار أمره، واستولى العدو في مدة ابن سعد على مدينة طُرُوشَة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة، وعلى حصن إقليج، وحصن شرانية.

دخوله غرناطة: ولما دخل ابن هَمْشُك^(١) مدينة غرناطة، وامتنعت عليه قصبتهَا، وهزم الجيش المُضْرَح لمن حُصر بها من الموحدين بمرج الرقاد^(٢) وثاب أثناء ذلك أمر الموحدين، فتجهز لتصرهم السيد أبو يعقوب، وأجاز البحر، واجتمعوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، استمدّ ابن هَمْشُك صهره الأسعد، أبا عبد الله محمد بن سعد، فخرج بنفسه في العسكر الكبير من أهل الشرق والنصارى، فوصل إلى غرناطة، واضطربت محلته بالريوة السامية المتصلة بربض البَيَّازين، وتُعرف إلى اليوم بكُديّة مردنيش، وتلاحق جيش الموحدين بأحواز غرناطة، فأبينوا جيش عدوهم، فكانت عليه الدُّبْرَة، وفر ابن مردنيش، فلحق بجيان، واتصلت عليه الغلبة من لدن منتصف عام ستين، فلم يكن له بعده ظهور.

وفاته: وظهر عليه أمر الموحدين، فاستخلصوا معظم ما بيده، وأوقعوا بجنده الوقائع العظيمة، وحُصر بمدينة مرسية، واتصل حصاره، فمات أثناء الحصار في عاشر

(١) هو القائد أبو الحسن بن همشك، صهر محمد بن مردنيش، كما ورد في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١).

(٢) مرج الرقاد: موضع بظاهر غرناطة، انهزم فيه الموحدون أقبح هزيمة سنة ٥٥٧ هـ على يد أبي الحسن بن همشك، صهر محمد بن مردنيش. راجع أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١).

رجب من عام سبعة وستين وخمسمائة^(١) وله ثمانية وأربعون عامًا، ووصل أمره أبو القمر هلال^(٢)، وألقى باليدين إلى الموحدين، فنزل على عهد ورسوم حسبا يأتي في موضعه.

محمد بن يوسف بن هود الجذامي

أمير المسلمين بالأندلس، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله^(٣).

أوليته: من ولد المستعين بن هود. وأوليتهم معروفة، ودولتهم مشهورة، وأمرؤهم مذكورون. خرج من مرسية تاسع رجب عام خمسة وعشرين وستمائة إلى «الصُخور» من جهاتها، في نفر يسير من الجنود معه، وكان الناس يستشعرون ذلك، ويرتقبون ظهور مسيى باسمه واسم أبيه، وينددون بإمرته وسلطانه. وجرى عليه بسبب ذلك امتحان في زمن الموحدين مرات، إذ كان بعض الهاتفين بالأمور الكائنة، والقضايا المستقبلية، يقول لهم: يقوم عليكم قائم من صنف الجند، اسمه محمد بن يوسف، فقتلوا بسبب ذلك شخصًا من أهل جيان. ويقال إن شخصًا ممن ينتحل ذلك، لقي ابن هود، فأمعن النظر إليه، ثم قال له: أنت سلطان الأندلس، فانظر لنفسك، وأنا أدلك على من يقيم مُلكك، فاذهب إلى المُقَدِّم العُشتي فهو القائم بأمرك. وكان العُشتي^(٤) رجلًا صُعلوكًا^(٥) يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد^(٦) الرجال، وسباع الشَّرار، قد اشتهر أمرهم، فنهض إلى المقدم، وعرض عليه الأمر، وقال: نستفتح بمُقاورة إلى أرض العدو، على اسمك وعلى سعدك، ففعلوا، فجلبوا كثيرًا من الغنائم والأسرى، وانضاف إلى ابن هود طوائف مثل هؤلاء، وبايعوه

(١) كذا في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦٢)، وفي المعجب (ص ٢٧٩) أنه مات في شهر سن ٥٦٨ هـ. وفي نفع الطيب (ج ٦ ص ١٤٧، ٢٣٥) أن وفاته كانت سنة ٥٦٦ هـ.

(٢) هو هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش، تولى الأمر بعد موت أبيه سنة ٥٦٧ هـ، ولكنه خالف أباه في العداء للموحدين، فتخلّى عن مرسية، وأذعن للخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧١).

(٣) ترجمة المتوكل محمد بن يوسف بن هود في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٧٦) والمعجب (ص ٤١٧) والمغرب (ج ٢ ص ٢٥١) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٦١) والحلة السيرة (ج ١٢٨ ص ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٧) والأعلام للزركلي (ج ٧ ص ١٤٩).

(٤) قارن بالبيان المغرب (قسم الموحدين ص ٢٧٦).

(٥) في البيان المغرب: «حراسًا».

(٦) في البيان المغرب (ص ٢٧٧): «من أراذل الناس».

به «الصُّخَيْرَات»^(١) كما ذكر، من ظاهر مرسية، وتحرك إليه السيد أبو العباس بعسكر مرسية، فأوقع به وشرّده، ثم تاب إليه ناسه، وعدل إلى الدُّعاء للعباسيين، فتبعه اللّيف، ووصل تقليد الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكره، وملك القواعد، وجيش الجيوش، وقهر الأعداء، ووفى للغشّي بوعده، فولّاه أسطول إشبيلية، ثم أسطول سبّنة، مضافاً إلى أمرها، وما يرجع إليه، فثار به أهلها بعد وخلعوه، وفرّ أمامهم في البحر، وخفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً في البحر بغرب الأندلس، ودام زماناً، ثم تخلص في سنّ الشيخوخة، ومات برباط آسفي.

حاله: كان شجاعاً، ثبّتاً، كريماً حيّاً، فاضلاً، وفياً، متوكّلاً عليه، سليم الصدر، قليل المبالاة، فاستغلى لذلك عليه ولأته بالقواعد، كأبي عبد الله بن الرُّممي بالمرية، وأبي عبد الله بن زنون بمالقة، وأبي يحيى عتّبة بن يحيى الجزولي بغرناطة. وكان مجذوداً، لم ينهض له جيش، ولا وفق لرأي؛ لغلّبة الخفة عليه، واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى اللقاء، من غير كمال استعداد.

بعض الأحداث في أيامه^(٢):

جرت عليه هزائم، منها هزيمة السلطان الغالب بالله إياه مرّتين، إحداهما بظاهر إشبيلية، وركب البحر فنجا بنفسه، ثم هزمه بالبييرة من أحواز غرناطة، زعموا كل ذلك في سنة أربع وثلاثين وستمائة أو نحوها.

وفي سنة خمس وثلاثين، كان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بإشبيلية، فهزمه المأمون أقبح هزيمة، واستولى على محلّته، ولاذ منه بمدينة مُرسية.

ثم شغل المأمون الأمر، وأهمّته الفتنّة الواقعة بمراكش، فصرف وجهه إليها، وثاب الأمر للمتوكل، فدخلت في طاعته المرية، ثم غرناطة، ثم مالقة. وفي سبع وعشرين وستمائة، تحرك بفضل شهامته بجيوش عظيمة، لإضراخ مدينة ماردة، وقد نازلها العدو وحاصر، ولقي الطاغية بظاهرها، فلم يتأّن، زعموا، حتى دفع بنفسه العدو، ودخل في مصافّه، ثم لما كز إلى ساقّته، وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم، فاستولت عليه هزيمة شنيعة، واستولى العدو على ماردة بعد ذلك.

(١) في البيان المغرب (ص ٢٧٧) أن الصخيرات موضع بمقرية من مرسية.

(٢) قارن بالبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٨٨ - ٢٨٩، ٢٩٤).

وفُتِحَ عليه في أمور، منها تملكه إشبيلية سنة تسع وعشرين وستمائة، ووُلِّيَ عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالمًا الملقب بعماد الدولة. وفي سنة إحدى وثلاثين، رَجَعَت قرطبة إلى طاعته، واستَوْسَقَ أمره. وتملك غرناطة ومالقة عام خمسة وعشرين وستمائة، ودانت له البلاد. وفي العشر الأول من شوال، دخل في طاعته الرئيس أبو زكريا، وأبو عبد الله، ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد، وخرجا عن طاعة الأمير أبي جَمِيل، وأخذوا البيعة لابن هود على ما في أيديهما. وفي سنة ست وعشرين وستمائة، تملك الجزيرة الخضراء عَثْوَة، يوم الجمعة التاسع لشعبان من العام، وفي العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو وُجْهَة مدينة وادي آش، فأسرى ليله مسرجًا بقية يومه، ولحق بالعدو على ثمانين ميلًا، فأتى على آخرهم، ولم يَنْجُ منه أحد.

إخوته: الرئيس أبو النجاة سالم، وعلامته: «وُثِقْتُ بالله»، ولقبه «عماد الدولة»، والأمير أبو الحسن عضد الدولة، وأسره العدو في غارة، وافتكّه بمال كثير، والأمير أبو إسحق شرف الدولة. وكلهم يَكْتَبُ عنه، من الأمير فلان.

ولده: أبو بكر الملقب بالواثق بالله، أخذ له البيعة على أهل الأندلس، في كذا، ووُلِّيَ بعده وليّ عهده، واستقل بملك مرسية، ثم لم يَنْشِبْ أن هلك.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة مرّات عديدة، إحداها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة، وقد وردت عليه الرّاية والتقليد من الخليفة العباسي ببغداد. وبمصلّى غرناطة، قرىء على الناس كتابه، وهو قائم، وزيّ السّواد، ورايته السّوداء بين يديه، وكان يوم استِسْقَاء، فلم يَسْتَمْ على الناس قراءة الكتاب يومئذ، إلّا وقد جادت السماء بالمطر، وكان يومًا مشهودًا، وصُنْعًا غريبًا، وأمر بعد انصرافه، أن يَكْتَبَ عنه بتلك الألقاب التي تضمّنّها الكتاب المذكور إلى البلاد.

وفاته: اختلف الناس في سبب وفاته، فذكر أنه قد عاهد زَوْجَه ألا يتخذ عليها امرأة طول عمره، فلما تَصَيَّرَ إليه الأمر، أعجبه روميّة حصلت له بسبب السّبي من أبناء زعمائهم، من أجمل الناس، فسَرَّها عند ابن الرّميمي خليفته، فزعموا أن ابن الرميمي عَلِقَ بها، ولما ظهر حَمْلُها، خاف افتضاح القصة، فدبّر عليه الحيلة، فلما حلّ بظاهر الرميّة، عرض عليه الدخول إليها، فاغتاله ليلاً، بأن أقعد له أربعة رجال، قضاوا عليه حَتْفًا بالوسائد. ومن الغد ادّعى أنه مات فجأة، ووقف عليه العُدُول، والله أعلم بحقيقة الأمر سبحانه، وكانت وفاته ليلة الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام خمسة وثلاثين وستمائة. وفي إرجاف الناس بولاية ابن هود، والأمر قبل وقوعه،

يقول الشاعر: [الطويل]

هُمَامٌ بِهِ زَادَ الزَّمَانُ طَلَاقَةً وَلَذْتُ لَنَا فِيهِ الْأَمَانِي مَوْرَدًا
فَقُلْتُ لِبَنِي الْعَبَّاسِ هَا هِيَ دَوْلَةٌ أَغَارَ بِهَا الْحَقُّ الْمُبِينُ وَأَنْجَدَا
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ جَاءَ فِي الْكُتُبِ وَضْفُهُ بَتْمَهيدَ هَذِي الْأَرْضِ قَدْ جَاءَ فَاغْتَدَا
فَإِنَّ بَشَرَتَنَا بِابْنِ هُودٍ مُحَمَّدٍ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ ابْنَ هُودٍ مُحَمَّدًا

محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن
ابن أيوب بن حامد بن زيد بن منخل الغافقي

يكنى أبا بكر، من أهل غرناطة. وسكن وادي آش.

أَوَّلِيَّتُهُ: أصل هذا البيت من إشبيلية، وذكره الرازي في الاستيعاب، فقال: وبإشبيلية بيتُ زيد الغافقي، وهم هناك جماعة كبيرة، فرسانٌ ولهم شرف قديم، وقد تصرّفوا في الخدمة. بَلْدِيُون^(١)، ثم انتقلوا إلى طُلَيْطَلَة، ثم قُزْطَبَة، ثم غَرْنَاطَة. وذكر الملاحى في كتابه الحسن بن أيوب بن حامد بن أيوب بن زيد، وعَدَهُ من أهل الشورى، وقُضَاة الجماعة بغرناطة. وأحمد بن زيد بن الحسن هو المَقْتُول يوم قيام بني خالد، بدعوة السلطان أبي عبد الله الغالب بالله بن نصر^(٢)، وكان عامِلَ المتوكل على الله بن هود بها، وعَمُنَ جُمع له بين الدين والفضل والمالِية.

حاله ونباهته ومحتة ووفاته:

كان هذا الرجل عَيْنًا من أعيان الأندلس، وصدرًا من صدورها، نشأ عَفَا مُتَصَاوِنًا عَزُوفًا، وطلاوةً، نزيهاً، أبيضاً، كريم الخؤولة، طيب الطعْمة، حُرُّ الأصالة، نبه الصَّهْر. ثم استعمل في الوزارة ببلده، ثم قُدِّمَ على مَنْ به من الفرسان، فأوْرَدَهُم الموارد الصَّفِيَّةَ بإقْدَامِهِ، واستباح من العُدُوِّ الفرصة، وأكسبهم الذِّكْرَ والشَّهْرَةَ، وأنفق في سبيل الله، إلى غضاضة الإيمان، وصِحة العقد، وحُسن الشِّيمَةِ، والاسترسال في ذكر التواريخ، والأشعار الجاهليَّة، والأمثال، والتمسك بأسباب الدين، وسَخْب أذْيَال الطَّهَارَةِ، وهجر الخبايث، وإيثار الجَدِّ، والانحطاط في هوى الجماعة.

(١) البلديون: هم العرب الذين دخلوا الأندلس على يد موسى بن نصير، والشاميون هم العرب الذين دخلوا الأندلس مع بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٣ هـ. راجع الجزء الأول من الإحاطة في «فصل في فتح هذه المدينة».

(٢) هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي الأنصاري، حكم غرناطة من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. راجع اللوحة البدرية (ص ٤٢).

مشيخته: قرأ بغرناطة على شيخ الجماعة أبي عبد الله بن الفَخَّار، وببلده على الأستاذ أبي عبد الله الطُّرْسُونِي، وبه انتفاعه. وكان جَهْوَري الصُّوت، متفاضلاً، قليل التهَيُّب في الحفل. ولما حدث بالسلطان أبي عبد الله من كِياد دولته، وتلاحق بوادي آش مُفْلَتًا، قام بأمره، وضبط البلد على دعوته، ولمَّ المُدَاهنة في أمره، وجعل جِيل عدوه دُبْر أذنه، إلى أن خرج عنها إلى العُدوة، فكان زمان طريقه مُفْدِيًا له بنفسه، حتى لحق بمَأْمَنه، فتركها مغربة.

خبر في وفاته ومغْرجه:

وكانت الحمد لله على مَحْمده، واستأثر به الدَّاخل، فشُدَّ عليه يد اغتباطه، وأغرى به عقد ضَنائته، وخلطه بنفسه، ثم أغرى به لمكانته من الشهامة والرياسة، فتَقَبَّض عليه، وعلى ولده، لأب باب بني وقته، وغُرَّة أبناء جنسه، فأودعهما مُطْبِق أرباب الجرائم، وهَمَّ باغتيالهما، ثم نقلهما إلى مدينة المُنْكَب ليلة المنتصف لمحرّم من عام اثنين وستين وسبعمائة في جُمْلَة من النُّبهاء مأخوذِينَ بمثل تلك الجريمة. ثم صُرف الجميع في البحر إلى بجاية، في العشر الأول لربيع الأول مُصَفَّدِينَ. ولما حلّوا بها، أقاموا تحت برٍّ وتجلّة. ثم ركبوا البحر إلى تونس، فقطع بهم أسطول العدو بأحواز تَكَرَّنت، ووقعت بينه وبين المسلمين حرب، فكَرُم مقام المترجم يومئذ، وحسُن بلاؤه. قال المُخْبِر: عهدي به، وقد سلَّ سيقًا، وهو يضرب العدو ويقول: اللهم اكْتُبْها لي شهادة. واستولى العدو على مَنْ كان معه من المسلمين، ومنهم ولده، وكتب: افْتَكُ الجميع ببلد العُتَاب، وانصرف ابنه إلى الحج، وآب لهذا العهد بخلال حميدة كريمة، من سُكون وفضل ودين وحياء، وتلاوة، إلى ما كان يجده من الرِّكْض، ويعانيه من فروسية، فمضى على هذا السبيل من الشهادة، نفعه الله، في ليلة الجمعة الثامن لرجب من عام اثنين وستين وسبعمائة.

شعره: أشدني قاضي الجماعة أبو الحسن بن الحسن له: [البسيط]

يا أيها المرتجى للطف ^(١) خالقِه	وقضيه في صلاح الحال والمال
لو كنتَ توقن حقًا لطفَ قُدْرته	فاستمع بأنفك عن قيل وعن ^(٢) قال
فلنَّ لله لطفًا عزَّ خالقنا	عن أن يُقاس بتشبيهه وتمثال
وكل أمرٍ وإن أغياك ظاهره	فالصنع في ذاك لا يجري على بال

(١) في الأصل: «الطف» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) كلمة «عن» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

محمد بن أحمد بن محمد الأشعري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن المحروق، الوكيل بالدار السلطانية، القَهْرمان بها، المُستَوَزِر آخر عمره، سداد من عَوْن.

حاله وأوليته وظهوره: كان، رحمه الله، من أهل العفاف والتَّصاؤُن، جانحًا إلى الخير، مُحِبًّا في أهل الإصلاح، مَغْضُوض الطَّرْف عن الحُرْم، عَفِيفًا عن الدماء، مستمسكًا بالعدالة، من أهل الخصوصية، كتب الشروط، وبرز في عُدُول الحضرة. وكان له خط حسن، ومشاركة في الطلب، وخصوصًا في الغرايض، وحظه تافه من الأدب. امتدح الأمراء، فترقى إلى الكتابة مرؤوسًا مع الجملة. وعند الإيقاع بالوزير ابن الحكيم، تَعَيَّن لحصر ما استرفع من مُنْتَهَب ماله، وتحصل بالدار السلطانية من أثاثه وخَزَائِنِهِ^(١)، فحزم واضطلع بما كان داعية ترقيه إلى الوكالة، فساعده الوقت، وطلَّع له جاه كبير، وتملَّك أموالًا عريضة، وأرضًا واسعة، فجمع الدنيا بحزمه ومثابرته على تَنْمِية داخله. وترقى إلى سماء الوزارة في الدَّولة السادسة من الدول النُضْرِيَّة^(٢)، بتدبير شيخ الغَزَاة، وزعيم الطائفة عثمان بن أبي العلي^(٣)، فوصله إلى أذوار دنياه، والله قد خَبَأَ له المكروه في المحبوب، وتأذَّن الله سبحانه بنفاد أجله على يده، فاستولى وَحَجَّبَ السلطان. ثم وقعت بينه وبين مُرَشَّعه الوَخْشَة الشهيرة عام سبعة^(٤) وعشرين ومبعمائة، مارسًا لمكان الفتنة، صِلَةً فارط في حَجْب السلطان، وأجلى جُمْهُور ما كان ببابه، ومنع من الدخول إليه، فاضطربت حاله، وأعمل التدبير عليه، فهجم عليه بدار الحُرَّة الكبيرة جَدَّة السلطان، وكان يعارضها في الأمور، ويجعلها تكأة لغرضه، فَتَيَّان من أحداث الممالك المُسْتَبْقِينَ مع محجوبه، تناولاه سَطًا بالخناجر، ورمى نفسه في صِهْرِيح الدار، وما زالا يَتَعَاورانه من كل جانب حتى فارق الحياة، رحمه الله تعالى.

مُشِيخْتَه: قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزُّبَيْر، وكانت له فيه فِرَاسَة صادقة.

(١) الأثاث: ما جَدَّ من متاع البيت، ولا واحد له. والخَزَائِنُ: أردأ متاع البيت. محيط المحيط (أث) و(خزث).

(٢) المراد بالدولة السادسة سلاطين بني نصر، وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر. وترجمته في اللمعة البدرية (ص ٩٠). وترجم له ابن الخطيب في الجزء الأول من الإحاطة ترجمة ضافية.

(٣) في الأصل: «العلاء» والتصويب من اللمعة البدرية (ص ٩٣).

(٤) في الأصل: «سبع» وهو خطأ نحوي.

محمد بن فتح بن علي الأنصاري

يكنى أبا بكر، ويشهر بالأشيرون، قاضي الجماعة.

حاله: كان طرّفاً في الدّهاء والتخلّق والمعرفة بمقاطع الحقوق، ومغامز الرّيب، وعِلل الشهادات، فذاً في الجزالة، والضّرامة، مقدّاماً، بصيراً بالأمور، حسن السيرة، عذب الفكاهة، ظاهر الحُظوة، عليّ الرتبة. خرج من إشبيلية عند تغلب العدو عليها، ووَلّى القضاء بمالقة وبسطة. ثم وُلّي الحسبة بغرناطة، ثم جُمعت له إليها الشرطة. ثم قدّم قاضياً، واستمرت ولايته نحواً من ثلاثين سنة.

وفاته: توفي ليلة الحادي عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وتسعين وستمائة.

محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي ابن الزيات الكلاعي^(١)

ولد الشيخ الخطيب أبي جعفر بن الزيات، من أهل بلّش، يكنى أبا بكر.

حاله: من «عائد الصلة» من تأليفنا: كان، رحمه الله، شبيهاً بأبيه، في هذيه، وحسن سَمَنته ووقاره، إلا أنه كان حافظاً للرتبة، مقيماً للأبهة، مُستدعيّاً بأبيه ونفسه للتجلة، بقية من أبناء المشايخ، طرّفاً وأدباً ومروءة وحشمة، إلى خطّ بديع قيد البصر، ورواية عالية، ومشاركة في فنون، وقراءة، وفقه، وعربية، وأدب وفريضة، ومعرفة بالوثائق والأحكام. تولّى القضاء ببلده، وخلف أباه على الخطابة والإمامة، فأقام الرّسم، واستعمل في السّفارة، فسدّ مسدّاً مثله، وأقرأ ببلده، فانتفع به.

مشیخته: قرأ على الأستاذ الخطيب أبي محمد بن أبي السّداد الباهلي، وبغرناطة على شيخ الجماعة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، ومن أعلام مشيخته جدّه للأّم، خال أبيه، الحكمي العارف أبو جعفر ابن الخطيب أبي الحسن بن الحسن المذّججي الحمي، والخطيب الرّباني أبو الحسن فضل بن فضيلة، والوزير أبو عبد الله بن رُشيد.

(١) ترجمة محمد بن أحمد بن الزيات الكلاعي في الكتيبة الكامنة (ص ١١٥) ونيل الابتهاج (ص

محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج^(١)

يكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الحاج.

أوليته وحاله: كان أبوه نجارًا من مَدَجْنِي مدينة إشبيلية، من العارفين بالجيل الهندسية، بصيرًا باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها. وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدُولاب المنفَسَح القَطَر، البعيد المدى، مُلَيِّن المركز والمحيط، المتعدّد الأكواب، الخفيّ الحركة، حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد، دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الرُّكَّاب، وبناء دار الصُّنعة بسلا. وانتقل بعد مهلك أبيه إلى باب السلطان ثاني الملوك من بني نصر^(٢)، ومث إليه بوسيلة أذنت محلّه، وأسّنت جرياته، إلى أن تولّى وزارة ولده أمير المسلمين، أبي الجيوش نصر^(٣)، واضطلع بتدبيره، ونقم الناس عليه إشاره لمقالات الرُّوم، وانحطاطه في مَهْوَى لهم، والتشبه بهم في الأكل والحديث، وكثير من الأحوال والهيئات والاستحسان، وتطّريز المجالس بأمثالهم وجُكُمهم، سمةً وسمت منه عقلاً، لنشأته بين ظَهْرانيهم، وسبقت إلى قوى عقله المكتسب في بيوتهم، فلم تفارقه بحال، وإن كان آية في الدهاء، والنظر في رَجُلٍ بعيد الغور، عميق الفكر، قائم على الدُّمْنَة، مُنْطَوٍ على الرُّضْف، لَيِّن الجانب، مبذول البشر، وحيد زمانه في المعرفة بلسان الرُّوم وسيرهم، مُخَكِّم الأوضاع في أدب الخدمة، ذَرِب بالتصرف في أبواب الملوك.

وكان من ثورة العامة بسلطانه ما تقدم، وجهزوا بإسلامه إليهم، وقد ولّوه بسبب الثورة، وطوّقوه كياد الأزمة، فضنّ به السلطان ضنّانة أغرّبت عن وفائه، وصان مُهْجته، واستمرّ الأمر إلى أن خُلع الملك عن الملك. وكان نزول الوزير المذكور تحت خفارة شيخ الغُرّة، وكبير الطائفة، عثمان بن أبي العلى، فانتقل محفوظ

(١) ذكره ابن الخطيب في اللمحة البدرية (ص ٧١)، وقال: إنه تولّى وزارة سلطان غرناطة أبا الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر.

(٢) الصواب أنه ثالث سلاطين بني نصر، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، ووالد أبي الجيوش نصر. وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ. ترجمته في اللمحة البدرية (ص ٦٠). وقد تقدّمت ترجمته في الجزء الأول من الإحاطة.

(٣) هو أبو الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، رابع سلاطين بني نصر بغرناطة، حكم من سنة ٧٠٨ هـ إلى سنة ٧٢٢ هـ. ترجمته في اللمحة البدرية (ص ٧٠). وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثالث من الإحاطة.

الجملة، مَحْوَط الوفرة، ولم يَنْشِبْ إلى أن لجأ إلى العُدوة، واتصل بالأمير أبي علي عمر بن السلطان الكبير أبي سعيد، فحرَّكه، زعموا، على مُحَاذَة أبيه، وحمله على الاتِّيزاء، فكان ما هو معلوم من دُعائه إلى نفسه، ومنازعة أبيه، ولقائه إياه بالمُقَرَّمَة^(١)، وقُلَّ جيشه، وفي أثناءه هلك المترجم به.

وفاته: توفي بفاس الجديد في العشر الأول من شعبان عام أربعة عشر^(٢) وسبعمئة.

محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ابن أرقم الثميري

من أهل وادي آش، يكنى أبا يحيى.

حاله: كان صَدْرًا شهيرًا، عالمًا عَلمًا، حَسِيبيًا، أصيلًا، جَمُّ التحصيل، قوي الإدراك، مضطلعًا بالعربية واللغة، إمامًا في ذلك، مشاركًا في علوم من حساب وهيئة وهندسة. قال الشيخ: كان في هذا كله أبرع من لقيته، إلى سَرَاوة وفضل وتواضع ودين، جاريًا في ذلك على سُنن سلفه، وعلو مَحْتَدِه، جالسته، رحمه الله، كثيرًا عند عِلْيَة من أدركته بغرناطة؛ لإقامته بها، وتكرر لقائي إياه بها وبغيرها، فرأيت أصيلًا جليلاً قد جمع علمًا وفضلًا، وحُسن خلق، وكان حَسِن التقييد، لخطه رونق يمتاز به، ويبعد عن غيره. وُلِّي القضاء ببلده، ثم وُلِّي بعد مدة بَيْرْشَانَة^(٣)، فحمُدت سيرته.

مشيخته: أخذ القراءات السبع عن أبي كرم جودي بن عبد الرحمن، وقرأ عليه الغريب واللغة، ولازمه في ذلك، وأجاز له إجازة عامة، وأخذ من غيره ببلده، وصحب بَغْرِنَاطَة جُمْلَة من العلماء بها، أيام اختلافه إليها، وإقامته بها.

تواليقه: ألف كتابًا سماه «الاحتفال في استيفاء ما للخيل من الأحوال»، وهو كتاب ضخْم وقُفْتُ عليه من قبله وأقْدَتْهُ. واختصر الغريب المُصَنَّف، وله تقايد منشور ومنظوم في علم النجوم، ورسالة في الإسْطُرْلَاب الخطي والعمل به، وشجرة في أنساب العرب.

وفاته: توفي ليلة السبت السابع عشر لشهر ربيع الآخر عام سبعة وخمسين وسبعمئة.

(١) المُقَرَّمَة: بلدة تقع جنوب شرقي مدينة فاس. (٢) في الأصل: «أربع عشرة» وهو خطأ نحوي.

(٣) بَرْشَانَة: بالإسبانية Purchena، وهي حصن على مجتمع نهريْن. الروض المعطار (ص ٨٨). وذكرها ياقوت في معجم البلدان (ج ١ ص ٣٨٤) وقال: إنها من قرى إشبيلية بالأندلس.

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم
ابن محمد بن خلف بن محمد بن سليمان بن سوار
ابن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد الخير بن عِيَّاش^(١)

المكنى بأبي عَيْشُونَ بن حَمُود، الداخل إلى الأندلس صحبة موسى بن نصير، ابن عَثْبَسَة بن حارثة بن العباس بن المرداس، يكتنى أبا البركات، بَلْفَيْقِي^(٢) الأصل، مَرْزُوي^(٣) النشأة والولادة والسلف، يعرف بابن الحاج، وشَهْرَ الآن في غير بلده بالبَلْفَيْقِي، وفي بلده بالمعرفة القديمة.

أُولَيْتُهُ: قد تقدم اتصال نسبه بحارثة بن العباس بن مِرْدَاس، صاحب رسول الله ﷺ، وأحد خطبائه وشعرائه، رئيس في الإسلام، ورئيس في الجاهلية. وكان لسلفه، وخصوصاً لإبراهيم، من الشهرة بولاية الله، وإيجاب الحق من خُلُقِه ما هو مشهور، حسبما تنطق به الفهارس، يعُضد هذا المجد من جهة الأمومة، كأبي بكر بن صُهَيْب، وابن عمه أبي إسحق، وغيرهم، الكثير ممن صَنَّف في رجال الأندلس، كأبي عبد المجيد المالقي، وابن الأبار، وابن طلحة، وابن قُرْتُون، وابن صاحب الصلاة، وابن الزُّبَيْر، وابن عبد الملك، فليُنظر هناك.

حاله: نشأ ببلده أَلْمَرِيَّة عمود العقدة، فضفاض جلباب الصيانة، غَضِيض طرف الحياء، نائي جَنْبِ السُّلام، حليف الانقباض والازْوَارار، آوِيًا إلى خالص التَّشَبُّ وِبَيْتِ الطُّعْمَةِ، لا يَرى إلَّا في منزل مَنْ سألَه، وفي حَلَقِ الأَسَانِيد، أو في مسجد من المساجد خارج المدينة المَعْدَّة للتَّعَبُّد، لا يجيء سوقًا، ولا مجمعًا، ولا وليمة، ولا مجلس حاكم أو وال، ولا يلبس أمرًا من الأمور التي جرت عادته أن يلبسها بوجه من الوجوه. ثم ترامى إلى رَحْلَةٍ، فجاس خلال القطر الغربي إلى بجاية، نافضًا إياه من العلماء والصلحاء والأدباء والآثار بتَقْيِيدِه، وأخذَه قِيام ذكر، وإغفال شهرة. ثم صرف عِناثَه إلى الأندلس، فتصرف في الإقراء، والقضاء، والخطابة. وهو الآن نَسِجٌ

(١) ترجمة أبي البركات محمد بن محمد بن الحاج البَلْفَيْقِي في الكتبية الكامنة (ص ١٢٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٢) ونفح الطيب (ج ٨ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٤ ص ١٠٧) والديباج المذهب (ص ١٦٤) والتعريف بابن خلدون (ص ٦١) وجدوة الاقتباس (ص ١٨٣) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٥٥)، وغاية النهاية (ج ٢ ص ٢٣٥).

(٢) نسبة إلى بَلْفَيْق Vellefique وهي بلدة تابعة لمدينة ألمرية. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٣) حاشية رقم ١ بتحقيق عنان.

(٣) نسبة إلى مدينة ألمرية.

وخذه في أصالة عريقة، وسجية على السلامة مفطورة، فما شئت من صدر سليم، وعقد وثيق، وغور قريب، ونصح مبذول، وتضع مرفوض، ونفس ساذجة، وباطن مساو للظاهر، ودعة سريعة، وهزل يثمر تجلة، وانساطر يفيد حسن نية، إلى حسن العهد، وفضل المشاركة، ورقة الحاشية، وصلابة العود، وصدق العزيمة، وقوة الحامية، وبلاغة الموعظة، وجلّة الوقت، وفائدة العصر، تفننا وامتاعا، فارس المنابر غير الهبابية، ولا الجزوع، طيب النعمة بالقرآن، مجبها في مجال الرقة، كثير الشفقة لصالح العامة، متأسفا لضياع الأوقات، مذمعا على الفينة، مجما، محولا في رئاسة الدين والدنيا. هذا ما يسامح فيه الإيجاز، ويتجافى عنه الاختصار، ويكفي فيه الإلماع والإشارة، أبقى الله شيخنا أبا البركات.

مشيخته وولايته: تقدم قاضيا بقنالش^(١)، في جمادى الثانية عام خمسة عشر وسبع مائة ثم ولي مربة، واستبونة^(٢) ثم كانت رحلته إلى بجاية. ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة للكلام على صحيح مسلم، متفقا على اصطلاحه بذلك. ثم رحل إلى فاس. ثم آب إلى الأندلس، واستقر ببلده المرية، فقعد بمسجدها الجامع للإقراء، ثم قدم قاضيا ببرجة ودلاية، والبيثول^(٣) وفنيانة^(٤)، ثم نقل عنها إلى بيرة، ثم غربي المرية. ثم قدم قاضيا بمالقة، ثم قدم بغربها مضافا إلى الخطابة، ثم أعيد إلى قضاء المرية، بعد وفاة القاضي أبي محمد بن الصائغ. ومن كتاب «طرفة العصر» من تأليفنا في خبر ولايته ما نصه:

فتقلد الحكم في الثالث والعشرين لشعبان من عام سبعة^(٥) وأربعين وسبعمائة، ثالث يوم وصوله مستدعى، وانتابه الطلبة ووجوه الحضرة والدولة، مهنيين بمشواه من دار الصيانة، ومحل التجلّة، إحدى دور الملوك بالحمراء، فطفقوا يخشونه بها زرافات ووحدانا، في إتاحة الخير، وإلهام السداد، وتشويغ الموهبة. وكان وصوله، والأفق قد اغبر، والأرض قد اقشعرت لانصرام حظ من أيام الشتاء الموافق لشهر ولايته، لم

(١) قنالش: بلدة تابعة لمقاطعة المرية، على مقربة من بلفيق بلد المترجم له أبي البركات البلفيقي. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٥) حاشية رقم ٢.

(٢) إستبونة أو أستبونة: بالإسبانية Estepona، وهي بلدة تقع على البحر المتوسط شمال جبل طارق. الإحاطة (ج ٢ ص ٢٤) حاشية رقم ٣.

(٣) البيثول: بالإسبانية: Albinol، وهي بلدة تابعة لمقاطعة مالقة. الإحاطة (ج ٢ ص ١٤٥) حاشية رقم ٦.

(٤) فنيانة Fināna: قرية بقرب وادي آش من الأندلس، وقيل هي حضن. نزهة المشتاق (ص ٥٦٧) والروض المعطار (ص ٤٤١).

(٥) في الأصل: «سبع» وهو خطأ نحوي.

يَسِجُ فِيهِ الْغَمَامُ بِقَطْرَةٍ، وَلَا لَمَعَتِ السَّمَاءُ بِنَزْعَةٍ، حَتَّى أَصْرَتْ الْأَنْفُسُ الشَّخَّ، وَخَسِرَ الْعُسْرُ عَنْ سَاقِهِ، وَتَوَقَّفَتِ الْبُدُورُ، فَسَاعَدَهُ الْجَدُّ بِنَزُولِ الرُّحْمَةِ عِنْدَ نَزُولِهِ مِنْ مِرْقَاةِ الْمَنْبَرِ، مُجَابَةً دَعْوَةِ اسْتِسْقَائِهِ، ظَاهِرَةً بَرَكَةً خَشُوعِهِ، وَلِذَلِكَ مَا أَنْشَدْتَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ^(١): [الكامل]

ظَمِئْتُ إِلَى السُّقْيَا الْأَبَاطُحُ وَالرُّبَا حَتَّى دَعَوْنَا الْعَامَ عَامًا مُجْدِبًا
وَالْغَيْثُ مَسْدُولُ الْحِجَابِ وَإِنَّمَا عَلِمَ الْغَمَامُ قَدُومَكُمْ فَتَأَذَّبَا

وتولى النظر في الأحكام فأجال قداحها، مضطلعًا بأصالة النظر، وإرجاء المُسَبَّهَاتِ، وسلك في الخطابة طريقةً مثلى، يفرغ في قوالب البيان أغراضها، ويضرف على الأحكام الكواوين والبساطات أساليبها، من المحاكاة، باختلاف القبض والبسط، والوعد والوعيد، حظوظها على مَقْبُضِ الْعَدْلِ، وسبب الصواب يقوم على كثير مما يَضْدَعُ بِهِ، مِنْ ذَلِكَ شَاهِدُ الْبَدِيْهِ، وَدَلِيلُ الْإِسْتِعَابِ. قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْبَرَكَاتِ: ثُمَّ صُرِفَتْ عَنْهَا لِلْسَّبَبِ الْمَتَقَدِّمِ، وَبَقِيَتْ مَقِيَمًا بِهَا، لَمَّا اشتهر من وقوع الْوَبَاءِ بِالْمَرْيَةِ، ثُمَّ أُعِدَّتْ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْخُطَابَةِ بِالْمَرْيَةِ، وَكُتِبَ بِذَلِكَ فِي أَوَائِلِ رَجَبِ عَامِ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ. وَبَقِيَتْ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ صُرِفَتْ بِسَبَبِ مَا ذَكَرَ. ثُمَّ أُعِدَّتْ إِلَيْهَا فِي أَوَاخِرِ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّ وَخَمْسِينَ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْقِطَاعُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ. فَأَنَا الْآنَ أَتَمَثَّلُ بِمَا قَالَهُ أَبُو مُطَرِّفٍ^(٢) بَنَ عَمِيرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الخفيف]

قَدْ نُسَبْنَا إِلَى الْكِتَابَةِ يَوْمًا وَأَنْتَ^(٣) خُطَّةُ الْقَضَاءِ تَلِيهَا
وَبِكُلٍّ لَمْ تُطِيقْ لِلْمَجْدِ إِلَّا مَنْزِلًا نَابِيًا وَعَيْشًا كَرِيهَا
نُسَبَةٌ بُذِلَتْ فَلَمْ تَنْغَيِّرْ مِثْلُ مَا يَزْعُمُ الْمُهَنْدِسُ فِيهَا

بَدُلَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَابَةِ إِلَى الْخُطَابَةِ. وَأَغْرَبَ مَا رَأَيْتُ مَا أَحْكَمِي لَكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِبَعْضِ ذَلِكَ، أَنْ أَفْضَلَ مَا صَدَّرَ عَنِّي فِي ذَلِكَ، الْخُطَّةُ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي أَخْلَصْتُ لِلَّهِ فِيهِ، وَرَجَوْتُ مِنْهُ الْمَثُوبَةَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مَفْخَرٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَفْتَخِرَ غَيْرَ مُلْتَقَتٍ لِلدُّنْيَا، فَعَلِيهِ عَوَّلْتُ سُبْحَانَهُ. انْتَهَى كَلَامُهُ.

تصانيفه: كتب إليّ بخطه ما نصه، وهو فصل من فصول: وأما توالييفي فأكثرها، أو كلها غير مُتَمِّمَةٍ، فِي مَبْيُضَاتٍ. مِنْهَا كِتَابٌ قَدْ يَكْبُرُ الْجَوَادُ فِي أَرْبَعِينَ

(١) الْبَيَانُ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ٨ ص ١٧).

(٢) هُوَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمِيرَةَ الْبَلَنْسِيِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ تَرْجُمَتُهُ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِحَاطَةِ، وَوَرَدَتْ آيَاتُهُ الثَّالِثَةُ هُنَاكَ بَعْضُ اخْتِلَافٍ عَمَّا هُنَا.

(٣) فِي الْأَصْلِ: «ثُمَّ جَاءَتْ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ.

غلطة عن أربعين من الثُّقَاد، وهو نوع من تَضْخِيف الحُقَاف لِلدَّارِقُطْنِي، منها «سَلْوَةُ الخاطر فيما أَشْكَل من نِسْبة النُّسب الرِّتَب إلى الذَّاكِر». ومنها كتاب «قَدَّر جَمَّ في نظم الجُمْل». ومنها كتاب «خطر قَبْطَر، ونَظَر فَحَظَر، على تنبيهات على وثائق ابن فَتُوح». ومنها كتاب «الإفصاح فيمن عُرِف بالأندلس بالصُّلاح». ومنها «حركة الدَّخُولِيَّة في المسألة المالقيَّة». ومنها «خَطَرَةُ المجلس في كلمة وَقَعَت في شعر استنصر به أَهْلُ الأندلس» جزء صغير. ومنها «تاريخ المَرْيَّة» غير تام. ومنها ديوان شعره المسمى بـ «العَذْب والأجاج في شعر أبي البركات ابن الحاج»^(١). ومختصره سَمَاء القاضي الشريف «اللؤلؤ والمرجان، اللذان من العذب والأجاج يُسْتَخْرَجَان»^(٢). ومنها «عرائس بنات الخواطر المجلَّوة على مَنَصَّات المنابر» يحتوي على فصول الخطب التي أنشئت بطول بنى والخطابة. ومنها «المُؤْتَمَن على أبناء أبناء الزمن». ومنها تأليف في أسماء الكتب، والتَّعْرِيف بمؤلفيها، على حروف المعجم. ومنها «ما اتَّفَق لأبي البركات فيما يُشَبِّه الكَرَامَات». ومنها كتاب «ما رأيتُ وما رُئي لي من المقامات». ومنها كتاب «المرجع بالدُّرَك على مَنْ أنكر وقوع المشترك». ومنها «مُشَبِّهَات اصطلاح العلوم». ومنها «ما كثر وروده في مجلس القضاء». ومنها «الغَلَسِيَّات»، وهو ما صدر عني من الكلام على صحيح مُسْلِم أيام التَّكَلُّم عليه في التَّغْلِيص. ومنها «الفصول والأبواب، في ذكر مَنْ أخذ عني من الشيوخ والأتباع والأصحاب».

ثم قال: وقد ذهب شَرْخُ الشُّبَاب ونشاطه، وتقطَّعت أوصاله، ورَحَلَ رِباطه، وأصبحت النفس تنظر لهذا كله بعين الإمهال والإغفال، وقلة المبالاة التي لا يصل أحد بها إلى مَنال. وهذه الأعمال لا يُنْشِطُ إليها إِلَّا المَحْرُكَات التي هي مفقودة عندي، أحدها طلبةٌ مجتمعون متعطِّشون إلى ما عندي، متشوفون غاية التشوف، وأين هذه بالمرية؟ الثاني، طلبُ رياسة على هذا، ومتى يرأس أحد بهذا اليوم، وعلى تقدير أن يرأس به وهو محالٌ في عادة هذا الوقت، فالتشوف لهذه الرياسة مفقود عندي. الثالث، سلطانٌ يملأ يد مَنْ يُظْهَر مثل هذا، على يده غبطة، وما تم هذا. الرابع، نيَّة خالصة لوجه الله تعالى في الإفادة، وهذا أيضًا مفقود عندي، ولا بدَّ من الإنصاف. الخامس، قَصْدُ بقاء الذِّكْر، وهذا خيال ضعيف بعيد عني. السادس، الشفقة على شيء ابتدئ، وسعي في تحصيل مبادئه، أن يضع على قُطْع ما سوى هذا الإشفاق،

(١) في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٩): «العذب والأجاج، من كلام أبي البركات ابن الحاج».

(٢) في المصدر نفسه: «اللؤلؤ والمرجان، من بحر أبي البركات ابن الحاج يستخرجان».

وهذا السادس، هو الذي في نفسي منه شيء، وبه أنا أقيد أسماء مَنْ لَقِيت، وما أخذت، ويكون إن شاء الله إبراز إذا الصُحف نُشرت. وأكثر زمانِي يذهب في كيفية الخروج عما أنا فيه، فإذا يَنْظُرُ إِلَيَّ العاقل في هذا الوقت بعين البصيرة، لا يسعه إلا الشفقة عليّ، والرّحمة لي، فإنه يرى رَجُلًا مُطَرَّقًا أكثر نهاره، ينظر إلى مآله، فلا ينشطُ إلى إصلاحه، وهو سابع ولا يلبس بالعبادة، وهو في زمانها المُقارب للَمَوْت، ولا ينهضُ إلى إقامة حقّ كما ينبغي لعدم المُعين، ولا يَجْنَحُ إلى شيء من راحات الدنيا، ويشاهدُ من علوم الباطل الذي لا طاقة له على رَفْعِهِ ما يُضَيِّقُ صدر الحرّ يقضي نصف النهار، مُختَلًا في مكان غير حَسَن، تارة يُفكر، وتارة يكتُب ما هو على يقين منه أنه كذا لا يُنْتَفِعُ به، ونصف النهار يقعد للناس، تارة يرى ما يكره، وتارة يسمع ما يكره، لا صديق يُذَكِّرُهُ بأمر الآخرة، ولا صديق يُسْلِيهِ بأمر الدنيا، يكفيني من هذه الغزارة، اللهم إليك المشتكى يا من بيده الخلق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

شعره: من مُطَوَّلَاتِهِ في النزعة الغربية التي انفرد بها، منقولاً من ديوانه، قال: ومما نظمته بِسَبْتَةِ في ذي الحجة من عام خمسة وعشرين وسبعمائة، في وصف حالي، وأخذها عني الأستاذ بسبته، أبو عبد الله بن هاني، والأديب البارع أبو القاسم الحسيني، وأبو القاسم بن حزب الله، وسواهم. ولما انفصلت من سبته إلى بلاد الريف^(١) زُدت عليها أبياتاً في أولها، وكثر ذلك بوادي لو من بلاد الريف وهي: [الطويل]

تأسفتُ لكن حين عزّ التأسفُ	وكفكفتُ دمعاً حين لا عين تذرُفُ
ورام سكوناً هو في رَجُل طائر	ونادى بأنسِ والمنازل تعنفُ
أراقب قلبي مرّة بعد مرة	فألقيته ذبّاك الذي أنا أعرفُ
سقيماً ولكن لا يحسُّ بدائه	سوى مَنْ له في مآزق الموت مَوْقفُ
وجاذب قلبي ليس ياوي لمآلفِ	وعالج نَفْسًا داؤها يتضاعفُ
وأعجب ما فيه استواء صفاته	إذ الهَمُّ يُشقيهِ أو السرُّ يَنزِفُ
إذا حَلَّت الضُرَاء لم ينفع لها	وإن حَلَّت السَّرَاء لا يَتَكَيَّفُ
مذاهبُه لم تُبَد غاية أمرِه	فؤادُ، لعمري، لا يرى منه أطرفُ
فما أنا من قوم قُصاري هُمومهم	بئوهم وأهلهم وثوبُ وأرغفُ

(١) تقع بلاد الريف في المغرب الأقصى. الإحاطة (ج ٢ ص ١٥١) حاشية رقم ١.

ولا لي بالإسراف فكرٌ محدثٌ
ولا أنا بممن لهوهُ جلُّ شأنه
ولا أنا بممن أُنسُهُ غايَةُ المُنَى
ولا أنا بممن تُزدهيه مصانعُ
ولا أنا ممن همُّه جَمْعُها فإن
على أن دهرى لم تدع لي صُروفه
ولا أنا ممن هذه الدار همُّه
ولا أنا ممن للسؤال قد انبرى
ولا أنا ممن نجح الله سعيهم
فلا في هوى أضحى إلى اللهو قائدا
أحارب دهرى في نقيض طباعه
وأنظره شُرْرا بأصْلَف ناظر
وأضبطه ضَبْط المحدث صُخفه
ويأخذ مني كلُّ ما عزَّ نيله
أدور له في كل وَجِهٍ لعلني
ولما يئسنا منه تَهِنَّا ضرورة
تكلفتُ قطع الأرض أطلب سَلْوَةً
وخاطرتُ بالنفس العزيزة مُقَدِّمًا
وصرفت نفسي في شؤون كثيرة
وحضت لأنواع المعارف أبْحَرًا
ولم أخل من تلك المعاني بطائل
وقد مرَّ من عمري الألدُّ وما أنا
وإني على ما قد بقي منه إن بقي
أعدُّ ليالي العمر والفرص صُومها
على أنها إن سلَّمت جدليَّة
تحدثنى الآمال وهي كديسها
بأنى في الدنيا سأقضي مآربي
وتلك أمان لا حقيقة عندها

سيفدو حبيبي أو سيَشْعُرُ مطرف
بروضٍ أنيق أو غزال مُهْفَهف
بصوتٍ رخيمٍ أو نديمٍ وفَرْقَف
ويُنسِبه بُسْتانٍ ويُلْهيه مُخْرَف
ترأت يثب بسغي لها وهو مُزجف
من المال إلَّا مَسْحَة أو مجلف
وقد عَرَّه منها جمالٌ ورُخْرَف
ولا أنا ممن صان عنه التَّعْطَف
فهتتهم فيها مُضَلَّى ومُضْجَف
ولا في نُقَى أُنسى إلى الله يزلَف
وحزبك من يقضي عليك تَعَجْرَف
فيعرض عني وهو أزهى وأضْلَف
فيخرج في التَّوْقِيع أنت المُضْجِف
ويبدو بجهلي منه في الأخذ مُخْتَف
سأثبتته وهو الذي ظلَّ يحذف
فلم تُبق لي فيها عليه تشوْف
لنفسي فما أجدى بتلك التكلُّف
إذا ما تخطى التَّضَلُّ قصد مُزْهَف
لحظي فلم يظفر بذاك التَّصْرُف
ففي الحين ما استجرئتها وهي تُتْرَف
وإن كان أهلوها أطالوا وأسرفوا
على ما مضى من عَهْدِه أتلُف
لحرمة ما قد ضاع لي أتخوْف
وحسبك من قَرْض المُحال تعسُف
تعارض آمالاً عليها يُنْيَف
تبدل في تَحْدِيثِها وتُحَرِّف
وبغد بحق الزهد لي والتقشُّف
أني قرني الضدين يبقى التكلُّف؟

ولكن لَقَهَمُ الحال إذ ذاك لم يَفُوا^(١)
 يَغْضُ وَيَغْضُ وَيَرْتِي ثم يَضْطَفُ
 وبعضُ بما قد رأيتُه يتوقَّفُ
 مُقْتَضَى العقل الذي عنه يتوقَّفُ
 على غير ماتحذَّوه يحذو ويخْصَفُ
 ولا هو يَرْتِي لي ولا هو يَغْنِفُ
 عرفنا وكلُّ منهم ليس يعرف
 وحطُّوا الدنيَّة من عليل وأنْصَفُوا^(٢)
 ولم يعرفوا أغوارها وهي تَتَلَفُ؟
 ومثلي عن تلك الحقائق يَكْشِفُ
 فجاء كما يَهْوَى الغريبُ المُصَنَّفُ
 فإنَّ يَحْجِبُوا عن مثل ذاك وصَرَّفُوا^(٣)
 إذا ما مَثَلْنَاهُ أَرْهَى وأسْخَفُ
 أينْهَضُ عن كَفِّ الجبانِ المُثَقَّفُ؟
 فديتُكم أيُّ المحاسنِ أَكْشِفُ
 إذا ما ولىَّ المقدور فالرأي يَخْلَفُ
 به قلمُ الأقدار والقلبُ يَرْجَفُ
 على رَسْمِكَ الشَّرْعِي من لك يَغْكَفُ
 رأيتُ المنايا وهي لي تَتَخَطَّفُ
 لَأَسْهَمِيهَا إنْ فَوَّتْ مُتَهَدَّفُ
 تُخَيِّلُ لي طولَ المدى فأسَوْفُ
 ووقَّتْك في الدنيا جليْسُ مُحْخَفُ
 إذا لاح شمسٌ فالنَّفْسُ تَكْشِفُ
 ولم أودعهم والخضُ رَيانُ يَنْسِفُ
 وولىَّ شبابي هل يَبَاحُ التَّشَوُّفُ؟
 وتلك على عصر الشَّبابِ تُؤَلِّفُ

وربَّ أَجْلَاءَ شَكُوتٍ إليهم
 فبعضهم يُزْري عليَّ وبعضهم
 وبعضهم يومي إليَّ تعجُّبا
 وبعضهم يُلقِي جوابه على
 يسيءُ استماعاً ثم يُعِدُّ إجابة
 ولا هو يسدي لي عليَّ تعقُّلاً
 وما أَمَرْنَا إلَّا سواءً إنَّما
 فلو قد قَرَعْنَا من علاج نفوسنا
 أما لهم من علَّة أَرَمَتْ بهم
 وحُضْنَا لهم في الكُتُب عن كُنْه أمرهم
 وصنَّفْتُ في الآفات كلَّ غريبة
 وليس عجيباً من تركَّب جهلهم
 إذا جاءنا بالسُّخْف من نَزْو عقله
 فما جاءنا إلَّا بأمرٍ مناسب
 ولكنَّ عجيبُ الأمر علمي وغفلتي
 إلَّا أنها الأقدار يَظْهَرُ سرُّها
 أيا ربَّ إنَّ اللَّب طاش بما جرى
 وإنَّا لندعوهم ونخشى وإنَّما
 أقول وفي أثناء ما أنا قائلٌ
 وإنِّي مع السَّاعات كيف تَقْلِبُ
 وما جرُّ ذا التَّسْويف إلَّا شَيْبَتِي
 إذا جاء يومٌ قَلْتُ هو الذي يلي
 أقدمُ رجلاً عند تأخير أخِيها
 كأني لداني المراقِد منهم
 وهَبْنِي أعيش هل إذا شاب مَفْرِقِي
 وكيف ويستدعي الطريق رياضةً

(٢) في الأصل: «وأنْصَفُ».

(١) في الأصل: «يَفُ».

(٣) في الأصل: «وصرف».

متى يقبل التَّشْوِيم غير عطوفة
ولو لم يكن إلَّا ظُهوره سرّه
أَمْوَلِي الأسارى أنت أَوْلَى بعذرهم
قَدْفْنَا بِلُجِّ البحر والقيدُ أَخَذَ
وفي الكَوْن من سرِّ الوجود عجائب
وَكَمَعَتْ عليهم نَكْثَةٌ فتأخروا
فليس لنا إلَّا أن نحطَّ رقابنا
فهذا سبيلٌ ليس للعبد غيرها

ويبي بَعْدَه جِسَانٌ^(١) فالنَّارُ تَنْسِفُ؟
إذا ما دنا الشَّدْلِيس هان التَّنْطُفُ
وأنت على المملوك أحقُّ وأَعْظَفُ
بأزْجِلِنَا والريِّح بالموج تعصف
أطلَّ عليها العارفون وأشرفوا^(٢)
ودَذْتُ بأن القوم بالكل أسْعَفُ
بأبواب الاستِسْلام والله يَلْطُفُ
وإلَّا فماذا يَسْتَطِيع المُكَلِّفُ

وقال: وضمنها محاورة بينه وبين نفسه، وقيدتها عنه زوال يوم الثلاثاء التاسع والعشرين لمحرّم خمس وخمسين وسبعمائة، برابطة العقاب^(٣)، متعبد الشيخ ولي الله أبي إسحق الإلبيري، رحمه الله، فمنها^(٤): [الكامل]

يَأْبَى شَجَوْنَ حَدِيثِي الإِفْصَاحِ
قالتُ صَفِيَّةُ إذ مررتُ^(٥) بها
فأجبتُها لولا الرَقِيبُ لكان لي^(٦)
قالت: وهل في الحيِّ حيٌّ غَيْرُنَا؟
فأجبتُها: إنَّ الرَقِيبَ هو الذي^(٧)
وهو الشَّهيدُ على مواردِ عَبدِه
قالتُ وأين يكون جُودُ^(٨) الله إذ
فافرَحَ بِإِذْنِ^(٩) الله جلَّ جلاله

إذ لا تَقُومُ بِشَرْجِه الأُلُواحِ
أفلا تَنْزِلُ سَاعَةً تَرْتاح؟
ما تَبْتَغِي بَعْدَ العُدُوِّ رِواحِ
فاسمَحْ قَدْ يَثُكُ فالسماحُ رِياحُ
بِسَيِّدِنِه مَنَّا هذه الأرواحِ
سَيِّان ما الإخفاء والإفْصاحِ^(١٠)
يُخْشَى^(١١) ومِنه هذه الأفراحِ
واشْطَطَحَ فَنَشْوانُ الهوى شَطَّاحِ

(١) في الأصل: «بعد حنا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «وأشرف».

(٣) هي رابطة العقاب أو رباط العقاب، كانت تخصص للعبادة، وكانت على مقربة من مدينة غرناطة. الإحاطة (ج ٢ ص ١٥٥) حاشية رقم ٤ من تعليق الأستاذ محمد عبد الله عنان.

(٤) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٨ - ١٢٩).

(٥) في الكتيبة: «... صفة عندما مررت بها إني أنزل...».

(٦) في الكتيبة: «في». (٧) في الكتيبة: «الرقيب هو إلّك».

(٨) في الكتيبة: «والإيضاح».

(٩) في الأصل: «وجود» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(١٠) في الأصل: «تخشى» والتصويب من الكتيبة.

(١١) في الكتيبة: «فافرح على اسم الله».

وانهج^(١) على ذم الرجال ولا تخف
وانزل على حكم السرور ولا تبذل
واخلع عذارك في الخلاعة يا أخي
وانظر إلى هذا النهار قبسثه
أنواره ضحكك^(٢) وأترع كأسه
وانظر إلى الدنيا بنظرة رحمة
فأجبثها لو كنت تعلم^(٣) ما الذي
من كل معنى غامض من أجله
حتى لقد سكرنا من الأمر الذي
لَعَذَرْتَنِي وَعَلِمْتَ أَنِّي طَالِب
فاترك صفيك قارعاً باب الرضى
يا حي^(٤)، حي على الفلاح وخلني

فالحكم^(٥) رخب والتوال مباح
فالوقت صاف ما عليك جُتاح
باسم الذي دارت به الأقداح
ضحكت ونور جبينه وضاح
فقد استوى ربحائه والراح
فجفاؤها بوفائها يثزاح
يبدو لتاركها وما يلتاح
قد ساح قوم في الجبال وناحوا^(٦)
هاموا به عند العيان فباحوا^(٧)
ما الزهد في الدنيا له مفتاح
والله جل جلاله الفتحاح
فجماعتي حثوا المطي وراخوا^(٨)

وقيدت من خطه في جملة ما كتب إلي ما نصه:

ومما نظمته بغرناطة، وبعضه ببرزجة، وهو مما يعجبني، وأظنه كتبه لك، وهو
غريب المنزع، وإنه لكما، قال^(٩): [الكامل]

خُذْهَا عَلَى رَغْمِ الْفَقِيهِ سُلَافَةً
أَبْدَى أَطْبَاءِ الْقُلُوبِ لِأَهْلِهَا
وَإِذَا الْمَرَاثِي^(١٠) قَالَ فِي نَشْوَانِهَا
يَا قُوتَةَ^(١١) دَارَتْ عَلَى أَرْبَابِهَا
مُزِجَتْ فَعَارِ الشَّيْخِ مِنْ تَرْكِيبِهَا
فَبَدَتْ^(١٢) فَعَارِ الشَّيْخِ مِنْ إِظْهَارِهَا

تُجَلِّي بِهَا الْأَقْمَازُ فِي شَمْسِ الضُّحَى
مِنْهَا شَرَابًا لِلنَّفْسِ مُبَرِّحًا^(١٣)
قُلْ أَنْتَ بِالْإِخْلَاصِ فَيَمُنْ قَدْ صَحَا
فَاهْتَزَّتْ الْأَقْدَامُ مِنْهَا وَاللُّحَا
فَلِذَاكَ جَرَّدَهَا وَصَاحَ وَسَرَّحًا^(١٤)
فَاشْتَدَّ يَبْتَدِرُ الْحِجَابَ مُلَوِّحًا

(١) في الكتيبة: «وارهج».

(٢) في الكتيبة: «تَفَحَّتْ».

(٣) في الأصل: «وتأخ» والتصويب من الكتيبة.

(٤) في الكتيبة: «يا أخت».

(٥) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٩ - ١٣٠). (١٠) في الكتيبة: «مفرحاً».

(١١) في الأصل: «وإذا امرؤ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٢) في الكتيبة: «يا قهوة».

(١٣) في الكتيبة: «وصرحاً».

(١٤) في الكتيبة: «وَصَرَّحًا».

(٦) في الكتيبة: «فالحلم».

(٧) في الكتيبة: «كنت عالمة الذي».

(٨) في الأصل: «وساخ» والتصويب من الكتيبة.

(٩) في الأصل: «وراح» والتصويب من الكتيبة.

لا تعترض أبداً على مُستزفد^(١) وكذاك لا تَغْتَب على مُستهتر
سكرانٌ يعثرُ في ذبول لسانه
كتمَ الهوى حرية^(٢) بعضٌ وبعد
لا تخشين^(٣) على العدالة هاتفاً
الحبُ خمُرُ العارفين قد ضَفَّتْ^(٤)
فاشطخ على هذا الوجود وأهله
كَبُرَ عليهم إنهم موتى على
واهزأ بهم فمتى يَقُلْ نُصْحَاؤُهم
وإذا أرببهم^(٥) استخفَّ فقلْ له
أبني سليم قد نجا مجنونكم
هل يستوي من لم يَبُخْ بحبيبه
فافرُخْ وطِبْ وابهِجْ^(٦) وقلْ ماشته^(٧)
قد غار من أسرارها أن يُفَضَّحا^(٨)
لم يدر ما الإيضاح لِمَا أَوْضَحا
كُفِّرَا ويحسبُ أنه قد سَبَّحا
ضَّ ضاقَ دَرْعَا بالغرام فبرَّحا
ثُغِرَ^(٩) ارتياح العاشقين فجرَّحا^(١٠)
حتمًا على مَنْ ذاقها أن يَشْطَحا
عُجِبَا فليس براجح من رَجَّحا
غيرِ الشَّهادة ما أَعْرَى وأثبَحا
أهيج^(١١) فقلْ حتى ألاقِي مُفْلَحا
بالله يا يحيى بن يحيى دَغَّ جِحا
مجنونَ ليلي العارفين^(١٢) به قد محا
مَعَ مَنْ يَذْكر حبيبه قد أَفْضَحا^(١٣)
ما أَمْلَحَ الفقراء يا ما أَمْلَحا

ومن مقطوعاته التي هي آيات العجائب، وطررُ خلل البدائع في شتى الأغراض
والمقاصد، قوله يعتذر لبعض الطلبة، وقد استدبره ببعض خلُق العلم بسببته^(١٤) :
[السريع]

إن كنتُ أبصرتُك لا أبصرتُ بصيرتي في الحق بُرْهَانُها
لا غَرَو أني لم أشاهدكُم فالعين لا تُبصِرُ إنسانها^(١٥)

- (١) في الكتيبة: «مستهتر».
(٢) في الأصل: «كتم الهوى حرب...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(٣) في الكتيبة: «لا تحسبن».
(٤) في الكتيبة: «نقد».
(٥) في الكتيبة: «مترحا».
(٦) في الكتيبة: «أفلح».
(٧) في الكتيبة: «العامرية».
(٨) في الكتيبة: «واهيج».
(٩) في الأصل: «شئت» والتصويب من الكتيبة.
(١٠) في الكتيبة: «واهيج».
(١١) في الكتيبة: «واهيج».
(١٢) في الكتيبة: «واهيج».
(١٣) في الكتيبة: «واهيج».
(١٤) البيان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).
(١٥) إنسان العين: يؤيؤها. لسان العرب (أنس).

ومنها قوله في غرض التورية، وهو بديع في معناه^(١): [الطويل]

يلومونني بعد العذار على الهوى ومثلي في وجدي^(٢) له لا يُفُتد^(٣)
يقولون^(٤) أمسك عنه قد ذهب الصبا وكيف يرى^(٥) الإمساك والخيط أسود؟^(٦)

ومنها قوله في المُجَبَّنَات، وهو من الغريب البديع^(٧): [الطويل]

ومُضْفَرَّةُ الخَدَّيْنِ مطوية الحشا على^(٨) الجبن والمُضْفَرُّ يؤذن بالخوف
لها هيئة^(٩) كالشمس عند طلوعها ولكنها في الحين تُغْرِبُ في الجؤف

ومنها قوله في النصح، ولها حكاية تقتضي ذلك: [الكامل]

لا تَبْذُلْنَ نصيحةً إلا لمن تلقى لبذل النصح منه قُبولا
فالنصح إن وجدَ القبولَ فضيلةً ويكون إن عديمَ القبولِ فضولا
ومنها في الحكم^(١٠): [الخفيف]

ما رأيتُ الهمومَ تَدْخُلُ إلا من دروب العُيونِ والآذانِ
غُضَّ طَرْقًا وسُدَّ سَمْعًا ومهما^(١١) تَلَقَّ هُما فلا تُثِقُ بضممانِ

ومنها قوله، وهو من المعاني المبتكرات^(١٢): [الكامل]

حَزَنْتُ عليك العينُ يا مَغْنَى الهوى فالدمعُ منها بَغْدٌ بَغْدُكَ ما رَقَا^(١٣)

(١) البيتان في الكتيبة (ص ١٣١) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٣).

(٢) في الكتيبة وتاريخ قضاة الأندلس: «حيي». (٣) يُفُتد: يُثَمُّ بالكذب. لسان العرب (فند).

(٤) في الأصل: «يقولون لي أمسك...». وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.

(٥) في المصادر: «أرى».

(٦) في البيت تورية! فالإمساك يطلق على الصوم، وأراد هنا الكَفَّ عن الحب. والخيط الأسود يطلق على الليل، وأراد العذار، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَلَكُلَّا وَاعْتَرِفَا عَلَى تَبَيَّنٍ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٨٧.

(٧) البيتان في الكتيبة (ص ١٣١)، وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٥)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٣).

(٨) في الكتيبة: «عن».

(٩) في الكتيبة وتاريخ قضاة الأندلس ونفع الطيب: «بتهجة».

(١٠) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٢).

(١١) في الكتيبة: «... سمعًا وإن أحسست هُما...».

(١٢) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٢ - ١٣٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٧).

(١٣) أصل القول: «رقا»، وقد أسقط الهمزة للضرورة الشعرية؛ يقال: رقا الدمعُ إذا جفَّ. لسان العرب (رقا).

ولذلك قد^(١) صُبِغَتْ^(٢) بلونِ أزرقي أو ما ترى ثوبَ المآتم أزرقا؟
ومنها قوله في المعاني الغربية. قال: ومما نظمت في عام أربعة وأربعين في
التفكر في المعاني، مُغْلَقُ العَيْنين: [السريع]
أَبَحَثَ فِيمَا أَنَا حَصُلْتُهُ عِنْدَ انْخِمَاضِ الْعَيْنِ فِي جَفْنِهَا
أَحْسَبُنِي كَالشَّاةِ مَجْتَرَةً تَمْضَغُ مَا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا
وقال: ومما نظمت بين أندرش وبرجة^(٣) عام أربعة وأربعين، وأنا راكب مسافر،
وهو مما يُعْجِبُنِي، إذ ليس كل ما يصدر عني يُعْجِبُنِي. قُلْتُ وَيَحْتَقُّ أَنْ يَعْجِبَهُ^(٤):
[الطويل]

تَطَالَبَنِي نَفْسِي بِمَا لَيْسَ لِي بِهِ يَدَانِ^(٥) فَأَعْطِيهَا الْأَمَانَ^(٦) فَتَقَبَّلُ
عَجَبْتُ لِحَضْمِ لُجٍّ فِي طَلِبَاتِهِ يَصَالِحُ عَنْهَا^(٧) بِالْمَحَالِ فَيَفْصَلُ
[قال: ومما نظمت في السنة المذكورة من ذم النساء^(٨)]: [الخفيف]

مَا رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَضْلُخْنَ إِلَّا لِلَّذِي يَضْلُحُ الْكَنِيفَ لِأَجَلِهِ^(٩)
فَعَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ صَالِحٌ^(١٠) هُنَّ لَا تَعْدُ بِأَمْرٍ عَنْ مُحَلَّةٍ
قال: ومما نظمت في السنة المذكورة^(١١): [الخفيف]

قَدْ هَجَرْتُ^(١٢) النِّسَاءَ دَهْرًا فَلَمْ أَبْدِ لِمَنْ أَذَانِي^(١٣) صِفَاتِهِنَّ الذَّمِيمَةَ
مَا عَسَى أَنْ يُقَالَ فِي هَجْوٍ مَنْ قَدْ خَصَّصَهُ الْمَصْطَفَى بِأَقْبَحِ شِيمَةٍ
أَوْ يَبْقَى لِنَاقِصٍ^(١٤) الْعَقْلِ وَالذِّبِّ مَنْ إِذَا عُذَّتِ الْمَثَالِبُ قِيمَةً؟

وقال: وما نظمت في تاريخ لا أذكره الآن، هذان البيتان، ولم أر معناه لمن
مضى. ولو رحل رجل إلى خراسان، ولم يأت إلّا بهما، كان ممن لم يخفق

(١) في الكنية: «ما».

(٢) في النفع: «ظهرت».

(٣) أندرش وبرجة كانتا في عهد ابن الخطيب تابعتين لمقاطعة ألمرية.

(٤) البيتان في الكنية الكامنة (ص ١٣٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).

(٥) ليس لي به يدان: ليس لي عليه قدرة. (٦) في الكنية: «وأعطيها الأمان».

(٧) في الكنية: «عنه».

(٨) البيتان في الكنية الكامنة (ص ١٣٣).

(٩) في الأصل: «من أجله» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب في الكنية الكامنة.

(١٠) في الكنية: «فأصحبهن».

(١١) الأبيات في الكنية الكامنة (ص ١٣٣).

(١٢) في الكنية: «قد هجوت».

(١٣) في الأصل: «أذاني» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الكنية الكامنة: «أداني» بدال غير معجمة.

(١٤) في الأصل: «لنا قصر» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب في الكنية الكامنة.

مسمعه، ولا أجذب مرعاه، يَنْفَتَحُ بهما للقلب باب من الراحة فسيح، إذا أجهده ما يكابد من المضاضة، وتَقْضِ العهود، واختلاف الوعود. وهذه المحنة من شر ما ابتلي به بنو آدم، شَنْشَنَة نعرفها من أمرهم. ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي^(١): [الطويل]

رعى الله إخوان الخيانة إنهم كفونا مؤونات البقاء^(٢) على العهد
فلو^(٣) قد وقوا كئا^(٤) أسارى حقوقهم نراوح ما^(٥) بين التسيئة والنقد

وقال يُداعبني، وعلى سبيل الكناية يخاطبني: ولقد لقيت رجلاً ببلاد الهند يعرف بأبي البركات ابن الحاج، وكان برد في بستان كان له، فقلت أهجوه عام أربعة وأربعين وسبعمائة: [الكامل]

قالوا أبو البركات جَم^(٦) ماؤه فغدا أبو البركات لا البركات^(٧)
قلنا لأن يُكنى بموجوداته أولى من أن يكنى بمغذومات
ومما نظمته عام خمسة وأربعين وسبعمائة^(٨): [السريع]

قد كنت معذوراً بعلمي وما أبث من وعظي بين البشر^(٩)
من حيث قد أملت إصلاحهم بالوعظ والعلم فخان التطرز
فلم أجد أوعظ للناس من أصوات وعاظ جلود البقر

ومما نظمته بمرسى تلهي، من بلد هُنين^(١٠)، عام ثلاثة وخمسين، وقد أصابني هَوَسٌ في البحر وخاطبت به بعض الأصحاب: [الكامل]

رأسي به هَوَسٌ جديد لا الذي تَذْريه من هَوَسٍ قديم فيه
قد حلّ ما أبديه من هذا كما قد حلّ من ذاك الذي أخفيه

(١) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٥) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).

(٢) في الأصل: «البقاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «ولو قَرَّبُوا كئا...».

(٤) في النسخ: «كانوا».

(٥) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وهكذا ينكسر الوزن، وقد أضفناها من المصدرين السابقين.

(٦) جَم ماؤه: كثر واجتمع. محيط المحيط (ج ١).

(٧) في الأصل: «لا أبا البركات» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) الأبيات في الكنية الكامنة (ص ١٣٣ - ١٣٤).

(٩) في الكنية: «... مغروراً بوعظي وما... علمي بين...».

(١٠) هونين: بلد في جبال عاملة في جنوب لبنان. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٢٠).

ومن الملح قوله: قال: وبث بحمام الخندق من داخل ألمرية ليلة الجمعة الثامن من شهر محرم عام اثنين وثلاثين منفردًا، فطفيء المصباح، وبقيت مفكرًا، فخطر ببالي ما يقول الناس من تخيل الجن في الأرحاء والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلا ما شذ عند دخولها منفردين بالليل، لا سيما في الظلام، واستشعرت قوة في نفسي عند ذلك، أعراض وأوهام، فقلت مرتجلًا، رافعًا بذلك صوتي: [الكامل]

زعم الذين عقولهم قذرُها	إن عرُضت للبيع غير ثمين
أن الرُحما معمورة بالجن والـ	حَمَام عندهم كذا بيقين
إن كان ما قالوه حقًا فاحضروا	للحرب هذا اليوم من صُفين
فلئن حضرتم فاعلموا بحقيقة	بأنى مُصارع قيس المجنون

قال: ودخلت رياضًا يومًا، فوجدت كساء منشورًا للشمس لم أعرفه من حوائجي، ولا من حوائج حارسة البستان، فسألته فقالت: هو لجارتي، فقلت: [الكامل]

مَنْ مُنْصَفِي مِنْ جَارَتِي جَارَتِ عَلَى	مالي كَأني كنتُ من أَعْدائها
عمدتُ إِلَى الشمس التي انتشرت على	أرضي وَأَمّت فيه بنس كسائها
لولا غَيُومٌ يَوْمَ تَنْبَس الكسا	سرّت لحجب الشُعب جلّ ضيائها
لقضيتُ منهم الخسار لأنني	أصبحتُ مُزَوَّرًا على بُخلائها

قلت: وصرت إلى مَعْنَى بَحْمَة بَجَانَة^(١)، وسار معي كلب كان يحرس رياضي اسمه قَطْمِير، وهو، فيما يُذكر، كلب أهل الكهف، في بعض الأقوال، فتبني من ألمرية إلى الحمة، ثم من الحمة إلى ألمرية، فقلت: [المتقارب]

رحلتُ وقَطْمِيرُ كَلْبِي رَفِيقِي	يونس قَلْبِي بِطُولِ الطَّرِيقِ
فلَمَّا أَنَحْتُ أَنَاخَ حِذَائِي	يلاحظني لحظّ خلّ شَفِيقِ
ويرعى أذْمَة رَفِيقِي كَمَا	يَتَعَنَّى الصَّدِيقُ الصَّدُوقِ
على حين قومي بني آدم	بلؤمهم لم يرقُوا حَقُوقِي
ولا فرق بين الأباعد منهم	وبين أخ مُسْتَحَب شَفِيقِ
أو ابن متى تلقاه تَلْقَه	هوئِ اشتياق بقلب حَفُوقِ

(١) بجانة: بالإسبانية Pechina، وهي مدينة بالأندلس، وحمّة بجانة عجبية الشأن، تقع في جبل شامخ يبعد عن بجانة ثلاثة أميال. الروض المعطار (ص ٧٩).

فما منهم من وليّ حميم ولا ذي إخاء صحيح حقيق
وناهيك ممن يُفْضَلُ كلبًا عليهم فيا ويلهم من رفيق
ألا من يرقّ لشيوخ غريب أبي البركات الفتى البلقيق
وقال: ومما نظمته بتاريخ لا أذكره هذين البيتين^(١): [الطويل]

وإني لخير^(٢) من زماني وأهله على أنني للشّرّ أوّل سائق^(٣)
لحي الله دهرًا قد تقدّمتُ أهله فتلك لعمرُ الله إحدى البوائق
ومن النزعات الشاذة الأغراض: [البسيط]

لا بارك الله في الزُّهاد إنهم لم يتركوا عَرْض الدنيا لفضلهم
بل أثقلتهم تكاليف الحياة فلم يُصايروها فملّوا ثقل حملهم
وعظّم الناس منهم تركها فغدوا من غبطة الثرك في حرص لأجلهم
نعم أسلم أن القوم إذ زهدوا زادوا وأعلى الناس طرًا فضل تركهم
من حيث قد أحرزوا التّرجيح دونهم لا شيء أبين من ترجيح فضلهم
فالْمَالُ والجود والراحات غاية ما يحكي لنا الزهد في ذاعن أجْلهم
والزاهدون براحات القلوب مع الـ أبدان سُروا وعزّوا بعد ذلّهم
فكل ما فرّقوا قد حصلوا غرضًا منه وزادوا ثناء الناس كلّهم

قال: ومما نظمته عام أربعين في ذم الخمر من جهة الدنيا، لا من جهة الدين،
إذ ليس بغريب: [الطويل]

لقد ذمّ بعضَ الخمر قومًا لأنها تُكبرُ على دين الفتى بفساد
وقد سلّموا قول الذي قال إنها تحلّ من الدنيا بأعظم ناد
وتذهب بالمال العظيم فلن ترى لمُذمّنها من طارف وتلاد
فيُمنسي كريمًا سيّدًا ثم يَغْتدي سفيها حليف الغي بعد رشاد
وقالوا: تسلى وهو عارية لها وآلا فلم يأتوا لذاك بشاد
وصِل^(٤) ونورٌ وحسناء طفلة ومزأى به للطريف سير جواد

(١) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٦).

(٢) في الأصل: «وَأَبْنُ الْخَيْرِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.

(٣) في الأصل: «سَابِقُ»: والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.

(٤) أصل القول: «وصلة» وهكذا ينكسر الوزن.

وهلّا^(١) يُداوى من مرارتها التي
ولو أشرب الإنسان مهلاً بهذه
ومن حُسن حال الشاربين يُقيّو
ومن حُسن ذا المحروم أنْ مُدامه
فيختلف الثُدمان طراً لروحه
ومن حُسنه بين الورى ضربُ ظهره
مجانين في الأوهام قد ضلّ سعيهم
وأخـرها مقرونةً بمِهاد؟
لأصبح مسروراً بأطيب زاد
نـها بالرغم من برقي وساد^(٢)
إذا غلبت تكسوه ثوب رُقـاد
ويحدوهم نحو المروءة حادي
فيُمسي بلا حرب رهين جـلاد
يخففون بيعاً بحسن عـواد

ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستبعاد وجوه المطالب في جنسه، ممّا
نظّمته يوم عرفة عام خمسين^(٣) وأنا مُنْزَوٍ في غارٍ ببعض جبال ألمرية^(٤):
[الخفيف]

زعموا أنْ في الجبال رجالاً^(٥)
وأدعوا أنْ كلٌّ مَنْ سَاحَ فيها
فاخترقنا تلك الجبال مرازا
ما رأينا فيها سوى^(٦) الأفاعي
وسباعاً يَجْرون^(٧) بالليل عَذَوا
وَلَوْ أَنَّا^(٨) لَدَى الْعُدُوَّةِ الْأَخْـ
وَإِذَا أَظْلَمَ الدُّجَى جَاءَ إبـليـ
صالحينا^(٩) قالوا من الأبدالِ
فَسَيَلِقَاهُمُ عَلَى كُلِّ حَالٍ
يَزْعَمُ طَوْرًا ودون نعال
وشبّا^(١٠) عقرب كمثـل النبال
لا تسـلني عنهم بتلك الليالي^(١١)
رى رأينا نواجذ الرُّبـال^(١٢)
س إلينا يزور طَيف الخيال^(١٣)

- (١) أصل القول: «وهل» وهكذا ينكسر الوزن.
- (٢) هكذا ورد عجز هذا البيت، وهو منكسر الوزن.
- (٣) يعني عام خمسين وسبعمئة كما في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٨).
- (٤) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٨).
- (٥) في الأصل: «قومًا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
- (٦) في الأصل والنفع: «صالحين» وهكذا ينكسر الوزن.
- (٧) في النفع: «خلاف».
- (٨) شبـا العقرب: إبرتها التي تلدغ بها، واحدها شبة. محيط المحيط (شبا).
- (٩) في الأصل: «يخترون» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
- (١٠) في الأصل: «الفيال» والتصويب من النفع.
- (١١) في الأصل: «ولو كئنا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
- (١٢) الرُّبـال: الأسد، ونواجذه: أنيابه، واحدها ناجد. محيط المحيط (رأبل) و(نجد).
- (١٣) في النفع: «خيال».

هو كان الأنيسَ فيها ولولا ه أصيبت عقولنا بالخبال^(١)
 خلّ عنك المحالّ يا من تَعْنَى ليس يلقى^(٢) الرّجالَ غيرُ الرجال
 قال: ومن المنازع الغربية ذمّ الأصحاب ومدح الأعداء، فمن ذلك قولي:
 [المقارب]

جزى الله بالخير أعداءنا	فموردهم أنسى المصدر
هم حَمَلُونَا عَلَى الْعُرْفِ كَرْهًا	وهم صَرَفُونَا عَنِ الْمُتَكْر
وهم أَقْعَدُونَا بِمَجْلِسِ حُكْمٍ	وهم بَوَّؤُونَا ذُرَى الْمُسْبِر
وهم صَيَّرُونَا أئِمَّةَ عِلْمٍ	ودينٍ وحسبك من مَفْخَرٍ
عَدُوِّي بِأَوَّلِ فِدَى مَأْتَمٍ	وإن جِنْتُ بِالْإِثْمِ لَمْ يَغْدُرِ
وأنت ترى تمحيص من يَغْدُ	ل بين المُسَيِّءِ وبين البَري ^(٣)
ولا زَوَّدَ الله أصحابنا	بِزَادِ تَقْيٍّ وَلَا خَيْرِ
هم جَرَّؤُونَا عَلَى كُلِّ إِثْمٍ	وما كنتُ لولاهم بِالْمُخْبِرِ
وعَدُوا مِن أَكْبَارِ آثَامِنَا	فكانوا أَضْرُّ مِنَ الْفَاتِرِ
أعارني القوم ثوب الثَّقَى	وإني مما أعاروني بَري
إذا خدعوني ولم يَنْصَحُوا	وإني بِالنُّصْحِ مِنْهُمْ حَري
فمن كان يَكْذِبُ حَالِ الرِّضَى	يَضْدُقُ فِي غَضَبٍ يَفْتَرِي
بَلَى سَوْفَ تَلْقَى لَدَى الْحَالَتَيْنِ	يُخْكَمُ النَّفْسَ هَوَى الْقَرِي
فياربَّ أبقِ علينا عقولنا	نَبِيعَ بِهَا وَبِهَا نَشْتَرِي

قال: وما رأيت هذا المعنى قط لأحد، ثم رأيت بعد ذلك لبعضهم ما معناه:
 [الطويل]

عُدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِئَةٌ	فلا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
هم بَحَثُوا عَنِ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا	وهم نَاقَسُونِي فَاکْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

فوقع حافري على ساق هذا. قال: ومما نظمته، متخيلاً أني سابق معناه:
 [الوافر]

خَلَسْنَا لَيْلَةً مِنْ كَفِّ دَهْرِ ضَنِينَ بِاللَّيَالِي الطَّيِّبَاتِ

(١) الخبال: الجنون. لسان العرب (خبل). (٢) في الأصل: «تلقى» والتصويب من النسخ.

(٣) في الأصل: «البر». والبري: أصلها: البريء، وقد حذفت الهمزة للضرورة الشعرية.

سَلَكْنَا لِلْهَوَى وَالْعَقْل فِيهَا مَسَالِكَ قَدْ جَلَيْنَ عَلَى الشَّتَابِ
قَضَيْنَا بَعْضَ حَقِّ النَّفْسِ فِيهَا وَحَقُّ اللَّهِ مَرْعَى الثُّبَاتِ
فَلَمْ نَرِ قَبْلَهُ فِي الدَّهْرِ وَقْتًا بَدَتْ حَسَنَاتُهُ فِي السَّيِّئَاتِ
ثم رأيت بعد ذلك على هذا: [مخلع البسيط]

لا وليالٍ على المُضَلَّى تسرق في نُسكها الذنوبُ
فوقعت ساقى على حافر هذا المحروم، إلا أني جُرُدت ذلك في المعنى،
وأوضحته، وجَلَوته على كرسي التثعيد والتثجيد، فلولاً التاريخ لعاد سارق البرق.

نثره: وأما نثره، فنمطٌ مرتفع عن مُعتاد عصره، استنفارًا وبلاغة، واسترسالًا
وحلاوة، قلما يُعْرَج على السُّنْجَع، أو يأمر على التَّكْلِيف، وهو كثير بحيث لا يَتَعَيَّن
عيونه، ولكن تُلَمَّع منه بُبْدَة، وتُجَلِّب منه يسيرًا. كتب إلي عند إيابي من الرسالة إلى
ملك المغرب، ممثلًا بيئين لمن قبله، صدر بهما^(١): [السريع]

أَيْتَهَا^(٢) النَّفْسُ إِلَيْهِ أَذْهَبِي فَحُبُّهُ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِي
أَيَّاسُنِي^(٣) الثُّوبَةُ مِنْ حُبِّهِ طُلُوعُهُ شَمْسًا مِنَ الْمَغْرَبِ

بل محلُّك أمثلُ من التمثيل بالشمس، فلو كان طلوعك على هذه الأقطار
شمسًا، لأصبح جُلُّها لك عُباد. ولو كان نزولُك مطرًا لتكثَّفت الصُّخُور ثرابًا دميًا.
ولولا معرفتنا مَعَشَرِ إِخْوَانِ الصُّفَا، بِإِقْرَارِ أَنْفُسِنَا، لحكمنا بأن قلوبنا تمائم لأصدقائنا،
ولكن سبقت عيون السعادة بالكلَّات، فلو تُصادف بالرضى محلاً؛ لأنَّ تحصيل
الحاصل مُحال، لا زِلْتَ محروسًا، بعين الذي لا تأخذه بينة ولا نوم مَكْنُوفَةٌ بِبَرَكَةِ
الذي يرومه رائم، والسلام.

وكتب إلي عندما تقلدت من رئاسة الإنشاء ما تقلدت: تخصكم يا محلُّ الابن
الأزضى ولادة، والأخ الصادق إخلاصًا ووُدًا، خَصَّكُمْ الله من السعادة بأعلاها مَرْقَى،
وأفضلها عُقْبَى، وأحمدُها غِنَى، وأكرمها مَسْعَى، تحية اللَهْفَانِ إلى أيام لقائك،
المُسْلَى عنها بتأميل العود إليها، المُزْجَى أوقاته بترداد الفكر فيها، محمد بن الحاج،
أبقاه الله، عن شوق، والذي لا إله إلا هو، لم أجد قط مثله إلى وليِّ حميم. والله
على ما نقول وكيل، معرُفًا أنني بعلاقمه، وتُضْلِيْنِي عن كسره مجامعُه، لما اعتنى به

(١) البيتان لابن خروف الشاعر، وقيل لغيره، وهما في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٦).

(٢) في الأصل: «يا أيتها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٣) في الأصل: «إيَّاسي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

من توفليكم بالرتبة التي ما زال أحباؤكم بها منطولي بره، على أنك لم تزد بذلك رتبة على ما كنت باعتبار الأهلّة، والمكانة العليّة، إلا عند الأطفال والأغفال، والمُحلّقين من النساء والرجال، لكن أفرعتنا هذه المخاطبة المحظية في قالب الجمهور، ولم نسر فيها، على الأصح، لكن على الجمهور، ولو كانت مصارف الوجود بيدي، لوافقتك من الوجود منازل أسمائه منازل، وأوطأتك أفلاكه مراكب، وأوردتك كوثره مشربا، وأحللتك أرفعه مغفلا، وأقبستك بدره مصباحا، وأهدتك أسرارته تحفا. وقد تبلغ المقاصد مبالغ لا تنتهي أقاصيها الأعمال، فنحن وما نُضمّره لتلك الجملة الجليلة الفاضلة، مما الله رقيب عليه، ومحيط بدقائقه. ولو كانت لهذا العبد الغافل، المأسور في قيد نفسه، المحزون على انتهاب الأيام، رأس عمره في غير شيء، دعوة يساعدها الوجد حتى يغلب على ظنه أن العليم بذات الصدور، ولأها من قبوله بارقة لخصك بها، والله شهيد على ما تكته الأفئدة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والفضل جم، والمحاسن عديدة، فلنقصر اضطرارا، ولنكف امتثالا للرسم، وانقيادا، أمتنع الله به.

محمد بن عبد الله بن منظور القيسي^(١)

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

أوليته: أصله^(٢) من إشبيلية، من البيت المشهور بالتعيين والتقدم، والأصالة، تشهد بذلك جملة أوضاع، منها «الروض المحظور»^(٣) في أوصاف بني منظور، وغيره.

حاله: من كتاب «عائد الصلة». كان^(٤) جمّ التواضع والتخلق، كثير البر، مفرط الهنّة، مبذول^(٥) البشر، عظيم المشاركة، سريع اللسان إلى الثناء، مُنترسلا في باب الإطراء، ذريّا على الحكم، كثير الحنكة، قديم العالة، بصيرا بالشروط، وُلّي القضاء بجهات كثيرة، وتقدم بمالقة، بلده فشكرت^(٦) سيرته، وُحمدت مدارته. وكان سريع

(١) ترجمة ابن منظور في الكتبية الكامنة (ص ١١٩) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٣٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢). وجاء في المصدر الأخير أنه «أبو بكر محمد بن عبيد الله بن محمد بن يوسف بن يحيى بن عبيد الله بن منظور...».

(٢) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢). (٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «المنظور».

(٤) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس: «ميدول» بالبدال المهملة.

(٦) في المصدر نفسه: «فحمدت سيرته، وشكرت طريقته...».

العبرة، كثير الخشية، حسن الاعتقاد، معروف الإيثار والصدقة، شائع الإقراء لمن ألم بضيقه، واجتاز على محل ولايته، جارياً على سنن سلفه، ينظم وينثر، فلا يقصر.

مشيخته: قرأ^(١) على الأستاذ أبي محمد بن أبي السداد الباهلي، ولازمه وانتفع به، وسمع على غيره من الأعلام، كالخطيب الولي أبي عبد الله الطنجالي، والعدل الراوية المسنن أبي عبد الله بن الأديب، والمسند أبي الحكم مالك بن المرحل، وعلى الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأقشري الفاسي، ولبس عنه خزيمة التصوف، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رشيد، وعن الشيخ القاضي أبي المجدد بن الأحوص، وعلى ابن مجاهد الرندي، المعروف بالسمار، والخطيب أبي العباس بن خميس بالجزيرة الخضراء، وعلى الخطيب الزاهد أبي عبد الله السلالة. وكتب إليه بالإجازة، أبو عبد الله بن الزبير، والفقير أبو الحسن بن عقيل الرندي، والوزير المعمر أبو عمر^(٢) الطنجي، وأبو الحكم بن منظور، ابن عم أبيه، والأستاذ أبو عبد الله بن الكماد. نقلت ذلك من خطه.

توالياه: أخبرني^(٣) أنه ألف «نفحات المسوك»^(٤)، و«عيون الثبر المسبوك» في أشعار الخلفاء والوزراء والملوك. وكتاب «الشحوب»^(٥) الواكفة والظلال الوارفة، في الرد على ما تضمنته المضمون^(٦) به على غير أهله من اعتقاد الفلاسفة. وكتاب الصبيب الهتان، الواكف بغايات الإحسان، المشتمل على أدعية مستخرجة من الأحاديث الصحيحة النبوية وسور القرآن. وكتاب «البرهان والدليل في خواص سور التثزيل، وما في قراءتها في النوم من بديع التأويل»^(٧). وكتاب يشتمل على أربعين حديثاً في الرقائق، موصولة الأسانيد. وكتاب «تحفة الأبرار في مسألة النبوة والرسالة، وما اشتملت عليه من الأسرار». وكتاب «الفعل المبرور، والسعي المشكور، فيما وصل إليه، أو تحصل لديه من نوازل القاضي أبي عمر بن منظور».

شعره: ومن شعره قوله^(٨): [البسيط]

ما للعطاس ولا للفأل من أثرٍ فَيُثِقُ فديئُك^(٩) بالرحمنِ واصطبرِ

(١) النص أيضاً في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢)، ولكن باختصار.

(٢) في المصدر نفسه: «أبو عمرو».

(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «النسوك».

(٥) في المصدر نفسه: «السجم».

(٦) في المصدر نفسه: «المظنون به من اعتقادات الفلاسفة».

(٧) وقوله: «وما في قراءتها... التأويل» ساقط في تاريخ قضاة الأندلس.

(٨) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١١٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٢).

(٩) في تاريخ قضاة الأندلس: «بدينك».

وسلم الأمر فالأحكام ماضية تجري على السنن^(١) المربوط بالقدر

محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عسكر^(٢).

حاله: من كتاب «الذيل والتكملة»^(٣): كان مقررًا^(٤) مجودًا، نحويًا^(٥)، متوقد الذهن، متقنًا في جملة معارف، ذا حظ صالح من رواية الحديث، تاريخيًا، حافظًا، فهيما^(٦)؛ مشاورًا، دؤوبًا^(٧) في الفتوى، متينًا في^(٨) الدين، تأم المروءة، سنيًا فاضلاً، معظماً عند الخاصة والعامة، حسن الخلق، جميل العشرة، رحيب^(٩) الصدر، مسارعًا إلى قضاء الحوائج^(١٠)، شديد الإجمال^(١١)، محسنًا إلى من أساء إليه، نقاعًا بجاهه، سمحًا بذات يده، متقدمًا في عقد الوثائق، بصيرًا بمعانيها، سريع البديهة^(١٢) في النظم والنثر، مع البلاغة والإحسان في الفتن.

وُلِّي قضاء مالقة نائبًا عن القاضي^(١٣) أبي عبد الله بن الحسن مدة، ثم وُلِّي^(١٤) مستبدًا بتقديم الأمير أبي عبد الله بن نصر^(١٥)، يوم السبت لليلتين بقيتا من رمضان عام^(١٦) خمسة وثلاثين^(١٧). وأشفق^(١٨) من ذلك وامتنع منه وخاطبه مُستعفيًا، وذكر أنه لا يصلح للقيام بما قلده من تلك الخطّة تورعًا منه، فلم يُسعه.

(١) في الأصل: «السنن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) ترجمة ابن عسكر في التكملة (ج ٢ ص ١٣٩) والذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٤٩)

وبغية الوعاة (ص ٧٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨) واختصار القُدح المعلى (ص ١٣٠)

والمغرب (ج ١ ص ٤٣١) ونفح الطيب (ج ٣ ص ١١١) و(ج ٤ ص ٤٧٨) و(ج ٦ ص ٨٤).

(٣) الذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٥٠).

(٤) في الأصل: «مقررًا» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٥) في الذيل: «نحويًا ماهرًا».

(٦) في الذيل: «دؤوبًا بالفتوى».

(٧) في الذيل: «رحب».

(٨) في الذيل: «الاحتمال».

(٩) في الذيل: «سريع القلم والبديهة في إغشاء نظم الكلام ونثره».

(١٠) كلمة «القاضي» ساقطة في الذيل.

(١١) في الذيل: «وله».

(١٢) هو الغالب بالله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، أول سلاطين بني نصر بغرناطة، وقد حكم من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. اللوحة البدرية (ص ٤٢).

(١٣) كلمة «عام» ساقطة في الذيل.

(١٤) في الأصل: «خمس وثلاثين» وهو خطأ نحوي. وفي الذيل: «خمس وثلاثين وستمائة».

(١٥) في الذيل: «وأشفق».

فتقلدها، وسار فيها أحسن سيرة، وأظهر الحقوق التي كان الباطل قد غمَرها، ونقذ الأحكام.

وكان ماضي العزيمة، مقدّامًا، مهيبًا، جَزَلًا في قضائه، لا تأخذه في الله لومة لائم، واستمرّ على ذلك بقية عمره.

مشيخته: روى^(١) عن أبي إسحاق الزوالي، وأبي بكر بن^(٢) عتيق بن منزول^(٣)، وأبي جعفر الجيان^(٤)، وأبي حسن الشقُوري، وأبي الحجاج بن الشيخ، وأبي الخطّاب بن واجب، رأبي زكريا الأصبهاني مُقيم غرناطة.

مَنْ روى عنه: روى^(٥) عنه أبو بكر بن خميس ابن أخته، وأبو العون^(٦)، وأبو عبد الله بن بكر الإليبري^(٧). وحدث عنه بالإجازة، أبو عبد الله الأبار^(٨)، وأبو القاسم بن عُمران، وكتب بالإجازة للعراقيين من^(٩) أهل بغداد الذين استدعوها من أهل الأندلس، حسبما تقدم^(١٠) في رسم أبي بكر بن هشام، وضمنها نظمًا ونثرًا اعترف له بالإجادة فيهما.

تصانيفه: صنّف^(١١) كتبًا كثيرة، أجاد فيها وأفاد، منها «المشَرع الزوي في الزيادة على المَزوي»^(١٢). ومنها «أربعون حديثًا» التزم فيها موافقة اسم شيخه، اسم الصابي^(١٣)، وما أراه سبق إلى ذلك، وهو شاهدٌ بكثرة شيوخه، وسعة روايته. ومنها «نُزْهة الناظر في مناقب عمّار بن ياسر». ومنها «الخير»^(١٤) المختصر، في السُّلوى^(١٥) عن ذهاب البَصَر، ألّفه لأبي محمد بن أبي الأحوص^(١٦) الضرير الواعظ. ومنها

(١) النص في الذيل: (السفر السادس ص ٤٤٩).

(٢) كلمة «بن» غير واردة في الذيل. (٣) في الذيل: «قتال».

(٤) في الذيل: «الجيار».

(٥) ما يزال النقل عن الذيل والتكملة (السفر السادس ص ٤٤٩).

(٦) في الذيل: «وابن أبي العيون».

(٧) في الذيل: «وأبو عبد الله بن أبي بكر البري».

(٨) في الذيل: «ابن الأبار». (٩) كلمة «من» غير واردة في الذيل.

(١٠) في الذيل: «تقدم ذكره».

(١١) ما يزال النقل مستمرًا عن الذيل (ج ٦ ص ٤٥٠).

(١٢) في الذيل: «على غريبي الهروي». (١٣) في الذيل: «الصحابي».

(١٤) في الذيل: «الجزء».

(١٥) في الذيل والتكملة وتاريخ قضاة الأندلس: «السُّلُو».

(١٦) في الذيل: «خُرس».

«رسالة في ادخار الصبر، وافتخار القَصْر والفَقْر». ومنها «الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمجالس»^(١) الإعلام من أهل مالقة الكرام». وله اسم آخر، وهو «مطلع الأنوار ونزهة الأبصار»^(٢)، فيما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأعلام والأخبار، وتقيد من المناقب والآثار». واختتمته المنيّة عن إتمامه فتولّى إتمامه ابن أخته أبو بكر محمد بن خميس المذكور، وقد نقلت منه في هذا الكتاب.

شعره: ومن شعره، وقد نُعيت إليه نفسه قبل أن تُغْرِب من سماء معارفه شمس^(٣): [الطويل]

ولما انقضى^(٤) إحدى وخمسون حجةً كآني منها بعد كَرْب^(٥) أحلمُ
ترقيت أعلاها لأنظر فوقها مدى^(٦) الحُف مني علني^(٧) منه^(٨) أسلمُ
إذا هو قد أدنت إليه كأنما ترقيت فيه نَجوة وهو سَلَمُ^(٩)
وقال في أحذب: [السريع]

وأحذبٌ تحسب في ظهره جاء^(١٠) به في نَهْر عائمة
مُثَلَّت الخِلقة لكئه فسي ظهره زاوية قائمة

ومن أمثال نظمه قوله، وقد استُدعيت منه إجازة^(١١): [الطويل]

أجبتك لا أني^(١٢) لما رُمته أهلٌ ولكن ما أجبت^(١٣) مُحتمل سَهْلُ
وما العلم إلا البحر طاب مذاقه وما لي عل في الورود ولا نَهْلُ^(١٤)

(١) في الذيل: «بحاسن».

(٢) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٨).

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «ولما انقضت».

(٤) في المصدر نفسه: «... منها ما تذكرت أحلم».

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس: «إلى».

(٦) في الأصل: «علي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من تاريخ قضاة الأندلس.

(٧) في تاريخ: «منها».

(٨) رواية البيت في تاريخ قضاة الأندلس هي:

إذا هي قد أدنت مني كأنما ترقيت فيها نحوه وهو سَلَمُ

(٩) في الأصل: «جابه» وهكذا ينكسر الوزن.

(١٠) الأبيات في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥١).

(١١) في الأصل: «لاني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.

(١٢) في الذيل: «أحببت».

(١٣) رواية البيت في الأصل مضطرب ومنكسر الوزن هكذا:

فكيف^(١) أراني أهل ذاك وقد أتى عليّ المميتان^(٢) البطالة والجهل

وأسأل^(٣) ربي العفو عني فإنه لما يرتجيه العبد من فضله^(٤) أهل

مولده: تخمينًا في نحو أربع وثمانين وخمسمائة.

وفاته: ظهر يوم الأربعاء لأربع خلون من جمادى الآخرة، عام ستة وثلاثين

وستمائة^(٥).

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد

ابن أبي بكر بن سعد الأشعري المالقي^(٦)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن بكر، من ذرية^(٧) بلج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد^(٨) بن أبي بردة. واسمه عامر بن أبي عامر بن أبي موسى. واسمه عبد الله بن قيس، صاحب رسول الله ﷺ. ذكره ابن حزم^(٩) في جملة من دخل الأندلس من العرب^(١٠).

حاله: من «عائد الصلاة»: كان^(١١) من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء، سذاجة ونزاهة ومعرفة وتفنتًا. فسيح الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثرًا

= وما العلم إلا بحر طال مدانه وما لي محم في الورود ولا نهل والتصويب من الذيل والتكملة.

- (١) في الذيل: «وكيف».
- (٢) في الأصل: «المحيتان» والتصويب من الذيل.
- (٣) في الذيل: «فنسأل».
- (٤) في الأصل: «فضلي» ومكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.
- (٥) كذا في التكملة (ج ٢ ص ١٤٠) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٢) وبغية الرعاة (ص ٧٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٥٩). وفي اختصار القدر المعلى: «ومات بمالقة سنة ثمان وثلاثين وستمائة».
- (٦) ترجمة محمد بن يحيى الأشعري في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٧) واللمحة البدرية (ص ٩٥، ١٠٤) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٥٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٤) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٨٤).

- (٧) في نفع الطيب: «من ذرية أبي موسى الأشعري».
- (٨) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٣٧٨): «زيد».
- (٩) هاء التضمير في كلمة «ذكره» يعود إلى عبد الله بن قيس الأشعري، وقد ذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٣٩٧).
- (١٠) في تاريخ قضاة الأندلس: «المغرب».
- (١١) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

للإنصاف، عارفًا بالأحكام والقراءات^(١)، مبرزًا في الحديث تاريخًا وإسنادًا وتعديلاً وتجريحا^(٢)، حافظًا للأنساب والأسماء والكنى، قائمًا على العربية، مشاركًا في الأصول والفروع، واللغة والعروض والفرائض والحساب، مخفوض الجناح، حسن التخلق^(٣)، عطوفًا على الطلبة، مُحِبًّا في العلم والعلماء، مجلًا لأهله^(٤)، مطرَح^(٥) التصنع، عديم المُبالاة بالملبس، بادي الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، صوّالة، معروف بنصرة من أَرَزَ إليه. تقدّم للشيخا^(٦) ببلده مالقة، ناظرًا في أمور العقّد والحل، ومصالح الكافة. ثم وُلِّي القضاء بها، فأعزّ الخُطة، وترك الهوادة وإنفاذ الحق^(٧) ملازمًا للقراءة والإقراء، محافظًا للأوقات، حريصًا على الإفادة.

ثم وُلِّي القضاء^(٨) والخُطابة بقرناطة في العشر الأول لمحرم سبعة وثلاثين وسبعمائة، فقام بالوظائف، وصدع^(٩) بالحق، وجرح^(١٠) الشهود فزُف منهم ما ينيف على السبعين^(١١) عددًا، واستهدف بذلك إلى مُعاداة ومناضلة خاض بُجها، وصادم تيارها، غير مبالي بالمغبة، ولا حافل بالثبّة، فناله لذلك من المشقة، والكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان^(١٢) يمشي إلى الصلاة ليلاً في مسلة، لا يطمئن على حاله. جرت في هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أَراده الله، وعزم عليه الأمير في بعض من الخُطة، ليردّه إلى العدالة، فلم يجد في قناته مَعَمَزًا، ولا في عوده مَعَجَمًا، وتصدّر لبث العلم بالحضرة، يقرئ فنونًا منه جمّة، فنفع وخرّج، ودرّس العربية والفقه والأصول، وأقرأ القرآن، وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحًا وسماعًا، على سبيل من انشراح الصدر، وحسن التجمل، وخفّض الجناح^(١٣).

(١) في النفع: «والقراءة».

(٢) في النفع: «وجرحًا».

(٣) في النفع: «الخلق».

(٤) قوله: «مجلًا لأهله» غير وارد في النفع.

(٥) في النفع: «مطرَحًا للتصنع».

(٦) هذه الكلمة غير واردة في النفع.

(٧) في النفع: «وترك الشوائب، وأنفذ الحق».

(٨) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٩): «ثم وُلِّي قضاء الجماعة، فقام بالوظائف...». وفي نفع

الطيب (ج ٨ ص ٣٦٠): «ثم وُلِّي القضاء بقرناطة المحروسة، سنة ٧٣٧هـ».

(٩) صدع بالحق: جهر به. لسان العرب (صدع).

(١٠) في النفع: «وبهزج».

(١١) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٩): «على الثلاثين عددًا». وفي نفع الطيب: «على سبعين،

واستهدف...».

(١٢) في النفع: «حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً، ولا يطمئن...».

(١٣) في النفع: «جناح».

وذكره القاضي المؤرخ أبو الحسن بن الحسن، فقال^(١): وأما شيخنا، وقرينا مصاهرة، أبو عبد الله بن أبي بكر، فصاحب عزم وقضاء، وحكم صانع وقضاء. كان له، رحمه الله، مع كل قولة صولة، وعلى كل رابع لا يعرف ذرة، فأحرق قلوب الحسدة والصب، وأعز الخطة بما أزال عنها من الشوائب، وذُهب وقضض^(٢) كواكب الحق بمعارفه، ونقذ في المشكلات، وثبت في المذهلات^(٣)، واحتج وبكت، وتفقه ونكت.

توقيعه: قال: وحذثنا صاحبنا أبو جعفر الشقري قال^(٤): كنت قاعدًا في مجلس حُكمه فرفعت إليه امرأة رُقعة، مضمونها أنها مُحبة في مُطلقها، وتبغني من يَسْتَشْفَع لها في رُدّها، فتناول الرُقعة، ووقع في ظهرها للحين من غير مُهلة: الحمد لله، من وقف على ما بالمقلوب^(٥)، فليصغ لسماعه إصاعة مُغيث، وليشفع للمرأة عند زوجها، تأسيًا بشفاعه رسول الله ﷺ لَبْرِيرة في مُغيث. والله يُسلم لنا العقل والدين، ويسلك بنا مسالك المُهتدين. والسلام يعتمد على مَنْ وقف على هذه الأحرف من كاتبها، ورحمة الله. قال صاحبنا: فقال لي بعض الأصحاب: هَلْ كان هو الشفيع لها؟ فقلت: الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على النصوص^(٦).

شعره: ولم يُسمع له شعر إلا بيتين في وصف قوس عربي السَّب في شعر من لا شعر له، وهما: [البسيط]

هام الفؤاد بنت^(٧) النبع والنشم زوراء^(٨) تُزري بعطف البان والصنم
قوام قامتها تمام معطفها من يلق مقتلها تُصميه أو تُصم

مشيخته: قرأ على الأستاذ المُتَفَنُّن الخطيب أبي محمد بن أبي السَّداد الباهلي^(٩) القرآن العظيم جَمْعًا وإفرادًا، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث، ولازمه،

(١) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٦٠). وهو لم يرد حرفيًا في تاريخ قضاة الأندلس، وجاء فيه ما في معناه.

(٢) دُهِبها وقَضَضها: جعلها ناصعة كالذهب والفضة.

(٣) في النفع: «المعضلات».

(٤) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٢) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٦١) ببعض اختلاف عما هنا.

(٥) في المصدرين السابقين: «القلوب، فليُصَغِّح لسماعه». والمراد هنا بالمقلوب: ظهر الرُقعة.

(٦) في النفع: «المنصوص».

(٧) في الأصل: «في بنت»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «زوراء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٩) هو عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السَّداد الأموي المالقي، الشهير بالباهلي، وسيترجم =

وتأدب به. وعلى الشيخ الراوية الصالح أبي عبد الله محمد بن عيَّاش الخَزْرَجِي القرطبي، قرأ عليه كثيرًا من كُتُب الحديث، منها كتاب صحيح مُسلم، وسمع عليه جميعه إلا دولة واحدة. ومن أشياخه القاضي أبو القاسم قاسم بن أحمد بن حسن بن السُّكُوت، والفقيه المُشاور الصدر الكبير أبو عبد الله بن ربيع، والخطيب القُدوة الولي أبو عبد الله بن أحمد الطَّنْجَالِي، والشيخ القاضي أبو الحسن ابن الأستاذ العلامة أبي الحجاج بن مصادم، والأستاذ خاتمة المُفَرِّثين أبو جعفر بن الزُّبَيْر، والخطيب المحدث أبو عبد الله بن رُشِيد، والخطيب الولي الصالح أبو الحسن^(١) بن فضيلة، والأستاذ أبو الحسن بن اللُّبَاد المَشْرِفِي، والشيخ الأستاذ أبو عبد الله بن الكماد السُّطِّي اللَّبْلِسِي. وأجازه من أهل سبته شيخ الشُّرَفَاء أبو علي بن أبي الثَّقَى طاهر بن ربيع، والعدل الراوية أبو فارس عبد العزيز بن الهواري، وأبو إسحاق التلمساني، والحاج العدل الراوية أبو عبد الله بن الحضار، والأستاذ المقرئ ابن أبي القاسم بن عبد الرحيم القيسي، والأستاذ أبو بكر بن عُبيدة، والشيخ المعمر أبو عبد الله بن أبي القاسم بن عبيد الله الأنصاري. ومن أهل إفريقية الأديب المعمر أبو عبد الله محمد بن هارون، وأبو العباس أحمد بن محمد الأشعري المالقي نزيل تونس، ومحمد بن محمد بن سيّد الناس اليَغْمُرِي، وعثمان بن عبد القوي البَلَوِي. ومن أهل مصر النسابة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدُمِيَّاطِي، والمحدث الراوية أبو المعالي أحمد بن إسحاق، وجماعة غيرهم من المصريين والشاميين والحجازيين.

مولده: في أواخر ذي حجة من عام أربعة^(٢) وسبعين وستمائة.

وفاته: قُتِلَ في مصاب^(٣) المسلمين يوم المناجزة بطريف^(٤) شهيدًا مُحَرَّضًا، زعموا أن بَغْلَةً كان عليها كَبَتْ به، وأفاق رابط الجأش، مجتمع القُوَى. وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه. وقال: انصرف، هذا يوم الفرج^(٥)،

= له ابن الخطيب في الجزء الثالث من الإحاطة.

(١) في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦١): «أبو الحسين».

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٤): «ومولده في أواخر شهر ذي الحجة من عام ٦٧٣».

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٣): «مصاف».

(٤) موقعه طريف: هي الموقعة الشهيرة التي كانت بين الإسبان وبنو مرين، وكان مع بني مرين قوات الأندلس بقيادة السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، سنة ٧٤١ هـ، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين. اللوحة البيرية (ص ١٠٥).

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٤) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٢): «الفرج».

إشارة إلى قوله تعالى في الشهداء: ﴿وَرَجَيْنَ يَمَاءَ أَنفُسِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمئة.

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد
ابن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد
ابن ناصر بن حيّون بن القاسم بن الحسن بن محمد
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه^(٢)
حسبما نقل من خطه:

أوليته: معروفة، كان وليته مثله.

حاله: هذا^(٣) الفاضل جُملة من جُمَل الكمال، غريب في الوقار والحصافة، وبلوغ المدى، واستولى على الأمم جُلُمًا وأناة، وبُعْدًا عن الريب، وتمسكًا بغرى النزاهة، واستمسكًا مع الاسترسال، وانقباضًا مع المُدَاخَلَة، معتدل الطريقة، حسن المداراة، مالكًا أزمّة الهوى، شديد الشفقة، كثير المواساة، مَعَار حَبْل الصبر، جميل العشرة، كثيف سِرِّ الحياء، قوي النفس، رابط الجأش، رقيق الحاشية، مُمتنع المجالسة، متوقد الذهن، أصيل الإدراك، بارعًا بأعمال المشيخة، إلى جلال المُتَمَتِّي، وكرم المَنَصِّيب ونزاهة النفس، وملاحاة الشَّيْبَة، وحمل راية البلاغة، والإعلام في ميادين البيان، رُخلة الوقت في التبريز بعلوم اللسان، حائز الخصل^(٤) والفضل في ميدانها، غريبة^(٥) غزيرة الحِفْظ، مُفْتِحة الشَّاهِد^(٦)، مُسْتَبْحِرَة النظر، أصيلة التوجيه، برية عن التُّوك والغفلة، مرهفةً باللغة والغريب والخبر والتاريخ والبيان، وصناعة البديع، وميزان العَرُوض، وعلم القافية، وتقدُّمًا في الفقه، ودرسًا له، وبراعةً في الأحكام، وإتقان التدريس، والصبر، والدُّؤوب عليه، بارعُ التصنيف، حاضر الذهن، فصيحُ اللسان، مَفْخَرَة من مفاخر أهل بيته.

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٠.

(٢) ترجمة محمد بن أحمد الحسيني في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٠) ونشر فرائد الجمان (ص ٢٣١) وجاء فيه أنه يكنى أبا القاسم، ونفع الطيب (ج ٧ ص ١٨٢) وبغية الوعاة (ص ١٦) والدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٥٢) واللمحة البدرية (ص ١٠٥، ١١٦) وكشف الظنون (ص ١٨١٧).

(٣) النص في بغية الوعاة (ص ١٦) نقلًا عن الإحاطة، والسيوطي يتقل بتصرف.

(٤) كلمة «الخصل» غير واردة في بغية الوعاة. (٥) في بغية الوعاة: «عربية».

(٦) في بغية الوعاة: «الشماثل».

ولايته: قَدِمَ على الحَضْرَةِ في دولة الخامس من ملوك بني نصر^(١)، كما استجمع شبابه، يَفْهَقُ عِلْمًا باللسان، ومعرفةً بمواقع البيان، وينطق بالعَذْبِ الزُّلالِ من الشعر، فَسَهَّلَ له كَتَفَ البر، ونُظِمَ في قلادة كتاب الإنشاء، وهو إذ ذاك ثَمِينَةُ الخَزَرَاتِ، مُحْكَمَةُ الرُّصَفِ، فَشَاعَ فضله، وذاعَ رَجَلُهُ. ثم تقدم، فنقل من طور الحكم، إلى أن قُلِدَ الكتابة والقضاء والخطابة بالحاضرة، بعد ولاية غيرها التي أعقبها ولاية مالقة في الرابع من شهر ربيع الآخر عام سبعة وثلاثين وسبعمائة. فاضطلع بالأحكام، وطَبَّقَ مِفْصَلَ الفضل، ماضي الصُّرِيمة، وَجِيَّ الإِجْهَارِ، نافذ الأمر، عظيم الهبة، قليل الثَّاقِدِ، مُطْعَمُ التوفيق، يَضْدَعُ في مواقف الخُطْبِ، بكل بليغ من القول، مما يُرِيْقُ دِيبَاجَتَهُ، وَيَشِفُّ صِقَالَهُ، وتبرأ من كلال الخطباء جوانبه وأطرافه. واستعمل في السَّفارة للعدوِّ ناجح المسمى، ميمون الثَّقِيبة، جزيل الحياء والكرامة، إلى أن غُرِلَ عن القضاء في شعبان من عام سبعة وأربعين وسبعمائة، من غير زَلَّةٍ تَخْفُضُ، ولا هِنَةٍ تُؤَثِّرُ، فتَحَيَّزَ إلى التَّحْلِيْقِ لتدريس العلم، وتفرَّغَ لإقراء العربية والفقه، ولم يَنْشِبْ أَمِيرُهُ المنظوري على الهاجس، المُغْري بمثله، أن قَدَّمَهُ قاضيًا بوادي آش، بَنَتْ حضرتة، معزَّزةً بسندها الكبير الخُطَّةَ، فانتقل إليه بجملته. وكانت بينه وبين شيخنا أبي الحسن بن الجِيَّابِ، صداقةً صادقة، ومودةً مستحكمة، فجرت بينهما أثناء هذه الثَّقَلَةِ، بدائع، منها قوله، يرقب^(٢) خُطَّةَ القضاء التي اخترعها، ويوليها خطة الملامة^(٣):
[السريع]

لا مَرْحَبًا بالناشز الفارك	إن جُهِلَتْ رفعة مقدارك
لو أنها قد أُوتِيَتْ رُشْدُهَا	ما بَرِحَتْ تَغْشُو إلى نارك
أَقْسَمْتُ بالثور المُبِينِ الذي	منه بَدَتْ مِشْكَاةُ أنوارك
ومَظْهَرِ الحُكْمِ الحَكِيمِ الذي	يتلو عليه ^(٤) طَيْبُ أخبارك
ما لَقِيت مثلك كُفْرًا لها	ولا أَوْتِ أَكْرَمَ مِنْ دَارِك ^(٥)

(١) الخامس من سلاطين بني نصر هو أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف، وقد حكم من سنة ٧١٣ إلى سنة ٧٢٥ هـ. راجع اللوحة اليدوية (ص ٧٨).

(٢) في الأصل: «يوس عنه خطبة»، وهو كلام لا معنى له، وصوبناه من تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٢).

(٣) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٢ - ٢١٣).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «علينا».

(٥) رواية البيت في المصدر السابق هي:

ما أَلِفْتُ مثلك كُفْرًا ولا أَوْتِ إلى أَكْرَمَ مِنْ دَارِك

ثم أعيد إلى القضاء بالحضرة، فوليتها، واستمرت حاله وولايته على متقدم سيمته من الفضل والثزاهة والمراجعة فيما يأنف فيه من الخروج عن الجادة، إلى أن هلك السلطان^(١) مُستَقْضيه، مأموماً به، مُقتدياً بسجده، يوم عيد الفطر، خمسة وخمسين وسبعمائة. وولي الأمر ولده^(٢) الأسعد، فجدد ولايته، وأكد تجلته، ورفع رتبته، واستدعى مجالسته.

مشيخته: قرأ^(٣) ببلده سبنة على أبيه الشريف الطاهر، نسيج وحده في القيام، وعلى أبي عبد الله بن هاني وبه جل انتفاعه، وعليه جل استفادته. وأخذ عن الإمام شيخ المشيخة أبي إسحق الغافقي. وروى عن الخطيب أبي عبد الله الغماري، والخطيب المحدث أبي عبد الله بن رشيد، والقاضي أبي عبد الله القرطبي، والفقيه الصالح أبي عبد الله بن خريث. وأخذ عن الأستاذ النظار أبي القاسم بن الشاط وغيره.

محبته: دارت عليه يوم مهلك السلطان المذكور زخى الوقعة، فعرسته بالثقال، وتخلص من شراها هولاً، لتطارح الأمير المتوئب أمام المريّة عليه، خاتماً في السجدة، وذرس الحماة إياه عند الدجلة، من غير التفات لمحل الوطأة، ولا افتقاد لمحل صلاة تلك الأمة، فغشيه من الأزجل، رَجُلُ الرُبَى كثيرة، والتفّ عليه مُرسل طيلسانه، ساداً مجرى النفس إلى قلبه، فعالج الحمام وقتاً، إلى أن نفّس الله عنه، فاستقلّ من الرُدى، وانتبذ من مُطرح ذلك الوعى، وبُودِر بالفُصاد، وقد أشقى، فكانت عشرة لقيت لُماً ومتاعاً، فسمح له المدى آخر من يوثق به، من محل البث، ومودعات السر من حظيئات الملك، أن السلطان عرض عليه قبل وفاته في عالم الحلم، كونه في محراب مسجده، مع قاضيه المترجم به، وقد أقدم عليه كَلْبٌ، أصابه بثوبه، ولطخ ثوبه بدمه، فأهمته رؤياه، وطرقت به الظنون مطارقها، وهم بعزل القاضي، انقياداً لبواعث الفكر، وسداً لأبواب التوقعات، وقد تأذن الله بإرجاء العزم، وتصديق الحلم، وإمضاء الحكم، جل وجهه، وعزت قدرته، فكان من الأمر ما تقرر في محله.

(١) هو السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج، سابع سلاطين بني نصر بغرناطة. راجع لللمحة البدرية (ص ١٠٢).

(٢) هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج، ثامن سلاطين بني نصر بغرناطة، والمتوفى سنة ٧٩٣ هـ. ترجمته في الللمحة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٣) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٩١) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٣٧، ٥٨، ١٩٤).

(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧).

تصانيفه: وتصانيفه بارعة، منها، «رَفَعُ الحُجُبِ المستورة في»^(١) محاسن المَقْصُورَةِ^(٢)، شرح فيها مقصورة الأديب أبي الحسن حازم بما تنقطع الأطماع فيه. ومنها «رياضة الأبي»^(٣) في قصيدة الخَزْرَجِي، أبدع في ذلك بما يدل على الاطلاع وسداد الفهم، وقيد على «كتاب التَّشْهِيل» لأبي عبد الله بن مالك تَقْيِيدًا جليلاً، وشرحاً بديعاً، قارب التمام. وشرع في تَقْيِيد على الخبر المسمّى بـ«دُرَر السَّمُط في خبر السُّبُط». ومحاسنه جمّة، وأغراضه بديعة.

شعره: وأما الشعر، فله فيه القَذَح المَعْلَى، والحِظُّ الأوفى، والدَّرَجَةُ العليا، طبقة وقته، ودرجة عصره، وحجة زمانه، كلامه متكافئ في اللفظ والمعنى، صريح الدلالة، كريم الخَيم، متحصّد الحَبْل، خالص السَّبْك، وأنا أثبت منه جزءاً خَصَنِي به، سمّاه جهد المقل، اشتمل من حرّ الكلام، على ما لا كفاء له.

الحمد لله تردّده أخرى الليالي، فهو المسؤول أن يعصمنا من الزَّلَل، زلل القول، وزلل الأعمال. والصلاة على سيدنا محمد خاتم الإرسال. هذه أوراق ضمّتها جملة من بنات فكري، وقطعا مما يُحْيِش به في بعض الأحيان صدري، ولو خَزَمْتُ لأضربت عن كَثِبِها كل الإضراب، ولَزِمْتُ في دَفْنِها وإخفائها دين الأعراب، لكنني آثرت على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم إن خير ما أوتيته العربُ الأبيات. وإذا هي عُرِضَتْ على ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأد، فقد أوتيتها من حُرْمِكم إلى ظلٍّ ظليل، وأحلتها من بنائكم مُعَرَّسًا ومقيل، وأهديتها علماً بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها جدُّ كفيل، فاعتنم قلة التهذئة مني، إن جَهِدَ المقلّ غير قليل، فحسبها شرفاً أن تبوّأت في جنبابك كَتَفًا، وكفاها مجداً وفخراً أن عَقَدْتُ بينها وبين فكرك عَقْدًا وجوّارًا ومما قلت في حرف الهمزة.

مولده: بسبّنة في السادس لشهر ربيع الأول^(٤) من عام سبعة وتسعين وستمائة.

وفاته: توفي قاضيًا بَغْرَناطة في أوائل شعبان^(٥) من عام ستين وسبعمائة.

(١) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧): «عن».

(٢) هي مقصورة أديب المغرب أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي، التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمدًا الحفصي. راجع نفح الطيب (ج ٧ ص ١٨٢).

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «الآن في شرح قصيدة...».

(٤) هكذا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧). وفي بغية الوعاة: «ربيع الآخر».

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢١٧): «ووفاته بَغْرَناطة ضحى يوم الخميس الحادي والعشرين لشهر شعبان من عام ٧٦٠». وفي نفح الطيب (ج ٧ ص ١٩٠): «وكانت وفاة الشريف المذكور سنة إحدى وستين وسبعمائة».

محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي^(١)

قاضي الجماعة ببيضة الإسلام فاس، يكنى أبا عبد الله.

حاله: هذا الرجل له أبوة صالحة، وأصالة زاكية، قديم الطلب، ظاهر التخصص، مفرط في الوفاق، نابه البرة والركبة، كثير التهمة، يؤهم به الفاز، وصدور الصدور في الوثيقة والأدب، فاضل النفس، مَمْحُوض النصح، جميل العشرة لإخوانه، مجري الصداقة نُصْحًا ومشاركة وتَفْقِيحًا على سجة الأشراف وسُنن الحُسياء، مديد الباع في فن الأدب، شاعر مجيد، كاتب بليغ، عارف بالتحسين والتفبيح، مَنْ أدركه، أدرك عِلْمًا من أعلام المشيخة. قدّمه السلطان الكبير العالم أبو عنان فارس، قاضيًا بحضرته، واختصّه، واشتمل عليه، فاتصل بعده سَعْدُهُ، وعُرف حقّه. وتردّد إلى الأندلس في سبيل الرسالة عنه، فذاع فضله، وعُلم قَدْرُهُ. ولما كان الإزعاج من الأندلس نحو الثبوة التي أصابت الدولة، بَلَوْتُ من فضله ونصحه وتأييسه، ما أكد الغبطة، وأوجب الشاء، وخاطبته بما نصه: [الكامل]

من ذا يَعُدُّ فضائل الفشتالي	والدهر كاتب أيها والتالي
عَلِمَ إذا التمسوا الفنون بعلمه	مرعى المُشِيح وتُجعة المُكتال
نال الذي لا فوقها من رفعة	ما أُمْلَتْها حيلة المحتال
وقضى قياس ترائه عن جَدّه	إن المُقَدِّم فيه عين التسالي

قاضي الجماعة، بماذا أثنى على خلك المُرْتَضاة؟ أيقديمك المُوجب لتقديمك؟ أم بحديثك الداعي لتحمل حديثك؟ وكلاهما غاية بُعد مرماها، وتحامي المتصور حماها، والضالع لا يسام سَبَقًا، والمُتَبُّ لا أَرْضًا قطع ولا ظَهْرًا أبقى. وما الظن بأصالة تعترف بها الآثار وتشهد، وأبوة صالحة كانت في غير ذات الحق تزهد، وفي نيل الاتصال به تجهد، ومعارف تقرر قواعد الحق وتمهد، وتهزم الشبه إذا تشهد. وقد علم الله أن جوارك لم يُبَيِّق للدهر عليّ جوارًا^(٢)، ولا حَتٌّ من غصني ورقًا ولا نوازًا. هذا وقد زار على أسدٍ وحمل ثورًا، فقد أصبَحْتُ في ظل الدولة التي وقف على سيدي اختيارها، وأظهر خلوص إبريزه مِغْيَارَهَا، تحت كنف وعزٍّ مؤتلف، وجوار أبي دلف، وعلى ثقة من الله بحسن خلف. وما منع من انتساب ما لديه من

(١) نسبة إلى فشتاله وهي إحدى القبائل الجبلية التي تقطن في شمال مدينة فاس. الإحاطة (ج ٢

ص ١٨٧) حاشية رقم ١.

(٢) في الأصل: «جوار»

الفضائل إلا رحلة لم يترك بعد جملها، ولا قرّ عملها، وأوحال حال بيني وبين مُسَوِّر
البلد القديم^(١) مَهْلها. ولولا ذلك لا غلبت الزائد، واقتنيت الفوائد، والله يطيل بقاءه،
حتى تتأكد القرية، التي تُنسى بها الغربة، وتعظم الوسيلة، التي لا تُذكر معها الفضيلة.
وأما ما أشار به من تقييد القصيدة التي تُفّق سوقها استحسانه، وأنس باستظرافها
إحسانه، فقد أعمل وما أمهل، والقصور باد إذا تأمل، والإغضاء أولى ما أمل، فإنما
هي فكرة قد أخدمت نارها الأيام، وغيّرت آثارها اللثام. وقد كان الحق إجلال مطالعة
سيدي من خَلَلها، وتنزيه رجله عن تقبيل مُرتجلها. لكن أمره مُمثّل، وأتى من المجد
أمرًا لا مردّ له مثّل. والسلام على سيدي من مُعظم قدره، ومُلتزم برّه، ابن الخطيب،
ورحمة الله.

فكتب إليّ مراجعًا، وهو المليء بالإحسان: [الكامل]

وافث يجرّ الزهُوُ فضلة بُزدها خَنَاءٌ قد أضحت نسيجةً وخِدها
لله أي قصيدة أهديتُ لو يهتدي المُعارض نحو غاية قُصيدها
لابن الخطيب بها محاسنُ جمّة قارعت عنه الخطوب ففلت من حدّها^(٢)
سرّ البلاغة عنه أودع حافظًا قد صانه حتى قُشّا من عندها
في غير عقدٍ نفسنه بسحرها^(٣) فلذا أتى سَلِسًا مُنَظَّم عَقْدِها
لم أذر ما فيها وقمت معاونا من طرسها أو مُغلّمًا من بُزدها
حتى دَفَعْتُ بها لِأَبْعَد غاية باعًا تُقْصِرُ في البلوغ بحدّها
حدّان من نظم ونشر إن من يَلْقَاهُمَا منها بذلّة عبدها
أولى يدا بيضاء موليها فما لي مِزِيّةٌ مِنْ^(٤) أن أقوم بِحَمْدِها
ورفضت تكذيب المُنَى متشيّعًا لعلّي مَرَأها يُصادق وَغْدِها
فبذلّت شعري رافعًا من برّها وهزرت عَظْفِي رافعًا من بُزدها

خُذها، أعزّ الله جنابك، وأدال للأُنس على الوُخْشة اغترابك، كغبة^(٥) الطائر
المتجمد، ونُهبة الثائر المُستوفز، ومِقة اللَّحظ، قليلة اللَّفظ، قد جَمَعَت من سُوامها
وانقحامها، بين نُظْم قيد، وضُلود زُند، ونُوعت، فعلى إقدامها وانحجامها إلى قاصر

(١) البلد القديم هو مدينة فاس القديمة، والبلد الجديد هو ضاحية فاس الملوكية. الإحاطة (ج ٢

ص ١٨٩) حاشية رقم ١.

(٢) عجز هذا البيت منكسر الوزن. (٣) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٤) كلمة «مِنْ» صاقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

(٥) الغُبة: البُلغة من العيش. محيط المحيط (غيب).

ومُعْتَد، وليتني إذا جادت سحابة ذلك الخطر الماطر الوَذَق، وانجباب العاني عن مُرْزَةِ فكرتي، بتقاضى الجواب، انجياب الطُّوق، وأيقنْتُ أني قد سُدَّ عليّ باب القول وأزْتَحج، وقلت: هذه السَّالفة الكلية فَسَدَتْ لها الدَّاعَة من تكلُّم الإمرة ولم أنه إذ أعوزت المرأة بالحُلوة، لكنني قلت: وَجَدُ المُكثَر كَجَهْدِ المُقِلِّ، والواجب قد يقلُّ الامثال فيه بالأقل. فبعثت بها على علاتها، وأبلغتها عذرها، في أن كَتَبْتُ عن شوقها بِلغاتها، وهي لا تَعْدَم من سيدي في إغضاء كريم، وإرضاء سليم. والله، عز وجل، يَصِل بالتأنيس الخبل، ويجمع الشمل.

والسلام الكريم يخص تلك السيادة، ورحمة الله وبركاته. من محمد بن أحمد الفشتالي.

وهو الآن قاض بفاس المذكورة، محمود السيرة، أبقاه، وأشنع به.

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرئ^(١)

يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس وتلمسان.

أُولَيْتُهُ: نُقِلَتْ من خطه، قال^(٢): وكان الذي اتخذها من سَلَفنا قرارًا بعد أن كانت لمن قبله مزارًا^(٣)، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرئ، صاحب أبي مَذِين^(٤)، الذي دعا له ولذريته، بما ظهر فيهم من قَبُول^(٥) وتبيين. وهو أبي الخامس؛ فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عَزُوي^(٦) الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شيء فلم يُؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور، ويقال: إن هذا الحضور، ممَّا أدركه من مقامات شيخه أبي مدين. ثم^(٧) اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء

(١) محمد بن محمد المقرئ، جد المقرئ صاحب كتاب نفع الطبيب، وترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٢٠٩) والتعريف بابن خلدون (ص ٥٩) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٩) ونفع الطبيب (ج ٧ ص ١٩٥) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٥) و(ج ٤ ص ٢٠٤).

(٢) النص في نفع الطبيب (ج ٧ ص ١٩٥). (٣) في النفع: «مزارًا».

(٤) أبو مَذِين: هو شعيب بن الحسين الأندلسي التلمساني، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ، وقد تقدم ذكره في الجزء الأول من الإحاطة في ترجمة جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيد بونة الخزاعي.

(٥) في النفع: «قبوله».

(٦) أغلب الظن أنه ينسب إلى عروة بن الزبير، الذي كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء.

(٧) النص في نفع الطبيب (ج ٧ ص ١٩٦ - ١٩٨).

بحفر الآبار، وتأمين الثجار، واتخذوا طبل الرّحيل^(١)، وراية التّقدم^(٢) عند المسير. وكان ولدٌ يحيى، الذي^(٣) كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال، فمقدوا الشّركة بينهم فيما ملكوه^(٤) وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، وكان^(٥) أبو بكر ومحمد، وهما أرومتا نسبي من جميع جهات الأم والأب^(٦) بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي، وهما شقيقاهم الصغيران، بأي والأثن^(٧) فاتخذوا هذه^(٨) الأقطار والحوايط والديار، فتزوجوا^(٩) النساء، واستولدوا الإماء. وكان التلمساني يبعث إلى الصّحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث إليه الصّحراوي بالجلد والعاج والجوز والتّبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرّجحان والخسران^(١٠)، ويكاتيهما بأحوال الثجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة^(١١) أحوالهم. ولما افتتح التّكرور كورة أي والأثن وأعمالها، أصيبت أموالهم فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمّع من كان بها^(١٢) منهم إلى نفسه الرّجال، ونصّب دون^(١٣) ماله القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم مَنّواه، ومكّنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحبّ، والخلاصة الأقرب. ثم صار يكتب من بتلمسان، يَسْتَقْضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كُتِبَ وكُتِبَ الملوك بالمغرب، ما ينبىء عن ذلك، فلما استوثقوا من الملوك، تذلّت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحدّ، وكادت تفوق^(١٤) الحصر والعُدّ؛ لأن بلاد الصّحراء، قيل أن يدخلها أهل مصر، كانت^(١٥) تجلب لها من المغرب ما لا بال له^(١٦) من السّلع، فيتعاوض^(١٧) عنه بماله بال من الثمن^(١٨). ثم قال أبو مدين: الدنيا ضمّ جنب أبي حمو^(١٩)، وشمل ثوباه. كان يقول: لولا الشناعة لم أزل في بلادى تاجرًا من غير تجار الصّحراء الذين يذهبون بخبيث السّلع، ويأتون بالتّبر الذي

- (١) في النفع: «طبلًا للرّحيل».
 (٢) في النفع: «الذين أحدهم».
 (٣) في النفع: «بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه...».
 (٤) في النفع: «أمي وأبي».
 (٥) في النفع: «مكان».
 (٦) هو موضع بالصّحراء.
 (٧) في النفع: «وتزوجوا».
 (٨) في النفع: «الضخامة».
 (٩) في النفع: «دونها ودون ما لهم القتال».
 (١٠) في النفع: «كان يجلب إليها من...».
 (١١) في النفع: «فتعاوض».
 (١٢) في النفع: «الثمن. أي مدير دنيا ضمّ جنب أبي حمو...».
 (١٣) في النفع: «أبو حمو: هو موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، كما سيرد بعد قليل في عنوان: مولده».

كلُّ أمرٍ الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحلّ عن قريب ويذهب، إلى ما يغيّر من العوائد، ويجزّ السفهاء إلى المفاسد.

ولما هلك^(١) هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان^(٢)، فلم تنزل^(٣) حالهم في نقصان إلى هذا الزمان^(٤)، فها أنا ذا لم أدرك^(٥) في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشًا، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرّغت بحول الله، عز وجل، للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عزّضًا وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوارد والظاعن.

حاله: هذا^(٦) الرجل مشارًا إليه بالعدوة المغربية اجتهاذا، وذؤوبًا، وحفظًا وعناية، واطلاعا، وثقلًا ونزاهة، سليم الصدر، قريب العور، صادق القول، مسلوب التصنع، كثير الهشة، مفرط الخفة، ظاهر السذاجة، ذاهب أقصى مذاهب التخلّق، محافظ على العمل، مثابر على الانقطاع، حريص على العبادة، مضائق في العقد والتوجّه، يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة، ثم يغافض^(٧) الوقت فيها، ويوقعها دفعة متبعا إياها زغفة التكبير، برخفة ينبو عنها سمع من لم يكن^(٨) تأنس بها عادة، بما هو دليل على حسن المعاملة، وإرسال السجّية، قديم النعمة، متصل الخيرية، مكيب على النظر والدرس والقراءة، معلوم الصيانة والعدالة، منصف في المذاكرة، حاسر الذراع^(٩) عند المباحثة، راحب عن الصدر في وطيس المناقشة، غير مختار للقرن، ولا ضان^(١٠) بالفائدة، كثير الالتفاف، متقلب الحدة، جهير بالحجة، بعيد عن المراء والمباهة، قائل بفضل أولي الفضل من الطلبة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث، ويتهجّر بحفظ الأخبار^(١١) والتاريخ والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصليين والجدل والمنطق، ويكتب ويشعر

(١) في النسخ: «ولما درج».

(٢) في النسخ: «السلطين».

(٣) في النسخ: «يزل».

(٤) في النسخ: «الزمن».

(٥) في النسخ: «من».

(٦) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ١٩٩ - ٢٠٠).

(٧) في النسخ: «يغافض».

(٨) في النسخ: «من لم تؤنسه بها العادة».

(٩) في النسخ: «للذراع».

(١٠) ضان: اسم فاعل ضن أي بخل. لسان العرب (ضنن).

(١١) في النسخ: «بحفظ التاريخ والأخبار».

مصيبًا في ذلك^(١) غرض الإجادة، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال، ويعتني بالتدوين فيها. شَرَّق وحجَّ، ولقي جِلَّة، واضطبن^(٢) رحلة مفيدة، ثم آب إلى بلده، فأقرأ به، وانقطع إلى خدمة العلم. فلما ولي ملك المغرب السلطان، محالف الصُّنْع ونشيدُ الملك، وأثير الله من بين القرابة والإخوة أمير المسلمين^(٣) أبو عنان فارس^(٤)، اجتذبه وخطبه بنفسه، واشتمل عليه، وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس، فاستقلَّ بذلك أعظم الاستقلال، وأنفَذ الحكم^(٥)، وألان الكلمة، وآثر التَّسديد، وحَمَلَ الكَلَّ^(٦)، وخفض الجناح، فحسنت عنه القالة^(٧)، وأحبته الخاصة والعامة. حضرت بعض مجالسه للحكم، فرأيت من صبره على اللد^(٨)، وتأتيه^(٩) للحجج ورفقه بالخصوم، ما قضيت منه العجب.

دخوله غرناطة: ثم^(١٠) لما أُرِّخ عن القضاء، استعمل بعد لأي في الرسالة، فوصل الأندلس، أوائل جمادى الثانية من عام ست^(١١) وخمسين وسبعمئة. فلما قضى غرض الرسالة^(١٢)، وأبزم عَقْد وجهته، واحتلَّ مالقة في مُنْصَرَفه، بدا له في نَبْذ الكلفة، وأطراح^(١٣) وظيفة الخدمة، وحلَّ التَّقيد، إلى ملازمة الإمرة، فتقاعد، وشهر غرضه، وبث في الانتقال، طَمَع من كان صحبتته، وأقبل على شأنه، فَخَلَّى بينه وبين همِّه. وترك وما انتحله من الانقطاع إلى ربِّه. وطار الخبر إلى مُرْسله، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة، والعدول عنها، بقصد التَّخَلِّي والعبادة، وأنكر ما نَحَله^(١٤) غاية الإنكار، من إبطال عمل الرسالة، والانقباض قبل الخروج عن العَهْدَة، فَوَعَّر صَدْرُه على صاحب الأمر، ولم يُبْعِد حَمْلَه على الظُّنَّة والمواطأة على الأنفرة، وتجهزت جملة من الخُدَّام المُجَلِّين في مَازَق^(١٥) الشُّبْهَة، المضطلعين بإقامة الحجة، مؤلين خِطَّة الملام، مُخَيِّرِينَ بين سحائب عادٍ من الإسلام، مظنة إغلاق النعمة^(١٦)،

(١) قوله: «في ذلك» غير وارد في النسخ.

(٢) اضطبن الرحلة: اعترضاها.

(٤) هذه الكلمة غير واردة في النسخ.

(٦) الكَلَّ: التَّعب. محيط المحيط (كلل).

(٣) في النسخ: «المؤمنين».

(٥) في النسخ: «الحق».

(٧) حسنت عنه القالة: حسن قول الناس فيه.

(٨) اللَّدُّ: الخصومة الشديدة. لسان العرب (لدد).

(٩) في النسخ: «وتأتيه».

(١٠) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٠ - ٢٠٢).

(١١) في الأصل: «ست» وهو خطأ نحوي. وفي نفع الطيب: «سبعة».

(١٢) في النسخ: «رسالته».

(١٣) في الأصل: «واضطراح» والتصويب من النسخ.

(١٤) في النسخ: «ما حقه الإنكار».

(١٥) في النسخ: «مازق».

(١٦) في النسخ: «النقمة».

وإيقاع المُثَلَّة^(١)، والإساءة^(٢) بسبب القطيعة والمُنَابَذة. وقد كان المترجمُ به لحق بغرناطة فتذمُّ بمسجدها، وجار^(٣) بالانقطاع إلى الله، وتوَعَّد من يُجِيره^(٤) بنكير من يُجير ولا يُجار عليه سبحانه، فأهَمَّ أمره، وشغلت القلوبَ أبدته، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعَةُ اقتضت^(٥) له رفع التَّيْبَةِ، وتزكّه إلى تلك الوجهة.

ولمّا تحصّل ما تيسّر من ذلك، انصرف محفّوفاً بعالمِي القطر، قاضي الجماعة أبي القاسم الحَسَنِي المترجمُ^(٦) به قبله، والشيخ الخطيب أبي البركات بن الحاج، مُسْتَهْلِين^(٧) لوروده، مُشَافِهِينَ للشفاعة^(٨) في غرضه، فأقشعت^(٩) العُتْمَةُ، وتنقّست الكُزْبَةُ. وجرى أثناء هذا من المراسلة والمراجعة، ما تضمّنه الكتاب المسمّى بـ«كناسة الدُكَّان بعد انتقال السُكَّان» المجموع بسلا ما صورته:

«المقامُ الذي يحبُّ الشُّفاعة، ويَزْعَى الوسيلة، ويُنْجِزُ العُدَّة، ويتمُّمُ الفضيلة، ويُضْفِي مجده المننَ الجزيلة، ويُعَيِّى حمده الممادح العريضة الطويلة، مقام محلّ والدنا الذي كَرُمَ مجده، ووضح سعده، وصعَّ في الله تعالى عقده، وخلّص في الأعمال الصالحة قُضْدَه، وأعجز الألسنةَ حَمْدَه، السلطان الكذا^(١٠) ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاء الله سبحانه لوسيلةِ يرعاها، وشفاعة يُكْرَمُ مُسْعَاهَا، وأخلاق جميلة تجيب دَعْوَةَ الطَّبْعِ الكريم إذا دعاها، مُعْظَمُ سلطانه الكبير، ومُتَجَدِّد مقامه الشهير، المُتَشَبِّعُ لأبْوَته الرفيعة قولاً باللسان واعتقاداً بالضمير، المعتمدُ منه بعد الله على الملجأ الأخمى والوليُّ النَّصِير. فلان^(١١). سلام كريم، طيب برّ عميم، يخص مقامكم الأعلى، وأبْوَتكم الفضلى، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد^(١٢) حمد الله، الذي جعل الخُلُقَ الحميدة دليلاً على عنايته بمن خلّاه خلّاه، وميّز بها النفوس النفيسة، التي اختصّها بكرامته وتولّاه، حمداً يكون كُفْوَاً

(١) في النفع: «العقوبة».

(٢) في النفع: «أو الإساءة بسبب إجارته بالقطيعة...».

(٣) في الأصل: «جار» بدون همزة، والتصويب من النفع. وجار إلى الله: رفع صوته بالدعاء.

(٤) في النفع: «يجير». (٥) في النفع: «اقتضى له فيها رفع...».

(٦) في النفع: «المذكور قبله». (٧) في النفع: «مسلمين».

(٨) في النفع: «بالشفاعة». (٩) في النفع: «فانقشعت».

(١٠) أغلب الظن أنه أبو عنان فارس ابن أبي الحسن المريني، سلطان المغرب، المتوفى سنة ٧٥٩ هـ. راجع حاشية عنان.

(١١) هو ثامن سلاطين بني نصر محمد بن أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل، وقد حكم غرناطة من عام ٧٥٥ إلى عام ٧٩٣ هـ. راجع اللمعة البدرية (ص ١١٣، ١٢٩).

(١٢) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٢ - ٢٠٤).

للنعم التي أولاهها، وأعادها ووالاهها، والصلاة والسلام^(١) على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، المترقي من درجات الاختصاص أَرْقَعُها وأَعْلَاهَا، الممتاز من أنوار الهداية بأَوْضَحِها وأَجْلَاهَا، مَطْلَع آيات السعادة يَرْوِق مُجْتَلَاهَا، والرضا عن آله وصحبه الذين خَبَرَ صدق ضمانتهم لَمَّا ابتلاها، وَعَسَلَ ذِكْرهم^(٢) في الأفواه فما أَغْذَب أوصافهم على الألسن وأحلاها، والدعاء لمقام أبوتكم حَرَسَ الله تعالى عُلاها، بالسعادة التي يقول الفتح: أنا طَلَأُ الثَّنايا وابن جَلَاهَا^(٣)، والصَّنائع التي تخترق المَفَاوِز بركائبها المُبَشِّرَات فَتَقْلِي فَلَاهَا. فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ، كَتَبَ اللهُ تعالى لكم عِزَّةً مَشِيدَةَ البناء، وحشد على أعلام صنائعكم الكرام جيوشَ الثناء، وَقَلَّدَكُمْ قَلَائِدَ^(٤) مكارم الأخلاق، ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء. من خُفِرَاءِ غُرْنَاطَةِ حرسها الله، والوُدِّ باهر السَّناء^(٥)، مُجَدِّدٌ على الأَناء، والتَّشْيِيعِ رَحْبَ الدَّسِيعَةِ^(٦) والفِئَاءِ.

وإلى هذا، وصل الله تعالى سَعْدَكُمْ، وحرس مجدكم! فَإِنَّا خَاطَبْنَا مقامكم الكريم، في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المقرئ، خار الله تعالى لنا وله، وبلغ الجميع من فضله العميم أَمَلَهُ، جوابًا عما صدر من مثابَّتكم^(٧) فيه من الإشارة المُمَثِّلَةِ^(٨)، والمآرب المَعْمَلَةِ، والقضايا غير المهملة، تُصَادِرُكُمْ بالشفاعة التي مِنَّا بِأَبْوَابِكُمْ لَا يُرَدُّ، وَظَمَّأَهَا عَنْ مَنَهِلِ قَبُولِكُمْ لَا تَجْلَى^(٩) وَلَا تُصَدُّ، حسبما سئله الأب الكريم والجَدُّ، والقَبِيلُ الذي وَضَحَ منه في المكارم الرِّسْمَ والْحَدُّ. ولم تُصَدِّرِ الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدقُ المُخَيَّلَةِ، وَتَبَلَّجَ صُبْحَ الرِّهَادَةِ والْفَضِيلَةِ، وَجُودِ النَّفْسِ الشَّحِيحَةِ بِالْعَرَضِ الْأَدْنَى الْبَخِيلَةِ، وظهر تَخَلُّيهِ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ، واختلاطه باللفيف والعُمار، وإقباله على ما يعني مثله من صلة الأوراد، ومداومة الاستغفار. وَكُنَّا لَمَّا تَعَرَّفْنَا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذي شَهَرَهُ، والفضل الذي أَبْرَزَهُ لِلْعِيَانِ

(١) كلمة «والسلام» غير واردة في النسخ.

(٢) غسل ذكرهم في الأفواه: أصبح حلوا كالغسل، وهو كناية عن استعذاب الحديث عنهم. لسان العرب (غسل).

(٣) أخذه من قول سُحَيْمِ بْنِ وَثِيلِ الرِّيَاحِيِّ: [الوافر]

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَأُ الثَّنايا متى أضحى البسمامة نعرفوني الشعر والشعراء (ص ٥٣٨).

(٤) في النسخ: «من قلائد».

(٥) في النسخ: «السَّاء، ظاهر السَّاء، مجدَّد على...».

(٦) الدسيعة: الخُلُق؛ ورحب الدسيعة: طيب الخُلُق والطباع. محيط المحيط (دسج).

(٧) في النسخ: «مثابَّتكم».

(٨) في النسخ: «المُمَثِّلَةِ».

(٩) في النسخ: «لا تحلا».

وأظهره، أمرنا أن يُعْتَنَى بأحواله، ويُعان على فراغ باله، ويُجرى عليه سَيْبٌ من ديوان الأعشار الشرعية وصريح ماله، وقلنا: أما أذاك من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله، ففر من مألقة على ما تعرّفنا لهذا السبب، وقعد بحضرتنا مستور المُتَمَي والمُتَنَسِب، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المُتَسَمِين بالخير، والمحترفين ببضاعة الطُلب، بحيث لم يُتَعَرَف وروده ووصوله إلّا ممن لا يُؤَبّه بتعريفه، ولم تتحقق زوائده وأصوله لقلّة نُصْرِيْفِه. ثم تلاحق إرسالكم الجِلّة. فوجبت حينئذ الشفاعة، وعُرِضَتْ على سوق الحلم والفضل من الاستِطاف والاستِغطاف البضاعة، وقررنا ما تحقّقناه من أمره، وانقباضه عن زَيْد الخلق وعَمْرُه، واستقباله الوجهة التي من ولى وجهه شَطْرَها فقد آثر أنيّرًا، ومَن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلًا كبيرًا وخيرًا كثيرًا، وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذي رماه بعزمه، وقَصَرَ عليه أقصى همّه. فما أَخْلَقَ مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسَهْمِه، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه الباقي وقَسْمِه، ويتوسّل الزاهد بزهده والعالم بعلمه، ويعوّل البريء على فضله، ويثق المذنبُ بجلمه. فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان، وهو أَرَبٌ من آراب^(١)، وفائدة من جراب، ووجه من وجوه إعراب، فرأينا أن المَطل بعد جفاء، والإعادة ليس يثقلها خفاء، ولمجدكم بما ضُمْنَا عنه وفاء، وبادرنا الآن إلى العزم عليه في ارتحاله، وأن يكون الانتقال عن رضا منه من صفة حاله، وأن يُقْتَضَى له ثمرة المقْصِد، ويبلغ طِيّة الإسعاف في الطريق إن قصد، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق بجناب الله من مثلكم حاصلًا، والذين المتين بين نفسه وبين المخافة فاصلًا، وطالب^(٢) كيمياء السعادة بإعانتكم واصلًا. ولما مُدَّت اليد في تسويغ حالة هَذِيكُم عليها أبدًا يُحَرِّضُ، وعَلْمُكُم يُصْرَحُ بمزيتها ولا يُعْرَضُ، فكمّلوا أبقاكم الله ما لم تَسْعَا فيه مشاحة الكتاب، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصحّ حديث في الباب، ووفّوا غرضنا من مجدكم، وخلّوا بينه وبين مراده من تَرْك الأسباب، وقَصَدَ غافر الذنب وقابل التوب بإخلاص المتاب، والتّشهير ليوم العَرْض وموقف الحساب، وأظهروا عليه عناية الجناب، الذي تَعَلَّقَ به، أعلق الله به يداكم من جَنَاب، ومَعَاذَ الله أن تعود شفاعتنا من لَدُنْكُمْ غير مُكَمَّلَة الآراب. وقد بعثنا مَن ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المَناب، ويقتضي خلاصها بالرغبة لا بالغلاب، وهما فلان وفلان. ولولا الأعذار لكان في هذا الغرض إعمال الرّكاب، بسَبَق^(٣) أعلام الكتاب، وأنتم تُؤلّون هذا القَصْد من مكارمكم ما يوفّر الثناء الجميل، ويُزَيِّي على التّأميل، ويكتُب على الرّود الصريح العقد وثيقة

(١) الآراب: جمع أرب وهو البنية والمطلب. لسان العرب (أرب).

(٢) في الأصل: «وطالبا» والتصويب من النفع. (٣) في النفع: «يسبق».

التُسجيل. وهو سبحانه يُبقيكم لتأييد المجد الأثيل، وإنالة الرُفد الجزيل. والسلام الكريم يخلص مقامكم الأعلى، ومثاببتكم الفضلى، ورحمة الله تعالى وبركاته. في الحادي والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعمئة، والله ينفع بقضده، ويسر علينا الرجعة إلى وجهه وفضله^(١).

مشيخته: قال^(٢): فِيمَنْ أَخَذْتُ عَنْهُ، واستفدتُ منه عِلْمَاهَا، يعني تلمسان، الشامخان، وعالمها الراسخان: أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام^(٣)، وحافظها ومُدْرَسُهَا ومُفْتِيهَا أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي^(٤)، صهر شيخ المتأخرين^(٥) أبي علي ناصر الدين^(٦) على ابنته، ومشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه ناز، الأستاذ أبو إسحق إبراهيم بن حكيم الكِنَانِي^(٧) السُّلَوِي، رحمه الله. ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور^(٨)، والشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن^(٩) البرُونِي، وأبو عمران موسى بومين^(١٠) المَضْمُودِي الشهير بالبُخَارِي. قال: سمعت البرُونِي يقول: كان الشيخ أبو عمران يُدْرَسُ البُخَارِي^(١١)، ورفيق له يدرس صحيح مُسْلِم، وكانا يُعرفان بالبُخَارِي ومُسْلِم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهودُ عليه بالإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكُّنه من الإعذار في الصُّحُوحِين البُخَارِي ومُسْلِم؟ فضحك القاضي، وأصلح بين الخصمين. ثم قال: ومن شيوخ الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، أدرك أبا

(١) قوله: «والله ينفع حتى: وفضله» غير وارد في النسخ.

(٢) تحدث المقرئ عن مشيخة ابن الخطيب في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٦، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٣ - ٢٢٤، ٢٢٨).

(٣) ترجمة ابني محمد بن عبد الله بن الإمام في التعريف بابن خلدون (ص ٢٨) والديباج المذهب (ص ١٥٢) ونيل الابتهاج (ص ١٣٩).

(٤) في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٣): «المشدالي». و ترجمة المشدالي في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧).

(٥) في النسخ: «المدرسين».

(٦) هو منصور بن أحمد بن عبد الحق، المتوفى سنة ٧٣١ هـ. ترجمته في نيل الابتهاج (ص ٣٧٧) وعنوان الدراية (ص ١٣٤).

(٧) كلمة «الكِنَانِي» غير واردة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٤).

(٨) ترجمة أبي عبد الله بن عبد النور في التعريف بابن خلدون (ص ٤٦) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

(٩) في النسخ (ج ٧ ص ٢١٤): «الحسين». وترجمته البروني في نيل الابتهاج (ص ٢٢٨).

(١٠) هذه الكلمة غير واردة في النسخ. (١١) في النسخ: «يدرس صحيح البخاري».

إسحق الطيار. ومنهم أبو عبد الله بن محمد الكرموني، وكان بصيرًا بتفسير الرؤيا، فمن عجائب شأنه، أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق مع من كان فيه، من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبا جمعة علي التللسي الجراحي منهم، كأنه قائم على ساقية دائرة، وجميع أقداحها وأقواسها تصب في نقيير في وسطها، فجاء ليشرب، فاغترف الماء، فإذا فيه فرث ودم، فأرسله، واغترف فإذا هو كذلك، ثلاثاً أو أكثر، ثم عدل إلى خاصة ماء، فجاءها وشرب منها. ثم استيقظ، وهو النهار، فأخبره، فقال: إن صدقت الرؤيا، فنحن عن قليل خارجون من هذا السجن. قال: كيف؟ قال: الساقية الزمان، والنقيير السلطان، وأنت جراحي، تدخل يدك في جوفه فينالها الفرث والدم، وهذا ما لا يحتاج معه إلى دليل، فأخرج، فوجد السلطان مطعوناً بخنجر، فأدخل يده في جوفه، فناله الفرث والدم، فخاط جراحته وخرج، فرأى خاصة ماء، فغسل يده وشرب. ولم يلبث السلطان أن توفي، وسرحوا من كان في سجنه. ومن أشياخه الإمام نسيج وحده، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد الأبلي التلمساني، وهو زحلة الوقت في القيام على الفنون العقلية، وإدراكه وصحة نظره.

حدث قال: قديم على مدينة فاس، شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، عُرف بابن المُسفر، رسولاً من صاحب بجاية. وزاره الطلبة، فكان مما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين، يستشكلون كلاماً وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتب فخر الدين، واستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثبت في بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط في الجنس، والبسيط مثل المركب في الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فأخبروا بذلك الشيخ الأبلي لما رجعوا إليه، فتأمله ثم قال: هذا كلام مُصَحَّف، وأصله أن المركب قبل البسيط في الجنس، والبسيط قبل المركب في العقل، وأن الجنس أقوى من العقل، فأخبروا ابن المُسفر، فليج، فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوا في لفظ بعضها كما قال الشيخ.

رحلته: رحل^(١) إلى بجاية مُسَرِّقاً، فلقي بها جلة، منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي، ابن المُسفر^(٢). ومنهم قاضها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ

(١) راجع نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ٢٣٩).

(٢) توفي ابن المسفر في عام ٧٤٣ هـ، وترجمته في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والديباج المذهب (ص ٣٣٢).

أبي يوسف يعقوب الزواوي، فقيه ابن فقيه. ومنهم أبو علي^(١) حسن بن حسن إمام المَعْقُولَات بعد ناصر الدين. وبتونس قاضي الجماعة وفقهها أبو عبد الله بن عبد السلام^(٢)، وحضر دروسه، وقاضي المَنَاكِح أبو محمد اللخمي^(٣)، وهو حافظ فقهاؤها في وقته، والفقهاء أبو عبد الله بن هارون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول. ثم حجّ فلقي بمكة إمام الوقت أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن التَّوْزِي، المعروف بخليل، وإمام المقام أبا العباس رضي^(٤) الدين الشافعي، وغير واحد من الزَّائِرِينَ والمجاورين وأهل البلد. ثم دخل الشام، فلقي بدمشق شمس الدين بن قَيْم الجَوْزِيَّة، صاحب ابن تَيْمِيَّة، وصدر الدين العُمَارِي المالكي، وأبا القاسم بن محمد اليماني الشافعي وغيرهم. وببيت المقدس أبا عبد الله بن مُثَبِّت، والقاضي شمس الدين بن سالم، والفقهاء أبا عبد الله بن عثمان، وغيرهم.

تصانيفه: أَلْف^(٥) كتابًا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية، ضمَّنها كل أصيل^(٦) من الرأي والمباحثة. ودَوَّن في التَّصَوُّف إقامة المُريد، ورِخْلَة المُتَبَلِّغ، وكتاب الحقائق والرِّقَاق، وغير ذلك.

شعره: نقلت^(٧) من ذلك قوله: هذه لمحَّة العارض لتكملة أَلْفِيَّة ابن الفارض، سَلَبَ الدهرُ من فرائدها مائة وسبعة وسبعين، فاستعنت على ردِّها بحول الله المعين.

من فصل الإقبال^(٨): [الطويل]

رَفَضْتُ السُّوَى وهو الطَّهَارَةُ عندما	تَلَفَعْتُ في مِرْطِ الهوى وَهُوَ زِينَتِي
وَجَنْتُ الجَمَى وهو المُصَلَّى مُيَمَّمًا	بِوُجْهِ قَلْبِي وَجْهَهَا وهو قِبْلَتِي
وَقَمْتُ وما استفتحتُ إِلَّا بذكرها	وَأَخْرَمْتُ إِحْرَامًا لغير تجلَّة ^(٩)
فديني إن لآخَتْ ركوغٌ وإن دَنَّتْ	سَجُودٌ وإن لَاهَتْ ^(١٠) قِيَامٌ بِحَسْرَةٍ

(١) في النفع: «أبو علي حسين بن حسين».

(٢) هو محمد بن عبد السلام المُنْشِيرِي، المتوفى سنة ٧٥٠ هـ. وترجمته في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٩) والتعريف بابن خلدون (ص ١٩) والديباج المذهب (ص ٣٣٦) ونيل الابتهاج (ص ٢٤٠).

(٣) في النفع: «الأجمي».

(٤) في النفع: «ابن رضي».

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٦٦).

(٦) في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٦).

(٧) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٦ - ٣٠٨).

(٨) في النفع: «تحلة» بالحاء غير المعجمة. (٩) لاهت: تسترت. محيط المحيط (لا).

تؤلفنا^(١) بالوصل عينُ التَّشْتِ
إليها وَدَيُجُورٍ طَوِيْتُ بِرَحْلَةٍ^(٢)
بِزُرْقَةٍ^(٣) أَسْنَانِ الرُّمَاحِ وَجَدَّةُ
تُتْسِيكَ أَيَّامَ الْفِجَارِ وَمُؤْتَةِ
فَجَارٍ بِلَا أَجْرِ وَحَامِلُ بَرَّةٍ
فَعَادَ خَتَامُ الْأَمْرِ أَضْلَ الْقَضِيَّةِ
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْهَوَى مِنْ سَجِيَّتِي
وَلَا تُوضَعُ الْأَوْزَارُ إِلَّا لِمِخْنَةٍ
لِمَا ظَلَّ إِلَّا مِنْهَا لَا ذَا شَرِيعَةٍ
لَعَيْنٍ إِذَا نَارُ الْغَرَامِ اسْتَحَرَّتْ^(٤)
وَلَا هَدَمَ إِلَّا مِنْكَ^(٥) شَيْدَ بَقْوَةٍ
عِلَامَ مَزَاجٍ رَكِبْتَ أَوْ طَبِيعَةٍ
وَالَا فَأَنْتَ الذَّهْرُ صَاحِبُ قِغْدَةٍ
أَمْ النَّارُ أَمْ دَسَاسُ عِرْقِ الْأُمُومَةِ؟
وَحَالِي أَقْوَى الْقَائِمِينَ بِحُجَّةٍ
وَمَا شَاكُهُ مِغْشَارُ بَعْضِ شَكِيَّتِي
وَلَمْ أَتْسَهَا إِلَّا احْتَرَقْتُ بِلَوْعَةٍ
جَوَايَ وَأَخْفَى الْوَجْدَ صَبْرُ الْمَوَدَّةِ
أُحِبُّ أَقْلِي^(٦) ذَكَرَهَا وَفَضِيحَتِي
بِالْأَمْسِ وَسَلَّ حَرَّ الْجَفْوَنِ الْغَزِيرَةِ
كَمَا شَاءَتْ الْحَسَنَاءُ يَوْمَ الْهَزِيمَةِ

على أننا في القُزْبِ والبُغْدِ واحدٌ
وكم من هَجِيرٍ خُضْتُ ظَمَانًا طَاوِيًا
وفيهما لَقِيتُ الْمَوْتَ أَحْمَرَ وَالْعِدَا
وبيني وبين العَذْلِ فيها منازلٌ
ولمَّا اقْتَسَمْنَا حُطَّتَيْنَا فَحَامِلٌ
خَلَا مَسْمَعِي مِنْ ذِكْرهَا فَاسْتَعَدَّتْهُ
وكم لي على حُكْمِ الْهَوَى مِنْ تَجَلُّدٍ
يقول سَمِيرِي وَالْأَسَا سَالِمِ الْأَسَى
لو أَنَّ مَجُوسًا بَتَّ مَوْقِدَ نَارِهَا
ولو كُنْتُ بَخْرًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ نَضْحَةٌ
فَلَا رَذَمٌ مِنْ نَقَبٍ^(٥) الْمَعَاوِلِ آمِنٌ
فَمِمَّ تَقُولُ الْأَسْطِقْسَاتِ^(٧) مِنْكَ أَوْ
فَإِنْ قَامَ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ مِنْكَ قَاعِدٌ
فَمَا أَنْتَ يَا هَذَا الْهَوَى؟ مَاءٌ أَوْ هَوَا
وَإِنِّي عَلَى صَبْرِي كَمَا أَنْتَ^(٨) وَاصْفَ
أَقْلُ الضُّنَى أَنْ عَجَّ مِنْ جَسَمِي الضُّنَى
وَأَيْسَرُ شَوْقِي أَنْنِي مَا ذَكَرْتُهَا
وَأَخْفَى الْجَوَى قَرْعُ الصَّوَاعِقِ مِنْكَ فِي
وَأَسْهَلُ مَا أَلْقَى مِنَ الْعَذْلِ أَنْنِي
وَأَوْجُ حَظُوظِي الْيَوْمَ مِنْهَا حَضِيضُهَا
وَأَوْجَزُ أَمْرِي أَنَّ دَهْرِي كُلُّهُ

(١) في الأصل: «تألفنا» والتصويب من النفع.

(٢) طَاوِيًا: أي طَاوِيًا بطني من الجوع. طَوِيْتُ: قطعت واجتزت. لسان العرب (طوى).

(٣) في الأصل: «مُزْرَقَةٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) اسْتَحَرَّتْ: اشتدَّت. محيط المحيط (حرر).

(٥) في الأصل: «نَقِيبٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٦) في الأصل: «إِلَّاكَ شَيْدٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٧) في الأصل: «الْأَسْطِقْسَاتِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٨) في النفع: «أَنَا».

(٩) في الأصل: «أَقْلِي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

وأغدو ما يعدو التفجع خطتي
 مساءتها في طي طيب المسرة
 وحسبك أن لم يخبر الحب رؤيتي
 أوام بلا ري، دم لا بقيمة
 وإن ترض منها الضبر فهو تفتي^(١)
 ركاب ملاهي فهو أول محنتي
 وخلوا سبيلي ما استطعتم ولزعتي
 ولكن رأيت ذاك الجمال فجئت
 ورشدي غار والعميات عمت
 وراجفت إيصاري^(٢) له وبصيرتي

أزوح وما يلقي التأسف راحتي
 وكالبيض ييض الدهر والشمر سوده
 وشأن الهوى ما قد عرفت ولا تسن
 سقام بلا برء، ضلال بلا هدى
 ولا عتب فالأيام ليس لها رضا
 ألا أيها اللوام عني قوضوا
 ولا تغذوني في البكاء ولا البكى
 فما سلسلت بالدمع عيني إن جئت
 تجلى وأرجاء الرجاء خوالك
 فلم يستب حتى كاني كاسف

ومن فصل الاتصال^(٣): [الطويل]

عباب الردى بين الطبا والأسيئة
 مشاهدتي لما سمعت بي همتي
 سوى صورة التنزيه في كل صورة
 فلم أنتبه حتى امتحى اسمي وكنيتي
 وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة
 ولم يبق دوني حاجب غير هيبتتي
 ومن كل أحوالي مقامات رفعة
 مع المحو والإثبات عند تثبتتي
 لبسطي وقبضي بسط وجه البسيطة
 وفي ملكوت النفس أكبر عبرة
 مع الشكر إذ لم يحظ فيه مثوبتي
 وأكني إذا هم صرحوا بالنحيبة
 كنوع، ففضل النوع علّة حصتي

وكم موقف لي في الهوى خضت دونه
 فجاوزت في حدي مجاهدتي له
 وحلّ جمالي في الجلال فلا أرى
 وغبت عن الأغيار في بيه حالتي
 وكاتبنت ناسوتي بأماره الهوى
 وعلم يقيني صار عينا حقيقة
 وبذلك بالثلوين تمكين عزّة
 وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفي
 وكم جلّت في سم الخياط^(٤) وضاق بي
 وما اخترت إلا دن بقراط زاهدا
 وفقرى مع الصبر اصطفت على الغنى
 وأكتم حبي ما كنى عنه أهله
 وإني في جنسي ومنه لواحد

(١) في الأصل: «بغيتي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٢) في الأصل: «إيصاري»، والتصويب من النفع.

(٣) القصيدة في نفع الطبيب (ج ٧ ص ٣٠٨ - ٣٠٩) وجاء فيه: «وفي بدل ومن».

(٤) سم الخياط: ثقب الإبرة. محيط المحيط (سم) و(خيط).

تَسَبَّبْتُ فِي دَعْوَى التَّوَكُّلِ ذَاهِبًا
وَأَخْرُ حَرْفٍ صَارَ مِنِّي أَوَّلًا
تَعْرِفْتُ يَوْمَ الرِّقْفِ مَنْزِلَ قَوْمِهَا
فَأَصْبَحْتُ أَقْضِي النَّفْسَ مِنْهَا مَنَى الْهَوَى
فَبَايَعْتُهَا بِالنَّفْسِ دَارًا سَكْنَتْهَا
فَخُلِّصَ الاسْتِحْقَاقُ نَفْسِي مِنَ الْهَوَى
فِيَا نَفْسُ لَا تَرْجِعِ تَقْطَعُ بَيْنَنَا

إِلَى أَنْ أُجْدَى حَيْلَتِي تَرَكْتُ حَيْلَتِي
مَرِيدًا وَحَرْفٌ فِي مَقَامِ الْعُبُودَةِ
فَبِتُّ بِجَمْعِ سُدِّ حَرْقِ التَّشْتُّتِ
وَأَقْضِي عَلَى قَلْبِي بِرَعِي الرِّعِيَّةِ
وَبِالْقَلْبِ مِنْهُ مَنْزِلًا فِيهِ خَلَّتْ
وَأَوْجِبَ الاسْتِرْقَاقُ تَسْلِيمَ شُفْعَةٍ
وَيَا قَلْبُ لَا تَجْزِعْ ظَفِيرَتُ بَوَاحِدَةٍ

ومن فصل الإدلال^(١): [الطويل]

تَبَدُّثُ^(٢) لِعَيْنِي مِنْ جَمَالِكَ لَمَحَةً
وَمَرُثُ بِسَمْعِي مِنْ حَدِيثِكَ مُلْحَةً
مَلَامِي أَبْنِ، عَذْرِي اسْتَبْنِ، وَجُدِّي اسْتَعْنِ
فَمَنْ شَاهِدْتِي سُخْطُ وَمَنْ قَاتَلِي^(٤) رِضَا
مَرَامِي إِشَارَاتٍ، مَرَاعِي تَفَكَّرِ^(٥)
وَفِي مَوْقِفِي وَالذَّارُ أَقْوَتْ رِسْمُهَا
مَعَانِي أَسَارَاتٍ، مَغَانِي تَذَكَّرِ
وَبُتُّ غَرَامٍ، وَالْحَبِيبُ بِحَضْرَةِ
وَمَطْلَعُ بَذْرِ فِي قَضِيبٍ عَلَى نَقَا
وَمَكْمَنُ سِحْرِ بِإِبْلِي لَهُ بِمَا
وَمَنْبُتُ مِسْكِ مِنْ شَقِيقِ ابْنِ مَنْذِرِ
وَرَصْفُ اللَّالِي فِي الْبِرَاقِيتِ كُلَّمَا
سَلَّ السَّلْسِيلَ الْعَذْبَ عَنْ طَعْمِ رَيْقِهِ
وَرُمَانُ كَافُورٍ عَلَيْهِ طَوَابِعُ
وَلُطْفُ هَوَاءٍ بَيْنَ خَفَقٍ وَبَاءَةٍ
لَقَدْ عَمَزَ الصَّبْرُ حَتَّى كَأَنَّهُ

أَبَادَتْ فُؤَادِي مِنْ سَنَاها بِلَفْحَةٍ^(٣)
تَبَدُّثُ لَهَا فِيكَ الْقِرَانَ وَقَرَّتِ
سَمَاعِي أَعْنِ، حَالِي أَبْنِ، قَاتِلِي أَصْمِتِ
وَتَلَوِينُ أَحْوَالِي وَتَمَكِينُ رُتَبَتِي
مَرَاقِي نَهَايَاتٍ، مَرَاسِي تَثْبِتِ
تُقَرِّبُ أَشْوَاقِي تُبْعِدُ حَسْرَتِي
مَبَانِي بِدَايَاتٍ، مَثَانِي تَلُفَّتِ
وَرْدُ سَلَامٍ وَالرَّقِيبُ بِغَفْلَةٍ
فُؤَيْقُ مَحَلِّ عَاطِلٍ دُونَ دُجْيَةٍ
خَوْتُ أَضْلَعِي فَعَلُ الْقَنَا السُّمَهْرِيَّةِ
عَلَى سَوْسَنِ غَضٍّ بِجُنَّةٍ وَجُنَّةِ
تُعَلِّ بِصَرْفِ الرِّاحِ فِي كُلِّ سُحْرَةٍ
وَتُكْهِنُهُ يَخْبِرُكَ عَنْ عِلْمِ خَبْرَةٍ
مِنَ النَّدِّ^(٦) لَمْ تَحْمَلْ بِهِ بَنْتُ مُزْنَةٍ
وَرِقَّةُ مَاءٍ فِي قَوَارِيرِ فِضَّةِ
سُرَاقَةُ لِحْظٍ مِنْكَ لَلْمَثَلُفَّتِ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٠٩ - ٣١١).

(٢) في الأصل: «تبؤب»، والتصويب من النفع. (٣) في الأصل: «بلفعة»، والتصويب من النفع.

(٤) في النفع: «قاتلي». (٥) في الأصل: «تعمكر»، والتصويب من النفع.

(٦) الند: عود يتبخَّر به. لسان العرب (ندد).

مُنَى النَفْسِ لَمْ تَقْصُدْ سِوَاكَ بِوُجْهِهِ
وَكُلُّ مُلِيحٍ مِنْكَ يَبْدُو لِمُقْلَتِي
لَتَكْرُمَ أَنْ تَغْشَى سِوَاكَ بِنَظَرَةٍ
وَأَنْ تُظْفِرِنِي بِاللِّقَا تُطْفَ غُلَّتِي
عَدَلْتُ لِأَمْتِي مُنِيَّتِي بِمُنِيَّتِي
تَسْجَلْتُ دُجَاهَ عِنْدَ ذَاكَ وَوَلَّتْ
صَبَابَةٌ نَفْسٍ أَيْقَنْتُ بِتَقْلَتِ
أَقِيمَ لَهَا خَلْفَ الْجِلَابِ فَذَرْتُ
إِذَا هِيَ لَمْ تَرْسِلْ عَلَيْهِ وَضُئْتُ
إِذَا ذَكَرْتَهُ آخِرَ اللَّيْلِ خُئْتُ
رَأَيْتُ وَقَارَ الصَّبْرِ أَحْسَنَ جَلِيَّةٍ
أُطَامِنُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجْنُتُ
هُوَى وَنَوَى نَيْلِ الرِّضَا مِنْكَ بِغِيَّتِي
أَصْلَ السَّلَا أَرعى الْخَلَى بَيْنَ عَبْرَتِي
لَقَدْ أَضَلَّتِ الْأَحْشَاءُ نِيرَانُ لَوْعَةٍ
عَلَى الْعُصْنِ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ
غَرَامِي مِنْ ذِكْرِي عَهْدِ تَوَلَّتْ
جَوَايَ الَّذِي كَانَتْ ضُلُوعِي أَكْثَتْ^(١)
وَصَلَّتْ بِهَا قَلْبِي فَصَلَّى وَصَلَّتْ
حِجَازِيَّةٌ لَوْ جُنَّ طَرَفٌ لُجْنَتْ
وَكَيْفَ بَدَتْ أَسْرَارُهُ خَلْفَ سِتْرَةٍ
وَلِلنَفْسِ لَمَّا وَطَّئَتْ كَيْفَ ذَلَّتْ
يُسَامِي بِأَعْلَامِ الْعُلَا كُلِّ رُتْبَةٍ
فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبْتُ وَزَلَّتْ

وَأَنْتَ وَإِنْ لَمْ تُبْقِ مِنِّي صَبَابَةٌ
وَكُلُّ فَصِيحٍ مِنْكَ يُسْرِي لِمَسْمَعِي
تَهَوُّنٌ عَلَيَّ النَّفْسُ فَيْكَ وَإِنَّمَا
فَبِأَنْ تَنْظِرِنِي بِالرِّضَا تُشَفِّ عُلَّتِي
وَأَنْ تَذَكِّرِنِي وَالْحَيَاةَ بِقَيْنِهَا
وَأَنْ تَذَكِّرِنِي بَعْدَمَا أَسْكُنُ الثَّرَى
صَلِّينِي وَإِلَّا جَدَّدِي الْوَعْدَ تُذَكِّرِي
فَمَا أَمْ بَوُّ هَالِكٍ بِتَّوْفَةٍ^(١)
فَلَمَّا رَأَيْتَهُ لَا يَنْزَعُ خَلْفَهَا
بَكَتْ كُلَّمَا رَاحَتْ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا
بِأَكْثَرِ مَنِّي لَوْعَةً غَيْرَ أَنِّي
فَرَحْتُ كَمَا أَغْدُو إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا
أَمُونُ مَا أَلْقَاهُ إِلَّا مِنَ الْقَلَى
أَخْوَضُ الصُّلَى أَطْفِي الْعُلَا وَالْعُلُوَّ لَا
إِلَّا قَاتَلَ اللَّهُ الْحَمَامَةَ غُذُوَّةً
وَقَاتَلَ مَغْنَاهَا وَمَوْقِفَ شَجْوِهَا
فَغَنَّتْ غِنَاءً أَعْجَمِيًّا فَهَيَّجَتْ
فَأَرْسَلَتْ الْأَجْفَانُ سُحْبًا وَأَوْقَدَتْ
نَظَرْتُ بِصَحْرَاءِ الْبَرِيقَيْنِ نَظَرَةً
فِيَا لَهُمَا قَلْبًا شَجِيًّا وَنَظَرَةً
وَوَاعَجِبَا لِلْقَلْبِ كَيْفَ اعْتَرَفَهُ
وَلِلْعَيْنِ لَمَّا سُوِّلَتْ كَيْفَ أَخْبَرَتْ
وَكُنَّا سَلَكْنَا فِي صَعُودٍ مِنَ الْهُوَى
إِلَى مَسْتَوًى مَا فَوْقَهُ فِيهِ^(٢) مَسْتَوًى

(١) الْبُؤ: ولد الناقة. التنوفة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا إنسان. محيط المحيط (بو) (وتف).

(٢) أَكْثَتْ: سترت. محيط المحيط (كنن).

(٣) كلمة «فيه» ساقطة من الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

وكنّا عقدنا عُقْدَةَ الوصل بيننا
مؤكدَةً بالتَّذَرِ أيام عهده

ومن فصل الاحتفال^(١): [الطويل]

أزورُ اعتمارًا أَرْضَهَا بِنَسْكِ
وفي نشاتي الأخرى ظهرتُ بما علّت
ولولا خفاء الرُمزِ لا ولن ولم
ولو لم يُجَدِّدْ عَهْدَنَا عقدُ خَلَّةٍ
بعثتُ إلى قلبي بشيرًا بما رأث
فلم يَغْدُ أن شام البشارة شامٌ ما
فيالك من نورٍ لو أنّ التفاتةً
تحدثُ أنفاسُ الصُّبا أن طيبَها
وتنبئُ آصالُ الربيع عن الرُّيا
وتخبرُ أصواتُ البلبابل أنها
فهذا جمالي منك في بُغْدِ حُسرتي
تَبْدئُ وما زال الحجابُ ولا ذنا
له كلٌّ غَيْرٍ في تجلّيه مظهرٌ
تجلّي دليلٍ واحتجابٌ تنزه
فما شئتُ من شيءٍ وآليتُ أنه
وفي كلِّ خَلْقٍ منه كلٌّ عجيبةٍ
وفي كلِّ خابٍ منه مَكْمَنٌ حِكْمَةٍ
أراه بقلْبٍ^(٢) القَلْبِ واللُّغزِ كامنًا
وفي طيِّ أوفاقِ الحسابِ وسرٍّ ما
وفي ثَمَنَاتِ السَّحَرِ في العُقْدِ التي
يصوّرُ شكلاً مثلَ شَكْلِ وَيَعْتَلِي

على نُحْرِ قُرْبَانٍ لدى قَبْرِ شَيْبَةٍ
فلَمّا تَوَانَقْنَا اشْتَدَذْتُ وَخَلَبْتُ

وأقصدُ حَجًّا بيتها بتَحَلَّةٍ
له نشاتي الأولى على كلِّ فِطْرَةٍ
تجدّها لشملي مَسْلَكًا بتَشْتِيتٍ
قضيتُ ولم يَقْضِ المُنَى صِدْقُ تَوْبَةٍ
على قدم عَيْنَاي منه فَكُفْتُ
جفا الشّام من نورِ الصفاتِ الكريمةِ
تُعَارِضُ منه بالنفوسِ النَّفِيسَةِ
بما حَمَلْتُهُ من خِراقةٍ حُرْقَةٍ
وأشجاره إن قد تجلّت فجلّت
تَعَثَّتْ بترجييعي^(٣) على كلِّ أَيْكَةٍ
فكيف به إن قرئتنِي بخَلَّةٍ
وغاب ولم يُفْقِدْهُ شاهدُ حُسرتي
ولا غَيْرٍ إلّا ما مَحَتْ كَفُّ غَيْرَةٍ
وإثباتُ عرفانٍ ومحوُ تَشْبِيتٍ
هو الشيء لم تَحْمَدُ فجارِ أَلْيَتِي
وفي كلِّ خَلْقٍ منه كلٌّ لطيفةٍ
وفي كلِّ بادٍ منه مظهرٌ جَلْوَةٍ
وفي الرُّجَرِ والقَالِ الصحيح الأدلّةُ
يتمُّ من الأعدادِ فابداً بسُئَةٍ
تَطْوَعُ^(٤) لها كلُّ الطُّبَاعِ الأَبْيَةِ
عليه بأوهامِ النفوسِ الخبيثةِ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١١ - ٣١٣).

(٢) الترجيع: ترديد الصوت، وأراد هنا الغناء. لسان العرب (رجع).

(٣) في الأصل: «يقلب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «تطوع» وهكذا ينكسر الوزن.

اختلاج وفي التَّقْوِيم مَجْلَى لِرُؤْيَةٍ
 مواعيدُ عَزَقوبٍ على إثرِ صُفْرَةٍ
 فبان بها جَمَلٌ لأَقْرَبِ مَدَّةٍ
 أتى فيه عن غيرِ البَرِيَّةِ واسكَبَتْ
 يُبَيِّنُ منها النُّظْمُ كُلَّ خُفْيَةٍ
 كُثُوزٌ وتَغْوِيرُ المِياهِ المَعِينَةِ
 وحزبٍ أصِيلِ الشاذليِّ وبِكْرَةٍ
 من سَبْعِينَ إِذْ يُعْزَى إلى شَرِّ بَذْعَةٍ
 بها أُوْهِمُوا لَمَّا تَسَامَوْا بِسُوءَةٍ
 حَوَى الكَوْنُ إِلَّا ناطقًا بعَجِيْبَةٍ
 ولا جَهْرٍ إِلَّا وهو فيه كَجَلِيَّةٍ
 عليه الكلامُ من حُرُوفِ سَلِيْمَةٍ
 أثَّتْ فيه أمضى عَدْها وتَثَبَّتْ
 ولا ظَلَمَ إِلَّا ظَلَمَ صَاحِبِ حِكْمَةٍ
 لعاجِلِ مَسِّ البَرْدِ خَوْفِي لَمَيِّتَتِي
 دَرَجَتْ رَجَائِي أَنْ نَعْتَنِي خَيْبَتِي
 قضى العَثْبُ مَتَى بُغْيَةٌ بَغْدٌ وَخَشْتِي
 كما هَوْنَتْ بالصَّبْرِ كُلِّ بَلِيَّةٍ

وفي كُلِّ تَضَحِيْفٍ وِعَضْوٍ بِذَاتِهِ
 وفي خُضْرَةِ الكَمُونِ تُزْجِي شَرَابَهُ
 وفي شَجَرٍ قد حُوِّقَتْ قُطْعُ أَصْلِهَا
 وفي التَّخْلِ فِي تَلْقِيحِهِ وَاعْتَبَرِ بِمَا
 وفي الطَّابَعِ السَّنْبِي فِي الْأَحْرَفِ الَّتِي
 وفي صَنْعَةِ الطَّلَسْمِ وَالْكِمِيَاءِ وَالِدِ
 وفي جِرْزِ أَقْسَامِ الْمُؤَدَّبِ مُخْرَزِ
 وفي سِيْمِيَاءِ الْحَايِمِيِّ وَمَذْهَبِ ابِ
 وفي الْمُثُلِ الْأُولَى وَفِي التَّخْلِ الْأَلَى
 وفي كُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ عَجَبٍ وَمَا
 فلا سِرٌّ إِلَّا وهو فيه سَرِيرَةٌ
 سَلِ الذِّكْرَ عَنْ أَنْصَافِ أَصْنَافِ مَا ابْتَنَى
 وعن وَضْعِهَا فِي بَعْضِهَا وَبَلُوغِ مَا
 فلا بَدْءَ مِنْ رَمَزِ الْكُنُوزِ لِذِي الْحِجَا
 ولولا سَلَامٌ سَاقٍ لِلْأَمْنِ خَيْفَتِي
 ولو لم تَدَارِكْنِي وَلَكِنْ بَعْظُفِهَا
 ولو لم تُؤَانِسْنِي عَنَّا قَبْلَ لَمْ وَلَمْ
 ونَعَمْ أَقَامَتْ أَمْرَ مِلْكِي بِشُكْرِهَا

ومن فصل الاعتقال^(١): [الطويل]

وسارَتْ ولم تُثْنِ الْعِئَانُ بِعَظْفَةٍ
 مُحِيًّا ابْنَةَ الْحَيِّينِ فِي خَيْرِ لَيْلَةٍ
 لما أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ حَيًّا كَمِيَّتِ
 لكلِّ نَجَاشِيٍّ بِهَا جِضْنَ ذُمَّةٍ
 سوى وَقْفَةِ التَّوْدِيْعِ حَتَّى اسْتَقَلَّتِ

سَرَتْ بِفَوَادِي إِذْ سَرَتْ فِيهِ نَظْرَتِي
 وذلك لما أَطْلَعَ الشَّمْسَ فِي الدُّجَى
 يَمَانِيَّةً لَوْ أَنْجَدْتُ حِينَ أَنْجَدْتُ^(٢)
 لِأَضْحَمَةٍ^(٣) فِي تَضَحُّهَا قَدَمَ بَنِي
 أَلُمْتُ فَحَطَّطْتُ رَحْلَهَا ثُمَّ لَمْ يَكُنْ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٣ - ٣١٥).

(٢) أنجدت الأولى: من النجدة. وأنجدت الثانية: دخلت نجداً. لسان العرب (نجد).

(٣) أضحمة: هو نجاشي الحبشة، الذي استقبل بالحبشة مهاجري المسلمين وأحسن معاملاتهم، ولما توفي صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب.

فلو سَمَحْتُ لِي بِالتَّيْفَاتِ وَحُلِّ مِنْ
ولكنها هَمَّتْ بِنَا فَتَذَكَّرْتُ
أَجَلْتُ خَيْالًا إِنْسِي لَا أَجِلُهُ
على أنني كلِّي وبعضي حقيقة
وجنسي وفضلي والعوارض كلها
وجسمي ونفسي والخشا وغرامه
وفي كل لفظٍ عنه قَيْلٌ لِمَسْمَعِي
ودهري به عَيْدٌ لِيَوْمِ عُرُوبِهِ
ووقتي شهودٌ في فناء شَهِدْتُهُ
أراه معي حُيًّا وَوَهْمًا وَإِنِّهِ
وَأَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِ نُطْقِي كَأَنَّهُ
مَلَأَتْ بِأَنْوَارِ الْمَحَبَّةِ بَاطِنِي
وَجَلَّيْتُ بِالْإِجْلَالِ أَرْجَاءَ ظَاهِرِي
فَأَنْتَ الَّذِي أَخْفِيهِ عِنْدَ تَسْتُرِي
فَتُهُ أَحْتَمِلُ، وَأَقْطَعُ أَصِلُ وَأَعْلُ اسْتَفْلُ
فقلبي إن عَائِبْتُهُ فَيَكُ لَمْ أَجِدْ
وَنَفْسِي تَنْبُو عَنْ سَوَاكَ نَفَاسَةً
تَعْلَقُ بِالْأَمَالِ مِنْكَ بِفَوْقِ مَا
وَحَامَتْ حَوَالِيهَا وَمَا وَافَقَتْ جَمِّي
فلو فَاتَنِي مِنْكَ الرِّضَى وَلَجَّحْتَنِي
ولو كُنْتُ فِي أَهْلِ الْيَمِينِ مُنْعَمًا
وَكَمْ مِنْ مَقَامٍ قَمْتُ عَنْكَ مَسَائِلًا
أَتَيْتُ بِفَارَابِ أَبَا نَضْرَهَا فَلَمْ
وَلَمْ يَذَرِ قَوْلِي ابْنُ سَيْنَاءَ سَائِلًا
فهل فِي ابْنِ رُشْدٍ بَعْدَ هَذَيْنِ مُرْتَجِي
لَقَدْ ضَاعَ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَنِي جَمِّي
فَقَبِضْ لِي نَهْجًا إِلَى الْحَقِّ سَالِكًا

مهاوي الهوى والهوى جدٌ تَفَلَّتِي
قضاء قُضَاةِ الْحُسْنِ قَدَمًا فَصَدْتُ
وَلَمْ أَنْتَسِبْ مِنْهُ لَغَيْرِ تَعِلَّةٍ
وباطلٌ أوصافي وحقٌ حقيقتي
ونوعي وشخصي والهواءُ وصورتي^(١)
وعقلي وروحانيّتي القُدسيّة
وفي كل معنى منه معنى لِلزَّعْتِي
وَأَمْرِي أَمْرِي وَالزَّوْرَى تَحْتَ قَبْضَتِي
وَلَا وَقْتُ لِي إِلَّا مَشَاهِدُ غَيْبَةٍ
مَنَاطُ الثُّرَيَّا مِنْ مَدَارِكِ رُؤْيَتِي
يُلْقِنُ سَمْعِي مَا تُؤَسَّسُ مُهْجَتِي
كَأَنَّكَ نَوْرٌ فِي سِرَارِ سَرِيرَتِي
كَأَنَّكَ فِي أَقْفِي كَوَاكِبُ زِينَةٍ
وَأَنْتَ الَّذِي أَبْدِيهِ فِي حِينِ شَهْرَتِي
وَمُرَّ امْتِثِلْ وَأَمْلِلْ أَمِلْ، وَازِمِ اثْبِتْ
لِعَثْبِي فِيهِ الدَّهْرَ مَوْقِعَ نُكْنَةٍ
فَلَا تَنْتَمِي إِلَّا إِلَيْكَ بِمِثَّةٍ
أَرَى دُونَهُ مَا لَا يُنَالُ بِحِيلَةٍ
سَحَابٌ يَأْسُ أَمْطَرَتْ مَاءَ غَبْرَتِي
بَعْفُو بِكَيْتِ الدَّهْرِ قُوْتُ قُضِيلَةٍ
بَكَيْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ سَبْقِيَّةٍ
أَرَى كُلَّ حَيٍّ كُلَّ حَيٍّ وَمَيِّتٍ
أَجِدُ عِنْدَهُ عِلْمًا يَبْرُدُ غُلَّتِي
فَقُلْ كَيْفَ أَرْجُو عِنْدَهُ بَرَّةَ عِلَّتِي
وَفِي ابْنِ طُفَيْلٍ لَاحِثَاتِ مَطِيَّتِي؟
مِنْ اللَّهِ سَعَى بَيْنَهُمْ طَوْلُ مُدَّتِي
وَأَيُّقُظَنِي مِنْ نَوْمِ جَهْلِي وَعَفَلَّتِي

(١) يستعمل الشاعر في هذا البيت اصطلاحات علم المنطق.

فحصنت أنظار الجُنْدِ^(١) جُنْدِيهَا
وكسرت عن رجل ابن أدهم أذهما
وعدت على حلاج شكري^(٢) بصلبه
فقولي مشكور ورأيي ناجح
رضيت بعزفاني فأغلنت للغلا
فعشت ولا ضيرا أخاف ولا قلى
فها أنا ذا أمسي وأصبح بينهم
وأشدني قوله في حال قبض وقيدتها عنه^(٣): [الطويل]

إليك بسطت الكف استنزل الفضلا
وما أنا ذا قد قمت^(٤) يقدمني الرجا
أقدم رجلا إن يضيء بزق مطمع
ولي عثرات لست أمل أن هوث
فإن تدركني رحمة أنتعش بها
قال، وما نظمت من الشعر^(٥): [مجزوء الكامل]

وجد تسعره الضلو غ وما تبرؤه المدامغ
هم تحركه الصبا به والمهابة لا تطاوغ
أمل^(٦) إذا وصل الرجا أسبابه فالموث قاطع
بالله يا هذا السهوى ما أنت بالعشاق صانع؟

قال: وما كتبت به لمن بلغني عنه بعض الشيء^(٧): [الرمل]

نحن، إن تسأل بناس، معشر أهل ماء فجرته الهمم
عرب من يبيضهم أرزاقهم ومن السمر الطوال الخيم

(١) في الأصل: «الجند» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٢) في الأصل: «سكري» والتصويب من النفع. (٣) في الأصل: «التفاني» والتصويب من النفع.

(٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٥).

(٥) في الأصل: «قدمت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٦) في النفع: «ويحجم بي». (٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٥).

(٨) في النفع: «أمل».

(٩) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٥ - ٣١٦).

عَرَضْتُ أَحْسَابَهُمْ أَرْوَاحَهُمْ دُونَ تَنْبِيلِ الْعَرَضِ وَهِيَ الْكَرَمِ
أَوْرَثُونَا الْمَجْدَ حَتَّى إِنَّا نَرْتَضِي الْمَوْتَ وَلَا نَزْدَحِمِ
مَا لَنَا فِي النَّاسِ مِنْ ذَنْبٍ سِوَى أَنَّنَا نَلْوِي إِذَا مَا اقْتَحَمُوا

قال: ومما قلته مذيلاً به قول القاضي أبي بكر بن العربي^(١): [مجزوء الوافر]

أَمَّا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَا يُسْتَلَى بِهِ نُسُصَا
لَقَدْ رَقَصَتْ بَنَاتُ الشُّرَى قِي بَيْنَ جَوَانِحِي رَقْصَا
قولي: [مجزوء الوافر]

فَأَقْلَعَ بِي إِلَيْهِ هَوَى جَنَاحًا عَزَمَهُ قُصَا^(٢)
أَقْلُ الْقَلْبِ وَاسْتَعْدَى عَلَى الْجُثْمَانِ فَاسْتَغْصَى
فَقَمْتُ أَجُولَ بَيْنَهُمَا فَلَا أَدْنَى وَلَا أَقْصَى

قال: ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة^(٣): [البسيط]

لَا تَعْجَبَنَّ لَطِبِي قَدْ ذَهَبَ أَسَدًا فَقَدْ ذَهَبَ أَسَدًا مِنْ قَبْلُ سُحْنُونُ
قال: ومما قلته من الشعر^(٤): [البسيط]

أَنْبَتَ عَوْدًا بِنِعْمَاءٍ^(٥) بَدَأَتْ بِهَا فَضْلًا وَالْبَسْتَهَا بَعْدَ اللَّحَى الْوَرْقَا
فَظَلُّ مُسْتَشْعِرًا مُسْتَدْتِرًا أَرْجَا^(٦) رِيَانًا ذَا بَهْجَةٍ يَسْتَوْقِفُ الْحَدَقَا
فَلَا تَشِئْهُ بِمَكْرُوهِ الْجَنَى فَلَكُمْ عَوْدَتَهُ مِنْ جَمِيلٍ مِنْ لَدُنْ حُلِقَا
وَأَنْفِ الْقَدَى عَنْهُ وَأَثَرِ الدَّهْرِ مِنْبَتِهِ وَعَذِّهِ بِرَجَاءٍ وَاسْقِهِ عُدَقَا^(٧)
وَاحْفَظْهُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَجْمَعِهَا مَا جَاءَ مِنْهَا عَلَى ضَوْءٍ وَمَا طَرَقَا

ومما قُتِدَتْ عَنْهُ أَيَّامُ مَجَالَسَتِهِ وَمَقَامِهِ بِغَرْنَاطَةِ، وَقَدْ أَجْرَى ذِكْرَ أَبِي زَيْدِ ابْنِ
الْإِمَامِ، أَنَّهُ^(٨) شَهِدَ مَجْلِسًا بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ أَبِي تَاشَفِينَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَمُو،

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٦).

(٢) ألق: نشر شرع السفينة، وهنا يشبه الهوى بالملاح.

(٣) البيت في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٦). (٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣١٧).

(٥) في النفع: «لنعماء».

(٦) مستشعرا: لابسا الشعار، وهو اللباس الذي يلامس البدن. مستدترا: لابسا الدثار. لسان العرب (شعر) و(دثر).

(٧) العَدَق: بالفتح: الماء الكثير. لسان العرب (غدق).

(٨) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٠٨ - ٢١١).

ذكر فيه أبو زيد المذكور، أن ابن القاسم مُقَيَّد بالنظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عُمران بن موسى المِشْدَالِي^(١)، وادَّعى أنه مُطْلَق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه أو^(٢) يبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة. قال: فلو تَقَيَّد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنصَّ لشرف الدين بن^(٣) التلمساني، ومثَّل فيه الاجتهاد المخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك، والمزني إلى الشافعي. فقال أبو موسى عُمران^(٤): هذا مثال، والمثال لا يُلْزَم^(٥) صحَّته، فصاح به أبو زيد^(٦) ابن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمر^(٧): تكلم، فقال: لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذي أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد المُمَثِّل به، فقال أبو موسى للسلطان: هذا كلام أصولي مُحَقَّق، فقلت لهما^(٨) يومئذ، وأنا حديث السن: ما أنصفهما^(٩) الرَّجُل، فإن المثل^(١٠) كما يؤخذ على جهة التحقيق، كذلك يُؤخذ على جهة التقريب، ومن ثمَّ جاء ما قال^(١١) هذا الشيخ، أعني ابن أبي عمران^(١٢)، وكيف لا وهذا سيويه يقول: وهذا مثال ولا يُتَكَلَّم به، فإذا صحَّ أن المثال قد يكون تقريبًا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد المُمَثِّل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد.

وقال: شهدت مجلسًا آخر عند هذا السلطان، قُرئ فيه على أبي زيد ابن الإمام حديث: «لَقْنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، من^(١٣) صحيح مُسْلِم، فقال له الأستاذ أبو إسحق بن حَكَم السُّلُوي: هذا المُلَقَّن مُخْتَضِرُ حَقِيقَةٍ، مَيِّتٌ مَجَازًا، فما وجه ترك مُخْتَضِرِكُمْ إلى مَوْتَاكُمْ، والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يُقْنعه. وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض «التنقيح»، فقلت: زعم القرافي أن المُسْتَقَّ إِنَّمَا يَكُون حَقِيقَةً فِي الْحَال، مَجَازًا فِي الْإِسْتِقْبَال، مُخْتَلَفًا فِيهِ فِي الْمَاضِي، إِذَا كَانَ مُحْكَمًا بِهِ. وَأَمَّا^(١٤) إِذَا كَانَ مُتَعَلِّقَ الْحَكْم كَمَا هُنَا، فَهُوَ حَقِيقَةٌ مُطْلَقًا إجماعًا، وعلى هذا التقرير لا مجاز ولا سؤال. ولا يقال: إنه احتجَّ على ذلك بما فيه نظر؛ لأنَّا نقول: إنه نقل الإجماع، وهو أحد الأربعة التي لا يُطالَب عنها^(١٥) بالدليل، كما ذكر أيضًا. بل

(١) في النفع: «المشْدَالِي».

(٣) كلمة «بن» غير واردة في نفع الطيب.

(٢) في النفع: «ويبلغه».

(٤) في النفع: «فقال عمران».

(٦) في النفع: «أبو موسى».

(٥) في النفع: «تلزم».

(٨) في النفع: «لهما وأنا يومئذ حديث...».

(٧) في النفع: «عمرو».

(١٠) في النفع: «المُثَل كما تؤخذ».

(٩) في النفع: «أنصفتهما».

(١٢) في النفع: «عمرو».

(١١) في النفع: «قاله».

(١٤) في النفع: «أما».

(١٣) في النفع: «في».

(١٥) في النفع: «مدعيها».

نقول: إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها. بل هذا أشنع، لكونه مما علم كونه من الدين ضرورة^(١). ثم إننا لو سلمنا نفي الإجماع، فلنا أن نقول: إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة؛ لأن تلقيه قبل ذلك، إن لم يدهش، فقد يؤحش، فهو تنبيه على وقت التلقين: أي لقنوا من تحكمون بأنه ميت. أو يقال^(٢): إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه: هل هو^(٣) أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس؟ ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصها^(٤) إلى دليل الحكمة أو إلى وصف ظاهر يضبطها، وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضاً مما لا يعرف بنفسه، بل بالعلامات. فلما وجب اعتبارها، وجب كون تلك التسمية إشارة إليها، والله أعلم.

وقال: وكان أبو زيد يقول، فيما جاء من الأحاديث: ما^(٥) معنى قول ابن أبي زيد: «وإذا سلم الإمام، فلا يلبث^(٦) بعد سلامه ولينصرف»، وذلك بعد أن ينتظر^(٧) من يسلم من خلفه لئلا يمر بين يدي أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعاً بين الأدلة.

وقلت^(٨): وهذا من ملح الفقيه. وقال: كان أبو زيد يعني الإمام، يُصَحَّف قول الخونجي في الجمل والمقارنات التي يمكن اجتماعه معها، فيقول: «المفارقات»، ولعله في هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعي لما قرأ عليه: [مجزوء الكامل]

وَعَرَزَتْنِي وَزَعَمْتَ أَنْكَ لَا بِنَ فِي الصَّيْفِ^(٩) تَامَرَ

فقال: [مجزوء الكامل]

وَعَرَزَتْنِي وَزَعَمْتَ أَنْكَ لَا تَنِي^(١٠) بِالصَّيْفِ تَامَرَ

فقال: أنت في تصحيفك أشهر من الخطيئة، أو كما يحكي^(١١) عن الشافعي أنه لما صلى في رمضان بالخليفة، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن، فكان ينظر في

(١) في النسخ: «بالضرورة».

(٢) كلمة «هو» غير واردة في النسخ.

(٣) في النسخ: «في نصيها دليلاً على الحكم إلى وصف».

(٤) في النسخ: «من».

(٥) في النسخ: «ينتظر بقدر ما يسلم...».

(٦) في النسخ: «قلت».

(٧) في النسخ: «بالصيف».

(٨) في النسخ: «كما حكى عن صلي بالخليفة في رمضان، ولم...».

المصحف، وقرأ الآية «صنعة الله أصيب بها من أساء». إنما المشركون نحس. وعددها إياه^(١)، تقية لكم خير لكم. هذا أن دعوا للرحمن ولذا، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه^(٢).

وقال^(٣): وذكر أبو زيد ابن الإمام في مجلسه يوماً أنه سُئل بالمشرق عن هاتين الشريطتين^(٤): «وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ يُعْرِضُونَ»^(٥)، فإنهما يستلزمان^(٦) بحكم الإنتاج «ولو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون» وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم: قال الخونجي: والإهمال بإطلاق لفظه، لو وأن في المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا مُهملتان، والمهملة في قوة الجزئية، ولا قياس على^(٧) جزئيتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين، أخبرته بهذا، وبما أجاب به الزمخشري وغيره، مما يرجع إلى انتفاء أمر^(٨) تكرار الوسط. فقال لي: الجوابان في المعنى سواء؛ لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرار^(٩) الوسط. وأخبرت بذلك شيخنا أبا عبد الله الآبلي، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالتين، إلى سائر ما يُشترط، فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً لمُجمل ما ينبنى عليه الوسط^(١٠) وغيره، وإلا فلا مانع لما قاله ابن حسين. قال الآبلي: وأجبتُ بجواب السلوي، ثم رجعت إلى ما قاله الناس، لوجوب كون مهملات القرآن كلية؛ لأن الشرطية لا تنتج جزئية. فقلت: هذا فيما يُساق منها للحجة مثل «لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(١١). أما في مثل هذا فلا قلت^(١٢). وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولي سبب تأخر، حسبما تبين في مسألة، لو لم يطع الله، فلينظر ذلك في اسم شيخنا أبي بكر يحيى بن هذيل رحمه الله.

وقال^(١٣): لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون، نزيل طيبة، على تربتها السلام، سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين: [الوافر]

- | | |
|---|-------------------------------------|
| (١) في النفع: «إياه». | (٢) في النفع: «يعنيه». |
| (٣) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٥). | (٤) في النفع: «الشريطين». |
| (٥) سورة الأنفال ٨، الآية ٢٣. | (٦) في النفع: «تستلزمان». |
| (٧) في النفع: «عن». | (٨) في النفع: «انتفاء تكرار الوسط». |
| (٩) في النفع: «تكرر». | (١٠) في النفع: «من الوسط». |
| (١١) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٢٢. | (١٢) كلمة «قلت» غير واردة في النفع. |
| (١٣) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٥ - ٢١٨). | |

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لِيَالِي وَضَلِنَا^(١) بِالرُّقْمَتَيْنِ
كَلَانَا نَاطِرَ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعِينَهَا وَرَأَتْ بَعِينِي

ففكر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السماء، فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لفرط^(٢) الاستحسان يرى أنها الحقيقة. فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة. وأيضاً وهو ينظر إلى قمر مجازاً، وهو لإفراطه استحسانها^(٣) يرى أن قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه؛ لأنها ناظرة المجاز. قلت: ومن هذا يعلم وجه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَذْكَرْتَنِي﴾ والفاء فأذكرتني بمثابة قولك أذكرتني، فتأمل، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ كل^(٤) الفهم، ينشده: «وأذكرتني». فالفاء في البيت الأول، منبهة على الثاني، وهذا النحو يسمى «الإيدان في علم البيان».

وقال: سألتني ابنُ حكم عن نسب هذا^(٥) المُجيب في هذا البيت: [الكامل]

وَمُفْهَقِ الْأَعْطَافِ قُلْتُ لَهُ انْتَسَبَ فَأَجَابَ مَا قُتِلَ الْمُحِبُّ حَرَامٌ

ففكرت ثم قلت له^(٦): أراه تميمياً؛ لإلغائه «ما» النافية. فاستحسنه مني لصغر سني يومئذ. وسأل ابنُ فرحون ابنَ حكم يوماً^(٧): هل تجد في التنزيل ست فاءات مُرتبة ترتيبها في هذا البيت: [البسيط]

رَأَى فَحَبَّ فَرَامَ الْوَضِلَ فَاْمْتَنَعْتُ فَسَامَ صَبْرًا فَأَغْيَا نَيْلَهُ فَقَضَى

ففكر ابن^(٨) حكم، ثم قال: نعم قوله عز وجل: ﴿فَلَا فَلَاحَ وَلَا بَاقَ لِمَنْ كَفَرَ﴾ ففكر ابن^(٩) فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(١٠) إلى آخرها، فمنع لهم بناء الآخرة لقراءة الواو. فقلت له: امنع ولا تُسند، فيقال^(١١): إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه. وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد، سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام: ﴿فَعَمِلَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ

(١) في النسخ: «وصلها».

(٢) في النسخ: «الاستحسان لها يرى...».

(٣) كلمة «هذا» غير واردة في النسخ.

(٤) كلمة «يوماً» غير واردة في النسخ.

(٥) سورة القلم ٦٨، الآيات ١٩ - ٢١.

(٦) في النسخ: «فيقال لك».

(٧) في النسخ: «حق».

(٨) كلمة «له» غير واردة في النسخ.

(٩) في النسخ: «ففكر ثم قال».

(١٠) سورة الشمس ٩١، الآية ١٣.

وَشُرَكَاءُكُمْ^(١). وكقول امرئ القيس: «غشيت ديار الحَيِّ بالبَكَرات، البيتين^(٢)». لا يقال قوله: فالحب^(٣)؛ سابع؛ لأننا نقول إنه عطف على «عاقِل» المجرّد منها، ولعلّ حكمة السّنة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها، وشأن اللسان عجيب.

وقال^(٤): سمعت ابن حكيم يقول: كتب^(٥) بعض أدباء فاس إلى صاحب له: [المجتث]

ابْعَثْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ مَدَارُ فَاسٍ عَلَيْهِ
وليس عندك شيء مِنَّا أَشِيرُ إِلَيْهِ
فبعث إليه ببطّة من مَرِي^(٦) شُرْب، يشير بذلك إلى الرّياء.

وحدّث أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن المَلْجُوم دعي^(٧) إلى وليمة، وكان كثير البَلْغَم، فوضع بين يديه صِهْره أبو العباس بن الأشقر غُضَارًا من اللوز المطبوع بالمَرِي، لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عَرَضَ له بالرياء. وكان ابن الأشقر يُذكر بالوقوع في الناس، فقَدِم^(٨) له القاضي غُضَارَ المَقْرُوض، فاستحسن الحاضرون فِطْنَتَهُ.

وقال عند ذكر شيخه أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي: دخلت عليه بالفقيه أبي عبد الله السّطّي في أيام عيد، فقَدِمَ لنا طعامًا، فقلت: لو أكلت معنا، فرجونا بذلك ما يُرفع من حديث «مَنْ أَكَلَ مَعَ مَغْفُورٍ لَهُ، غُفِرَ لَهُ» فتبسّم، وقال لي: دخلت على سيدي أبي عبد الله الفاسي بالإسكندرية، فقَدِمَ

(١) سورة يونس ١٠، الآية ٧١.

(٢) بيتا امرئ القيس هما [الطويل]:

غَشِيْتُ دِيَارَ الْحَيِّ بِالْبَكَرَاتِ فَمَارِمَةٌ فَبُزْقَةُ الْعَبِيرَاتِ
فَعَزَلُ فَجَلْبِيتٍ فَمَنْعِجٍ إِلَى عَاقِلٍ فَالْحُبُّ ذِي الْأَمْرَاتِ
ديوان امرئ القيس (ص ٧٨).

(٣) في النفع: «فالحب».

(٤) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٢١).

(٥) في النفع: «بعث».

(٦) البطّة: إناء كالقارورة. محيط المحيط (بسط). والمَرِي، بتشديد الراء: نوع من مستحضرات تتخذ في صنع الأطعمة، ويقال إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والمسل والتمر وأشياء أخرى. ر: قال هو نوع يعمل من السمك المالح واللحوم المالحه. ملحق معجم المعاجم العربية لدوزي (م. مري) وكتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين (ص ٨٢).

(٧) في النفع: «حضر وليمة».

(٨) (أ) في النفع: «فناوله القاضي».

لنا^(١) طعامًا، فسألته عن هذا الحديث فقال: وقع في نفسي^(٢) شيء، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فسألته عنه، فقال^(٣): لم أفلّه، وأرجو أن يكون كذلك. وصافحته بمصافحته الشيخ أبا عبد الله زيان، بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصعدي، بمصافحته أبا العباس أحمد المُلثَم، بمصافحته المُعَمَّر، بمصافحته رسول الله ﷺ.

وحدّث عن شيخه أبي محمد الدّلاصي، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخصّه لدينه وعقله، بالنداء باسمه، وإنما كان يَنعَقُ^(٤) بمماليكه: يا ساقى، يا طبّاخ، يا مُزَيّن. فناده^(٥) ذات يوم: يا فراش، فظنّ أن^(٦) ذلك لموجدة^(٧) عليه. فلم ير أثر ذلك، وتصورّت له به خلوة، فسأله عن مخالفته لعادته^(٨)، فقال له: لا عليك، كنتُ يومئذ جُنُبًا، فكرهت أن أذكر^(٩) اسم رسول الله ﷺ، على تلك الحالة. وقال: أنشدني المجاصي، قال: أنشدني الإمام^(١٠) نجم الدين الواسطي، قال: أنشدني شرف الدين الدمياطي، قال: أنشدني تاج الدين الآمدي^(١١)، مؤلف «الحاصل»، قال: أنشدني الإمام فخر الدين^(١٢) لنفسه: [الطويل]

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وخشة^(١٣) من جُسمنا وحاصلُ دنيانا أذى^(١٤) ووبال^(١٥)

(١) كلمة «لنا» غير واردة في النسخ. (٢) في النسخ: «نفسى منه شيء».

(٣) في النسخ: «فقال لي».

(٤) يقال: نَعَقَ الغراب إذا صَوَّت، ونَعَقَ الراعى الغنم: صاح بها، وينعق بمماليكه: ينادي. لسان العرب (نعق).

(٥) في النسخ: «فنادى به ذات...». (٦) كلمة «أن» غير واردة في النسخ.

(٧) الموجدة: الغضب. لسان العرب (وجد). (٨) في النسخ: «لعادته معه فقال».

(٩) في النسخ: «نكرهت ذكر رسول...». (١٠) كلمة «الإمام» غير واردة في النسخ.

(١١) في النسخ: «الأرموي».

(١٢) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن البكري الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، إمام مفسر وطبيب وأديب وشاعر. توفي سنة ٦٠٦ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٨٢) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٦٢) والبداية والنهاية (ج ١٣ ص ٥٥). وأبياته هذه في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٨٤) وعيون الأنباء (ص ٤٦٨) والوافي بالوفيات (ج ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٨) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٢٢٠ - ٢٢١). وفي البداية والنهاية (ص ٥٦) فقط البيتان الثاني والثالث.

(١٣) في عيون الأنباء: «في عقلة». (١٤) في الوافي بالوفيات: «ردى».

(١٥) في الأصل: «ودبال»، والتصويب من المصادر المذكورة.

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جَمَعْنَا فِيهِ قَبِيلٌ وَقَالَ^(١)
وَكَمْ مِنْ رِجَالٍ قَدْ رَأَيْنَا وَدَوْلَةً^(٢) فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَدَّتْ شُرُفَاتُهَا رِجَالٌ فَمَاتُوا وَالْجِبَالُ جِبَالٌ^(٣)

وقال^(٤): وقد مرُّ من ذكر الشريف القاضي أبي علي حسين بن يوسف بن يحيى الحسيني في عداد شيوخه وقال: حدَّثني أبو العباس الرندي عن القاضي أبي العباس بن الغمَّاز^(٥)، قال: لما قدم القاضي أبو العباس بن الغمَّاز من بلنسية، نزل بجاية؛ فجلس بها في الشهود مع عبد الحق بن ربيع^(٦)، فجاء عبد الحق يومًا، وعليه بُزُنس أبيض، وقد حُسُنَت شارته، وكُمِلَت هيئته، فلما نظر إليه ابن الغمَّاز أنشده:
[الخفيف]

لَيْسَ الْبُزْنَسُ الْفَقِيهُ فَبَاهَى وَرَأَى أَنَّهُ الْمَلِيحُ فَتَّاهَا^(٧)
لَوْ زَلَّيْخَا رَأَتْهُ حِينَ تَبَدَّى لَتَمَنَّتْهُ أَنْ يَكُونَ فَتَّاهَا

وقال أيضًا: إن ابن الغمَّاز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزَّيْتُونَة، فنزل الشهود من المثناة وأخبروا أنهم لم يَهْلُوه^(٨). وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أهله، فردَّهم معه، فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة. وقد^(٩) وقع لنا مثل هذا مع أبي الربيع بن سالم^(١٠)، فأنشدنا فيه: [الطويل]

تَوَارَى هَلَالُ الْأَقْقِ عَنْ أَغْيَنِ الْوَرَى وَأَزْحَى حِجَابُ الْعَيْمِ دُونَ مُحَيَّاهُ
فَلَمَّا تَصَدَّى لَارْتِقَابِ شَقِيقِهِ تَبَدَّى لَهُ دُونَ الْأَنَامِ فَحَيَّاهُ

(١) في الوافي بالوفيات: «... طول دهرنا سوى... فيه قلت وقالوا».

(٢) في وفيات الأعيان وعيون الأنباء: «وكم قد رأينا من رجال ودولة».

(٣) في المصدرين السابقين: «فزالوا» بدل «فماتوا». ورواية عجز البيت في الوافي بالوفيات هي: ومال فزالت والجبال جبال

(٤) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٢).

(٥) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن الغمَّاز الأنصاري؛ ولي قضاء بجاية، وتوفي بتونس سنة ٦٩٣ هـ. عنوان الدراية (ص ٧٠).

(٦) لعبد الحق بن ربيع ترجمة ضافية في عنوان الدراية (ص ٣٢).

(٧) تاهَا: فعل ماضٍ من التيه، والألف للإطلاق، وأصل القول: تاه.

(٨) لم يَهْلُوه: لم يَزَوْه. لسان العرب (هلل).

(٩) كلمة «وقد» غير واردة في النص.
(١٠) هو سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي، المتوفى سنة ٦٣٤ هـ. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

وجرى في ذكر أبي عبد الله بن النجار^(١)، الشيخ التعالمي من أهل تلمسان، فقال^(٢): ذكرت يوماً قول ابن الحاجب فيما يُحرّم من النساء بالقربة، وهي «أصول وفصول، أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علّا»، فقال: إن تركّب لفظ التسمية العُزفية من الطرفين حلّت، وإلا حرّمّت، فتأملته، فوجدته كما قال: لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التركيب من الطرفين، كابن العم وابنة العم مقابلته كالأب والبنت، والتركيب^(٣) من قبل الرجل كابنة الأخ والعم مقابلته كابن الأخت والخالة.

وذكر الشيخ الرئيس أبا محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي. وقال^(٤): كان يُنكر إضافة الحول إلى الله عزّ وجلّ، فلا يجيز أن يقال: «بحول الله وقوته»، قال: لأنه لم يُرد إطلاقه^(٥)، والمعنى يقتضي امتناعه؛ لأنّ الحول كالحيلة، أو قريب منها.

وحكى^(٦) عن شيخه أبي زيد عبد الرحمن الصنهاجي^(٧)، عن القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن علي الذكالي، أنه اختصم عنده رجلان في شاة، ادّعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادّعى الآخر أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع^(٨) أنها ضاعت من غير تضييع، فقال: كيف أضيع، وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة، حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم، فقبل له في ذلك، فقال: تأولت قول عمر: «من ضيعها فهو لما سواها أضيع».

وحكى عن الشيخ الفقيه رُخلة الوقت أبي عبد الله الأيلي، حكاية في باب الضرب، وقوة الإدراك، قال^(٩): كنت يوماً مع القاسم بن محمد الصنهاجي، فوردت عليه طومارة من قبل القاضي أبي الحجاج الطروشّي فيها: [السريع]

خيرات ما تحويه مبذولة ومطلبي تضحيف مقلوبها

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار، وترجمته في التعريف بابن خلدون (ص ٤٧) ونيل الابتهاج (ص ٢٣٩) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٠) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٤).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٥). (٣) في النفع: «التركيب».

(٤) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٥) إطلاق الأسماء على الله سبحانه وتعالى مختلف فيه بين العلماء.

(٦) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٢٩).

(٧) في النفع: هو أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكتب.

(٨) في النفع: «المودع عنده أنها».

(٩) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٢٣١ - ٢٣٢).

فقال لي: ما مطلبه؟ فقلت: «نارنج». ودخل^(١) عليه وأنا عنده بتلمسان الشيخ الطبيب^(٢) أبو عبد الله الدبّاع المالقي^(٣)، فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيراً بهذا الشطر: «ثم حبيبٌ قلما ينصف» فأخذته وكتبته، ثم قلبته وصحّفته، فإذا به^(٤): «قَصَبَتَا مَلَفٌ شَحْمِي».

وقال: قال^(٥) شيخنا الأبلّي: لما نزلتُ تازة مع أبي الحسن بن برّي، وأبي عبد الله التّرجالي، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما إلى^(٦) الكلام، فاستكشفتُ منهما عن معنى هذا البيت للمعري: [الطويل]

أقول لعبد الله لَمَّا سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم

فجعلاً يفكران فيه، فتمتُ حتى أصبحا، ولم يجدها، وسألوني عنه، فقلت: معناه «أقول لعبد الله لَمَّا وهي سقاؤنا، ونحن بوادي عبد شمس: شِمْنَا لَنَا بَرَقًا». قلت: وفيه نظر^(٧). وإن استقصينا مثل هذا، خرجنا عن الغرض.

مولده: نقلت من خطه: كان^(٨) مولدي بتلمسان أيام أبي حمّو موسى بن عثمان بن يغمرايس بن زيان. وقد وقفْتُ على تاريخ ذلك، ورأيت^(٩) الصّفح عنه؛ لأن أبا الحسن بن موسى^(١٠) سأل أبا الطاهر السلفي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألتُ أبا الفتح بن زيان بن مسعدة^(١١) عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألتُ محمد بن علي بن محمد اللّبان عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت حمزة بن يوسف السّهمي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت أبا بكر محمد بن علي المنفري^(١٢) عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي^(١٣) عن إسماعيل الترمذي عن سنّه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت الشافعي^(١٤) عن

(١) في النسخ: «دخل عليه الأبلّي وأنا...».

(٢) في النسخ: «المالقي المتطبّب».

(٣) النص في نسخ الطيب (ج ٧ ص ٢٣٣). (٤) في النسخ: «عن الكلام، فاستكشفتها».

(٥) في النسخ: «قلت: وفي جواز مثل هذا نظر».

(٦) النص في نسخ الطيب (ج ٧ ص ١٩٨ - ١٩٩).

(٧) في النسخ: «ولكنني رأيت».

(٨) قوله: «بن مسعدة» غير وارد في النسخ. (٩) في النسخ: «سألت علي بن محمد اللّبان».

(١٠) في النسخ: «محمد بن عدي المنفري».

(١١) في النسخ: «سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنّه فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت

الشافعي...».

سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإني سألت مالك بن أنس عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنه^(١).

وفاته: توفي بمدينة فاس في أخريات محرم من عام تسعة وخمسين وسبعمائة، وأراه توفي في ذي حجة من العام قبله. ونقل إلى ثربة سلفه بمدينة يلمسان حرسها الله.

محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي

من أهل سبتة، حفيد القاضي الإمام أبي الفضل عياض، يكنى أبا عبد الله.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان من عُدُول القضاة، وجلة سرائرهم، وأهل التزامه فيهم، شديد التحري في الأحكام والاحتياط، صابراً على الضعيف فيهم والملهوف، شديد الوطأة على أهل الجاه ودوي السطوة، فاضلاً، وقوراً، حسن السمات، يعرفه كلامه أبداً، ويزينه ذلك لكثرة وقاره، محباً في العلم وأهله، مقرباً لأصاغر الطلبة، ومكرماً لهم، ومعتنياً بهم، مُعَمِّلاً جهده في الدفع عنهم، لما عسى أن يسوءهم؛ ليحبب إليهم العلم وأهله، ما رأينا بعده في هذا مثله. سكن مالقة مع أبيه عند انتقال أبيه إليها، إلى أن مات أبوه سنة خمس وخمسين وستمائة.

حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجيتاب، وجرى ذكر إعرابه لفظ من حديثه عن شيوخه، قال: دخلت على القاضي المذكور، فسأل أحدنا عن أبيه، فقال: ابن فلان. وذكر معرفة مشتركة بين تجار فاس، فقال: أيهما الذي ينحت في الخشب، والذي يعمل في السلاح؟ فما فطن لقصده لسذاجته. وحدثني عن ذكر جزائره أنها كانت تقع له مع السلطان مُسْتَقْضِيه، مع كونه مرهوباً، شديد السطوة، وقائع تُبَيء عن تصميمه، ويُعْده عن الهوادة؛ منها أن السلطان أمر بإطلاق محبوس كان قد سجنه، فأُتِفِدَ بين يدي السلطان الأمر للسُجَّان بحبسه، وتوعده إن أطلقه. ومنها إذاعة ثبوت العيد في أخريات يوم كان قد أمل السلطان البروز إلى العيد في صباحه، فنزل عن القلعة ينادي: عبد الله، يا ميمون، أخبر الناس عن عيدهم اليوم، وأمثال ذلك.

مشيخته: قرأ بسبته، وأسند بها، فأخذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري وغيره، ورحل إلى الجزيرة الخضراء، فأخذ بها كتاب سيبويه وغيره تفقيهاً على النحوي الجليل أبي القاسم عبد الرحمن بن القاسم القاضي المُتَفَنِّن. وأخذ بها أيضاً كتاب «إيضاح الفارسي» عن الأستاذ أبي الحجاج بن مغرور، وأخذ بإشبيلية وغيرها

(١) في النفع: «المروءة للرجل أن يخبر بسنه».

عن آخرين. وقرأ على القاضي أبي القاسم بن بَقِيَّ بن نافحة، وأجاز له. وكتب له من أهل المشرق جماعة كثيرة، منهم أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر بن أبي الفتح الصَّيدلاني، وأجاز له بإصْبَهان، وهو سَبْطُ حسن بن مَثْدَة، أجاز له في شوال سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة. وتحمل عن أبي علي الحداد، شيخ السَّلْفي الحافظ عن محمود الصيرفي ونظائرهما، وجماعة من إصْبَهان كثيرة كتبوا له بالإجازة. وكتب له من غيرها من البلاد نَيْفٌ وثمانون رجلاً، منهم أحد وستون رجلاً كتبوا له مع الشيخ المحدث أبي العباس المغربي، والقاضي أبي عبد الله الأزدي، وقد نصح على جميعهم في برنامجيهما، واستوفى أبو العباس الغربي نصوص الإِشْرَعات، وفيها اسم القاضي أبو عبد الله بن عِيَاض.

مَنْ رَوَى عَنْهُ: قال الأستاذ أبو جعفر، رحمه الله: أجاز لي مرتين اثنتين^(١). وقال: حدَّثني أبو عبد الله مشافهة بالإذن، أنبأنا أبو الطاهر بركات بن إبراهيم الخُشُوعي كتاباً من دمشق، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الرَّازي، المعروف بابن الحطَّاب، بالحاء المهملة، أخبرنا محمد بن أحمد بن عبد الوهاب البغدادي بالفسطاط، أخبرنا موسى بن محمد بن عَرَفَة السمسار ببغداد، قال أبو عمرو بن أحمد بن الفضل الثَّقَرِي: أخبرنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا عمر بن شاعر عن أَنَس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، الصَّابِرُ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ، كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ».

هذا الإسناد قريب يعزُّ مثله في القرب لأمثالنا، ممن مولده بعد الستمائة، وإسماعيل بن موسى من شيوخ الترمذي، قد خرَّج عنه الحديث المذكور، لم يقع له في مُصَنَّفِهِ ثلاثي غيره.

مولده: بسبْعة سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وفاته: توفي بغرناطة يوم الخميس الثامن والعشرين لجمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة.

محمد بن عِيَاض بن موسى بن عِيَاض بن عمر بن موسى
ابن عِيَاض اليحصبي

من أهل سَبْعة، ولد الإمام أبي الفضل، يكنى أبا عبد الله.

(١) في الأصل: «اثنتين» وهو خطأ نحوي.

حاله: كان فقيهاً جليلاً، أديباً، كاملاً. دخل الأندلس، وقرأ على ابن بشكوال كتاب الصلّة، وولي قضاء غرناطة. قال ابن الزبير: وقفت على جزء ألفه في شيء من أخبار أبيه، وحاله في أخذه وعلمه، وما يرجع إلى هذا، أوقفني عليه حَفْدَتُهُ بمالقة.

وفاته: توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد

ابن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان

ابن عبد السلام بن جبير الكِنَاني^(١)

الواصل إلى الأندلس.

أُولَيْتُهُ: دخل جَدُّه عبد السلام بن جبير في طالعة بلج بن بشر بن عياض القُشَيْرِي في محرم ثلاث وعشرين ومائة. وكان نزوله بكورة شَدُونَة. وهو من ولد ضَمْرَة بن كِنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خُزَيْمة بن مُدْرِكَة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. بَلَثَسِي الأصل، ثم غَرْنَاطِي الاستيطان. شَرُوق، وَغَرْب، وعاد إلى غرناطة.

حاله: كان^(٢) أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، سَنِيّاً فاضلاً، نزيه المَهْمة، سَرِي النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة في الخط. كَتَبَ بِسَبْتَة^(٣) عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، وبغرناطة عن غيره من ذوي قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة. ثم نزع عن ذلك، وتوجّه إلى المشرق. وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره، مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته. ونَظَّمه فائق، ونثره بديع. وكلامه المُرْسَل، سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذُكِرَ شهير، ورحلته نسيجة وخِدها، طارت كل مطار، رحمه الله.

رحلته: قال مَنْ عُنِيَ بخبره^(٤): رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق، وحبّ في كل واحدة منها. فَصَلَ عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال، ثمان وسبعين وخمسمائة، صحبة أبي جعفر بن حسان، ثم عاد إلى وطنه

(١) ترجمة ابن جبير في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٩٥) والتكملة (ج ٢ ص ١٠٩) وزاد المسافر (ص ٧٢) والتجويد الزاهرة (ج ٦ ص ٢٢١) وشذرات الذهب (ج ٥ ص ٦٠) والمغرب (ج ٢ ص ٣٨٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ١٣٨) ومقدمة كتابه «رحلة ابن جبير».

(٢) النص في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٧ - ٦٠٨).

(٣) في الذيل: «في شيبته». (٤) راجع الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٩٦).

غُرناطة لثمان بقين من محرم واحد وثمانين، ولقي بها أعلامًا يأتي التعريف بهم في مشيخته، وصنّف الرحلة المشهورة، وذكر مناقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان، وغرائب المشاهد، وبدائع الصّنائع، وهو كتاب مؤنس ممتع، مُثير سَوَاقِن النفوس إلى الرّفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد العظيمة.

ولما^(١) شاع الخبرُ المُبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي^(٢)، قُري عزّمه على عمل الرحلة الثانية، فتحرك إليها من غرناطة، يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة^(٣) خلت من شعبان سبع وثمانين. وسكن غرناطة، ثم مالقة، ثم سبتة، ثم فاس^(٤)، منقطعًا إلى إسماع الحديث والتصوّف، وتزوياً ما عنده. وقضّله بديع، وورّعه يتحقق، وأعماله الصالحة تزكو. ثم رحل الثالثة من سبتة، بعد موت زوجته عائكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقيشي^(٥)، وكان كلفًا بها، فعظم وجده عليها. فوصل مكة، وجاور بها طويلاً، ثم بيت المقدس، ثم تجوّل بمصر والإسكندرية، فأقام^(٦) يُحدّث، ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.

مشيخته: روى بالأندلس عن أبيه، وأبي الحسن بن محمد بن أبي العيش، وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصيلي. وأخذ العربية عن أبي الحجاج بن يسعون. وبسبتة عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي. وأجاز له أبو الوليد بن سبكة، وإبراهيم بن إسحاق بن عبد الله الغساني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميئاني، نزىلاً مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفشكي، وأبو الحجاج يوسف بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البغدادي، وصدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحنجري رئيس الشافعية بإصبهان. وبيغداد العالم الحافظ المتبحر نادرة الفلك أبو الفرج، وكناه أبو الفضل ابن الجوزي. وحضر بعض مجالسه الوغظية وقال فيه: «فشاهدنا رجلاً ليس بعمر ولا زيد، وفي جوف الفيرا كلّ الصيد»، وبدمشق أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن عبد الله بن عباس السلمي الجوّاري، وأبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي غصرون، وأبو الطاهر

(١) انظر: الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٥ - ٦٠٦).

(٢) في الذيل: «بورى».

(٣) في الذيل: «ثم فاس ثم سبتة».

(٤) في الذيل: «أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقيشي».

(٥) في الذيل: «فأقام بها».

بركات الخُشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الإصبهاني من أئمة الكتاب، وأخذ عنه بعض كلامه، وغيره، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبو الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم والحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الرُبَيعي، وعبد الرحمن بن إسماعيل بن أبي سعيد الصوفي، وأجازوا له، وبخراَن الصوفي العارف أبو البركات حيَّان بن عبد العزيز، وابنه الحاذي حذوه.

مَن أخذ عنه: قال ابن عبد الملك^(١): أخذ^(٢) عنه أبو إسحاق بن مَهيب، وابن الواعظ، وأبو تمام بن إسماعيل، وأبو الحسن بن^(٣) نصر بن فاتح بن عبد الله البجائي، وأبو الحسن بن علي الشَّادي^(٤)، وأبو سليمان بن خُوط الله، وأبو زكريا، وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبي الفُضن^(٥)، وأبو عبد الله بن حسن بن مُجير^(٦)، وأبو العباس بن عبد المؤمن البُثاني^(٧)، وأبو^(٨) محمد بن حسن اللواتي، وابن^(٩) تامتيت، وابن محمد الموزوري، وأبو عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن أشقر التميمي التونسي.

وممن أخذ عنه^(١٠) بالإسكندرية، رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله، وبمصر رشيد الدين بن العطار، وفخرُ القضاة ابن الجيَّاب، وابنه جمال القضاة.

تصانيفه: منها نظمه. قال ابن عبد الملك^(١١): «وقفت منه على مجلد متوسط يكون على^(١٢) قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس. ومنه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» في مرثي زوجه أم المجد. ومنه جزء سماه «نظم الجُمان في التشكي من إخوان الزمان». «وله ترسيل بديع، وحِكْم مُستجادة»، وكتاب رحلته. «وكان أبو الحسن الشَّادي يقول: إنها ليست من تصانيفه، وإنما قيَّد معاني ما

(١) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٦ - ٦٠٧). (٢) في الذيل: «رُوي عنه».

(٣) في الذيل: «وأبو الحسن ابن أبي نصر فاتح بن...».

(٤) في الذيل: «وابن محمد الشاري».

(٥) في الذيل: «أبو بكر يحيى بن عبد الملك بن أبي الفصن».

(٦) في الأصل: «مجير» والتصويب من الذيل.

(٧) في الذيل: «وأبَاء العباس: ابن عبد المؤمن والنباتي».

(٨) في الذيل: «وابن محمد».

(٩) في الذيل: «ابن».

(١٠) في الذيل: «وممن رُوي عنه».

(١١) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٨).

(١٢) كلمة «على» ساقطة من الذيل والتكملة.

تضمنته، فتولى ترتيبها، وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه، على ما تلقاه منه^(١). والله أعلم.

شعره: من ذلك القصيدة الشهيرة التي نظمها، وقد شارف المدينة المكرّمة طيبة، على ساكنها من الله أفضل الصلوات، وأزكى التسليم^(٢): [المتقارب]

أقول وآتسنت بالليل نارا	لعلّ مِرَاجُ الْهُدَى قد أَنَارَا
وإلا فما بالُ أَفْقِ الدُّجَى	كَأَنَّ سَنَا الْبَرْقِ فِيهِ اسْتَطَارَا
ونحن من الليل في جَنَدِسْ	فَمَا بِالْهَ قد تَجَلَّى نَهَارَا؟
وهذا التَّسِيمُ شَذَا الْمِسْكَ قد	أُعِيرَ أَمِ الْمِسْكَ مِنْهُ اسْتَعَارَا؟
وكانت رَوَاجِلُنَا نَشْتَكِي	وَجَاهَا فَقَدْ سَابَقَتْنَا ابْتِدَارَا
وكنّا شكونا عناء السُّرى	فَعُدْنَا نُبَارِي سِرَاعَ الْمَهَارَى
أظنُّ النفوسَ قد اسْتَشْعَرَتْ	بِلَوْعِ هَوَى تَخَذُّتُهُ شِعْمَارَا
بشائرُ صُبْحِ السُّرى أَذْنَتْ	بِأَنَّ الْحَبِيبَ تُدَانِي مَزَارَا
جَرَى ذِكْرُ طَيْبَةٍ مَا بَيْنَنَا	فَلَا قَلْبَ فِي الرِّكْبِ إِلَّا وَطَارَا
حنينا إلى أَحْمَدَ الْمُصْطَفَى	وَشَوْقًا يَهْيِجُ الضُّلُوعَ اسْتَعَارَا
ولاح لنا أَحَدُ مُشْرِقَا	بَنُورٍ مِنَ الشُّهَدَاءِ اسْتَنَارَا ^(٣)
فمن أَجْلِ ذَلِكَ ظَلَّ الدُّجَى	يَحِلُّ عَقُودَ النُّجُومِ اسْتَنَارَا
وَمِنْ طَرَبِ الرُّكْبِ حَثَّ الْخَطَا	إِلَيْهَا وَنَادَى الْبِدَارَ الْبِدَارَا
ولَمَّا حَلَلْنَا فَنَاءَ الرِّسُولِ	نَزَلْنَا بِأَكْرَمِ مَجْدٍ ^(٤) جَوَارَا
وحين دَنَوْنَا لِفَرْضِ السَّلَامِ	قَصَرْنَا الْخُطَا وَلِزِمْنَا الْوَقَارَا
فَمَا نُرْسِلُ اللَّحْظَ إِلَّا اخْتِلَاسًا	وَلَا نُرْجِعُ ^(٥) الطَّرْفَ إِلَّا انْكِسَارَا
وَلَا نُظْهِرُ الْوَجْدَ إِلَّا اكْتِنَامًا	وَلَا نَلْفُظُ الْقَوْلَ إِلَّا سِرَارَا
سوى أَنَا لَمْ نُطِيقْ أَغْنَا	بِأَدْمَعِهَا غَلَبَتْنَا انْفِجَارَا
وقَفْنَا بِرَوْضَةِ دَارِ السَّلَامِ ^(٥)	نُعِيدُ السَّلَامَ عَلَيْهَا مَرَارَا

(١) القصيدة في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٢ - ٦٠٣). وورد منها الأبيات الثلاثة الأولى في نفع الطيب (ج ٣ ص ٢٣٥).

(٢) في الأصل: «استعار»، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) في الذيل والتكملة: «خلق». (٤) في الذيل والتكملة: «نرفع».

(٥) رواية صدر البيت في الذيل والتكملة هي: وقفنا بروضة للسّلام.

ولولا مهابتُهُ في النفوس
قَضِينَا بِزُورَتِهِ^(١) حَجُّنَا
إِلَيْكَ إِلَيْكَ نَبِيَّ الْهُدَى
وفَارَقْتُ أَهْلِي وَلَا مِئَّةً
وكَيْفَ نَمْنُ عَلَى مَنْ بِهِ
دَعَانِي إِلَيْكَ هَوَى كَامِنٌ
فَنَادَيْتُ^(٢) لَبَّيْكَ دَاعِي الْهَوَى
وَوَطَّنْتُ نَفْسِي بِحَكَمِ^(٣) الْهَوَى
أَخْوَضُ الدُّجَى وَأَرَوْضُ الشُّرَى
وَلَوْ كُنْتُ لَا أَسْتَطِيعُ السَّبِيلَ
وَأَجْدَرُ مَنْ نَالَ مِنْكَ الرِّضَى
عَسَى لِحَفْظَةِ مَنْكَ لِي فِي غَدٍ
فَمَا ضَلُّ مَنْ بِمَسْرَاكِ^(٤) اهْتَدَى

لثَمْنَا الثَّرَى وَالتَزَمْنَا الْجِدَارَا
وَبِالْعُمُرَتَيْنِ^(٥) خَتَمْنَا اعْتِمَارَا
رَكِبْتُ الْبَحَارَ وَجُبْتُ الْقَفَارَا
وَرُبُّ كَلَامٍ يَجْرُ اعْتِدَارَا
نُؤْمِلُ لِلْسَيِّئَاتِ اغْتِفَارَا
أَثَارَ مَنْ الشَّوْقِ مَا قَدْ أَثَارَا
وَمَا كُنْتُ عَنْكَ أَطِيقُ اضْطِبَارَا
عَلَيَّ وَقَلْتُ رَضِيْتُ اخْتِبَارَا
وَلَا أَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا غَرَارَا
لَطَرْتُ وَلَوْ لَمْ أَصَادِفْ مَطَارَا^(٦)
مَحَبُّ ثَرَاكِ^(٧) عَلَى الْبُعْدِ زَارَا
تَمَهَّدُ لِي فِي الْجَنَانِ الْقَرَارَا
وَلَا ذُلٌّ مَنْ بِذَرَاكِ اسْتَجَارَا

وفي غبطةٍ مِنْ مَنْ الله عليه لحجَّ بيته، وزيارة قبره ﷺ يقول^(٨): [المتقارب]

هَنِيئًا لِمَنْ حَجَّ بَيْتَ الْهُدَى
وَأَنَّ السَّعَادَةَ مَضْمُونَةٌ
وَحَطَّ عَنْ النَّفْسِ أَوْرَارَهَا
لِمَنْ حَجَّ^(٩) طَيِّبَةً أَوْرَارَهَا

وفي مثل ذلك يقول^(١٠): [المتقارب]

إِذَا بَلَغَ الْمَرْءُ^(١١) أَرْضَ الْحِجَازِ
فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ مَا أَمَّ لَهُ^(١٢)

(١) في الذيل: «بزورتنا».

(٢) في الأصل: «فناديتك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) في الذيل: «الحكم».

(٤) أخذه من قول الأعمى التطيلي من موشحة تامة:

امتنع النوم وشط المراز ولا قرار
ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٦١) وجيش التوشيح (ص ٢٤) وتوشيح التوشيح (ص ١٠٦).

(٥) في الذيل: «ذراك».

(٦) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٤١).

(٧) في الذيل: «خل».

(٨) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٣٦).

(٩) في النفع: «العبد».

(١٠) في الأصل والذيل والتكملة: «أمله»، والتصويب من النفع.

- وإن^(١) زار قَبْرَ نَبِيِّ الْهُدَى فَقَدْ أَكْمَلَ اللهُ مَا أُمِّلَ^(٢)
- وفي تَفْضِيلِ الْمَشْرِقِ^(٣): [الكامل]
- لا يَسْتَوِي شَرْقُ الْبِلَادِ وَعَزْبُهَا الشَّرْقُ حَازَ الْقَضْلَ بِاسْتِحْقَاقِ^(٤)
- انْظُرْ^(٥) جَمَالَ^(٦) الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا زَهْرَاءُ تُفْجِبُ^(٧) بِهَجَةِ الْإِشْرَاقِ
- وانْظُرْ إِلَيْهَا عِنْدَ الْغُرُوبِ كَثِيبَةً صَفْرَاءُ تُغَيِّبُ ظُلُمَةَ الْآفَاقِ
- وكفى بِيَوْمِ طُلُوعِهَا مِنْ عَزْبِهَا أَنْ تَوْذَنَ الدُّنْيَا بِعِزِّ^(٨) فِرَاقِ
- وقال في الوصايا^(٩): [الطويل]
- عَلَيْكَ بِكَتْمَانِ الْمَصَائِبِ وَاضْطَبْرِ عَلَيْهَا فَمَا أَبْقَى الزَّمَانُ شَفِيقَا
- كِفَاكَ مِنَ الشُّكُوى^(١٠) إِلَى النَّاسِ أَنَهَا^(١١) تَسُرُّ عَدُوًّا أَوْ تُسِيءُ^(١٢) صَدِيقَا
- وقال^(١٣):
- لِصَانِعِ^(١٤) الْمَعْرُوفِ فَلْتَةُ عَاقِلٍ إِنْ لَمْ تَضَعْهَا فِي مَحَلٍّ عَاقِلٍ^(١٥)
- كَالْنَفْسِ فِي شَهَوَاتِهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ وَفَقًا^(١٦) لَهَا عَادَتْ بِضُرٍّ عَاجِلٍ
- نُشْرُهُ: مِنْ حَكْمِهِ قَوْلُهُ^(١٧): إِنْ شَرَّفَ الْإِنْسَانُ فَشَرَّفَ^(١٨) وَإِحْسَانُهُ، وَإِنْ فَاقَ
فَتَفَضَّلَ وَإِرْفَاقُ^(١٩)، يَنْبَغِي أَنْ يَحْفَظَ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ، كَمَا يَحْفَظُ الْجَفْنُ إِنْسَانَهُ. فَرُبَّ
كَلِمَةٍ تَقَالُ، تُحَدِّثُ عَثْرَةً لَا تُقَالُ. كَمْ كَسَتْ فَلَتَاتُ الْأَلْسِنَةِ الْجِدَادَ، مِنْ وَرَائِهَا مَلَابِسُ
-
- (١) في النسخ: «فإن».
- (٢) في الذيل: «أم له».
- (٣) الأبيات في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦١٠ - ٦١١).
- (٤) في الذيل والتكملة: «باسترقاق».
- (٥) في الأصل: «انظر إلى جمال» وكذا ينكر الوزن.
- (٦) في الذيل والتكملة: «لحال».
- (٧) في المصدر نفسه: «تصحب».
- (٨) في المصدر نفسه: «بوشك».
- (٩) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦١٢ - ٦١٣).
- (١٠) في الأصل: «بالشكوى»، وكذا ينكر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
- (١١) في الذيل والتكملة: «أنه».
- (١٢) في الذيل والتكملة: «تسوء».
- (١٣) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٩ - ٦١٠).
- (١٤) في الأصل: «وصانع» والتصويب من الذيل والتكملة.
- (١٥) في الذيل والتكملة: «قابل».
- (١٦) في الذيل: «وفقًا».
- (١٧) قابل بالذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٨ - ٦٠٩).
- (١٨) في الذيل والتكملة: «مفضل».
- (١٩) في الذيل والتكملة: «وإنفاق»، ينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه.

جداد^(١). نحن في زمن لا يَحْظَى فيه بنفاق، إلّا مَنْ عامل بِنفاق. شَغِلَ الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض، فلهجوا في الصُدود عنها والإعراض، آثروا دنيا هي أضغاث أحلام، وكم هَفَّت في حبها من أحلام، أطلالوا فيها آمالهم، وقَصَّروا أعمالهم، ما بالهم، لم يتفرغ لغيرها بالهم، ما لهم في غير ميدانها اشتياق^(٢)، ولا بسوى هواها اشتياق^(٣). تالله لو كُشِفَت الأسرار، لما كان هذا الإضرار، ولَسَهَرَت العيون، وتفجرت من شؤونها الجفون^(٤). فلو أن عينَ البصيرة من سنتها هابئة، لرأت جميع ما في الدنيا ريحاً^(٥) هابئة، ولكن استولى العمى على البصائر، ولا يعلم الإنسان^(٦) ما إليه صائر. أسأل الله هدايةً سبيله، ورحمةً تورث نسيم الفردوس وسلسيله، إنه الحنان المئان لا رب سواه.

ومنها^(٧): قَلَّتْ الهبات، أشبه شيء بفلتات الشهوات. منها نافع لا يُعْقِبُ ندمًا، ومنها ضارٌّ يَبْقِي في النفس ألمًا. فصرَّ الهبة وقوعها عند مَنْ لا يعتقد لحقها أداء، وربما أثمرت^(٨) عنده اعتداء. وضرر الشهوة أن لا توافق ابتداء، فتصير لمثبعتها^(٩) داء، مثلها كمثّل السكر يلتذُّ صاحبه بحلاوة^(١٠) جنّاه، فإذا صحا يعرف^(١١) قدر ما جنّاه. عكس هذه القضية هي الحالة المرضية.

مولده: ببِلَنَسِيَّة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقيل: بشاطبة سنة أربعين وخمسمائة.

وفاته: توفي بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان أربع عشرة وستمائة.

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن شبرين^(١١)

يكنى أبا بكر، شيخنا الفقيه القاضي المؤرخ الكاتب البار، رحمة الله عليه.

(١) في الذيل والتكملة: «من ملابس الحداد». (٢) في الذيل والتكملة: «استنان».

(٣) في الذيل: «العيون». (٤) في الذيل: «ريح».

(٥) في الذيل: «المرء». (٦) الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٦٠٩).

(٧) في الأصل: «أثرت»، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٨) في الذيل: «فتعود لمستهملها». (٩) في الذيل: «بحلو».

(١٠) في الذيل: «تعرف».

(١١) ترجمة ابن شبرين في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٦) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠) واللمحة

البدرية (ص ٦٤، ٩٠، ٩٨) ونفح الطيب (ج ٨ ص ٨٥).

أُولَيْتَهُ: أصله^(١) من إشبيلية، من حصن شلب من كورة باجة، من غربي صُقعها، يعرفون فيها ببني شبرين معرفة قديمة. وَلِي جَدُّه القضاء بإشبيلية، وكان من كبار أهل العلم، تشهد بذلك الصلاة. وانتقل أبوه منها عند تغلب العدو عليها عام ستة وأربعين وستمائة، فاحتل رُنْدَة ثم غرناطة، ثم انتقل إلى سُكنى سَبْتَة، وبها وُلد شيخنا أبو بكر، وانتقل عند الحادثة إلى غرناطة^(٢)، فارتَسَم بالكتابة السلطانية، وولِي القضاء بعدة جهات، وتآثل مالا وشهرة، حتى جَرَى مجرى الأعيان من أهلها.

حاله: كان^(٣) فريد دهره، ونسيج وحده في حُسْن السُّنْت والرُّواء^(٤)، وكمال الظُّرف وجمال الشَّارة، وبراعة الخط، وطيب المجالسة، خاصِّيا، وقورا، تام الخُلُق، عظيم الأبهة، عذب الثلاوة لكتاب الله، من أهل الدين والفضل والعدالة، تاريخيا، مقيدا، طُلعة اختيار أصحابه، محققا لما ينقله، فَكَّها مع وقاره، غَزَلًا، لَوْدَعِيًا، علي شأن الكتابة، جميل العشرة، أشد الناس على الشُّعر، ثم على المحافظة، ما يحفظه من الأبيات من غير اعتياف ولا تنقيح، يُناغي الملكين في إثباتها، مقررة التواريخ، حتى عظم حجم ديوانه، تفرَّدت أشعاره بما أبرَّ على الكثيرين، مليح الكتابة، سهلها، صانعا، سابقا في ميدانها، راجحا كُفَّة المنثور. وكانت له رحلة إلى تونس، اتَّسع بها نطاق روايته. وتقلب بين الكتابة والقضاء، منحوس الحظ في الاستعمال، مُضَيِّقا فيه، وإن كان وافر الجَدِّ، مُوسِّعا عليه.

وجرى ذكره في كتاب «التاج المحلي» بما نصّه:

خاتمة المحسنين، وبقية الفُصحاء اللّسنيين، ملأ العيون هَدْيًا وسَمْتًا، وسلك من الوقار طريقة لا تَرى فيها عَوَجًا ولا أَمْتًا، ما شئت من فضل ذات، وبراعة أدوات. إن خطَّ، نزل ابن مُقْلَة عن دَرَجته وإن خطَّ. وإن نظم أو نشر، تَبعت البلغاء ذلك الأثر. وإن تكلم أنصَتَ الحفلُ لاستماعه، وشرع لُدْرَه النَّفِيسَة صِدْق أسماعه. وفد على الأندلس عند كائنة سَبْتَة، وقد طرحت الثوى برحاله، وظَعَن عن رَبْعِه بتوالي إِمحاله، ومُصَرَّف بلاده، والمستولي على طارِفها وتالِدْها، أبو عبد الله بن الحكيم، قدس الله صِداه، وسقى مُثْنِده، فاهتزَّ لقدمه اهتزاز الصَّارم، وتلقاه تلقى الأكارم، وأنهض إلى لقائه آماله، وألقى له قبل الوسادة ماله، ونظمه في سَمَط الكُتّاب، وأسلاه عن أعمال

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «ثم عاد عند الحادثة التي كانت بها في أواخر عام ٧٠٥ إلى غرناطة».

(٣) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠). (٤) في المصدر السابق: «وجمال الرواء».

الأقتاد، ونزل ذمامه تأكداً في هذه الدول، وقوفي له الآتية منها على الأول، فتصرف في القضاء بجهاتها، ونادته السيادة هاك وهاتها، فجدد عهد حُكَّامه العدول من سلفه وقضاتها. وله الأدب الذي تحلت بقلائده اللبات والثُحور، وقصرت عن جواهره البُحور. وسيمر من ذلك في تضاعيف هذا المجموع ما يشهد بسعة دُرعه، ويخبر بكرم عُصره، وطيب نبعه.

مشيخته: قرأ^(١) على جدّه لأمه الأستاذ الإمام^(٢) أبي بكر بن عُبَيْدة الإشبيلي، وسمع على الرئيس أبي حاتم، وعلى أخيه أبي عبد الله الحسين، وعلى الأستاذ أبي إسحق الخافقي، وعلى الشريف أبي علي بن أبي الشرف، وعلى الإمام أبي عبد الله بن خريث. وسمع على العدل أبي فارس عبد العزيز الجزيري. وسمع بحضرة غرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وعلى العدل أبي الحسن بن مستقور، وعلى الوزير أبي محمد بن المؤذن، وعلى الخطيب أبي عبد الله بن رُشيد. وبمألقة على الخطيب ولي الله تعالى، أبي عبد الله الطنجالي، وعلى الوزير الصدر أبي عبد الله بن ربيع، وعلى القاضي العدل أبي عبد الله بن بُرطال. وببجاية على الإمام أبي علي ناصر الدين المشدالي، وعلى أبي العباس العبّريني. وبتونس على أبي علي بن علوان، وعلى قاضي الجماعة أبي إسحق^(٣) بن عبد الرّبيع، وسمع على الخطيب الصّوفي وليّ الله تعالى، أبي جعفر الزيات، والصّوفي أبي عبد الله بن بُرطال، وعلى الصدر أبي القاسم محمد بن قائد الكلاعي. وأجازه عالم كثير من أهل المشرق والمغرب.

شعره: وشعره متعدّد الأسفار، كثير الأغراض. وفي الإكثار مُجَلَّل الاختيار، فمنه قوله^(٤): [الطويل]

أَخَذْتُ بِكَظْمِ الرُّوحِ يَا^(٥) سَاعَةَ النُّوَى وَأَضْرَمْتُ فِي طَيِّ الْحِشَا لَاعِجَ الْجَوَى
فَمَنْ مُخْبِرِي يَا لَيْتَ شِعْرِي مَتَى اللَّقَا وَهَلْ تَحَسَّنَ الدُّنْيَا وَهَلْ يَرْجِعُ الْهُوَى؟
سَلَا كُلُّ مُشْتَاقٍ وَأَكْثَرُ^(٦) وَجْدُهُ وَعِنْدَ النَّوَى^(٧) وَجْدِي وَفِي سَاكِنِ الْهُوَى
وَلِي نَيْتٌ مَا عَشْتُ فِي حِفْظِ عَهْدِهِمْ إِلَى يَوْمِ أَلْقَاهُمْ وَلِلْمَرْءِ مَا نَوَى

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠).

(٢) كلمة «الإمام» ساقطة في تاريخ قضاة الأندلس.

(٣) اسمه في المصدر السابق: إبراهيم بن عبد الرّبيع.

(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٠ - ١٧١).

(٥) في الكتيبة الكامنة: «في ساعة».

(٦) في الكتيبة الكامنة: «وأقصر».

(٧) في الكتيبة الكامنة: «اللوى».

وقال: [المنسرح]

بأثوا فمن كان باكيًا يَبْكُ
فمن ظهور الرُّكَّابِ معملة
تصدَّع الشَّمْلُ مثلما انحدرت
كُنْ بالذي حدُّثُوا على ثِقَةٍ
من التَّوَى قَبْلُ لم أزلْ حَذِرًا
هذي رِكَّابُ الشَّرَى بلا شَكْ
إلى بطون الرُّبَى إلى الفَلَكِ
إلى صَبُوبِ جِوَاهِرِ السَّلَكِ
ما في حديثِ الفراقِ من إِفْكِ
هذا التَّوَى جَلٌّ^(١) مالِكُ المُلْكِ

وقال: [السريع]

يا أيها المُعَرِّضُ الالاهي
يا^(٢) ليت شِعْري كم أرى فيك
ويحي مغيري إلى باخلِ واه
من يُرِدِ الله فيه فتنَةً
يا عُصْنُ البانِ ألا عَظْفَةً
أَوْسَعَنِي بعدك دُلا وَقَدْ
ذكرُك لا ينفكُ عن خاطري
يكفيك يا عثمان من جفوني
هيهات لا مُعْتَرِضُ لي على
يسوؤني هَجْرُكَ والله
لا أقفك عن وِثِّهِ وعِزِّهِ^(٣)
مَسْنُ ذَا السَّيْذِي رَأَهُ^(٤)
يُشْغِلُهُ في الدنيا بَتِيَّاهِ
على مُسَعِّئِي جِسْمِهِ واه؟
رَا يُشْنِيَا^(٥) عندك ذا جِاهِ
وانت عني غافِلِ ساهِ
لو كان دُثْبِي ذَنْبُ جِهْجَاهِ
حُكْمُكَ أنتَ الأمرُ التَّاهِي^(٦)

قلت: جهجاء المشار إليه رجل من عُقَّار، قيل: إنه تناول عصا الخُطْبَةِ من يد عثمان، رضي الله عنه، فكسرها على ركبته، فوقع فيها الأكلة فهلك.

وقال: [البسيط]

يا من أعاد صباحي ففقدته حَلْكَا
مصيبتي ليست كالمصائب لا
فمن أطلِّب في شَرِّعِ الهوى بدمي
قَتَلْتُ عبدك لكن لم تَحْفَ دركا
ولا بُكائي عليها مثل كلِّ بُكا
لَحْظِي وَلِحْظُكَ في قَتْلِي قد اشتركا

(١) في الأصل: «جلٌ مني مالك...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «يا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) عجز هذا البيت مضطرب، لم أتمد إلى تقويمه.

(٤) البيت مضطرب في الوزن والمعنى معًا. (٥) في الأصل: «يثنى» وهكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «التاه».

وقال، وقد سبقه إليه الرُصافي؛ وهو ظريف: [المنسرح]

اشكو إلى الله قَرْطَ بَلْبَالِي^(١) ولوَعَةً لا تزال تُذْكَي لي
بمهجتي حائكٌ شَغِلْتُ به حُلُو المعاني طِرازُه عالي
سألته لئنم خالِه فأبى وَمَنْ ذا تُخْشِو وإذلال
وقال حالي يَضُون خالي يُدني فَوُحِي بالحال والخال^(٢)
يُقَرِّبني الآلُ من مواعده وأتقي منه سَطَوَة الآل
لكن على ظُلْمه وقسوته فلستُ عنه الزُمانُ بالسالي
وقال أيضًا مضمناً^(٣): [البسيط]

لي هِمةٌ كلَّما حاولتُ أَمْسِكُها على المَدَلَّةِ في أرجاء^(٤) أرضيها
قالت: أَلَمْ تَكْ^(٥) أرضُ الله واسعةٌ حتى يُهاجِرَ عَبدٌ مؤمِنٌ فيها

وقال مُسترجعاً من ذنبه، ومُستوحشاً من شَيْبِه: [السريع]

قد كان عيبي قبل^(٦) في غَيْبٍ فمذ بدا شَيْبِي بدا عَيْبِي
لا عُذْرَ اليومَ ولا حُجَّةَ فَضَحَّتْني والله يا شَيْبِي
وقال^(٧): [الخفيف]

أثْقَلْتَنِي الذُّنُوبُ ويحيي ووَئِسي لَيْتَنِي كُنتَ زَاهِداً كأُويِس^(٨)

وَجَرَّتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ ثَالِثُ الْأَمْرَاءِ مِنْ بَنِي نَصْر^(٩)، بعد خلعهِ مِنْ مُلْكِهِ،
وإثْبَارِ سِلْكِهِ، واستقراره بقصبة المُنْكَب، غريباً مِنْ قَوْمِهِ، مُعَوِّضاً بِالسَّهَادِ مِنْ نَوْمِهِ،

(١) البَلْبَال: شدة الهمِّ والوساوس. محيط المحيط (بلبل).

(٢) في الأصل: «والحال» بالحاء المهملة.

(٣) البيتان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠) والكتيبة الكامنة (ص ١٧٢).

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «أرجأ أراضيها».

(٥) في الأصل: «نكن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٦) في الأصل: «من قبل في...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) البيت في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٢).

(٨) هو أويِس القرنِي أحد زهاد القرن الأول الهجري. وجاء في الكتيبة الكامنة بعد هذا البيت التالي:

إنما أصل محنتي حبُّ دنيا هي لبلى ولي بها وَجْدُ قَيْسٍ

(٩) هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ إلى سنة ٧٠٨ هـ. اللوحة البدرية (ص ٦٠).

قد فلّ الدهر سباته، وتركه يندب ما فاته، والقاضي المترجم به يومئذ مُدَبَّرُ أحكامها، وعَلِمَ أعلامها، ومتولّي نَقْضها وإبرامها، فارتاح يوماً إلى إيناسه، واجتلاب أدبه والتماسه، وطلب منه أن يعبر عن حاله ببيانه، وينوب في بثّه عن لسانه، فكتب إليه:

[الطويل]

قفا نَفَسًا فالخَطْبُ فيها يهون	ولا تَعْجَلَا إِنَّ الحديث شجونٌ
عَلِمْنَا الذي قد كان من صَرَفِ دهرنا	ولسنا على علم بما سيكون
ذكرنا نعيمًا قد تَقْضَى نعيمه	فأقلَقْنَا شوقاً له وحسين
وبالأمس كُنَّا كيف شِئْنَا وللدُّنا	جِراك على أحكامنا وسكون
وإذا بآبِنَا مَثْوَى الفؤاد ونحونا	ثُمَّدُ رِقَابٍ أو تُشِيرُ عيونُ
فَنَعَصَصَ من ذاك السرور مَهْنًا	وَكَدَرُ من ذاك التَّعِيمِ مَعِينُ
ونبا عن الأوطان بين ضرورة	وقد يَفْزُبُ الإنسان ثم يبين
أيا معهد الإسعاد حُيِّيتَ معهدًا	وجادَكَ من سَكَبِ الغمام هَتُونُ
تريد الليالي أن تُهين مكائنا	رُويدَكَ إِنَّ الخير ليس يَهُونُ
فإن تكن الأيام قد لَمِبَتْ بنا	ودارت علينا لِلخُطوبِ فنون
فمن عادة الأيام ذلُّ كرامها	ولكنَّ سَبِيلَ الصَّابرين مُبين
لئن خاننا الدهر الذي كان عَبدنا	فلا عجب إنَّ العَبِيدَ تخون
وما غَضُّ منّا مَخْبِرِي غير أنه	تضاعف إيمانٌ وزاد يقين

وكتب إلى الحكم بن مسعود، وهو شاهد المواريث بهذه الدُّعابة التي تستخفُّ الوقور، وتُليج السَّمع الموقور:

أطال الله بقاء أخي وسيدي، لأهل الفرائض يُحسِن الاحتياال في مُداراتهم، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في أمواتهم، ودامت أقلامه مُشرعة لَصْرَمِ الأجل المُتَسَاء، مُعدّة لتحليل هذا الصَّنْفِ المُنشأ من الصُّلصال والحما. فمن مَيِّت يُغسل وآخر يُقبر، ومن أَجَلٍ يُطوى وَكَفَّنٍ يُنشر، ومن رَمَسٍ يُفْتَح وباب يُغلق، ومن عاصِبٍ يُخَبَس وتُغشَّ يَطلق، فكلما خَرُبَت ساحة، نشأت في الحانوت راحة، وكلما قامت في شَغَبٍ مناحة، اتسعت للرزق مساحة، فياكر سيدي الحانوت وقد اختسى مَرَقته، وسَهْلَ عَتَقَفَتَه، فيرى الصُّعْبَةَ بالمناصب شَطْرًا، فيلحظ هذا برفق وينظر إلى هذا شَزْرًا، ويأمر بشقّ الجيوب تارة والبحث عن الأوساط أخرى. ثم يأخذ القَلَمَ أخذًا رقيقًا، ويقول وقد خامرَه السرور: رَجِمَ الله فلانًا لقد كان لنا صديقًا، وربما أذْبَرَه بالانزعاج الخثيث، وقال مستريحٌ منه كما جاء في الحديث. وتختلف عند ذلك

المراتب، وتُتَبَّين الأصدقاء والأجانب، فيَنصَرَف هذا، وحظَّه التهريب، والنظر الحديد، وينفَصِل هذا وبين يديه المُنذِر الصُّبَيْت والنَّعش الجديد. ثم يَغْشَى دار المِيت ويسألُ عن الكَيْت والكَيْت، ويقول: عليّ بما في البَيْت. أين دعاء الثَّاغِيَةِ والرَّاغِيَةِ؟ أين عَقُود الأملاد بالبادية؟ وقد كانت لهذا الرجل حالاً في حال. وقد ذُكِر في الأسماء الخمسة فقيل: ذو مال. وعيون الأعوام تَزْنُو من عَلٍ، وأعناقهم تُشْرَبُ إلى خلف الكِلَل، وأزْجُلهم تدبُّ إلى الأسفاط ذَبِيب الصُّقُور إلى الحَجَل. والموتى قد وجبت منهم الجنوب، وحضر المَوروث والمَكْسُوب، وقُيِّد المَطْعُوم والمشروب. وعُدَّت الصِّحاح، ووُزِنَت الأَظْطال وكيلت الأقداح. والشُّهُود يُغْلَظُون على الورثة في الآليّة، ويصونهم بالبتات في النشأة الأولى. والروائح حين تُفعم الأرض طيباً، وتُهدي الأرواح شدّاً يفعل في إزعاجها على الأبدان فعلاً عجيباً. والدُّلَالُ يقول: هذا مفتاح الباب، والسُّمَسار يصيح: قام النَّدَا فما تنتظرون بالثبات؟ والشَّاهد يصيح فَتَغْلُو صيحته، والمُشْرِف يَشْرَب فتسقط سِنِحَتُهُ. والمحتضر يهسُّ ألا حيّ فلا تسمعون، ويباهي لون العباء عليه الجواب رب أزعجون. ما هذا التَّشْيِيع والتَّضْجِيع؟ مُتٌ كلا لم أُمِت. ومَنْ حَجَّ له الحَجِيج، فترتفع له الأصوات، كي لا يُفْسَح فيه الممات. ويُبَقِّر بَطْنُهُ بِرَغْمِهِ، ويَحْفَرُ له بجانب أبيه وبهذا أمّه. ثم يشرع في نفسه الفَرَض، ولو أَكْفُثَت السموات على الأرض. ويقال لأهل السَّهَام: أَحْسِنُوا، فالإحسان ثالث مراتب الإسلام، وقد نصَّ ابن القاسم على أَجْرَةِ القَسَام. وسوَّغَهُ أَضْبَغُ وسُحْنُون، ولم يختلف فيه مطَّرف وابن المَاجِشُون. إن قِيلَ إيصال الحقائق إلى أزجائها، حَسَنَ فجزاء الإحسان إحسان، وقيل إخراج التَّسَبُّب والكسور كِفَايَةٍ، فللكاهنين حُلُوان. اللهم عَفِّراً، ونَسْتَقِيلُ الله من انبساط يَجْرُ عُدْرًا، ونسألُ الله حَمْدًا يوجب المزيد من نِعَمائه وشُكْرًا. ولولا أن أغفل عن الخَضَم، وأثقل رَحْلَ الفقيه أبي النجم، لَأَسْتَفْلَنَ المجلس شَرْحًا، ولكان لنا في بَحرِ المُبَاسِطَةِ سَبْح، ولأَقْضَيْنَا في ذكر الوارث والوَرَاث، وبيئنا العِلَّةَ في أقسام الشهود مع المُشْتَغَلِ بنسبة الذكور مع الأنثى. والله يَصِلُ عَزُّ أَخِي ومجده، ويَهَبُ له قوة تخضُّهُ بالفائدة وجَدُهُ، وَيَزِيدُهُ بصيرة يتَّبِعُ بها الحقوق إلى أقصاها، وبَصَرًا لا يُغَادِر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ودام يُحْصِي الخَرَارِيب والقُلُوس والأطمار، ويملأ الطُّوامر بأقلامه البديعة الصُّنْعَةِ، ويصل الطُّومار بالطُّومار والسلام.

والشيء بالشيء يذكر، قلت: ومن أظرف ما وقعتُ عليه في هذا المعنى، قال بعض كتاب الدولة الحَكْمِيَّة^(١) بمنورقة، وقد ولَّاه حُطَّة المواريث، وكتب إليه راغبًا

(١) هي دولة أبي عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم القرشي الذي ضبط منورقة وأقام عليها.

في الإغفاء: [الطويل]

وما نلت من شغل الموارث رُقعة سوى شرح نغش كلما مات ميث
وأكثب للأموات صكاً كأنهم يخاف عليهم في الجباب التفلت
كأنى لعزرائيل صرث مناقضاً بما هو يفتحو كل يوم وأثبت
وقال: فاستظرفها الرئيس أبو عثمان بن حكيم وأغفاه.

مولده: في أواخر أربعة وسبعين وستمائة.

وفاته: قال في العائد: ومضى لسبيله، شهاباً من شهب هذا الأفق، وبقية من بقايا حلبة السبق، رحمه الله، في ليلة السبت الثاني من شهر شعبان المكرم عام سبعة وأربعين وسبعمائة، وتخلّف وقرّاً لم يشتمل على شيء من الكُتُب، لإيثاره اقتناء الثّقدين، وعيّن جراية لمن يتلو كتاب الله على قبره على حدّ من الثّغرة والمحافظة على الإتقان. ودفن بباب البيرة في دار اتخذها لذلك.

محمد بن أحمد بن قُطبة الدّوسي^(١)

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله: مجموع خلال بارعة، وأوصاف كاملة، حسن الخطّ، ذاكرٌ للتاريخ والأخبار، مُستَوِّل على خصال حميدة من حُسن رواء وسلامة صدر، إلى نزاهة الهمة، وإرسال السّجّية، والبُعد عن المصانعة، والتحليّ بالوقار والجشمة، شاعر، كاتب. ومناقبه يقصّر عنها الكثير من أبناء جنسه، كالفروسية، والتجند، والبسالة، والرّماية، والسّباحة، والشطرنج، متحمّد بحمل القنا، مع البراعة، مديم على المروءة، مُواسٍ للمحاوريج من معارفه. ارتسم في الديوان فظهر غناؤه، وانتقل إلى الكتابة، معزّزة بالخطّ الطّبيهة العلميّة، وحاله الموصوفة متّصلة إلى هذا العهد، وهو معدود من حَسَنات قطره.

= أحسن قيام، وهادن الأعداء، وطالت مدته في ذلك، وحنت سيرته إلى أن مات سنة ٦٨٠ هـ. ترجمته في بغية الوعاة (ص ٢٥٥) واختصار القدح المعلى (ص ٢٨) والمنرب (ج ٢ ص ٤٦٩) والحلة السّيراء (ج ٢ ص ٣١٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٧٤) والذيل والتكملة (ج ٤ ص ٢٨) والروض المعطار (ص ٥٤٩، مادة: منورة).

(١) ترجم ابن الخطيب في الكتبية الكامنة (ص ٢٨٩) لرجل قد يكون هو نفسه المترجم له، تحت عنوان: «الكاتب أبو القاسم محمد بن أبي بكر بن محمد بن أحمد بن قُطبة الهرميسي» وقال إن ابن قُطبة كتب له قصيدتين، الأولى لامية ساكنة والثانية يائية، وهذا ما ينطبق على المترجم له هنا في الإحاطة.

وثبت في «التاج المحلي» بما نصّه: «سابقُ رُكُض المُخْلِى، أتى من أدواته بالمعائب، وأصبح صدرًا في الكتاب وشهْمًا في الكتائب. وكان أبوه، رحمه الله، بهذه البلدة، قُطِبَ أفلاكها، وواسطَة أسلاكها، ومؤتمن رؤسائها وأملاكها، وصدّر رجالها، وولّي أرباب مجالها، فقد نثّل ابنه سهامها، فخبّر عدالة وبراعة وفهمًا، وألقاه بينهم قاضيًا شهْمًا، فظهر منه نجيبًا، ودعاه إلى الجهاد سميْعًا مجيبًا، فصحب السرايا العربيّة المغيرة، وحضر على هذا العهد من الوقائع الصغيرة والكبيرة، وعلى مُصاحبة البعوث، وجُوب السُّهول والوعوث، فما رفض اليراعة للباتر^(١)، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر.

شعره: وله أدب بارع المقاصد، قاعدٌ للإجادة بالمراصد. وقال من الرُوضيات وما في معناها: [الطويل]

دعيني ومَطْلُول الرِّياض فلأنني
أعلّل هذا بخُضرة شارب
وأزهرُ غُصْن البان رائدُ نسمة
وقال: [الطويل]

وليل أدرناها سُلّا قًا كأنها
غُنيّا عن المصباح في جُئح ليلها
وقال: [الرملي]

يومنا يوم سرور فلتَقُمْ
إنما الدُّنيا منامٌ فلتكن
وقال: [الطويل]

وبي منك ما لو كان للشرب ما صحا
أحبك ما هبّت من الروض نُسمة
فإن شئت أن تهجر وإن شئت فلتُقْبِل
وقال: [الكامل]

كم قلتُ للبدر المنير إذا بدا
هيهات وجهُ فلانة تحكي لنا

(١) في الأصل: «الباتر». والباتر: السيف القاطع. لسان العرب (بتر).

(٢) في الأصل: «تأزّا».

فأجابني بلسان حال واعتنى
وصرفت وجهي نحو غُصْن أُمْلَدَ
فضحكت هُزْءاً عند هُزْ قوامها
وكتبت إليه في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

جوانحُنَا نحو اللقاء جوانحُ
وتمضي الليالي والتزاورُ مُغَوِّزُ
فديتك عَجَلُهَا لعيني زيارة
وإنْ لقائي جَلَّ عن ضرب موعد
ومقدارُ ما بين الدِّيار قريبُ
على الرغم منَّا إنَّ^(١) ذا لغريبُ
ولو مثل ما ردَّ اللَّحاظ مريب
لأكرمَ ما يُهدى الأريب أريب
فراجعني بقوله، والتجني شيمَةً: [الطويل]

لعمرك ما يومي إذا كنت حاضراً
أزور فلا ألفي لديك بشاشةُ
فلا ذنب للأيام في البعد بيننا
وإنْ لقاء جاء من غير موعد
سوى يوم صبَّ من عداه يغيبُ
فيبعد مني الخطو وهو قريبُ
فإني لداعي القُرب منك مجيبُ
ليحسنَ لكن مرَّةً وَيَطِيبُ
وإحسانه كثير، وفيما ثبت كفاية لئلا نخرج عن غرض الاختصار.

محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي^(٢)

يكنى محمد أبا بكر، أخو الذي قبله.

حاله: تَلَوُّهُ في الفضل والسُرَاوة، وَحُسْنُ الصورة، ونصاعة الطَّرَف، مُزِبٌ عليه بمزيد من البشاشة والتَّنَزُّل، وبَذَلُ التَّوَدُّد، والتبريز في ميدان الانقطاع، متأخر عنه في بعض خلال غير هذا. ذكيُّ الذهن، مليح الكتابة، سهلها، جيّد العبارة، متأني اليراع، مطلق اليد، حسن الخطّ، سريع بديهة المنثور، معتمٌ، مخول في التخصّص والعدالة. كتب الشروط بين يدي أبيه، ونسخ كثيراً من أمّهات الفقه، واستظهر كتباً، من ذلك «المقامات الحريية». وكتب بالدار السلطانية، واختصّ بالمراجعة عمّن بها، والمفاتحة أيام حركات السلطان عنها إلى غيرها. حميد السيرة، حسن الوساطة، نجديّ الجاه،

(١) في الأصل: «وإنَّ» وهكذا يتكرر الوزن.

(٢) ترجمة أبي بكر محمد بن محمد ابن قطبة الدوسي في نشر فرائد الجمان (ص ٣١٨) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٦٧).

مشكور التصرف، خفيف الوطأة. وولّي الخطابة العلّية، مع الاستمساك بالكتابة. ولم يُؤثر عنه الشعر^(١)، ولا عَزَل عليه.

محمد بن محمد بن محمد بن قطبة الدّوسي

يكنى أبا بكر، وقد ذكرنا أباه وعمه، ويأتي ذكر جدّه.

حاله: نبيل المقاصد في الفن الأدبي، مشغول به، مفتوح من الله عليه فيه، شاعر مطبوع، مُكثر، انقاد له مَرَكِب النظم، في سنّ المراهقة، واشتهر بالإجادة، وأنشد السلطان، وأخذ الصّلة، وارتسم لهذا العهد في الكتابة. وشرع في تأليف يشتمل على أدباء عصره.

شعره: ومما خاطب به أحد أصحابه: [الطويل]

إذا شمتُ من نحو الحمى في الدجا بَرَقَا	أبى الدُّمُعُ إلّا أن يسيل ولا يَزْقَى
ومهما تذكّرتُ الزمان الذي مضى	تقطّعت الأخشاء من حرٍّ ما ألقى
خليلي، لا تجزع لمخل فادمعي	تبادر سَقِيًّا في الهوى لمن استسقى
وما ضرُّ من أصبختُ ملك يمينه	إذا رَقَّ لي يومًا وقد حازني رِقَا
فنيئتُ به عشقًا وإن قال حاسدٌ	أضلّ الورى من مات في هاجر شقّا
تلهب قلبي من تلهب خدّه	فيا نعم ذاك الخدّ فاض بأن أشقى

ومنها:

وكم من صديق كنت أحسب أنه إذا كذبت أوهامنا رفع الصّدقا

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدّوسي^(٢)

ابن عمّ المذكورين قبله، يكنى أبا القاسم.

حاله: حسن^(٣) الصورة، لازم القراءة على شيوخ بلده، ونظم الشعر على الحداثة، وترشح للكتّيب بالدار السلطانية مع الجماعة، ممن هو في نظمه.

(١) قال عنه ابن الأحمر إنّ الشعر فتح له بابه وهو صغير، وأتى منه بما ملا الأقطار بالكثرة، وأورد له بعض في «نثر فرائد الجمان» (ص ٣١٩ - ٣٢٠).

(٢) ترجمة أبي القاسم محمد بن محمد ابن قطبة الدوسي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٢).

(٣) يبدو أن نظرة ابن الخطيب لأبي القاسم تغيرت عند تأليف الكتيبة الكامنة، فهو هناك يذمه وينعته بأفبح النعوت، على خلاف ما ورد هنا.

ومن شعره، كتب إلي بما نصه: [الكامل]

أخسب وخذة يوم رأسك ربما تُعطي السَّلامة في الصراع سلما

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قطبة الدوسي

أخو الفقيه أبي بكر بن القاسم بن محمد المذكور.

حاله: شاب حسن فاضل، دميث، متخلق، جميل الصورة، حسن الشكل، أحمر الوجنتين. حفظ كتباً من المبادئ النحوية، وكتب خطاً حسناً، وارتسم في ديوان الجند مثل والده، وهو الآن بحاله الموصوفة.

شعره: قيد أخوه لي من الشعر الذي زعم أنه من نظمه، قوله: [المقارب]

حلفت بمن ذاد عني الكرى وأسهر جفني ليلاً طويلاً
وألبس جسمي ثياب الثحول وعذب بالهجر قلبي العليلاً
ما خللت عن وده ساعة ولا اغتضت منه سواه بديلاً

محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي^(١)

من أهل غرناطة وأعيانها، يكنى أبا عبد الله.

أوليته: تُنظر في اسم أبيه في ترجمة المقرئين والعلماء.

حاله: من أعلام الشهرة على الفتاوة، وانتشار الذكر على الحداثة، تبرزاً في الأدب، واضطلاعاً بمعاناة الشعر، وإتقان الخط، وإيضاحاً للأحاجي والمُلغزات. نشأ بغرناطة في كنف والده، رحمه الله، مقصور التدريب عليه، مشاراً إليه في ثُقوب الذهن، وسعة الحفظ، ينطوي على ثبل لا يظهر أثره على التفاتة، وإدراك، تُغطي شغلته مخيلة غير صادقة، من تغافله. ثم جاش طبعه، وفتح حوضه، وتفجرت ينابيعه، وتوقد إحسانه.

ولما فقد والده، رحمه الله، ارتسم في الكتابة، فبدأ جلة الشعراء، إكثاراً واقتداراً، ووفور مادة، مجيداً في الأمداح، عجيباً في الأوصاف، صديقاً في التسيب، مطبوعاً في المقطوعات، معتدلاً في الكتابة، نشيط البنان، جليداً على العمل، سيال

(١) ترجمة محمد بن جزي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣) ونثر فرائد الجمان (ص ٢٩٢) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٩) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٧٠).

المجاز، جَمُوحِ عِنانِ الدُّعابة، غَزَلًا، مُؤَثِّرًا للفكاهة. انتقل إلى المغرب لَشُفُوفِ خَصْلِهِ، على ما قد قُسمَ الحظوظ. سبحانه من رَزَقَه بهذه البلاد، فاستقرَّ ببابِ مَلِكِهِ، مَرَّيَ الجَناح، أثيرَ الرتبة، مطلقَ الجِراية، مقررَ السَّهام، مُغتَبًا وطنه، راضيًا عن جِيرته، دَيَّدَن من يستند إلى قديم، ويتحيزُ إلى أصالة.

تواليفه: أخبرني عند لقائه إياي بمدينة فاس في غرض الرسالة؛ عام خمسة^(١) وخمسين وسبعمائة، أنه شرع في تأليف تاريخ غرناطة، ذاهبًا هذا المذهب الذي اتَّذَبُّتُ إليه، ووقفت على أجزاء منه تشهد باضطراله، وقيد بخطه من الأجزاء الحديثة والفوائد والأشعار ما يفوت الوصف، ويفوق الحد. وجرى ذكره في «التاج» بما نصه^(٢):

«شمسٌ في سماءٍ^(٣) البلاغة بازغة، وحبَّةٌ على بقاءِ الفِطْرة الغريزية^(٤) في هذه البلاد المغربية بالغة، وفريدةٌ وقت أصاب من فيها نادرة أو نابغة، من جدِّع^(٥) بن علي القادح، وجَرَى^(٦) من المعرفة كل بارح، لو تعلَّقت الغوامض بالثرثرا لنالها، وقال أنا لها. وربما غَلَبَتِ الغُفْلَةُ على ظاهره، وتنطَبَّق^(٧) أكمامُها على أزاهره، حتى إذا قدح في الأدب زنده، تقدَّم المواكب بَنَدَه، إلى خطِّ بارع، يعنو طَوال الطويل منه إلى سرِّ وبراعة، كما ترضى المسك والكافور عن طَرَسٍ وحبر.

شعره: فمن غرامياته وما في معناها قوله^(٨): [الطويل]

متى يتلاقى شائقٌ ومَشْشُوقٌ	ويُصْبِحُ عاني ^(٩) الحُبِّ وهو طليقٌ
أما أنها أمنيَّة عَزَّ نيلُها	ومَرَمَى لعمري في الرُّجاءِ ^(١٠) سحيق
ولكنني ^(١١) خدعتُ ^(١٢) قلبي تَعِلَّةٌ	أخافُ أنصدَّاعَ القلبِ فهو رقيق
وقد يُزَرِّقُ الإنسانُ من بعد يأسه	وروضُ الرُّبى بعد الذبولِ يروق

(١) في الأصل: «خمس» وهو خطأ نحوي. (٢) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٣) كلمة «سماء» ساقطة في الأصل، وقد أضفتها من الكتيبة الكامنة.

(٤) في الكتيبة: «العربية هي بالمغربية بالغة». (٥) في الكتيبة: «من جدِّع أثيرٌ على القارح».

(٦) في الكتيبة: «ورَجَر... كل سانح، لا بارح».

(٧) في الأصل: «وتنطق» ولا معنى له. وفي الكتيبة الكامنة: «وانطبق كمامه».

(٨) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٥ - ٢٢٦).

(٩) في الأصل: «عير» وقد اخترنا هذه الكلمة من الكتيبة؛ لأنها أكثر ملاءمة للمعنى.

(١٠) في الأصل: «الرجاء» وهكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «ولكنني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(١٢) في الكتيبة: «خدعت».

تباعدت لما زادني القرب لوعة
ورمت شفاء الداء بالداء مثله
وتالله ما للصب في الحب راحة
ويا^(٢) رب قد ضاقت عليّ مسالكي^(٣)
ولا سلوة ترجى ولا صبر^(٤) ممكن
ولا الحب عن تعذيب قلبي ينثني
شجون يضيق الصدر عن زفراتها
نشرت عقود الدمع ثم نظمها
بكيث أسى حتى بكى حاسدي معي
ولو أن عند الناس بعض محبتي
أيا عين كفي الدمع ما بقي الكرى
ويا نائما^(٥) عن ناظري أما ترى^(٦)
رويدك رفقا بالفؤاد فإنه
نقضت عهدى ظالما بعد عقدها
كتمت حبي^(٧) يعلم الله مدة
فما زلت بي حتى قضحت^(٨) فإن أكن
وقال^(٩): [الكامل]

ومورّد الوجنات معسول اللمى فتاك لحظ^(١٠) العين في عشاقه

- (١) في الكتيبة: «إني».
(٢) في الكتيبة: «إني».
(٣) في الكتيبة: «مذهبي».
(٤) في الكتيبة: «ولا الصبر».
(٥) في الكتيبة: «كأن عدوي صار وهو...».
(٦) في الأصل: «يلقى» والتصويب من الكتيبة.
(٧) في الكتيبة: «اليوم».
(٨) المصدر نفسه: «يرى».
(٩) المصدر نفسه: «حبا».
(١٠) المصدر نفسه: «صبر».
(١١) في الأصل: «بعد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٢) القصيدة في الكتيبة: «ص ٢٢٤».
(١٣) في الأصل: «فتاك بلحظ»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

- (١) في الكتيبة: «إني».
(٢) في الكتيبة: «إني».
(٣) في الكتيبة: «مذهبي».
(٤) في الكتيبة: «ولا الصبر».
(٥) في الكتيبة: «كأن عدوي صار وهو...».
(٦) في الأصل: «يلقى» والتصويب من الكتيبة.
(٧) في الكتيبة: «اليوم».
(٨) المصدر نفسه: «يرى».
(٩) المصدر نفسه: «حبا».
(١٠) المصدر نفسه: «صبر».
(١١) في الأصل: «بعد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.
(١٢) القصيدة في الكتيبة: «ص ٢٢٤».
(١٣) في الأصل: «فتاك بلحظ»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

الخمرُ بين لثاته والزهرُ في
 ميثا^(١) غُصنِ البان في أثوابه
 من للهلل^(٢) بغيره أو خذه^(٣)
 ولقد تشبَّهتِ الطِّباءُ^(٤) بشبهه
 نادمتُه وبنّا مُحيا الشمس قد
 في روضة ضحكث تُغورُ أقاجها
 أسقيه كأسَ سِلافةٍ كالْمِنْك في
 صفراء لم يُديرِ الفتى أكواسها
 ولقد تَلينَ الصُّخر^(٥) من سَطَواته
 وأظْلُ أرشف من سِلافة^(٦) ثغره
 ولربما عَطَفَتْهُ عِنْدِي^(٧) نَشْوَةٌ
 أرجو نِداه^(٨) إذا تبسّم ضاحكا
 أشكو القساوة من هواي^(٩) وَقَلْبِهِ
 يا هل لعَهْدٍ قد مضى من عودة
 يا ليت^(١٠) لو كانت لذلك حيلة
 فلقد يروقُ الغُصنُ بعد دُبوله
 وَجَناته والسُّخْرُ في أحداقِه
 ويلوحُ بَدْرُ التَّمِّ في أطواقه
 هَبْ أَنه يحكيه في إشراقه
 من خَلْقِهِ وَعَجْزُنْ عن أخلاقه
 ألقى على الآفاق فَضْلَ رواقه
 وأسأل^(١١) فيها المَزْنَ من آماقه
 تُفَحِّاتِه والشَّهيدِ عند مَذاقه
 إلّا تَداعى هُمُّهُ لفراقِه
 فيعودُ للمعهود من إشفاقه
 خمرًا تُداوي القلبَ من إحراقه
 تشفي^(١٢) الخبالَ بضمِّه وعناقه
 وأخافُ منه العُشْبُ في إطراقه
 والضُّغفَ من جَلْدِي ومن ميثاقه
 أم لا سبيلَ بحالٍ لِلحاقه
 أو كان يُعطى المرءُ باستحقاقه
 وَيَتِمُّ^(١٣) بَدْرُ التَّمِّ بَعْدَ مُحاقه

(١) في الأصل: «ينادي غصن...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٢) في الأصل: «للهلك» والتصويب من الكتيبة.

(٣) في الكتيبة: «بخذه أو ثغره».

(٤) في الأصل: «الطِّباء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٥) في الأصل: «وأمال»، وقد اخترنا هذه الكلمة من الكتيبة لأنها أكثر ملاءمة للمعنى.

(٦) في الكتيبة: «النصم».

(٧) في الكتيبة: «نحوي».

(٨) في الأصل: «فشفى الخبال» والتصويب من الكتيبة.

(٩) في الكتيبة: «رِضاء».

(١٠) في الكتيبة: «هواه».

(١١) في الأصل: «يا ليت شعري لو...» وهكذا ينكسر الوزن، ولذلك حذفنا كلمة «شعري» ليستقيم

الوزن، كما في الكتيبة الكامنة.

(١٢) في الكتيبة: «ويروق».

(١٣) في الكتيبة: «ويروق».

ومما اشتهر عنه في هذا الغرض^(١): [الكامل]

دَقَبْتُ حَشَايَ قَلْبِي المصدوع^(٢) ما أنصف الأحباب يوم وداعهم
أَنْجَذَ بَقِيَّتَكَ^(٣) يا غمام فإني من كان يبكي الظاعنين بأدمع
إيه وبين الصُّدْر مني والحشا هات الحديث عن^(٤) الذين تحمّلوا
عندي شجون في التي جَنَّتِ الثوى^(٥) من وُضِيَّ الموقوف أو من سُهِدِي^(٦) الـ
ليت الذي بيني وبين صَبَابَتِي يا قلب^(٧) لا تجزع لما فعل الثوى^(٨)
أَفْبَغْدَ^(٩) ما غُوِذَتْ في أشراكه ومهفهف مهما هبت ريح الصبا
جمع المحاسن وهو منفرد بها والشمس لولا إذنه ما أَدْنَتْ

بين السَّلام ووقفه التوديع صَبًا^(١٠) يحدث نفسه برجوع
لم أرض يوم البَيْن فعل^(١١) دموع فأنا الذي أبكيهم بنجيع
شَجَن طَوَيْت على شجاء ضلوعي^(١٢) واقدخ^(١٣) بزُند الذُكر نار ولوعي
أشكو العُدَّة^(١٤) وهن في توديع^(١٥) موصول أو من ثومِي المقطوع^(١٦)
بعد^(١٧) الذي بيني وبين هُجوعي فالحرُّ ليس لحادثٍ بِجَزُوعٍ
تُبْغِي التُّزُوع؟ ولات حين تُزوع أبْدث له عِظْفاه عطف مُطيع
فاغْجِبْ لِحُسْنِ مُفْرِدٍ مجموع خجلًا وإجلالًا له بطلوع^(١٨)

(١) القصيدة في نثر فرائد الجمان (ص ٢٩٦ - ٢٩٨)، وبعضها في نفع الطيب (ج ٨ ص ٧٧ - ٧٨) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٩٧).

(٢) في الأصل: «المصدوع» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من نثر فرائد الجمان.

(٣) في النثر: «صَبًا». (٤) في النثر: «بدمعك».

(٥) في الأصل: «قل» والتصويب من نثر فرائد الجمان.

(٦) في الأصل: «ضلوعي» والتصويب من النثر. (٧) في النثر: «على».

(٨) في النثر: «تقدخ».

(٩) في النثر وأزهار الرياض: «من أي أشجاني التي جَنَّتِ الهوى». وفي النفع: «من أي أشجاني التي جَنَّتِ الثوى».

(١٠) في النفع وأزهار الرياض: «العذاب». (١١) في المصادر الثلاثة: «تنوع».

(١٢) في المصادر الثلاثة: «هَجْرِي».

(١٣) في هذا البيت والبيتين التاليين مصطلحات الحديث وهي: الموقوف، والموصول، والمقطوع، والصحيح، والموضوع، والمسند.

(١٤) في النثر: «مثل». (١٥) في النثر: «يا قلبي».

(١٦) في النثر: «الهوى».

(١٧) في الأصل: «أَبْغَدَ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من نثر فرائد الجمان.

(١٨) في الأصل: «مطلوع»، والتصويب من النثر.

ما زلتُ أسقي خدّه من أدمعي
 إن كان يرئو عن نواظر شادنٍ
 عجبا لذاك الشعر زاد بفزقه
 منع الكرى ظلما وقد منع الضنا
 جرؤت ثوب العز عني طائعا
 لم أنتفع^(١) لئسا من الملبوس في
 بجماله استشفقت في إجماله
 يا خادعي عن سلوتي وتصبري^(٢)
 أوسعتني بعد^(٣) الوصال تفرقا
 أسرغت فيما ترضي فجزيتني^(٤)
 أشرغت رُمحا من قوامك ذابلا^(٥)
 خذ من حديث تولعي وتولهي
 يزويه خدي مُسندا عن أدمعي
 كم من ليالٍ في هواك قطعنها
 لا والذي طبع الكرام على الهوى
 ما غيرتني الحادثات ولم أكن
 لا خير في الدنيا وساكنها^(٦) معا

حتى تفتح عن رياض ربيع
 فلرب ضرغام بهن صريع
 حننا كحسن الشعر بالتصريع
 فشقت^(٧) بالممنوح والممنوع
 أترأه يعطفه علي خضوعي؟
 حبي ولا يبعداري المخلوع
 لسيحور أجزر مُتعم وشفيح
 لولا الهوى ما كنت بالمخدوع
 وأثبتني سوءا لحسن صنيعي
 بطويل مُجران إلي مريع^(٨)
 فمنعت من^(٩) ماء الرضاب شروعي
 خبرا صحيحا ليس بالمصنوع^(١٠)
 عن مُقلتي عن قلبي المصدوع^(١١)
 وأنا^(١٢) لذكراهن في تفتيح
 ويعز سلوان^(١٣) الهوى المطبوع
 بمُذيع سر للعهود مُضيع
 إن كان قلبي منك غير جميع

وقال في غير ذلك في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

وقالوا عداك البخت والحزم عندما غدوت غريب الدار منزلك الفنت

- (١) في النثر: «فشقت».
- (٢) في النثر: «لم أفتنع بسقامي الملبوس في...».
- (٣) في النثر: «ويا خادعي... ومصبري».
- (٤) في النثر: «بعدا بفضل تقربي وجزيتني سوءا...».
- (٥) في النثر: «فأثبتني».
- (٦) في النثر: «صريع».
- (٧) في الأصل: «دايلا» والتصويب من النثر. (٨) في النثر: «في».
- (٩) في النثر: «... تولعي وصبايتي... ليس بالموضوع». وفي النفع: «أو من حديث تولعي وتولعي... ليس بالموضوع».
- (١٠) في النفع: «المفجوع».
- (١١) في النثر: «قلبي».
- (١٢) في الأصل: «وبر سوا أن»، والتصويب من نثر فرائد الجمان.
- (١٣) في النثر: «الدنيا وفي لذاتها إن كان جمعي منك...».

وأن ارتحالي عن دارهم هو البُحْث؟
 تهادي السفنِ المواخرِ والبُحْثُ
 بها العيشةُ التُكراء والمكسبُ السُخْثُ
 ويجفوه بين السُمت من سنّة ستُ
 أذى ويرى فيه إذا يَبِثُ
 يقولون بغدادُ لغرناطة أختُ
 مقالهم زورٌ ووُدْهم مَفْتُ
 هي السُّمُّ بالآل المشود لها لُثُ
 إليّ بإخلاص المودة قد مَثُوا
 مقالهم صدقٌ ووُدْهم بَخْتُ
 تُعام وعن ما ليس يعيْتهم صَنْتُ
 ولا علموا أن الكُروم لها بَنْتُ
 إذا ما أتاه منهما النبا البَغْتُ
 فلم يتشوّف للذي ضَمّه التُّخْتُ
 معينٌ على ما يثقي جأشه الثُّتُ^(١)
 جليسي نهارًا أو ضجيعي إذا بَثُ
 كَمِيتٌ وخيرُ الخيل قذاحها الكَمْتُ
 ولا عَوَج في الخلق منه ولا أَمْتُ
 عليها الكُميت الهند والصّارم الصُلْتُ
 فبالعُدر والتّخفيف عندي له نَعْتُ
 فأصبح حَبلي منهم وهو مُنْبِتُ
 على نفسه كيلا يزايلها السُّمْتُ
 له الصُّدر من ناديهم وله الدُّسْتُ
 هو المُعْجَم السُّكيت والعمة السُّخْتُ
 على عزمهم حتى صفا لهم الوقت
 وكنت متى أعزم فقلبي هو البَثُ
 فماذا الذي يبغونه لهم الكَبِثُ؟

ألم يعلموا أنّ اغترابي حُرّامة
 نعم لست أرضى عن زمانى أو أرى
 لقد سنمت نفسي المقام ببلدة
 يُدَلّ بها الحرُّ الشريف لَعْبده
 إذا اصطافها المرء اشتكى من سُومها
 ولستُ كقوم في تعصّبهم عَثُوا
 رغبتُ بنفسى أن أساكن مَغشرا
 يدسّون في لين الكلام ذَوَاهيا
 فلا درُ دُرُ القوم إلّا عَصِيبَة
 وآثرتُ أقوامًا حمذتُ جوارهم
 لهم عن عيان الفاحشات إذا بدت
 فما أَلِفُوا لَهْوًا ولا عَرَفُوا حَتَّى
 به كل مُرتاح إلى الضّيف والوَغى
 وأشعثُ ذي طَمَرين أغناه زُهْدُه
 صبورٌ على الإيذاء بغيضٌ على العدا
 ولي صاحبٌ مثلي يمانٍ جعلته
 وأجرَدُ جرّار الأعتة فارح
 تسامتُ به الأعراق في آل أعوج
 وحسبي لعضّات النوائب مُنْجدا
 قطعْتُ زمانى خبرةً ويلوئته
 ومارستُ أبناء الزمان مُباحثًا
 وذى صُلْفٍ يمشي الهوينى ترفُقًا
 إذا غبتُ فهو المَرّوة القوم عندهم
 وإن ضمّني يومًا وإياه مَشْهد
 فحسبي عُداتي أن طويْتُ مآربي
 وقلْتُ لدنياهم إذا شئتُ فاغربي
 وأغضيتُ عن زلّاتهم غير عاجز

(١) الثُّتُ: المتفرق. محيط المحيط (شتت).

وقال^(١): [الكامل]

لا تعدُ صَيِّفَكَ إِن ذَهَبْتَ لِصَاحِبٍ
أَوْ مَا تَرَى الْأَشْجَارَ مَهْمَا رُكِبْتَ
تَفْتَدُهُ لَكِنْ تَخَيَّرْ وَائْتَقِ
إِنْ خُولِفْتَ أَصْنَافُهَا لَمْ تَغْلُقْ^(٢)

ومنه في المقطوعات: [السريع]

وَشَادِنٍ تَيَمَّنِي حُبُّهُ
مَوْرَدُ الْخَدِيدِنِ حُلُوُ اللَّمَى
لَمْ تَنْطَوِ الْأَغْصَانُ فِي الرُّوْضِ بَلْ
يَا أَيُّهَا الظُّبْيُ الَّذِي قَلْبُهُ
هَلْ عَطْفَةٌ تَرْجَى لَصَبِّ شَبَحٍ
يُودُ أَنْ لَوْ رُزَّتْهُ فِي الْكَرَى
قَدْ رَامَ أَنْ يَكْتَسِبَ مَا نَابَهُ
فَأَفْضَيْتُ أَسْرَارَهُ وَاسْتَوَى
خَطِّي مِنْهُ الدُّهْرَ هَجْرَانُهُ
أَحْمَرُ مُضْنِي الطَّرْفِ وَسَنَانُهُ
ضَلَّتْ لَهُ تَسْجِدُ أَغْصَانُهُ
تُضَرِّمُ فِي الْقَلْبِ نِيرَانُهُ
لَيْسَ يَرْجَى عَنْكَ سُلُوءَانُهُ؟
لَوْ مَشَعَتْ بِالنَّوْمِ أَجْفَانُهُ
وَالْحُبُّ لَا يُمْكِنُ كَثْمَانُهُ
إِسْرَارُهُ الْآنَ وَإِعْلَانُهُ

وقال^(٣): [مخلع البسيط]

نَهَارٌ وَجْهِهِ وَلَيْلٌ شَعْرِ
قَدْ طَلَبَا بِالْهَوَى فَوَادِي
وَكَيْفَ يَنْبَغِي النِّجَاجَةُ شَيْءٌ
يَطْلُبُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ؟

وقال في الذوبيت:

زَارَتْ لَيْلًا وَأَطْلَعَتْ فَجَرَهَا
لَمَّا بَصُرَتْ بِالشَّمْسِ قَالَتْ يَا فَتَى
صُبْحًا فَجَمَعَتْ بَيْنَ صَبْحٍ وَظِلَامٍ
جَمَعَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ حَرَامٍ

وقال في غرض التورية^(٤): [الطويل]

أَبِخْ لِي يَا رَوْضَ^(٥) الْمَحَاسَنِ نَظْرَةً
وَبِاللَّهِ لَا تَبْخُلْ عَلَيَّ بِعَطْفَةٍ^(٦)
إِلَى وَرْدِ ذَاكَ الْخَدْ أَزْوِي بِهِ الصَّدَى^(٧)
فَإِنِّي رَأَيْتُ^(٨) الرُّوْضَ يَوْصِفُ بِالْتَّدَى

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٣). (٢) في النفع: «تعلق» بالعين غير المعجمة.

(٣) الأبيات في نثر فرائد الجمان (ص ٣٠٢). (٤) في النثر: «وأين».

(٥) البيتان في الكنية الكامنة (ص ٢٢٧) ونثر فرائد الجمان (ص ٣٠٠).

(٦) في الأصل: «... لي في رياض المحاسن» وهكذا يتكرر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٧) في المصدرين: «... الخَدْ كُنْتُ لَكَ الْفَدَا».

(٨) في الكنية: «بقطفة». (٩) في المصدرين: «عهدت».

وقال^(١): [السريع]

وعاشقٍ صُلَى ومُخْرَابُهُ وَجْهٌ غَزَالٍ ظَلَّ يَهْوَاهُ

قالوا تَعَبَّدْتَ^(٢)؟ فقلتُ نعم تَعَبَّدَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ

وقال وهو مليح جدًا^(٣): [الخفيف]

وصديقٍ شكا بما^(٤) حَمَلُوهُ من قضاءٍ يَقْضِي بطول^(٥) العناء

قلتُ فاردُّ ما حَمَلوكَ عليهم قال مَنْ يَسْتَطِيعُ^(٦) رَدُّ القضاء؟

وقال^(٧): [المتقارب]

لسانان هاجا^(٨) مَنْ خَاصَمَاهُ لسانُ الفتى ولسانُ القضا

إذا لم تَحُزْ واحدًا منهما فليست أرى لك أن تنطقا

وقال^(٩): [الكامل]

تلك الذَّوَابَةُ^(١٠) دُبَّتْ من شوقي لها وَاللَّخْظُ يَحْمِيهَا بأيِّ سلاح

يا قَلْبُ فائِجِجْ^(١١) لا إِخَالِكَ نَاجِيًا من فِتْنَةِ الْجَعْدِيِّ والسَّقَاحِ^(١٢)

وإحسانه كثير. ويدل بعض الشيء على كله، ويخبر طل الغيث على وبله.

وفاته: اتصل بنا خبر وفاته بفاس مَبْطُونًا في أوائل ثمانية وخمسين وسبعمائة. ثم تحققت أن ذلك في آخر شوال من العام قبله^(١٣).

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٣).

(٢) في الأصل: «تعبد» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتية.

(٣) البيتان في الكتية الكاملة (ص ٢٨) ونثر فرائد الجمان (ص ٣٠١).

(٤) في الكتية: «لما». (٥) في المصدرين: «بفراط».

(٦) في الأصل: «يستطيع» وهو خطأ نحوي لأنه ليس مجزومًا، وكذا أيضًا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٧) كلمة «وقال» ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل: «هَاجَا» وهكذا ينكسر الوزن.

(٩) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٣). (١٠) في النسخ: «الذوائب».

(١١) في الكتية: «فائِجِجْ وما إِخَالِكَ».

(١٢) أراد بالجعدي الشجر الذي عبر عنه بالذَّوَابَةُ، وأراد بالسَّقَاحِ اللَّخْظُ، وفي الكلمتين تورية.

(١٣) كذا جاء في نفع الطيب (ج ٨ ص ٧٠ - ٧١).

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم
ابن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمي^(١)

يكنى أبا القاسم.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: فرغ دوحة الأصالة والخصوصية، والعلم والدين، والمكانة والجلالة، مُجَلِّي بيته، ومجدد مآثره براء، ومجاملة، وخيرية. نشأ بأطراف جُمَلته من الفنون؛ من حساب وفريضة وأدب وقراءة ووثيقة، إلى خط حسن، وأدب تكفُّله، حتى انتقاد له أو كاد. أُغِيط في وقعة الطاعون قاضياً ببعض الجهات، وكاتباً للدار السلطانية، فكانت فيه الفجيعة عظيمة.

وجرى ذكره في «التاج المحلى» بما نصه^(٢): «من فروع^(٣) مجد وجلالة، ورث الفضل لا عن كلاله. أشرف، مجيد، معظَّم، مُحَوَّل في العشرة، وصل لباب المجد بفرائد الخلال الأثيرة، وأصبح طرْقاً في الخير والعفاف، واتَّصف من العدالة بأحسن اتِّصاف، وسلك^(٤) من سَنَن سَلَفه، أثَّر هادٍ^(٥) لا يزال يُرشد به ويدلُّه، ويسدُّه فيما يعقده أو يحلُّه، واتَّسم بميسم الحياة، والحياة خير كله، إلى نزاهة لا ترضى بالدُّون، ونجاسة تهالك في صون الفنون، وطمح في هذا العهد إلى تَمَطُّ في البلاغة رفيع، وجَنَح إلى مساجلة ما يستحسنه من مُخْتَرع وبديع، وصدرت منه طُرْف تُسَمِّلح، وتُسْتَحلى إذا استحلَّى. ونحن نورد ما أمكن من آياته، ونجلى بعض غُرِّه وشيَّاته.

شعره: ومن مقطوعات آياته: [الطويل]

وَهَبْتُ فَهَزْتُ عِنْدَمَا أَنْ ^(٦) رَأْتُ بِهِ	الطَّلَا مِثْلَ الطِّفْلِ يَرْضَعُ فِي الْمَهْدِ
وَرَوْضِ ^(٧) حَبَاءِ الْمَزْنِ خَلْعَةً بَرْقَةٍ	وَبَاتَتْ رُبَاهُ مِنْ جِبَاهِ عَلَى وَغْدِ
يَحْدِثُنَا عَنْ كَرَمِهَا مَاءً ^(٨) مُزْنِهَا	فَتُبْدِي ابْتِسَامَ الزَّهْرِ فِي لُثْمَةِ الْخَدِّ
عَجِبْنَا لِمَا رَأَيْنَا مِنْ بَرِّهَا ^(٩)	بُدُورِ حَبَابِ الْكَأْسِ تَلْعَبُ بِالنُّزْدِ

(١) ترجمة محمد بن محمد ابن الحكيم اللخمي في الكنية الكامنة (ص ١٩٦).

(٢) قارن بالكنية الكامنة (ص ١٩٦). (٣) في الكنية: «فرع محمداً وجلالة».

(٤) في المصدر نفسه: «واقفى». (٥) في الأصل: «هذا» والتصويب من الكنية.

(٦) كلمة «أن» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معاً.

(٧) في الأصل: «والروض حياء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «ما من» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٩) صدر هذا البيت مضطرب، ومنكسر الوزن.

وقال: [الطويل]

شَرِبْنَا وَزَنْجِي الدِّيَاجِي مُوقِدٌ
عَقَارًا رَأَتْهُ حِينَ أَقْبَلَ حَالِكًا
عَجِبْتُ لَهَا تَرْتَاعُ مِنْهُ وَإِنِّهَا
لَفِي الْفَرْقَدِ قَرَّتْ لِدَمِ الْمَدَامِ^(١)

وقال: [الخفيف]

لَا حَ فِي الدُّرِّ وَالْعَقِيقِ^(٢) فَحَيًّا
مِنْ بَنَاتِ الْكُرُومِ وَالرُّومِ بِكْرًا
خِلْتُهَا وَالْحَبَابُ يَطْفُو عَلَيْهَا
قَهْوَةٌ كَالْعُرُوسِ فِي الْكَاسِ تُجْلَى

وقال: [البسيط]

وَيَوْمٍ أَنَسَ صَقِيلِ الْجَوْ ذِي نَظَرٍ
مَا زِلْتُ فِيهِ لَشَمْسِ الطُّسْتِ مُضْطَحِبًا
صَفْرَاءَ كَالْعَسْجَدِ الْمَسْبُوكِ إِنْ شَرِبْتَ
كَذَلِكَ الشَّمْسِ فِي أُخْرَى عَشِيَّتِهَا

وقال^(٥): [الطويل]

بِنَفْسِي حَبِيبٌ صَالٍ^(٦) عَامِلٌ قَدَهُ
وَيَا عَجَبًا مِنْهُ مَتَى صَارَ ذَابِلًا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنْ سَنِيفَ لِحَاظِهِ

وقال^(٨): [الكامل]

بِأَبِي وَغَيْرِ أَبِي غَزَالٍ نَافِرٌ
قَمَرٌ تَلَالًا وَاسْتِنَارَ جَبِينُهُ^(٩)

(١) عجز البيت منكسر الوزن. (٢) في الأصل: «العقيق» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «حَيَّا» وهكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «لؤلئها» وهكذا ينكسر الوزن.

(٥) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٧). (٦) في الكتيبة: «مال».

(٧) في الأصل: «ونضرته تَنَارٌ عَنْ حَوَاطِ اللَّذْنِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٧). (٩) في الأصل: «حبيبه» والتصويب من الكتيبة.

لم يَرْضَ غَيْرَ الْقَلْبِ مَنْزِلَةً فَهَلْ يَا لَيْتَ شِعْرِي بِالذَّرَاعِ يَلُوحُ
ومما نسب لنفسه وأنشدنيه: [الكامل]

لَيْلُ الشَّبَابِ انْجَابَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ عَنْ صُبْحِ شَيْبٍ لَسْتُ عَنْهُ بَرَاضٍ
إِنْ سَرْنِي يَوْمًا سَوَادُ خِضَابِهِ فَتُصُولُهُ عَنْ سَاقِي^(١) بَبِيَاضٍ
هَلَّا اخْتَفَى قَهْرُ الَّذِي سَرَقَ الصُّبَا وَالْقَطْعُ فِي السَّرَقَاتِ أَمْرٌ مَاضٍ
فَعَلِيهِ مَا اسْتَطَاعَ^(٢) الظُّهُورَ بَلَمْتِي وَعَلَيَّ أَنْ أَلْقَاهُ بِالْمِقْرَاضِ

وفاته: توفي، رحمه الله، بغرناطة في السابع عشر شهر ربيع الآخر عام خمسين وسبعمائة، في وقعة الطاعون، ودفن بباب البيرة رحمة الله عليه.

محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن علي
ابن محمد اللوشي اليحصبي^(٣)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف باللوشي.

أُولَيْتُهُ: من لَوْشَةٍ، وقرأ العلم بها، وتعرف بالسلطان الغالب بالله محمد قبل تَصْيِيرِ الْمَلِكِ لَهُ، وتقدم عنده. تَضَمَّنَ ذِكْرَهُ الْكِتَابُ الْمَسْمُوعُ بِطَرْفَةِ الْعَصْرِ فِي أَخْبَارِ بَنِي نَصْرٍ، وتقرر ذلك في حرف الحاء في اسم أبي عمر اللوشي، كاتب الدولة النُصْرِيَّة، رحمه الله.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: كان، رحمه الله، من أهل الحسب والأصالة، شاعراً، مذاحاً. نشأ مُدَلِّلاً فِي حُجُورِ الدَّوْلَةِ النُّصْرِيَّة، خَفِيفاً عَلَى أَبْوَابِهَا، مُقَضَّلاً عَلَى مُذَاحِهَا. ثُمَّ تَجَنَّى بِآخِرَةٍ، وَلَزِمَ طَوْرًا مِنَ الْخُمُولِ فِي غَيْرِ تَشَكُّ، أَعْرَضَ بِهِ عَنْ أَرْبَابِ الدُّنْيَا، وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَاقْتَصَرَ عَلَى تَبْلُغِ مَنْ عِلَالَةٍ مُؤْمِلٍ كَانَ لَهُ خَارِجُ غَرْنَاطَةِ، غَيْرُ مُسَادٍ مِنْ ثَلَمِهِ، وَلَا مُضْلِحٍ فِي خَلَلِهِ، أَخَذَ نَفْسَهُ بِالتَّقَشُّفِ، وَسَوَّءَ الْمَسْكَنَ، وَالتَّهَوَّنَ بِالْمَلْبَسِ، حَمَلًا عَلَيْهَا فِي غَيْرِ أَبْوَابِ الرِّيَاضَةِ، مُجَانِبًا أَرْبَابَ الْخُطَطِ، وَقِيًا لِمَنْ لِحَقَّتْهُ مِنَ السُّلْطَانِ مُوْجِدَةٌ، تَخْتَلِفُ مَعَامِلَتُهُ لِمَنْ يَعْرِفُهُ فِي الْيَوْمِ مَرَّاتٍ، مِنْ إِعْرَاضٍ عَنْهُ، وَقَبُولٍ عَلَيْهِ، وَلِصُوقٍ بِهِ، كُلِّ ذَلِكَ عَنْ سَلَامَةٍ، وَتَهْيِيبٍ نَفْسٍ. مَلِيحُ الدُّعَابَةِ، ذَاكِرًا لِفُنُونٍ مِنَ الْأَنَاشِيدِ، حَسَنُ الْجِدِّ، مُتَجَافِيًا عَنِ الْأَعْرَاضِ.

(١) في الأصل: «ساق» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «ما استطاع» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) ترجمة محمد بن محمد اللوشي اليحصبي في الكتيبة الكامنة (ص ١٧٥) ونثير فرالد الجمان (ص ٣٢٩).

وجرى ذكره في «التاج» بما نصّه^(١): شاعر مُفلق، وشهابٌ في أفق^(٢) البلاغة متألّق، طبّق مفاسل الكلام بخُسام لسانه، وقلّد نحور الكلام^(٣) ما يُزري بجواهر الملوك^(٤) من إحسانه. ونشأ في حُجور الدولة النصرية مدلّلاً بمتاته، متقلّباً في العزّ في أفانيه وأشتاته، إذ لسلفه الدّمام الذي صَفّت منه الحياض والحمام، والوداد الذي قَصُرَتْ عنه الأنداد، والسابقة التي أزرى بخبرها العيان، وشهدت بها أُرْجونة وجيّان، محيّر ثمرة الطيب. وله همّة عالية، بعيدة المرمى، كريمة المنتمى، حَمَلَتْه بآخرة على الانقباض والازدراء والزهد في الازدياد والاستكثار، والاقتصاد والاختصار، فعَطَف على انتجاع غلّته، والتزام محلّته، ومباشرة فلاحه صان بها وجهه؛ ووفّاه الدهر حقّه ونجمه، واحتجبت عقائل بيانه لهذا العهد وتقنّعت، وراودتها النّفس فتمنّعت، وله فكاهة وأنس الزمان مناجاة القينات، عند البّيات، وأعذب من معاطاة الرّاح في الأقداح.

شعره: قال: وله أدبٌ بلغ في الإجادة الغاية، ورفع للجبين من السّنن الرّاية. ومن مقطوعاته يودع شيخنا الفقيه القاضي أبا البركات بن الحجّاج: [الطويل]

وأحرقتُ في نارِي لدى زُفْراتِي	وأحرقْتُ في نارِي لدى زُفْراتِي
فقالوا سَلُوهُ تعلموا كُنْه حاله	فقلْتُ سَلُوا عني أبا البركات
فمن قال إنِّي بالرحيل مُحدِّثٌ	روت عنه أجفاني غريبَ ثبات
ونادى فؤادي رُكبَه فأجابَه	ترحَّل وكُن في القوم بعض عُداَت

ومن مقطوعاته البديعة من قصيدة مجازية: [الطويل]

سيخطب قَسُ العزم في مَنبر السُرى	وهل في الدُّنا يوم المسير أطيّق؟
وأقطع رُند الهَجْر والْقَطْعُ حَقُّه	فما زال طيْبُ العمر عني يريقُ ^(٥)

مولده: في حدود ثمانية وسبعين وستمائة.

وفاته: في الموقى عشرين من شهر ربيع الثاني من عام اثنين وخمسين وسبعمائة.

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٥). (٢) كلمة «أفق» ساقطة من الكتيبة الكاملة.

(٣) في الكتيبة: «الملوك». (٤) في المصدر نفسه: «السلوك».

(٥) في الأصل: «يسترق» وهكذا ينكسر الوزن، وفيه عيب القافية.

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى ابن الحكيم اللخمي^(١)

يكنى أبا بكر.

أوليته: مرز في اسم ذي الوزارتين.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: «كان صذر أبناء أصحاب النعم، وبقية أعلام البيوت، ترف نشأة، وعز تربية، وكرم نفس، وطيب مجالسة، وإمتاع محاضرة، وصحة وفاء، وشياع مشاركة في جملة فاضلة، محدثاً تاريخياً، كاتباً بليغاً، حسن الخط، مليح الدعابة، ظريف التوقيع، متقدم الحيلة في باب التحسين والتنقيح، يقرض الشعر، ويفك المعنى، ويقوم على جمل الكتاب العزيز، حفظاً وتجويداً، وإتقاناً، ويسرد نثف التاريخ، وعيون الأخبار، إلى حُسن الخلق، وكمال الأبهة، وحلاوة البساطة، واحتمال المناشئة، والمثابرة على حفظ المودة، والاستقالة من الهفوة، والتمسك بالاستغتاب والمغفرة. كتب بالدار السلطانية أكثر عمره، وتصدر بعد في قيادة المواضع النبيهة، محارباً ذا قدرة في ذلك، ومع ذلك فشائع المعروف، ذائع المشاركة. قيد الكثير، ودون وصنف، وحمل عن الجلة ممن يشق إحصاؤهم، وكان غرة من غرر هذا القطر، وموكباً من مواكب هذا الأفق، لم يتخلف بعده مثله.

وجرى ذكره في «التاج المحلي» بما نصه^(٢): «ماجد أقام رسم^(٣) المجد بعد عفائه، فوقى الفضل حق وفائه. بيته في رُندة أشهر في الأصالة من بيت امرئ القيس، وأزسى في بُخوحة الفخر من قواعد الرضوى وأبي قيس. استولى على الجود البديع البعيد المدى، وحجّت إليه من كل فج طُلاب الندى، وعشت إلى ضوء ناره فوجدت على النار الثقى والهدى. ولي الوزارة النصيرية التي اعتصر منها طريقاً بتالد، فأحيت مآثرها الخالدة مآثر يحيى بن خالد^(٤). ولما أدار عليها الدهر كأس الثواب، وخلّص إليها سهمه الضائب، بين صحائف الكتب وصفائح الكتاب، تطلعت من خلالها الرائقة لُباب الوجود، ويكتها بسيل أجفانها عين الباس والوجود، وطلع على

(١) ترجمة محمد بن محمد بن الحكيم في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٥) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٤٢).

(٢) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ١٩٥). (٣) في الكتيبة: «ريح».

(٤) هو يحيى بن خالد البرمكي، وزير الخليفة هارون الرشيد.

أعقاب هذه الفضائل مُحَلَّى من صفحاتها، وأعاد لو ساعده الدهر من لَمَحَاتِهَا، وارتقى من الكتابة إلى المحلِّ الثَّيِّبِ، واستحقَّهَا من بعض ميراث أبيه، وبَنَى وشيَّد، ودوَّن فيها وقَيْد، وشَهَّر في كُتُب الحديث وروايته، وَجَعَلَ^(١) ثمرة رِخْلَةِ أبيه، وهو في جَعْبَر دُرَابَتِهِ^(٢)، وأنشأ الفهارس، وأحيا الأثر الدَّارِس، وألَّف كتابه المسمى بـ«الموارد المُسْتَعْدَبَةِ والمقاصد المُتَّخَذَةِ» فَسَّرَحَ الطَّرْف، وروَّضَه طَيْبُ الجَنَى والعَرْف. وله شعرُ أنيق الجَلِيَّة، حاز في نمط العِلِّيَّة. وبيَّن بين هذا الفاضل وداد صافي الجِيَاض، وفكاهة كَقِطْع الرِّيَاض، ودُعَابَةِ سَحْبَتِ الدَّالَّة أَذْيَالُهَا، وأدارت الثَّقَّة والمَقَّة جريالها. وسيمر في هذا الديوان كل رائق المُحَيَّا، عاطر الرِّيَا.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبي جعفر الحريري، والأستاذ أبي الحسن القَيْجَاطِي، والأستاذ إسحق بن أبي العاصي. وأخذ عن الطَّم والرَّم، من مشايخ المشرق والمغرب، فمنهم الولي الصالح فضل بن فضيلة المعافري، إلى العدد الكثير من أهل الأندلس، كالمُخْطَبَاء الصلحاء أبي عبد الله الطَّنْجَالِي، وأبي جعفر الزِّيَات، وأبي عبد الله بن الكَمَاد، وغيرهم من الرُّنْدِيَّين والمَالْقِيَّين والقَرْنَاطِيَّين، حسبما تضمنه برنامجه.

توَلَّيفه: ألَّف الكتاب المسمى، «الفوائد المُتَّخَذَةُ والموارد المُسْتَعْدَبَةُ». وكَمَّل التاريخ المسمى بـ«بميزان العمل» لابن رَشِيْق. ودوَّن كتابًا في عبارة الرؤيا سَمَّاه «بشارة القلوب بما تخبره الرؤيا من الغُيُوب» و«الأخبار المُدَقَّبَةُ» و«الإشارة الصُوفِيَّة»، و«لُكَّت الأدبية». والهُودُج في الكتب. والإشارة في ألف إنشاده.

شعره وكتابه: قال في التاريخ ما نصُّه: «وتهادته إلى هذا العهد رُتَّب السِّيَادَةِ، واستَعْمَل في نِيَهَات القِيَادَةِ؛ فَوُجَّه إلى معقل قرطمة من كورة رِيَّه وهو واليه، وبطاحه في مجرى جِيَادِهِ وَصَحَر عَوَالِيهِ. وقد حلَلْتُ مَالَقَةَ صُحْبَةِ الرُّكْب السُلْطَانِي فِي بَعْض التَّوَجُّهَات، إلى تلك الجهات، في بعض ما أتَحَف من مقعده، المتصل المستمر، بهدِيَّة مشتملة على ضروب من البَرِّ فخاطبته مَقِيْمًا لسوق الانبساط، وغير حائِذ على الوداد والاعتباط، على ما عوِّل عليه من حمل الإفراط، والانتظام في هذا المعنى والانخراط: [الطويل]

أَلَامٌ عَلَى أَخْذِ الْقَلِيلِ وَإِنَّمَا أَعَامِلُ أَقْوَامًا أَقَلُّ مِنَ الذَّرِّ
فَإِن أَنَا لَمْ أَخْذُهُ مِنْهُمْ فَقَدْزُهُ وَلَا بُدُّ مِنْ شَيْءٍ يُعَيِّنُ عَلَى الدُّهْرِ

(١) في الكتية: «واجتنى ثمرة رحلة إليه؟ وهو...».

(٢) في المصدر نفسه: «دايته»، ودوَّن الفهارس...».

سيدي، أطلق الله يدك بما تملك، وفتر عن منحك البخل لئلا تهلك. كنت قد هومت، وحذرني القلق فتلومت. ولؤمي كما علمت سيء الخصال، عزيز الوصال. يمتلئ ذنبي، ويعاف طيره ورذ عيني. فإذا الباب يدق بحجر، فأنبأني عن ضجر، وجار الجنب يؤخذ بالذنب، فقامت مبادراً وجزعت، وإن كان الجزع مني نادراً. واستفهمت من وراء العلق، عن سبب هذا القلق. فقالت امرأة من سكان البوادي: رابطة الفؤاد يا قوم، رسول خير، وناقص طير، وقرع إذلال، لا فرغ إذلال. حطوا شعار الحزب والحرب، فقد ظفرتهم ببلوغ الأرب، فتأخرت عن الإقدام، وأنهدت إليه، فحن عمر بن أبي ربيعة عمن كان بالدار من الخدام، فأسفرت الواقعة عن سلام وسلم، ولم يزن أحد منا بكليم. ونظرت إلى رجل قرطبي الطلعة والأخلاق، خاوا على الإطلاق، تنهد قبل أن يسلم، وارتضى لما ذهب من الشبيهة وتآلم. شئشنة معروفة، وعين تلك الجهات معاذ الله مضروفة. وقد حملته سيادتكم من المبرة ضروريا شتى، وتجاوزت في المسرات غاية حتى. ولم تضع عضوا من جسده، فضلا عن منكبه ويده، إلا علقته وعاء ثقيلًا، وناطت به زنبيلًا. واستلقى كالمني إذا ترك المغتر، وعلت حوله تلك الأنفال، وتعاورها الانتقال، وكثر بالزقاق القيل والقال. فلما تخلصت إلى الدار، وسترث معرفتها بالجدار، وتناولها الاختبار الفاضح، وبان قصورها الواضح، فتلاشت، بعد ما جاشت، ونظرت إلى قعب من اللبن الممزوق، الذي لا يستعمل في البيوت ولا يباع في السوق، فأذكرني قول الشاعر: [البسيط]

تلك^(١) المكارم لا قعبان من لبن شيبت بماء فعاتت بعد أبوالا

أما زبده فرفع، وأما جنبه فاقببت به وانتفع، وأما من بعته من فضلاء الخدام فدفع، وكأنني به قد ألح وضيع، والتفت إلى قفة قد خيطت، ويعنق ذاك البائس قد نيطت، رمس فيها أفراس الحمام، وقلدت بجيده كما يتقلد بالتمائم، وشد حبلها بمخنقه، وألزم منها في العاجل طائرته في عنقه، هذا بعد ما دُبحت، وأما حشوها فزبحت. ولو سلكتم الطريقة المثلى، لحفظتم جثتها من العفن كما تحفظ جثة القتلى، وأظنكم لم تغفلوا هذا الغرض الأدنى، ولا أهملتم هذه الهمم التي غريزة في المبنى. فإني رميت منها اللهو رمي المختبر، فكُلج من مرارة الصبر، ولما أخرجتها من كفن القفة، واستدعيت لمواراتها أهل الصفة، تمثلت تمثل اللبيب،

(١) في الأصل: لفي تلك... وهكذا ينكسر الوزن.

بقول أبي تمام حبيب^(١): [الكامل]

هَرَبَ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرَتْ عِيقًا^(٢) مِنْ حَائِثِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ جِصَامٌ^(٣)

ولو أن إحدى الدُجاجتين لاحت عليها مُحْيِلَةٌ سِرٌّ، لكانت من بقايا مواطني ديوك بني مُرٍّ، وبعث بها حلالك حلاله، وأهدى منها اجتهدا مَنْ أَحْسَنَ. ولم يكن بالهدية ما يُذكر، ولا كانت مما يُنكر، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، فلو لم تكن التُّحفة، إِلَّا تلك الفكاكة العاطرة والغمامة الماطرة، التي أَحْسَبُهَا الأمل الأَقْصَى، وتجاوزت إِلَّا مِنْ التي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، للزم الشكر ووجب، وبرز من حُرِّ المدح ما تيسر واحتجب. فالمكارم وإن تَغَيَّرَتْ أنسابُها، وَجُهِلَ انتسابُها، وأدعي إرثُها واكتسابُها، إليكم تَنَشَّرَ يدها، وتَسْعَى لأقدامها، وَلَبَّيْتُمْكم تميل بهوديتها، وبساحتكم يسيل واديتها، وعلى أرضكم تَسُحُّ غواديتها. ومثلي أعزكم الله، لَا يُغْضِي من قدر تَحْفَكم الحافلة، وَلَا يَقْدِر من شكرها على فريضة وَلَا نافلة، ولكنها دُعابة معتادة، وفكاكة أصدرتها ودادة. وَلَا شَكَّ أنكم بما جُبِلْتُمْ عليه قديمًا وحديثًا، تَغْتَفِرُونَ جفائي، الذي سَيَّرْتُمُوهُ سَمَرًا وحديثًا في جنب وفائي، وتَغْضُونَ وتَتَحْمِلُونَ، ويقول الشاعر تتمثلون، وأسمع من الألفاظ اللغوية التي يُسَرُّ بها سَمْعِي، وإن ضمنت شَتْمِي ووصفي: [الطويل]

بعثت بشيء كالجفاء وإنما	بعثت بعُذْري كالمُدْلُ إلى عُذْري
وقلت لنفسي لا تزدعي فإنه	كما قيل شيء قد يُعين على الدهر
وما كان قدر الوُدِّ والمجد مثله	فخذ على قدر الحوادث أو قُدْري
وإن كنت لم أحسن صنيعي فلأنني	سأحسن في حُسن القبول له شكْري
وقدْرك قدر النيل عندي وإنني	لدى قدرك العالي أدقُّ من الذُرِّ
فَقَعْتُ وحظي من زماني وودْكم	هباءً ومثلي ليس يقنع بالثُرِّ
أتاني كتاب منك بإهٍ مبارك	لقيت به الآمال باهتة الثُرِّ
جلا من بنات الفكر بكرًا وزفها	إلى ناظري تختال في حَبَرِ الحَبَرِ
فألفاظها كالزهر والزهر يانع	وقدْرك المعاني في الأصالة كالزهر
نجوم معانٍ في سماء صحيفة	ولكنها تُسْري النجوم ولا تُسْري
تضمّن من نوع الدعابة ما به	رجوت الذي قد قيل في نُشوة الخمر

(١) البيت في ديوان أبي تمام (ص ٢٤٧) من قصيدة من ٥٦ بيتًا.

(٢) العيافة: زجر الطير.

(٣) الجِصام، بكسر الجاء: الموت.

رعى الله مسراها الكريم فجعل ما
 لعمرى لقد أذكرتني دولة الضبا
 ولما أتت تلك الفكاهة غدوة
 ولا سيما إن كان ملحم بزدها
 نشرث بها ما قد طويث بساطه
 ونعم خليل الخير أنت محافظا
 ودونكها تلهو بها وتديرها
 فراجعني بقوله :

وقد من سيدي الجواب، محتوياً على العجب العجيب، فيالك من فكاكة كثرية المناهل، غثيرة المسائل، ولو لم يكن إلا وصف القرطبي المستوى الطلعة، الشرطي الصنعة. وأما وصف اللبن وفراخ الحمام، فقد بسطتم في المزاح القول. وامتنعتم في الكلام الفضل. وذلك شيء يعجز عن مساجلتكم فيه أرباب البلاغة والبيان، فكيف بمثلي ممن له القول المهلهل التسيج الواهي البيان. ولا بد من عرض ذلك على سيدي القطب الكبير الإمام، وأستاذنا علم الأعلام، وكبير أئمة الإسلام، فيحكم بيننا بحكم الفضل، وينصف بما لديه من الحق والعدل. وقد كنت أريد عن مراجعتكم جيدة الجبان، وأميل عن ذلك ميلة الكؤذن^(١) عن مجارة السمر الهجان، وأعدل عن مساجلة أدبكم الهتان، عدول الأغزل عن مبارزة جيد السنان. إلى أن وثقت بالصفح، وعولت على ما لديكم من الإغضاء والسَّمْع، ووجهت حاملة السر والظروف، كي تتصل الهدايا ولا ينقطع المعروف. وأستقيل من انبساط يجز عذراً، وأسأله سبحانه وتعالى حمداً يوجب المزيد من إنعامه وشكراً. دام سيدي وآماله مساعدة، والكلمة على فضله واحد.

ومن شعره في الشك واللجأ إلى الله تعالى^(٢):

أيا من له الحكم في خلقه ويا من^(٣) يكرهني له اشتكي
 تولى أموري ولا تسلمني وإن أنت أسلمتني أهلك
 تعاليت من مفضل^(٤) منعم ونزّهت من طالب مذرك

(١) الكؤذن: الفيل، والمراد هنا البطيء في مشيه. محيط المحيط (كود).

(٢) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٦).

(٣) في الأصل: «ومن» وهكذا يتكرر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٤) في الكتيبة: «من مفضل».

ومن ذلك ونقلته من خطه^(١): [الطويل]

تَضَبَّرُ إِذَا مَا أَدْرَكَتْكَ مُلِمَّةٌ قَصْنَعُ إِلَهٍ الْعَالَمِينَ عَجِيبُ
وما يذكرك^(٢) الإنسانَ عَارَ بَنَكَبَةٍ يُنَكِّبُ^(٣) فِيهَا صَاحِبُ وَحْبِيبُ
فَقِي مَنْ مَضَى لِلْمَرْءِ ذِي الْعَقْلِ أَسْوَةٌ^(٤) وَعِيشُ كِرَامِ النَّاسِ لَيْسَ يَطِيبُ
وَيُوشِكُ أَنْ تَهْمِي سَحَابُ نَعْمَةٍ فَيُخَصِّبَ رَيْعَ لِلْسُرُورِ^(٥) جَدِيبُ
إِلَهْكَ يَا هَذَا مَجِيبُ^(٦) لِمَنْ دَعَا وَكُلُّ الَّذِي عِنْدَ الْقَرِيبِ قَرِيبُ

مولده: عام خمسة وستين وستمائة.

وفاته: من «عائد الصلاة»، قال: وختم الله عمره بخير العمل من الإنابة والتهدُّج، والتزام الرود، وإن كان مُستصحب الخيرية. وحلَّ ببلد ولايتهم رُندة، فكانت بها تُربته في الثالث والعشرين لربيع الآخر عام خمسين وسبعمئة.

محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري

وُلِدَ المذكور بعد، الكاتب بالدار السلطانية.

حاله: من كتاب طُرْفَةِ الْعَصْرِ وغيره، قال: كان كاتبًا مشهورًا، بليغًا، ذا معرفة، بارع الخط، أُوْحِدَ زمانه في ذلك، وقورًا، مُعَذَّبُ اللَّفْظِ، منحطًا في هوى نفسه، مُحَارَفًا^(٧) بحرفة الأدب على جلالة قدره. وكتابه نقيّة، جانحة إلى الاختصار.

شعره: وثيق، تغلُّ فيه أرواح المعاني كشعر أبيه، وتوشيح فائق. تولى كتابة الإنشاء لثاني الملوك النصريين^(٨)، واستمرَّ قيامه بها على حَجَرٍ شَدِيدٍ مِنَ السُّلْطَانِ وَمَحْمَلٍ؛ لِمَلَاظِمَةِ الْمُعَاوَرَةِ وَانْهَمَاكِهِ فِي الْبَطَالَةِ، واستعمال الخمر، حتى زعموا أنه قاء يومًا بين يديه، فأخَّره عنها، وقَدَّمَ الْوَزِيرَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَكِيمِ. وفي ذلك

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٩٥) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٤٢).

(٢) في النفع: «وما يلحق». (٣) في الكتيبة: «فينكب».

(٤) الأسوة: بضم الهمزة وكسرهما؛ هو ما يأتي به الحزين يتعزى به. مختار الصحاح (أسا).

(٥) في الأصل: «من ريع السرور» والتصويب من المصدرين.

(٦) في النفع: «قريب».

(٧) المحارفة: الاحتيال، والمراد هنا الاحتراف. محيط المحيط (حرف).

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، وقد حكم غرناطة من سنة ٦٧١ هـ حتى

سنة ٧٠١ هـ. ترجمته في اللمعة البدرية (ص ٥٠)، وتقدمت ترجمته في الجزء الأول من

الإحاطة.

يقول: [الطويل]

أمن عادة الإنصاف والعدل أن أُنْجَفَا لأن زعموا أنني تحسّنتها صِرْفَا؟
وأقام بقيّة عمره تحت رِفْدٍ وبرٍّ.

وفاته: توفي في حدود التسعين وستمائة. وكان شيخنا ابن الجيّاب قد أثره
بكتّبه، وكانت نفيسة أعلاها بخط أبيه، رحمه الله.

محمد بن مالك المُرِّي الطُّغْنَرِي^(١)

من أهل غرناطة، من ذوي البيتية والحسب فيها. ذكره الأستاذ^(٢) في الكتاب
المسمّى بالصلة، والغافقي^(٣)، وغيرهما.

حاله: أديب نبيل، شاعر؛ على عهد الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس،
صاحب غرناطة. قال: وكان أولاً يميل إلى البطالة والراحة. ثم إنه استيقظ من غفلته،
وأقلع عن راحته، وأجبت في توبته. وكان من أهل الفضل والخير والعلم.

من تواليفه: كتابه الشهير في الفلاحة، وهو بديع، سمّاه «زهرة البستان، ونزّهة
الأذهان»، عبرة في الظرف. قال: وجرى له مع سماجة^(٤) خليفة عبد الله بن بلقين
قصة. إذ فاجأه سماجة مع إخوان له، ولم يشعروا به، فأنشده ابن مالك ارتجالاً، وقد
أخذ بليجام دابته: [الخفيف]

بينما نحن في المُصَلَّى نُسَاقُ وجناح العُشِيِّ فيه جُنُوحُ
إذ^(٥) أنا سماجةٌ يتلألأ فردى^(٦) الشمس من تجلّيه^(٧) يُوَحُ
فطِفَقْنَا يقول بعض لبعض أعْبُوقُ شَرَابِنَا أم صَبُوحُ؟

(١) ترجمة محمد بن مالك في الذخيرة (ق ١ ص ٨٠٥)، والطُّغْنَرِي، نسبة إلى طُغْنَر Tignar،
إحدى قرى غرناطة. وكنيته كما جاء في الذخيرة، أبو عبد الله.

(٢) المقصود هنا الأستاذ ابن الزبير صاحب كتاب «صلة الصلة».

(٣) هو محمد بن عبد الواحد الغافقي، المعروف بالملاحى.

(٤) سماجة الصنهاجي من وزراء باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، وكان حازماً شديد السطوة،
مرهوب الجانب، شجاعاً، جواداً، فاضلاً. ثم لزم أمير غرناطة عبد الله بن بلقين بن باديس مدة
كوزير، ثم أبعده عبد الله عن غرناطة، فلجأ إلى ألمرية وعاش في كنف صاحبها المعتصم بن
صامح. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٦٦).

(٥) في الأصل: «إذا» وهكذا ينكسر الوزن. (٦) في الأصل: «ردى» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «تجليله» وهكذا ينكسر الوزن ولا معنى له.

قال: فتكلم الوزير سماجة باللسان البربري مع عبيده، فرجعوا مسرعين، ووقف سماجة مع الوزير ابن مالك، إلى أن أتاه عبيده، بوعاء فيه جملة كبيرة من الدراهم، تنيف على الثلاثمائة دينار. فقال: ادفعوها إليه، وانصرف. وأتاهم العبيد مع الدراهم، بطعام وشراب. قال ابن مالك: وذلك أول مال تأثّلته.

شعره: ومنه^(١) [السريع]

وَدَبْتُ فِي جِسْمِي ضَنْئِي دَارِجٌ	صَبْتُ عَلَى قَلْبِي هَوًى لَاعِجٌ
لِسَانُ تَذْكَارِي بِهِ لَاهِجٌ	فِي شَادِنِ أَحْمَرَ ^(٢) مُسْتَأْنِسٌ
وَمَا عَسَى يَفْعَلُهُ ^(٤) عَالِجٌ؟	مَا ^(٣) قَدَرُ نَعْمَانٍ إِذَا مَا مَشَى
وَرِذْوُهُ مِنْ ثَقْلِهِ ^(٥) مَائِجٌ	فَقَدُّهُ مِنْ رَقَّةٍ مَائِسٌ
تَشَابَهَ الدَّخْلُ وَالْخَارِجُ	عَنَوَانٌ مَا فِي ثَوْبِهِ وَجْهُهُ
ذَا مُغْلَمُ الْوَجْهِ وَذَا سَادِجٌ	فَلَا تَقْيِسُوهُ بِبَذْرِ الدُّجَى

وقد نسبها بعض الناس لغيره.

وفاته: قال الأستاذ: كان حياً ستة ثمانين وأربعمئة. وأمر أن يكتب على قبره:

[الخفيف]

أَكَلَةٌ ^(٦) الثَّرْبِ بَيْنَ جَنْبَيْ ضَرِيحٍ	يَا خَلِيلِي، عَرِّجْ عَلَى قَبْرِي تَجِدْ
أَيُّ نَطْقٍ إِنْ اعْتَبَرْتَ فُصِيحٌ؟	خَافَتْ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتُ وَلَكِنْ
فَرَّقَ ^(٧) الْمَوْتَ بَيْنَ جِسْمِي وَرُوحِي ^(٨)	أَبْصَرْتَ عَيْنِي الْعَجَائِبُ لَكِنْ

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك الأوسي

المدعو بالعقرب، من إقليم الآش^(٩).

حاله: كان حسن النظم والنثر، ذكياً من أهل المعرفة بالعربية والأدب، موصوفاً بجودة القريحة، والنبيل والفطنة.

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٨٠٨). (٢) في الذخيرة: «أحور».

(٣) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذخيرة.

(٤) في الذخيرة: «يلغفه». (٥) في الذخيرة: «ثقل».

(٦) في الأصل: «من أكلة» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «لما فَرَّقَ...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «وروح» بدون ياء. (٩) أي من إقليم وادي آش Guadix.

أدبه وشعره: ذكره الملاحى وقال: حدّثني قاضي الأحكام بغرناطة، أبو القاسم الحسن بن قاسم، الهلالي صاحبنا، قال: كان الأستاذ أبو عبد الله العقرب جازنا، قد وقع بينه وبين زوجه زهرة بنت صاحب الأحكام، أبي الحسن علي بن محمد تنازع، فرفعته إلى القاضي بغرناطة، أبي عبد الله بن السماك العاملي، وكنت يومئذ كاتباً له، فرأى القاضي قوّته وقدرته على الكلام وضعفها، وإخفاق نظمها، وشفق لحالها. وكان يرى أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال يكون ظالمهن. وكان كثيراً ما يقول في مجلسه: زويدك، رفقا بالقوارير، وحين رأى ما صدر عن القاضي من الجمل، فقلت له: وأين حلاوة شعرك والقاضي أديب يهتز إليه ويرتاح؟ فطلب مني قرطاساً، وجلس غير بعيد، ثم كتب على البديهة بما نصّه:

[الكامل]

لله حيّ، يا أميم، حواك	وَحَمَائِمُ فَوْقَ الْغُصُونِ حَوَاكِ
عَتَيْنَ حَتَّى خِلْتُهُنَّ عَتَيْنِي	بَغَنَائِهِنَّ فَنُحْتُ فِي مَعْنَاكِ
دَكَّرْنَنِي ^(١) مَا كُنْتُ قَدْ أَنْسَيْتُهُ	بِخَطُوبِ هَذَا الدَّهْرِ مِنْ ذِكْرَاكِ
أَشْكُو الزَّمَانَ إِلَى الزَّمَانِ وَمِنْ شَكَايَ	صَرَفَ الزَّمَانَ إِلَى الزَّمَانِ فَشَاكِ
يَا ابْنَ السَّمَاءِ ^(٢) الْمُسْتَظِلُّ بِرَمَحِهِ	وَالْعُزْلُ ^(٣) تَرَهَّبَ ذَا السَّلَاحِ الشَّاكِ
رَاعَ الْجَوَارِ فَبَيْنَنَا فِي جَوْنَا	حَقَّ السُّرَى وَالسَّيْرِ فِي الْأَفْلَاكِ
وَابْسَطَ إِلَى الْخَلْقِ الْمُؤَوَّبِ بَيْسَطَهُ	ظَرَفَ الْكِرَامِ بِعَقَّةِ الثُّسَاكِ
وَأَنَا ذَاكَرٌ إِنْ لَمْ يَقُتْ مِنْ لَمْ يَمُتْ	فَدَاؤُكَ ثُمَّ دَاؤُكَ ثُمَّ ذَاكَ ^(٤)

ثم دفعها إلى القاضي، فكتب القاضي بخطه في ظهر الرقعة: لُبِّيك، لُبِّيك. ثم أرسلني أصلح بين العقرب وزوجه، فإن وصل صلحهما إلى خمسين ديناراً، فأنا أوذيها عنه من مالي، فجمعت بينهما، وأصلحت بينهما عن تراض منهما، رحمهما الله تعالى.

محمد بن علي بن عبد الله بن علي القيسي العرادي

من أهل غرناطة.

(١) في الأصل: «دكّرني» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معاً.

(٢) السماك: كوكب نيز صغير في جهة الشمال، يقال له السماح الرامح. محيط المحيط (سمك).

(٣) في الأصل: «والعزل» بتشديد الزاي، وهكذا ينكسر الوزن. والعزل: جمع أعزل وهو أحد السماكين لأنه لا سلاح معه. محيط المحيط (عزل).

(٤) هذا البيت منكسر الوزن.

حاله : كان فتى حسن السمات، ظاهر السكون، بادي التصون والعفة، دمث الأخلاق، قليل الكلام، كثير الحياء، مليح الخط، ظريفه، بادي الثجابه. أبوه وجدّه من تجار سوق العطر، نُبهاء السوق. نظم الشعر، فجاء منه بعجب، استرسالاً وسهولة، واقتداراً، ونفوداً في المطوّلات، فأينقت له من الإغفال، وجذبته إلى الدار السلطانية، واشتدت براعته، فكاد يستولي على الأمر لولا أن المنيّة اخترمته شاباً، فنكل منه الشعر، قريع إجاده، ويارع ثنية شهرة، لو انفسح له الأمد.

مولده : في ذي الحجة عام أحد وثلاثين وسبعمائة.

وفاته : توفي مبطوناً على أيام قريبة من إسرائه بغرناطة، عن سنّ قريبة من العشرين، في عام خمسة وخمسين وسبعمائة. وأبوه أمين العطارين.

محمد بن علي بن العابد الأنصاري

يكنى أبا عبد الله، أصله من مدينة فاس.

حاله : من خط القاضي أبي جعفر بن مسعدة، علّم كتاب دار الإمارة النصرية الغالية، الذي بثوره يستضبحون، وسراجهم الذي بإشراقه وبهجته ونهج محدثه يهتدون. رفع لواء الحمد، وارتدى بالفهم والعلم والحلم. كان، رحمه الله، إماماً في الكتابة، والأدب، واللغة، والإعراب، والتاريخ والفرائض والحساب، والبرهان عليه، عارفاً بالسجلات والتوثيق، أزيى على الموثقين من الفحول المبرزين في حفظ الشعر ونظمه، ونسبته إلى قائله حافظاً مبرزاً. درس الحديث، وحفظ الأحكام لعبد الحق الإشيلي، ونسخ الدواوين الكبار، وضبط كتب اللغة، وقيد على كتب الحديث، واختصر التفسير للزمخشري، وأزال عنه الاعتزال، لم يفتّر قط من قراءة أو درس أو نسخ أو مطالعة، ليله ونهاره. لم يكن في وقته مثله.

مشيخته : أخذ بفاس عن أبي العباس أحمد بن قاسم بن البقال الأصولي، وأبي عبد الله بن البيوت المقرّي، وعن الزاهد أبي الحسن بن أبي الموالي، وغيرهم.

شعره : ومنه قوله : [الكامل]

طَرَقَتْ نَتِيهِ عَلَى الصُّبَاحِ الْأُبْلَجِ حَسَنَاءُ تَخْتَالُ اخْتِيَالِ تَبْرِجِ
فِي لَيْلَةٍ قَدْ أُلْبِسَتْ بِظِلَامِهَا فَضْفَاضَ بُزْدٍ بِالنَّجْمِ مُدْبِجِ

وشعره مدون كثير.

وفاته : توفي بحضرة غرناطة عام اثنين وستين وسبعمائة في ذي القعدة منه.

محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري الغرناطي^(١)

من أهل قرية سُكون، يكنى أبا القاسم، ويعرف بالأندلسي، وكأنها تفرقة بينه وبين الحكمي أبي نواس.

أوليته: قال غير واحد من المؤرخين^(٢): هو من ذرية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل: من ولد أخيه رَوْح بن حاتم.

حاله: كان من فحول الشعراء، وأمثال النظم، وبرهان البلاغة، لا يُدرك شأوه، ولا يُشَقُّ عُباره، مع المشاركة في العلوم، والنفوذ في فك المعنى. خرج من الأندلس ابن سبع وعشرين سنة، فلقي جوهرًا المعروف بالكاتب مولى المعز بن المنصور العبدي، صاحب المغرب، وامتدحه، وكان لثيماً، فأعطاه مائتي درهم، فوجد لذلك، وقال: أهلنا كريمٌ يقصد؟ فقل: بلى، جعفر بن يحيى بن علي بن فلاح بن أبي مروان، وأبو علي بن حمدون، فامتدحهما، ثم اختص جعفر بن يحيى وأبي علي، فبالغا في إكرامه، وأفاض عليه من النعم والإحسان ما لم يمز بباله، وسارت أشعاره فيهما، حتى أنشدت للمعز العبدي، فوجهه جعفر بن علي إليه في جملة طرف وتُحف بعث بها إليه، كان أبو القاسم أفضلها عنده، فامتدح المعز لدين الله، وبلغ المعز من إكرامه الغاية. ثم عاد إلى إفريقية، ثم توجه إلى مصر، فتوفي بيزقة.

وجرى ذكره في «تخليص الذهب» من تأليفنا بما نصّه: «العُقاب الكاسرة، والصمصامة الباترة، والشوارد التي تهادتها الآفاق، والغايات التي أعجز عنها السباق».

وَضَمَّتْهُ: وذكره ابن شَرَف في مقاماته، قال: وأما ابن هاني محمد، فهو نَجْدِي الكلام، سَرْدِي النظام، إلّا أنه إذا ظهرت معانيه، في جزالة مبانيه، رَمَى عن منجنيق،

(١) ترجمة ابن هاني الأندلسي في التكملة (ج ١ ص ٢٩٥، رقم ١٠٢١) ومطلع الأنفس (ص ٣٢٢) والمطرب (ص ١٩٢) وجذوة المقتبس (ص ٩٦) وبغية الملتبس (ص ١٤٠) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢١٥) ومعجم الأدباء (ج ٥ ص ٤٦٨) وعبر الذهبي (ج ٢ ص ٣٢٨) وشذرات الذهب (ج ٣ ص ٤١) والفلاحة والمفلوكون (ص ١٠٢) والمغرب (ج ٢ ص ٩٧) والنجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٦٧) ورايات المبرزين (ص ١٥٠) ومرآة الجنان (ص ٣٧٥) والأعلام (ج ٧ ص ١٣٠) ونفع الطيب (ج ١ ص ٢٨٢) و(ج ٤ ص ١٨٣) و(ج ٥ ص ١٨٧).

(٢) قارن بالتكملة (ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦).

لا يؤثر في الثفيق. وله غَزَلٌ مَعْرِي، لا عُذْرِي، لا يقنع بالطيف، ولا يُصنع بغير السيف، وقد قَدَّه به الذات، وعظَّم شأنه فاحتمل الثواب، وكان يَقِف دولته في أعلى منزلته، ناهيك من رجل يستعين على صلاح ديناه، بفساد أخراه، لرداءة دينه، وضَعْف يقينه. ولو عَقِل ما ضاقت عليه معاني الشعر، حتى يستعين عليه بالكفر.

شعره: كان أول ما مدح به جعفر بن علي قوله^(١): [الكامل]

أَخْبَبَ بَتِيَاكَ الْقِيَابَ قِيَابَا لا بِالْحُدَاةِ وَلَا الرُّكَابِ رَكَابَا^(٢)
فِيهَا قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ تَخَالُهَا عَنَمًا بِأَيْدِي الْبَيْضِ وَالْعُنَابَا^(٣)

وقال يمدح جعفر بن علي من القصيدة الشهيرة^(٤): [الطويل]

أَلَيْسَتْنَا إِذَا أَرْسَلْتَ وَارِدًا وَخَفَا^(٥) وَيَأْتِ^(٦) لَنَا الْجِوَاءُ فِي أَذْنِهَا شَنْفَا^(٧)
وَبَاتَ لَنَا سَاقٍ يَقُومُ^(٨) عَلَى الدُّجَى بِشَمْعَةٍ صُبُحٍ^(٩) لَا تُقَطُّ^(١٠) وَلَا تُطْفَا
أَعْنُ غَضِيضٌ خَفَفَ^(١١) اللَّيْنُ قَدَّهُ وَأَثْقَلَتْ^(١٢) الصُّهْبَاءُ أَجْفَانَهُ الْوُطْفَا^(١٣)
وَلَمْ يُبْقِ إِرْعَاشُ الْمُدَامِ لَهُ يَدَا وَلَمْ يُبْقِ إِعْنَاتُ^(١٤) الثُّنْيَى لَهُ عِطْفَا
نَزِيفُ قِضَاهِ السُّكْرِ إِلَّا ارْتِجَاجَةٌ إِذَا كَلَّ عَنْهَا^(١٥) الْحَضْرُ حَمَلَهَا الرَّدْفَا

(١) ديوان ابن هانيء الأندلسي (ص ٤٩).

(٢) الحُدَاة: الذين يسوقون الإبل؛ أراد أنه يحب القباب لأنها تخص الحبيب، ولا يحب الحُدَاة ولا الإبل لأنها سبب بعد الحبيب عنه.

(٣) العنم: شجرة حجازية لها ثمر أحمر يشبه به البنان المخضب. يقول: إن تلك القباب حمر، كأنها عنم أو عناب بأيدي النساء البيض.

(٤) ديوان ابن هانيء الأندلسي (ص ٢٠٧ - ٢١٠) ورايات المبرزين (ص ١٥١ - ١٥٤). وورد منها في المغرب (ج ٢ ص ٩٧ - ٩٨) فقط سبعة أبيات.

(٥) في الأصل: «وجفا» والتصويب من الديوان والمغرب. والوارد: الشعر الطويل المسترسل. والوحف: الكثيف المسود.

(٦) في الديوان والمغرب: «ويتنا نرى الجوزاء».

(٧) الشَّنْف: ما يعلّق في أعلى الأذن، وهو القرظ.

(٨) في المغرب: «يصول». (٩) في الديوان: «نجم».

(١٠) لا تُقَطُّ: لا يُقَطَّع رأسها.

(١١) في الأصل: «جفف» والتصويب من الديوان والمغرب.

(١٢) في الديوان: «وثقلت».

(١٣) الأغن: الذي في صوته غنة. والغضيض: الفاتر الطرف المسترخي الأجفان. والوطف: جمع أوطف وهو الذي كثر شَعْرُ حاجبيه وعينه.

(١٤) الإعنات: من أعتته: أي أدخل عليه مشقة شديدة.

(١٥) في الديوان: «عنه الخصر حمله...».

يقولون جَفَّفَ فوقه^(١) خَيْرَ رَأْنَةٍ
 جعلنا حشايانا^(٢) ثيابَ مُدَامِنَا
 فمن كَبِدٍ تُدْنِي إلى كَبِدِ هَوَى
 بِعَيْشِكَ نَبْهَ كَأْسِهِ وَجَفْوَتُهُ
 وقد فَكَّتِ الظُّلُمَاءُ بعضَ قِيودنا
 وولَّتْ نَجُومٌ لِلثَّرِيَّا كَأَنَّهَا
 وَمَرَّ عَلَى أَنَارِهَا دَبْرَانُهَا
 وَأَقْبَلَتِ الشُّعْرَى الْعَبُورُ مُلِمَّةً^(٣)
 وقد قَبِلَتْهَا^(٤) أَخْتُهَا من ورائها
 تَخَافُ زَيْيَرَ اللَّيْلِ قَدَمٌ^(٥) نَثْرَةً
 كَأَنَّ مُعَلَّى قُطْبِهَا^(٦) فَارَسَ لَهُ
 كَانَ السَّمَاكِينَ الَّذِينَ تَظَاهَرَا
 فذَا رَامِحٌ يُهْوِي إِلَيْهِ سِنَانُهُ
 كَانَ قُدَامَى النَّسْرِ وَالنَّسْرُ وَقَعَ
 كَانَ أَخَاهُ حَيْسَنَ دَوْمٍ طَاتَرَا
 كَانَ رَقِيبَ اللَّيْلِ^(٧) أَجْدَلُ مَرْقَبٍ

أما يَعْرِفُونَ الْخَيْرَ رَأْنَةً وَالْحِجْفَا؟
 وَقَدَّتْ لَنَا الظُّلُمَاءُ مِنْ جِلْدِهَا لُحْفَا
 وَمِنْ شَفَةِ تُوحِي إِلَى شَفَةِ رَشْفَا
 فَقَدْ نُبِّهَ الْإِبْرِيْقُ مِنْ بَعْدِ مَا أَغْفَا
 وَقَدْ قَامَ جَيْشُ اللَّيْلِ لِلصَّبْحِ فَاصْطَفَا^(٨)
 خَوَاتِيمُ تَبْدُو فِي بَنَانٍ يَدٍ تَخْفَى
 كَصَاحِبِ رِدءٍ^(٩) كُمُتَتْ خَيْلُهُ خَلْفَا
 بِمِرْزَمِهَا الْيَغُوبُ تَجَنُّبُهُ طَرْفَا^(١٠)
 لَتَخْرُقَ مِنْ ثَنِيِّي مَجْرِيَّتِهَا سَجْفَا^(١١)
 وَبَرَبَرٍ فِي الظُّلُمَاءِ يَتَسَفَّهَا نَسْفَا^(١٢)
 لِيَوَاءِ إِنْ مَرْكُوزَانِ قَدْ كَرِهَ الرِّخْفَا
 عَلَى لُبَّتِيهِ^(١٣) ضَامِنَانِ لَهُ الْحَتْفَا^(١٤)
 وَذَا أَعَزَلَ قَدْ عَضَّ أَتْمَلُهُ لَهْفَا
 قُصِصْنَ فَلَمْ تَسْمُ الْخَوَافِي لَهُ ضَغْفَا^(١٥)
 أَتَى دُونَ نِصْفِ الْبَذْرِ فَاخْتَطَفَ النُّصْفَا
 يُقَلِّبُ تَحْتَ اللَّيْلِ فِي رِيَشِهِ طَرْفَا

(١) في الأصل: «فوقي» والتصويب من الديوان والمغرب...

(٢) الحشاياء: جمع حشية وهي الفراش المحشو.

(٣) في الديوان: «وقد ولت الظلماء تغفو نجومها... جيش الفجر لليل واصطفأ».

(٤) في الأصل: «ردء» والتصويب من الديوان. (٥) في الديوان: «مكبة».

(٦) المرزم: نجم من الشعري اليمانية. اليعوب: الفرس السريع الطويل. تجنبه: تقوده إلى جانبيه. الطرف: المهر.

(٧) في الديوان: «وقد يادرئها».

(٨) أختها: الشعري الشامية. الثني: الطي، الطاقة. السجف: السر.

(٩) في الديوان: «يقدم».

(١٠) النثرة: أنف الأسد، وكوكبان بينهما قدر شهر. بربر: غضب وصاح.

(١١) معلى القطب: نجم في القطب. (١٢) في الديوان: «على لبدتيه».

(١٣) في الديوان: «حفتا». والسماكان: كوكبان، يقال لأحدهما السماك الراح وللآخر السماك الأعزل.

(١٤) في الديوان: «به ضغفا». والقدامى: الريشات الكبار في مقدم الجناح. النسر: كوكب، وهما كوكبان: النسر الطائر، والنسر الواقع. الخوافي: الريشات الصغار في مؤخر الجناح.

(١٥) في الديوان: «النجم». ورقيب النجم: هو النجم الذي يغيب بطلوع النجم الذي يراقبه. =

كَانَ بَنِي نَعَشٍ وَنَعَشٍ^(١) مَطَافِلُ
كَانَ سُهَامَا^(٢) عَاشِقُ بَيْنِ عُوْدٍ
كَانَ سُهَيْلًا^(٣) فِي مَطَالِعِ أَفْقِهِ
كَأَنَّ الْهَزِيعَ الْآبَنُوسِيَّ مُوهِنًا^(٤)
كَانَ ظِلَامُ اللَّيْلِ إِذْ مَالَ مَيْلَةً
كَانَ نَجُومُ الصُّبْحِ خَاقَانُ مَعْشِرٍ^(٥)
كَانَ لِرَاءِ الشَّمْسِ عُرَّةُ جَعْفَرٍ
وَقَدْ جَاشَتْ الظُّلُمَاءُ^(٦) بَيْضًا صَوَارِمًا
وَجَاءَتْ عِتَاقُ الْخَيْلِ تَرْدِي كَأَنَّهَا
هَنَالِكَ تَلْقَى جَعْفَرًا خَيْرَ^(٧) جَعْفَرٍ
وَكَاثِنُ^(٨) تَرَاهُ فِي الْكَرْيَةِ جَاعِلًا^(٩)
بَوَجْرَةٍ قَدْ أَضْلَلَنَ فِي مَهْمِهِ خِشْفًا^(١٠)
فَأَوْنَةً يَبْدُو وَأَوْنَةً يَخْفَى
مُفَارِقُ إِلْفٍ لَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ إِلْفًا
سَرَى بِالنَّسِيجِ الْخُسْرَوَانِيَّ مُلْتَقًا^(١١)
صَرِيحُ مُدَامٍ بَاتَ يَشْرِبُهَا صِرْفًا
مِنَ التُّرْكِ نَادَى بِالنَّجَاشِيِّ فَاسْتَخْفَى^(١٢)
رَأَى الْقِرْنَ فَازْدَادَتْ طَلَاقَتُهُ ضِعْفًا^(١٣)
وَمَرْكُوزَةً^(١٤) سُمِرَا وَقَضْفَاضَةً زَعْفًا^(١٥)
نَحْطُ لَنَا أَقْلَامُ آذَانِهَا صُخْفًا
وَقَدْ بُدِّلَتْ يُمْنَاهُ مِنْ لَيْمِنَاهُ^(١٦) عَنَّا
عَزِيْمَتُهُ بَرْقًا وَصَوْلَتُهُ خَطْفًا

وشعره كثير مدون، ومقامه شهير. وفيما أوردناه كفاية. وهو من البيرة الأصلية.

وفاته: قالوا: لما توجه إلى مصر، شرب بترقة وسكر ونام غريئاً، وكان
البرد شديداً فأفلج، وتوفي في سنة إحدى وستين وثلاثمائة^(١٧)، وهو ابن

= والأجلد: الصُّفْر.

(١) في الديوان: «ونعشاً».

(٢) في الأصل: «عَشَقَا» والتصويب من الديوان. وبنات نعش: سبعة كواكب. والمطافل: ذوات
الأطفال من الإنس والوحش، وأراد هنا بها الظباء، واحدها: مطلق. وجرة: موضع بين مكة
والبصرة. الخشف: الظبي.

(٣) السُّهَى: كوكب خفي.

(٤) في الديوان: «لونه».

(٥) الهزيع: قطعة من الليل. الآبنوس: نسبة إلى الآبنوس وهو شجر لون عوده أسود، صلب.
الخُسْرَوَانِي: حرير رقيق أبيض منسوب إلى خسرو أحد ملوك الفرس.

(٦) في الديوان: «كَانَ عَمُودُ الْفَجْرِ خَاقَانُ عَسْكَرٍ».

(٧) شبه عمود الفجر بملك الترك، وهو الخاقان، في بياضه، وشبه الليل بالنجاشي ملك الحبشة في
سواده.

(٨) القِرْن: الخصم. طلاقته: بشاشته.

(٩) في الديوان: «ومارئة».

(١٠) في الأصل: «وكاين» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١١) في الأصل: «عاجلاً» والتصويب من الديوان.

(١٢) جاء في التكملة (ج ١ ص ٢٩٦) أنه توفي سنة ٣٦١ هـ، وقيل: سنة ٣٦٢ هـ. وفي وفيات =

اثنتين^(١) وأربعين سنة. ولما بَلَغَت المعزُ وفاته، تأسف عليه وقال: هذا رجل كنا نطمح أن نفاخر به أهل المشرق.

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم
ابن علي الغساني البرجي الغرناطي^(٢)

يكنى أبا القاسم، من أهل غرناطة.

حاله: فاضل^(٣) مُجمع على فضله، صالح الأبوة، طاهر النشأة، بادي الصيانة والعفة، طُرِف في الخير والحشمة، صَدُرَ في الأدب، جُمُ المشاركة، ثاقب الذهن^(٤)، جميل العشرة، مُمتع المجالسة، حسن الخط^(٥) والشعر والكتابة، فذٌّ في الانطباع، صَنِيع^(٦) اليدين، يحكم على^(٧) الكثير من الآلات العلمية، ويجيد تفسير الكتاب^(٨). رَحَلَ إلى العُدوة^(٩)، وتوسَّل إلى ملكها، مُجَدِّد الرسم، ومقام^(١٠) الجَلَّة، وعلمُ دَسْت الشعر والكتابة، أمير المسلمين أبي عنان فارس^(١١)، فاشتمل عليه، ونوّه به، وملاً بالخير يَدُه، فاقتنى جِدَّةً وخُظُوَّةً وشُهْرَةً وذكرًا^(١٢)، وانقبض مع استرسال المُلْك^(١٣)، وآثر الراحة، وجَهَد في التماس الرُّحلة الحجازية، ونبذ الكلَّ، وسلا الخُطَّة، فأسعفه سلطانه بغرضه، وجعل حَبْلَه^(١٤) على غاربه، وأصبحه رسالة إلى النبي الكريم من إنشائه، متصلة بقصيدة من نظمه، وكلاهما تُغْلَن^(١٥) في الخلفاء بُغْد شأوه، ورسوخ قَدَمِ عِلْمه، وعراقة البلاغة، في نَسَب خَصْلَه، حسبما تَضَمَّنَه الكتاب

= الأعيان: توفي سنة ٣٦٢ هـ.

(١) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.

(٢) ترجمة محمد بن يحيى الغساني البرجي في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥٠) ونيل الابتهاج طبعة فاس

(ص ١٧٢) والتعريف بابن خلدون (ص ٦٤) وجذوة الاقتباس (ص ١٩٧) ونفع الطيب (ج ٧

ص ٢٤١) وأزهار الرياض (ج ٥ ص ٧٧).

(٣) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٣). (٤) في النفع: «الفهم».

(٥) في النفع: «حسن الشَّعر والخط». (٦) في النفع: «صناع».

(٧) في النفع: «محكم لعمل الكثير». (٨) في النفع: «الكتب».

(٩) في النفع: «العدوة ولقي جَلَّةً وتوسَّل».

(١٠) في النفع: «ومقام أولي الشهرة وعامر دست».

(١١) كلمة «فارس» غير واردة في النفع. (١٢) كلمة «وذكرًا» غير واردة في النفع.

(١٣) في النفع: «الملك لفضل عقله، حتى تشكى إليَّ سلطانه بثُّ ذلك عند قدومي عليه، وآثر

الراحة...».

(١٤) في النفع: «حبل همّه». والمعنى أنه تركه وشأنه.

(١٥) في النفع: «يعلن».

المسمى بـ «مساجلة البيان». ولما هلك ووليّ ابنه، قدّمه قاضيًا بمدينة مُلْكِه، وضاعف الثّنويه به، فأجرى الخطّة، على سبيل من السّداد والنزاهة. ثمّ لما وليّ السلطان أبو سالم عمّه، أجراه على الرسم المذكور، وهو الآن بحاله الموصوفة، مَفْخَر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدّد مفاخره، يحظى بكل اعتبار.

شعره: ثبت^(١) في كتاب «نفاضة الجراب» من تأليفنا، عند ذكر المُدْعَى الكبير بباب ملك المغرب، ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، وذُكِرَ مَنْ أنشد ليلتئذ من الشّعراء ما نصّه:

وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي، جُملة^(٢) السّذاجة، وكرم الخلق، وطيب النفس، وخذن العافية، وابن الصّلاح والعبادة، ونشأة القرآن، المُتَحَيِّز إلى حزب السلامة، المنقبض عن العُمار، العزوف عن فضول القول والعمل، جامع المحاسن، من عقل رصين، وطَلَب ممتع، وأدب نقّادة^(٣)، ويد صنّاع، أبو القاسم بن أبي زكريا البرّجي، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة^(٤): [البسيط]

أصغى إلى الوجد لما جدّ عاتبُه صَبَّ له شغلٌ عَمَّنْ يُعَاتِبُه
لم يُعطِ للصبرِ مِنْ بعد الفراق يدًا فَضَلَّ مَنْ ظَلَّ إرشادًا يخاطبُه
لولا الثّوى لم يَبْث حرّان^(٥) مكتتبًا يُغالبُ الوجدَ كَثْمًا وهو غالبه
يستودع^(٦) الليلَ أسرارَ الغرام وما تُملّيه أشجائُه فالذّمُّع كاتبُه
الله عصرٌ بشَرْقيّ الجمى سَمَحَتْ بالوصلِ أوقائُه لو عادَ ذاهِبُه
يا جيرةً أودّعوا إذ ودّعوا حُرْقًا يَضْلِي بها مِنْ صَمِيم القلبِ ذائبُه^(٧)
يا هل تُرى تَجْمَعُ^(٨) الأيامُ فُرْقَتَنَا كَعَهْدِنَا أو يردُّ القلبُ ساكبُه؟
ويا أهيلَ ودادي، والثّوى قَذَفَ والقُرْبُ قد أبْهَمَتْ دوني مذهبُه
هل ناقضُ العهدِ بَعْدَ البُعْدِ حافظُه وصادعُ الشّغلِ يومَ الشّعبِ شاعِبُه؟

(١) النص في نفاضة الجراب (ص ٣٨٢) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٤).

(٢) في نفاضة الجراب: «حملة».

(٣) في نفاضة الجراب: «نقاوة». وفي نفع الطيب: «وآدب ونقاوة».

(٤) القصيدة في نفاضة الجراب (ص ٣٨٢ - ٣٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ٢٥٢ - ٢٥٤) ونفع الطيب

(ج ٨ ص ٢٠٤ - ٢٠٨)، وجاء في الكتيبة الكامنة أنه قال هذه القصيدة عام ٧٠١ هـ.

(٥) في الأصل: «حيران» والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٦) في الكتيبة: «يودع». (٧) في الكتيبة: «ذائبه».

(٨) في الكتيبة: «ترجع الأيام ألفتنا... ويردّ... سالبه».

يبكي عهدك مُضنى الجسم شاحبه
 في كل أوب له شوق يُجاذبه
 والنفس بالَميل لفاني تُطالبه
 والأُنس بالآلف نحو الإلف جاذبه
 يا للرجال سَبَتْ جَدِي ملاعبه
 ولا كوعدِ المُننى أحلاه كاذبه
 مَنْ عَزُ نَفْسًا لقد عَزَتْ مطالبه
 بل هان في ذاك ما يَلْقاه طالبه
 آثاره ولما لاحت كواكبه
 ظَهَرَ السُرى فأجابتهُم نجائبه
 طي السُجل إذا ما جَدَّ كاتبه
 لولا الضُرام لما خَفَّت جوانبه
 فغاص في لُجة الظُلماء راسبه
 فخلّفوه وقد شابَتْ ذوائبه
 بجانبِ الحُرم المَحْمِي جانبه
 من دَنِيهِ وينالُ القُضدَ راغبه
 يُصاحبُ القلبَ منه ما يُصاحبه
 سقى ثراه عَمِيمُ الغَيْثِ ساكبه
 شوقُ المقيم وقد سارَتْ حبايبه
 في الشَّمْل منا يداء لا تُعاتبه^(٦)
 مِنْ فَضْلِهِ^(٧) شرفٌ تَغْلُو مراتبه
 رَبُّ العبادِ أَمِينُ الوحي عاقبه
 أعلامُهم كرمًا، جَلَّتْ مناقبه
 زَكَّتْ حُلَاهُ^(٨) كما طابَتْ مناسبه

ويا ربوعَ الجَمَى لا زَلَّتْ ناعمة
 يا مَنْ لقلبٍ مَعَ الأهواء مُنعطف
 يسمو إلى طَلَبِ الباقي بهِمَّتَه
 وفتنَةُ المرءِ بالمآلوف مُغضلة
 أبكي لعهد الصبا والشَّيبُ يضحك بي^(١)
 ولن ترى كالهوى أشجاء سالفه
 وهمةُ المرءِ تُغليه وتُرْجِضُه
 ما هان كسبُ المعالي أو تناوُلُها
 لولا سُرى القَلْبِ السَّامي لما ظهرت
 في ذمة الله رَكْبٌ للعلا رَكِبوا
 يرمون عَرَضَ الفلا بالسَّير عن عَرَضِ^(٢)
 كأنهم في فؤاد^(٣) الليل سِرُّ هوى
 شَدُّوا على لَهَبِ الرَّمضاء وطأتهم
 وكَلَّفوا الليل من طولِ السُرى شططا
 حتى إذا أَبْصَرُوا الأعلام ماثلة^(٤)
 بحيث يأمنُ مَنْ مَوْلَاهُ خائفة
 فيها وفي طيبة الغراء لي أَمَلٌ
 لم^(٥) أنس لا أنس أيامًا بظلمهما
 شوقي إليها وإن شَطَّ المزار بها
 إن رَدَّها الدهرُ يومًا بعد ما عِيَتْ
 معاهدُ شَرَفَتْ بالمصطفى قلها
 محمدُ المُجْتَبَى الهادي الشُّفيعُ إلى
 أَوْفى الورى ذمًا، أسماهم همًا
 هو المُكَمَّلُ في خَلْق وفي خُلُقٍ

(١) في الكتيبة: «لي».

(٢) في الأصل: «عرض» والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٣) في الكتيبة: «سواد».

(٤) في الكتيبة: «ما أنس».

(٥) في نقاضة الجراب: «مائلة».

(٦) في نقاضة الجراب: «تعاتبه».

(٧) في الكتيبة: «علامه».

(٨) في الكتيبة: «من أجله».

عنايةً قبل بدء الخلق سابقةً
جاءت تُبَشِّرُنَا الرُّسُلُ الكرامَ به
أخباره سرٌّ عِلْمِ الأولين وسل
تطابق الكون في البُشرى بمولده
فالجن تهتف إعلانا هواتفه
ولم تزل عصمة التأييد تُكفِّفه
سرى وجنح ظلام الليل مُنْسِدِلٌ
يسمو لكل سماء منه منفردة
لمُنتهى وَقَفَ الرُّوحُ الأمينُ به
لقاب^(٣) قوسين أو أدنى فما علمت
أراه أسرارَ ما قد كان أودعه
وآبَ والبذرُ في بحر الدُّجى غرقُ
فأشرقَت بِسِيَّاهُ الأرضُ وأتبعَت
وأقبل الرُّشدُ وأتاحت زواهره
وجاء بالذكر آياتٍ مُفَصَّلَةٌ
نورٌ من الحكَم لا تخبر سوا طعنه
له مقام الرضا المحمود شاهدة
والرُّسُلُ تحت لواء الحمد يُقدِّمها
له الشِّفَاعَاتُ مقبولا وسائلها
والحوض يروي الصدى من عَذْبٍ مورده
محامد المصطفى لا ينتهي أبدا
فُضِّلَ تَكْفُلُ بالدَّارين يُوسِّعُها
حسبي التوسُّلُ منها بالذي سَمَحَتْ
حَيَّاهُ من صلواتِ الله صَوَّبُ حَيَّا

مِنْ أَجْلِهَا^(١) كَانَ آتِيَهُ وَذَاهِبُهُ
كَالصُّبْحِ تَبْدُو تَبَاشِيرًا كَوَاكِبُهُ^(٢)
يَذِيرُ نِيَمَاءَ مَا أَبْدَاهُ رَاهِبُهُ
وَطَبَّقَ الْأَرْضَ أَعْلَامًا تُجَاوِيهِ
وَالْجَنُّ تَقْذِفُ إِحْرَاقًا ثَوَاقِبُهُ
حَتَّى انْجَلَى الْحَقُّ وَانْزَا حُثَّ شَوَائِبُهُ
وَالْتَّجَمَ لَا يَهْتَدِي فِي الْأَفْقِ سَارِبُهُ
عَنِ الْأَنَامِ وَجَبْرَائِيلُ صَاحِبُهُ
وَامْتَازَ قُرْبًا فَلَا خَلْقَ يُقَارِبُهُ
نَفْسٌ بِمَقْدَارِ مَا أَوْلَاهُ وَاهِبُهُ
فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ بِأَدْيِهِ وَغَائِبُهُ
وَالصُّبْحُ لَمَّا يَوْثُ لِلشَّرْقِ آيِبُهُ
سُبُلَ النِّجَاةِ بِمَا أَبَدَتْ مَذَاهِبُهُ
وَأَذْبَرَ الْعَيَّ فَاَنْجَابَتْ^(٤) غِيَاهِبُهُ
يُهْدِي بِهَا مِنْ صِرَاطِ اللَّهِ لِأَجِبِهِ
بَخْرٌ مِنَ الْعِلْمِ لَا تُفْنِي عَجَائِبُهُ
فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ إِذْ نَابَتْ نَوَائِبُهُ
مُحَمَّدٌ أَحْمَدُ السَّامِيِّ مَرَاتِبُهُ
إِذَا دَهَى الْأَمْرُ وَاشْتَدَّتْ مِصَاعِبُهُ
لَا يَشْتَكِي عُلَّةَ الظُّمَأَنِ شَارِبُهُ
تَعْدَادُهَا، هَلْ يَغْدُ الْقَطَرُ حَاسِبُهُ؟
تُعْمَى وَرُخْمَى فَلَا فَضْلَ يُنَاسِبُهُ
بِهِ الْقَوَافِي وَجَلَّتْهَا غَرَائِبُهُ
تُخْدِي إِلَى قَبْرِهِ الزَّكَاكِي نَجَائِبُهُ

(١) في الكتيبة: «من أجله».

(٢) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الكتيبة الكاملة.

(٣) القاب: المقدار، وما بين المقبض والسَّيَّة من القوس. وفي القرآن الكريم: ﴿كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، ومحيط المحيط (قوب).

(٤) انجابت: انجلت وانكشفت، محيط المحيط (جيب).

وَحَلَدَ اللَّهُ مُلْكَ الْمُسْتَعِينِ بِهِ
 إِمَامٍ عَدْلٍ بِتَقْوَى اللَّهِ مُشْتَمِلٌ
 مُسَدِّدُ الْحُكْمِ مِيْمُونٌ نَقِيبُهُ
 مُشْمَرٌ لِلتَّقَى أَذْيَالٌ مَجْتَهِدٌ
 قَدْ أَوْسَعَتْ أَمَلَ الرَّاجِي مَكَارِمُهُ
 وَفَازَ بِالْأَمْنِ مَحْبُورًا مُسَالِمُهُ^(١)
 كَمْ وَافِدٍ أَمَلٍ مَغْهُودٍ نَائِلُهُ
 وَمُسْتَجِيرٍ بَعَزٌ مِنْ مَقَابِتِهِ
 وَجَاءَهُ الدَّهْرُ يَسْتَرْضِيهِ مُعْتَذِرًا
 لَوْلَا الْخَلِيفَةُ إِبْرَاهِيمُ لَانْبَهَمَتْ
 سَمَتْ لَنَيْلِ تَرَاثِ الْمَجْدِ هِمَّتُهُ
 يُنْمِيهِ لِلْعَزِّ وَالْعَلْيَا أَبُو حَسَنِ
 مِنْ آلِ يَعْقُوبَ حَسْبُ الْمَلِكِ مَفْتَخِرًا
 أَطْوَادُ جِلْمٍ رَسَا بِالْأَرْضِ مَحْتِدُهُ
 تَحْفُفُهَا مِنْ مَرِيْنٍ أَبْحَرُ زَخَرَتْ
 بِكُلِّ نَجْمٍ لَدَى الْهَيْجَاءِ مُلْتَهَبٌ
 أَكْثَمُ فِي دِيَاغِيهَا مَطَالِغُهُ
 يَا خَيْرَ مَنْ خُلِصَتْ لَهُ نَيْتُهُ
 جَرُودَتْ وَالْفِتْنَةُ الشُّعْرَاءُ مُلْبِسَةٌ
 وَخُضَّتْهَا غَيْرَ هَيَابٍ وَلَا وَكِلٍ
 صَبَرَتْ نَفْسًا لِعُقْبَى الصَّبْرِ حَامِدَةٌ
 فَلَیْهِنَ دِیْنُ الْهُدَى إِذْ كُنْتَ نَاصِرَهُ
 لَا زَالَ مَلِكُكَ وَالتَّأْيِيدُ يَخْدُمُهُ

مُؤَيَّدَ الْأَمْرِ مِنْصُورًا كِتَابُهُ
 فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ يُرْضِيهِ يُرَاقِبُهُ
 مُظْفَرُ الْعَزْمِ صَدَقُ الرَّأْيِ صَائِبُهُ
 جَرَّارُ أَذْيَالٍ سُخْبِ الْجُودِ سَاحِبُهُ
 وَأَخْسَبَتْ^(٢) رَغْبَةُ الْعَافِي رَغَائِبُهُ
 وَبَاءَ بِالْخَزْيِ مَقْهُورًا مُحَارِبُهُ
 أَتْنَى وَأَثْنَتْ بِمَا أُولَى حَقَائِبُهُ
 عَزَّتْ مَرَامِيهِ وَانْقَادَتْ مَآرِبُهُ
 مُسْتَغْفِرًا مِنْ وَقُوعِ الذَّنْبِ تَائِبُهُ
 طُرُقُ الْمَعَالِي وَنَالِ الْمُلْكِ غَاصِبُهُ
 وَالْمَلِكُ مِيرَاثٌ مَجْدٍ وَهُوَ عَاصِبُهُ^(٣)
 سَفَحُ الْخِلَائِقِ مُحَمَّدٌ ضَرَائِبُهُ
 بِيَابِ عَزْهِمُ السَّامِيِّ تَعَاقِبُهُ
 وَزَاحَمَتْ^(٤) مَثْكِبَ الْجُوزَا مَنَاقِبُهُ
 أَمْوَاجُهَا وَغَمَامٌ نَارُ صَائِبِهِ
 يَنْقُضُ وَسَطَ سَمَاءِ النُّفُوعِ ثَائِبُهُ
 وَفِي نَحُورِ أَعَادِيهِمْ مَغَارِبُهُ
 فِي الْمُلْكِ أَوْ خَطَبِ الْعُلِيَاءِ خَاطِبُهُ
 سَيْفًا مِنَ الْعَزْمِ لَا تَثْبُورُ مَضَارِبُهُ
 وَقَلَمًا أَدْرَكَ الْمَسْطُوبَ هَائِبُهُ
 وَالصَّبْرُ مَذْ^(٥) كَانَ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ
 أَمِنْ يَوَالِيهِ أَوْ خَوْفٍ يَجَانِبُهُ
 تَقْضِي بِخَفْضِ مُنَاوِيهِ قَوَاضِيهِ^(٦)

(١) أَحْسَبْتُ: أَكْثَرْتُ وَأَجَزَلْتُ. لِسَانُ الْعَرَبِ (حَسْبُ).

(٢) فِي نَفَاضَةِ الْجَرَابِ: «مَسَالِيهُ».

(٣) فِي النِّفَاضَةِ وَالنَّفْعِ: «غَاصِبُهُ» بِالْفَيْنِ الْمَعْجَمَةِ.

(٤) فِي الْأَصْلِ: «وَزَاحَمَتْ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوُزْنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النِّفَاضَةِ وَالنَّفْعِ.

(٥) فِي نَفَاضَةِ الْجَرَابِ: «مَذْ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوُزْنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصَادِرِ الْآخَرَى.

(٦) الْقَوَاضِي: جَمْعُ قَاضٍ وَهُوَ السِّيفُ الْقَطَاعُ. مُحِيطُ الْمُحِيطِ (نَفْضٍ).

ودُفئت في نَعَمٍ تصفوا^(١) ملابسها في ظلِّ عزٍّ علّا تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خير البرية ما سارت إليه بمشتاق ركائبه
ومن شعره ما قيده لي بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة^(٢) المرينية، الفقيه
الرئيس الصدر المتفتن أبو زيد بن خلدون^(٣): [الطويل]

صحا القلب عما تعلمين فأقلعا وعطل من تلك المعاهد أزيعا^(٤)
وأصبح لا يلوي على حد منزل ولا يتبع الطرف الخلي المودعا
وأضحى من السلوان في جزز مغفل يرد الجفان النجل عن شرفاته
عزير على داعي الغرام انقياده وكان إذا ناداه للوجد أهطعا^(٥)
أهاب به للشيب أنصح واعظ أصاخ له قلبا منيبا ومنمعا
وسافر في أفق التفكير والحجا زواهره لا تبرح الدهر طلعا
لعمري لقد أنصيت عزمي تطلبا وقضيت عمري رقية^(٦) وتطلعا
وحضت عباب البحر أخضر مزيدا ودشت أديم الأرض أغبر أسفعا^(٧)

ومن شعره حسبا قيده المذكور^(٨): [المقارب]

نهاه النهى بغد طول التجارب ولاخ له منهج الرشيد لاجب^(٩)
وخاطبه دهره ناصحا بالسنة الوغظ من كل جانب
فأضحى إلى نضح واعيأ وألغى حديث الأمانى الكواذب
وأصبح لا تستبيه^(١٠) الغواني ولا تزدريه حظوظ المناصب

(١) في الأصل: «تصفوا». وفي نفاضة الجراب: «تصفوا».

(٢) الحضرة المرينية: هي عاصمة بني مرين بالمغرب.

(٣) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٨).

(٤) الأزيغ: جمع ربع وهو الدار. لسان العرب (ربع).

(٥) أهطع: أسرع. لسان العرب (هطع). (٦) في النفع: «رقية».

(٧) الأسفع: الأسود المائل إلى الحمرة. لسان العرب (سفع).

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٥١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٨).

(٩) اللاجب: الطريق الواضح. محيط المحيط (لجب).

(١٠) في الكتيبة: «لا تستبيه».

واحسانه^(١) كثير في النظم والنثر، والقصار والمطولات. واستعمل في السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة، وهو الآن قاضي^(٢) مدينة فاس، نسيج وخدي في السلامة والتخصيص^(٣)، واجتنب فضول القول والعمل، كان الله له.

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف ابن محمد الصريحي^(٤)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن زفرك. أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفه رُبض البتازين من غرناطة، وبه ولد ونشأ، وهو من مفاخره.

حاله: هذا^(٥) الفاضل صَدَّرَ من صدور طلبة الأندلس وأفراد نُجَبائِها، مختَصَّ^(٦)، مقبول، هَشْ، خلوب، عَذْب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خفيف الروح، عظيم الانطباع، شَرِه المذاكرة، فُطِن بالمعارض^(٧)، حاضر الجواب، شُغْلَة من شغل الذكاء، تكاد تُخْتَدَم جوانبه، كثير الرقة، فِكِه، غَزَل مع حياء وحشمة، جَوَاد بما في يده، مشارك لإخوانه. نشأ عَقًّا، طاهرًا، كَلِفًا بالقراءة، عظيم الذُؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر الثبل، بعيد مدى الإدراك، جيّد الفهم، فاشتهر فضله، وذاع أَرْجُه، وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض، وشارك في جُمْلَة^(٨) من الفنون، وأصبح مُتَلَقِّف كُرَّة البحث، وصارخ الحَلْقَة، وسابق الحَلْبَة، ومظنّة الكمال. ثم ترقى في دَرَج المعرفة والاضطلاع، وخاض لُجَّة الحفظ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس، متكلمًا فوق الكرسي المنصوب، وبين^(٩) الحفل المجموع، مُسْتَظْهَرًا بالفنون^(١٠) التي بَعْدَ فيها شَأُوهُ، من العربية والبيان واللغة، وما يقذف به في لُج النقل، من الأخبار والتفسير. متشوقًا مع ذلك إلى السُّلُوك، مصاحبًا للصوفية، آخذًا نفسه بارتياض ومجاهدة، ثم عانى الأدب، فكان

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٠٩). (٢) في النفح: «قاضي حضرة الملك».

(٣) في النفح: «والتخصيص».

(٤) ترجمة ابن زمرك في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٢) ونثير فرائد الجمان (ص ٣٢٧) ونيل الابتهاج طبعة فاس (ص ٢٨٢) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٧) ونفح الطيب (ج ١٠ ص ٣) واسمه في الأزهار والنفح: «محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي».

(٥) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ٤ - ٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٨ - ٩).

(٦) في النفح: «مختصر».

(٧) أي المعارض من الكلام، وهو ما عرض به ولم يُصَرِّح.

(٨) في النفح: «كثير». (٩) في النفح: «فوق المحفل».

(١٠) مستظهرًا بالفنون: متقوياً بها.

أَمَلَكَ بِهِ، وَأَعْمَلَ الرُّحْلَةَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْإِزْدِيَادِ، وَتَرَقَّى^(١) إِلَى الْكِتَابَةِ عَنْ وَلَدِ السُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ أَبِي سَالِمٍ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ يَعْقُوبَ، ثُمَّ عَنْ السُّلْطَانِ، وَعُرفَ فِي بَابِ^(٢) الْإِجَادَةِ. وَلَمَّا جَرَتْ الْحَادِثَةُ عَلَى السُّلْطَانِ صَاحِبِ الْأَمْرِ بِالْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَقَرَّ بِالْمَغْرِبِ، أَتَسَّ بِهِ، وَانْقَطَعَ إِلَيْهِ، وَكَرَّ صَحْبَةً^(٣) رِكَابَهُ إِلَى اسْتِرْجَاعِ حَقِّهِ، فَلُطِفَ مِنْهُ مَحَلُّهُ، وَخَصَّهُ بِكِتَابَةِ سِرِّهِ. وَثَابِتُ الْحَالِ، وَدَالَتْ الدَّوْلَةُ، وَكَانَتْ لَهُ الطَّائِلَةُ، فَأَقْرَبَهُ عَلَى رَسْمِهِ مَعْرُوفُ الْإِنْقِطَاعِ وَالصَّاعِيَةِ، كَثِيرُ الدَّالَّةِ، مَضْطَلَعًا بِالْخُطَّةِ خَطًّا وَإِنْشَاءً وَلِسَانًا وَنَقْدًا، فَحَسُنَ مَنَابُهُ، وَاشْتَهَرَ فَضْلُهُ، وَظَهَرَتْ مِشَارِكَتُهُ، وَخَسُنَتْ وَسَاطَتُهُ، وَوَسَّعَ النَّاسُ تَخْلُقَهُ، وَأَرْضَى لِلْسُّلْطَانِ حَمْلَهُ، وَامْتَدَّ فِي مِيدَانِ النُّشْرِ^(٤) وَالنَّظْمِ بَاغُهُ، فَصَدَرَ عَنْهُ مِنَ الْمَنْظُومِ فِي أَمْدَاحِهِ قِصَائِدٌ بَعِيدَةُ الشَّأْوِ فِي مَدَى الْإِجَادَةِ، [حَسْبَمَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ، مَا تَضَمَّنَهُ اسْمُ السُّلْطَانِ، أَيَّدَهُ اللَّهُ، فِي أَوَّلِ حَرْفِ الْمِيمِ، فِي الْأَغْرَاضِ الْمُتَعَدِّدَةِ مِنَ الْقِصَائِدِ وَالْمِيلَادِيَّاتِ، وَغَيْرِهَا^(٥)]. وَهُوَ بِحَالِهِ الْمَوْصُوفَةُ إِلَى الْآنَ^(٦)، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٧) وَسَدَّدَهُ.

شيوخه: قرأ^(٨) العربية على الأستاذ رُحْلَةَ الْوَقْتِ^(٩) فِي فَنِّهَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْفَخَّارِ ثُمَّ عَلَى إِمَامِهَا^(١٠) الْقَاضِي الشَّرِيفِ، إِمَامِ الْفُنُونِ اللَّسَانِيَةِ، أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الْحَسَنِيِّ، وَالْفَقْهَ وَالْعَرَبِيَّةَ عَلَى الْأَسْتَاذِ الْمُفْتِي أَبِي سَعِيدِ بْنِ لُبِّ، وَاخْتَصَّ بِالْفَقْهِ الْخَطِيبُ الصُّدْرُ الْمُحَدِّثُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْزُوقٍ فَأَخَذَ عَنْهُ كَثِيرًا مِنَ الرِّوَايَةِ، وَلَقِيَ الْقَاضِي الْحَافِظَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَرِّيَّ عِنْدَمَا قَدِمَ^(١١) رَسُولًا إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَذَكَرَهُ، وَقَرَأَ الْأَصُولَ الْفَقْهِيَّةَ عَلَى أَبِي عَلِيٍّ مَنْصُورِ الزُّوَاوِيِّ، وَرَوَى^(١٢) عَنْ جُمْلَةٍ مِنْهُمْ الْقَاضِي أَبُو الْبَرَكَاتِ ابْنُ الْحَاجِّ، وَالْمُحَدِّثُ أَبُو الْحَسَنِ^(١٣) ابْنُ التَّلْمَسَانِيِّ، وَالْخَطِيبُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ اللُّوْشِيِّ، وَالْمُقَرِّيُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ بَيْبِشٍ. وَقَرَأَ بَعْضَ الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ بِمَدِينَةِ فَاسَ عَلَى الشَّرِيفِ الرَّحْلَةِ الشَّهِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعَلَوِيِّ التَّلْمَسَانِيِّ، وَاخْتَصَّ بِهِ اخْتِصَاصًا لَمْ يَخُلْ فِيهِ مِنْ إِفَادَةٍ^(١٤) مَرَانٍ وَخُنُكَةٍ فِي الصَّنَاعَةِ^(١٥).

-
- (١) فِي النَّفْحِ: «فَتَرَقَّى».
 (٢) فِي النَّفْحِ: «فِي بَابِهِ بِالْإِجَادَةِ».
 (٣) فِي النَّفْحِ: «فِي صَحْبَةٍ».
 (٤) فِي النَّفْحِ: «النَّظْمُ وَالنُّشْرُ».
 (٥) مَا بَيْنَ قَوْسَيْنِ سَاقِطٌ فِي النَّفْحِ.
 (٦) كَلِمَةُ «تَعَالَى» سَاقِطَةٌ فِي الْإِحَاطَةِ، وَقَدْ أَضْفَيْنَاهَا مِنَ النَّفْحِ.
 (٧) النَّصُّ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ١٠ ص ٥).
 (٨) فِي النَّفْحِ: «رُحْلَةُ إِلَى الْمَغْرِبِ فِي...».
 (٩) فِي النَّفْحِ: «قَدِمَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ».
 (١٠) كَلِمَةُ «إِمَامِهَا» سَاقِطَةٌ فِي النَّفْحِ.
 (١١) فِي النَّفْحِ: «أَبُو الْحَسَنِ».
 (١٢) فِي النَّفْحِ: «وَيُرَوَّى عَنْ جَمَاعَةٍ».
 (١٣) فِي النَّفْحِ: «فِي الصَّنِيعَةِ».
 (١٤) فِي النَّفْحِ: «اسْتِفَادَةٍ».
 (١٥) فِي النَّفْحِ: «فِي الصَّنِيعَةِ».

شعره: وشعره^(١) مترام إلى نَمَط^(٢) الإجادة، خفاجي^(٣) التزعة، كَلِفَ بالمعاني البديعة، والألفاظ الصَّقيلة، غزير المادة. فمنه في غرض الشَّيب^(٤):

رضيتُ بما تَقْضي عليّ وتحكُمُ إذا كان قلبي في يديك قيادَه
على أن رُوحِي في يديك بقاؤه وأنت إلى المُشتاق نازَ وجئَه
ولي كَبِدٌ تَندي إذا ما ذُكرتم ولو كان ما بي منك بالبرق ما سَرى
أراعي نجوم الأَق في اللَّيل ما دَجى وما زلت أخفي الحبَّ عن كل عادل
كَساني الهوى ثوب السُّقام وإنه فيا مَنْ له العقل الجميل سجيَّة
وعنه يُروِّي الناس كلَّ غريبة إذا أنت لم ترحم خضوعي في الهوى
وحلمك جِلْم لا يليق بمذنب ووالله ما في الحيِّ حيٍّ ولم ينل
ومن قبل ما طَوَّقْتَنِي كل نعمة وفتحت لي باب القبول مع الرضى
ولو كان لي نفس تخونك في الهوى وأترك أهلي في رضاك إلى الأسى
أما والذي أَشقى فؤادي في الهوى لأنت من قلبي ونزهة خاطري

أهان فأقصى أم أصافي فأكثرمُ فمالي عليك في الهوى أَتَحَكُمُ
بوضلك يحيى أو بهجرِك يُغْدمُ ببُعدك يَشقى أو بقُربك يَنْعمُ
وقلْبُ بنيران الشوق يَتَضَرَّمُ ولا استصحب الأنواء تبكي وتبسمُ
وأقرب من عيني للنوم أنجم وتُشفي دموع الصَّب ما هو يَكتم
متى صَحَّ حبُّ المرء لا شيء يُنقم ومن جود يمناه السحيا يُتَعَلَّم
تُخَطُّ على صفح الزمان وتُرسَم فمن ذا الذي يُحني عليّ ويرحم
فما بال ذنبي عند جِلْمك يعظُم؟ رضاك وعمته أباد وأنعم
كأنِّي وإياها سوار ومغصم يغضُّ الحي طرفي كأنِّي مُجرم
لفارقتُها طرَعًا وما كنت أندم وأسلم نفسي في يديك وأسلم
وإن كان في تلك الشقاوة يَنْعم ومورد آمالي وإن كنتُ أُخْرِم

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٠٩) و(ج ١٠ ص ٥).

(٢) في النفع: «هدف».

(٣) نسبة إلى ابن خفاجة، شاعر الطبيعة في الأندلس.

(٤) لم ترد هذه الأبيات في نفع الطيب.

ومن ذلك ما خاطبني به، وهي^(١) من أول نظمه، قصيدة مطلعها: [الطويل]

«أما وانصداع الثور في^(٢) مطلع الفجر»

وهي طويلة^(٣). ومن بدائعه التي عَقِمَ عن مثلها قياس قيس، واشتهرت بالإحسان اشتهاار الزُّهد بأويس^(٤)، ولم يحل مُجارِيه ومُبارِيه إلا بويح ووَيْس، قوله في إغذار الأمير ولدِ سلطانه، المنوّه بمكانه، وهي من الكلام الذي عُنيَت الإِجادة بتدْهِيهه وتهذِيهه، وناسب الحسن بين مديحه ونسييه^(٥): [الطويل]

مَعَاذَ الهوى أن أَصْحَبَ القلبَ ساليا	وأن يُشْغَلَ اللوأمَ بالغَذَلِ باليا
دعاني أَعْطِ الحبَّ فضلَ مَقادتي	ويقضي عليّ الوَجْدُ ما كان قاضيا
ودون الذي رامَ العواذِلُ صَبوَةً	رَمَتْ بي في شُغْبِ الغرامِ المراميا
وقلِّبَ إذا ما البرقُ أومَضَ مَوْهِنًا ^(٦)	قَدَحْتُ به زَنْدًا من الشوقِ واريًا
خَليلِي إني يومَ طارقةِ النوى	شَقِيتُ بمن لو شاءَ أَنْعَمَ باليا
وبالْخَيْفِ يومَ الثُّفْرِ يا أُمَ مالك	تَخَلَّفْتُ ^(٧) قلبي في جِبالكِ عانيا ^(٨)
وذِي أَشْرٍ عَذَبِ الثُّنَايا مُخْصِرِ	يُسَقِّي به ماءَ النعيمِ الأَقاحيا
أَحْوَمُ عليه ما دَجَا الليلُ ساهرا	وأُضِيحُ دونَ الوردِ ظمآنَ صاديا ^(٩)
يُضِيءُ ظلامَ الليلِ ما بين أضلعي	إذا البارِقُ التُّجْدِي وَهْنا بدا ليا
أَجِيرَتْنَا بالرُّمْلِ والرَّمْلُ مَنْزِلُ	مَضَى العيشُ فيه بالشُّبِيَةِ حاليا
ولم أَرِ زَنْعًا منه أَقْضَى لُبَانَةً	وأشجى حَمَامَاتٍ وأخلى مَجَانيا
سَقَتْ طَلَّهُ ^(١٠) الغُرُ الغواذي ونُظْمَتْ	من القَطْرِ في جيدِ الغصونِ لآليا

(١) في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٥): «وهو». (٢) في النفع: «من».

(٣) وردت في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٤ - ٢٨٨) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٦)، وعدد أبياتها ٥٩ بيتًا، ومطلعها:

لَكَ اللهُ مِنْ نَدَى الْجَلَالَةِ أَرْحَدٍ تطاوَّعَهُ الأَمَالُ فِي الثُّنْهِ وَالْأَمْرِ
(٤) هو أويس القرني أحد أعلام الزهد في العصر الأموي، قُتِلَ في وقعة صفين عام ٢٧ هـ. الأعلام (ج ٢ ص ٣٢) ومصادر حاشيته.

(٥) القصيدة في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٥٦).

(٦) المَوْهِنُ من الليل: نصفه أو بعد ساعة منه. لسان العرب (وهن).

(٧) تَخَلَّفْتُ: تَرَكْتُهُ خَلْفِي. لسان العرب (خلف).

(٨) العاني: الأسير. لسان العرب (عنا).

(٩) في الأصل: «ضاريًا» والتصويب من المصدرين.

(١٠) في الأزهار: «ظَلَّهُ».

أَبْثُكُم أَنِي عَلَى النَّأْيِ حَافِظٌ ذِمَامَ الْهَوَى لَوْ تَحْفَظُونَ ذِمَامِي
أَنَاشِدُكُمْ وَالْحُرُّ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَلَنْ يُغَدَّمَ الْأَحْسَانُ وَالْخَيْرُ^(١) جَازِيَا

وورد^(٢) على السلطان أبي سالم ملك المغرب، رحمة الله تعالى عليه، وَقَدْ
الْأَحَابِيشُ بِهَدِيَّةٍ مِنْ مَلِكِ السُّودَانِ، وَمِنْ جَمَلَتِهَا الْحَيَوَانُ الْغَرِيبُ الْمَسْمَى بِالزَّرَافَةِ^(٣)،
فَأَمَرَ مَنْ يُعَانِي الشَّعْرَ مِنَ الْكِتَابِ بِالنَّظْمِ فِي ذَلِكَ الْغَرَضِ، فَقَالَ وَهِيَ مِنْ بَدَائِعِهِ:
[الكامل]

لَوْلَا تَأَلَّقَ بَارِقُ التَّذْكَارِ مَا صَابَ وَاكِفٌ ذَمْعِي الْمِذْرَارِ
لَكِنَّهُ مَهْمَا تَعَرَّضَ خَافِقًا قَدَحَتْ يَدُ الْأَشَوَاقِ زَنْدَ أُوَارِي^(٤)
وَعَلَى^(٥) الْمَشُوقِ إِذَا تَذَكَّرَ مَعَهْدًا أَنْ يُغَيِّرِي الْأَجْفَانَ بِاسْتِغْبَارِ
أُمْدُكُرِي غَرْنَابَةً حَلَّتْ بِهَا أَيْدِي السُّحَابِ أَزْرَةَ النُّوَارِ؟
كَيْفَ التَّخَلُّصُ لِلْحَدِيثِ وَبَيْنَنَا^(٦) عَرَضُ الْفَلَاةِ وَطَافِحِ زَخَارِ^(٧)؟
وْغَرِيبَةٍ قَطَعَتْ إِلَيْكَ عَلَى الْوَنَى بَيْدًا تَبِيدُ بِهَا هُمُومُ السَّارِي
تُنْسِيهِ طَيِّئَةً^(٨) الَّتِي قَدْ أَمَّهَا وَالرُّكْبُ فِيهَا مَيِّتُ الْأَخْبَارِ
يَقْتَاذُهَا مِنْ كُلِّ مُسْتَمِيلِ الدُّجَى وَكَأَنَّمَا عَيْنَاهُ جَذْوَةُ نَارِ
خَاضُوا بِهَا لُجَجَ الْفَلَا فَتَخَلَّصَتْ مِنْهَا خُلُوصَ الْبَذْرِ بَعْدَ سِرَارِ
سَلِمَتْ بِسَعْدِكَ مِنْ غَوَائِلِ مِثْلِهَا وَكَفَى بِسَعْدِكَ حَامِيًا لِذِمَارِ
وَأَتَشْكُ يَا مَلِكَ الزَّمَانِ غَرِيبَةً قَنِيدُ النَّوَاطِرِ نُزْهَةً الْأَبْصَارِ
مَوْشِيَّةُ الْأَعْطَافِ رَائِقَةً^(٩) الْجَلَى رَقَمَتْ بِدَائِعِهَا يَدُ الْأَقْدَارِ
رَاقَ الْعَيُونَ أَدِيمُهَا فَكَأَنَّهُ رَوْضٌ تَفْتَحُ عَنْ شَقِيقِي بَهَارِ
مَا بَيْنَ مُبْضِضٍ وَأَضْفَرٍ فَاقِعٍ سَالَ اللَّجَيْنُ بِهِ خِلَالِ نُضَارِ
يَخْكِي حَدَائِقَ تَرْجِسٍ فِي شَاهِقٍ تَنْسَابُ فِيهِ أَرَاقُمُ الْأَنْهَارِ

(١) في الأصل: «الخير والإحسان» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) النص والقصيدة في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٠ - ١١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢).

(٣) في النفح: «الزرافة».

(٤) الأوار: حرّ النار، واللّهَبُ. محيط المحيط (أور).

(٥) في أزهار الرياض: «عَلَّ الْمَشُوقُ...». (٦) في أزهار الرياض: «ودونها».

(٧) في نفح الطيب: «وطافح الزخار». (٨) الطيئة: الثبّة والوجهة. لسان العرب (طوى).

(٩) في أزهار الرياض: «رائقة».

وأنشد^(١) السلطان في ليلة ميلاد رسول الله ﷺ، عَقِبَ ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه، رحمه الله تعالى: [الطويل]

تأمل أطلال الهوى فتألما ويسىما الجوى والسقم منها تعلمًا
أخو زفرة هاجت له منه^(٢) ذكره فأنجذ في شغب الغرام وأثهما
وأنشد^(٣) السلطان في وجهة للصيد أعمالها، وأطلق أعنة الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها قوله: [الكامل]

حيالك يا دار الهوى من دار نوء السماك بديمّة مذار
وأعاد وجه رباك طلقًا مشرقًا متضاحكًا بمباسم النوار
أمدكري دار الصبابة والهوى حيث الشباب يرف^(٤) غصن نضار
عاطيتني عنها الحديث كأنما عاطيتني عنها كؤوس عفار
إيه وإن أذكت نار صبايتني وقدخت زند الشوق بالتذكار
يا زاجر الأظعان وهي مشوقة أشبهتها في زفرة وأوار
حئت إلى نجد وليست دارها وصبت إلى هندية والقار^(٥)
شافت به برق الجمى واعتادها طيف الكرى بمزارها الميزوار^(٦)

ومن شعره في غير المطولات^(٧): [الطويل]

لقد زادني وجدًا وأغرى بي الجوى دبال^(٨) بأذيال الظلام قد التفا
تشير وراء الليل منه بنانة مخضبة والليل قد حجب الكفا
تلوح سنانا حين لا تنفخ الصبا وتبدو^(٩) سوارا حين تشني له العظفا
قطعت به ليلا يطارحني الجوى فأونة يبدو وأونة يخفى

(١) النص مع بيتي الشعر في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٢).

(٢) في النفع: «له نار ذكره».

(٣) النص والقصيدة في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٢ - ١٣) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠٣).

(٤) في أزهار الرياض: «بروق حسن نضار». (٥) في النفع: «هندية والغار».

(٦) رواية البيت في أزهار الرياض هي:

لكنها شامت به برق الجمى واعتادها طيف الكرى بمزار

(٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٦٩).

(٨) الدبال: جمع دباله وهي الفتيلة، وأراد المصباح الذي يصفه ابن زمرك في هذه الأبيات.

(٩) في النفع: «وتبدو».

إذا قلت لا يبدو أشال لسانه وإن قلت لا يخبر الضباة إذ لقا^(١)
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى وأهدى نسيم الروض من طيبه عزفا
لك الله يا مضباح أشبهت منهجتي وقد شفاها من لوعة الحب ما شفا
ومما ثبت له في صدر رسالة^(٢): [الطويل]

أزور بقلبي مَفْهَدَ الأُنسِ والهوى وأنهب من أيدي النسيم رسائلنا
ومهما سألت البرق يَهْفُو من الحمى يُبادره^(٣) دَمْعِي مجيبًا وسانلا
فياليت شِغْري والأمانى تَعْلَلُ أَيْزَعِي لِي الحَيُّ الكِرَامُ الوسائلا؟
وهل جِيرَتِي الأولى كما قد عَهِدْتُهُمْ يُوالُونُ بالإحسانِ مَنْ جاء سائلا؟
ومن أبياته الغراميات^(٤): [الوافر]

قيادي قد تَمَلَّكَهُ الغَرامُ ووَجَدِي لا يُطَاقُ ولا يُرامُ^(٥)
ودمعي دُونَهُ صَوْبُ الغَوادي وشَجْوِي^(٦) فوق ما يَشْدُو^(٧) الحَمَامُ
إذا ما الوَجْدُ لم يَبْرَحْ فَوادي على الدنيا وساكنيها السَّلامُ
وفي غرض يظهر من الأبيات^(٨): [الطويل]

ومُشْتَمِلٍ بالحسنِ أخوى مُهَفِّفٍ قضى رجْع طَرْفِي من محاسنه الوَطْرُ^(٩)
فأَبْصَرْتُ أَشْباءَ الرِّياضِ محاسنًا وفي خَدِّه جُرْحٌ بَدَا مِنْهُ لِي أَثَرُ
فَقُلْتُ لَجَلَّاسِي خذوا الحَذَرَ إنما به وَصَبْتُ مِنْ أَسْهَمِ العُشْجِ والحَوَزِ
ويا وجنةً قد جاورَتْ سَيْفَ لَحْظِهِ ومن شائها تَذْمِي مِنَ اللَّحْمِ بالبَصْرِ
تَحْبِلُ لِلْعَيْنَيْنِ جُرْحًا وإنما بَدَا كَلَفٌ مِنْهُ عَلَى صَفْحَةِ القَمَرِ

(١) في النفع: «لا يخفى الضياء به كفا» وفي أزهار الرياض: «لا يخبر الضياء به كفا».

(٢) نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٧٠).

(٣) في أزهار الرياض: «يبادر به».

(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٨٨) ونفع الطيب (ج ١٠ ص ١٦ - ١٧).

(٥) يُرام: يطلب. لسان العرب (روم). (٦) في الكتيبة: «وشوقي».

(٧) في الكتيبة: «يشكي». وفي النفع: «يشكو».

(٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧).

(٩) الأحوى: الأسمر، ومن كان لونه لون صدأ الحديد. الوطر: الحاجة. لسان العرب (هوى) (وطر).

ومما يرجع إلى باب الفخر، ولعمري لقد صدق في ذلك^(١): [الطويل]

الأئمة^(٢) في الجود والجود شيمتي^(٣) جُبِلْتُ على آثارها^(٤) يوم مولدي
ذريني فلو أني أخلدُ بالغنَى لَكُنْتُ ضنينًا بالذي مَلَكَتْ يدي
ومن مقطوعاته^(٥): [المقارب]

لَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنِّي امْرُؤٌ أَجْرُرُ ثَوْبَ الْعَفَافِ الْقَشِيبِ
فَكَمْ عَمُضَ الدَّهْرُ أَجْفَاءُ وَفَازَتْ قِدَاحِي بِوَصْلِ الْحَبِيبِ
وَقِيلَ رَقِيبُكَ فِي غَفْلَةٍ فَقُلْتُ أَخَافُ الْإِلَهَ الرَّقِيبِ

وفي مدح كتاب «الشفاء»^(٦) طلبه الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق عندما شرع في شرحه^(٧): [الطويل]

وَمَسَرَى رِكَابٍ لِلضَّبَا قَدْ وَتَتْ بِهِ نَجَائِبُ سُحْبٍ لِلتَّرَابِ تَزُوعُهَا
تَسْلُ سَيُوفَ الْبَرْقِ أَيْدِي خُدَاتِهَا فَتَنْهَلُ خَوْفًا مِنْ سَطَاهَا دُمُوعُهَا
ومنها:

وَلَا مِثْلَ تَعْرِيفِ الشِّفَاءِ حَقُوقُهُ فَقَدْ بَانَ فِيهِ لِلْعُقُولِ جَمِيعُهَا
بِمِرَآةٍ حُسْنٍ قَدْ جَلَّتْهَا يَدُ التَّهْيِ فَأَوْصَافُهُ يَلْتَأَخُ فِيهِ بَدِيعُهَا
نَجُومُ اهْتِدَاءٍ، وَالْمَدَادُ يُجِثُّهَا وَأَسْرَارُ غَيْبٍ وَالْبِرَاعُ تُذِيعُهَا
لَقَدْ حَزَّتْ فَضْلًا يَا أَبَا الْفَضْلِ شَامِلًا فَيُخْزِيكَ عَنْ نَصْحِ الْبَرَايَا شَفِيعُهَا
وَلِلَّهِ مِمَّنْ قَدْ تَصَدَّى لَشَرْحِهِ فَلَبَّاهُ مِنْ غُرِّ الْمَعَانِي مُطِيعُهَا
فَكَمْ مُجْمَلٍ قُصِّلَتْ مِنْهُ وَحِكْمَةٍ إِذَا كَثَمَ الْإِدْمَاجُ مِنْهُ تُشِيعُهَا
مَحَاسِنُ وَالْإِحْسَانُ يَبْدُو خِلَالِهَا كَمَا افْتَرَّ^(٨) عَنْ زَهْرِ الْبَطَاحِ رِبِيعُهَا

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠).

(٢) في الأصل: «يا لائمي» والتصويب من نفع الطيب. وفي أزهار الرياض: «ولائمي».

(٣) في النسخ: «شيمة». (٤) في المصدرين: «إيثارها».

(٥) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠) ونفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧).

(٦) كتاب «الشفاء» للفاضل عياض بن موسى اليحصبي، واسمه كاملاً: «الشفاء، بالتعريف بحقوق المصطفى».

(٧) البيتان في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٧ - ١٨).

(٨) افتتر: ابتسم. مختار الصحاح (فرر).

إِذَا مَا أَصُولُ الْمَرْءِ طَابَتْ أَرْوَمَةٌ^(١) فَلَا عَجَبَ أَنْ أَشْبَهَتْهَا فِرْوَعُهَا
بَقِيَتْ لِأَعْلَامِ الزَّمَانِ تُبَيِّلُهَا هُدًى وَلِأَحْدَاثِ الْخُطُوبِ تَرْوَعُهَا

ومما امتزج فيه نثره ونظمه، وظهر فيه أدبه وعلمه، قوله يخاطبني جواباً عن رسالة خاطبت بها الأولاد، وهم مع مولانا أيده الله بالْمُنْكَب^(٢): [مخلع البسيط]

مَا لِي بِحَمْلِ الْهَوَى يَدَانِ مِنْ بَعْدِ مَا أَعَوَزَ الثَّدَانِي
أَصْبَحْتُ أَشْكُو إِلَى^(٣) زَمَانِ مَا يَثُّ مِنْهُ عَلَى أَمَانِ
مَا بَالُ عَيْنِيكَ تَسْجُمَانِ وَالذَّمْعُ يَرْفُضُ كَالْجُمَانِ؟
نَادَاكَ وَالْإِلْفُ عَسَنَسِكَ وَإِنْ وَالْبَعْدُ مِنْ بَعْدِهِ كَوَانِي؟^(٤)
يَا شُقَّةَ^(٥) النَّفْسِ، مِنْ هَوَانِ لُجَجُ^(٦) فِي أَبْحَرِ الْهَوَانِ
لَمْ يَثْنِنِي^(٧) عَنْ هَوَاكَ ثَانِ يَا بُغِيَةَ الْقَلْبِ^(٨) قَدْ كَفَانِي^(٩)

يا جانحة الأصيل، أين يذهب قرصك المذهب، وقد ضاق بالشوق المذهب. أفست شمس الأنس محجوبة عن عيني، وقد ضرب البغد الحجاب بينها وبينى. وعلى كل حال، من إقامة وارتحال. فما مَحَلِّكَ من قلبي محلاً بينها. وما كنت لأقع من وجهك تخيلاً وشيهاً. ومن أين انتظمت لك عقول التشبيه وأتسقت، ومن بعض المواقع والشمس لو قطعت. صادق مَنذُور، وأنت تتجمل بثوبي زور، وجيب الظلام على دينارك حتى الصباح مَزُور، ووراءك من الغروب غريم لا يرحم، ومطالب تُثْقَلُ منه في كفه المطالب. ويا بَرِّق الغمام من أي حجاب تبتسم، وبأي صبح تَرْتَسِم، وأي غُفْل من السحاب تيسم. أليست مباسم الثغور، لا تُتجد بأفقي ولا تغور؟ هذا وإن كانت مباسمك مُساعدة، والجو مُلبس لها من الوجوم شعاراً، فلطالما ضحككت فأبكت الغوادي، وعقت الرائح والغادي. أعوذ بواشيم البروق، بتواسم الطُفْل والشروق، ذوات الزائرات المتعددة الطُروق، فهي التي قطعت وهاذا ونجاداً، واهتدت بسيف الصباح من السحاب قُراباً ومن البروق نجاداً، واهتدت خبر الذين أحبهم

(١) الأرومة: الأصل. لسان العرب (أرم).

(٢) الأبيات في أزهار الرياض (ج ٢ ص ١٠ - ١١).

(٣) في الأصل: «من» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٤) في الأصل: «كوان» والتصويب من أزهار الرياض.

(٥) في الأزهار: «يا شُقوة». (٦) في الأزهار: «لُجَجْتُ».

(٧) في الأصل: «لم يثن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٨) في الأصل: «القلوب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٩) في الأصل: «كفان» والتصويب من أزهار الرياض.

مُسْتَظَرِّفًا مُسْتَجَادًا، فعَالَهَا وَلَعَلَهَا، وَالله يَصِلُ فِي أَرْضِ الْوُجُودِ نَهْلَهَا وَعَلَهَا، وَأَنْ يُبَلِّغَ ظَمْعِينَ الشَّوْقِ بِنَسِيمِهَا الْبَلِيلِ، وَأَنْ نَعُوضَهُ مِنْ نَارِ الْغَلِيلِ، بِنَارِ الْخَلِيلِ، وَخَيْرَ طَبِيبٍ يَدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلٌ. فَشُكُوَايَ إِلَى اللَّهِ لَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ. هَلْ هُوَ إِلَّا فَرْدٌ تَسْطُو رِيَّاحَ الْأَشْوَاقِ عَلَى ذُبَالَتِهِ، وَعُمُرَ الشَّوْقِ قَدْ شَبَّ عَلَى الطُّوقِ، وَوَهَبَ الْجَمْعَ لِلْفَرْقِ وَلَمْ يَقْنَعْ بِالْمَشَاهِدَةِ بِالْوَصْفِ دُونَ الذُّوقِ. وَقَلْبٌ تُقْسَمُ أَحْشَاؤُهُ الْوُجُودَ، وَقَسَمَ بِأَلِهِ الْغُورَ وَالْتُّجْدَ. وَهَمُومٌ مَتَى وَرَدَتْ قُلُوبُ الْقَلْبِ، لَمْ تَبْرَحْ وَلَمْ تُعَدِّ، فَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا سَيِّدِي الَّذِي يُوْقِدُ أَفْكَارِي حُلُوقَ لِقَائِهِ، وَأَتَنَسَّمُ أَرْوَاحَ الْقَبُولِ مِنْ تَلْقَائِهِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُدِيمَ لِي أَمَالِي بِدَوَامِ بَقَائِهِ. إِنْ بَعُدَ مَدَاهُ، قَرِيبَتْ مَنَا يَدَاهُ، وَإِنْ أَخْطَأْنَا رِفْدَهُ أَصْبَيْنَا نَدَاهُ. فَتَمَرَاتِ آدَابِهِ الزُّهْرُ تَجِيءُ إِلَيْنَا، وَسَحَابُ بَنَانِهِ الْغُرُ تُصَوِّبُ دَوَالِينَا أَوْ عَلَيْنَا، عَلَى شَحْطِ هَوَاهُ، وَبَعْدَ مَنَاقِبِهِ. وَلَا كَرْسَالَةَ سَيِّدِي الَّذِي عَمَّتْ فَضَائِلُهُ وَخَصَّتْ، وَتَلَّتْ عَلَى أَوْلِيَاءِ نِعْمَتِهِ أَنْبَاءَ الْكَمَالِ وَقُصَّتْ، وَآيَ قَضَى كُلِّ مِنْهَا عَجَبًا، وَنَالَ مِنَ التَّيْمَاحِ غُرَّتُهَا وَاجْتَلَاءَ صَفْحَتِهَا أَرْبَابًا. فَلَقَدْ كَرُمْتُ عَنْهُ بِالِاشْتِرَاكِ فِي بُنُوْتِهِ الْكَرِيمَةِ نَسَبًا، وَوَصَلْتُ لِي بِالْعَنَايَةِ مِنْهُ سَبَبًا. تَوَلَّى سَيِّدِي خَيْرَكَ مِنْ يَتَوَلَّى خَيْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَيُجْزِلُ شُكْرَ الْمُتَنَعِّمِينَ. أَمَّا مَا تَحَدَّثْتُ بِهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ الْبَعِيدَةِ الْعَزِيزَةِ، وَأَخْبَرْتُ عَنْهُ مِنَ الْمَعَانِي الْفَرِيدَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَسَالِيبِ الْمُطِيلَةِ، فَيَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهِ، وَإِحْكَامُ رَصْفِهِ، الْقَلَمُ وَاللِّسَانُ، وَيَعْتَرِفُ لَهَا بِالْإِبْدَاعِ الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَى أَمَدِ الْإِحْسَانِ الْبَدِيعِ وَحُسْنَانِ. وَلَقَدْ أَجْهَدْتُ جِيَادَ الْارْتِجَالِ، فِي مَجَالِ الْاسْتَعْجَالِ، فَمَا سَمَحَتْ الْقَرِيحَةُ إِلَّا بِتَوَقُّعِ الْآجَالِ، وَعَادَتْ مِنَ الْإِقْدَامِ إِلَى الْكَلَالِ. فَعَلِمْتُ أَنَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الْكَرِيمَةَ، مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ قَرَأَهَا وَتَأَمَّلَهَا، أَنْ لَا يَجْرِي فِي لُجَّةٍ مِنْ مِيَادِينِهَا، وَيَدِيمُ يَرَاعَ سَيِّدِي الْإِحْسَانَ كَرِيْنَهَا، لَكِنْ عَلَى أَنْ يَفْسَحَ الرِّيَاضَ لِلْقَصَصِ مَدَى، وَيَقْتَدِيَ بِأَخْلَاقِ سَيِّدِي الَّتِي هِيَ ثَوْرٌ وَهْدَى، فَإِنَّهُ وَاللهُ يَبْقِيهِ، وَيَقِيهِ مِمَّا يَتَّقِيهِ، بَعْدَ مَا أَعَادَ فِي شُكْوَى الْبَيْنِ وَأَبْدَى، وَتَظَلَّمَ مِنَ الْبَعْدِ وَاسْتَعْدَى، وَرَفَعَ حَكْمَ الْعِتَابِ عَنْ ذَرَاتِ التَّسْيِيمِ وَالْإِقْتِعَابِ، وَرَعَى وَسِيلَةَ ذِكْرِهَا فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ. وَوَلَّى فَضْلُهُ مَا تَوَلَّى، وَصَرَفَ هَوَاهُ إِلَى هَوَى الْمَوْلَى أَنْ صُورَ السَّعَادَةِ عَلَى رَأْيِهِ، أَيْدَهُ اللَّهُ تُجَلَّى، وَثَمَرَةُ فِكْرِهِ الْمَقْدَسِ، أَيْدَهُ اللَّهُ تَتَحَلَّى. شُكْرُ اللَّهِ لَهُ عَنْ جَمِيعِ نِعَمِهِ الَّتِي أَوْلَى، وَحَفِظَ عَلَيْهِ مَرَاتِبَ الْكَمَالِ الَّتِي هِيَ الْأَحَقُّ بِهَا وَالْأَوْلَى. وَقَدْ طَالَ الْكَلَامُ، وَجَمَعْتُ الْأَفْلَاحَ. وَلِسَيِّدِي وَبِرَكَّتِي الْفَضْلُ، أَبْقَى اللَّهُ بَرَكَتَهُ، وَأَعْلَى فِي الدَّارَيْنِ دَرَجَتَهُ، وَالسَّلَامَ الْكَرِيمَ يَخْصُكُمْ، مِنْ مَمْلُوكِكُمْ ابْنِ زَمْرَكْ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ، فِي الْخَامِسِ عَشَرَ لِحِمَادَى الْأَوَّلَى عَامَ تِسْعَةِ وَسِتِينَ.

وخاطبني كذلك، وهو من الكلام المرسل: أبو معارفي، وولي نعمتي، ومعيد جاهي، ومقوم كمالِي، ومزود آمالي، ممن توالى نعمه عليّ، ويتوقّر قسمه لديّ؛ وأبوء له بالعجز، عن شكر أياديه التي أحيت الأمل، وملأت أكفّ الرغبة، وأنطقت الحداثق، فضلاً عن اللسان، وأياديه البيض وإن تعددت، ومِثْته العميمة وإن تجددت، تقصر عن إقطاع اسمي شرف المجلس في الروض الممطور بيانه. فماذا أقول، فيمن صار مؤثراً إليّ بالتقديم، جالياً صورة تشريفي، بالانتساب إليه في أحسن التقويم...^(١) وإني ثالث اثنين أتشرف بخدمتهما، وأسحب في أذيال نعمتهما: [الطويل]

خليلي، هل أنصرتُما أو سَمِعْتُما باكرمَ مَنْ تَمَشِي إليه عبيدُ؟

اللهم، أوزعني شكر هذا المنعم، الذي أنقَلَتْ نعمه ظهر الشكر، وأنهضت كمال الحمد، اللهم أدم بجميع حياته، وأمتع بدوام بقائه الإسلام والعباد، وأمسك بيمن آرائه رَمَقَ ثغر الجهاد. يا أكرم مسؤول، وأعز ناصر. تفضل سيدي، والفضل عادته، بالتعريف بما يقرُّ عين التطلع ويقنع غِلَّة التشوّف. ولقد كان المماليك لما مَكَلْنَا بين يدي مولانا، أيده الله، لم يقدم عملاً عن السؤال ولا عن الحال، إقامة لرسم الزيارة، وعملاً بالواجب، فلأنني أرى الديار بطرفي، فعلى أن أرى الديار بعيني، وعلى ذلك يكون العمل إن شاء الله. وإن سألت سيدي شَكَرَ الله احتفاءً، وأبقى اهتمامه، عن حال المماليك، من تعب السفر، وكُدَّ الطريق، فهي بحمد الله دون ما يظنّ. فقد وصلنا المُنْكَب تحت الحفظ والكلاءة، مُخرزين شرف المساوقة، لمواكب المولى، يَمُنُّ الله وُجْهته، وكتب عِصْمته، واستقرَّ جميعنا بمحلّ القَصْبَة، وتاج أمبتها، ومهبّ رياح أجزائها، تحت النعم الثرة، والأنس الكامل الشامل. قَرَّبَ الله أمد لقائكم، وطلع على ما يسرُّ من تلقائكم. ولما بلغنا هذه الطَّيَّة، وأنخنا المطيَّة، قمنا بواجب تعريفكم على الفور بالأدوار، ورفعنا مخاطبة المالك على الابتدا. والسلام.

مولده: في الرابع عشر من شوال ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

انتهى السفر السادس هنا، والحمد لله رب العالمين

ومن السفر السابع المُفْتَتَح بقوله
ومن الطَّارِئِينَ مِنْهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ
محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيشمة الجبَّائي
سكن غرناطة، يكنى أبا الحسن.

حاله: كان مبرِّزًا في علوم اللسان نحوًا ولغةً وأدبًا، متقدمًا في الكتابة
والفصاحة، جامعًا فنون الفضائل، على عَفْلة كانت فيه.
مشيخته: روى عن أبي الحسن بن سهل، وأبي بكر بن سابق، وأبي
الحسن بن الباذش، وأبي علي الغساني وغيرهم. وصحب أبا الحسن بن سراج صحبة
مُواخاة.

توالياه: صَنَّف في شرح غريب البخاري مصنَّفًا مفيدًا.
وفاته: توفي ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وخمسمائة.

محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستجِّي الحميري
من أهل مالقة، وأصله من إستِجَّة، انتقل سلفه إلى مالقة، يكنى أبا عبد الله.
حاله: كان من جملة حَمَلَة العلم، والغالب عليه الأدب، وكان من أهل
الجلالة، ومن بيت علم ودين. أقرأ ببلده، وقَعَد بالجامع الكبير منه، يتكَلَّم على
صحيح البخاري، وانتقل في آخر عمره إلى غرناطة.

وقال الأستاذ^(١): كان من أبرع أهل زمانه في الأدب نظمًا ونثرًا.
شعره: منقولًا من خط الوزير الراوية أبي محمد عبد المنعم بن سيماك، وقد
ذكر أشياخه فقال: الشيخ المتفنن الأديب، البارع، الشاعر المُفْلِق، قرأ على أشياخها،
وأقرأ وهو دون العشرين سنة. وكانت بينه وبين الأستاذ المقرئ الشهير أبي العباس،
الملقب بالوَزْعِي، قرابة، وله قصيدة أولها: [الكامل]

ما للنسيم لدى الأصيل عليلًا

ومنها:

حتى النسيم إذا ألم بأرضهم خلعوا عليه رقةً ونُحولا

(١) هو ابن الزبير، صاحب كتاب «صلة الصلة».

وكان يقول: كان الأستاذ أبو العباس يستعيدني هذا البيت ويقول: نعم أنت قريبي. وقَدِم على غرناطة، أظن سنة تسع وثلاثين وستمائة.

محتته: قال الأستاذ: جرى له قصة، نُقل بعض كلامه فيها، على بعض أحاديث الكتاب من جهة استشهاد أدبي عليه فيها، غالب أدبه، فأطلق عنان الكلام، وما أكثر مما يطاق فيما يأنفه إدراكات تلك الأفهام، ولكل مقام مقال، ومن الذي يَسلم من قيل وقال. وكان ذلك سبب الانقطاع، ولم يؤت من قصر باع، وانتقل إلى غرناطة، فتوفي في أثر انقطاعه وانتقاله.

شعره: من ذلك قوله في غرض يظهر من الأبيات: [الطويل]

قضوا في رُبى نَجِد ففي القلب مرساه
أما هذه نجد أما ذلك الجَمَى؟
دعوه يُوقِي ذِكره باتشامه
ولا تسألوه سَلْوةً فمن العنا
أينحسب من أضلَى فؤادي بحبّه
متى غَدَر الضُّبُّ الكريم وفي^(٥) له
وإن حَجَرُوا معناه وصرَّحوا به
ويا سابقاً عيس الغرام سيوفه
أرخها فقد ذابت من الوجد والسرى
ويا صاحبي عُجْ بي على الخَيْفِ^(٦) من مِني
وعرَّج على وادي العقيق لعنني
وقل لليالي قد سَلَقْن بَعِيشه
هل العود أرجوه أم العُمر ينقضي

وَعُثُوا إِن أَبْصَرْتُمْ^(١) ثُمَّ مَغْنَاه
فهل عَمِيت عيناه أم صُمُّ^(٢) أذناه؟
ديون هواه قبل أن يتورَّاه
رياضة من قد شاب في الحب فَوْداه^(٣)
بأنِّي^(٤) سأسلو عنه، حاشاه حاشاه؟
وإن أتلِف القلب الحزين تلافاه
فلإن معناه أحقُّ بمعناه
وكلُّ إذا يخشاه في الحب يخشاه
ولم يبق إلا عَظْمها أو بقاياها
وما لتعنِّي^(٧) لي بأنِّي ألقاه
أسائل عُمْن كان بالأمس مأواه
وعُمُرٌ على رِغم العذول قَطَعْنَاه
فأقضي ولا يُقضى الذي أتمناه؟

(١) في الأصل: «إن أبصرتهم» وهكذا ينكسر الوزن، لذلك جعلنا همزة القطع همزة وصل.

(٢) في الأصل: «صُمْتُ» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الفؤد: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. محيط المحيط (فود).

(٤) في الأصل: «أنِّي أسلو...» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «وقى» بتشديد الفاء، وكذا ينكسر الوزن.

(٦) الخَيْف: ما انحدر عن غلظ الجبل. محيط المحيط (خيف).

(٧) في الأصل: «وما التعني لي من بأنِّي ألقاه» وكذا لا يستقر الوزن والمعنى معاً.

ومن شعره أيضًا، قوله، رحمه الله: [الطويل]

سَرَت من رُبى نَجْدٍ مُعْطَرَةِ الرِّبَا يموت لها قلبي وآونة يَحْيَا
تَمَسَّحُ أَعْطَافَ الْأَرَاكِ بَلِيلَةٍ وتنثر كافورًا على التربة اللُّمَيَّا
وَتَرْتَدُّ^(١) فِي حِجْرِ الرِّيَاضِ مَرِيضَةً فتحيي بطيب العُزْف من لم يكن يَحْيَا
وَيُشْرِى^(٢) بِأَنْفَاسِ الْأَجْبَةِ سُخْرَةً فيسرع دمعُ العين في إثرها جَزْيَا
سَقَى^(٣) اللَّهُ ذَهْرًا ذَكَرَهُ بِنَعِيمِهِ فكم لجفوني عند ذِكْرِهِ من سُقْيَا
نَأْنِي^(٤) مُحَيَّاهُ الْأَنْيَقِ وَحُسْنُهُ ومن خُلْقِي قد كنت لا أحمل النَّأْيَا
وَمِي رَشًا مِنْ أَهْلِ غَرْنَاطَةِ غَدَا يجود بتعذيبِي ويبخل باللُّقْيَا
رَمَانِي فَصَابِنِي^(٥) بِأَوَّلِ نَظَرَةٍ فيا عَجَبًا مِنْ عِلْمِ الرُّشَا الرُّمْيَا
وَيَدُّ جَسْمِي نَوْرَهُ وَكَأَنَّهُ أَشْعَةُ شَمْسٍ قَابِلَتْ جَسْدِي مَلْيَا
تَصَوَّرَ لِي مِنْ عَالَمِ الْحُسْنِ خَالصًا فمن عجب أن كان من عالم الدنيا
وَهُمْ بِأَنْ يَزُقَى إِلَى الْحُورِ جَسْمَهُ فَتَقَلَّتْهُ كُتُبًا وَحَمَلَتْهُ خَلْيَا
إِذَا مَا انْثَنَى أَوْ لَاحَ أَوْ جَاحَ أَوْ رَنَا سَبَا الْقَضَبَ وَالْأَقْمَارَ وَالْمِسْكَ وَالضْيَا
رَعَى اللَّهُ ذَهْرًا كَانَ يَنْشُرُ وَصْلَهُ برود طواها الهين في صدره طَيَّا

مشيخته: ومما يشتمل على أسماء شيوخه، ويدلّ على تبخّره في الأدب ورسومه، إجازته أبا الوليد إسماعيل بن تير الأيادي، وعندها يقال: أتى الوادي: [الخفيف]

إِنَّ لِي عِنْدَ كُلِّ نَفْحَةٍ بَسْتَا يَنْ مِنَ الْوَرْدِ أَوْ مِنَ الْيَاسْمِينَا
نَظْرَةً وَالتَّفَاتَةَ أَتَمَّنِي أَنْ تَكُونِي حَلَلْتِ فِيمَا تَلِينَا

ما هذه الأنوار اللاتحة، والثوار الفاتحة، إني لأجد ريح الحكمة، ولا مُقَنَد، وأرد مورد النعمة، ولا مُثَكَّد، أمْسُكْ دَارِينَ يُنْهَبْ، أم المَنْدَل الرطب في الغرام المُلهَب، أم نَفَحَتْ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ ففَاح نَسِيمُهَا، وتوضّحت أسباب المِئَةِ فَلَاح

(١) في الأصل: «ومرتد». (٢) في الأصل: «وبشرت».

(٣) في الأصل: «سقني» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «ملني». ونأني محيّا: بعد عني.

(٥) في الأصل: «فأصابني» وهكذا ينكسر الوزن.

وسيمُّها: [الطويل]

مُحْيِيَّكَ أَم نَوْر الصَّبَاحِ تَبَسُّمًا وَرِيَّكَ أَم نَوْر الْأَقَاحِي^(١) تَنْسَمًا
فَمَنْ شَمُّ مِنْ ذَا نَفْحَةٍ رَقٌّ شَيْمَةٌ وَمَنْ شَامَ مِنْ ذَا لَمَحَةٍ رَاقٌ مَبْسِمًا؟

أَجَلْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَتَفْهَمُوا أَسْرَارَ الْحِكْمِ وَتَعَوُّوا، وَإِذَا رَأَيْتُمْ رِيَاضَ الْجَنَّةِ فَارْتَعَوْا، يَعْنِي مَجَالِسَ الذِّكْرِ، وَمَأْنَسَ النَّظَرِ وَالْفِكْرِ، وَمَطَالِعَ الْمُنَاطَرَةِ، وَمَوَاضِعَ الْمَحَاضِرَةِ، فَهَذِهِ بِنْتُكَ، وَقَدْ انْتَضَمَتِ الْجَوَاهِرُ النَّبَوِيَّةُ فِي سِلْكِكَ، وَلِهَاجِنِ جَمَىٍّ لِلْعَطَارَةِ وَطَيْسٍ، بَيْنَ مِسْكِ الْمَدَادِ وَكَافُورِ الْقِرَاطِيسِ . فَيَا أَيُّهَا الْمَعْلَمُ الْأَوْحَدُ، وَالْعَالَمُ الَّذِي لَا تَنْكُرُ أَمَامَتَهُ وَلَا تُجْحَدُ، حَوِّمْتَ عَلَى عِلْمِ الْمُلُوكِ، وَلَزِمْتَ بِحِلْمٍ طَرِيقَ الْحِكْمِ الْمَسْلُوكِ، فَلَمْ تَعُدْ أَمَلُ الْحَكَمَاءِ، وَلَمْ تُعَدِّ إِلَّا بِعَمَلِ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ قَالَ حَكِيمُهُمُ الْفَاضِلُ، وَعَظِيمُهُمُ الَّذِي لَا مُنَاطَرَ لَهُ وَلَا مُفَاضِلُ: إِذَا خَدِمْتَ الْأُمَرَاءَ فَكُنْ بَيْنَ اسْتِلْطَافٍ وَاسْتَعْطَافٍ، تُجْنِ الْمَعَارِفَ وَالْعَوَارِفَ دَانِيَةَ الْقِطَافِ، فَتَعْلَمَهُمْ وَكَأَنَّكَ تَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ، وَتُرَوِّهِمْ وَكَأَنَّكَ تُرَوِّي عَنْهُمْ، فَأَجْرِبْتَ الْبَابَ، وَامْتَرَيْتَ مِنَ الْعِلْمِ الْبَابَ، ثُمَّ لَمْ تُبْعِدْ، فَقَدْ فَعَلَ النُّحَويُّونَ ذَلِكَ فِي يَكْرُمٍ، وَيَعْدٍ، وَيَعِزٍّ، وَلَا غُرُو أَنْ تَقْرَأَ عَلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ، وَتُسْتَجِيزَ الْإِجَازَةَ عَنِ الْقَوْمِ الْعِظَامِ بِقَصْدٍ وَدُونَكَ . فَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يَقْرَأَ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ، فَهَلْ فِي حَيِّ الْخَوَاطِرِ الذِّكِيَّةِ مِنْ حَيٍّ؟ فَقَالَ لَهُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُ أَمْرُكَ أَنْ تَقْرَأَ عَلَيَّ، وَالْعَنَاءُ الزَّيْنَانِيَّةُ تُنَادِي إِلَيَّ إِلَيَّ، وَإِذَا قَالَ لِي: مَنْ أَحَبُّ مَوْلَايَ، وَاسْتَعَارَ لَزِيَّتَهُ خُلَايَ:

فَمَا عَلَى الْحَبِيبِ مِنْ اعْتِرَاضٍ وَلِلطَّبِيبِ تَصْرِفٌ فِي الْجِرَاضِ^(٢)
قَدْ يَرْحَلُ الْمَرَّةَ لِمَطْلُوبِهِ وَالسَّبَبُ الْمَطْلُوبُ فِي الرَّاحِلِ^(٣)

عَجَبْتُ مُتَوَاضِعًا، فَمَا أَبْرَمْتُ فِي مُعَاجَلِكَ، وَلَا ظَلَمْتُ فِي السُّؤَالِ نَعِجَتَهُ إِلَى نَعَاجِكَ، فَإِنَّهُ سَرُّ اللَّهِ، لَا يَحِلُّ فِيهِ الْإِفْشَاءُ، وَحِكْمَةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ، وَاللَّهُ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَإِنْ لَبِستَ مِنَ التَّوَاضُعِ شِعَارًا، وَلَبِستَ عَنِ التَّرْفَعِ تَنْبِيهَا عَلَى السُّرِّ الْمَكْتُومِ وَإِشْعَارًا، فَهَذِهِ الثَّرِيَّا مِنَ الْعَجَائِبِ إِذَا ارْتَفَعْتَ فِي أَعْلَى صَعُودِهَا، وَأَسْمَى رَايَاتِهَا الْخَافِقَةِ وَبِنُودِهَا، نَهَايَةُ وَجُودِهَا الْحُسْنَى عَدَمٌ، وَغَايَةُ وَضْفِهَا الشُّبْهِي أَنْ تُشَبَّهَ بِقَدَمٍ، فَلِذَا هَمَّتْ بِالرُّكُوعِ، وَشَمَّتْ فِي الْمَغْرِبِ رِيحَ الْوَقُوعِ، كَانَ لَهَا مِنَ السُّمُو الْقِدْحُ

(١) فِي الْأَصْلِ: «الْأَقَاحِ».

(٢) الْجِرَاضُ: جَمْعُ مَرَضٍ وَهُوَ ذُو الْمَرَضِ . مَحِيطُ الْمَحِيطِ (مَرَض).

(٣) هَذَا الْبَيْتُ عَلَى الْبَحْرِ السَّرِيعِ .

المُعَلَّى، وعادت قرطاً تتزيّن به الآذان وتحلّى:

وفي الشرق كأسٌ وفي مغاربها قِرْطٌ وفي وسط السماء قَدَمٌ

هذه آثار التواضع مَثْلُوَّة السُّور، مجلُوَّة الصُّور، وكان بعضهم إذا أعطى الصدقة، يعطيها ويده تحت يد السائل، وهكذا تفهم المسائل. فإنه لما سَمِعَ النبوة تقول: اليد العليا خير من اليد السفلى، أراد أن يؤثر المقام الأعلى. ولما أعطى أبو بكر، رضي الله عنه، ماله كله، أعطى عُمر، رضي الله عنه، النصف من المال، لا احتياطاً على ماله، ولكن ليقف لأبي بكر في مقام القصور عن كماله، تَفْوِيضاً وتسليماً، وتنبهاً لمن كان له قَلْبٌ وتعليماً. ورؤي الدراقطني، رحمه الله عليه، يحبس أباه بركابه، فلا يُنكر عليه، فقبل له في ذلك، فقال: رأيته يبادر إلى فضيلة، فكرهت مخالفته: [البسيط]

فوق السماء وفوق الزُّهر ما طلبوا وهُمْ إذا^(١) ما أرادوا غايةً نزلوا

والى هذا وصل الله حِفْظُكَ، وأجزك من الخيرات حَفْظُكَ، فإنه وصلتني الكُرَاسَة المباركة، الدَّالَّة على التفنن في العلوم والمشاركة، فبينما أنا أتلو الإجازة، وأرى صدور البيان وإعجازها، أُلقي إليّ كتاب كريم، إنه من أبي الوليد، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، فجِزْتُ، ووقفت كأنني سُجِزْتُ، وقلت: ساحران تظاهرا معاً، وأحدهما قاتلي، فكيف إذا اجتماعاً: [الطويل]

فلو كان رُمَحًا واحدًا لَأَتَقَيْتَهُ ولكنّه رَمَحٌ وثنان وثالثٌ

ومن لَعِبْتُ بشيمته المثنائي فأخَرَى أن تطير به المثلث^(٢)

وطار بي الشوق كلّ مطار، وقرأت سماء فكري سورة الانفطار، وكذت أصدع إلى السماء توقُّدًا، واختلط بالهواء تودُّدًا: [الكامل]

كانت جواهرنا أوائل قبل ذان فالآن صارت بالتحول ثوان

وُجدت وراء الحسن وهي كثيفة فوجودهن الآن في الأذهان

ولم يكف أن بُهرت بالحُسن الحُلُوب، حتى أمرت أن أنظم على ذاك الأسلوب، وبالحريّ لذلك النثر البديع، الحريريّ أو البديع، ولذلك النظم العجيب، المُتنبّي أو حبيب، ولذلك التصوف الرقيق، الحارث بن أسد ذي التحقيق. وأما الحديث، فما لك تقطع تلك المسالك، إلّا أن العربية ليس لأحد معه فيها دليل،

(١) في الأصل: «إذا» وكذا ينكسر الوزن. (٢) هذا البيت على البحر الوافر.

أستغفر الله إلا للخليل، لكن أصول الدين مجرّية، تركت تلك الميادين. هناك الله جَمَعَ كل مَنْقَبَة جليّة، فترى الفضيلة لا تردّ فضيلة، فمر الرديف وقد رَجَبَ غضنفرًا، أو المدّعي صفة فضل، وكلّ الصّيد في جوف الفراء^(١). من يُزحم البحر يغرق، ومن يُطعم الشجر يَشْرُق. وهل يُبارى التوحيد بعمل، أو يُجارى البراق بجمل؟ ذلك انتهى إلى سِدْرَة المنتهى، وهل انبرى ليلطم خدّه في الثرى؟ لا تقاس الملائكة بالحدّادين، ولا حُكماء يونان بالفدّادين. أفني طريق الكواكب يُسلك، وعلى القلّك الأثير يُستملك؟ أين العُدّ من الأمس، وظلمة العَسَق من وضّح الشمس؟ ولولا ثقتي بغمام فضلك الضّيب، لتمثلت لنفسي بقول أبي الطيب^(٢): [الطويل]

إذا شاء أن يَلْهُو بِإِخْيَةِ أَخْمَقٍ أراه غُباري ثم قال له أَلْحَقِ^(٣)

فإن رضيت أيها العلم، فما لجرح إذا أرضاكم. ألم تر كيف أجاري أغوج بمغرب أغوج وأجاري ذا العقال بجحش في عقال؟ ظهر بهذه الظلمة، ذلك الضياء، وبضدّها تتبين الأشياء. وما يزكو بياض العاج حتى يُضاف إلى سواد الأبنوس. ألفاظ تدوب رقة، وأغراض تملك حُبّ الكريم ورقّة الزهر، والزهر بين بَنان وبيان، والدُرّ طُوع لسان وإحسان: [الوافر]

وقالوا ذاك سحرٌ بِأَهْلِي^(٤) فَقُلْتُ وفي مكان الهاء باء

وأما محاسن أبي الوليد، فيقصر عنها أبو تمام وابن الوليد: [المتقارب]

معان لِبَسْن ثياب الجمال وهزّت لها الغانيات القُدودا
كَسَوْنَ عَبِيدًا ثياب عبيد وأضحى لبيدٌ لديها بليدا

وكيف أعجب من إجرائك لهذه الجياد، وأياديك من إياد؟ أوريثت هذه البراعة المساعدة، عن قَسْ بن ساعدة؟ أجذك أنت الذي وصف رسول الله ﷺ، فقال: كأنني أنظر إليه في سوق عكاظ على جَمَلٍ أَوْزَق، وهو يقول أيها الناس: مطرٌ ونبات، وآباء وأمهات، إلى قوله: [مجزوء الكامل]

في الذاهبين الأولي من من القرون لنا بصائر

(١) قوله: «كلّ الصّيد في جوف الفراء» مثل يضرب لمن يُفَضِّل على أقرانه. والفراء: الحمار الوحشي، وجمعه فراء. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٣٦).

(٢) هو بيت من قصيدة مؤلفة من ٤٣ بيتًا، وهو في ديوان المتنبي (ص ٣٦٢).

(٣) يقول: إذا أراد سيف الدولة أن يسخر بأحق من الشعراء أراه أثر المتنبي، ثم أمره أن يلحق به، لأنه لا يقدر على ذلك. والغباء واللاحاق استعارة من سباق الخيل.

(٤) في الأصل: «بأهلي».

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدَ لَلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
أَبْقَيْتُ أَنْيَ لَا مَحَا لَهْ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

إيه بغير تمويه. رَجَعَ الحديث الأول إلى ما عليه الْمُغُول. سألتني، أيها السيد الذي يجب إسعافه، أن أرغم أَنْفَ القلم حتى يجري رُعافه، وأن أَكْجُلَ جُفون الأوراق بمداد الأقلام، وأن أجمع الطُروس والأُمدة^(١)، بين إصباح وإظلام، وأطرز بياض السُّوسن بخضرة الآس، وأبرز العلم الأبيض تحت راية بني العباس، فقلت مبادرًا مُمْتَلًا، وجُلْتُ في ميدان الموافقة متمثلاً: [البسيط]

لُبَيْكَ لُبَيْكَ أَضْعَافًا مَضَاعِفَةً إِنْني أَجَبْتُ وَلَكِنْ دَاعِيَ الْكَرَمِ
أَنْيَ مِنَ الْمَجْدِ أَمْرٌ لَا مَرَدُّ لَهُ أَمْشِي عَلَى الرَّأْسِ فِيهِ لَا عَلَى الْقَدَمِ

دعاء والله مُجَاب؛ ونداء ليس دونه جِجَاب: [المقارب]

كُتِبَتْ وَلَوْ أَنِّي أَسْتَطِيع لِإِجْلَالِ قَدْرِكَ بَيْنَ الْبَشَرِ
قَدْذْتُ الْبَرَاعَةَ مِنْ أَنْمَلِي كَأَنَّ^(٢) الْجِدَادَ سَوَادَ الْبَصَرِ

نعم أجزتُ، سيدي الفقيه الأجل، الخطيب الأكرم، العالم العَلَم، الأوحد الأكمل، الحسيب الأخفل الأطول، أبا الوليد بن الفقيه الأجل، المعظم الموقر، المكرم المبارك الأظهر، المرحوم أبي زكريا يحيى بن سعيد بن قنري الأيادي القُزْمُونِي، ونبية السادات النجباء المباركين، أبا القاسم أحمد، وأبا إسحق إبراهيم، وأبا الحسين بتزيا. ونعمت الأغصان والشجرة، والأقنان والثمرة، أقر الله بهم أغني المجد، ولا زالوا بدورًا في مطالع السُعد، ولا برحوا في مكارم يجنون نُوارها، وَيَجْتَلُونَ أنوارها، وتفيض عليهم يد العناية الإلهية، نهرا الكُوْثُرِي ونهارها، جميع ما رويته قراءة وسماعًا، وإجازة ومناولة، من العلوم على اختلافها، وتباين أصنافها، بأي وجه رويته، وعلى أي وصف تقلدته ودريته، وكذلك أجزتُهم جميع ما قلته وأقوله، من مَسْطُور ومَرْسُوم، ومنثور ومنظوم، وتصرفت فيه من منقول ومفهوم، وقصائدي المسماة بالروحانيات، ومُعْشَرَاتِي الحبيبات، وما نظمته من الوَثَرِيَّات، وشرحي لشعر أبي الطيب المسمى بـ«ظهور الإعجاز بين الصدور والأعجاز»، وكتابي المسمى «شمس البيان في لمس البنان»، والزهرة الفاتحة في الزهرة اللاتحة، ونفح

(١) الطروس: جمع طُرس وهو الصحيفة. والأُمدة: سدى العَزَل والمِسَاك في جانبي الثوب إذا ابتدئ به، والمراد هنا: الحبر، مفردًا: مداد. لسان العرب (طرس) و(مدد).

(٢) في الأصل: «وكان» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفت الواو.

الكلمات في شرح المقامات، واقتراح المتعلمين في اصطلاح المتكلمين، وكتاب التصور والتصديق، في التوطية لعلم التحقيق، ورَقْم الحُلل، في نظم الجمل، ومفتاح الإحسان، في إصلاح اللسان. وما أنشأته من السلطانيات نظمًا ونثرًا، وخطابة وشعرًا. والله تعالى يجعل أعمالنا خالصة لوجهه بمئته وكرمه، فليقل الفقيه الأجل، وبنوه الأكرمون، رضي الله عنهم، أنبأنا وأخبرنا وحدثنا، أو ما شاءوا من ألفاظ الرواية، بعد تحري الشروط المرعية، في الإجازات الشرعية، وإن ذهبوا حفظ الله كمالهم، وأراهم في الدارين آمالهم، إلى تسمية من لي من المشايخ، قدس الله أرواحهم، وزحزح عن النار أشباحهم:

فمنهم الأستاذ الخطيب الكبير، العالم الفاضل الجليل، البقية الصالحة، آخر الأدباء، وخاتمة الفضلاء، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن إبراهيم الحميري القرطبي الدار، رضي الله عنه. قرأت عليه بقرطبة شعر أبي الطيب قراءة فهم لمعانيه، وإعراب لألفاظه؛ وتحقيق للغة، وتنقيح عن بديعه. وكذلك قرأت عليه أكثر شعر أبي تمام. وسمعتُ عليه كتاب الكامل لأبي العباس المبرّد، ومقامات التميمي، كان يروها عن مُنشئها، وكانت عنده بخط أبي الطاهر. وتفقهت عليه «تبصرة الضمري». وكان على شياخته، رحمه الله، ثابت الذهن، مُقبل الخاطر، حافظ المُعَيَا: [الوافر]

يروع زكّانةً ويذوب ظرفاً فما تدري أشيخ أم غلام

نأثيه بمقاطيع الشعر فيصلحها لنا. ويقف على ما نستحسنه منها، فنجده أثبت منا، ولقد أنشدته يوماً، في فتى مفقود العين اليسرى: [الكامل]

لم تزو إحدى زهرتيه ولا اثنت عن نورها وبديع ما تحويه
لكنه قد رام يُغلق جفنه ليصيب بالسهم الذي يرميه

فاستفادهما وحفظهما، ولم يزل، رحمه الله، يعيدهما مستحسنًا لهما، متى وقع ذكرى. وكان يروي عن الإمام المازري بالإجازة، وعن القاضي أبي مروان بن مسرة، وعن الأستاذ عباس، وعن أبي عبد الله بن أبي الخصال.

ومنهم الفقيه الأجل العالم العَدْل، المحدث الأكمل، المتفنن، الخطيب، القاضي أبو محمد بن حَوط الله. سمعت عليه كتبًا كثيرة بمالقة، بقراءة الفقيه الأستاذ أبي العباس بن غالب، ولقيته بقرطبة أيضًا، وهو قاضيا. وحدثني عن جدّي، وعن جملة شيوخ، وله برنامج كبير، وأخوه القاضي الفاضل أبو سليمان أيضًا منهم.

ومنهم الفقيه الأجلّ، العالم القلم، الأوحد، التحوي، الأديب المتفتن، أبو علي عمر بن عبد المجيد الأزدي، قرأت عليه القرآن العزيز مفردات، وكتاب الجمل، والإيضاح، وسيبويه تفقّها، وكذلك الأشعار السّنة نفقّها، وما زلت مواظبًا له إلى أن توفي رحمه الله. وكان فريد عصره في الذكاء والزكا. ولم يكن في حلّبة الأستاذ أبي زيد السّهيلي أنجب منه على كثرتهم. وقد قال الأستاذ أبو القاسم السّهيلي للإمام المنصور، رضي الله: هو أفعَدُ لكتاب سيبويه منّا. وقال لي يومًا، وقد نظر إلى طالب يُصغي بكلّيته إلى ثان، فقلت: ماذا؟ فقال: إنّ حُبّ الشيء يعمي ويصمّ، فقلت له: ويعيد الصُّبح ليلاً مُدْلَهم، فاستحسنه.

ومنهم الفقيه الأجلّ، الأديب الأريب الكامل، اللغوي الشهير، أبو علي ابن كسرى المَورِي، قريبي ومُعَلِّمي. وكان من طلبة أبي القاسم السّهيلي، وممن نبغ صغيرًا. وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا إسحق الكبير بإشيلية: [الكامل]

قسما بحُصص^(١) وإنه لعظيمُ فهُيَ المقامُ وأنتَ إبراهيمُ

وكان بالحضرة الأستاذ أبو القاسم السّهيلي، فقام عند إتمامه القصيدة، فقال: لمثل هذا كنت أخيّيك الحسا، ولمثل هذا كنت أواصل في تعليمك الإصباح والإمسا. وقد أنشد هذا لأمير المؤمنين أبي يعقوب^(٢)، رضي الله عنه: [الطويل]

أمعشّر أهل الأرض بالطُولِ والعَرَضِ بهذا أنادي في القيامة والعرضِ
فقد قال الله فيك ما أنت أهله فيقضى بحكم الله فيك بلا نقض
فإياك يُغنى ذو الجلال بقوله كذلك مكّنّا ليوسف في الأرض

ومنهم الفقيه الأجلّ، العالم المحدث، الحافظ الفاضل المؤثر، السيد أبو محمد القرطبي، قرأت عليه القرآن بالروايات مفردات، وتفقهت في الجمل والأشعار، وأجازني جميع ما رواه. وكذلك فعل كل واحد ممن تقدّم ذكره. وكان، رحمه الله، آخر الناس علمًا ونزاهة وحسن خلق، وجمال سَمْت وأبهة ووقار، وإتقان وضبط، وجودة وحفظ.

(١) حصص هنا هي إشيلية، وقد سميت إشيلية بحمص لشبهها بها.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨ هـ إلى سنة ٥٨٠ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٨٣، ١٣٠) والحلل الموشية (ص ١١٩).

ومنهم الفقيه الأجل، الحاج الفاضل، الشهيد في كائنة العقاب^(١)، المحدث الورع، الزاهد الطاهر، أبو عبد الله بن حسين بن صاحب الصلاة الأنصاري، وعليه كان ابتدائي للقراءة، وكان مبارك التعليم، حسن التفهيم، شديد التواضع.

ومنهم الفقيه الأجل الفاضل الورع، المحدث، الحاج المُلهم، المجاب الدعوة، الميمون النقيية، الأواب، أبو الحجاج بن الشيخ، رضي الله عنه. وهذا الكتاب على الإطالة مني، ولكن القرطاس قُتِي، والسلام الأتم عليكم، ورحمة الله وبركاته. قال ذلك، وكتبه العبد المعترف بذنبه، الراجي رحمة ربه، محمد بن عبد الله الحميري ثم الإستنجي، في أواسط شعبان المكرم من عام أحد وأربعين وستمائة.

وفاته: من خط الوزير أبي محمد عبد المنعم بن سماك، قال: قَدِمَ غرناطة، أَظُنَّ سنة تسع وثلاثين وستمائة، وشكى علّة البطن مدة ثمانية أشهر بدار أبي، رحمه الله، مرّضناه الثلاثة الأخوة، إلى أن توفي، رحمه الله، ودفن بمدفنه، مَغْنَى الأدب، بروضة الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك.

محمد بن أحمد بن علي الهواري^(٢)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن جابر، من أهل المرية.

حاله: رجل^(٣) كفيف البصر، مدلّ على الشعر، عظيم الكفاية والمِنة على زَمَانَتِهِ^(٤). رحل إلى المشرق، وتظافر^(٥) برجل من أصحابنا يعرف بأبي جعفر الإلبيري، صاراً رُوْحِين في جسد، ووقع الشعرُ منهما بين لَحْيَيْ أسد، وشَمْرًا^(٦) للكُذْيَةِ، فكان وظيف الكفيف النُّظم، ووظيف^(٧) البصير الكُتُب، وانقطع الآن

(١) كانت وقعة العقاب في منتصف شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ، بين الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الموحيدي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين، فكانت السبب في هلاك الأندلس. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٦٣) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٤٩).

(٢) ترجمة ابن جابر الهواري في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٥).

(٣) النص في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٥٥).

(٤) الزمانة: العاعة الدائمة. لسان العرب (زمن).

(٥) في النفح: «وتظاهر».

(٦) في النفح: «وشمر للعلم وطلبه، فكان وظيفة الكفيف...».

(٧) في النفح: «وظيفة».

خبرهما. وجرى ذكره في الإكليل بما نصه^(١): محسوب من طلبتها الجلة، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلة، رحل إلى المشرق، وقد أصيب ببصره، واستهان في جنب الاستفادة^(٢) بمشقة سفره، على بيان عذره، ووضوح ضره.

شعره: وشعره كثير، فمته قوله^(٣): [الطويل]

سلو مسر^(٤) ذاك الخال في صفحة الخد
ومن هز^(٥) غصن القد منها لفتنتي
ومن متع^(٦) القضب اللدان بوصلها^(٧)
فتاة تفت القلب مني بمقلة
تمنيت أن تهدي إلي نهودها
فقلت للرماني^(٨) بد من الجنى
فقلت ليس القلب عندك حاصلًا^(٩)
وقلت^(١٠) اجعليني من عبيدك في الهوى
إذا شئت أن أرضاك عبداً فمت جوى^(١١)
الم تر النخل يحمل ضرها
كذلك بذل النفيس سهل لذي النهى
ألس ترى كف ابن جانة طالما^(١٢)

متى رَقُمُوا بِالمِسْكِ في ناعم الورد
وأودعه رُمائتي ذلك السُّهْدِ
إلى أن أعز^(١٣) الحسن من ذلك القد
له رقة الغزلان في سطوة الأسد
فقلت رأيت البذر يهداه أو يهدي
فتاهت وقالت باللواحق لا الأيدي
فقلت^(١٤) قلوب الناس كلهم عندي
فقلت كفاني كم لحسن من عبدي
ولا تشتكي^(١٥) واضبر على ألم الصد
لأجل الذي تجنيه من خالص الشهد؟
لما يكسب الإنسان من شرف الحمد
أضاع كريم المال في طلب المجد

(١) النص في نفع الطب (ج ١٠ ص ١٥٦).

(٢) في النفع: «الإفادة».

(٣) القصيدة في نفع الطب (ج ١٠ ص ١٥٦ - ١٥٧).

(٤) في النفع: «حسن».

(٥) في الأصل: «ومز متى» ولا معنى له، وقد صوبناه من النفع.

(٦) في النفع: «بوصفها».

(٧) في الأصل: «أعز» ولا معنى له، والتصويب من النفع.

(٨) في النفع: «الرماني».

(٩) في الأصل: «فقلت ليس للقلب عندك حاصل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٠) في الأصل: «وقالت» والتصويب من النفع. (١٢) في النفع: «فقلت».

(١١) في الأصل: «جوى» والتصويب من النفع.

(١٢) في الأصل: «ولا تشكي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٣) في الأصل: «... ترى أزجانه طالما» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

ومن شعره أيضًا قوله^(١): [الكامل]

عَرَّجَ عَلَى بَانَ الْعُذَيْبِ وَنَادِ
وَإِذَا مَرَزَتْ عَلَى الْمَنَازِلِ بِالْجَمَى
إِيهِ فَدَيْتُكَ يَا نُسَيْمَةً خَبْرِي
يَا سَعْدُ، قَدْ بَانَ الْعُذَيْبُ وَبَانُهُ
خُذْ فِي الْبِشَارَةِ مُهْجَتِي يَوْمًا إِذَا
قَدْ صَحَّ عَيْدِي يَوْمَ أَبْصِرُ حُسْنَهَا
وَأَتَشْدُ فَدَيْتُكَ أَيْنَ^(٢) حَلِّ فُؤَادِي
فَاشْرَحْ هُنَالِكَ لَوْعَتِي وَشُهَادِي
أَرْبَ^(٣) الْأَحْبَةِ وَالْجَمَى وَالْوَادِي
فَانزِلْ فَدَيْتُكَ قَدْ بَدَا إِسْعَادِي
بَانَ الْعُذَيْبُ وَنُورُ حُسْنِ سَعَادِ^(٤)
وَكَذَا الْهَلَالُ عِلَامَةُ الْأَعْيَادِ

ومما نقلناه من خبر قيده لصاحبنا الفقيه الأستاذ أبي علي منصور الزواوي، ومما أدعاه لنفسه^(٥): [الوافر]

عَلَيَّ لِكَلِّ ذِي كَرَمٍ ذِمَامٌ
وَأَحْسَنُ مَا لَدَيَّ لِقَاءَ خَزَرٍ
وَلَانِي حِينَ أَنْسَبُ مِنْ أَنْاسٍ
يَمِيلُ بِهِمْ إِلَى الْمَجْدِ ارْتِيَاخٌ
هُمْ لَبَسُوا أَدِيمَ اللَّيْلِ^(١١) بُرْذَا
هُمْ جَعَلُوا مُتَوْنَ الْعَيْسِ^(١٢) أَرْضَا
فَمَنْ كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا ارْتِحَالٌ
وَحَوَّلَ مَوَارِدِ الْعَلِيَاءِ مِنْهَا^(١٤)
تَصِيبُ سِهَامُنَا غَرَضَ الْمَعَالِي
وَلِي بِمَدَارِكِ الْمَجْدِ اهْتِمَامٌ
وَصَحْبَةُ^(٦) مَغْشَرٍ بِالْمَجْدِ هَامُوا^(٧)
عَلَى قِمَمِ النُّجُومِ لَهَا^(٨) مَقَامٌ
كَمَا مَالَتْ بِشَارِبَهَا الْمُدَامُ^(٩)
لِيُسْفَرَ مِنْ مَرَادِفِهِ^(١١) الظَّلَامُ
فَمَذَّ عَزَمُوا الرُّحِيلَ فَقَدْ أَقَامُوا^(١٣)
وَفِي كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا مُقَامٌ
لَنَا مَعَ كُلِّ ذِي شَرَفٍ زِحَامٌ
إِذَا ضَلَّكَ عَنِ الْغَرَضِ^(١٥) السَّهَامُ

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٥٧).

(٢) في الأصل: «أَنْ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٣) في النفع: «كيف».

(٤) في الأصل: «وَنُورُ حُسْنِ سَعَادِي»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٥) القصيدة في نفع الطيب (ج ١٠ ص ١٥٧ - ١٥٨).

(٦) في الأصل: «وَصَحْبَةُ مَغْشَرٍ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٧) في الأصل: «هَامُ» والتصويب من النفع. (٨) في النفع: «لَهُمْ».

(٩) في الأصل: «بِشَارَتُهَا الْمَرَامُ»، والتصويب من النفع.

(١٠) في الأصل: «الْقِيلُ» والتصويب من النفع. (١١) في النفع: «عَنْ أَدِيمِهِمْ».

(١٢) في الأصل: «الْعَيْشُ» والتصويب من النفع. (١٣) في الأصل: «أَقَامُ» والتصويب من النفع.

(١٤) في النفع: «مَتَا». (١٥) في النفع: «الْعَرَضُ».

وليس لنا من المجد اقتناع
 نُنَزَّهَ عَرْضَنَا عَنْ كُلِّ لُؤْمٍ
 وَنَبْذِلَ لَا نَقُولُ الْعَامَ مَاذَا
 إِذَا مَا الْمَخْلُ عَمَّ بِلَادِ قَوْمٍ
 وَإِنْ حَضَرَ الْكَرَامَ فِي يَدِينَا
 وَفِينَا الْمُشْتَشَارَ بِكُلِّ عِلْمٍ
 فَمِيدَانِ الْكَلَامِ لَنَا مَدَاهُ
 كَلَا الْأَمْرَيْنِ لَيْسَ لَهُ يَقُومُ
 يُرِيقُ دَمَ الْمَدَادِ بِكُلِّ طَرْسٍ
 وَكَتَبَ بِالْمُثَقَّفَةِ الْعَوَالِي
 إِذَا عَبَسَتْ وَجْوهَ الدَّهْرِ مَنَّا
 لَقَدْ عَلِمْتَ قُلُوبَ الرُّومِ أَنَّا
 وَلَيْسَ يُضِيرُنَا أَنَا قَلِيلُ
 إِذَا مَا الزَّايَةِ الْحَمْرَاءُ هُزَّتْ
 وَمَا أَحْمَرَّتْ سَدَى بِلَ مِنْ دِمَاءٍ
 تُظَلِّلُ مِنْ بَنِي نَصْرٍ مُلُوكَا
 فَكَمْ قَطَعُوا الدُّجَى فِي وَصْلِ مَجْدٍ
 أَبَا الْحِجَااجِ لَمْ تَأْتِ اللَّيَالِي
 وَلَا حَمَلَتْ ظُهُورَ الْخَيْلِ أَمْضَى
 وَأَتَى جِثَّتْ مِنْ شَرْقٍ لَغْرِبٍ
 وَجُرِّتِ الْمُلُوكِ وَكُلِّ شَخْصٍ
 فَلَمْ أَرِ مِثْلَكُمْ يَا آلَ نَصْرٍ
 وَمِنْهَا:

لَأَنْدَلِسَ بِكُمْ شَرْفٌ وَذِكْرٌ
 سَعَى صَوْبُ الْغَمَامِ بِلَادِ قَوْمٍ
 تَرُدُّ بِلُوغَ أَدْنَاهُ الشَّقَامُ
 هُمْ فِي كُلِّ مَجْدِيَةِ غَمَامٍ

(١) في الأصل: «قيام» والتصويب من النسخ.

(٢) في الأصل: «نام».

إليك بها مهذبُ المعاني يُرينها ابتسام وانتظام
لها لجناب مجدكم انتظام طواف وفي أركان إسلام
نجزت وما كادت، وقد وطى الإبطاء صروحكم، وأعياء الإكثار حارثها
وسروجها، والله وليّ التّجاوز بفضلّه.

محمد بن أحمد بن الحدّاد الوادي آشي^(١)

يكنى أبا عبد الله.

حاله: شاعر^(٢) مُفلق، وأديب شهير، مُشار إليه في التعاليم، منقطع القرن منها
في الموسيقى، مضطلع بفكّ المُعَمّى. سكن ألمرية، واشتهر بمدح رؤسائها من بني
صُمّادح. وقال ابن بّسام: كان^(٣) أبو عبد الله هذا شمسَ ظهيرة، وبَحْرَ خَبِرٍ وسيرة،
وديوان تعاليم مشهورة، وَضَحَ في طريق المعارف وَضُوح الصُّبْحِ المُتَهَلِّل، وَضَرَبَ
فيها بقدح ابن مُقْبَل^(٤)، إلى جلاله مَقْطَع، وأصالة مُنْزَع، ترى العَلَمَ يَنْمُ على أشعاره،
وَيَتَبَيَّن في منازعه وآثاره.

توآلفه: ديوان^(٥) شعر^(٦) كبير معروف. وله في الغروض تصنيف^(٧)، مزج فيه
بين الأنحاء الموسيقية، والآراء الجليّة.

بعض أخباره: حدّث^(٨) بعض المؤرخين منّا يدلّ على ظَرْفه أنه فقد
سَكَنًا^(٩) عزيزًا عليه، وأحوجت الحال^(١٠) إلى تكْلُف سَلْوة، فلَمّا حضر الندماء،
وكان قد رَضِد الخسوف بالقمر^(١١)، فلَمّا حَقَّق أنه قد^(١٢) ابتداء، أخذ العود

(١) ترجمة ابن الحدّاد في مقدّمة ديوان ابن الحدّاد الأندلسي، بقلمنا، وفيها ثبت بأسماء المصادر والمراجع التي ترجمت له.

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٩ ص ٢٥٢).

(٣) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٦٩١ - ٦٩٢) ومالك الأبصار (ج ١١، الورقة ٤٠١).

(٤) هو أبو كعب تميم بن أُنْبِي بن مُقْبَل؛ شاعر خنديد، كان من أوصاف العرب لِقْدَح، ولذلك يقال: قدح ابن مُقْبَل. توفي بعد ٣٧ هـ. الشعر والشعراء (ص ٣٦٦) وطبقات الشعراء (ص ٦١) والأعلام (ج ٢ ص ٨٧).

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٩ ص ٢٥٢). (٦) في النفع: «شعره».

(٧) في النفع: «تصنيف مشهور مزج فيه من الألحان الموسيقية والآراء الخيلية».

(٨) النص في نفع الطيب (ج ٩ ص ٢٥٣).

(٩) السُّكُن: المرأة لأنها يُسْكَن إليها، والساكن. لسان العرب (سكن).

(١٠) في النفع: «الحاجة».

(١١) في النفع: «القمر».

(١٢) كلمة «قد» ساقطة في النفع.

وغنى^(١): [المتقارب]

شَقِيقُكَ غُيِّبَ فِي لَحْدِهِ وَتُشْرِقُ يَا بَذْرُ مِنْ بَغْدِهِ
فَهَلَّا خُسِفَتْ وَكَانَ الْخُسُوفُ^(٢) جِدَادًا لَبَسْتَ عَلَى فَقْدِهِ؟

وجعل يرذِّدها، ويخاطب البذر، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف، وعظم من الحاضرين التعجب. قال^(٣): وكان مني في صباه بصيبة من الرُّوم، نصرانية، ذهبت بلِّه وهواه، تسمى نُزيرة، افتضح بها، وكثر نسييه.

شعره: قال في الغرض المذكور^(٤): [الطويل]

حَدِيثُكَ مَا أَخْلَى! فَرِيدِي وَحَدَّثِي عَنِ الرَّشِيدِ الْفَرْدِ الْجَمَالِ الْمُثَلَّثِ
وَلَا تَسْأَمِي ذِكْرَاهُ فَالذِّكْرُ مُؤْنَسِي وَإِنْ بَعَثَ الْأَشْوَاقُ مِنْ كُلِّ مَبْنَعٍ
وَبِاللَّهِ فَأَرْقِي خَبَلُ تَفْسِي بِقَوْلِهِ وَفِي عَقْدٍ وَجَدِي بِالْإِعَادَةِ فَاثْقَلِي^(٥)
أَحَقًّا وَقَدْ صَرُخْتُ مَا بِي أَنَّهُ تَبَسَّمَ كَاللَّاهِي، بَنَاءُ الْمُتَعَبِّثِ
وَأَقْسَمَ بِالْإِنْجِيلِ إِنِّي شَابِقُ^(٦) وَنَاهِيكَ دَمْعِي مِنْ مَجْزُوقِ مُحَنَّثِ
وَلَا بُدَّ مِنْ قَصِي عَلَى الْقَسِّ قِصَّتِي عَسَاءَ مُغَيِّثِ الْمُذْنَبِ الْمُتَغَوِّثِ
وَلَمْ^(٧) يَأْنَهُمْ عَيْسَى بِدِينِ قِسَاوَةٍ فَيَقْسُو عَلَى بَنِي^(٨) وَيَلْهَوُ بِمُكْرَثِ
وَقَلْبِي مِنْ حَلِي التَّجَلُّدِ عَاطِلُ هَوَى فِي غَزَالِ الْوَادِيَيْنِ الْمَرْعَثِ^(٩)
سَيُضْبِحُ بِرِّي كَالصَّبَاحِ^(١٠) مُشْهُرًا وَيُنْمِسِي حَدِيثِي غُرُضَةُ الْمُتَحَدِّثِ
وَيَغْرَى بِذِكْرِي بَيْنَ كَأْسٍ وَرَوْضَةٍ وَيُشْدُو^(١١) بِشِعْرِي فَوْقَ مَثْنَى وَمِثْلَتِ

(١) البيتان في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٠٧).

(٢) رواية صدر البيت في الديوان هي: فَهَلَّا خَسَفَتْ وَكَانَ الْخُسُوفُ.

(٣) القول لابن بسام وهو في الذخيرة (ق ١ ص ٦٩٣) ولكن ببعض اختلاف عما هنا. كذلك ورد

النص في مسالك الأبصار، (ج ١١، الورقة ٤٠١).

(٤) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٦٩ - ١٧٢).

(٥) في الأصل: «فَانْعَبْ» والتصويب من الديوان.

(٦) في الديوان: «لَمَانُ». (٧) في الديوان: «فَلَمْ».

(٨) في الديوان: «مُضَيَّ». (٩) في الديوان: «غَزَالِ ذِي نِفَارٍ مُرْعَثِ».

(١٠) في الأصل: «كَالصَّبْحِ» وهكذا يتكرر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١١) في الديوان: «وَيُشْدِدُ شِعْرِي بَيْنَ مَثْنَى...».

ومن شعره في الأمداح الصمادية^(١): [الطويل]

لعلك بالروادي المقدس شاطيء
وإني في ريتك واجد ربحهم^(٢)
ولي في السرى من نارهم ومتارهم
لذلك ما حثت ركابي^(٣) وحممحت
فهل حاجها ما حاجني؟ أو لعلها
زويدًا فذا وادي لبيني وإنه
ميادين تهيامي ومسرح ناظري
ولا تحسبوا غيذا حمتها مقاصر
ومنها:

محا ملة السلوان مبعث حسنه
فكيف أرفي كلم طرفك في الحشا
وما لي لا أسمو مرادًا وهمة
وما أخرتني عن تناء مبادئ
ولكنه الدهر المناقض فغله
كان زمني إذ رأي جديله
فدازت إغتابًا ودارأت عاتبًا
فألقيت أعباء الزمان وأهله
ولازمت سمّت الصمت لا عن فدامة^(٤)
ولولا غلا الملك ابن مغن محمد
لآلى إلا أن فكري غائص
فكل إلى دين الصبابة صابى
وليس لتمزيق المهثد رافى؟
وقد كرمت نفس وطابت ضاضى؟
ولا قصرت بي عن تباه مناشى
فذر الفضل منخط وذو النقص نامى
يلابسني منه^(٥) عدو ممالى
ولم يغنني أني مدار مدارى
فما أنا إلا بالحقائق عابى
فلي منطق للسمع والقلب صابى^(٦)
لما برحت أصدافهن اللآلى
وعلمي ذو ماء^(٧) ونطق شاطيء

(١) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ١٤٠ - ١٤٩).

(٢) في الديوان: «فكالعبر الهندي ما أنا واطيء».

(٣) في الأصل: «... واجد عزف ربحهم»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٤) في الأصل: «ركابي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «به». (٦) في الديوان: «قلاني فلي منه».

(٧) في الأصل: «مذامة» والتصويب من الديوان. والفدامة: قلة الفهم والفتنة.

(٨) في الديوان: «مالي».

(٩) في الديوان: «دأماء».

تجاوزَ حَدَّ الوَهْمِ واللَّخِظِ والمُنَى
فتنعكس الأَبْصارُ^(١) وهي خَوَاسِرُ
وقال من أخرى^(٢): [الكامل]

أَقْبَلَنَ فِي الجَبَرَاتِ يَفْصِرُنَ الخُطَا
مِزْبُ الجَوَى لَا الجَوَّ عَوْدَ حُسْنُهُ
مَالَتْ معَاطِفُهُنَّ مِنْ سُكْرِ الصَّبَا
وَيَمْسُقُطِ العَلَمِينَ أَوْضَحَ مَعْلَمِ
يَخْتَالُ والمُخَوِّطُ النُّصِيرَ إِذَا خَطَا
وَمِنْهَا فِي المَدْحِ:

يَا وَافِدِي شَرْقِ البِلَادِ وَعَزِيهَا
وَرَأَيْتُمَا مَلِكَ البَرِّيَّةِ فَاهِنَا
يُذْمِي نُحُورَ الدَّارِعِينَ إِذَا ارْتَأَى
وإحسانه كثير. دخل غرناطة، ومن بنات عملها وطنه، رحمه الله.

محمد بن إبراهيم بن خيرة^(٦)

يكنى أبا القاسم. ويعرف بابن الموعاني^(٧)، حرفة أبيه، من أهل قرطبة. واستدعاه السيد أبو سعيد الوالي بغرناطة إليه، فأقام عنده مدة من عامين في جملة من الفضلاء مثله.

حاله: قال ابن عبد الملك^(٨): كان كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، استكتبه أبو حفص بن عبد المؤمن، وحظي عنده حُظوة عظيمة، لصهر كان بينهما بوجه ما،

(١) في الديوان: «الأنصار وهي خواسِرُ وتقلب الأبصار...».

(٢) القصيدة في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٣٢ - ٢٣٣).

(٣) كلمة «في» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من الديوان.

(٤) في الأصل: «الوارشين» والتصويب من الديوان. والوراشين: طيور تشبه الحمام، واحدها وَرْشَان. لسان العرب (ورش).

(٥) في الأصل: «الحسا» بالسين المهملة، والتصويب من الديوان.

(٦) ترجمة ابن الموعاني في التكملة (ج ٢ ص ٤٣) واسمه فيه: «محمد بن إبراهيم بن خيرة».

والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١) والمغرب (ج ١ ص ٢٤٧) وتاريخ المن بالإمامة (ص ٣١١).

(٧) في التكملة: «يعرف بالموعاني».

(٨) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

ونال^(١) فيه جاهًا عظيمًا، وثروة واسعة. وكان حسن الخط رائقه، سلك فيه^(٢) في ابتدائه مسلك المتقن أبي بكر بن خيرة^(٣).

مشيخته: روى^(٤) عن أبي بكر بن عبد العزيز، وابن العربي، وأبي الحسن شريح، ويونس بن مغيث، وأبي عبد الله حفيد مكّي، وابن أبي الخصال، وابن بقي^(٥).

تأليفه: له^(٦) تصانيف تاريخية وأدبية منها «ريحان الآداب»^(٧)، و«ريحان الشباب» لا نظير له. و«الوشاح المفضل»^(٨). وكتاب في الأمثال السائرة. وكتاب في الأدب^(٩) نحا فيه^(١٠) منحى أبي عمر بن عبد البر في «بهجة المجالس». وفاته: توفي بمراكش سنة أربع وستين وخمسائة^(١١).

محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي^(١٢)

مُرسى الأصل، غرناطي النشأة، مألقي الإسكان، يكنى أبا عبد الله.

حاله: من عائد الصلة^(١٣): كان، رحمه الله تعالى^(١٤)، كاتبًا أديبًا ذكيًا، لؤذعيًا، يجيد الخط، ويرسل النادرة، ويقوم^(١٥) على العمل، ويشارك في القريضة. وبذ السباق في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس. عمّر^(١٦) زمانًا من عمره، محارفاً للفاقة، يعالج بالأدب الكذبة، ثم استقام له الميسم، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه، فأنشبت الحظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد ومحاسب ومدير تجر، فأثرى ونما ماله، وعظمت حاله، وعهد^(١٧) عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين، لتصرف في وجوه من البر، فتوهم أنها كانت زكاة امتسك^(١٨) بها.

(١) في الذيل والتكملة: «ونال باختصاص أبي حفص إياه جاهًا عريضًا وغزوة واسعة».

(٢) في المصدر نفسه: «به».

(٣) في المصدر نفسه: «خير».

(٤) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

(٥) جاء في الذيل والتكملة أنه أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقي.

(٦) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩١).

(٧) في التكملة: «الآلياب».

(٨) في الذيل والتكملة: «المفصل» بالصاد المهملة.

(٩) في المصدر نفسه: «في الآداب».

(١٠) في المصدر نفسه: «به».

(١١) قال ابن الأبار في التكملة: «وتوفي في نحو السبعين وخمسائة».

(١٢) ترجمة ابن باق الأموي في الدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٧٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٠).

(١٣) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠١).

(١٤) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

(١٥) في النفع: «ويقدم».

(١٦) في النفع: «غير».

(١٧) في النفع: «عهد».

(١٨) في النفع: «أمسك».

وجرى ذكره في التاج بما نصه^(١): مديُرُ أَكْوَاسٍ^(٢) البيان المُعْتَق، ولُعُوبٌ
بأطراف الكلام المُشَقَّق، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه، فأبرز دُرَّ معانيه من
أصدافه، وجنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه. ثم تجاوزه إلى المُعَرَّب^(٣) وتخطاه،
فأدار كأسه المُتَرَعَّ وعاطاه، فأصبح لِقْنِيَّه^(٤) جامعًا، وفي فَلَكِيَّه شهابًا لامعًا، وله
ذكاء يطير شَرَرُه، وإدراك تتبَلُّجُ عُرْرُه، وذهن يكشف الغوامض، ويسبق البارق
الوامض^(٥)، وعلى ذلاقة لسانه، وانفساح أمد إحسانه، فشديد الضبابية بشعره^(٦)،
مُغْلٍ لِسَعْرَه.

شعره: أخبرني الكاتب أبو عبد الله بن سلمة، أنه خاطبه بشعر أجابه عنه
بقوله، في زَوِيَّه^(٧): [الخفيف]

أخَرَزَ الحَظْلَ من بني سلمة	كاتبٌ تخدمُ الطُّبَا قَلَمَـة
يحملُ الطُّرْسُ عن ^(٨) أنامله	أثرَ الطُّرْسِ ^(٩) كلَّما رَقَمَـة ^(١٠)
وتمدَّ البيانَ فكرئته ^(١١)	مُرْسَلًا حيثَ يَمُمَّتْ دِيَمَـة
خَصَّنِي مُثَحِّفًا بخمس إذا	بَسَمَ الرُّوضُ فُقْنُ مُبْتَسَمَـة
قلت أهدى زهر الربا خَضِلًا	فإذا كلُّ زهرةٍ كَلِمَـة
أقسم الحُسْنُ لا يُفَارِقُهَا	فأبْرُ انْتِقاؤُها قَسَمَـة
خَطَّ أسطارها ونمَّقَها	فانت كالقعودِ منتظَمَـة
كاسيًا من حلاه لي حُلَلًا	رَسُمُها من بديع ما رَسَمَـة
طالبًا عند عاطشٍ تَهَلًا	ولديه العُيُوثُ مُتَسَجِمَـة
يبتغي الشعرَ من أخي بِلَه	أخْرَسَ العِيَّ والقُصُورُ قَمَـة
أيها الفاضلُ الذي حَمِدَتْ ^(١٢)	ألسنُ المدحِ والثنا شِيَمَـة
لا تُكَلِّفْ أخاك مقترحًا	نشرَ عارٍ لديه قد كَتَمَـة

(١) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠٠ - ٤٠١).

(٢) في النفح: «أكواس». (٣) في النفح: «المغرب».

(٤) أي قَنِيَّ النظم والثر. (٥) الوامض: المضي. لسان العرب (ومض).

(٦) في الأصل: «الضئانة يشعره» والتصويب من النفح.

(٧) الأبيات في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٠١ - ٤٠٢).

(٨) في النفح: «من». (٩) في النفح: «الحسن».

(١٠) في الأصل: «رقه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(١١) في الأصل: «ويمدَّ البيانَ بفكرته» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح.

(١٢) في النفح: «حفظت».

وَأَثَقَ فِي عَزَّةٍ وَفِي دَعَا صَافِي^(١) الْعَيْشِ وَارْدًا شَيْمَةً^(٢)
 مَا تُنَى الْخَصَنُ عِطْفُهُ طَرَبًا وَشَدَا الطَّبِيرُ قَوْقُهُ^(٣) نَعْمَةً
 مَشِيخَتُهُ: قَرَأَ^(٤) عَلَى الْأَسَاذِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ^(٥) الزُّبَيْرِ، وَالْخَطِيبِ أَبِي عَثْمَانَ بْنِ
 عَيْسَى.

وفاته: توفي^(٦) بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرّم^(٧) عام اثنين وخمسين
 وستمائة^(٨)، وأوصى بعد أن حُفِرَ قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي
 وأبي عثمان بن عيسى، أن يدفن به^(٩)، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:
 [الطويل]

تَرَحُّمٌ عَلَى قَبْرِ ابْنِ بَاقٍ وَحْيِهِ فَمَنْ حَقَّ مَنِيَّتِ الْحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ
 وَقُلْ أَمَنْ الرَّحْمَنُ رَوْعَةً خَائِفٍ لَتَفْرِيطِهِ فِي الْوَاجِبَاتِ وَغِيهِ
 قَدْ اخْتَارَ هَذَا الْقَبْرَ فِي الْأَرْضِ رَاجِيًا مِنْ اللَّهِ تَخْفِيفًا بِقَرَبِ^(١٠) وَلِيِّهِ
 فَقَدْ يَشْفَعُ الْجَارُ الْكَرِيمُ لَجَارِهِ وَيَشْمَلُ بِالْمَعْرُوفِ أَهْلَ نَدْيِهِ
 وَإِنِّي بِفَضْلِ اللَّهِ أَوْثَقُ وَائْتِي وَخَسْبِي وَإِنْ أَذْنُبْتُ حُبُّ نَبِيِّهِ

محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافري^(١١)

من أهل العرية، يدعى باليو^(١٢)، ويكنى أبا عبد الله.

حاله: من الإكليل الزاهر: شيخ^(١٣) أخلاقه ليّنة، ونفسه كما قيل هَيِّنَةٌ، ينظم
 الشعر سهلاً مَسَاقُهُ، مُحْكَمًا أَسَاقُهُ، على فاقة ما لها من إفاقة. أنشد السلطان^(١٤)

-
- (١) في النفع: «صافي». (٢) الشَّيْمُ: البارد. لسان العرب (شيم).
 (٣) في الأصل: «فوق» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
 (٤) النص مع الشعر في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٢ - ٤٠٣).
 (٥) كلمة «بن» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.
 (٦) في النفع: «وتوفي». (٧) في النفع: «المحرّم فاتح عام...».
 (٨) في النفع: «وسبعمائة». (٩) كلمة «به» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.
 (١٠) في النفع: «يَقْدَرُ».
 (١١) ترجمة ابن فضيلة المعافري في الدرر الكامنة (ج ٣ ص ٣٦٧) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣).
 (١٢) في النفع: «المدعو بالنوء». (١٣) النص مع بعض أبيات القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٤).
 (١٤) في النفع: «أنشد المقام السلطاني».

بظاهر بلده قوله: [الطويل]

سَرَتْ رِيحُ تَجْدٍ مِنْ رُبَى أَرْضِ بَابِلٍ فَهَاجَتْ إِلَى مَسْرِى سُرَاهَا بِلَابِلِي^(١)
وَذَكَّرَنِي عَزَفَ النَّسِيمِ الَّذِي سَرَى معَاهِدَ أَحْبَابٍ سُرَاةٍ أَفَاضِلِ
فَأَصْبَحْتُ مَشْخُوقًا بِذِكْرِ مَنَازِلِ أَلَفْتُ، فَوَا شَوْقِي لَتِلْكَ الْمَنَازِلِ
فِيَا رِيحُ هُبِّي بِالْبَطَاحِ وَبِالرُّبَا وَمُرِّي عَلَى أَغْصَانِ زَهْرِ الْخَمَائِلِ
وَسِيرِي بِجَسَمِي لِتِلْكَ الرُّوحِ عِنْدَهَا فَرُوحِي لَدَيْهَا مِنْ أَجْلِ الْوَسَائِلِ
وَقُولِي لَهَا عَنِّي مَعْنَاكَ بِالْهَوَى^(٢) لَهُ شَوْقٌ مَعْمُودٌ وَعَبْرَةٌ ثَاكِلِ^(٣)
فِيَا أَبَايَ هَيْفَاءَ كَالْغَصَنِ تَنْثَنِي^(٤) بَقْدُ يَقْدُ^(٥) كَادَ يَنْقَدُ مَائِلِ
فَتَاةَ بَرَاهَا اللَّهُ مِنْ فِتْنَةٍ قَمَنْ رَأَاهَا وَلَمْ يُفْتَنَّ فَلَيْسَ بِعَاقِلِ
لَهَا مَنَظَرٌ كَالشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَا وَلَحْظٌ كَحَيْلٍ سَاحِرٍ الطَّرْفِ بَابِلِي^(٦)
بَطِيبَ شَذَاهَا عَطَّرَتْ كُلَّ عَاطِرِ كَمَا بِحُلَاهَا زَيَّنَتْ كُلَّ عَاطِلِ
رَمَنِي بِسَهْمٍ مِنْ سَهَامٍ جُفُونَهَا فَصَادَفَ ذَاكَ السَّهْمُ مِنِّي مِقَاتِلِي^(٧)
فَظَلَلْتُ غَرِيقًا فِي بَحَارٍ مِنَ الْهَوَى وَمَا الْحَبِّ إِلَّا لُجَّةٌ دُونَ سَاحِلِ
فِيَا مَنْ سَبَتْ عَقْلِي وَأَقْنَتْ تَجَلْدِي صِيلَنِي فَإِنَّ الْبُعْدَ لَا شَكَّ قَاتِلِي^(٨)
فَلِي كِبْدٌ شَوْقِي إِلَيْكَ تَقَطَّرَتْ وَقَلْبٌ بَنِيرَانِ الْجَوَى فِي مِشَاغِلِي^(٩)
وَلِي أَدْمَعٌ تَحْكِي نَدَا كَفَّ يَوْسُفَ أَمِيرَ الْعَالَى الْأَرْضِي الْجَمِيلِ الْفَضَائِلِ
إِذَا مَدَّ بِالْجُودِ الْأَنَامِلَ لَمْ تَزَلْ بِحَوْرِ الثَّدْيِ تَهْمِي بِتِلْكَ الْأَنَامِلِ

ومن شعره قوله من قصيدة^(١٠): [الكامل]

بَهَرَتْ كَشْمِسٍ فِي غَلَالَةِ عَسْجِدٍ وَكَبِيرٍ يَمُ فِي قَضِيبٍ زَبَرَجِدٍ
ثُمَّ انْتَنَتْ كَالْغَصَنِ هَزْنُهُ الضُّبَا طَرِبًا فَتَزْرِي بِالْغَصُونِ الْمُيَّدِ

(١) في الأصل: «بلايل» والتصويب من النفع. (٢) في النفع: «بالنوى».

(٣) المعمود: اسم مفعول من قولهم: عمده الحب إذا أحزنه. والثاكل: الفاقد. والعبرة: الدفعة. لسان العرب (عمد) و(ثكل) و(عبر).

(٤) في الأصل: «تَنَّتِي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٥) في النفع: «تَقْدُ بِقْدُ». (٦) في الأصل: «بَابِلِي».

(٧) في الأصل: «مِقَاتِلِي». (٨) في الأصل: «قَاتِلِي».

(٩) في الأصل: «مِشَاغِلِي».

(١٠) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٤).

حَوْرَاءُ بَارِعَةُ الْجَمَالِ غَرِيرَةٌ^(١) تَزْهَى فَتَزْرِي بِالْقَضِيبِ الْأَمْلَدِ
 إِنْ أَذْبَرْتُ لَمْ تُبْقِ عَقْلَ مُدَبِّرٍ أَوْ أَقْبَلْتُ قَتَلْتُ وَلَكِنْ لَا تُدِي^(٢)
 تَوَالِيْقُهُ: قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْبَرَكَاتِ: وَابْتُلِيَ^(٣) بِاخْتِصَارِ كُتُبِ النَّاسِ، فَمِنْ ذَلِكَ
 مَخْتَصَرُهُ الْمُسَمَّى بِـ«الدَّرْرِ الْمَنْظُومَةِ الْمَوْسُومَةِ»، فِي اسْتِقْطَاقِ حُرُوفِ الْهَجَا
 الْمَرْسُومَةِ^(٤)، وَكِتَابٌ فِي حِكَايَاتٍ تَسْمَى «رَوْضَةُ الْجَنَانِ»^(٥)، وَغَيْرَ ذَلِكَ.
 وَفَاتِهِ: تَوَفَّى فِي أَوَاخِرِ رَمَضَانَ مِنْ عَامِ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَدَخَلَ غُرْنَاطَةَ
 غَيْرَ مَرَّةٍ.

محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم

مِنْ أَهْلِ جَزِيرَةِ شُقْر^(٦)، يَكْنَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَيُغَرَّبُ بِابْنِ مَرْجِ الْكُحْلِ^(٧).

حَالُهُ: كَانَ شَاعِرًا مُفْلِقًا^(٨) غَزَلًا، بَارِعَ التَّوْلِيدِ، رَفِيقَ الْغَزْلِ. وَقَالَ الْأَسْتَاذُ أَبُو
 جَعْفَرٍ: كَانَ^(٩) شَاعِرًا مَطْبُوعًا، حَسَنَ الْكِفَايَةِ، ذَاكِرًا لِلْأَدَبِ، مُتَصَرِّفًا فِيهِ. قَالَ ابْنُ
 عَبْدِ الْمَلِكِ: وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَائِفَةٍ مِنْ أَدْبَاءِ عَصْرِهِ مَخَاطَبَاتٌ، ظَهَرَتْ فِيهَا إِجَادَتُهُ.
 وَكَانَ مُبْتَذِلَ اللِّبَاسِ، عَلَى هَيْئَةِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا.

(١) فِي الْأَصْلِ: «غَرِيدَةٌ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْعِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «تَدَّ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ النَّفْعِ. وَتَدَّى: تَدَفَّعَ الدَّيَّةَ. لِسَانُ الْعَرَبِ (وَدَّى).

(٣) النَّصُّ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ٨ ص ٤٠٤).

(٤) فِي النَّفْعِ: «الدَّرْرِ الْمَوْسُومَةِ»، فِي اسْتِقْطَاقِ الْحُرُوفِ الْمَرْسُومَةِ.

(٥) فِي النَّفْعِ: «وَكِتَابٌ حِكَايَاتٍ يَسْمَى دَوْحَةُ الْجَنَانِ وَرَاحَةُ الْجَنَانِ».

(٦) شُقْرٌ، بِالْإِسْبَانِيَّةِ Jucar: جَزِيرَةٌ بِالْأَنْدَلُسِ، قَرِيبَةٌ مِنْ شَاطِئَةِ كَثِيرَةِ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ. الرُّوضُ
 الْمَعْطَارُ (ص ٣٤٩).

(٧) تَرْجَمَةُ ابْنِ مَرْجِ الْكُحْلِ فِي الْمَغْرِبِ (ج ٢ ص ٣٧٣) وَاسْمُهُ فِيهِ: مُحَمَّدُ بْنُ الدَّمَنِ، الْمَعْرُوفُ
 بِمَرْجِ الْكُحْلِ. وَزَادَ الْمَسَافِرُ (ص ٢٧) وَالرَّوَانِيُّ بِالْوُفَيَّاتِ (ج ٢ ص ١٨١) وَأَعْمَالُ الْأَعْلَامِ
 (القسم الثاني ص ٢٧٨) فِي تَرْجَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ هُوْدِ الْجَذَامِيِّ، وَبِرَنَامِجِ شَيْبُوخِ
 الرَّعِينِيِّ (ص ٢٠٨) وَرَايَاتِ الْمُبَرِّزِينَ (ص ٢٢٠) وَالْمَقْتَضِبِ مِنْ كِتَابِ تَحْفَةِ الْقَادِمِ (ص
 ١١٤، ١٥٢) وَالتَّكْمِلَةِ (ج ٢ ص ١٣٦) وَجَاءَ فِيهِ أَنَّهُ يَعْرِفُ بِمَرْجِ الْكُحْلِ. وَالذَّيْلُ
 وَالتَّكْمِلَةُ (السُّفَرُ السَّادِسُ ص ١١٠) وَنَفْحُ الطَّيِّبِ (ج ٧ ص ٤٧). وَالتَّجَمُّدُ هُنَا مَعَ الشُّعْرِ
 فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ٧ ص ٤٧ - ٥١) وَوُفَيَّاتُ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٣٣١) فِي تَرْجَمَةِ سَكِينَةَ
 بِنْتِ الْحُسَيْنِ.

(٨) فِي التَّكْمِلَةِ «كَانَ شَاعِرًا مُغْلِقًا بِدِيعِ التَّوْلِيدِ وَالتَّجْوِيدِ».

(٩) فِي النَّفْعِ: «شَاعِرٌ مَطْبُوعٌ، حَسَنُ الْكِتَابَةِ ذَاكِرٌ لِلْأَدَبِ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ».

مَنْ أَخَذَ عَنْهُ: روى عنه أبو جعفر بن عثمان الوراد، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله بن الأبار، وابن عسكر، وابن أبي البقاء، وأبو محمد بن عبد الرحمن بن بزطة، وأبو الحسن الرعيني.

شعره ودخوله غرناطة

قال في عُشِيَّةِ نهر الغُنداق، خارج^(١) بلدنا لَوْشَة بنت الحَضْرَة، والمحسوب مَنْ دخلها فقد دخل البيرة، وقد قيل: إن^(٢) هذا النهر من أحواز بَرْجَة، وهذا الخلاف داع إلى ذكره^(٣): [الكامل]

عَرُجْ بِمُنْعَرَجِ الكَثِيبِ الأَغْفَرِ
وَلتُنْتَبِهَا^(٤) قَهْوَة ذَهَبِيَّة
وعُشِيَّة قد^(٥) كُنْتُ أَزْقُبُ وَقْتُهَا
يَلْنَا بِهَا آمَالَنَا^(٦) فِي رَوْضَة
والدُّهْرُ مِنْ نَدَمٍ^(٧) يُسْفَهُ رَأْيَهُ
وَالْوُزُقُ تَشْدُو وَالْأَرَاكَةُ تَنْتَنِي
وَالرَّوْضُ بَيْنَ مُقْضَضٍ وَمُدْهَبٍ^(٨)
وَالنَّهْرُ مَرْقُومُ الْآبَاطِحِ وَالرُّبَى^(٩)
وَكَاثَهُ وَكَأَنَّ خُضْرَةَ شَطْطِهِ
وَكَاثَمَا ذَاكَ الْحَبَابُ فَرِنْدُهُ
وَكَاثَهُ، وَجِهَاتُهُ مَحْفُوفَةٌ

بَيْنَ الْفُرَاتِ وَبَيْنَ شَطِّ الْكُوَيْتِ
مِنْ رَاخَتِي أَخْوَى الْمَرَاثِفِ^(١٠) أَخْوِرُ
سَمَحْتُ بِهَا الْيَوْمَ بَعْدَ تَعَذُّرِ
تُهْدِي لِنَائِيقِهَا^(١١) شَمِيمَ الْعَنْبَرِ
فِي مَا مَضَى مِنْهُ بِغَيْرِ تَكْدُرِ
وَالشَّمْسُ تَزْفُلُ فِي قَمِيصِ أَضْفَرِ
وَالزَّهْرُ بَيْنَ مُدْزَهْمٍ وَمُدْزَرِ
بِمُضْئِلٍ مِنْ زَهْرِهِ وَمُعْضَفَرِ
سَيْفٍ يُسَلُّ عَلَى بِسَاطِ أَخْضَرِ
مَهْمَا طَفَا فِي صَفْحَةٍ كَالْجَوْهَرِ
بِالْأَسِّ وَالْثُغْمَانِ، خَذُ مُعَذَّرِ

(١) في النسخ: «من خارج».

(٢) في النسخ: «الذكر». والشعر في الذيل والتكملة (السفر السادس ص ١١١ - ١١٢) ورايات المبرزين (ص ٢٢١) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦)، ونفع الطيب (ج ٧ ص ٤٦ - ٤٩) والمغرب (ج ٢ ص ٣٧٣ - ٣٧٤) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١١٤ - ١١٥).

(٤) في النسخ والمغرب والمقتضب والذيل والتكملة: «ولتُنْتَبِهَا».

(٥) في المغرب والمقتضب والذيل والتكملة: «المدامع».

(٦) في الذيل والنسخ: «كم كنت». وفي رايات المبرزين والمقتضب والمغرب: «كم بث».

(٧) في النسخ: «فلنا بهذا ما لنا في...». وفي المغرب ورايات المبرزين: «في جنة أخذت...».

(٨) في الأصل: «لنا بشقها» وهكذا ينكسر الوزن. والتصويب من النسخ. وفي المقتضب: «شقها نسيم العنبر».

(٩) في أزهار الرياض: «يَدَم».

(١٠) في أزهار الرياض: «ومُعَسَّجِد».

(١١) رواية صدر البيت في رايات المبرزين هي: والنهر فيها والنبات يحفه.

نهرٌ يهيمُ بحُسنِهِ مَنْ لَمْ يَهَيْمَ وَجُجِيدَ فِيهِ الشَّعْرَ مَنْ لَمْ يَشْعُرِ
ما اَضْفَرُ وَجْهَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا إِلَّا لِفُرْقَةٍ حُسْنِ ذَاكَ الْمَنْظَرِ
ولا خفاء ببراعة هذا النظم^(١). وقال منها^(٢):

أَرَأَيْتَ جَفَوْنُكَ مِثْلَهُ مِنْ مَنَظَرٍ ظِلٌّ وَشَمْسٌ مِثْلُ خَدِّ مُعَذِّرٍ^(٣)
وهذا تميم عجيب لم يُسبق إليه. ثم قال منها:

وَقَرَارَةٌ كَالْعَشْرِ بَيْنَ خَمِيلَةٍ سَالَتْ مَذَانِبُهَا بِهَا كَالْأَسْطُرِ
فَكَأَنَّهَا مَشْكُوْلَةٌ بِمُصْنَدَلٍ مِنْ يَانِعِ الْأَزْهَارِ أَوْ بِمُعَضْفَرٍ
أَمَلٌ بَلَّغْنَاهُ بِهَضْبِ حَدِيقَةٍ قَدْ طَرَزَتْهُ يَدُ الْعِمَامِ الْمُمَطَّرِ
فَكَانَهُ وَالزُّهْرُ تَاچَ قَوْقُهُ مَلَكٌ تَجَلَّى فِي بِسَاطٍ أَخْضَرَ
رَاقٍ التَّوَاطُرَ مِنْهُ رَائِقٌ مَنَظَرٍ يَصِفُ النَّضَارَةَ عَنْ جَنَانِ الْكُوثرِ
كَمْ قَادَ خَاطِرَ خَاطِرٍ مُسْتَوْفِرٍ وَكَمْ اسْتَقْفَرُ جَمَالَهُ مِنْ مُنْصَرٍ
لَوْ لَاحَ لِي فِيمَا تَقْدَمُ^(٤) لَمْ أَقْلُ (عَرَجَ بِمُنْتَرَجِ الْكُثِيبِ الْأَغْفَرِ)
قال أبو الحسن الرُّعَيْنِي، وأنشدني لنفسه^(٥): [الكامل]

وعَشِيَّةٌ كَانَتْ قَنِيصَةً فُثِيَّةً أَلْفُوا مِنَ الْأَدَبِ الصُّرَيْحِ شِيوْخَا
فَكَأَنَّمَا الْعِنَقَاءُ قَدْ نَصَبُوا لَهَا مِنْ الْإِنْحِنَاءِ إِلَى الْوُقُوعِ فُخُوخَا
شَمَلَتْهُمْ أَدَابُهُمْ فَتَجَادَبُوا سِرُّ السُّرُورِ مُحَدَّثًا وَمُصِيخَا
وَالْوَرُوقُ تَقْرَأُ سِيرَةَ^(٦) الطَّرِبِ الَّتِي يُنْسِيكَ مِنْهَا نَاسِخًا^(٧) مَنَسُوخَا
وَالنَّهْرُ قَدْ صَفَحَتْ بِهِ تَارِنَجَةٌ فَتَيَمَّمَتْ مِنْ كَانَ فِيهِ مُنِيخَا
فَتَخَالَهُمْ حُلُلُ^(٨) السَّمَاءِ كَوَاكِبَا قَدْ قَارَنْتَ بِسَعُودِهَا الْمَرِيخَا
خَرَقَ الْعَوَائِدَ فِي السُّرُورِ نَهَارُهُمْ فَجَعَلْتُ أَبْيَانِي لَهُمْ^(٩) تَارِيخَا

(١) في النفع: «هذا الشعر». (٢) في الأصل: «أيضاً» والتصويب من النفع.
(٣) المعذّر: الذي نبت عذاره وهو شعر الخد. لسان العرب (عذر). وجاء في النفع بيت آخر لم يرد في الإحاطة وهو:

وَجَدَاوُلُ كَسَارَاتِمِ حَصْبَاوْهَا كِبَطُونُهَا وَحَبَابُهَا كَالْأَظْهَرِ
(٤) في النفع: «تقادم». (٥) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٤٩).

(٦) في النفع والذيل: «سورة». (٧) في الذيل والنفع: «ناسخ».

(٨) في الذيل والنفع: «حُلُلٌ»، بالخاء المعجمة. (٩) في النفع والذيل والتكملة: «له».

ومن أبياته في البديهة^(١): [الوافر]

وعندي من مراثيها^(٢) حديث
وفي أجفانها^(٣) السكوى دليل
تعالى الله ما أجرى دموعي
وأشجاني إذا لاحت بروق
ومن قصيدة^(٧): [الطويل]

عذيري من الآمال خابت قصودها
وقالوا: ذكّرنا بالغنّى، فأجبتهم
يهون علينا أن يبيد أثاننا
وما ضمر أصلاً طيباً عدم الغنى
وله يتشوق إلى أبي^(٩) عمرو بن أبي غياث: [الوافر]

أبا^(١٠) عمرو متى تُقضى الليالي
أبث نفسي هوى إلا شريشاً
ولم يبق علينا المكرمات الأثاث^(٨)
وما^(١١) بغد الجزيرة من شريش
وله من قصيدة^(١٢): [الكامل]

طفّل المساء وللنسيم تَضَوُّعُ
والزُّهْرُ يضحك من بكاء غمامة
والشُّهْرُ من طرب يصفق مَوْجُهُ
فانعم أبا عمران وأله بروضة
والأثس يتّظّم^(١٣) شَمَلْنَا ويَجْمَعُ
ريعت لشيم سيف برقي تلمع
والغصن يرقص والحمامة تسجع
حسن المصيف بها وطاب المزيغ

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٤٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٦). رورد البيتان الأول والثاني في المغرب (ج ٢ ص ٣٧٤).

(٢) في المغرب: «ألحاظها».

(٣) في المغرب: «معاطفها».

(٤) في المغرب: «ولا».

(٥) في أزهار الرياض: «عزّشت».

(٦) في أزهار الرياض: «إذا غنى الحمام».

(٧) في الأصل: «الأثابت»، والتصويب من نفع الطيب.

(٨) في النفع (ج ٧ ص ٤٩) «إلى عمرو بن أبي غياث». والبيتان في المصدر المذكور.

(٩) في النفع: «أيا».

(١٠) في المصدر نفسه: «ويا».

(١١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠). (١٢) في النفع: «يجمع».

يا شادنَ البانِ الذي دون النقا حيث التقى وادي الجِمي والأجرعُ
الشمسُ يغربُ نورُها ولربما كُسيَتْ ونورُك كلُّ حينَ يسطعُ
إن غابَ نورُ الشمسِ بَتنا^(١) نتقي بِسَنَّاكَ ليلَ تفرِّقُ يتطلّعُ
أقلَّتْ فَنابَ سَنَّاكَ عن إشراقها وَجَلًا من الظلماء ما يتوقّع
فأمثتُ يا موسى الغروبَ ولم أقلَّ «قَوِّدْتُ يا موسى لَو أَنَّكَ يوشعُ»^(٢)
وقال^(٣): [الطويل]

ألا بَشُرُوا بالصبح مَنْ كان باكِياً أَصْرُ به الليلُ الطويلُ مع البكا
ففي الصبحِ للضَبِّ المُتَّيمِ راحةٌ إذا الليلُ أَجْرَى ذَمَّعَهُ وإذا شكا
ولا عَجِبَ أن يُمسك الصبحُ عَبرتي فلم يزلِ الكافورُ للذَّمِّ مُنْسِكَا
ومن بديعِ مقطوعاته قوله^(٤): [الرمل]

مَثَلُ الرُّزْقِ الذي تَطْلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الذي يمشي مَعَكَ
أنت لا تُذِرْكَ مُتَّبِعًا فإذا وَلَّيْتَ عنه اتَّبَعَكَ^(٥)
وقال^(٦): [الطويل]

دخلتُم فأفسدتُم قلوبًا بِمُلْكِكُم^(٧) فأنتم على ما جاء في سورة النمل^(٨)
وبالعدل^(٩) والإحسان لم تَتَحَلَّقُوا فأنتم على ما جاء في سورة النحل^(١٠)

(١) في النفع: «لسنا».

(٢) عجز هذا البيت للرصافي البلنسي، والبيت بتمامه هو:

سَقَطَتْ وَلَمْ تَمْلِكْ يَمِيْنُكَ رَدَّهَا قَوِّدْتُ يا موسى لَو أَنَّكَ يوشعُ
ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠٥).

(٣) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠).

(٤) البيتان في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٢٣١) والتكملة (ج ٢ ص ١٣٦).

(٥) في النفع والوفيات: «تَبَعَكَ».

(٦) البيتان في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥٠ - ٥١).

(٧) في النفع: «بملكها».

(٨) يشير هنا إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا مَكَرُوا مَكْرَئِيًّا أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

(٩) في النفع: «وبالجدود».

(١٠) يشير هنا إلى ما جاء في سورة النحل ١٦، الآية ٧٦: ﴿إِنَّمَا يُوجِهُهُ لَا يَأْتِ بِغَيْرِ».

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن جهور: رأيت لابن مرج الكحل مَرْجًا أحمر
قد أجهد نفسه في خدمته فلم يُنجب، فقلت^(١): [البسيط]

يا مَرْجٌ كُحِلَ وَمَنْ هَذَا المَرْجُ لَهُ ما كَانَ أَخْوَجَ هَذَا المَرْجُ لِلْكُحْلِ
يا حمرة^(٢) الأرضِ مِنْ طيبٍ وَمَنْ كَرَمِ فلا تَكُنْ طَمِعًا فِي رِزْقِهَا العَجَلِ
فإنَّ مِنْ شَأْنِهَا إِخْلَافَ أَمَلِهَا فما تُفَارِقُهَا كَيْفِيَّةُ الحَجَلِ
فقال مجيبًا بما نصّه^(٣): [البسيط]

يا قائلًا إذْ رَأَى مَرْجِي وَحُمْرَتُهُ ما كَانَ أَخْوَجَ هَذَا المَرْجُ لِلْكُحْلِ
هو احمرارُ دماءِ الرُّومِ سَيَّلَهَا بالْبَيْضِ مَنْ مَرَّ مِنْ آبَائِي الأولِ
أَخْبَبْتُهُ أَنْ حَكَى^(٤) مَنْ فُتِنْتُ بِهِ فِي حُمْرَةِ الخَدِّ أَوْ إِخْلَافِهِ أَمَلِي

وفاته: توفي ببلده يوم الاثنين ليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة^(٥) أربع
وثلاثين وستمائة، ودفن في اليوم بعده.

محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري

من أهل مرسية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الجنان^(٦).

حاله: كان^(٧) محدثًا راوية، ضابطًا، كاتبًا بليغًا، شاعرًا بارعًا، رائق الخط، ديتًا
فاضلاً، خيرًا، زكيًا^(٨). استكتبه بعض أمراء الأندلس، فكان يتبرم من ذلك، ويقلق
منه. ثم خلصه الله تعالى^(٩) منه. وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة^(١٠)،
حتى يظن رائيه إذا^(١١) استذبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها، متناسب الخلقة،
لطيف السمائل، وقورًا. خرج من بلده حين تمكن العدو من بيضته^(١٢) عام أربعين.

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٧ ص ٥١). (٢) في النفع: «ما حمرة».

(٣) قوله: «بما نصّه» ساقط من النفع (ج ٧ ص ٥١).

(٤) في الأصل: «أحبته إن من فتنت به» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٥) في النفع: «عام أربعة...».

(٦) ترجمة ابن الجنان في عنوان الدراية (ص ٢١٣) ونفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٥٩).

(٧) النص في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٨) في النفع: «ذكيًا».

(٩) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وأضفتها من النفع.

(١٠) القماءة: القصر. لسان العرب (قما). (١١) في النفع: «الذي».

(١٢) في النفع: «قبضته سنة ٦٤٠».

وستمائه، فاستقر بأزريولة^(١)، إلى أن استدعاه^(٢) إلى سبنة الرئيس بها^(٣)، أبو علي بن خلاص^(٤)، فوفد عليه، فأجل وفادته، وأجزل إفادته، وحظي عنده حطوة تامة. ثم توجه إلى إفريقية، فاستقر ببجاية. وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته.

مشيخته: روى^(٥) ببلده وغيرها^(٦) عن أبي بكر عزيز بن خطاب، وأبي الحسن^(٧) سهل بن مالك، وابن قطرال، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عيسى بن أبي السداد، وأبي علي الشلوبين، وغيرهم.

من روى عنه: روى عنه صهره أبو القاسم بن نبيل، وأبو الحسن محمد بن رزيق.

شعره: قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك: وكان له في الزهد، ومدح النبي ﷺ، بدائع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرا. فمن ذلك قوله في توديع رمضان وليلة القدر: [الطويل]

مضى رمضان كأن ^(٨) بك قد مضى	وغاب سناه بعد ما كان أرمضا
فيا عهدَه ما كان أكرم مفعدا	ويا عصرَه أغزر علي أن أنقضا
ألم بنا كالطيف في الصيف زائرا	فخيم فينا ساعة ثم قوضا
فيا ليت شعري إذ نوى غزية الثوى	أبالسخط عنا قد تولى أم الرضا؟
قضى الحق فينا بالفضيلة جاهدا	فأي فتى فينا له الحق قد قضا؟
وكم من يد بيضاء أسدى لذي ثقى	بثويته فيه الصحائف بيضا
وكم حسن قد زاده حسنا وسنا	محاه وبالإحسان والحسن عوضا
فلله من شهر كريم تعرضت	مكارمه إلا لمن كان أعرضا

(١) في النسخ: «أزريولة». وهي بالإسبانية Orihuela، من بلاد شرقي الأندلس، تقع على نهر شقوره. الروض المعطار (ص ٦٧).

(٢) في النسخ: «دعاه». (٣) كلمة «بها» ساقطة في النسخ.

(٤) هو أبو علي الحسن بن خلاص البلنسي، تولى مبنية سنة ٦٣٧ هـ، ثم ثار فيها على عهد السعيد أبي الحسن علي بن إدريس بن المنصور الموحد سنة ٦٤١ هـ، وبابح الأمير أبا زكريا الحفصي، صاحب تونس. توفي سنة ٦٤٦ هـ. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٥) النص في نفع الطيب (ج ١ ص ٢٦١). (٦) في النسخ: «وغيره».

(٧) في الأصل: «وأبي الحسن بن سهل...» والتصويب من النسخ.

(٨) في الأصل: «وكان» وكذا يتكرر الوزن، لذا حذفنا حرف الواو.

نفى بينه وبين شَجْوَك^(١) مَعْلَمًا
وَقِفْ بِثُنَيَّاتِ الروداعِ فإِنَّهَا
وإن قُضِيَتْ قَبْلَ التَّفَرُّقِ وَقَفَّةً
فيا حُسْنَهَا من لَيْلَةٍ جَلَّ قَدْرُهَا
لَعَلَّ بَقَايَا الشَّهْرِ وَهِيَ كَرِيمَةٌ
وَقَدْ كَانَ أَضْفَى وَرَدَّهُ كَيِّ يَفِيضُهُ
وَقَالَ أَطْلُبُوهَا تَسْعَدُوا بِطَلَابِهَا
جَزَى اللَّهِ عَنَّا أَحْمَدًا لِلْجِزَاءِ^(٢)
وَصَلَّى عَلَيْهِ مِنْ نَبِيِّ مَبَارِكٍ
لَهُ عِزَّةٌ أَعْلَى مِنَ الشَّمْسِ مَنْزِلًا
لَهُ الذِّكْرُ يَهْمِي فَضْ مِنْكَ خَتَامُهُ
عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ مَا أَنَهْلُ سَاكِبٌ

ومن ذلك قصيدة في الحج: [الطويل]

مَذَاكِرَةُ الذِّكْرِ تَهْيِجُ اللُّوَاعِجَا^(٣)
رُكَابًا سَرَتْ بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ
تَيْمُنُنْ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ مَنَازِلَا
لَهْنٌ مِنَ الْأَشْوَاقِ حَادٍ فَإِنْ وَثْتُ
أَلَا بِأَيْبِي تِلْكَ الرُّكَابِ إِذَا سَرَتْ
فَعَالَجُنْ أَشْجَانَا يُكَاثِرُنْ عَالِجَا^(٤)
نَوَافِيجَ^(٥) فِي تِلْكَ الشُّعَابِ نَوَاعِجَا^(٦)
يُطَرِّنَهَا فِي الْأَرَاكِ سَجَاسِجَا^(٧)
حُدَاهُ يُرْجِعُنْ الْحَنِينَ أَهَازِجَا
هُوَادِي يَمْلَأُنْ الْفَلَاحَ هَوَادِجَا

(١) في الأصل: «شجوتك» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «أحمد الجزاء» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «تذاكر الذكر وتهيج اللواعجا» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) عالج: رمال بالبادية، سمي بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج وهو الذي يأكل اللَّجَان. معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩).

(٥) في الأصل: «نوافيج».

(٦) الرُّكَاب: الإبل، واحدها راحلة. الشُّعَاب: جمع شُعْب وهو الطريق في الجبل. النَوَاعِج: جمع ناعجة وهي الناقة البيضاء والسريعة والتي يُصاد عليها. محيط المحيط (ركب) و(شعب) و(نعج). والعُذَيْب: ماء بين القادسية والمغينة. معجم البلدان (ج ٤ ص ٩٢). وبارق: ماء بالعراق وهو الحد بين القادسية والبصرة. معجم البلدان (ج ١ ص ٣١٩).

(٧) في الأصل: «يطرنها إلا في الأراك سجاسجا» وكذا ينكسر الوزن. والأراك: شجر يُسْتَاك به وترعاه الإبل.

براهم سوامح أو سَراهم فأصبحوا
 لهم في مَنى أسنى المَنا ولدى الصفا
 سما بهم طَوفَ ببيتِ طامح
 فأبدوا من اللوعات ما كان كامنا
 ولَمّا دنوا نودوا هُنيّا وأقبلوا
 وقَضُوا بتقبيل الجدار ولثمه
 إذا اعتنقوا تلك المعالم خِلَّتْهُمْ
 فلله ركبَ يُمَموا نحو مكة
 أناخوا بأرجاء الرُجاء وعُرسوا
 فبشري^(١) لهم كم خُولُوا من كرامة
 بفتحهم بابَ القبول وللرضا^(٢)
 تميزَ أهلُ السبق لكنْ غيرهم
 أيلحق جِلْسُ^(٣) للبيوت مَدَاهُم
 ألا ليت شعري للضرورة هل أرى
 له الله من ذي كُزْبَةٍ ليس يُرْتَجى
 قد أَسْهَمَتْ شتى المسالك دونه
 يخوض بحار الذنب ليس يهابها
 جبانٌ إذا عَنَّ الهدى وإذا الهوى
 يتيه ضلالا في غِيابة همّه
 فواخربا لاح الصباح لمبضرٍ
 لعلَّ شَفِيعي أن يكون معاجلا
 فيُنشِئُنِي بيتُ الإله نوافحا

رسوماً على تلك الرسوم عوالجا
 يُرْجُونَ من أهل الصُفَاء^(١) المناهجا
 أراهم قباباً للعلَى ومعارجا
 وأذّروا دموعاً بل قلوباً مناضجا
 إلى الركن من كل الفجاج أدارجا
 حقوقاً تُقْضَى للنفوس حوائجا
 أساورَ في إيمانها وجهالجا
 لقد كَرُمُوا قَضَاً وحلّوا مناسجا
 فأصبح كلُّ مايز^(٢) القِدْح فالجا
 فكانت لما قدّموه نتائجا
 ووَفَدَهُم أضحى على الباب والجا
 غدا هَمَجًا بين الخليقة هامجا
 ولم يَلْه^(٣) في تلك المدارج دارجا؟
 إلى الله والبيت المحجّب خارجا؟
 لِمُرْتَجِها^(٤) يومًا سوى الله فارجا
 فلا تَهَجَّ يَلْقَى فيه الله ناهجا
 ويَضَعُ دُعْرًا إن يرى البحر هائجا
 يَمَعْنُ له كان الجريء المَهارجا
 فلا حَجَرَ تهديه لرُشدٍ ولا جججا
 وقلبي لم يُبصر سوى الليل إذ سجا
 لداء ذنوب بالشِّفاء مُعالجا
 ويُعَبِّقُ لي قَبْرُ النَّبِيِّ نوافجا

(١) في الأصل: «الصفا» وكذا ينكر الوزن.

(٢) في الأصل: «ما يَزَّ» وكذا يخل الوزن والمعنى معًا.

(٣) في الأصل: «بشروا» وكذا ينكر الوزن.

(٤) في الأصل: «يفتح باب للقبول وللرضا» وكذا ينكر الوزن.

(٥) الجِلْس: المجلس. محيط المحيط (جلس).

(٦) في الأصل: «ولم يَلْقَبْ» وكذا ينكر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٧) في الأصل: «المرتجها» وكذا ينكر الوزن ولا يستقيم المعنى.

فما لي لإمالي^(١) سوى حُبِّ أحمد وَصَلْتُ له من قُرْبِ قلبي وشائجا
عليه سلام الله من ذي صباية حليف شَجَا يكتى من البعد ناشجا
ولو أَنَصَفْتُ أَجْفَاءَهُ حَقٌّ وَبُجْدِهِ سَفَكْتُ دَمًا لِلدموع موازجا

كتابه: وكتابته شهيرة، تُضرب بذكره فيها الأمثال، وتُطوى عليه الخناصر. قالوا: لما عقد أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود النُّبَيْعَة لابنه الواصل بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها، وجعل الحاء المهملة سَجْعًا مُزْدَقًا إياها بالألف، نحو «صباحًا» و«صلاخًا»، وما أشبه ذلك، طال مجموعها فناهزت الأربعين، وطاب مَسْمَعُهَا، فأحرزت بُغْيَة المُسْتَمْعِينَ، فكتب إليه أبو المُطَرِّف ابن عَميرة، رسالته الشهيرة، يداعبه في ذلك، وهي التي أولها:

«تحريك الأقلام تحية كسرى، وتقف دون مذاك خسرى». ومنها في الغرض: «وما لك أمنت تغير الحالات، فشئت غارتك على الحاءات، ونقضت عنها المهارق، وبعثت في طلبها السوابق، ولقظتها من الأقواء، وطلبتها بين الشفاه، حتى شهد أهل اللسان بتزحزحها عن ذلك المكان، وتوارت بالخلق، ولو تغلغل إلى العروق، لآثرها جياذك، واقتصصها قلمك ومداذك». وهي طويلة.

فراجع بقوله: «ما^(٢) هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وما^(٣) هذه الروية؟ أتتكتبت من الأقلام؟ أم^(٤) تكتبت من الأعلام؟ أم^(٥) كلا الأمرين توجه القصد إليه، وهو الحق مُصَدَّقًا لما بين يديه؟ وإلا فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه^(٦)، ويترامى إلى الغاية البعيدة بنفسه، فمتى لاث أنابيه للعاجم، ودانت أعاريه^(٧) بدين الأعاجم؟ وا عجبًا لقد استنوق الجمَل^(٨)، واختلف القول والعمل، لأمر ما جدع أنفه قصير^(٩)، وارتد على عقبيه الأعمى أبو بصير. أمس استسقي من سحابه فلا يسقيني، واستسقي بأسمائه فلا يشفيني. واليوم يحلني محل أنو شروان، ويشكو مني شكوى اليزيدية^(١٠)

(١) في الأصل: «إمالي» وكذا ينكسر الوزن. والإثلة: الأمل. محيط المحيط (أمل).

(٢) النصر في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٦١ - ٢٦٧).

(٣) في النسخ: «وهذه». (٤) في النسخ: «أو».

(٥) عكس القلم هو: الملق. (٦) في النسخ: «أعاريه للأعاجم».

(٧) أخذه من المثل: «قد استنوق الجمَل» أي صار ناقة، يضرب هذا المثل في التخليط، والمراد: تغيرت الطباع. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٩٣) ومحيط المحيط (نوق).

(٨) هو مثل آخر، قيل في قصة احتيال قصير بن سعد القضاءي على الزباء ملكة تدمر حتى أخذ منها بالثار. محيط المحيط (زبا).

(٩) في النسخ: «اليزيدية».

من بني مروان، ويزعم أنني أبطلت سحره^(١) كما أبطل سحر بردوران، ويخفي في نفسه ما الله مبدية^(٢)، ويستجدي بالآثر ما عند مستجديه. فمن أين جاءت هذه الطريقة المثبتة، والطريقة^(٣) المبتدعة، أبطن أن معناه لا يفك^(٤)، وأنه لا يتجلى^(٥) هذا الشك؟ هل هذا^(٦) منه إلا إمحاض التيه، وإمحاض ثقته، ونشوة من خفرة^(٧) الهزل، ونخوة من ذي ولاية أمين العزل؟ تالله لولا محله من القسم، وفضله في تعليم التسم، لأسمعت^(٨) ما يقطع به ضلعه، وأودعته ما يتصدع به صدغه، وأشدت^(٩) بشرف المشرق ومجده^(١٠)، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده. ولكن هو القلم الأول، فقله على أحسن الوجوه يتأول، ومغذود في تهذيبه، كل ما لسانه يهذي به. وما أنسانيه^(١١)، إلا الشيطان أيديه، أن أذكرها^(١٢)، وأنا أقول: [البسيط]

ليت التحية كانت لي فأشكرها^(١٣)

ولا عتب إلا على الحاء^(١٤)، المبرحة بالبرحاء، فهي التي قيئت^(١٥) قيامتي في الأندية، وقامت علي قيام المعتدية^(١٦)، يتظلم وهو عيّن الظالم، ويلين القول وتحت سُم الأرقام^(١٧)، ولعمر البراعة وما نصعت^(١٨)، والبراعة وما صنعت، ما خامرني هواها^(١٩)، ولا كلفت بها دون سواها. ولقد عرّضت نفسها علي مراراً، فأعرّضت عنها ازوراراً، ودفعتها عني بكل وجه، تارة بلطف وأخرى بنجه^(٢٠)،

(١) في النسخ: «سحر» يثر دزوان.

(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَتَحْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

(٣) في النسخ: «والشريعة».

(٤) في النسخ: «لا يفك».

(٥) في النسخ: «لا ينجلي».

(٦) في النسخ: «أخمر».

(٧) في النسخ: «وأشرت».

(٨) في النسخ: «وما أنساني».

(٩) أخذه من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْسَيْنِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ﴾ [الكهف: ٦٣].

(١٠) هو صدر بيت لكثير عزه، والبيت بتمامه هو: [البسيط]

ليت التحية كانت لي فأشكرها مكان يا جميل خبيث يا رجل

الأغاني (ج ٩ ص ٤٣) والشعر والشعراء (ص ٤١٨).

(١١) قد تكون قصيدة حائية، أو رسالة بُنيت على تكرير حرف الحاء في كل كلمة.

(١٢) في النسخ: «أقامت».

(١٣) في النسخ: «جمع أرقم وهو الثعبان. لسان العرب (رقم)».

(١٤) في النسخ: «ولعمر البراعة وما وضعت».

(١٥) في النسخ: «الضهير يعود إلى الحاء».

(١٦) في النسخ: «الرد القبيح. لسان العرب (نجه)».

وحفَّت منها السامة، وقلت انكحي أسامة. فرضيت منها^(١) بأبي جهنم^(٢) وسوء سلكته^(٣)، وابن أبي سفيان وصغلكته، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة، وأسمح من سجاح^(٤) في استنجاح تلك الخطبة. ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عثرتها^(٥)، واستقال الاجتماع من عثرتها^(٦)، وأرى من الغبن والسفاه، أخذها وترك بنات الأفواه والسفاه^(٧)، إذ هي أيسر مؤونة، وأكثر^(٨) معونة، فغلطي^(٩) فيها أن كانت بمنزل تتوارى صونًا عن الشمس، ومن نِسوة خفريات لا ينطقن إلا بالهَمْس، ووجدتها أطلوع من البنان للكف، والعنان للوكف^(١٠)، والمعنى للاسم، والمغنى للرسم، والظل للشخص، والمستبدل^(١١) للنصر. فما عرفت منها إلا خبرًا^(١٢) أرضاه، حتى حَسِبْتُها من الحافظات للغيب بما حفظ الله، فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها، ونشزت فنشرت ما استكتمها بعلها، واضطريت في رأيها اضطراب المختار بن^(١٣) أبي عبيد، وضربت في الأرض تسعى عليّ بكل مكر وكيد، وزعمت أن حرف^(١٤) الجيم خدعها، والآن^(١٥) أخدعها، وأخبرها أن سيبلغ بخبرها الخابور^(١٦)، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور^(١٧)، فقد جاءت إفكًا وزورًا، وكثرت من أمرها شُورًا^(١٨)، وكانت كالقوس أرئت وقد أضمت القنيص، والمراوذة قالت ﴿مَا جَزَاءُ﴾^(١٩) وهي التي قدت

(١) في النفع: «مني».

(٢) يشير هنا إلى قصة فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك، حين خطبها معاوية بن أبي سفيان وأبو جهنم، فتزوجت أسامة بن زيد؛ لأن معاوية وصف بأنه صعلوك لا مال له، وأبو جهنم كان لا يضع عصاه عن عاتقه، أي أنه كان يضرب النساء.

(٣) في النفع: «ملكته».

(٤) في النفع: «وأسمح من سجاح». وأخبار سجاح مع مسيلمة الكذاب معروفة، وقد ضرب بها المثل في الإسماح.

(٥) في النفع: «عثرتها».

(٦) بنات الأفواه والسفاه: الحروف مثل الباء والميم وغيرهما.

(٧) في النفع: «وأكثر».

(٨) في النفع: «للكف».

(٩) في النفع: «خبرًا أرضاه، وحسبتها».

(١٠) كلمة «بن» ساقطة من الإحاطة. وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي ثار عام ٦٥ هـ، مطالبًا بدم الحسين بن علي، عليهما الصلاة والسلام.

(١١) في النفع: «أن الجيم».

(١٢) الخابور: من روافد نهر الفرات؛ يريد أن يقول: إنه سيبلغ خبرها إلى مكان ناء.

(١٣) هو سابور ذو الأكتاف، يقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يدي قيصر.

(١٤) في النفع: «منزورًا».

(١٥) سورة يوسف ١٢: الآية ٢٥.

القميص^(١)، وربما يُظَنُّ بها الصدق، وظنُّ الغيب تزجيم، ويقال: لقد خُفِضَت الحاء بالمجاورة لهذا الأمر الجسيم^(٢)، وتنتصر لها أختها^(٣) التي خُيِّمَت بين النرجسة والرَّيحانة، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أَكْرَمَ نبيٍّ على الله سبحانه، فإن امتعَّضَتْ لهذه المتظَلِّمة^(٤)، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة المتكلمة^(٥)، فأنا ألوذ بعدلها، وأعوذ بفضلها، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها، وتعمل بمقتضى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾^(٦) على أنَّ هذه التي قد أُنْذِثَ مِنِّهَا^(٧)، وتَسَبَّت الفضل بيني وبينها، أن قال الحَكَمَان: منها كان النشور، عادت حَرُورِيَّة^(٨) العجوز، وقالت: الشَّحْكُ^(٩) في دين الله لا يجوز، فعند ذلك يُخَصِّصُ^(١٠) الحق، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق، ويصيبها ما أصاب أروى، من دعوة سعيدة^(١١) حين الدُّعوى، ويا وَيَحْها أن^(١٢) أرادت أن تجني عليَّ فجنت لي، وأناخْتُ لي مَرْكَب السعادة وما ابْتَنَتْ إِلَّا خَثْلِي، فأتى شرُّها بالخير، وجاء الثَّفْعُ من طريق ذلك الضَّير. أتراها علمت بما يشرُّه اعوجاجُها، وينجلي عنه عَجَاجُها؟ فقد أفادت عظيم الفوائد، ونظَّيم الفرائد، ونَفْسُ الْفَخْرِ، ونَفْسُ الدُّخْرِ^(١٣)، وهي لا تنكر^(١٤) أن كانت من الأسباب، ولا تذكر إِلَّا يوم المَلْاحاة والسَّبَاب. وإنما يستوجب الشكر جسيمًا، والثناء الذي يتضوُّع نسيما، الذي شَرَّفَ إذ أهدى أشرف السَّحَاءات، وعَرَّفَ بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في المحاءات، فإنه وإن أَلَمَّ بالفكاهة، فما أَمْلَى^(١٥) من البداهة، وسَمَّى باسم السابق السُّكَيْتِ، وكان من أمر مداعبته كَيْت وكَيْت، وتلاعب بالصفات^(١٦)، تلاعب السَّيْل بالصفة، والصُّبَا بالبانة، والصُّبَا بالعاشق ذي اللَّبانة، فقد أَغْرَبَ بفنونه، وأغرى

(١) إشارة إلى قصة امرأة العزيز في قوله تعالى: ﴿وَرَزَوْتَهُ آلِي هَوٍّ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَغَلَّقَتْ آلَ بَوَّابٍ﴾ [يوسف: ٢٣]. وعندما انفضح أمرها قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَيِّئَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية.

(٢) في النفع: «لهذا الجيم».

(٣) كلمة «أختها» ساقطة في النفع.

(٤) في النفع: «الكلمة».

(٥) في النفع: «الكلمة».

(٦) سورة النساء ٤، الآية ٣٥.

(٧) حرورية: أي ترفض التحكيم وتقول: لا حكم إلَّا لله.

(٨) في النفع: «التحكيم».

(٩) يُخَصِّصُ الحق: يظهر ويبين. لسان العرب (حصحص).

(١٠) في النفع: «سعدية».

(١١) كلمة «أن» ساقطة في النفع.

(١٢) في النفع: «لا تشكر».

(١٣) في النفع: «بما أمل».

(١٤) في النفع: «في الصفات تلاعب الصفاح والصُّبَا بالبانة».

القلوب بفتونه، ونفث بجفنه^(١) الأطراف، وعبث من الكلام المُشَقَّق الأطراف^(٢)،
وعلم كيف يُلَخِّص^(٣) البيان، ويُلَخِّص العقيان. فمن الحق أن أشكره على أيديه
البيض، وأن آخذ لفظه^(٤) من معناه في طرف النقيض. تالله أيها الإمام الأكبر،
والغمام المُسْتَمَطَر، والخبر^(٥) الذي يُشفي سائله، والبحر الذي لا يرى ساحله، ما
أنا المراد بهذا المسلك، ومن أين حصل^(٦) النور لهذا الخلك؟ وصح أن يُقاس بين
الحداد والملك؟ إنه لتواضع الأعزّة، وما يكون للأكارم^(٧) عند المكارم من العزّة،
وتحريض الشيخ للتلميذ، في^(٨) إجازة الوضوء بالثبذ. ولو حضر الذي قُضِيَ له
بجانب الغربي أمرُ البلاغة، وارضى ما له في هذه الصناعة، من حُسن السبك
لجليتها^(٩) والصياغة، وأطاعته فيما أطلعت طاعة القوافي الحسان، وأتبعته فيما جمعته
لكن بغير إحسان، لأذن كما أذعنت، وظعن عن محل دعوى^(١٠) الإجازة كما
ظعننت، وأتى يُضاهي الفرات المَعِين^(١١) بالثبّة^(١٢)، ويباهى بالفلوس من أوتي من
الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة، وأي حظ للكلالة في الشب^(١٣)، وقد اتصل
للورثة عمود الشب. هيهات والله بُعد^(١٤) المطلب، وشتان الدُرّ والخشب^(١٥)،
وقد سيم الغلب، ورجع إلى قيادة السلب، وإن كنا ممن تقدّم لشدة الظلم إلى
المنهل، وكمن أقدم إلى عين تبوك بعد التهي للعل والثهل. فقد ظهرت بذلك^(١٦)
المعجزة عياناً، وملء ما هناك^(١٧) جناناً، وما تعرّضنا بإساءة الأدب واللوم، ولكن
علمنا أن آخر الشرب^(١٨) ساقى القوم، وإن أسهبنّا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز، وإن
أغرّقنا فهوانا في الحجاز، فلکم قصيرات الحجال، ولنا قصيرات الخطا في هذا
المجال، وإكثارتنا في قلة، وجارنا من الفقر في فقر وذلة. ومن لنا بواحدة يُشرق
ضياؤها، ويخفي النجوم خجلها منها وحياتها؟ إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل،
وفي المجموع^(١٩) كليلة الوضل. فلو سطع نورها الزاهر، ونورها الذي تطيب منه

(١) في النفع: «بخفية».

(٣) في النفع: «يمحض».

(٥) في النفع: «والحبر».

(٧) في النفع: «عند الكرام من الهزة».

(٩) في النفع: «لجليتها».

(١١) كلمة «المعين» ساقطة في النفع.

(١٢) الثبّة: الجرعة من الماء. لسان العرب (نغب).

(١٣) في النفع: «بالنشب».

(١٥) في النفع: «والمخشب».

(١٧) في النفع: «وملا ما هنالك».

(١٩) في النفع: «المجموع».

(٢) في النفع: «بالأطراف».

(٤) في النفع: «وإن آخذ لفظه...».

(٦) في النفع: «حصل ذلك النور».

(٨) في النفع: «وترخيص في...».

(١٠) كلمة «دعوى» ساقطة في النفع.

(١٤) كلمة «بعد» ساقطة في النفع.

(١٦) في النفع: «بعد ذلك».

(١٨) في الأصل: «الشرب» والتصويب من النفع.

الأنوار الأزاهر، لَسَجَدَتِ الثَّيْرَانُ لِيُوسُفَ ذَلِكَ الْجَمَالِ، وَوَجَدَتْ نَفْحَاتِ رِيَّاهَا فِي
أَعْطَافِ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهَا النُّفُوسُ إِسْرَاعَ الْحَجِيجِ يَوْمَ الثُّغْرِ، وَسَارَ
خَبِيرُهَا وَسَرَى فَصَارَ حَدِيثَ الْمُقِيمِينَ وَالسُّفْر. وَمَا أَظُنُّ^(١) تِلْكَ السَّاحِرَةَ فِي
تَدْلِيهَا^(٢)، إِلَّا السَّاحِرَةَ بَتَجْنِيهَا، إِذْ كَانَتْ رَبِيبَتَهَا، بَلْ رَبِيبَتَهَا، هَذِهِ الَّتِي سَبَقْتَنِي لَمَّا
سَقَتْنِي بِسِينِهَا^(٣)، وَوَجَدْتُ رِيحَهَا، لَمَّا فَصَلْتُ مِنْ مِصْرَها غَيْرَهَا^(٤) وَحِينَ وَصَلْتُ
لَمْ يَدْلَنِي عَلَى سَابِقِهَا^(٥) إِلَّا غَيْرُهَا، وَكَمْ رَامَتْ أَنْ تَسْتَبْرِعَنِي بِلَيْلِ خَبِيرِهَا فِي هَذِهِ
الْمَغَانِي، فَأَغْرَانِي بِهَاؤِهَا وَكُلَّ مُغْرَمٍ مُغْرَى بِبَيَاضِ صُبْحِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي. وَهَلْ كَانَ
يَنْفَعُهَا تَلْفُحُهَا بِمِزْطِهَا وَتَلْفَعُهَا؟ إِذْ نَادَتْهَا الْمَوَدَّةُ، فَقَدْ عَرَفْنَاكَ يَا سَوْدَةَ. فَأَقْبَلْتُ عَلَى
شَمِّ نَشْرِهَا وَعَرْفِهَا، وَلَقِمْتُ سَطْرَهَا وَحَرْفَهَا، وَقَرَيْتُهَا الشَّاءَ الْحَافِلَ، وَقَرَأْتُهَا فَرْزَنْتَ بِهَا
الْمَحَاضِرَ وَالْمَحَافِلَ^(٦). وَرَمْتُ أَمْرَ الْجَوَابِ، فَقَرَّزْتَنِي^(٧) فِي الْخُطَابِ، لَكِنْ رَسَمْتُ
هَذِهِ الرُّقْعَةَ الَّتِي هِيَ لَدَيْكُمْ بَعَجَزِي وَاشِيَّةً، وَإِلَيْكُمْ مِنْهُ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ مَاشِيَّةً، وَإِنْ
رَقَّ وَجْهُهَا فَمَا رَقَّتْ لَهَا حَاشِيَّةً، فَمُنُوا بِقَبُولِهَا عَلَى عِلَاتِهَا^(٨)، وَانْقَعُوا بِمَاءِ
سَمَاحَتِكُمْ حَرُّ غُلْلِهَا، فَإِنَّهَا وَافِدَةٌ مَنِ اسْتَقَرَّ قَلْبُهُ عِنْدَكُمْ وَثَوَى، وَأَقْرَبُ بَأَنَّهُ يَلْقُطُ فِي
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ مَا يُلْقَى لِلْمَسَاكِينِ مِنَ الثَّرَى. بِقَبِيضَتُمْ، سَيِّدِي الْأَعْلَى^(٩) لِلْفَضْلِ
وَالْإِغْضَاءِ، وَدَمَتُمْ غَرَّةً فِي جَبِينِ السَّمْعَةِ الْبَيضاءِ، وَافْتَضَّيْتُمْ السَّعَادَةَ الْمُتَّصِلَةَ مَدَّةً
الْإِقْتِضَاءِ، يَثْنِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ. انْتَهَى.

ومحاسنه عديدة، وآماده بعيدة.

دخوله غرناطة: دخلها مع المتوكل مخدومه، أو وجده بها.

من روى عنه: روى عن أبي الحسن سهل بن مالك.

وفاته: قال الأستاذ في الصلة^(١٠): انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخميس
وسمائه^(١١).

(١) في النسخ: «وما ضرَّ تلك».

(٢) في النسخ: «في تجليها، الساحرة بتجنيها، أن كانت بمنزلة رببتها بل بزبها،
هذه...».

(٣) في النسخ: «بسينها».

(٤) في النسخ: «من مصر غيرها».

(٥) في النسخ: «سارها».

(٦) في النسخ: «قرزنت بها المحافل».

(٧) في النسخ: «فقرزني».

(٨) في النسخ: «عللها».

(٩) كلمة «الأعلى» ساقطة في النسخ.

(١٠) كذا ورد في نفع الطيب (ج ١٠ ص ٢٧٦).

محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي^(١)

من أهل^(٢) المرية، يكنى أبا عبد الله، من وجوه بلده وأعيانه، نشأ ثبية البيت، ساحباً بنفسه ويماله ذَيْلَ الحُظوة، متحلّياً بخُصْل من خطٍّ وأدب، وزيراً، متجسّداً، ظريفاً، ذرباً على ركوب البحر وقيادة الأساطيل. ثم انحطّ في هواه انحطاطاً أضرّاع مروءته، واستهلك عقاره، وهُدّ بيته، وألجأ أخيراً إلى اللُّحاق بالعدوة فهلك بها.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه^(٣): مجموع شعر وخطٍّ، وذكاء عن درجة الظرفاء غير مُنحطٍّ، إلى مجادة أثيلة البيت، شهيرة الحيِّ والميت. نشأ في حِجر الثَّرف والنعمة، محفوقاً بالمالية الجمّة، فلما غَفَلَ^(٤) عن ذاته، وترعرع بين لذاته، أجرى خيول لذاته، فلم يدع منها ربناً إلّا أقفره، ولا عقّاراً إلّا عقّره، حتى حطّ بساحلها، واستولى بسِغَر^(٥) الإنفاق على جميع مراحلها، إلّا أنه خَلَصَ بِنَفْسٍ طيّبة، ومِراوة سماؤها صَيّبة، وتمتّع ما شاء من زِيرٍ وَبَمٍ^(٦)، وتأنّس لا يعطي^(٧) القيّاذ لهم. وفي عفو الله سَعَة، وليس مع التوكل على الله ضَعَة.

شعره: من شعره^(٨) قوله يمدح السلطان، وأنشدها إياه بالمضارب من وادي الغَيْران عند قدومه من المرية^(٩): [الطويل]

أثَغْرُكُ أَمْ يَسْمُطُ مِنَ الدُّرِّ يُنْظَمُ؟	وريقك أم يسنك به الرّاح تُخْتَمُ؟
ووجهك أم بادٍ من الصُّبح نَيَّرُ؟	وقرْعك أم داج من الليل مُظْلِمُ؟
أَعْلَلُ منك النفس والوجدُ مُتَلَفِي	وهل ينفع التعليلُ والخُطبُ أعظمُ ^(١٠) ؟
وأقنع من طَيِّفِ الخيال يزورني ^(١١)	لو أنّ جُفُونِي بالمنام تَنَعَمُ
حَمَلْتُ الهوى حيناً فلمّا علمته	سلوتُ لأنسي بالمكّارم مُعْرَمُ

(١) ترجمة ابن شلبطور في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٥) وجاء فيه «ابن شلبطور» بالسین المهملة. وشلبطور: بالإسبانية Salvador، ما يدل على أنه من أصل مولدي.

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣١٧). (٣) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣١٧).

(٤) في النفع: «عقل». (٥) في النفع: «بفر».

(٦) الزِيرُ والبَمُ: من أوتار العود. لسان العرب (زير) و(بعم).

(٧) في النفع: «لم يُعط». (٨) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).

(٩) ورد من هذه القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٨) فقط الأبيات الأربعة الأولى، وجاء هناك: «عند قدومه المرية».

(١٠) في النفع: «... منك الوجد والليل مظلم وهل... والخُطبُ مؤلم».

(١١) في النفع: «بزورة».

ولي في أمير المسلمين محبة
بلغت المني لما لثمت يمينه
يصوغ قومي الشعر في طيب ذكره
فاستمسك الذين الحنيف زمانه
له نظر في المشكلات مؤيد
ويستغرق طارحا فيه وابل جوده
فلو أن أملاك البسيطة أنصفوا
وفي الدين والدنيا وفي البأس والندى
ومنها:

إليك أمير المسلمين اقتضيتها
تتم بعزف المنك أنفاسها
فباسمك سيرت في المسامع ذكرها
ولو أنني في المدح سخيان وائل
لما كنت إلا عن علاك مقصّر
بقيت ملاذا للأنام ورحمة
ومن شعره مذيلا على البيت الأخير

حسبما نسب إليه^(١): [البسيط]
نامت جفونك يا سؤلي ولم أنم
أشكو إلى الله ما بي من محبتكم
«إن كان سفك دمي أقصى مرادكم
ومما نسب إليه كذلك^(٢): [السريع]

قف بي وناد بين تلك الطلون
أين لياليينا بهم والمني
لا حملوا بعض الذي حملوا
إن غبتكم يا أهل نجد ففي
أين الألى كانوا عليها نزول
تجنیه غضا بالرضا والقبول
يوم تولت بالقباب الحمول
قلبي أنتم وضلوعي حلول

(١) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).
(٢) في النفع: ... بما ألقى من الأكم.
(٣) في النفع: (ج ٨ ص ٢١٨).
(٤) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٨).

ومما خاطبني^(١) به : [الرجز]

تالله ما أوزى زنادَ القَلَقِ
أيقنْتُ بالَحَيْنِ^(٢) فلولا نَفْحَةٌ
لكنْتُ أقضي بتلظي زفرة
فأه مِنْ هَوْلِ النوى وما جئى
يا حاكمي الغُصْنِ انثنى مُتَوَجًّا
الله في نَفْسٍ مُعْنَى أَقْصَدَتْ
أتى على أكثرها بَزَحُ^(٣) الأسى
ولو بالمام خيالٍ في الكرى
فَرُبُّ زورٍ من خيالٍ زائرٍ
شَفِيتُ^(٤) من بَزَحِ الأسى لو أنْ مَنْ
ففي مُعاناة الليالي عائقٌ
وفي ضمان ما يُعاني المرء من
هذا لَعَمْرِي مَعَ أني لم أبت
فقد أخذتُ من حُطوبِ غَدْرها
فخرُ الوزارة الذي ما مثله
ومذ أرائيه زمانى لم أُبَلِّ^(٥)
لا سيما منذ^(٦) حَطَطْتُ في جِمْى
أيقنْتُ أني في رجائي لم أجب
نذْبٌ له في كلِّ حُسْنِ آية

سوى ريج^(٧) لاخ لي بالأبرق^(٨)
تَجِدِيَّةٌ منكم تلاقَتْ رَمَقِي
وحسرة بين الدموع^(٩) تَلْتَقِي
على القلوب موقفُ الشُّفُوقِ
بالبدر تحت لَمَّةٍ من عَسَقِ
من لاعجِ الشوق بما لم تُطَيِّ
دَغ ما مضى منها وأدرك ما بقي
إن ساعدَ الجَفْنِ رَقِيبُ الأَرَقِ
أَقْرَّ عيني وإنْ لم يَضْدُقِ
أصبحَ رُقي في يديه مُعْتَقِي
عن التَّصابي وفنونِ القَلَقِ
نَوائِبِ الدهرِ مَشِيبُ المَفْرِقِ
منها بشكوى رَوْعة أو فَرَقِ^(١٠)
بابن الخطيب الأَمْنِ مِمَّا أَتَقِي^(١١)
بدرٌ علا في مغربٍ أو مشرقٍ
مِنْ صَرْفِهِ من مُزْعِدِ^(١٢) أو مُبْرِقِ
جواره^(١٣) الأَمْنِ رَحَلَ أَيْتَقِي
وأنْ مَسَعَى بُغْيَتِي لم يُخَفِّقِ
تناسَبَتْ في الخَلْقِ أو في^(١٤) الخُلُقِ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٥ - ٢١٧).

(٢) في النفع: «بريق».

(٣) الأبرق: اسم مكان.

(٤) الحَيْنُ: الهلاك. لسان العرب (حين).

(٥) البَزَحُ: الشدة. لسان العرب (برج).

(٦) الفَرَقُ، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

(٧) في الأصل: «لأ من مما أتى». والتصويب من النفع.

(٨) لم أُبَلِّ: أصله: لم أبال، أي لم أكثر. (١١) في النفع: «بمَزْعِد».

(١٢) في الأصل: «مذ» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٣) في النفع: «مقامه».

(١٤) كلمة «في» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

فِي وَجْهِهِ مَسْحَةٌ بِشَرِّ إِنْ بَدَتْ تَبْهَرُجَتْ أَنْوَارُ شَمْسِ الْأَفَقِ
 تُغْتَبَرُ الْأَبْصَارُ فِي لَأْلِئِهَا^(١) عَلَيْهِ مِنْ نَوْرِ السَّمَاحِ الْمَشْرِقِ
 كَالْدَهْرِ فِي اسْتِيْنَائِهِ وَيَطْشُهُ كَالسَّيْفِ فِي حَدِّ الطُّبَا وَالرُّونِقِ
 إِنْ بَحُلَ الْغَيْثُ اسْتَهْلَتْ يَدُهُ^(٢) بِوَابِلٍ مِنْ غَيْثِ جُودِ غَدِيقِ
 وَإِنْ وَشَتْ صَفْحَةُ طَرْسٍ انْجَلَى لَيْلُ دُجَاهَا عَنْ سَنَى مُوتَلَقِ
 بِمِثْلِهَا مِنْ حَبَرَاتٍ أَخْجَلَتْ حَوَاشِي الرُّوضِ خُدُودُ الْمَهْرَقِ
 مَا رَاقَ فِي الْأَذَانِ أَشْنَافُ مَيَّوَى مَلْتَقِطَاتٍ لَفْظُهُ الْمُفْتَرَقِ
 تَرْدُ أَجْيَادُ الْغُرَانِي أَنْ يُرَى حُلِيِّهَا مِنْ دَرِّ ذَاكَ الْمَنْطَقِ
 فَسَلْ بِهِ هَلْ آدَهُ^(٣) الْأَمْرُ الَّذِي حُمَلٌ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ الْمُونِقِ؟
 إِذَا رَأَى الرَّأْيَ فَلَا يُخْطِئُهُ يُفْنِ اخْتِيَارَ لِلطَّرِيقِ الْأَوْفَقِ
 أَيُّهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَاكُنَّهَا عِذْرَاءُ تَحْثُو فِي وَجْهِهِ السُّبُقِ
 خُذْهَا إِلَيْكَ بِكَرٍّ فَكِرٍّ يَزْدُرِي لَدَيْكَ بِالْأَعْشَى لَدَى الْمُحَلَّقِ^(٤)
 لَا زَلْتَ مَرْهُوبَ الْجَنَابِ مُرْتَجِي مَوْضُوعَ عَزٍّ فِي سُغُودِ تَزْتَقِي
 مُبْلَغَ الْأَمَالِ فِيمَا تَبْتَغِي مُؤَمَّنَ الْأَغْرَاضِ فِيمَا^(٥) تَتَّقِي

ناب^(٦) في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرُّنداحي، وولِّي أسطول
 المُتَكَبِّ برهة. توفي^(٧) بمراكش في^(٨) عام خمسة وخمسين وسبعمائة رحمه الله.

محمد بن محمد بن جعفر بن مُشْتَمَلِ الْأَسْلَمِي

من أهل المرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالبلياني.

- (١) في الأصل: «لألئها» وكذا ينكسر الوزن. وفي النسخ: «في اللألا ما».
- (٢) استهلت يده: كثر إغداقها، وهنا يشبه اليد بالديمة التي اشتد انصبابها على سبيل الاستعارة.
- (٣) آده: ثقل عليه. لسان العرب (أدي).
- (٤) الأعشى: هو الأعشى ميمون بن قيس. والمحلق: رجل فقير استضاف الأعشى ونحر له وسقاه، ثم شكاه أن له بنات لم يتزوجن، فأنشد الأعشى في عكاظ قصيدته الكافية بمدح المحلق ومنها [الطويل]:

تُشَبُّ لِمَقَرُّوْرَيْنِ يَضْطَلِيَانَهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ
 قَلَمٌ يَحِلُّ الْحَوْلَ حَتَّى تَزُوجَتْ بَنَاتُ الْمُحَلَّقِ كُلَّهُنَّ. لسان العرب (حلق).

- (٥) في النسخ: «يمًا».
- (٦) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).
- (٧) في النسخ: «وتوفي».
- (٨) كلمة «في» غير واردة في النسخ.

حاله: قال شيخنا أبو البركات: ناب عني في بعض الأعمال بالمرية، وخطب بنحانس من غريبها، ثم خطب بجملة مُرْشَانة، وهو الآن بها، وعقد الشروط قَبْلُ بالمرية. عفيف طاهر الذيل، نبيل الأغراض، مهذب الأخلاق، قيّم على القراءات والنحو والأدب، جيّد الشعر والكتابة.....^(١) من الضبط، وإجادة العبارة عن المعنى المراد.

تواليفه: قال: له رَجَز في علم الكلام جيد، ورجز آخر في ألفاظ فصيح ثعلب، عربي عن الحشو، على تَقْعِير فيه يُعْتَفَر لما جمع من اقتصاره، وله تأليف في الرواء^(٢) سماه بإصلاح التّبة في المسألة^(٣) الطاعونية.

مشيخته: قال: أخذ عني وعن أبيه جملة من الدواوين، وعن غيري من أهل بلده.

شعره: قال: ومما أنشدني من شعره قوله: [الطويل]

هَفا بي من بين المغاني عقيقتها	ومن بينه انفَضَّت لعيني عقيقتها
ومالّت من البیداء عنها قباؤه ^(٤)	وأشْرَقَنِي بالدمع منها شروقها
يُهَيِّجُ أنفاسي غراماً نسيئها	وتَقْدَح نَارَ الشوق عندي بروقها
ومن دون واديهما طباء ^(٥) خوادل ^(٦)	حكى لَحْظُها ماضي الشّفار رقيقها
فلو بَرَزَتْ للشمس ^(٧) منهن في الضحى	مُخَدَّرَة أضحت كمالاً تفوقها
نسيم الصّبا، إن سِيَرَتْ نحو الجحى	تحیی ^(٨) الديار التّازحات تشوقها
غريب كَنِيب مُسْتَهَام مُتَيِّم	جريح الجُفون السّاهرات عريقها
فهل عَطْفَةٌ تُرْجى وهل أَمَلٌ يُرى	بعودة أيام تَقْضَى أنيقها؟
سَقَتْنَا وَمِنْ أدمع الصّب جودها ^(٩)	ومن ^(١٠) دِيم الغيث المُلَيّات ريقها

(٢) في الأصل: «الرواء».

(١) بياض في الأصل.

(٣) في الأصل: «المسلة».

(٤) قوله: «من البیداء عنها» ساقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم الوزن والمعنى معاً.

(٥) في الأصل: «ظبا» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) الخوادل: جمع خَدْلَاء وهي المرأة الممتلئة الأعضاء لحمًا في دقة عظام. محيط المحيط (خدل).

(٧) في الأصل: «الشمس» وكذا ينكسر الوزن.

(٨) في الأصل: «فقل تحي الديار...» وكذا ينكسر الوزن.

(٩) في الأصل: «سقى وتعلم من أدمع الصّب جودها» وكذا ينكسر الوزن.

(١٠) في الأصل: «من».

قال: وأنشدني أيضًا، وقال: كَلَيْتَ إجازة هذا البيت الأول من هذه القصيدة،
إذ ليس لي: [الكامل].

مَنْ عادلي؟ مَنْ ناصري أو مُنصفي^(١)؟ هذا دمي^(٢) سَفَكَتْهُ بِنْتُ الْمُتَصِفِ
أو مَنْ يُخَلِّصُنِي وقد أوهى صحبي خُجَّ الجسم مَنِّي لَخَطُّ طَرْفٍ مُدْنِفِ
جَفَنُ تَحِيرٍ والهوى يُهْدِيهِ مُتَنَاعَسُ يُهْدِي الشُّهَادَ ويصرع الـ
تَبْدُو وتَشْدُو للعيون وللنَّاسِ مَلَكْتُ بصنعتها عَنَانٌ عِنانها
تُغْنِي إذا غُثَّتْ بطيب صوتها أَمَّا تَعَثَّتْ أو تَعَثَّتْ تهتف
يأتي على تَكَرَّرٍ^(٤) ما غُثَّتْ به تُهْدِي النفوسَ^(٦) على اختلاف طباعها
كُنَّا وَجَفَنُ الدهر عَنَّا نَاعَسَ حَتَّى وَشَى بالسَّرِّ دَهْرٌ حاسد
واخْتَجَلَّتْ إِنْ لَمْ أُمِتْ يَوْمَ الثَّوَى لَكِنِّي مِمَّا تَحَلَّتْ وَذُبَّتْ لَمْ
كَمْ ذَا أَيْتٍ وَلَيْسَ لِي مِنْ مُسْعِدٍ يَا هَلْ تَرَى هَذَا الزَّمَانُ وَصَرْفُهُ
صَبْرًا أَبَا يَعْقُوبَهُمْ فَهِيَ الثَّوَى

هذا دمي^(٢) سَفَكَتْهُ بِنْتُ الْمُتَصِفِ
خُجَّ الجسم مَنِّي لَخَطُّ طَرْفٍ مُدْنِفِ
لِفَوَادٍ كُلٍّ مِنَ الهوى لَمْ يَالْفِ
يَبْطُلُ الْكَيْفِ يَلْحَظُهُ الْمُتَصِفُ
مَعَ قَهْوِي بَيْنَ مُكْجَلٍ وَمُشْتَفٍ
وَعَدَّتْ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا^(٣) لَمْ تُغْرِفِ
عَنْ أَنْ يُزَوِّدَ لَخْنُهَا بِالْمِغْرِفِ
قُمْرِي نَعْمَتَهَا وَغَضَّ الْمِغْطَفِ
صَدَقًا بِكُلِّ غَرِيبٍ مُسْتَطَرَفٍ^(٥)
مَنْ نُبِلَهَا مَا تَشْتَهِي بِتَلَطَّفِ
مِنْ^(٧) خَلْفِ سِثْرِ لِلَامَانِ مُسْجِفِ
كَلَيْتَ بِتَنْغِيصِ الْكَرِيمِ الْأَشْرَفِ
لَهْفًا وَمَا إِنْ كُنْتُ بَعْدُ بِمُنْصِفِ
يَرْنِي الْجِمَامُ فَكُنْتُ عَنْهُ أَخْتَفِي^(٨)
فِي حَالَتِي غَيْرِ الدَّمُوعِ الذُّرْفِ
هَلْ يَسْمَحَانِ بِعُودَةٍ وَتَأْلَفُ؟
لَوْلَا هَمَّتْ شَوْقًا لِلْقِيَا يَوْسُفِ

قال: وأنشدني أيضًا لنفسه، والبيت الأخير لغيره: [البسيط]

ما للأجبة في أحكامهم جاروا؟ نأوا جميعًا فلا جِلْ ولا جَارُ

(١) في الأصل: «من عادى ومن ناصري ومنصفي» وكذا يخل الوزن والمعنى معًا.

(٢) في الأصل: «دمي» وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «كأن» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «تكرار» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «أو مستطرف» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «للفوس» وهكذا يخل الوزن والمعنى معًا.

(٧) كلمة «من» ساقطة في الأصل. (٨) في الأصل: «أخفف» بدون ياء.

كيف البقاء^(١) وقد بانث قبائهم
 خداة تمسهم بالقلب قد رحلوا
 جاز الزمان علينا في فراقهم
 ساروا فخيتم الأشواق بَعْدَهُمْ
 تراك يا رَبِّعَهُمْ ترجو رجوعهم؟
 ودَعْتُ منهم شموسا ما مطالعها
 أستودع الله مَنْ فازَ الفراقُ بهم
 وقد خَلَّتْ منهم وأسفي الدار؟
 ياليتهم حملوا الجُثمان إذ ساروا^(٢)
 من قبل أن تنقضي للصبِّ أوطار
 ما لي عليها سوى الآماقِ أنصار
 يا ليت لو ساعدت في ذاك أقدارُ
 إلا من الوشي أطواق وأزرار
 وخَلَقونا^(٣) ودَمَعُ العين مِذْرار

قلت: ولا خفاء بتخلف هذا النمط عن الإجابة، والله يقبض ويبسط، وشافِعنا عرض الإكثار.

وفاته: توفي في آخر أربعة وستين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن حزب الله^(٤)

من أهل وادي آش، يكنى أبا عبد الله، ويعرف باسم جدّه.

حاله: دَمَتْ، متخلق، سهل الجانب، كثير الدُعابة، خفيف الروح، له خطٌ حسن، ووراقة بديعة، وإحكام لبعض العملية، واقتدار على النظم. اتصل بباب السلطان ملك المغرب، وارتسم كاتبًا مع الجُملة، فازتاش، وحسنت حاله.

وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصّه: راقم^(٥) واشي، رقيق الجوانب والحواشي، تزهى بخطه المَهَارِق والطروس، وتتجلى في حُلل بدائعه كما تتجلى العُروس، إلى خُلُق كثير التجميل، ونفس عظيمة التحمل. ودود سهل الجانب، عذب المذائب. لما قُضيت الرقيعة بطريف^(٦)، أقال الله عثاها، وعجل ثاها، قذف به موج ذلك البحر، وتفلّت إفلات الهُدَى المقرب إلى النحر، ورمى به إلى رُندة القرار، وقد عرى من أثوابه كما عرى الغرار، فتعرّف للحنين بأديبها المُفْلِق، وبارقها المتألق

(١) في الأصل: «البقاء» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «سار».

(٣) في الأصل: «وخَلَقُوا» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) ترجمة ابن حزب الله في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٤).

(٥) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ٢٧٤).

(٦) كانت موقعة طريف الشهيرة بين الإشبانية وبين مريين، وكان مع بني مريين قوات الأندلس بقيادة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري، سنة ٧٤١ هـ، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين. اللوحة البدرية (ص ١٠٥).

أبي الحجاج المُتَشَاَفِرِي، فراقه يبشر لقائه، ونَهَل على الظما في سِقائه، وكانت بينهما مخاطبات، أنشدنيها بعد إيباه، وأخبرني بما كان من ذهاب زاده وسَلَب ثيابه.

وخاطبني من شرح حاله في ارتحاله بما نصّه: ولما دخلت رُندة الأنيقة البطاح، المحتوية على الأدب والسماح، والعلم والصلاح، أبرز القدر أن لقيت بها شيخنا المُعَمَّر رئيس الأدباء، وقُدوة الفقهاء، أبا الحجاج المُتَشَاَفِرِي، وكنت لم أشاهده قبل هذا العيان، ولا سَمَح لي بلقائه صرفُ الزمان، ولم أزل أكلّف بمقطوعاته العجيبة، وأولع بضرائبه الغريبة، وتأتي منه مخاطبات تُزري بالعقود بهجة، وتطير لها العقود لهجة. نَظَم كما تنفس الصبح عن تَسْنيمه، ونثر كما تأسس الدر بتنظيمه، فأحلني منه محلّ الروح من الجسد، وشهد لي أنني أعزُّ مَنْ عليه وَرَد، ورآني قد ظهرت على مُضاضة الاكتئاب، لكوني قريب عهد بالإياب، مهزوماً انهزام الأحزاب، خالي الوطاب^(١)، نَزَر الثياب، فقال: فيم الجزع، ذهب بحول الله الخوف وأمن الفرع، فأجَبته عَجَلًا، وقلت أخاطبه مرتجلاً: [الكامل]

لا تجزعي، نفسي، لِفَقْد معاشري	وذهب مالي في سبيل القادر
يا رُندة ^(٢) ، ها أنتِ خَيْرُ بلاده	وبها أبو حجاج المُتَشَاَفِرِي
سيريك حُسن فرائد من نظمه	فتُزيل كل كآبة في الخاطر
فأجابني مرتجلاً: [الكامل]	

سُرّاي، يا قلبي المشوق، وناظري،	بمزار ذي الشرف السني الطاهر
روض المعارف زهرها الزاهي	أوصافه ^(٣) أعيت ثناء ^(٤) الشاكر
ولواد آسٍ مِن ^(٥) فخارٍ لم يزل	من كابن حزبٍ الله نور الناظر
وافى يُسْرِفُ رُندةً بقدمه	فَعَدَّتْ به أفقا لبدرٍ زاهر
من روضة الأدباء أبدى زهرة	قد أينعت عن فِكرٍ حَبِرٍ ماهر
جمع المآثر بالسَّناء ^(٦) وبالسَّنا	أعْظَمَ به من صانع لمآثر
ما زلت أسمع من ثناء مآثرًا	كانت لسامعها معاً والذاكر

(١) الوطاب: جمع وَطَب وهو سقاء اللبن وهو جلد الجَدَع فما فوقه. وقوله: خالي الوطاب: أي انهزم أو قتل. محيط المحيط (وطب).

(٢) في الأصل: «ورُندة» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «ومن أوصافه» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «ثناء» وكذا ينكسر الوزن. (٥) كلمة «من» ساقطة في الأصل.

(٦) في الأصل: «السَّناء».

حتى رأى بصري حقائق وصفه فتنعمت كالأقمار نواظري^(١)
لا زال مخبوا بكل مسرة تجري له بالحظ حكم مغادر

ثم خاطبه القاضي المتشاقري بعد انصرافه إلى وطنه بقوله: [المقارب]

أبى الدُمع بَعْدَكَ إِلَّا انفجارا لدهرٍ بِبُعْدِكَ فِي الْحُكْمِ جارا
أذاق اللقاء الحُلُو لو لم يصل^(٢) به لِلنَّوَى جَرَعَاتٍ مُرارا
رعى الله لَمَسَحَ ذاك اللقاء وإن يَكُ أَشْوَاقُنَا قَدْ أَثارا
قصاراي شكوأي طول النوى وفَقْدِي أَنَاةً وَصَلَّ قِصارا
سَقَنِي القِداحَ ومن بعده فَوَادِي^(٣) القريحَ قَدْ أَذَكَّتْ أوارا
ألا يا صَبَّاءَ هُبْ من أَرْبَعِي إلى وادي آشِي^(٤) تُخَيِّ الدُّيارا
ألا خُصَّ من رُبْعِها منزلا بأربابه الأكرَمِينَ استنارا
وهم إلى جِزْبِ الإله الألى^(٥) تساموا فَخارًا وطابوا نِجارا
فاجابه بأبيات منها^(٦):

تَأَلَّقَ بَرَقُ الْعُلا واستنارا فأَجَّجَ إِذْ لَاحَ فِي الْقَلْبِ نارا
وذكرني وقت^(٧) أنسٍ مضى برندة حيثُ الجلالُ استشارا^(٨)
وكانت لِنَفْسِي سَنًا^(٩) في حماها طوَالًا فَأُضْبَحَتْ^(١٠) لَدَيْهَا قِصارا
فأَجْرَيْتُ دَمْعَ الْعُيُونِ اشتياقا ففَاضَتْ لِأَجْلِ فِرَاقِي بحارا
وقالت لي النَّفْسُ مَنْ لَمْ يَجِدْ نصيرًا سوى الدُمعِ قَلَّ انتصارا
قَطَعْتُ المُنَى عِنْدَها لمحمةً ووَدَّعْتُها وَامْتَطَيْتُ القِفارا
وضيَّعْتُ تلكَ المُنَى غفلةً ووافيت أَبْغِي المُنَى^(١١) ديارا^(١٢)
ومنها:

أرقتُ لَذاكَ السَّنَا ليلَةً وما نوْمُها دُفَّتْ إِلَّا غرارا

(١) عجز هذا البيت منكسر الوزن. (٢) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «فوادي القريح قد أذكت...» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «واد آش» وكذا ينكسر الوزن. (٥) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٦) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٥). (٧) في الكتيبة الكامنة: «أنس وقت».

(٨) في الكتيبة: «استنارا». (٩) في الكتيبة: «منى».

(١٠) في المصدر نفسه: «فأضحت». (١١) في الأصل: «نابس». ولا معنى لها.

(١٢) هذا البيت صاقط في الكتيبة الكامنة.

وجسمي أجلّ الجسومِ التهايا وقلبي أشدّ القلوبِ انكِسارا
إلى أن تجرُعتُ كأس النوى وقلْتُ زمانِي على الشَّمْلِ جارا
وضَبُرتُ نفسي لِفَقْدانِها هنالك بالرَّغمِ ليس اختيارا
وقال من قصيدة^(١): [الطويل]

خَنُتُ^(٢) لبرق لاح من سَرَختِي نَجِدِ حنينِ تِهامي^(٣) يَحِنُّ^(٤) إلى نَجِدِ
وقلت لعلّ القلبَ تبرا كلومُهُ ومن ذا يصدُّ النار عن شِيمةِ الوَقْدِ؟
لكن^(٥) شاركتني في المحبّة فرقة فها أنا في وَجدي وفي كَلْفي وحدي^(٦)
وهو إلى هذا العهد بالحال الموصوفة.

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري^(٧)

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عيسى.

حاله: كان أدبياً، حسن الخط، جيد النظم، متطرقاً، لودعياً، مطبوعاً، مُنحطاً في هواه، جامحاً في ميدان بطالته، معاقراً للتبذ، على حِفْظِ للرسم، واضطلاع بالخدمة، وإيثار للمروءة، ومعرفة بمقادير الأمور، وتشبُّثٍ بأذيال الحُطوة. كتب للرئاسة السعيدية بمالقة، ونظر على ألقاب جبايتها، وانتفع الناس بجاهه وماله، ووقع الثناء على حسن وساطته. ثم سافر عنها، وقد سَمَتْ مَجادة السلطان في غرض انتقالها إلى العُدوة، مُعَوَّضة بمدينة سلا من مالقة. وكان ما كان من معالجة الأمر، والقبض على الرئيس، وقيام ولده بالأمر، فانبثّ المذكور بالعدوة، وكانت بها وفاته. وجرى ذكره في الإكليل الزاهر بما نصه^(٨): عَلِمَ من أعلام هذا الفن،

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) في الأصل: «حللت» والتصويب من الكتيبة.

(٣) التهامي: نسبة إلى تهامة وهي من اليمن. معجم البلدان (ج ٢ ص ٦٣).

(٤) في الأصل: «تحنّ» والتصويب من الكتيبة.

(٥) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٦) في الأصل: «وجد» بالجيم، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٧) ترجمة محمد الحميري في الكتيبة الكامنة (ص ١٥٨) وجاء فيه أنه أبو عبد الله محمد بن

محمد بن عيسى الحميري، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥) وجاء فيه أنه: أبو عبد الله محمد بن

محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري.

(٨) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥ - ٣٦٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٥٨ - ١٥٩) والدرر

الكامنة (ج ٤ ص ٢٧١).

وَمُسْغِشِي^(١) راح هذا الدُّن، بمجموع^(٢) أدوات، وفارس يَزَاعَة ودواة^(٣)، ظريف المَنْزَع، أنيق المرأى والمَسْمَع، اختَصَّ بالرياسة وأدار^(٤) فَلَكَ إمارتها، واتَّسَم باسم كتابتها ووزارتها، ناهضًا بالأعباء، راقيًا^(٥) في دَرَج^(٦) التقريب والاجتباء، مُصَانَعًا دهره في راح وراحة، آوياً إلى فضل وسماحة، وخَضِبَ ساحة، كلما فرغ من شأن خدمته، وانصرف عن ربِّ نعمته، عقد شُرُوبًا، وأطفأ من الاهتمام بغير الأيام حُزْبًا، وعكف على صوت يَسْتَعِيدُه، وظَرْفٌ يُنْديهِ ويعيده. فلما ثَقَلَتْ^(٧) بالرياسة الحال، وقُوِّضَتْ منها الرحال، استقرَّ بالمغرب غريبًا، يَلْقُبُ طَرْفًا مُسْتَرِيَبًا، ويلحظ الدنيا تَبِعَةً عليه وتثريبًا^(٨)، وإن كان لم يُغْدَم من أمرائها^(٩) حُظُوةً وتقريبًا، وما برح يبوح بشَجْنِه، ويرتاح إلى عهد وطنه.

شعره وكتابته: ممَّا كتبه، ويُن في أدبه قوله^(١٠): [الكامل]

يا نازحينَ ولم أفاِرِقْ منهمْ	شوقًا تَأْجِجُ في الضُّلُوعِ ^(١١) ضرامُه
غُيِّبْتُم عن ناظري وشَخْصُكُمْ	حيث استقرُّ من الضُّلُوعِ مقامُه
رَمَتْ النَّوَى شملي فَشَتَّتْ نظمه	والبَّيْنُ رامٍ لا تطيشُ سهامُه
وقد اعتدى فينا وَجْدٌ مُبالِغًا	وجَرَّتْ بمحكم جوره أحكامُه
أترى الزمانَ مُؤَخَّرًا في مدتي	حتى أراه قد انقَضَتْ أَيامُه

تحملها^(١٢) يا نسيم نَجْدِيَّةِ النَّفْحَاتِ، وَجَدِيَّةِ اللَّفْحَاتِ، يؤدي^(١٣) عني نَعْمُها إلى الأَجِيَّةِ سلامًا، ويورد^(١٤) عليهم لَفْحُها يَزْدًا وسلامًا، ولا تقل كيف تُحْمَلُنِي نازًا، وتُرْسَل على الأَجِيَّةِ مني إغصارًا، كَلَّا إذا أهديتهم تحية إناسي، وأنسوا من جانب هُبُوبك نار ضرام أنفاسي، وارتاحوا إلى هُبُوبك، واهتزوا في كف مَسْرَى جَنُوبك،

(١) في النفع: «ومشعشع».

(٢) في النفع والكتبة: «مجموع».

(٣) كلمة «ودواة» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصادر الثلاثة.

(٤) في النفع: «فأدار».

(٥) في النفع: «صاعدًا».

(٦) في الكتبة: «درجات».

(٧) في الأصل: «ثقلت» والتصويب من المصادر.

(٨) الشريب: اللوم. لسان العرب (ثرب). (٩) في النفع: «أمرائه».

(١٠) الأبيات في الكتبة (ص ١٦١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٦). والبيتان الأول والثاني في الدرر

الكامنة (ج ٤ ص ٢٧٢).

(١١) في الكتبة: «في الفؤاد».

(١٢) النص مع الشعر في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(١٣) في النفع: «تؤدي إلى الأَجِيَّة نفعها سلامًا». (١٤) في النفع: «وتورد».

وتعلّلوا بها تعليلًا، وأوسعوا آثار مَهَبِكَ تَقْيِيلًا، أرسلها عليهم بليلاً، وخاطبهم بلطافة
تَلَطُّفُكَ تعليلًا. ألم تروني كيف جئتكم بما حَمَلَنِي عَلِيًّا^(١): [الوافر]

كذلك^(٢) تَرَكْتُهُ مُلْقَى بِأَرْضٍ له فيها التعلُّلُ بِالرِّيحِ
إِذَا هَبَّتْ إِلَيْهِ صَبَا إِلَيْهَا وإن جاءَتْهُ مِنْ كُلِّ النُّوَاحِي
تساعده الحَمَائِمُ حِينَ يَبْكِي فما ينفكُ موصولُ النِّيَاحِ^(٣)
يُخَاطِبُهُنَّ مَهْمَا طَرَنَ شَوْقًا أما فيَكُنَّ واهِبَةً^(٤) الجَنَاحِ؟

ولولا^(٥) تعلُّله بالأُماني، وتحدُّث نفسه بزمان التَّداني، لكان قد قضى نَحْبَهُ،
ولم أَبْلَغْكُمْ إِلَّا نَعْيَهُ أَوْ نَذْبَهُ، لكنه يتعلَّل من الآمال بالوعد المَمْطُول، وَيَتَطَارَحُ
بِاقْتِرَاحَاتِهِ عَلَى الزَّمَنِ المَجْهُولِ، ويحدِّث نفسه وقد قُتِعَتْ مِنْ بُرُوقِ الآمالِ
بِالْخَلْبِ^(٦)، ووَيْقَتْ بِمَوَاعِيدِ الدَّهْرِ الْقَلْبِ^(٧)، فينَاجِيها بِوَحْيِ ضَمِيرِهِ، وإِيْمَاءِ
تصويره: كيف أَجِدُّكَ يَوْمَ الِاتِّقَاءِ بِالْأَحْبَابِ، والتَّخْلَصَ مِنْ رِبْقَةِ الِاغْتِرَابِ؟ أَبَائِنَةُ
الحَضُورِ أَمْ بَادِيَةِ الِاضْطِرَابِ؟ كَأَنِّي بِكَ وَقَدْ اسْتَفْزَكَ وَلَهُ السَّرُورُ، فصرفك عن
مشاهدة الحَضُورِ، وعَاقَبْتُكَ غِشَاوَةَ الِاسْتِغْبَارِ لِلِاسْتِيشَارِ، عن اجْتِلَاءِ مُحَيَّا ذَلِكَ
النَّهَارِ^(٨): [البسيط]

يَوْمٌ يُدَاوِي زَمَانَاتِي مِنْ أَزْمَانِي أَزَالَ^(٩) تَنْغِيصَ أَخْيَانِي فَأَخْيَانِي
جَعَلْتُ لَكَ نَذْرًا صَرْمَهُ أَبَدًا أَفَنِي بِهِ وَأَوْفِي شَرْطَ إِيمَانِي
إِذَا ارْتَفَعْنَا وَزَالَ الْبُعْدُ وَانْقَطَعَتْ أَشْطَانُ دَهْرٍ قَدْ التَفَّتْ بِأَشْطَانِي^(١٠)
أَعَدُّهُ^(١١) خَيْرَ أَعْيَادِ الزَّمَانِ إِذَا أَوْطَانِي السُّعْدُ فِيهِ تُرَبُّ أَوْطَانِي

أَرَأَيْتَ^(١٢) كيف ارتياحي إِلَى التَّذْكَارِ، وانقيادي إِلَى مُعَلَّلَاتِ تَوْهُمَاتِ الْأَفْكَارِ؟
كَأَنَّ الْبُعْدَ بِاسْتِغْرَاقِهَا قَدْ طَوَيْتَ شَقَّتَهُ، وَذَهَبَتْ عَنِّي مَشَقَّتَهُ، وَكَأَنِّي بِالْتُّخَيْلِ بَيْنَ تِلْكَ

(١) الأبيات أيضًا في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٢). (٢) في الكتيبة: «غريب بعدكم مُلْقَى...».

(٣) في الكتيبة: «النَّيَاحِ». وفي النسخ: «النُّوَاحِ».

(٤) في الأصل: «واهية» والتصويب من النسخ والكتيبة.

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧).

(٦) البرق الخَلْبُ: البرق الذي يظنُّ فيه سحابة المطر وليس فيه مطر. لسان العرب (خلب).

(٧) الدهر القَلْبُ: الكثير الثقل. لسان العرب (قلب).

(٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧). (٩) في الأصل: «أزبر» والتصويب من النسخ.

(١٠) الأشطان: جمع شطن وهو الحبل. لسان العرب (شطن).

(١١) في الأصل: «أعده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

(١٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٧ - ٣٧١).

الخمائل أنثسُم صباها، وأنثسُم رباها^(١)، وأجنتي أزهارها، وأجتلي أنوارها، وأجول في خمائلها، وأنثسُم بئكرها وأصائلها، وأطوف بمعالها، وأنثسُم أزهار كمالها، وأصيحُ بأذن الشوق^(٢) إلى سنجع خمائلها، وقد داخلتني الأفراح، ونالت مني نشوة الارتياح، ودنا الشرور لتوسم^(٣) ذهاب الأتراح. فلما أفقت من غمرات سُكري، ووثبت من هفوات فكري، وجذت^(٤) مرارة ما شابه ليبي^(٥) في استغراق دهري، وكأني من حينئذ عالجت وثقة الفراق، وابتدأت منازعة الأشواق، وكأنما أغمضتني^(٦) للثوم، وسمح لي بتلك الفكرة الجلم^(٧): [الكامل]

دَكَرَ الدِّيَارَ فَهَاجَهُ تَذَكَارُهُ وَسَرَتْ بِهِ مِنْ حِينِهِ أَفْكَارُهُ
فَاخْتَلَّ مِنْهَا حَيْثُ كَانَ حُلُولُهُ بِالْوَهْمِ فِيهَا وَاسْتَقَرَّ قَرَارُهُ
مَا أَقْرَبَ الْأَمَالَ مِنْ غَفَوَاتِهِ لَوْ أَنَّهَا قُبِضَتْ بِهَا أَوْطَارُهُ^(٨)

فإذا جثتها أيها القادم، والأصيلُ قد خلع عليها بُرْداً مَوْزَناً، والربيع قد مَدَّ على القيعان منها سُندُساً، اتَّخِذْهَا^(٩) قَدَيْتُكَ مَعْرَساً^(١٠)، واجرُزْ ذبولك فيها مُتَبَخِّراً^(١١)، وُبْتُ فيها من طيب نَفَحَاتِكَ غُثْبَرًا، وأفْتَقْ عليها من نَوَافِحِ^(١٢) أنفاسك مِسْكًا أَذْفَرًا، واعطف معاطف^(١٣) بانيها، وأزِقْضْ قُضْبَ ريحانها، وصافخ صفحات نهرها، ونافخ^(١٤) نَفَحَاتِ زهرها. هذه كلها أمارات، وعن أسرار مقاصدي عبارات، هنالك تنتعش بها صُبابات، تعالج صُبابات، تتعلل بإقبالك، وتغكِف على لثم أذْيالك، وتبدو لك في صِفَةِ الغاني المُتَهالك، لا طِفْها بلطافة

(١) أنثسُم رباها: أعلوها وأرتفع إليها. لسان العرب (سَم).

(٢) في الأصل: «الشون» والتصويب من النفع. (٣) في النفع: «التوقم».

(٤) في الأصل: «وجدت» والتصويب من النفع. (٥) في النفع: «لي».

(٦) في النفع: «أغمضني النوم».

(٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٨ - ٣٦٩).

(٨) رواية البيت في أصل الإحاطة هي:

يَا لِقَرَبِ الْأَمَالَ مِنْ هَفَوَاتِهِ لَوْ أَنَّهُ قُبِضَتْ بِهَا أَوْطَارُهُ
وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٩) في النفع: «اتَّخِذْهَا».

(١٠) الْمُعْرَس: مكان النزول ليلاً. لسان العرب (عرس).

(١١) في الأصل: «تَبَخَّرًا» والتصويب من النفع.

(١٢) في الأصل: «نوافح» بالحاء المهملة، والتصويب من النفع. والنوافح: جمع نافحة وهي وعاء المسك. لسان العرب (نفع).

(١٣) في الأصل: «بمعاطف» والتصويب من النفع.

(١٤) المراد بـ«نافخ» المغالبة في إظهار الريح ليظهر أيهما أظهر أريحا. لسان العرب (نفع).

اعتلالك، وترقق بها ترقق أمثالك، فإذا مالت^(١) بهم إلى هواك الأشواق، ولَوُوا إليك
الأزؤس والأعناق، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق، وتقلبي بين الإشام والإعراق،
فقل لهم: عَرَضَ له في أسفاره، ما يعرض للبذر في سَرَارِهِ، من سِرِّ^(٢) السُّرَارِ،
وطاق^(٣) المَحَاقِ، وقد تَرَكْتُهُ وهو يُسامر الفَرَقْدَيْنِ، ويُساير النُّيْرَيْنِ، وينشد إذا راعه
البَيْنُ^(٤): [البسيط]

وقد نكونُ وما يُخشى تَفَرُّقُنَا واليوم^(٥) نحنُ وما يُزجى تلاقينا
لم يفارق وَغْثاء^(٦) الأسفار، ولا ألقى من يده عصا التسيار، يتهداه الغُور^(٧)
والنُّجْد، ويتداوله الإِرْقَال^(٨) والوُخْد، وقد لَفَحَتْهُ الرِّمضاء، وسَمِعَهُ^(٩) الإنضاء.
فالجَهاَت تَلْفُظُهُ، والآكام تَبْهَظُهُ، تحمل^(١٠) همومَه الرُّواسِم، وتَخْفَى^(١١) به التُّواسِم:
[البسيط]

لا يستقرُّ بأرضٍ حينَ يَبْلُغُهَا ولا له غيرَ حَذْوِ العيسِ إيناسُ
ثم إذا استَوَفُوا سؤالك عن حالي، وتقلبي بين^(١٢) جَلِّي وتَرَحالي، وبلغت
القلوب منهم الحناجر، وملأت الدموعُ المحاجر، وابتلت ذبولك بمائها، لا بل
تَضَرَّجَتْ بدائها، فَحَيَّهم عَنِّي تحيةً مُنفصل، ووَدَّعهم^(١٣) وَدَاعَ مُرتحل. ثم اعطف
عليهم ركابك، ومَهَّدْ لهم جنابك، وَقُلْ لهم إذا سألني عن المنازل بعد سُكَّانها،
والزُّبوع بعد ظُنن أظعانها، بماذا أجيبه، وبماذا يسكن وَجيبه^(١٤). فسيقولون لك هي
البَلاَيقُ^(١٥) المُقْفَرَات، والمعارف^(١٦) التي أصبحت نِكِرَات: [السريع]

صَمَّ صداها وعَفَا^(١٧) رَسْمُهَا واستَعَجِمَتْ عن منطقي السائل

-
- (١) في الأصل: «أمالك» والتصويب من النفع. (٢) في النفع: «من سارا».
(٣) في النفع: «ولحاق».
(٤) البيت لابن زيدون وهو في ديوانه (ص ٩).
(٥) في النفع: «اليوم».
(٦) الوغْثاء: المشقة والتعب. محيط المحيط (وعث).
(٧) في الأصل: «للغور» والتصويب من النفع.
(٨) الإِرْقَال والوُخْد: ضربان من السير السريع. لسان العرب (رقل) و(وخد).
(٩) في الأصل: «وسيمه» والتصويب من النفع. (١٠) في النفع: «يحمل».
(١١) في النفع: «وتحياته».
(١٢) في الأصل: «بين حالي جلِّي...»، والتصويب من النفع.
(١٣) كلمة «وودَّعهم» غير واردة في النفع. (١٤) الوجيب: الخفقان. لسان العرب (وجب).
(١٥) البلاق: جمع بلق وهو الأرض الخالية. لسان العرب (بلقع).
(١٦) كلمة «المعارف» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.
(١٧) في الأصل: «وعغى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

قُلْ لَهُمْ: كيف الرّوض وآسُه؟ وعمّاذا^(١) تتأرجح أنفاسه؟ عهدي به والحمام
يردّد أسجاعه، والدُّباب يغني به هزجاً فيحك بذراعه ذراعَه، وعُصونه تعتنق،
وأحشاء جداوله تضطّفق، وأنسحاره تتنّسم وأصالَه تَغْتَبِقُ^(٢)، كما كانت بقية نُضْرَتِه،
وكما عهدتها أنيقة خُضْرَتِه، وكيف التفافه^(٣) عن أزرَق نَهْرِه، وتأنقه في تَكْلِيل
إكليله بيبانغ زهره. وهل رقّ نسيم أصائله^(٤)، وصَفّت موارد جداوله؟ وكيف
انفِيساح ساحاته، والتفاف ذُوحاته؟ وهل تمتدّ كما كانت مع العَيْي فِينائَه سَرَحاتِه؟
عهدي بها، المدينة الظلال، المُرْعَفَة السُّربال، لم تُحدّق الآن به عُيون نَزْجِسِه،
ولا صُدَّ^(٥) بِساط سُندسه. وأين منه مجالس لذاتي، ومعاهد غَدواتي وِرَوحاتي؟ إذ
أُباري في المُجُون لمن أُباري، وأُسايق إلى اللذات كلّ من يُجاري^(٦). فسيقولون
لك: ذَوّت أفنائَه، وانْقَصَفَتْ أغصانُه، وتكدّرت عُذرانُه، وتغيّر ريحُه^(٧) وزيحانُه،
واقفرت معالمه، وأُخْرِسَتْ خِمانُه، واستحالت به^(٨) حُلُلُ خِمانِه، وتغيّرت وجوه
بُكرِه وأصائلِه، فإن صَلَّصَلْ خَينَ رَغْدٍ فَعَن قَلْبِي لفراقه حَقَقْ، وإن تَلالاً بَرَقَ فَعَن
حَرَّ حشاي ائْتَلَقْ، وإن سَحَتْ السُّحب فَمُسَاعِدَة لَجَفْنِي، وإن طال بكأوها فَعَنِي،
حيّاها الله تعالى^(٩) منازل، لم تَزَلْ بِمَنْظُوم السُّمْل أوْهل. وحين ائْتَثَرَتْ^(١٠) نُثِرَتْ
أزهارها أسفاً، ولم تُثْنِ الرّيح من أغصانها بِعُطْفًا، أعاد الله تعالى^(٩) السُّمْل فيها إلى
مُحكَمِ نِظامه، وجعل الدهر الذي فرّقه يَتَأَنّق في أحكامه. وهو سبحانه يَجْبُر
الصُّدْع، وَيُعْجِلُ الجَمْع، إنه بالإجابة جَدِير، وعلى ما يشاء قَدِير. إِيَّاهُ بُنِّي، كيف
حال من اسْتَوْدَعْتَهُمْ أمانتَكَ، وَالزَّمَنْتَهُمْ صَوْنَكَ وصِيانتَكَ، وَالْبَسْتَهُمْ نَسَبَكَ، وَمَهَّدْتَ
لَهُمْ حَسَبَكَ؟ الله في جَفْظِهِمْ فهو اللَّائِقُ بفعالِكَ، والمناسب لشرفِ خِلالِكَ، اِزْغِ
لَهُم الاغتراب لَدَيْكَ، والانتقطاع إِلَيْكَ، فهُم أمانةُ الله تعالى في يَدَيْكَ، وهو سبحانه
يَحْفَظُكَ بحفظِهِمْ، ويُوَالِي بِلَحْظِكَ أسبابَ لَحْظِهِمْ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال،
فَيَعْمُ الله مُمْتَدَّةُ الظلال، وخَيْرائِه ضافية^(١١) السُّربال؛ لولا الشوق المُلازم، والوَجْدُ
الذي سَكَنَ الحَيازم.

(١) في النسخ: «وعَمَّ».

(٢) في الأصل: «التفانة» والتصويب من النسخ. (٤) في الأصل: «أصالَه» والتصويب من النسخ.

(٥) في النسخ: «ويمدّ».

(٦) في النسخ: «أجاري».

(٧) في النسخ: «رُوحه».

(٨) كلمة «به» غير واردة في النسخ.

(٩) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النسخ.

(١٠) في الأصل: «انثرت»، والتصويب من النسخ. (١١) في النسخ: «وارقة».

ووقفت من شعره على قصيدة من جملة رسالة، أثبتها وهي^(١): [الطويل]

أَلْبَرْقُ يَبْدُو تَسْتَطِيرُ^(٢) الْجَوَانِحُ
وَقَلْبِي^(٣) لَلْبَرْقِ الْخَفُوقِ مُسَاعِدُ
إِذَا الْبَرْقُ أَوْزَى فِي الظَّلَامِ زِنَادِي^(٤)
وَكَمْ وَقْفَةً لِي حَيْثُ مَالَ بَيُّ الْهَوَى
تَنَازَعْنِي مِنْهَا الشُّجُونُ^(٥) فَأَشْتَكِي
أَبْتُ شَجُونِي وَالْحَمَامُ يُصِيخُ لِي
وَتَطْرَبُ أَغْصَانُ الْأَرَاكِ فَتَنْتَنِي
فَتَبْتَسِمُ الْأَزْهَارُ مِنْهَا تَعْجَبًا
كَذَلِكَ حَتَّى مَادَ عَطْفُ مُثَقِّفِي^(٦)
فَلَمَّا التَّطَلَّى وَجَدِي تَرْتُمُ صَاهِلًا
صَرَفْتُ عَدُوَّ الْبَيْدِ أَرْخُو عِنَانَهُ^(٧)
تَهِيًا لِقَطْعِ الْبَيْدِ وَاعْتِصِفِ السُّرَى
فَحَمَحَمَ لَوْ يَسْطِيعُ^(٨) نُطْقًا لَقَالَ لَهُ^(٩)
وَعَمَلْتُهُ عَزْمًا تَعُودُ مِثْلَهُ

وَلِلْوُزْقِ تَشْدُو تَسْتَهْلُ^(١٠) السُّوَاغُ^(١١)
وَوَجَدِي^(١٢) لِلْوُزْقِ الشَّكَالِي مُطَارِحُ
فَلِلْوُجْدِ فِي زَنْدِ الصُّبَابَةِ قَادِحُ
أَغَادِي^(١٣) بِهَا شَكْوَى الْجَوَى وَأَرَاوِحُ
وَيَكْثُرُ بَنِي عِنْدَهَا فَاسَامِحُ
وَيُسْعِدُنِي فِيمَا تُبِيحُ^(١٤) الثُّبَارِحُ
إِلَى صَفْحَةِ النَّهْرِ الصَّقِيلِ^(١٥) تُصَافِحُ
فَتُهْدِي إِلَيْهَا عَرْفَهَا وَتُنَافِحُ
وَطَرْفِي أَبْدَى هِزَّةً وَهُوَ مَارِحُ
فَقُلْتُ: أَمِثْلِي يَشْتَكِي الْوَجْدَ نَابِحُ^(١٦)
وَقُلْتُ لَهُ: شَمْرُ فَإِنِّي^(١٧) سَابِحُ^(١٨)
سِيلْقَاكَ غَيْظَانُ بِهَا وَمَمَائِحُ^(١٩)
بِمِثْلِي تَلْقَى هَذِهِ وَتُكَافِحُ
فَقَامَ بِهِ مُسْتَقْبَلًا مِنْ يُنَاطِحُ

(١) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٥٩ - ١٦١).

(٢) في الأصل: «تسطير» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٣) في الأصل: «وتستهل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٤) في الأصل: «السوابح» والتصويب من الكتيبة.

(٥) في الكتيبة: «فقلبي».

(٦) في الكتيبة: «ووجدني».

(٧) في الأصل: «للشجون» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٨) في الأصل: «تهيج».

(٩) في الأصل: «شغفي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٠) في الكتيبة: «سابع».

(١١) في الأصل: «فإنني» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٢) في الكتيبة: «سائح».

(١٣) في الكتيبة: «سيلقاك غيطان بها وضحاخ».

(١٤) في الأصل: «يستطيع» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٥) في الكتيبة: «لي».

سوى جَلَدٍ لا يُتَقَى منه فاضح^(٢)
 إِذَا جُرَدَتْ يَوْمَ الْجِلَادِ الصُّفَائِحُ
 عِنْدَ كَرِّي فِي الْحُرُوبِ أَفَاتِحُ
 وَقَدْ شَرَدَتْ عَنِّي الظُّبَاءُ^(٥) السَّوَانِحُ
 هُنَالِكَ إِنْسِي^(٧) وَلَا هُوَ لَائِحُ
 فَقُلْتُ: تَعَاوَتْ إِنهَآ لَتَوَابِحُ
 فَلَمْ أَضِغْ سَمْعًا نَحْوَهَا وَهوَ صَائِحُ
 شَنِيعًا لَهُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقَبَائِحُ
 بَلْ أَبْقِظْ عَزْمِي فَانْثَنِي وَهَوَ كَالِحُ
 وَمَالَتْ إِلَى أَفْقِ الْغُرُوبِ تُنَازِحُ^(١٠)
 فَهِيَ^(١١) أَنْذَا عَزْمِي إِلَى الْقَصْدِ جَانِحُ
 إِلَيَّ بِأَلْخَطِ^(١٣) طَرْفِهِ لِي لَامِحُ
 عَلَيَّ لَهُ حَقْدٌ بِهِ لَا يُسَامِحُ
 خَلَا أَنَّ شَكْلِي^(١٦) أَعَزَّلَ وَهَوَ رَامِحُ
 عَلَى صَفْحَةِ الظُّلْمَاءِ فَهِيَ لَوَائِحُ
 أَكْلَفُ دَمْعِي نَحْوَهَا فَهوَ طَامِحُ
 إِلَى أَنْ بَدَا مِنْ نَاسِمِ الصُّبْحِ فَاتِحُ^(١٩)

وَيَمْنَتْ بِيَدًا لَمْ أَصَاحِبْ لِحْوَها^(١)
 وَمَاضِي الْغِرَارِينَ^(٣) اسْتَجَذْتُ مِضَاءَهُ^(٤)
 وَمُنْدَمِجٌ صَدَّقِ الْأَنَابِيبَ نَافِذٌ بِهِ
 وَيَسَّرْتُ فَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَحْشِ نَافِرًا
 تُحَدِّقُ نَحْوِي^(٦) أَغْيُنَا لَمْ يَلُخْ لَهَا
 وَقَدْ زَارَتْ أُنْدُ تَقَحُّمَتْ غِيَلَهَا
 وَكَمْ طَافَ بِي لِلْخَبْرِ^(٨) مِنْ طَائِفٍ بِهَا^(٩)
 وَيَغْرُضُ لِي وَجْهَهَا دَمِيمًا وَمَنْظَرًا
 فَمَا رَاعَنِي مِنْهُ تَلَوُّنُ حَالِهِ
 فَلَمَّا اكْتَسَتْ شَمْسُ الْعَيْشِ شُحُوبَهَا
 تَسَرَّيْتُ لِلْإِدْلَاجِ جُنْحَ دُجْنِيَّةِ
 فَخَضْتُ^(١٢) ظِلَامَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ شَاخِصُ
 يُرَدِّدُهُ^(١٤) شَرَزَا إِلَيَّ كَانَمَا
 وَرَاقَبَ مِنْ شَكْلٍ^(١٥) السَّمَاءِ نَظِيرَهُ
 يَخْطُ وَمِيضُ الْبَرْقِ لِي مِنْهُ أَسْطَرًا
 إِذَا خَطَّهَا مَا بَيْنَ عَيْنَيَّ لَمْ أَزَلْ^(١٧)
 وَمَا زَلْتُ سَرًّا فِي حَشَا النَّبْلِ^(١٨) كَامَنًا

(١) في الكتيبة: «لِحْوَها».

(٣) الغرار: حد السيف.

(٥) في الأصل: «في الظباء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكاملة.

(٦) في الكتيبة: «عندي».

(٧) في الأصل: «سأ لك أنسى...» والتصويب من الكتيبة.

(٨) في الكتيبة: «للجن»، والخير: الناقة الغزيرة اللبن. محيط المحيط (غزر).

(٩) في الكتيبة: «لها».

(١١) في الكتيبة: «فما أبدًا عزمي إلى...».

(١٣) في الكتيبة: «بطرف لخطه لي...».

(١٤) في الأصل: «يرده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٥) في الأصل: «شكلي» والتصويب من الكتيبة.

(١٦) في الأصل: «الخلا لزكلي» والتصويب من الكتيبة.

(١٧) في الكتيبة: «لم يزل».

(١٩) في الكتيبة: «نافح».

(٢) في الكتيبة: «باطح».

(٤) في الأصل: «مضاء» والتصويب من الكتيبة.

(١٠) في الكتيبة: «تبارح».

(١٢) في الكتيبة: «وخضت».

(١٨) في الكتيبة: «الليل».

وَهَبْ نَسِيمَ الصَّبْحِ فَاَنْعَطَفْتُ^(١) لَهُ .
 تَجَاذِبُنِ^(٢) مِنْ ذِكْرِي أَحَادِيثَ لَمْ تَزَلْ
 وَمِلْتُ إِلَى الثَّغْرِ لَمَّا انْقَضَى الشَّرَى
 وَمَالَ الْكَرَى بِي مَيْلَةً سَكَنَتْ لَهَا
 كَمْ^(٣) أَخَذْتُ مِنْهُ الشُّمُوءُ بِشَارِهَا
 وَقَرَّبْتُ الْأَحْلَامَ لِي كُلِّ مَأْمَلٍ^(٤)
 أَرْتَنِي وَجُوهَهَا لَوْ بَذَلْتُ لِقُرْبِهَا
 لَقُلَّ لَهَا عُمْرِي وَمَا مَلَكَتْ يَدِي
 وَمَا زِلْتُ أَشْكُو بَيْنَنَا غُصَصَ^(٥) النَّوَى
 فَمِنْهَا تُغَوِّرُ لِلشُّرُورِ بَوَائِمَ
 تُقَرِّبُهَا الْأَحْلَامَ مِنِّي وَدُونَهَا
 وَيَحْزَنُ طَمَتْ أُمُوجُهُ وَشَايِبَ^(٦)
 قَضَيْتُ حَقُوقَ الشُّوقِ فِي زُورَةِ الْكَرَى^(٧)
 يُقَرِّبُنِ^(٨) أَمَّا لَا تَبَاعَدُ بَيْنُهَا
 فَلَمَّا تَوَلَّى عَنِّي النَّوْمُ أَعْقَبَتْ^(٩)
 وَعَذْتُ إِلَى شَكْوَى الْبِلَاءِ^(١٠) وَلَمْ أَزَلْ
 وَمَا بَلَّغْتُ عَنِّي مَشَافَهُةَ الْكَرَى
 وَخَنَبُكَ قَلْبٌ فِي إِسَارِ اسْتِيَاقِهِ

قُدُودُ غُصُونٍ قَدْ رَقَّتْهَا صَوَادِحُ^(١١)
 يُرَدِّدُهَا مِنْهَا^(١٢) مُجِدُّ وَمَازِح
 أَرُوضُ لَهُ نَفْسِي وَعَزْمِي جَامِح
 عَلَى نَصَبِ الرُّغْثَاءِ مِنِّي الْجَوَارِحُ^(١٣)
 فَبَاتَ يُسْقَى^(١٤) وَهُوَ رِيَانُ طَافِح
 فَأَذْنَتْهُ مِنِّي وَهُوَ فِي الْحَقِّ نَازِح
 حَيَاتِي لَمَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُسَامِحُ
 وَخَدْنْتُ^(١٥) نَفْسِي أَنْ تَجْرِي^(١٦) رَابِع
 وَمَا طَرُخْتُ بِي فِي الزَّمَانِ الطَّوَارِحُ
 لِقُرْبِهِ^(١٧) وَمِنْهَا لِلْفِرَاقِ نَوَائِحُ
 مَهَامَةٌ فِيهَا لِلْهَجِيرِ لَوَافِحُ
 وَقَفَرُ بِهِ لِلسَّالِكِينَ جَوَامِحُ^(١٨)
 فَلِإِنْ زِيَارَاتِ الْكَرَى لِمَوَانِحُ
 وَتَغَبَّتْ فِيهَا بِالنَّفُوسِ الطَّوَامِحُ^(١٩)
 هَمُومٌ أَثَارَتُهَا الشُّجُونُ فَوَادِحُ
 أَرَدَّدَهَا وَالْعُذْرُ مِنِّي وَاضِحُ
 تَبَلَّغْتُهَا عَنِّي الرِّيَاحُ الْوَوَافِحُ^(٢٠)
 وَقَدْ أَسْلَمَتْهُ فِي يَدِيهِ الْجَوَانِحُ

(١) في الكتيبة: «فانقطعت».

(٢) في الأصل: «تجاذب ذكري أحاديث لم أزل» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٣) في الأصل: «مني» والتصويب من الكتيبة. (٤) في الكتيبة: «الجوانح».

(٥) في الكتيبة: «وكم».

(٦) في الأصل: «يشقى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(٧) في الكتيبة: «الأحلام كل مؤمل».

(٨) في الكتيبة: «وصدنت».

(٩) في الكتيبة: «لقربي منها».

(١٠) في الكتيبة: «مضض».

(١١) في الكتيبة: «ومياسب».

(١٢) في الأصل: «للكرى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٣) في الأصل: «يقرب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة.

(١٤) في الأصل: «للنفوس الطوائح» والتصويب من الكتيبة.

(١٥) في الكتيبة: «أقبلت».

(١٦) في الكتيبة: «البعاد».

(١٧) في الكتيبة: «النوائح».

وفاته: قال شيخنا أبو بكر بن شبرين: توفي بسجلّامة في صفر عام ستة عشر وسبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل^(١)

من أهل مالقة، يكنى أبا بكر.

حاله: من كتاب الإكليل: نابغة^(٢) مالقية، وخلف بقية، ومغربي الوطن، أخلاقه مشرقية. أزمع الرحيل إلى المشرق، مع اخضرار العود وسواد المفرق^(٣)، فلما توسّطت السفينة اللّجج، وقارعت الثّجج^(٤)، مال^(٥) عليها البحر فسقاها كأس الحمام، وأولدها قبل التمام، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها، وانضم على نوره سوادها، جملة^(٦) من الطلبة والأدباء، وأبناء السراة الحسباء، أصبح كل منهم مطيعاً، لداعي الرّدى وسميعاً، وأحيوا قرادى وماتوا جميعاً، فأجروا الدموع حزناً، وأرسلوا العبرات عليهم مژناً. وكان^(٧) البحر لما طمس سبل^(٨) خلاصهم وسدّها، وأحال^(٩) هضبة سفينتهم وهذها، غار على نفوسهم النفيسة واستردها^(١٠). والفقيه أبو بكر مع إكثاره، وانقياد نظامه ونثاره، لم أظفر من أدبه إلا بالقليل التافه، بعد وداعه وانصرافه.

فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عائراً^(١١): [الكامل]

ومُهْفَهَفٍ هافي المعاطفِ أخوَرُ قَضَحَتْ أشعةُ نوره الأقمارا
زُلْتُ له قدَمْ فأصبح عائراً بين الأنام لَعاً^(١٢) لِذَاكَ عِشارا
لو كنتُ أعلمُ ما يكونَ فَرَشْتُ في ذاك المكانِ الخدَّ والأشْفارا^(١٣)

(١) ترجمة ابن مقاتل في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٣١٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).

(٣) اخضرار العود وسواد المفرق: كناية عن الشباب.

(٤) الثّجج: الموج. لسان العرب (ثجج). (٥) في النفع: «هال».

(٦) في النفع: «من جملة». (٧) في الأصل: «وكان» والتصويب من النفع.

(٨) في النفع: «سبل». (٩) في النفع: «وأهال».

(١٠) في النفع: «فاستردها».

(١١) هذه المقطوعة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١).

(١٢) لما: كلمة دعاء لمن عثر، ومعناها: أنعشه الله.

(١٣) الأشفار: أهداب العيون. لسان العرب (شفر).

وقال متغزلًا^(١): [الطويل]

أيا لبني الرِّقَاءِ تنضي ظباؤهم	جُفَوْنَ ظَبَاهِمَ والفؤاد ^(٢) كليمٌ
لقد قَطَعَ الأحشاء منهم مهفَهَفٌ	له الثَّبَرُ خَذٌ واللَّجَيْنُ أديمٌ
يُسَدُّ إذ يرمي فسي حواجب	وَأَسْهُمُهَا مِنْ مَقْلَتِيهِ تسومٌ
وَتُسَقِّمُنِي عيناه وهي سقيمةٌ	ومن عَجَبٍ سَقَمٌ جناه سقيمٌ
وَيَذْبُلُ جسمي في هواه صبايةٌ	وفي وَضْلِهِ للعاشقين نعيمٌ

وفاته: توفي في حدود أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة غريقًا بأحواز الغبطة من ساحل المرية.

محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسي

ولد الشيخ أبي الطاهر، من أهل مالقة.

من كتاب الإكليل: نبيل فطن، متحرك ذهن، كان أبوه، رحمه الله، يتبرم بجذاله، ويخشى مواقع رَشَقِ نباله، ويثيم بأرقِّ الاعتراض في سؤاله، فيشفق من اختلال خلاله، إذ طريقه إنما هي أذواق لا تشرح، وأسرار لا تفضح. وكان ممن اخترم، وجَدَّ حَبْلُ أمله وُضُرْم، فأقلَّ عقب أبيه، وكان له أدب يخوض فيه.

فمن ذلك، وقد أبصر فتى وسيما على ريحانه: [البسيط]

بدرٌ تجلَى على غصن من الآس	يُثِيرِي وَيُسَقِّمُ فهو المُمرضُ الآسي
عادى المنازل إلَّا القلب منزلة	فما له وجميع الناس من ناس

وقال:

يا عالِمًا بالسُّرِّ والجَّهْرِ	وملجأِي في العُسرِ واليُسْرِ
جُدْ لي بما أَمَلْتُهُ منك	مولاي ^(٣) واجبِرْ بالرُّضا كُسْرِي

وفاته: في عام خمسة وسبعمائة.

محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي^(٤)

من أهل المرية، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بنسبه، وقد مر ذكر أبيه في العمال.

(١) المقطوعة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧١ - ٣٧٢).

(٢) في النفع: «الفؤاد». (٣) في الأصل: «يا مولاي» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) ترجمة البلوي في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٩٧).

حاله: هذا^(١) الرجل من أبناء النعم، وذوي البيوتات، كثير السكون والحياء، آل به ذلك أخيراً للوثة^(٢) لم يستفّق منها، لَطَفَ الله به. حسن الخط، مطبوع الأدب، سيّال الطبع، مَعِينه. وناب عن بعض القضاة، وهو الآن رهين ما ذكر، يتمنى أهله وفاته^(٣)، والله وليّ المعافاة بفضل^(٤).

وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه^(٥): من أولي الخلال^(٦) البارة والخصال، خطاً رائقاً، ونظماً بمثله لائقاً، ودُعابةٍ يسترها تَجْهَمُ، وسكوتاً^(٧) في طيه إدراك وتفهم. غني بالرواية^(٨) والتقييد، ومال في النظم إلى بعض التوليد، وله أصالة ثبتت^(٩) في الشّرو عروقتها، وتألّقت في سماء المجادة بروقتها، وتصرف بين النيابة في الأحكام الشرعية، وبين الشهادات العملية^(١٠) المرعية.

شعره: ومن شعره فيما خاطبني به، مهنثاً في إعدار أولادي، أسعدهم الله، افتتح ذلك بأن قال:

قال يعتذر عن خدمة الإعدار، ويصل المدح والثناء على بُعد الدار، وذلك بتاريخ الوسط من شعبان في عام تسعة وأربعين وسبعمائة^(١١): [الكامل]

لا عُدْرَ لي عن خدمة الإعدار ^(١٢)	ولئن ^(١٣) نأى وطني وشطّ مَزاري
أو عاقني عنه الزمان وصِرْفُه	تَقْضي الأمان ^(١٤) عادة الأعصار
قد كنتُ أرغب أن أفوز ^(١٥) بخدمتي	وأحطَ رَحْلي ^(١٦) عند باب الدار
بادي ^(١٧) المسرة بالصنيع ^(١٨) وأهله	متشمرّاً فيه بفضل إزاري ^(١٩)

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٩٧).

(٢) في النفع: «إلى لوثة». واللوث: اختلاط في العقل يشبه الجنون. لسان العرب (لوث).

(٣) في النفع: «موته».

(٤) كلمة «بفضله» غير واردة في النفع.

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٩٨).

(٦) في النفع: «الاتصال».

(٧) في النفع: «وسكوتاً».

(٨) في النفع: «بالدراية».

(٩) في النفع: «ثبتت».

(١٠) في النفع: «العملية».

(١١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ١٩٦ - ١٩٧).

(١٢) الإعدار: طعام يتخذ لسرور حادث. لسان العرب (عذر).

(١٣) في الأصل: «وإن» والتصويب من النفع.

(١٤) في الأصل: «نَقْض الأمان» والتصويب من النفع.

(١٥) في الأصل: «أفوز».

(١٦) في الأصل: «وأخطر جلي».

(١٧) في الأصل: «باب» والتصويب من النفع.

(١٨) في الأصل: «بالضيق» وكذا لا يستقيم المعنى.

(١٩) في الأصل: «إزار» بدون ياء، والتصويب من النفع.

من شاء أن يلقي الزمانَ وأهله
فليأتِ حَيَّ ابن الخطيب مُلَبِّيا
كم ضَمَّ من صيدٍ ^(٢) كرام فضْلُهُمْ ^(٣)
إِنْ جَنَّتْ نَادِيَهُ قُنْبٌ ^(٤) عَنِّي وَقُلْ
يا من له الشرفُ القديم ومن له الـ
يُهنِيكَ ما قد نَلَتْ من أَمَلٍ به
تَجْلَاكَ قُطْبًا كُلِّ تَجْرِ ^(٥) باذخ
عبد الإله وصنوه قمرُ العلا
ناهيك من قمرين في أفقِ العلا
زاكي الأرومة ^(٦) مُغْرَقٌ ^(٧) في مجده
رَقَّتْ طبائعه وراق جماله
وَحَلَّتْ ^(٨) شمائلُ حُسنه فكانما
فإذا تكلَّم قُلْتَ طَلٌّ ^(٩) ساقِطٌ
أو قَتَّ بِسِكَ الحبر ^(١٠) في قرطاسه
تتَبَسَّمُ ^(١١) الأقلامُ بين بنانه
فتخالُ من تلك البنان كَمائِمًا
تلقاه فيَاضَ الندى مُتَهَلِّلًا

ويرى جلا الإشعاع في الأفكار ^(١)
فيفورُ بالإعظام والإكبار
يسمر ويعلو في ذوي الأقدار
نَلَتْ المني بتلطيف ووقار
حَسَبَ الصمِيمُ العِدُّ يومَ فخار
في الفرقدين الثَّيَرَيْنِ لساري ^(٢)
أَمَلَانِ مَرْجُؤَانِ في الإغسار ^(٣)
فرعانِ مِنْ أصلٍ زكا ونجار ^(٤)
يُثميهما نورٌ من الأنوار
جَمُ الفضائل طَيِّبُ الأخبار
فكأنما خُلِقا من الأزهار
خلعت عليه رقة الأسحار
أو وَقَعُ دُرٌّ من نُحُورِ جَواري
بالروض ^(٥) غِبُّ الواكفِ البذار
فتريكَ نظمَ الدرِّ في الأسطار ^(٦)
ظَلَّتْ ^(٧) تُفَتِّحُ ناضِرَ الثُّوار
يلقاك بالبشرى والاستبشار

- (١) في النفع: ويرى جلا لا شاع في الأمطار. (٢) في الأصل: «جيد» والتصويب من النفع.
(٣) في النفع: «قَدَّرُهُمْ». (٤) في الأصل: «إذ حيث ناديه فقف...» والتصويب من النفع.
(٥) في الأصل: «يسار» والتصويب من النفع. (٦) في النفع: «مُجْدٍ». (٧) في الأصل: «الاعتبار» والتصويب من النفع.
(٨) في الأصل: «وبحار» والتصويب من النفع. (٩) في الأصل: «لسان العرب (نجر)». (١٠) في الأصل: «أصل الشجرة ويستعار للحب. محيط المحيط (أرم)». (١١) في الأصل: «مغرق» والتصويب من النفع.
(١٢) في الأصل: «وَجَلَّتْ»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(١٣) في الأصل: «ظل» والتصويب من النفع. (١٤) في النفع: «فالروض». (١٥) في الأصل: «تسم» والتصويب من النفع.
(١٦) في النفع: «الأمطار». (١٧) في الأصل: «كانما نهلت...» والتصويب من النفع.

بحرُ البلاغة قُسُها وإيادها
 إن ناظرَ العلماءَ فهو إمامُهم
 أُرِى على العلماء بالصُّيت الذي
 ما ضرّه إن لم يسجى متقدّماً
 إن كان أخره الزمان لحكمة
 الشمس تُخجِب وهي أعظم نير^(٤)
 يا ابن الخطيب خطبُها لعلاكم
 جاءك من خجل على قدّم الحيا
 وأنت^(٥) تؤذي بعض حق واجب
 مدّت يد التطفيل نحو علاكم
 فابذل لها في التقد صفحك إنها
 لا زلت في دعة وعز دائم
 سخبانها خبِر من الأخبار^(١)
 شرف المعارف، واحد الثُّنَّار
 قد طار^(٢) في الآفاق كل مطار
 بالسُّبِق^(٣) يُغرَف آخر المضمار
 ظهرت وما خفيت كضوء نهار
 وتُرى من الآفاق إثر دراري
 يكرّأ تُزف لكم من الأفكار
 قد طيّبت بثنائك المِغْطار
 عن نازح الأوطان والأوطار^(٦)
 فتوشّحت^(٧) من جودكم^(٨) بنضار
 تشكو من التّقصير^(٩) في الأشعار
 ومسرّة تُثرى^(١٠) مع الأعمار^(١١)

ومن السُّلطانيات قوله من قصيدة نسيها: [الطويل]

تَبَسَّم تُغرُ الدهر في القُضْب المُلْد
 ونبّه وَقَعَ الطَّل الحاظ نرجس
 وثم لَسْبِر^(١٤) الروض في مسكة الدجى
 وغطى ظلام الليل حُمرة أفقه
 وباتت قلوبُ الشُّهب تخفق رقة
 وأهَمّى عليه الغيم أجفان مُشفق
 فأذكى الحياء^(١٢) خَجَلَة وَجَنَة الوزد
 فمال إلى الوَسْنان، عاد إلى الشُّهد^(١٣)
 نسيم شذا الخير كالمسك والنَّد
 كما دار مُسوّد العِذار على الحَد
 لما حلّ بالمشاق من لَوعة الوجود
 يُذكّره^(١٥) فاستمطر الدُمع للحد

(١) في النفع: «خَبِرَ من الأخبار».

(٢) في الأصل: «السُّبِق» والتصويب من النفع.

(٣) في الأصل: «وَأَنْتَ» والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «الإمكان والأفكار» والتصويب من النفع.

(٥) في الأصل: «فتوشّحت» والتصويب من النفع.

(٦) في النفع: «خَلَيْكُمْ».

(٧) في الأصل: «شكوى التّقصير» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٨) تُثرى: متابعة. محيط المحيط (تري).

(٩) في الأصل: «الأعصار» والتصويب من النفع. (١٢) في الأصل: «الحياء»، وكذا ينكسر الوزن.

(١٣) في الأصل: «فمال الوسنان وعاد إلى الشهد» وكذا ينكسر الوزن.

(١٤) في الأصل: «سبر» وكذا ينكسر الوزن. (١٥) في الأصل: «بذكّره» وكذا يخل الوزن.

ومنها:

كَأَنَّ^(١) لَمْ أَقِفْ فِي الْحَيِّ وَفَقَّةَ عَاشِقٍ
وَنَادَيْتُ حَادِي الْعَيْسِ عَرَّجَ لَعَلَّنِي
فَقَالَ أَتَشْذُ يَا صَالِحَ مَا لَكَ مَلْجَأً
وَمِمَّا خَاطَبَنِي بِهِ قَوْلُهُ: [الخفيف]

عَلَّلُونِي وَلَوْ بَوْعِدِ مُحَالٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّنِي أَسِيرُ هَوَاكُمِ
فَدَمَوْعِي مِنْ بَيْنِكُمْ فِي انْسِكَابٍ
يَا أَهْئِيلَ الْجَمَى كَفَانِي غَرَامِي
مَنْ مُجِيرِي مَنْ لَخِظَ رَيْمُ ظُلُومٍ
نَاعَسَ الطَّرْفُ أَسْمَرَ الْجَفْنَ مِنِّي
بَابِلِي اللَّحَاطِ أَضْمَى فَوَادِهِ
وَكَسَا الْجِسْمَ مِنْ هَوَاهُ نُحُولًا
مَا ابْتَدَأَ فِي الْوَصَالِ يَوْمًا بِعُطْفٍ
لَيْسَ لِي مِنْهُ فِي الْهَوَى مِنْ مُخْبِرٍ
عَلِمَ الدِّينَ عَزَّهُ وَسَنَاءَهُ
هُوَ غَيْثُ الثَّدْيِ وَبَحْرُ الْعَطَايَا
إِنْ وَشَى فِي الرِّقَاعِ بِالنَّقْشِ قُلْنَا
أَوْ ذَجَا الْخُطْبَ فَهُوَ فِيهِ شِهَابٌ
أَوْ يَتِي الْعُضْبَ فَهُوَ فِي الْأَمْنِ مَاضٍ
لَسْتُ تَلْقَى بِثَالِهِ فِي زَمَانٍ
قَدْ نَأَى حَبِّي مَا^(١٠) لَهُ عَنْ دِيَارِي

وَجَلَّلُونِي وَلَوْ بِطَيفِ خِيَالٍ
لَسْتُ أَنْفَكُ إِنَّمَا^(٢) عَنْ عِقَالٍ
وَفَوَادِي مِنْ سَحَرَكُمِ فِي اشْتِغَالٍ
حَسْبِي^(٤) مَا قَدْ جَزَّ...^(٥) أَلِ
حَلَّلَ الْهَجَرَ بَعْدَ طَيْبِ الْوَصَالِ
طَالَ مِنْهُ الْجَوَى بِطُولِ اللَّيَالِي^(٦)
وَرَمَاهُ مِنْ غُنْجِهِ بِنَبَالٍ
قَضَدَهُ فِي الثَّوَى بِذَاكَ النِّحَالِ
مُذَّ رَوَى فِي الْغَرَامِ بَابَ اشْتِغَالٍ
غَيْرَ تَاجِ الْعُلَا وَقُطْبِ الْكَمَالِ
ذُرْوَةُ الْمَجْدِ بَذَرُ أَفْقِ الْجَلَالِ
هُوَ شَمْسُ الْهَدْيِ فَرِيدُ الْمَعَالِي^(٧)
صَفْحَةُ الطَّرْسِ حُلَيْتُ بِاللَّالِي^(٨)
رَايَةُ الصَّبْحِ فِي ظِلَالِ^(٩) الضَّلَالِ
صَادَقَ الْعِزْمَ ضَيْقُ الْمَجَالِ
جَلَّ فِي الدُّهْرِ يَا أَخِي عَنْ مِثَالِ
لَا لِيَجْدُو وَلَا لِيَنْفِيلَ نَوَالِ

(١) في الأصل: «كأنّي» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «إلا» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «حسبي بما» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) يياض في الأصل.

(٦) في الأصل: «الليال» بدون ياء.

(٧) في الأصل: «المعال» بدون ياء.

(٨) في الأصل: «باللآل» بدون ياء.

(٩) في الأصل: «ظلل» وكذا ينكسر الوزن.

(١٠) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفتها ليعتد المعنى والوزن معاً.

لكن اشتفت أن أرى منه وجهها نُورُهُ قاضحٌ لنورِ الهلالِ
وكما همتُ فيه الشم كفاً قد أتتْ بالنوال قبل السؤالِ
سألَ^(١) ابن الخطيب عذراً أجابت تأثمتُ الثغل قبل شمس^(٢) النعالِ
وتوَقَّي حقَّ الوزارةِ عمن هو ملكٌ لها على كل حالِ

محمد بن محمد بن الشديّد^(٣)

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله.

حاله: ذكر في الإكليل بما نصّه^(٤): شاعرٌ مجيدٌ خوكُ الكلام، ولا يَقْصُرُ فيه عن درجة الأعلام. رحل إلى الحجاز لأول أمره فطال بالبلاد المشرقية نواؤه، وعُميت أنباؤه، وعلى هذا العهد وقفت له على قصيدة بخطه غرضها نبيل، ومرعاها غير وبيل، تدلُّ على نفسٍ ونفس، وإضاءة قُبس، وهي: [الوافر]

لنا في كلِّ مَكْرَمَةٍ مَقَامٌ ومن فوقِ النجومِ لنا مَقَامٌ
رَوِينَا من مِياهِ المَجْدِ لَمَّا وَرَدْنَاهَا وقد كَثُرَ الزحامُ
ومنها:

فنحن همُ وقُلْ لي مَنْ سوانا لنا التَّقْدِيمُ قُدِّمًا والكلامُ
لنا الأيدي الطَّوَالُ بكلِّ ضرب^(٥) يُهَزُّ به لدى الروحِ الحُسامُ
ونحن الـلَّابِسُونَ لكلِّ دِزَعٍ يصيبُ السُّفْرَ^(٦) منهنَّ انشلامُ
بأندلسٍ لنا أيامُ حربٍ مَوَاقِفُهُنَّ في الدنيا عظامُ
ثوى^(٧) منها قلوبُ الرُّومِ خوفاً^(٨) يُخَوِّفُ منه في المَهْدِ الغلامُ
حَمِينَا جانبَ الدينِ احتسابًا فها هو لا يُهَانُ ولا يُضامُ
وتحت الرايةِ الحمراءِ مئًا كَتَائِبُ لا تُطَاق ولا تُرامُ
بنو نَضْرٍ وما أدراك ما هم أَسودُ الحربِ والقومُ الكرامُ

(١) في الأصل: «سألها» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) الشَّعْشُع: قبائل الثَّغَل. محيط المحيط (تسع).

(٣) ترجمة ابن الشديّد في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٢).

(٤) النص مع القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٥) في النسخ: «صوب».

(٦) في الأصل: «السُّفْر» والتصريب من النفع؛ لأن كلمة «السُّفْر» أنسب للمعنى.

(٧) ثوى: أقام. لسان العرب (ثوى). (٨) في النسخ: «خوف».

لهم في حربهم فتكات عمرو
يقول: غدائهم مهما أَلَمُوا
إذا شرعوا الأسيئة يوم حرب
كأن رماحهم فيها نجوم
أناس تُخلف الأيام مينا
رأينا من أبي الحجاج شخصا
موقى العريض محمود السجيا
يجول بذهنه في كل شيء
قويم الرأي في ثوب الليالي
له في كل معضلة مضاء
رؤوف قادر يُغضي ويعفو
تطوف ببيت سُؤدده القوافي
وتسجد في مقام غلاء شكرا
أفارسها إذا ما الحرب أختت^(١)
ومطرها إذا ما السحب كفت
لك الذكر الجميل بكل قطر
لقد جئنا^(٢) البلاد فحيث سزنا
فضلت ملوكها شرقا وغربا
فأنت لكل مغلوّة مدار
جعلت بلاد أندلس إذا ما
مكان أنت فيه مكان عز
وهبتك من بنات الفكر بكرا
فنزّه طرف مجدك في حلاها

فللأعمار عندهم انصرام
أتونا ما من الموت اعتصام
فحقق أن ذاك هو الجمام
إذا ما أشبه الليل الغمام^(٣)
بحي مثلهم فلهم دوام
على تلك الصفات له قيام
كريم الكف مقدام همام
فيدركه وإن عز المرام
إذا ما الرأي فارقه القوام
مضاء الكف ساعده^(٤) الحسام
وإن عظم اجتناء واجترام
كما قد طاف بالبيت الأنام
ونعم الركن ذلك والمقام
على أبطالها ودنا الجمام
وكف أخي الندى أبدا غمام
لك الشرف الأصيل المستدام
رأينا أن ملّكك لا يُرام
وبت لملكها يقظا وناموا^(٥)
وأنت لكل مكرمة إمام
ذكرت تغار مضر والشام
وأوطان خللت بها كرام
لها من حسن لقياك ابتسام
فللمجد الأصيل بها اهتمام

(١) في النسخ: «القام».

(٢) أخذت على أبطالها: أنت عليهم وأهلكتهم.

(٣) أخذت على أبطالها: أنت عليهم وأهلكتهم.

(٤) في الأصل: «جينا» والتصويب من النسخ.

(٥) في الأصل: «ونام» والتصويب من النسخ.

محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد ابن أبي الخصال الغافقي^(١)

الإمام البليغ، المحدث الحجّة، يكنى أبا عبد الله. أصله من قرغليط من شقورة، من كورة جيان، وسكن قرطبة وغرناطة.

حاله: قال ابن الزبير عند ذكره: ذو الوزارتين، أبو عبد الله بن أبي الخصال. كان من أهل المعارف الجمّة، والإتقان لصناعة الحديث، والمعرفة برجاله، والتقيد لغريبه، وإتقان ضبطه، والمعرفة بالعربية واللغة والأدب، والنسب والتاريخ، متقدماً في ذلك كله. وأما الكتابة والنظم، فهو إمامهما المتفق عليه، والمتحاكم فيهما إليه.

ولما ذكره أبو القاسم الملاحى بنحو ذلك قال: لم يكن في عصره مثله، مع دين وفضل وورع.

قال أبو عمرو ابن الإمام الإشتجي في سبب الجمان، لما ذكره: البحر الذي لا يُماتح ولا يُشاطر، والغيث الذي لا يُساجل ولا يُقاطر، والروض الذي لا يُفاح ولا يُعاطر، والطود الذي لا يزاحم ولا يخاطر، الذي جمع أشات المحاسن، على ماء غير ملح ولا آسن؛ وكثرت فواضله، فأمنت المماثل والمحاسن، الذي قصرت البلاغة على محتده، وألقت أزمة الفصاحة في يده، وتشرفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه، فثقل كينانتها، وأرسل كمائنهما، وأوضح أسرارها ودفائنهما، فحسب الماهر التحرير، والنجهذ العلامة البصير إذا أبدع في كلامه، وأينع في روض الإجابة نثاره ونظامه، وطالت قنى الخطبة الذبل أعلامه، أن يستنير بأنواره، ويقتضي بعض مناهجه وآثاره، وينثر على أثوابه منك غباره، وليعلم كيف يتفاضل الخبر والإنشاء، ويتلو إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وعضه العقور أبو نصر في قلائده، حيث قال^(٢): «هو وإن كان خامل المنشأ نازله، لم يُنزل المجد منازل، ولا فرغ للعلاء هضاباً، ولا ارتشف للسنا رضاباً، فقد تميز بنفسه، وتحيز من أبناء^(٣) جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته».

(١) يكنى ابن أبي الخصال أبا عبد الله، وترجمته في المعجب (ص ٢٣٧، ٢٤٠) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٨٦) وقلائد العيان (ص ١٧٤) والمطرب (ص ١٨٧) وبغية الملتبس (ص ١٣١) والصلة (ص ٨٥٤) وروايات المبرزين (ص ١٨٨) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٥٢) والمغرب (ج ٢ ص ٦٦) والمقبط من أزاهر الطرف (ص ٨٧، ٨٩) وبغية الرعاة (ص ١٠٤).

(٢) كلمة «أبناء» ساقطة في القلائد.

(٣) قلائد العيان (ص ١٧٤).

مشيخته: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير في الصلة^(١): روى عن الغساني، والصدفي، وأبي الحسن بن الباذش، وأبي عمران بن تليد، وأبي بحر الأسدي، وأبي عبد الله الثَّقَفي، وجماعة غيرهم.

توالياً: قال الأستاذ: وأما كتبه وشعره وتوالياً الأدبية، فكل ذلك مشهور، متداول بأيدي الناس، وقل من يُعلم بعده، أن يجتمع له مثله، رحمه الله.

من روى عنه: روى عنه ابن بشكوال، وابن حبيش، وابن مضاء وغيرهم، وكل ذلك ذكره في رحاله، وهو أعرف بتقدمه في احتفاله.

شعره: وله شعر كثير، فمن إخوانياته ما خاطب به أبا إسحق بن خفاجة: [الكامل]

هَبْ النسيم هبوب ذي إشفاق	يُذهبن الهوى بجناحه الخفّاق
وكأنما صُبِحَ الغصونُ بنشوة	باحث لها سرائر العشاق
وإذا تلاعبت الرياحُ ببايئه	لعب الغرامُ بمهجة المشتاق
مَهْ يا نسيمُ فقد كَبُرَتْ عن الصبا	لم يبق من تلك الصُّبابة باق
إن كنتَ ذاكَ فلست ذاكَ ولا	أنا قد أَدْنَيْتُ ^(٢) مفارقي بفراق
ولقد عَهِدْتُ سُرّاك من عُدَدِ الهوى	والموت في نظري وفي استنشاق
أيام لو عَنَّ السُّلُوَ لخاطري	قَرْنَيْتُهُ هَذِيًّا ^(٣) إلى أشواقي ^(٤)
الهوى إلّفي والبطالة مَرَكبي	والأمنُ ظِلِّي والشبابُ رواقِي ^(٥)
في حيث قُسِمَتِ المُدَامَةُ قسمة	ضَيِزَى ^(٦) لأن السكر من أخلاقي ^(٧)
لا ذنب للصُّهْبَاءِ أني غاصب	ولذاك قام السكر باستحقاق
ولقد صَدَدْتُ الكأسَ فانقبضتُ بها	من بعدها انبَسَطْتُ يمينُ السَّاقِي
وتركتُ في وسط التُّدَامَى خَلَّةً	هامت بها الوُسطَى من الأعلاق
فاسْتَسْرِفُونِي مُذْكَرِينَ وعندهم	أنى أدين اللهو دين نفاق
وحبايئها نَفَثَ الحبابُ وربما	سَدِكت يد الملسوع منه براق

(١) المراد «صلة الصلة».

(٢) الهذِي: ما يُهْدَى إلى الحَرَمِ من النعم. لسان العرب (هدى).

(٣) الهذِي: «أشواقي».

(٤) في الأصل: «أشواقي».

(٥) في الأصل: «أشواقي».

(٦) القسمة الضيْزَى: الناقصة الجائزة. محيط المحيط (ضاز).

(٧) في الأصل: «من أخلاقي».

وكانه لما توقر فوقها^(١) نور تجسم من ندى الأحداق
لو بارح نفع النوى في روضة
ولقد جلوا والله يذرا كيدهم
فثانة الأوصاف والأعراق
أغوى بها إبليس قذما آدم^(٢)
والسر يرمى في هواها الباقي^(٣)
تالله أصرف نحوها وجد الرضا
لو شغشت برضا أبي إسحق
ومن نسيه^(٤): [المنسرح]

وليلة غنبرية الأفق
زويت فيها السرور من طروق
وكنت حزان فافتدخت بها
نارا من الراح بردت حرقى^(٥)
وافت^(٦) بها^(٧) عاطلا وقد لبست
غلالة فصلت من الحدق
فاجأ^(٨) بها الدهر من بنيه دجى^(٩)
لقيته كالإصباح في نسق^(١٠)
قامت لنا في المقام أوجههم
وراحهم بالنجوم والشفق
وأطلع^(١١) البدر من ذرى غصن
تَهفو عليه القلوب كالورق
من عبد شمس بدا سنه وهل
ذا^(١٢) النور^(١٣) إلا لذلك^(١٤) الأفق
مذ بحمراء من مدامته
بيضاء كف^(١٥) يشكيه العبق
فخلتها ورده مئقمة
تحمل من سوسن على طبق

(١) في الأصل: «من فوقها» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «أدما».

(٣) في الأصل: «وهي السر يرمي في هواها الباقي».

(٤) القصيدة في المغرب (ج ٢ ص ٦٧) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٣).

(٥) في الأصل: «حرقى». (٦) في الذخيرة: «خلت».

(٧) في المصدرين: «بنا».

(٨) في الأصل: «فأجا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المغرب. وفي الذخيرة: «فجاءها

الدهر...». وقاجا: أي: فاجأ، وقد خففها لكي لا ينكسر الوزن.

(٩) في الذخيرة: «هوى».

(١٠) رواية عجز البيت في المصدرين هي: بفتية كالصباح في نسق.

(١١) في المغرب: «وأطلع».

(١٢) في الأصل: «ذاك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(١٣) في المغرب: «البدر».

(١٤) في الأصل: «الذاك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(١٥) في الذخيرة: «كفا».

يَشْرَبُ فِي الرَّاحِ حِينَ يَشْرَبُهَا^(١) مَا غَادَرْتُ مُقْلَتَاهُ مِنْ رَمَقٍ^(٢)
وقال^(٣): [المنسرح]

يَا حَبْذَا لَيْلَةً لَنَا سَلَفَتْ أَغَرَّتْ بِنَفْسِي الْهُوَى وَمَا^(٤) عَرَفَتْ
دَارَتْ بِظُلُمَانِهَا الْمُدَامُ فَكَمْ نَزَجِسَةُ مِنْ بِنَفْسِيحٍ قُطِفَتْ
وقال في مُعَنَّ زَارٍ، بَعْدَهُ أَغْبُ وَشَطُّ الْمَزَارِ^(٥): [الكامل]

وَإِنِّي وَقَدْ عَظُمْتُ عَلَيَّ ذُنُوبُهُ فِي غَيْبَةٍ قَبُحَتْ بِهَا آثَارُهُ
فَمَحَا إِسَاءَتَهُ لَنَا^(٦) إِحْسَانُهُ وَاسْتَغْفَرْتُ لَذُنُوبِهِ أَوْتَارُهُ
وقال يعتذر عن استبطاء مُكَاتَبَةٍ^(٧): [الطويل]

أَلَمْ تَعْلَمُوا^(٨) وَالْقَلْبُ زَهْنٌ لَدَيْكُمْ يَخْبِرُكُمْ^(٩) عَنِي بِمُضْجِرِهِ^(١٠) بَغْدِي؟
فَلَوْ^(١١) قَلْبْتَنِي^(١٢) الْحَادِثَاتُ مَكَانَكُمْ لِأَنْهَيْتُهَا وَفَرِي وَأَوْطَأْتُهَا^(١٣) خَدِّي
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي وَأَهْلِي وَوَاحِدٌ^(١٤) فِدَاءُ^(١٥) وَلَا أَرْضِي بِتَقْدِيرِهِ^(١٦) وَخَدِّي؟

ومن قوله في غرض المدح يخاطب تاشفين بن علي، ويذكر الوقعة بكركي،
يقول فيها: [البسيط]

الله أعطاك فَتْحًا غير مشترك وردُّ عزمك عن قُوَّتٍ إِلَى دَرْكِ

(١) في الأصل: «نشرت... حين نشرتها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين، وجاء في الذخيرة: «بالراح» بدل: «في الراح».

(٢) في المغرب: «من رمقي».

(٣) البيتان في الذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٣ - ٧٩٤). وبغية الوعاة (ص ١٠٥).

(٤) في الذخيرة: «وقد».

(٥) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٧٥) وبغية الملتبس (ص ١٣١) والمطرب (ص ١٨٧) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٦).

(٦) في الذخيرة: «بنا».

(٧) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٧٧) والمطرب (ص ١٨٨) والذخيرة (ق ٣ ص ٧٩٧).

(٨) في الذخيرة: «ألم تسألوا».

(٩) في الذخيرة: «فيخبركم».

(١٠) في المصادر: «بمضمرة».

(١١) في المطرب والذخيرة: «تبشني».

(١٢) في الأصل: «واودلاتها». والتصويب من المصادر الثلاثة.

(١٣) في المصادر: «واحد».

(١٤) في الأصل: «فداء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.

(١٥) في المطرب: «بتقدمتي».

واضْمُمُ يديك ودَّعُه في يد المَلِكِ
يُهدي سبيلك هادٍ غير مُؤتَعَك
حتى اسْتَدْرَتْ عليهم كورةُ الفلك
والحينُ قد قيَّد الأعداء في شَرَك
ولا تَرَكْتَ نجيعًا غير مُنْسَفَك
أسدى إذا فرصة ليست^(٣) من السلك
والصبح من عِبَرَات الفجر في مُسَك
تفيض أنفُسهم غيظًا من المَسَك
وضاريوكم بأسياف ولم تَجُحَك
وقدَّمَ الهذني منهم كلَّ ذي نُسَك
قد أثقلتْها لحومُ القوم عن حَرَكَ
بُعْثَن^(٤) في حَجَرٍ^(٥) رَحِبٍ وفي حَتَك
قَرَّتْكَ أسيافه في كل مُعْتَرِك
بالقاع للغيطان بالتَّبَك
فيوم بَذَر أقامه الفياء في قَدَك
في ماقط برماح الحظَّ مُشْتَبَك
بالبيض مشتمل بالشمر مُخْتَبَك
إلى أَرْبُولَة مَدَاسَاتٍ إلى السُّكَك
للرُّوم من مُرْتَكَل غير مُتَرَك
سَمَوْتَ تطلب نصر الله بالدَّرَك
وأذهب السيف ما بالذَّن من حُكَّك
إلى رضى الله لا تَعْدَم رضى المَلِك
أخرى كدُر على الأجياد مُنْسَلَك
والأرض من ظُلْمَة الإلحاد في حَلَك

أرسلَ عِنانَ جِوَادٍ أنْتَ رَاكِبُهُ
حتى يصيرَ إلى الحسنَى على ثِقَة
قد كان يُغْدُكُ للأعداء مَمْلَكَة
سارَتْ بك الجُزْدُ^(١) أو طَارَ الفُضَاءُ^(٢) بها
فما تَرَكْتَ كَمِيًا غير مُشْعَفِر
ناموا وما نام موتور على حَنَقِ
فَصَبَّحَتْهُمْ جَنُودُ الله باطِشَة
من كل مُبْتَدِر كالنَّجْم مُنْكَدِر
فطاعنوكم بأرماح وما طَعَنْت
تَعَجَّلَ النُّحْرَ فيهم قبل موسمِه
فالطيرُ عاكفٌ والوحشُ واقِفٌ
عَدَتْ على كل عادٍ منهم أَسْرُ
كلي هنيئًا مريئًا واشكري مَلِكًا
فلو تَنَضَّدَتْ الهامات إذ نشرت
أبرح وطالب بباقي الدهر ماضيه
وكم مضى لك من يوم يَنْتَ له
بالنُّقْعِ مُرْتَكَم بالموت مُلْتَمِ
فحصُ القِبابِ إلى فحص الصعاب
وكم على خَبر محمود وجارته
وقُيِّتَ لِلصُّفَرِ حتى قيل قد غدروا
فأنسَلَمَتْهم إلى الإسلام عَذَوْتهم
يا أيها الملك السامي بهِمَّتِه
ما زلت تُسمعه بُشْرَى وتُطْلعه
بِيَضَّت وجه أمير المؤمنين بها

(١) الجُزْدُ: جمع أجرد وهو الفرس السباق. محيط المحيط (جرد).

(٢) في الأصل: «الفضاء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) كلمة «ليست» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى متا.

(٤) في الأصل: «بعثه» وهكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٥) المراد الحنجرة وهي الحلقة.

فاستشعر الثَّـمَرِ واهتزَّتْ منابِرُهُ بذكر أزْوَجٍ للكفار مُخَنَّنِكَ
فأخْلَدَكَ ولَمَن والاك طِـسَاعَتَهُ خُلُودَ بِرٍّ بِتَقْوَى الله مُنْتَسِكَ
وافيَتْ والغَيْثُ زَاخِرٌ قد بكى طَرَبًا لَمَّا ظفرت وكم بلُّهُ من الضَّحِكِ
وتَمَّم اللهُ ما أنشأت من حُسن بكل مُنْتَسَبِكَ منه ومُنْتَمَكِ
وعن قريب تُباهي الأرض من زهير سماها بها غَضَّة الحَبِكِ
فَعُدَّ وقُدَّ واعتمدَ وأحمدُ وسُدَّ وأيد وقُلَّ وصيلٌ واستَطِلَّ واستَوَلَّ وأنتَهَكِ
وحسبُكَ اللهُ فردًا لا نظيرَ له تغنيكَ نُضْرَتُهُ عن كل مُشْتَرِكِ

ومن قوله في غرض الرثاء، يرثي الفقيد أبا الحسن بن مغيث^(١): [البسيط]

الدَّهْرُ ليس على حَزٍّ بمؤْتَمِنٍ
وَأَيُّ عِلْقٍ تَخْطُطُّهُ يَدُ الزَّمَنِ
يَأْتِي العَفَاءُ^(٢) على الدُّنْيَا وساكنها
كَانَهُ^(٣) أَذْبَرَ لَمْ يَسْكُنْ إِلَى سَكَنِ
يَا بَاكِيًا فَرْقَةً الأَحْبَابِ عَنِ شَحْطِ^(٤)
هَلَّا بِكَيْتٍ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ؟
نُورٌ^(٥) تَقْفِيْدُ^(٦) فِي طِينِ^(٧) إِلَى أَجَلِ
وَانْحَازَ^(٨) عُلُوًّا^(٩) وَخَلَى الطِّينَ فِي الكَفَنِ^(١٠)
كَالطَّيْرِ فِي شَرْكَ يَسْمُو إِلَى دَرْكٍ
حَتَّى تَخْلُصَ مِنْ سَقَمٍ وَمِنْ دَرَنٍ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رِضَى الله اجْتِمَاعُهُمَا
فِيَا لَهَا صَفْقَةً تَمُتُّ عَلَى غَبَنِ^(١١)

(١) وردت من هذه القصيدة فقط الأبيات الثالث والرابع والسادس والسابع في المعجب (ص ٣١٣ -

٣١٤) منسوبة إلى ابن طفيل، صاحب رسالة «حي بن يقظان».

(٢) في الأصل: «العفا» وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «كان» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) الشَّحْطُ: البعد. (٥) النور: كناية عن الروح.

(٦) في المعجب: «تَرْدَدٌ». (٧) الطين: كناية عن البدن.

(٨) في المعجب: «فَانْحَازَ».

(٩) في الأصل: «عُلُوًّا»، والتصويب من المعجب.

(١٠) في المعجب: «الكفن».

(١١) في الأصل: «...» الله التقي وهما فيا لها صفقه بُثَّتْ على دُعْنِ، والتصويب من المعجب.

والغبن: الخُطَأُ.

يا شُدْ ما افترقا من بعد ما اغتنقا^(١)
 أظُّها محرقة^(٢) كانت على دخن^(٣)
 ورب سارٍ إلى وجه يُسرُّ به
 وافى وقد نبت المرعى على الدمن
 أتى إلى الله لا سمع ولا بصر
 يدعو إلى الرشد أو يُهدي إلى السُنن
 في كل يوم فراق لا بقاء له
 من صاحب كرم أو سيّد قمن
 أعيا أبا حسن فقد الذين مضوا
 فمن لنا بالذي أعيا أبا حسن
 كأن البقية في قوم قد انقرضوا
 فهاج ما شاء ذاك القرن من شجن
 يُعدّ فداً وفي أثوابه رمز من
 كل ذي خُلُق عمرو وذو فطن
 وإن من أوجدتنا كلُّ مُفتقد
 حياته لعزیز المُفقد والظعن
 من يملوك إذا خُفَّت حلومهم
 بما يُقاوم ذاك الطيش من سکن
 ومنها:

يا يونس لا تَبرِ أصبحنا لوخشتنا	نشكو اغتراباً وما بنا عن الوطن
ويا مُطاعاً مُطيعاً لا عناد له	في كل أمر على الإسلام مؤتمن
كم خَطَّتْ كارتجاج البحر مُبْهَمة	قَرَجَتْها بحُسام سُلٍّ من لسن
طود المهابة في الجلا وإن جَذَبَتْ	عِنايه خَلوة هزّت دُرى وَتَر
أَكْرَمَ به سبباً تلقى الرسول به	لخميس واردة في الفَرَض والسُنن
ناهيك من مُنْهَج سَمِّ القصور به	هوئى فمن قَدَّر عالٍ إلى قَدَن
من كل وادي الثُقَى يسقى الغمام به	فيستهل شروق الضرع باللبن
تجمَلَتْ بك في أحسابها مُضَر	وأضلّ مجدك في جُرثومة اليمن

(١) في المعجب: «اعتلقا». وألف الاثنين يعود إلى الروح والبدن.

(٢) الدخن: الفساد.

(٣) في المعجب: «هذنة».

من دولة حولها الأنصار حاشدة
 من الذين هم رورا وهم نصروا
 إن يَبْدُ مطلع منهم ومستمع
 ما بَعْدَ منطقَه وشي ولا زهر
 أقول وفيما فضل سُودده
 محمد ومغيث نغم ذا عوضا
 تقيلا هذيه في كل صالحه
 ما حل حَبْرَتَه إِلَّا وقد عقدا
 عُزُّ الأجيّة عند حسن عهدهما
 علما وحلما وترحيبا وتكرمة
 يا وافد الغيث أوبغ قبره نزلا
 وطبق الأرض وبلا في شفاعته
 وأنت يا أرض كوني مرةً بأبي
 وإن تردت بثرِب فيك أعظمه
 ومن شعره قوله مخمّسا، كتب بها، وقد أقام بمراكش يتشوق إلى قرطبة:
 [الطويل]

بَدَتْ لهم بالغُور والشُّمل جامعُ
 فباحث بأسرار الضمير المدامعُ
 أذاع بها من فيضها لا يُصَوَّبُ^(١)
 ألا في سبيل الشُّوق قَلْبٌ مؤثِّلُ
 هو الموت إِلَّا أنني أتَحَمَّلُ
 بركب إذا شاء والبروق تحمِّلُ
 إذا قلت هذا مَنهَلٌ عَزُّ مَنهَلُ
 ورأيتُ برقي نحوها القلبَ يَجِنِبُ
 أبى الله إمّا كلُّ بُغْدٍ فشاِبُ
 ولا يلفت البين المصمّم لافِتُ
 وإما دُئُو الدار منهم ففائِتُ
 غرابٌ بتفريق الأحبة يَنعَبُ
 وبأ رب حيّ البارِق المتهافتُ

(١) في الأصل: «... فيضها التصويب» وهكذا يتكسر الوزن، ولا تتلام القافية مع التي تلتها.

خذوا بدمي ذاك الوَيْسِقُ الْمُضَرِّجَا وروضا بَغِيضُ العاشقين تَارِجَا
 عفى الله عنه قَاتِلًا مَا تَحَرِّجَا تَمْشَى الرُّدَى فِي نَشْرِهِ وَتَدْرَجَا
 وفي كل شيءٍ لِلْمَنِيَّةِ مَذْهَبُ
 سَقَى الله عهدًا قَدْ تَقْلَصَ ظِلُّهُ حَيَا قَطْرِهِ يَحْيَى الرُّبَا مُسْتَهْلُهُ
 وعى به شخصًا كَرِيمًا أَجَلُهُ يُصِيحُ فَوَادِي تَارَةٍ وَيُوعِلُهُ
 وَيُلْمُهُ بِالذِّكْرِ طَوْرًا وَيُشْعَبُ
 رَمَانِي عَلَى قُرْبٍ بِشَرْخِ ذِكَايِهِ فَأَغَشْتُ جُفُونِي نَظْرَةً مِنْ ذِكَايِهِ
 وَغُصَّتْ بِأَدْنَى شُعْبَةٍ مِنْ سَمَانِهِ شِعَابِي وَجَاءَ^(١) الْبَحْرُ فِي غُلَوَانِهِ
 فَكُلُّ بِقَرَبٍ^(٢) رَذَعُ خَذِيهِ يَرْكَبُ
 أَلَمْ يَأْتِهِ أَنِّي رَكَنْتُ قَعُودَا وَأَجْمَعْتُ عَنْ وَقْرِ الْكَلَامِ قَعُودَا
 وَلَمْ أَعْتَصِرْ لِلذِّكْرِ بَعْدَكَ عُودَا وَأَزْهَقْنِي هَذَا الزَّمَانَ صُعُودَا
 فَرَنْعُ الَّذِي بَيْنَ الْجَوَانِحِ سَبَسَبُ
 عَلَى تِلْكَ مِنْ حَالٍ دَعَوْتُ سَمِيْعَا وَذَكَّرْتُ رَوْضًا بِالْعَقَابِ مَرِيْعَا
 وَتَمَلَّأَ الشَّعْبُ الْمَذْجُجِي جَمِيْعَا وَسَرَبًا بِأَكْنَافِ الرُّصَافَةِ رِيْعَا
 وَأَحْدَاقَ عَيْنٍ بِالْجَمَامِ تُقَلِّبُ
 وَلَمْ أَتَسَّ مِمَّشَانَا إِلَى الْقَصْرِ ذِي الثُّخُلِ بِحَيْثُ تَجَافَى الطُّودُ عَنْ دَمِيثِ سَهْلِ
 وَأَشْرَفُ لَا عَنْ عَظْمٍ قَدَرٍ وَلَا فَضْلِ وَلَكِنَّهُ لِلْمُلْكِ قَامَ عَلَى رِجْلِ
 يَقِيهِ تَبَارِيخُ الشَّمَالِ وَيَخْجُبُ
 فَكَمْ وَجِعٍ^(٣) يَنْتَابُهُ بِرَبِيبِيْسِهِ وَيَرْتَحِلُ الْفَتَى بِأَرْجَلِ عِيْسِهِ
 أَبِئْسَ أُمٌّ عَمَرُو فِي بَقَايَا دَرِيْسِهِ كَسَحَقِ الْيَمَانِي مُغْتَلِيهِ نَفِيْسِهِ
 فَرُقَعَتَهُ تُسَبِّي الْقُلُوبَ وَتُغْجِبُ
 وَيِيضَاءُ لِلْيَيْضِ الْبِهَالِيلِ تَعْتَزِي^(٤) وَتَعْتَزُّ بِالْبَانِ جَلَالَا وَتُثَنِّي
 سَوَى أَنْهَا بَعْدَ الصَّنِيعِ الْمُطَّرَزِ كَسَاهَا الْبَلَى وَالثُّكُلُ أَثْوَابَ مُغَوِّزِ
 يَبْكِي وَتَبْكِي لِلزَّائِرِينَ وَتُثَدِّبُ

(١) في الأصل: «وجاء» وهكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «قرب» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «توجع» وهكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «تعتز به».

وكم لك بالزُهرَاء من مُتَرَدِّدٍ ووقفه مُتَسْقِى المَجَامِعِ مُقْصِدِ
يسكن من خَفَقَ الجَوَانِحِ باليدِ وَيَهْتِكُ حُجْبَ النَّاصِرِ بنِ مُحَمَّدِ
ولا هَيْبَةً تُخْشَى هِنَالِكَ وَتُرْهَبُ

لنعم مقام الخاشع المُتَنَسِّكِ وكانت في محلِّ العَبْشِمِينَ المُمَلِّكِ
متى يورد النَّفْسَ العَزِيزَةَ يَسْفِكُ وَإِنْ يَسْمُ نَحْوَ الأَبْلَقِ الفَرْدِ يَمْلِكِ
وأي مَرَامٍ رَامَهُ يَتَصَعَّبُ

قصورَ كان المَاءُ يَعِشِقُ مَبْنَاهَا فَطَوْرًا يَرَى تَاجًا بِمَفْرِقِ أَعْلَاهَا
وطورًا يَرَى خَلْخَالَ أَسْوَقِ سُفْلَاهَا إِذَا زَلَّ وَهْنَا عَنْ ذَوَائِبِ يَهْرَاهَا
يقول هَوَى بَدْرًا أَوْ انْقَضَ كَوْكَبُ

أَتَاهَا عَلَى رَغَمِ الجِبَالِ الشَّوَاهِقِ وَكُلُّ مُنِيفٍ لِلنَّجْمِ مُرَاهِقِ
وكم دَفَعَتْ فِي الصُّدْرِ مِنْهُ بَعَانِقِ فَأَوْدَعَ فِي أَحْشَائِهَا وَالمَفَارِقِ
حَسَابًا بِأَنْفَاسِ الرِّيحِ يَذَرِبُ

هي الخُودُ مِنْ قَرْنٍ إِلَى قَدَمِ حُسْنَا تَنَاصَفَ أَقْصَاهَا جَمَالًا مَعَ الأَدْنَى
وَدَزَجَ كَأَفْلَاكِ^(١) مَبْنَى عَلَى مَبْنَى تَوَافَقْنَ فِي الإِتْقَانِ وَاخْتَلَفَ المَعْنَى
وَأَسْبَابِ هَذَا الحُسْنِ قَدْ تَتَشَعَّبُ

فَأَيْنَ الشُّمُوسُ الكَالِفَاتُ بِهَا لَيْلَا وَأَيْنَ العُصُونُ المَائِسَاتُ بِهَا مَيْلَا
وَأَيْنَ الظُّبَاءُ^(٢) السَّابِحَاتُ بِهَا ذَيْلَا وَأَيْنَ الثُّرَى رَجُلَا وَأَيْنَ الحِصَا خَيْلَا
فَوَا عَجِبَا لَوْ أَنَّ مِنْ يَتَعَجَّبُ

كَمْ احْتَضَنْتَ فِيهَا القِيَانُ المَزَاهِرَا وَكَمْ فَاوَحَتْ فِيهَا الرِّيَاضُ المَجَامِرَا
وَكَمْ سَاهَرَتْ فِيهَا الكَوَاكِبُ سَائِرَا وَكَمْ قَدْ أَجَابَ الطَّيْرُ فِيهَا المَزَامِرَا
عَظِيمٍ مِنَ الدُّنْيَا شِعَاعِ مُطَلَّبُ

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ يُقْضَى بِهَا التَّهْيُ وَالْأَمْرُ وَتُجْبَى إِلَى خَزَائِنِهَا البُرِّ وَالبَحْرُ
وَيُسْفَرُ مَخْفُورًا بِذِمَّتِهَا الفَخْرُ وَيُصْبِحُ مَخْتَوْمًا بِطَيْئَتِهَا الدَّهْرُ
وَأَيَّامُهُ تُغْزَى إِلَيْهَا وَتُنْسَبُ

(١) في الأصل: «كأفلاك» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «الظباء» وهكذا ينكسر الوزن.

ومالك عن ذات القيسي التواضح وناصحة تُغزى قديماً لناصح
 وذو أثرٍ على الدهر واضح يُخبر عن عهدٍ هنالك صالح
 ويغمُر ذكر الزاهبين ويخرب
 تلاقى عليه فيض نهرٍ وجدولي تَصْعَدُ من سفلي وأقبل من علي
 فهذا جنوبيّ وذلك شمالي^(١) وما اتفقا إلا على خير منزلي
 وإلا فإن الفضل منه مُجْرَبُ
 كأنهما في الطيب كانا تنافرا فسارا إلى وصل القضاء وسافرا
 ولما تلاقى السابقان تناظرا فقال وليّ الحق مهلاً تظافرا
 فكلكما عَذِبُ المجاجة طيبُ
 ألم يعلما أن اللجاج هو المقت وأن الذي لا يقبل النصف مُنْبَثُ
 وما منكما إلا له عندنا وقت فلما استبان الحق واتجه السُنْتُ
 تقشع من نور المودة غَيْهَبُ
 وإن لها بالعامرية لمظهرها ومُسْتَشْرِقاً يُلْهي العيون ومُنْظَرا
 وروضنا على شطي خضارة أخضرا وجوسق ملك قد علا وتجبّرا
 له نَرَّةٌ عند الكواكب تُطْلَبُ
 أغْيِرُهُ^(٢) في عُنفوان الموارد وأثبته في ملتقى كل واري
 وأبرزه للآزحجي المجاهد وكلّ فتى عن حُرمة الدين زايد
 حفيظته في صدره تَتْلَهُبُ
 تَقْدَمُ عن قصر الخلافة فرسخا وأضْحَرَ بالأرض الفضاء ليصرخا
 فحالته أرض الشُّرك فيها مُتَوَخَا كذلك من جاس الديار ودَوْخَا
 فردَعَتْهُ في القلب تسري وتزهب
 أولئك قوم قد مضوا وتصدّعوا قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودّعوا
 فهل لهم رِخْزٌ يُحَسُّ ويُسمع؟ تأمل فهذا ظاهر الأرض بَلْقَعُ
 إلا أنهم في بطنها حيث غُيِّبُوا^(٣)

(١) في الأصل: «شمال».

(٢) في الأصل: «غيره» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٣) في الأصل: «غُيِّب».

أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الْمَقَامَ عَلَى شَفَا وَأَنْ بِيَاضَ الصُّبْحِ لَيْسَ بِذِي خَفَا
وَكَمْ رَسَمَ دَارٍ لِلْأَجْنَةِ قَدْ عَفَا وَكَأَنَّ حَدِيثًا لِلْوَفودِ مُعَرَّفَا

فَأَصْبَحَ وَحِشَ الْمُتَنَدِي يُتَجَنَّبُ

وَلِلَّهِ فِي الدَّارَاتِ ذَاتِ الْمَصَانِعِ أَخْلَاءَ صِدْقٍ كَالنَّجُومِ الطُّوَالِعِ
أُشِيعَ بَيْنَهُمْ كُلُّ أَبِيضٍ نَاصِعٍ وَأُزْجِعَ حَتَّى لَسْتُ يَوْمًا بِرَاجِعِ

فِيَالْبَيْتَنِي فِي قِسْمَتِي أَتَهَيَّبُ

أَقْرَظِي لَمْ يُثْنِنِي عَنْكَ سُلُوانُ وَلَا بِمِثْلِ إِخْوَانِي بِمَغْنَاكَ إِخْوَانُ
وَإِنِّي إِذَا لَمْ أُنَسِّ مَاءَكَ ظِمَّانُ وَلَكِنْ عَدَانِي عَنْكَ أَمْرٌ لَهُ شَانُ

وَمَوْطِنِي آثَارُ تُعَدُّ وَتُكْتَبُ

لَكَ الْحَقُّ وَالْفَضْلُ الَّذِي لَيْسَ يُدْفَعُ وَأَنْتَ لَشَمْسِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ مَطْلَعُ
وَلَوْلَاكَ كَانَ الْعِلْمُ يُطَوَّى وَيُرْفَعُ وَكُلُّ الثَّقَى وَالْهُدَى وَالْخَيْرِ أَجْمَعُ

إِلَيْكَ تَنَاهَى وَالْحَسُودُ مُعَذَّبُ

أَلَمْ تَكْ خُصَّتْ بِاخْتِبَارِ الْخَلَائِفِ وَدَانَتْ لَهُمْ فِيهَا مَلُوكُ الطُّوَائِفِ
وَعَضَّ ثِقَافَ الْمُلْكِ كُلِّ مُخَالَفِ بِكُلِّ حَسَامٍ مُزْهَفِ الْحَدِّ رَاعِفِ

بِهِ تَحَقُّقِنِ الْأَجَالَ طَوْرًا وَتُسْكَبُ

إِلَى مُلْكُهَا انْقَادَ الْمُلُوكِ وَسَلَّمُوا وَكَعَبَتْهَا نَدَا الْوَفُودِ وَيَتَمُّوا
وَفِيهَا اسْتِفَادُوا شَرْحَهُمْ وَتَعَلَّمُوا وَعَاذُوا بِهَا مِنْ دَهْرِهِمْ وَتَحَرَّمُوا

فَنَكَبَ عَنْهُمْ صَرْفُهُ الْمُتَسَحِّبُ

عَلَوَتْ فَمَا فِي الْحُسْنِ فَوْقَكَ مُرْتَقَى هَوَاؤُكَ مَخْتَارٌ وَتُزْيِكُ مُنْتَقَى
وَجَسْرُكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ مُلْتَقَى وَبَيْتُكَ مَرْبُوعُ الْقَوَاعِدِ بِالْثَقَى

إِلَى فَضْلِهِ لَاكِبَابُ تُنْضَى وَتُضْرَبُ

تَوَلَّى خِيَارَ التَّابِعِينَ بَقَاءَهُ وَخَطَّوْا بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي فَنَاءَهُ
وَمَدُّوا طَوِيلًا صَيِّتَهُ وَثَنَاءَهُ^(١) فَلَا زَالَ مَخْلُوعٌ عَلَيْهِ سَنَاءَهُ^(٢)

وَلَا زَالَ سَغْيُ الْكَائِدِينَ يُخَيَّبُ

(١) فِي الْأَصْلِ: «وَتَنَاءَهُ».

(٢) فِي الْأَصْلِ: «سَنَاءَهُ».

وبالغ فيه كل أروع أضيد طويل المعالي والمكارم واليد
وشادوا وجادوا سيداً بعد سيد فبادوا جميعاً عن صنيع مُخلد
يقوم عليه الثناء ويخطب
مصايحه مثل النجوم الشوابك تمزق أثواب النجوم السحوالك
وتحفظه من كل لاءٍ وسالك أجادل تنقض انقضاض التيازك
فإبشارهم بالطب طيبة تُنهَب
أجدك لم تشهد بها ليلة القدر وقد جاش برُ الناس منه إلى بحر
وقد أُسْرِجَتْ فيه جبال من الزهر فلو أن ذلك الثور يُقبس من فجر
لأوشك نور الفجر يَفنى وَيَنْصَب
كَانَ لِلثَّرَيَاتِ^(١) أطواذ نرجس^(٢) ذوائبه تهفُو بأدنى تنفُس
وطيب دخان الثد من كل مُعطس وأنفاسه في كل جسم وملبس
وأذياله فوق الكواكب تُسحب
إلى أن تبدت راية الفجر تزحف وقد قضى منهما^(٣) الذي لا يسوف
تولوا وأزهار المصاييح تُقطف وأبصارها صوتاً تُغض وتُطرف
كما تُنصل الأرماح ثم تُركب
سلام على غيابها وحضورها سلام على أوطانها وقصورها
سلام على صخرائها وقبورها ولا زال سورُ الله من دون سورها
فحسن دفاع الله أحمى وأزهب
وفي ظهرها المعشوق كل مرفع وفي بطنها الممشوق كل مُشفع
متى تاته شكوى الظلّامة تُرفع وكل بعيد المُستغاث مُدفع
من الله في تلك المواطن يُقرب
وكم كربة ملء الجوانح والقلب طرقت وقد نام المواسون من صخب
بروعتها قبر الوالي لي وهب وناديت في الثرب المُقدس يا رب
فأبت بما يهوى الفؤاد ويرغب

(١) في الأصل: «للثريات». (٢) في الأصل: «من نرجس».

(٣) كلمة «منهما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معاً.

فيا صُخبي حان قَبْلَكَ مصرعي وكنتَ على عهد الوفا والرُضا معي
فحطْ بضاحي ذلك السُرى مَضْجعي ودَرنِي فجار القوم غير مُرَوِّعٍ
فَعندهم للجار أهلٌ ومَرْحَبٌ

رعى الله مَنْ يرعى العهود على الثوى ويُظْهر بالقول المُحِبُّر ما نوى
ولَيْتَه من مُسْتَحْكَم الوُدِّ والهوى يرى كلُّ وادٍ غير واديه مُجْتَوًى
وأهدى سبيله الذي يُتَجَنَّبُ

كتابتُه: وكتابة ذي الوزارتين، رحمه الله، كالشمس شهرة، والبحر والقَطْر
كثرة؛ ونحن ثبت له شيئاً من ذلك لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من بيانه. كتب
يراجع الوزير أبا بكر بن عبد العزيز، من رسالة كتب بها إليه مع حاج يضرب
القرعة:

أطال الله بقاء وليي وإمامي الذي له إكباري وإعظامي، وفي سلكه أئسامي
وانتظامي، وإلى ملكه انتسابي واغترابي، وبوَدِّه افتخاري وانْتِزائي، للفضائل مجيباً
ومبدئاً، وللمحامد مشتملاً ومُرتدياً، وبالغرائب مُتَحَفّاً ومُهدئاً، ولا زال الرُخاء وأزل،
وجدٌ من المصافاة وهزل، وسَحَتْ من المراعاة وجَزُل. وصل كتابه صحبة عَرَاف
اليمامة، وفخر نَجْد وتِهامة، يُقَرِّظه ويرزُكيه، ويصفُّه بالخَبِّ يفسره ويُجليه، والخفيُّ
يظهره ويبيديه. ولعله رائد، لابن أبي صائد، أو هاد للمسيح الدجال قائد. أشهد
شهادة إنصاف، أن عنده لِعُضْباً صاف، ولو كان هناك ناظر صادق طاف، والله خفايا
الأنطاف، لقلْتُ هو بادٍ غير خاف، من بين كل ناعِلٍ وحاف. وسأخبرُك، أيُّدك الله،
بما اتَّفَق، وكيف طار ونَعَق، وتومُد الكرامة وارتَفَق، طَرَّقَ له وصفُك ونَعَتُك، وثَقَّفه
بَرِّيك ونحتُك، ورفع له للعيون جَدُّك وبختُك، وامتدت نحوه التواظر، واستشرفه الغائب
والحاضر، وتسابق إليه التابه والخامل، وازدحم عليه العاقل والعامل. هذا يلتمس
مزيداً، وذاك يَبْتَغِي حظاً جديداً، وهذا يطلب ثَقْلِيداً، وذلك يَسْئَلُ إلى مغاليقه إقليداً.
فكلما حَزَب، وغَلَ وجلب، حَلَب واستَدَر، وتلقاه وإن ساء الغيب بما سَر. وكنت
واتعْتُ جملة من الأعيان، ووافقت ثُلَّة من جِلَّة الإخوان، على تَمْشِيَةِ أمره، وتَوْشِيَةِ
ذِكْرِهِ؛ فلَمَّا صَدَقَت تلك الفِرقة، واستوت بهم تلك الفِرقة، أحضرناه للسَّبار، وأقعدناه
للثُّقد والاختيار، وأردنا أن نقف على جلایا تلك الأخبار، فأحضرنا طَحْنًا ونَطْعًا،
وسَرینا عنه من الوُخْشَةِ قَطْعًا، وقلنا له خذ عفوك، ولا تورِدنا إلا صَفوك، ولا
نصاينَا في الكريهة التي نراها، والحادثة تُسْتَفْظَع ذكراها؛ فما عندنا جهل، وما منا إلا
مُحْتَنِك كَهْل، لا يتكاده حَزَن ولا يستخفُّه سهل، فسكن جائشُ قُورِهِ، وضرب بلحيته
على زُورِهِ، ثم صعدَ فينا النظر وصُوب، واستهلَّ صارخًا وتَوَبَّ، وتحرَّج من الكذب

وَتَحَوُّبٍ، وقال: لست للعشرة خابطاً، ولا للطرف غامضاً، ولا عن الصدق إذا صدع حائداً، ولا للغدر ممن وقع منه ذائداً، ولا بمعجزات النبوة لاعباً، ولا لصريح الجذ مداعباً، ولا تطيبي مسألة ولا خلوان، ولا تستفزي نضائد كثيرة ولا ألوان. إنما هو رَسَمٌ وَحْطٌ، ورفع وَحْطٌ، ونَحَسٌ وسعدٌ، ونقد ووعد، ويوم وغد. فقلنا له الآن صَحَّتِ الرفادة، وأيْنَعَتِ الإرادة. ثم نظر إلينا نظر المستقل، واجتذب النطع اجتذاب المُدِلِّ، ونثّل الطحن وهاله، وأداره حتى استدار هالهُ، ثم قال: يا أيها الملا هذا المبتدأ، فأيكُم يبدأ. فرمقني القوم بأبصارهم وفَعَرُوا وكَبَرُوا، وليتهم عند ذلك صَفَرُوا، فقلت: يا قوم قد عَضَضْتُ على ناجِذي جِلْمًا، وقتلت شأني كُلَّهُ عِلْمًا، وعقدت بيني وبين غدٍ سَلَمًا، فكيف استَكْشِف عما أعرف، وأسبقهم عما لا يستبهم. على الرحمن توكلت، وعلى الشيطان تَرَكْتُ، ومن كَسِبي أكلت، وفي مَبْرَك السَّلامَةِ بَرَكْتُ، وجسيمات الأمور تَرَكْتُني وتَرَكْتُ، والنفس المطمئنة رجوت، ولعلني قد نجوت، وأصبت فيما نَحَوْتُ. فلحظتني عند هذه المقالة عينهُ، وطواني صدقهُ ومَينهُ. ثم صار القوم دوني أنجيه، وأعدُّ له كل تَوْرِيَةٍ وتَعْمِيَةٍ. فقال قائل منهم: تعالوا نشترك في ضمير، ونزّيه بهذا الطاغية ابن رُذْمِير، ففي كل قلب منه نَدَبٌ كبير، والسؤال عنه دين وأدب، فإن أصابه استرحنا من النُصَب والشُّخوص، وجِرنَا من العموم إلى الخصوص، وإن أخطأه فهو لما سواه أخطأ، ولما يدُعيه ويريدُه منه أبطأ. فقالوا: نغم ما عرضت، وأحسِن بما رويت وفَرَضت. فلما رأيناه يُثْقَل التَّعْرِيض، ويُحْكَم التقرير والتعويض، قلنا له: حَقَّقْ ضميرك كل التحقيق، وَضَعْ مِسْبَحَتَكَ في الدقيق. فابتدر ما أَمَرَ، وحَسَرَ عن ذِراعِهِ وشَمَرَ، ومرت أصبغُه في خطه مَرَّ الذَّرِّ المتهالك، ووقعت وَفَع القطر المُتَدَارِك، لا تمس الطَّحْنَ إلَّا تحليلاً، وَغَمَزَا كالرَّهْم قليلاً، فطورًا يستقيم سبيلًا، وتارة يستدير إكليلاً، وآونة يأتي بالسما ونجومها قَبِيلًا. فكان هنالك لنعش من بنات، وللثريا من إخوات، وطير قابضات، وصافات وأسراب ناشرات خافقات. فلما استوفى عُدَدَهُ، وبلغ أَمَدَهُ، وختم طرائقه وقَدَدَهُ، وأعطى الأصول وفروعها، وتَدَبَّر تفاريقها وجموعها، فجمع وتقَبَّض، وفَتَرَ ثم انْتَقَض، وصعد ذهنه وتَسَافَه، وأخذ الطَّحْنَ فَسَافَه؛ وزفر وشهق، وعَشَّر ونهق، وألصق بظهره حشاه، وكتم الرُّبُو ثم أفشاه، وقال: هذا الذي كنت أخشاه، غَمِيتُم الأثر، وكتمتم حقيقة الخبر، وعَثَرْتُم خاطي فما عَثَر، ونثرتم نظام الحدس فما انثر. سألتُم عن رُوح شارد، وشيطان مارد، وصادر مع اللُّحظَات وارد، لا يُوطِن دَارًا، ولا يَأْوِي قَرَارًا، ولا يُطْعِم النَّوْم إلَّا غِرَارًا^(١). نعم أمرُه عندي مستقر، هو زَنْدِيق مُسْتَر؛ وشهاب من شُهَب الكفر مستمر.

(١) الغرار: السهم. لسان العرب (غرر).

ثم رجع البصر واختصر، وعاد إلى الحساب يتقرّاه، والصواب يتحرّاه، وتتبع أديم الطحن فقرّاه، وقال: أعوذ بالله من شرّ ما أراه. إلى كم أرى في غلاء وبلاء؟ كأي لست ذا أمرار وأخلاء، تالله لو كانت قرعة رفعة وعلاء؛ ما غاب عني اللحياني ذو السبلة، ولواجهنا البياض ذو الفرّة المستقلة مواجهة حسان لجبلة. النّحس على هذه الروح قد رُتب؛ وكُتب عليه من الشقاء ما كُتب، وأخرج الثّصرة الداخلة من العتب. ثم أشار إلى الحُمرة، وكأنما وضع يده على جُمرة، وقال: كوسج نعيّ، وسِنّاط الوجه شقيّ، وثقاف وطريق، وجماعة وتفريق، وقبض خارج، ومكوس مارج. ثم وضع عمامته، ولوّب هامته، وأمال وجهه فجرا طلقا، ثم عرضه مَجْتَا مُطَرَقًا، وعقد أنامله عضًا، وأذمى صدره دَعَا ورَضًا، وقطع بصره لمحا وعضًا، وتكفًا وتقلّع، وأذلّع لسانه فاندلّع. فقلنا: شرّ تأبطه، أو شيطان يتخبّطه، أو قرين يستنزله ويختله، أو روى في الذرة والغاب يفتله. ثم تجاحظ وتحاذر، وتضائل وتنازر، وقال: والذي أحيا عازر، وأخرج إبراهيم من آزر، وملك عنان الريح وأذعن له كل شيء بالسجود والتسبيح، إنه لمن عبّاد المسيح، هيهات هيهات، لا أضغضغ بظنّ، ولا يُقنّع لي بَشَرٌ، ولا أنازع من هذه الفنون في قرن. قد ركبت أثباج البحار، وقطعت بياط المفاوز والقفار. وشافهني الحرّم والبيت، وصافحني الحجر الكُميت، وأخرمت ولّبيت، وطُفت ووفيت، وززت المصطفى ﷺ، وتحفّيت. ثم ملّت على عدنّ، وانحدرت عن اليمن، واستسقيت كل راعدة، وأتيت كل قاعدة؛ ورأيت صاحب الجمل قس بن ساعدة، ووردت عكاظ، وصدقت الحقاظ، وقذت العصية ينسج، ومسخت الشامات بأخمس ويسع، ووقفت حيث وقف الحكمّان، وشهدت زحف الثركمان، وكيف تصاولت القُروم، وغلبت الرُّوم، وهزم المدبر المقبل، واكتسحت الجحاش الإبل. فقلنا: الله أنت، لقد جليت عن نفسك، وأربى يومك على أمسك، ولقد صدق مطّريك، ووفت صحيفة تزكيك، وما كانت فراستنا لتخبّيك فيك. فماذا تستقري من اللوح، وترى في ذلك الروح؟ بعيشك ألا ما أمتعتنا بالإفشاء والبّوح! فرجع في البحث أدراجه، وطالع كواكبه وأبراجه، وظلّ على مادة الطحن يرغم ويرمق، ويفثق ويرثق. ثم جعل يبتسم، وقال: أحلف بالله وأقسم، لقد استقام النّسم، وإنه لكما أزسم وأيسم، وإني لا أجده إلا لاغبًا مَبْهُورًا، ومنكودًا مَقْهُورًا، ولن يلبث إلا شهورًا. قد أقلّ طالع جدّه، وقلّ جدّه، وأني عليه نقي جدّه، وصي لم يملك أبوه وملك جدّه، فقلنا: صرحت وأوضحت، وشهرت هذا المسثور وفضحت، وإن ساعدك قدر، وكان لك عن هذا الورود صدر، فحظك مُبتدر، وخطك صاف لا يشوبه كدر. فقال: هذا أمر قد آن أو كان، وسيأتيكم الخبر الآن، فانفصلنا وأضعينا الأذان، وجعلنا نتلقّى الرُكبان، فلم يرعنا إلا التعمى الناجمة، والبُشرى الهاجمة، بما

بان، فأدھنا في شأنه، ولم يكن يعاوده خوف طغيانه، فإذا الخبر لم يَخْطُ صِماخه، وكأنما كان عودًا وافى مناخه، أو طائرًا أم أفراخه. فلم يَتَشَبَّ أن أقبل يَضُمُّد نحونا أي صُحْد، ويتعرضنا على عَند، تعرض الجوزاء للنجوم؛ وينقض انقضا ض نيازك النجوم، وقال: ألم يَأْن أن تدينوا لي بالإكبار، وتعلموا أني من الجَهاذة الكِبار؟ فقلنا: منك الإسْجَاح، فقد مَلَكَت ومنك ولك النجَاح، آية سَلَكَت. فأطَرَق زَهْوَا، وأعرض عنا لهوَا، وقال: اعلّموا أن القُرعة لو طوت أسرارها، ومنعتني أخبارها، لمَزُقْتُ صِدارها، ودَزَوْتُ غُبارها، ولكان لي عنها أوسع مُتَدَح، وأنجد زناد يُقَدَح، أين أنتم عن رَضدي الأخلاق، وعِلْمي بالأفلاك؟ أنا في مَرَج الموج، وأوج الأوج، والمتفرد بعلم الفَرْد والزُوج، ومُسْتَرط السُرطان، ومُسْتَدِير الدُّبَران، وبائع المُشْتري بالميزان، والقاطض بيوم الحساب والعمل، على روق الثور وذنُب الحَمَل، أَعْقِد نَضَل العقرب، وأَقِيد الأبعد والأقرب، لَصِيد أوابِدها بالدقائق والدَّرَج، حتى اضْطَر سارحها إلى الحَرَج، وأضْبِحُها في أضيق مُنْعَرَج، أنا استذكرت بالأُنْبار، قُرْعة الإقبال وتَرْعة الإدْبار، وطالعت إقليدس فاستنبطته، وصارعتُ المَجْسطِي فَجَسْطنته، وارْتَمَطْتُ إلى الأَرْتِمَاطِيقي، وأَطَقْتُ الألوْطِيقي، ولحظتُ التحليل بحلّ ما عقده، وانْتَضَيْتُهُ ما مَطَّل به الجَهاذة فنَقَّده. وعَينْتُ رُحْل، حين استقلّ على بعيره ورَحْل، وضايقتُهُ في ساحتِه، وحصرتُهُ في مِساحتِه، وحضرت قِرانِه، وشَهِدت تقدُّمِه ومُراتِه، وشاهدته شَفْرًا بِشَفْر، وناجاني برقًا يُعَدّ في الكُفْر، وتخريبه لِمُلْك الصُّفْر، وتفريقه لبلاد اللُّطِينَة، وإنجاز الوعد في فتح قُسْطَنْطِينَة. أنا عقدت رشا الدلو، ودَزَوْتُ غُبار الحُوت للِلْفُلُو. أنا اقتدحت سَقَط الجَوْزَمَر، فلاح بعد خفائه وظَهَرَ. أنا استَفْزْتُ الهلال من مكان سَرَرِه، وأخذت عليه ثَنايا سَفَرِه، وقَدَدْتُ قَلامتِه من ظَفَرِه، ودللت طير الصَّايِر على شجرِه، فجَنَيْتُ المُرّ من ثمرِه، أنا طرقت الزُّهرة في خِذْرها، وصافحتها من الفكرة بيد لم تَذَرها. أنا أذْكَيت على ذكاء فظَلْتُ تَلْتَهَب، وأخَرَزْتُها من الوهم شَطْطًا أَجْذَبها به فتَنجذب. أنا أُنْعِي للمُعْتَبِرِين حَيَاتُها، فيشبهون الحَسَنَة ويتَحَرُّون أوقَاتُها، حتى تَنْتَشِر بعد الطَّي حَيَاتُها، وتستَقِيل من العِثار آياتُها. أنا انتَضَيْت للشباب شَرَحًا، وأضرمت للبريخ عقارًا ومَرَحًا، حتى أَتَغَانِي بملاحم حُرُوبِه، وحوادث طلوعه وغُرُوبِه، وتَلْمِظُه إلى التَّجِيع، وولوغه في مُهْجَة البطل السُّجِيع. أنا أبرى من اللِّمَم، وأشفى من الصُّمَم، وأنقل العَطَس إلى الشَّمَم. فقلنا: أما الأولى، فقد سلّمنا لك جميعها، وأما هذه الثلاثة فلن تستطيعها. قال: قَلِم تعجزون ولا تَسْتَخْزُون؟ فقلنا: مَنْ كان له علاج فَيَنْفُسِه يبدَأ، ونَعَب بغيره. ولسنا نريدك، ولكن تهتَزْ بِدُك. قال: أما من بينهم رَوي، وألقى في رُوعه ما ألقى في رُوعي، فَمَثَله كالصَّارم، حُسْنُه في فِرْنَدِه، لا غِمدِه، وجمالُه في حَدِّه لا في حَدِّه،

والمرء كما قيل بأصغريه، لا بمنخريه، والشأن في الحيزوم، لا في الخيشوم، وفي الذكرين، لا في الأثنيين، وبعد، فهو كلام ظاهره إجمال، وباطنه احتمال، وسأنبئكم بغزارة سبله، وفجر ليله. أما الأقطس فيدلي الضغنة، ويتزوج في آل جفنة. فإن الله أنتم، جاء الولد أنتم، وإن نام عزق خاله، بقي الولد بحاله. وأما الأصم، فيخرج عن الغلام، وبلا فال، ويطلب في بني السميعة بركة الاسميعة والفال، فإن الله أراد، ظفر بالمراد، وجاء ابنه أسنع من قراد^(١). فأحس من بعض الحاضرين تمريضاً، وعابن طرّاً غضيضاً، فتعكر وتشدر، وطوف وحذر، وقال صاحب الشريعة، سمّاهم بني السميعة، قوموا يا بني اللكيعة، فقد قطعتم رزقي، وأذيتم طرقي، وأذلتهم ضربتي وطرقي، وسدذتم طوقي، وأخذتم على أفقي غربي وشرقي. دزوني للتي هي لليلة تخني، ثم الوجد يعني، لو شرب نواديه إثر تجني. ثم نجا بعزمته سميلاً، وأرسل بنات نغش ذيلاً، وقد أفاد بما استصحب من ميامنك ليلاً، كذبني أيدك الله عند نواه، ولم يطلعني طلع ما نواه؛ وما ذاك إلا لمطمع نواه، ومغثم هواه. فزفعت لي بعد وداعه نخرة، وزمتني بشخصه فجوة، فقلت: ما أراك إلا غائل، أورثت عنك الحبائل. فسراك سرى قين، وحديثك مين، ألم تعبر دجنيلاً، ويثمت سهيلاً؟ فقال: طربت إلى الأصفية الصغار، وشاقني الشوق بين الطواغيت والأضفار. فقلت له: هلم إلى خط نعيده، وحظ نستفيده. فقال: لولا أن تقولوا الساعة متى، وتطالبوني بإحياء الموتى، لما أجمعت إلى الغرب غروباً، ولأريتكم من الحذق ضرورياً. ثم قال: إن لي بالحاضرة أفرأخاً، وأما استصرخت عليها استصراخاً، وانسلخت منها انسلاخاً، وأعيا علي أمره فلم أعلم له ظعنًا ولا مناخاً. فلبثت كذلك أياماً، ثم اعتم علي أمره اعتيماً، ولم أعرف له إنجاذاً ولا اهتماماً، فإذا به وقد أضمرت عنه بأساً، ولم أطمع فيه رأساً، قد أشب لي شباباً، ولمعت صلعتة شهاباً، تكتنفه ضرة، ويثمنه قوصرة^(٢)، وتؤود يسراه جرة. فقلت له: قاتلك الله، ما أشد فقداتك إلا فقدتك، وما أذكر وجداتك إلا وجدتك، أين أفرأحك، والألم التي جذبها استصراخك؟ فقال: الصعلوك، لو أعلم مذاهبه، تحرم مناهبه، وتخدم مراهبه. دزني وعلاجي، أحاجي وأداجي، وأعابن وأناجي، وأنقلب في بركة دعاء الباجي. فقلت له: مالك وللميت، ورحم الله من سميت. قال: لما أذن الله فالتأمت الشيمة، وتمزقت عني المشيمة، هممت بالشرق، ولففت في

(١) منه المثل: «أسنع من قراد»، وذلك أنه يسمع صوت أخفاف الإبل من مسيرة يوم، فيتحرك لها. مجمع الأمثال (ج ١ ص ٣٤٩، رقم المثل ٨٧٨).

(٢) القوصرة: وعاء للثغر. محيط المحيط (قوصر).

الخزق، وفارقت من الضيق مُنتداه، وأفلتني يداه؛ فحُكّني السعد بثمر المدينة، وسقاني من ماء البلدة الأمانة، وعوذني بدعوات متينة. فيها أنا كما ترى أتهادى وأجذب، وأستخلي وأستغذب. فقلنا: لعمرك إنه لفضل عيم، لولا الضميم، وإنها لمثقة، لولا العقبة، وأثرة ملتمة، لولا العطسة، فقال: دعنا من زخاريفك، وأغصض من عنان تصاريفك. البازل^(١) لا يكون إلا ذميماً، والليث لا يوجد إلا شميماً. ثم قام وحمل، وابتدر وارتجل: [مجزوء الخفيف]

عِشْنَا كُلَّهُ خُدَّعْ	فَأَثْرُكَ اللُّومَ عَنْكَ وَدَّعْ
أَنَا كَاللِّيثِ وَاللِّيو	ث بِأَرْسَائِهَا تَرُغْ
وَلَهَا الْأَوْجُهَ السُّيـ	مَهُ مَنْ يَلْقَاهَا يُرِغْ
أَيُّ حَسَنٍ لِمَازَن	بِيدِ الدُّلِّ يُخْتَرِغْ؟
أَنَا كَالسَّيْفِ حَدُّهُ	لَا يَبَالِي بِمَا وَقَعَ
إِنَّمَا الْحُسْنُ لِمَهَا	ة وَلِلظُّبِيِّ يَا لَكِغْ

فقلت: تَبَّأ لك سائر اليوم، إنك لتريش وتبري، وتُقد وتفري، وتحاسن وتُقابح، وتُهاش وتُنابح، وتُحب وتُأمل، وتُحسن وتُغلغل، وتُشاعر وتُراجز، وتُناطح وتُناجز. وأنت على هذا كله مُصِرٌّ، ما جزاؤك إلا ربح فيها صِرٌّ، فما هو إلا أن غفلت عنه لمحّة طَرْف، أو نفحة عَرْف، ثم التفت وإذا به قد أفلس، وكأنما كان برزقا خُلِس، ولم أدر أقام أو جلس.

ومحاسنه القَطَر الذي لا يُعدُّ، والأمر الذي يأخذه الحدُّ. وكفى بهذه الرسالة دليلاً على جلاله مقداره، وتدقيق بحاره وفَحَّاره؛ لما اشتملت عليه من بلاغة وبيان، وبساط حال أنت على خبره بعيان، وعلوم ذات افتنان، خلد الله عليه الرحمة، وضاعف له المنة والنعمة.

مولده: بأوائل ربيع الثاني عام خمسة وستين وأربعمائة^(٢).

وفاته: من خط الحافظ المحدث أبي القاسم بن بشكوال، رحمه الله: كان^(٣) ممن أصيب أيام الهَرَج بقرطبة، فعظم المصاب به، الشيخ الأجل، ذو الوزارتين، السيد الكامل، الشهير الأثير، الأديب، اللغوي، السري، الكاتب البليغ، معجزة زمانه

(١) البازل: ما يزل نابه من الإبل في السنة التاسعة. محيط المحيط (بزل).

(٢) قال في معجم الصدف (ص ١٥٤): «مولده سنة خمس، وقيل: سنة ثلاث وستين وأربعمائة».

(٣) هذا النص غير وارد في الصلة. وجاء في الصلة بعض ما ذكر هنا.

وسابق أقرانه، ذو المحاسن الجمّة، الجليّة الباهرة، والأدوات الرفيعة الزكية، الطاهرة الكاملة، المُجمّع على تناهي نباهته، وحَمْد خصاله وفصاحته، من لا يُشَقُّ غباره، ولا تلحق آثاره، معجزة زمانه في صناعة النثر والنظم، أبو عبد الله بن أبي الخصال، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونَصَّر وجهه. أُلْفِي مقتولاً قرب باب داره بالمدينة، وقد سلب ما كان عليه، بعد نهب داره، واستئصال حاله، وذهاب ماله، وذلك يوم السبت الثاني عشر من شهر ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة. فاحتمل إلى الرُبُض الشرقي بحومة الدرب، فغُسِّل هنالك وكُفِّن، ودفن بمقبرة ابن عباس عصر يوم الأحد بعده، ونعي إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة. فكثرت التفجّع لفَقْدِهِ، والتأسف على مصاب مثله، وأجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علماً وحلمًا، وفهناً ومعرفة، وذكاء وحكمة وبقظة، وجلالة ونباهة، وتفنناً في العلوم. وكان له، رحمه الله، اهتمام بها، وتقدم في معرفتها وإتقانها. وكان، رحمه الله، صاحب لغة وتاريخ وحديث، وخبر وسير، ومعرفة برجال الحديث مضطلعاً بها، ومعرفة بوقائع العرب وأيام الناس، وبالنثر والنظم. وكان جَزَلَ القول، عذب اللفظ، حلو الكلام، عذب الفكاهة، فصيح اللسان، بارع الخط حُسَيْنَه ومُتَقَنَه. كان في ذلك كله واحد عصره، ونسيج وحده، يُسَلَّم إليه في ذلك كله، مع جمال منظره، وحسن خلقه، وكرم فعالة، ومشاركته لإخوانه. وكان مع ذلك كله جميل التواضع، حسن المعاشرة لأهل العلم، مسارعاً لمهماتهم، نهاضاً بتكليفهم، حافظاً لعهدهم، مكرماً لثبائهم، واسع الصدر، حسن المجالسة والمحادثة، كثير المذاكرة، جَمُّ الإفادة. له تصانيف جليّة نبية، ظهر فيها علمه وفهمه، أخذها الناس عنه مع سائر ما كان يحمله ويتقنه، عن أشياخه الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، وقرأ عليهم.

وقال غيره: قتل بدرب الفرعوني بقرب رَحْبة أبان، بداخل مدينة قرطبة، قرب باب عبد الجبار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة، يوم قيام ابن حَمْدِين، واقتتاله مع يحيى بن علي بن غانية المُسَوْفِي المُلْتَم المرابطي يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة عام أربعين وخمسمائة. قتله بِرَزَز المصامدة رجالة أهل دولة اللثام لِحُسْن ملبسه، ولم يعرفوه، وقتلوا معه ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود، وكان أنكحه ابنته، فقتلا معاً. وكان محمد خيرة الشيوخ، وعبد الله خيرة الأحداث، رحمهما الله تعالى.

محمد بن مُقْضِل بن مُهَيْب اللخمي

يكنى أبا بكر، من أهل ثلب من القلّيا.

حاله: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: كان منقبضاً عن الناس، أديباً، شاعراً، خمس عشرينيات الفازاري، رحمه الله تعالى. وذكره صاحب الذيل، وقال لي شيخنا أبو البركات، وهو جدّه، أبو أبيه، ما معناه: كان شريفاً، عالي الهمة، عظيم الوقار، ألوفاً، صموتا، نحيف الجسم، آدم اللون، خفيف العارض، مُقَطَّب الوجه، دائم العبوس، شامخ الأنف، إلّا أنه كان رجلاً عالماً راسخاً، عظيم النزاهة، حافظاً للمروءة، شهير الذكر، خطيباً مضيقاً، مهيباً كشهرة، قديم الرياسة، يُعَضَّد حديثه قديمه. واستقرّ بالمريّة، لما تغلب العدو على بلد سلفه. ولما توفي شيخ المشايخ: أبو إسحاق بن الحجاج، تنافس الناس من البلدين، وغيرهم، في خطبة بنته. قال شيخنا أبو البركات: ومن خطّه نقلت، وكان ابن مهيب واحداً منهم في الإلحاح بالخطبة، متقدماً في حلفتهم، بجيوش الأشعار. ورام غلبته ذوو اليسار، من حيث كان بحمراء جيش الإعرار، فأذلّهم بالمقابلة في عُقر الدار، فلم يراجعوا من الغنيمة إلّا بالفرار. قلت: وجلب في هذا المعنى شعراً كثيراً، ناسب الغرض. ونال من المُتَغَلِّب على المريّة، على عهده، حُظوة، فاستظهر به تارة على معقل مَرَّشانة، وتارة على الرسالة إلى الحضرة الحفصية بتونس. ولما آب من سفره إليها، سعى به لديه بما أوجب أن يحجّر عليه التصرف، وسجنه بمنزله. فلما قصد المريّة الغالب بالله، مُسْتَخْلِصاً إياها من يد الرئيس أبي عبد الله بن الرُّمَيْمي، ونزل بمدينتها، وحاصر قَصَبَتِها، وقع اختيار الحاصر والمحصور على تعيين ابن مهيب، بمحاولة الأمر، وعقد الصلح، رضى بدينه وأمانته، فعقد الصلح بينهما على أن يسلم ابن الرميقي القصة، ويُعان على ركوب البحر بماله وأهله وولده، فتأتى ذلك واكتسب عند الغالب بالله، ما شاء من عِزَّةٍ وَتَجَلَّةٍ.

وقفني شيخنا أبو البركات على ظهير سلطاني، صدر عن الأمير الغالب بالله، يدل على جلاله قدره، نصّه:

هذا ظهير كريم، أظهر العناية الحافلة لمُسْتَوْحِيها ومُسْتَحِقِّها، وأجراه من الرعاية الكاملة على الحُبِّ طرُقها. أمر بإحكام أحكامه، والتزام العمل بفصوله وأقسامه، الأمير أبو^(١) عبد الله محمد بن يوسف بن نُصْر نُصْر الله أعلامه، وأدام لإقامة قِسْط العدل أيامه، لوليّه العليّ المكانة، وصفيه المليء بأثرتي المعرفة

(١) كلمة «أبو» ساقطة في الأصل. وقد حكم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر غرناطة من سنة ٦٣٥ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ. اللوحة البدرية (ص ٤٢).

والديانة، الحرى بما اختصه، أيده الله، من الحفاظ لمرتبته السامية والصيانة. للشيخ الفقيه، الجليل، العالم، الأوحد، العلم، الأتقى، الأزهر، الفاضل، الخطيب الأرفع، المحدث الثقة، الراوية، الصالح، السني، الحافظ، الحافل، الماجد، السري، الطاهر، المكرم، المبرور، الكامل، أبي بكر ابن الشيخ الوزير الأجل، الفقيه، الحبيب، الأصل، الأمجد، المكرم، المبرور، الأفضل، المرحوم، أبي عمرو بن مهيب، أدام الله عزه جانبه، ووصل بالعلم والعمل أرتقاء مراتبه، أقام به الشواهد على اعتقاده، أنه أخلص أوليائه وذًا، وأفضلهم قصدًا، وأكرمهم عهدًا، حين ظهرت له، أيده الله، آثار آرائه الأصلية، وبانت في الصلاح والإصلاح ميامن مناقبه الجميلة، ووجب له من العناية والمزنيات أنم ما توجه معارفه، وتقضيه مجادته، وزهادته، التي لا يفند في وصفها واصف. وأعلن بأنه دام عزه، أحق من حُفِظت عليه مرتبة صدور العلماء الراسخين في العلم، وأُبقيت مرتبة ما تميز به التقى والورع الكافي والحلم، وبرع بصلة العناية بجانبه، لما أهلت إليه معرفته من نفع المتعلمين، وإرشاد من يسترشده في مسائل الدين من المسلمين، وأفصح بأنه أولى مخصوص بالتجلة والتوقير، وأجدر منصوص على أن قدره لديه معتمد بالتكريم والتكبير. وأمر، أعلى الله أمره، أن يستمر له ولزوجه الحرة الأصلية الزكية، التقية الصالحة، المصونة المكرمة المبرورة، عائشة بنت الشيخ الفقيه الجليل العالم الصالح السني، الزاهد الفاضل، المرحوم المقدس، الأزهري، أبي إسحق ابن الحاج، ما أطردت به العادة لهما قديمًا وحديثًا، وتضمنه الظهيران الكريمان، المؤرخ أحدهما بال عشر الأواخر لشوال عام خمسة وثلاثين وستمائة، من صرّف النظر في أغشارهما وزكواتهما إليهما، ليضعا ذلك في أحق الوجوه، ويؤدبا فيه حقّ الله تعالى، ما مثلهما علمًا ودينًا من يؤديه، موكلًا بذلك الله، إلى ما لديهما، من نشر الأمانة، مصروفًا إلى نظرهما الجاري مع العلم والديانة، وتجديد أحكام ما بأيديهما من الظواهر والأوامر القديمة والحديثة، المتضمنة تسويخ الأملاك، على اختلافها، وتباين أجناسها وأوصافها، لهما ولأعقاب أعقابهما، على التأييد والتخليد، والمُحاشاة من اللوازم، والمعاوز والمغارم، وأن يطرد لشركائهما، وعَمَرَة أَملاكهما، ووكلائهما، وحواشيهما، ومن اتصل بهما، جميل العناية، وحفيل الرعاية، وموصول الحماية، الاستمرار الذي يطرد العمل به مدى الأيام، وتتوالى التمشية له من غير انصرام على الدوام، موقى بذلك، ما يحق لجانب الفقيه العالم، الأوحد الأسنى، أبي بكر، أدام الله عزته، من حظوظ الإجلال، مُنتَهَى فيه إلى أبعد آماذ العناية الشريفة، الفسيحة المجال، مُقضى على حق ما انفرد به من العلم، واتصف به من الديانة، اللذين أضفيا عليه ملابس البهاء والجلال. فمن وقف على هذا الظهير الكريم من الولاة

والعمال، وسائر ولاية الأشغال، وليلتلقه بغاية الالتزام والامتثال، إن شاء الله. وكتب في الثاني عشر من ذي الحجة عام ثلاثة وأربعين وستمائة.

مشيخته: أخذ عن أبي العباس أحمد بن مُنذر الإشبيلي، تلا عليه بإشبيلية، وعلى عباس بن عطية أبي عمرو. وروى عن أبي محمد عبد الكبير الإشبيلي، وصحب أبا الحسن بن زرقون، وتفقه عليه. وانتقل إلى المرية، فصحب أبا إسحاق البليفي وأخذ عنه، وتزوج ابنته. وأجاز له أبو عبد الله بن هشام الشواش وغيره. ثم انتقل آخر عمره إلى سبته.

شعره: نقلت من خط شيخنا أبي البركات قوله في غرض الوصية: [الطويل]

أبيل النوى، هل من سبيل إلى فخر؟
أبى القلب إلا أن يهيم بحبكم
رخلت عنكم لا بقلبي وإنما
أعود بدهر الوصل من حين هجركم
لثعالب^(١) نفسي لست أنفق قربكم
تقطع أكباد عليكم صباية
وبالقلب من لا يصلح الصبر عنهم
فلولاهم ما كنت أخسب ساعة
ألا يا أخي فاسمع وصاتي^(٢) فإنها
يجبك في ذات الإله ويستغي
ألا إنما التوفيق كنت من أهله^(٣)
بتوحيده في ذاته وصفاته
فتأبر على القرار والأثر الذي
وعد لك الخيرات عما سواها
إذا يسلك الشيطان فجأ سوى الذي

ويا قلب، كم تأسى ويا دمع، كم تجري
وأن تبرحوا إلا القليل عن الفكر
تركت لديكم حين ودعوتكم سري
ورب وصالي مستعاد من الهجر
لزهدي فيكم بل حرصت على البر
فاضبر فإن^(٤) الخير أجمع في الصبر
وإن كان خيرا فهو عنهم من الشر
فقدتكم فيها عيانا من الغمر
أنتك^(٥)، لعمرى، من أخ سالم الصدر
بحبك عند الله مذكر الأجر
مراعاة حق الله في السر والجهر
وأفعاله أيضا وفي الثد^(٦) والأمر
يصح عن المختار والسادة العز
وكن بها مستمسكا أبد الدهر
سلكت ولا يلفي سبيلا إلى مكر

(١) في الأصل: «لثعالب» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى متا.

(٢) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الوصاة، بفتح الواو: الوصية. محيط المحيط (وصى).

(٤) في الأصل: «لبنك»، وهو ما لا معنى له.

(٥) في الأصل: «من أهله» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة القطع همزة الوصل.

(٦) في الأصل: «الندى» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى متا.

وفَرَّقَ من^(١) الأجناس حاشا تقيتهم
ولا تُنْسِنِي واذْكُرْ أَخَاكَ بِدَعْوَةٍ

قال شيخنا أبو البركات: ومن شعره، ومن خطه نقلت: [الكامل]

لِلصَّالِحِينَ إِلَى الصَّلَاحِ طَرِيقٌ
صَرَفُوا النُّفُوسَ مِنَ الْهَوَى عَنْ صَوْبِهَا

رَحَّبَتْ بِهِمْ وَعَدَّتْ عَلَيْكَ تَضِيقُ
فَعَدَّتْ إِلَى طَلَبِ النُّجَاةِ تَتَوَقُّ

منها بعد أبيات:

يَا قَرَّةَ الْعَيْنِ اسْتَمْعِ مِنْ نَاصِحٍ
أَنْتِ الشَّقِيقُ وَلَادَةٌ وَلِذَلِكَ لِي
لَا تَسْخَدَنَّكَ ثُرَاهَاتُ أُخْدِثَتْ
وَأَعْكَفَ عَلَى الْقُرْآنِ دَهْرُكَ وَاجْتَمَعَ
إِنَّ الْحَدِيثَ وَفِقْهُهُ وَعِلْمُوهُ
وَاهْجُرْ بَنِي الدُّنْيَا فَإِنَّ يَهْجُرَهُمْ
وَالْحَقُّ بِقَوْمٍ قَدْ عَنَّا بِتِجَارَةٍ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ عَنْ أَذِيَّةٍ^(٢) مُسْلِمٍ
لَا تَبْكُ هَمُّ الرِّزْقِ فَهُوَ مُقَدَّرٌ
وَلْتَرْضَ بِالرَّحْمَنِ رَبًّا حَاكِمًا
حَلُّوا عَقَالِ عَقُولِهِمْ وَتَحَكَّمُوا
وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ نَصِيحَتِي وَلِشَفِيفِهَا
فَكُنِ الْقَرِيبَ مَكَانَهُ مِنْ نَفْعِهَا
وَاصْطَدْ بِبَارِي الْعِزِّ أَطْيَارَ الرِّضَا
وَلِتَجْعَلَ التَّسْبِيحَ شَأْنَكَ إِنَّهُ
وَاقِنٌ بِعِلْمِ الْوَحْيِ عِلْمًا ثُمَّ لَا
لَا تَرْضَ فِيهِ بِالدُّنْيَا وَلْتَمُتْ
مَا كُلُّ عِلْمٍ يُهْتَدَى بِحَصُولِهِ

فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ عَلَيْكَ شَفِيقٌ
رُوحٌ لِرُوحِكَ فِي الْخُلُوصِ شَقِيقٌ
وُخْزَ غَبَلَاتٍ لِلْجَهْلِ تَرَوُّقٌ
فَالشُّغْلُ عَنْكَ لَغَيْرِهِ تَفْرِيقٌ
هَذَا الَّذِي لِلْمُؤْمِنِينَ يَلِيقُ
يَتَضَاعَفُ الْإِيمَانُ وَالتَّصَدِيقُ
تَفَقَّتْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُوقٌ
فَسَبَابُهُ قَالَ الرَّسُولُ فَسُوقٌ
وَالْعَبْدُ طَوَّلَ حَيَاتِهِ مَرْزُوقٌ
وَدَعِ الْفُضُولَ فَمِنْهُ ضَلُّ فَرِيقٌ
إِنَّ التَّحَكُّمَ بِالْعَقُولِ مُرَوِّقٌ
فِي أَفْقِ حُبِّكَ يَا حَبِيبُ شُرُوقٌ
فَمَكَانَ سَدَّتْهَا إِلَيْكَ سَحِيقٌ
فَأَخُوكَ غَايَةُ بَازِهِ التَّحْلِيلُ
فِي الصُّعْبِ مِمَّنْ شَأْنُهُ التَّضْفِيقُ
يَذْهَبُ بِكَ التَّشْقِيقُ وَالتَّوْفِيقُ
عَطَشًا إِذَا لَمْ تُسَقِّ مِنْهُ رَحِيقٌ
مِنْهُ الرِّكَابُ نَعَمٌ وَمِنْهُ رَقِيقٌ

(١) كلمة «من» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

(٢) في الأصل: «إذابة».

كمدارك الأصوات منها طيبٌ تسلو النفوس به ومنه نهيق
وعليكم مني تحية من له قلب إليكم أجمعين^(١) مشرق

وقال: ألفيت بخطه ما نصه: وكان بعض السفهاء قد كتب إلي بيتين من شعر
وهما: [الطويل]

إليك، أبا بكر، رَفَعْتُ وسيلتي ومثلك من تُلقَى إليه الوسائلُ
غَرَقْتُ ببحر الذل يومًا وليس لي بأرضكم إلا اهتمامك ساحلُ

وأساء المحاولة في دفعها، فصرفته، ولم أقف عليهما، فضرب عليهما، وكتب
في ظهرهما: [الطويل]

حللت، أبا بكر، بموطن عزة فأنسيَت ما قد كنت فيه من الذل
وأصلك من كبر وكن مُتَكَبِّرًا وكيف يطيب الفرع من ذلك الأضل؟

وكتبت إليه صُحْبَةً درايم وَجَّهْتُ بها إليه: [الطويل]

جَفَوْتُ وما زال الجفاء^(٢) سَجِيَّةً لمثلك ما إن زال تُبلى بها مثلي^(٣)
وما قلت في أصلي فكذبة فاجر رأى الفرع محمودًا فعاب على الأضل
وبالإفك ما عَثَرْتُ لا بحقيقة فما الكِبَرُ من شائي ولا كنت في ذل
وما زلت، والله، الحميد مُكْرَمًا وفي نائبات الدهر للعقد والحل
ولو كنت مَنْ يَثْقِي الله لم تكن تَمِرٌ^(٤) متى تَسْخَطُ وعند الرضا تُحلي^(٥)
أما قلت أني ساحل لك عندما غَرِقت ببحر الذل في زمن المخل؟
وكيف نَسَخْتُ المدح بالذم قبل أن تَبْث لي الشكوى وتُدلي بما تُذلي^(٦)
ولكن لَوَمَ الطَّبْعِ يحمل أهله على الصُّعْبِ من سَبِّ الكرام أو الثيل
إذا^(٧) كان بعض الكِبَرِ نقصًا فإنه عليك من الأوغاد يُحسب في الفضل
وما الذل إلا ما أتى بك نحونا فقيرًا من التَّقْوَى سلبًا من العقل
ومطلوبك الدنيا فخذها خسيصةً توافي خسيس النفس والقول والفعل

(١) في الأصل: «أجمعه» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «الجفاء» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «مثل» وهكذا ينكسر الوزن، واعتقد أنه خطأ في الطبع.

(٤) في الأصل: «تمد» بالدال.

(٥) في الأصل: «تخل». يقول: يُضَيَّر متى يَسْخَطُ، وعند الرضا ينفذ.

(٦) في الأصل: «تُدلي» بدون ياء. (٧) في الأصل: «إن» وكذا ينكسر الوزن.

وما الجود إلا ما أصبت مكانه
ومثلك من يُجفي ويقلب خاسئا
ولكنني عوذت نفسي عادة
فخذها، لحاك الله، غير مبارك
ومثلي من يؤذى فيحتمل الأذى
وقد قال من لا شك في قوله من جك
فإن زدنا زدنا وإن كنت نادما
ففي كل شيء لست عنك مقصرا

ومهما فقتت الأصل لا عار في البخل
فلست لإسداء الضئيلة بالأهل
من البذل لم أعد بها قط عن نذل
لسعيك فيها يا ابن خانية الثغل
ولكنه قد يذرا^(١) الجهل بالجهل
حمة إنما القتل أذهب للقتل^(٢)
فبئناك أخذا في أمورك بالعدل
بما شئت من قطع وما شئت من وصل

قال الشيخ: قول الهاجي: وأصلك من كبر، معناه التعريض يكون سلف أبي بكر بن مهيب، علوا في أنفسهم وتكبروا، فثاروا بسبب ذلك بطيرة وجهاتها، ثار منهم عبد الرحمن جد أبي بكر، ثم حسن، ثم عامر أخوه، وإلى هذا أشار أبو بكر بن مهيب بقوله في بعض شعره: [الكامل]

إن لم أكن مَلِكًا فكنْتُ رئيسًا^(٣)

وأنشد في الصلة الزيرية^(٤)، قوله رحمه الله: [الكامل]

أُملي من الدنيا المباحة كسرة
قد أضرب الزمان عن سكانها
أُبقي بها رمقي ودار نابية
فكانها في القفر دار خالية

ومن شعره في المقطوعات: [الطويل]

تَرَحَّلَ صَبْرِي والولوع مقيم
فياليت شعري هل أفوز بعطف من
وَضَحَّ اشتياقي والسُّلُو سقيم
زُئنت خدي وزدا عليه أقرم^(٥)؟

ويا جنة قد جيل بيني وبينها
بقلبي من شوقي إليك جحيم

دخوله غرناطة: قال الشيخ: دخل غرناطة مرتين، أخبرني بذلك الشيخ القاضي أبو الحسن بن عبيدة، وهو بصير بأخباره، إذ هو من أصحاب سلفه، وممن رافق جده في الكتب عن بعض الأمراء مدة، وفي الخطابة بالمرية أخرى.

(١) في الأصل: «يُذِر» وكذا لا يستقيم المعنى والوزن معًا. وذرا الجهل بالجهل: دفعه دفعا شديدا.

(٢) في الأصل: «... من الحكماء القتل...» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معًا.

(٣) في الأصل: «رئيسا» وكذا ينكسر الوزن. (٤) أي كتاب «صلة الصلة» لابن الزبير.

(٥) عجز هذا البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

وفاته: توفي بسبته أول ليلة من جمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وستمائة.

محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي

حاله: من صلة ابن الزبير: كان كاتبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام، وغير ذلك، مع نباهة وحسن فهم، ذو فضل وتعقل، وحسن سَمْت. وورد على غرناطة، واستعمل في الكتابة السلطانية مدة، وكان معلوم القدر، معظمًا عند الكافة. ثم إنه رجع إلى مُرسية، وقد ساءت أحوالها، فأقام بها مدة، ثم انفصل عنها، وقد اشتدت أحوالها، واستقر بالغدوة بعد مكابدة.

قلت: أخبرني شيخنا أبو الحسن الجيَاب، رحمه الله، قال: كان شَكِس الأخلاق، متقاطبًا، زاهيًا بنفسه؛ ابتداء يومًا كاتبًا مُصدِّرًا بخطبته، فقال فيه يصف صحابة رسول الله ﷺ «عقوة العقوة»، وتركه لأمر عرض له، فنظر إليه الفقيه عمر اللُّوشي، وهو كاتب المقام السلطاني، فظنَّ لقصوره أنه وَهْم، وأراد «الصفوة» فأصلحه، فلما عاد ونظر إليه مزقه، وكسر الآلة، وقال: لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القدر، وتُسَوَّر به الإصلاح على قلم يُطمع بعد في مقامه. وانصرف، واستقرَّ بتلمسان، كاتبًا عن سلطانها أبي يحيى يَغْمُراسن بن زِيَان. وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العَيْن، فاعتذر ورَدَّ عليه المال، وكانت أشقَّ ما مرَّ على المستنصر، وطهر له علُو شأنه، وبُعِدَ همته.

مشيخته: روى عن القاضي أبي عيسى بن أبي السِّداد، وأبي بكر بن مُحْرز، وعن الأستاذ أبي بكر محمد بن محمد، المعروف بالقرشي، وقرأ وسمع على هؤلاء ببلده، وأجاز له كتابة أبو الربيع بن سالم وغيره.

شعره: من ذلك قوله: [الكامل]

واذا دَهَشَكَ مُلِمَّةٌ قَتَصْبِرْ	اقنُحْ بما أوتيته تَلِ الْغِنَى
رُفْنَا زِيَادَةَ ذُرَّةٍ لَمْ نَقْدِرْ	واعلمْ بأنَّ الرزقَ مقسومٌ فلو
أحدًا تَعِشْ عَيْنِشَ الْكِرَامِ وَتُؤْجِرْ	والله أرحمُ بالعباد فلا تَسْلُ
ورأيتَ نفسك قد غَوَتْ فلتبصر	وإذا سخطت لبؤس حالك مرة
لعظيم نعمته عليك وتشكر	وانظرْ إلى مَنْ كان دونك تَذَكُرْ

ومما قاله في صباه: [الكامل]

يَا دَعْوَةَ شِبَاكِ^(١)
ظَبْيِي تَصْدَى لِلْقُلُوبِ يَصِيدُهَا
وَرَمَى وَإِنْ قَالُوا رَنَا عَنْ فَاتِرٍ
قَدْ كُنْتُ أَحْذِرُ بَطْشَهُ لَوْ أَنَّنِي
أَوْ مَا عَلَيْهِ وَلَا عَلَيْهِ حَاكِمٌ
أَوْ مَا لَجَارِكَ ذِمَّةٌ مَرْعِيَّةٌ
إِنِّي اسْتَنْمْتُ إِلَى ظِلَالِكَ ضَلَّةٌ
مَا لِي أَخَاطِبُ بَانَّةً مَا أَنْ تَعِي
أَكْرِيمةَ الْحَيِّينَ، هَلْ لِمُتِّيمٍ
أَصْبَنَنِي بَعْدَ الْمَشِيبِ وَلَيْسَ مِنْ
لَوْلَاكِ^(٢) مَا جَذَبْتُ عِنَانِي لَوْعَةً
لَمَّا دَعَا دَاعِي هَوَاكِ أَجَبْتُهُ
أَضَلَّيْتَنِي نَارَ الصُّدُودِ وَإِنَّنِي
وَأَبْخُتُ مَا مَنَعَ التَّشْرُوعَ مِنْ دَمِي
وَتَرَكْتُ قَلْبِي طَائِرًا مَتَخَبِّطًا
وَمَنْعْتُ أَجْفَانِي لِذِيذِ مَنَامِهَا
وَلَقَدْ عَجِبْتُ وَأَنْتِ جِدُّ بَخِيلَةٍ
إِنِّي لِأَيَّاسُ مِنْ وَصْلِكَ تَارَةً
أَسْمَاكِ أَنْكَ قَدْ خَفَضْتَ مَكَانَتِي
إِنِّي مُعْتَاكِ الْمَتِّيمِ فَلْيَكُنْ
تَشْنِي مَعَاطِفِكَ الصُّبَا حُوطِيَّةً
أَبْعَدْتَنِي مِنْهَا بَطْعَنَةً رَامِحٍ
أَمُوتَ مِنْ عَطَشٍ وَتَغْرُكَ مَوْرِدٌ
هَلَا تَنِي عَنْ حُلُوةٍ فَلْيَلِغِلْهُ

مَا قَدْ ذَهَابَ مِنْ لِحَاطِ رَشَاكِ
مَنْ نَاطِرِيهِ فِي سِلَاحِ شَاكِ
سَاجَ عَلَيْهِ سِيْمَةٌ^(٣) التُّسْتَاكِ
أَبْصَرْتُ مِنْهُ مَخَابِلَ الْفَتَاكِ
يَحْمِي تُغُورُكَ أَوْ يَحُوطُ حِمَاكِ
أَبْذَا يَظَلُّ دَمُ الْغَرِيبِ طِلَاكِ؟
فَإِذَا ظَبَاؤُكَ مَاضِيَاتِ ظَبَاكِ
قَوْلًا وَلَا تَرْتِي لِدَمْعَةٍ بَاكِ؟
رَحِمَى لَدَيْكَ فَارْتَجِي رَحِمَاكِ؟
عُذْرُ لِمَنْ لَمْ يُضْبِهِ ثِرَاكِ
وَاللَّهِ يَشْهَدُ أَنَّنِي لَوْلَاكِ
مَنْ لَا يَجِيبُ إِذَا دَعَتْ عَيْنَاكِ؟
رَاضٍ بِأَنْ أَضَلَّى وَلَا أَسْلَاكِ
بِاللَّهِ مَنْ أَفْتَاكِ قَتْلَ فِتَاكِ؟
بِشِبَاكِ^(٤) خَتَلِكِ أَوْ بَطْنِ سِبَاكِ
كَيْ لَا يَتَبَحَّحَ لِي الْكَرَى لُقْيَاكِ
كَأَنَّ^(٥) أَعَزَّتِ الشَّمْسُ بَغْضَ حُلَاكِ
لَكِنْ أَعْلَلُ مَطْمَعِي بُعْمَاكِ
هَلَا خَلَعْتَ عَلَيَّ مِنْ سِيْمَاكِ؟
حَظِّي لَدَيْكَ مَنَاسِبًا مَغْنَاكِ
وَكَذَا الصُّبَا فِصْبَاكِ بِمِثْلِ جِمَاكِ
أَلْذَاكَ سَمْتُكَ الْوَرَى بِسِمَاكِ؟
فِيهِ الْحَيَاةُ اسْتَوْدَعْتُهَا فَالْكَ؟
وَضَعْتُ أَدَاةَ النِّفْيِ فِي اسْمِ لَمَاكِ

(١) صدر هذا البيت مختل الوزن والمعنى. (٢) في الأصل: «سِيم» وكذا لا يستقيم الوزن.

(٣) في الأصل: «لولا» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٤) في الأصل: «شباك» وكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «أن» وكذا ينكسر الوزن.

وقال يجيب أبا عبد الله بن خميس، رحمه الله، عن قصيدة بعث بها إليه أولها:

[الكامل]

رُذ في حدائق مائها مرتادُ قد لُدَّ مَورودُ وطابَ مُرادُ
رُزُقُ الأسنةِ دونَ رُزُقِ حَمامها وطُيى كما رَتَّتِ العيونُ جِدادُ
هذه الأبيات: [الكامل]

نِعمَ المراد لمن غدا يرتادُ مرعى يرف نبائه ومهادُ
سألت على العافي جداوله كما صالت على العادي طُيى تَنادُ^(١)
فَشَدَذْتُ رَحَلَ مطيتي منه إلى حيث السيادة تُبتنى وتُشادُ
وركبْتُ ناجيةً^(٢) مبارية الضبا خُضراء^(٣) فوق خُضارةٍ^(٤) تُعتادُ
يغتادها سكانها قُلب على من كان من سكانها استبداد
عجبا لهم أحلامهم عاديةً تَنضي عليهم حكمها أعواد
خَبِرَ يَلْمَسَاتًا بَأني جَنُشها لما دعاني نحوها الرُواد
وأعاقها^(٦) سَمْعًا ولم أر حُسْنها إلّا أناسًا حَدَثُوا فأجادوا^(٧)
ولرب حُسنٍ لا ثواه ناظرُ ويراه لا يخفى عليه فؤاد
ودخلتها فدخلتُ منها جئةً سكانها لا تخفى ولا حياءُ^(٨)
ورأيت فضلًا باهرًا ومكارمًا وغلا تغاضر دونها التعداد
أهل الرّواية والدراية والتدى في نورهم أبدًا لنا استِمْداد
فهم إذا سُئلوا بحارُ معارف ولدى السكينة والنهى أطواد
درجاتها ينحط عنها غيرهم ومن الورى قَتَرٌ ومنه وهاد
فأجلهم وأحلهم من مهجتي بمكانة ما فوقها مُزْداد
وأود حين أخط أطيّب ذكرهم لو أنّ أسود مُقْلَتِي مِدَاد

(١) في الأصل: «العادي بدا ناد» وكذا لا يستقيم الوزن ولا معنى له. والعادي: العدو.

(٢) الناجية: الناقة السريعة تنجو بمن ركبها. محيط المحيط (نجا).

(٣) في الأصل: «خُضراء» وكذا ينكسر الوزن. والخضراء: السماء. محيط المحيط (خضر).

(٤) الخُضارة: عَلَمٌ للبحر غير منصرف. محيط المحيط (خضر).

(٥) في الأصل: «بَأني» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «دعاقها» وكذا لا يستقيم المعنى ولا الوزن.

(٧) في الأصل: «فأجاد». (٨) عجز البيت مختل الوزن والمعنى معًا.

وقال يخاطبه وقد وقف على بعض قصيدة: [الكامل]

رُثِّ حواشي طبعك ابنَ خميس فهفا قريضك بي وهاج رسيسي
ولمثلة يَضْبُو الحلِيم ويمتري ما للشروق به وسير العيس
لك في البلاغة والبلاغة بعض ما تحويه من أثر محل رئيسي
نَظْم ونثر لا تُبارى فيهما مهَّدت^(١) ذاك وذا بعلم الطوس

وقال عند وفاته وربما نُسبت لغيره: [الخفيف]

رب أنت الحلِيم فاغفر ذنوبي ليس يعفو عن الذنوب سواكا
رب ثَبَّتْ عند السؤال لساني وأقمني على طريق هداكا
رب كن لي^(٢) إذا وقفت ذليلاً ناكس الرأي أستحي أن أراكا
رب من لي والنار قد قُرِبَتْ لي وأنا قد أبخت عهدَ جماكا؟
رب مالي من عُدَّة لمالي غير أنني أعددت صدق رجاكا
رب أقرزت أني^(٣) عبْدُ سوء حِلْمُك الجُم غرّه فعصاكا
رب أنت الجواد بالخير دوماً لم تزل راحماً قَهَب لي رضاكا
رب إن لم أكن لفضلك أهلاً باجبرائي فأنت أهل لذاكا

نثره: ومن نثره ما خاطب به صديقين له بمرسية من مدينة إشبيلية:

كتبته، كتب الله لكما فوزاً بالحسنى، وأجناكما من ثمرات إحسانه أكثر ما يُجنى. من إشبيلية، وحالي بحمد الله حسنة، ونفسي بحب قريبكما مُرتَهنة، وعليّ بما لديكما من السراوة التي جُبلتما على فطرتها، وامتزتما في الاجتلاء بغرتها، علم لا يدخله الشك، ونسبتي إلى وذكما الذي لبسته معلماً، وتقلدته مخرمًا، لا يعبر عن معناها إلا بما لا يزال ولا ينفك. فلنثن عنان القلم عن مداده، ونأخذ في حديث سواه. وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر، ولقينا الإفانت^(٤) على ميلين، وفزنا بما ظهر من بشره واعتناؤه بقرار الخاطر، وقرة العين، ونزلنا في الأخبية

(١) في الأصل: «تمهَّدت» وكذا ينكر الوزن.

(٢) كلمة «لي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معاً.

(٣) في الأصل: «أنّي» وكذا ينكر الوزن.

(٤) المراد: الإفانت، بالإسبانية Infante، وهو لقب كان يطلق على ولي عهد ملك فشتالة، إذ كانت إشبيلية آنذاك تابعة لقسالة لأنها سقطت في أيدي الإسبان سنة ٦٤٦ هـ. وصارت عاصمة لقسالة. راجع: الإحاطة (ج ٢ ص ٤٣١) تحقيق عنان، حاشية رقم ٦.

خارج البلد، موضعًا يعرف بالقنب^(١)، قد تفجر عيونًا، وجمع ماؤه وهوؤه من المحاسن فنونًا، وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة، فرأينا المقام فيه أحد الأسباب المُسعدة على حفظ الصحة المَعينة، ورغبنا عن المدينة لحرها الوهاج، وغبارها العجاج، ومائها الأجاج. ولما تاب من النشاط البارح، واستقل من المَطْي الرازح، طفت في خارجها وداخلها، ووقفت على مبانيها المشيدة ومنازلها، ورأيت انسياب أراقشها، وتقصيت آثار طُرَيَّانيتها^(٢) وبراقيشها، فشاهدت من المباني العتيقة، والمنارة^(٣) الأنيقة، ما يملأ أعين النُّظار، وينفسح فيه مجال الاعتبار، على أني ما رأيتها إلّا بعد ما استولى عليها الحُشف، وبان عنها الظرف، ونبا عنها الظرف، فلا ترى من مغانيها إلّا طللًا دارسًا، ولا تلمح من بدائعها إلّا مُحَيّا عابسًا، لكن الرائي إذا قَدَّر وضعها الأول، وركب وهمه من مبانيها ما تحلل، وتخيّل في ذهنه حُسْنها وتمثل، تصور حُسْنًا يدعو إلى المجون، ويُسلي عن الشجون، لولا أنها عُرِضت لأشمط راهب، لما دان إلّا بدن ولا تقرب بغير قارب، وحسبي أن أصفها بما يقيها من القبول، وأقول إنها في البلاد بمنزلة الربيع من الفصول، ولولا أن خاطري مُقسَم، وفكري حدّه مثل، لقضيت من الإطتاب وطُرا، ولم أدع من معاهدها عينًا إلّا وصفتها ولا أثرًا.

وفاته: توفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة ست وثمانين وستمائة.

محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي^(٤)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن الصايغ، بالصاد المهملة، والغين المعجمة، من أهل ألمرية.

حاله: من خط^(٥) شيخنا أبي البركات في «الكتاب المؤتمن على أبناء الزمن»: كان سهلًا، سَلِسَ القياد، لذيد العشرة، دِمَتْ الأخلاق، ميّالًا إلى الدعة، نفورًا عن التَّصَب، يركن إلى فضل نَبَاهة وذكاء، يُحاسب بها^(٦) عند التحصيل والدراسة والدُّؤوب على الطلب، من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف،

(١) القنب: بالإسبانية El Campo، وهو الحقل أو الميدان.

(٢) طريانة: بالإسبانية Triana وهي ضاحية بإشبيلية على نهر الوادي الكبير.

(٣) هي منارة المسجد الجامع بإشبيلية، وتعرف اليوم باسم La Giralda.

(٤) ترجمة ابن لب الأمي في الكنية الكامنة (ص ٨٨) وبغية الوعاة (ص ٦٠) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٠٣) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٨ وما بعدها).

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩). (٦) في النفع: «بهما».

ولم يكن له صوت رخيم، يُساق^(١) انطباعه في التلحين، يخبر^(٢) ذلك بالأوتار. وحاول من ذلك بيده مع أصحابه، ما لاذ به الظرفاء منهم. واشتغل بدار الأشراف بالمرية، فأحكم تلك الطريقة في أقرب زمان، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل شأنه^(٣). ثم نهضت به همته إلى أرفع من ذلك، فسار إلى غرناطة، وقرأ^(٤) بها العربية وغيرها، وانخرط في سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة. ثم رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة، فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها^(٥) علّة كان يشكوها، وأخذ في إقراء العربية بها، وعرف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي. قال شيخنا المذكور: ورأى في صخره فأرة أنثى، فقال: هذه قرينة، فلُقّب بذلك، وصار هذا اللقب أغلب عليه^(٦) من اسمه ومعرفته.

وجرى ذكره في التاج بما نصه^(٧): لُج معرفة لا يغيض^(٨)، وصاحب فنون يأخذ فيها ويُفيض. نشأ ببلده مُشتمراً عن ساعد اجتهاده، وشارك^(٩) في قُنن^(١٠) العلم ووهاده، حتى أነع روضه، وفَهَق^(١١) حوضه. ثم أخذ في إراحة^(١٢) ذاته، وشام بارقة^(١٣) لذاته، ثم سار في البطالة سير الجُمُوح، وواصل العُبُوق بالصُبُوح، حتى قضى وَطَرَه، وسيم بَطَرَه، وركب القُلُك، وخاض اللُجَج الحُلُك، واستقر بمصر على النعمة العريضة، على شك في قضائه^(١٤) الحجّة العريضة، وهو اليوم^(١٥) بمدرستها الصالحية، نبيه المكانة، معدود في أهل العلم والديانة.

مشيخته: قرأ بالمرية على المكتب أبي عبد الله الميزقي، وأخذ عن شيخ الجماعة أبي الحسن بن أبي العيش، وقرأ بالحضرة على الخطيب أبي الحسن^(١٦) القيجاطي وغيره. وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيّان، وانتفع به وبجاهه.

(١) يساق: يجاري ويوازي. لسان العرب (سوق).

(٢) في النفع: «فجبر». (٣) في النفع: «من شأنه».

(٤) في النفع: «فقرأ». (٥) في الأصل: «هواها» والتصويب من النفع.

(٦) كلمة «عليه» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٧) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٨) لا يغيض: لا ينضب. لسان العرب (غيض).

(٩) في النفع: «وسائر».

(١٠) القُنن: جمع قُنّة وهي القمّة. لسان العرب (قُنن).

(١١) فَهَقَ: امتلأ. لسان العرب (فهق).

(١٢) في النفع: «راحة». (١٣) في النفع: «بارق».

(١٤) في النفع: «في قضاء حجة الفريضة».

(١٥) كلمة «اليوم» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(١٦) في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩): «على الخطيب أبي علي القيجاطي وطبقته».

شعره: قال شيخنا أبو البركات: وكان أخذ من قرض جيد الشعر بالحظ الوافر. فمن شعره ما نقله إلينا الحاج الحافظ المَكْتَب أبو جعفر بن غصن، حسبما قيده عنه بمصر^(١): [الكامل]

بُنْدُ الْمَزَارِ وَلَوْعَةُ الْأَشْوَاقِ^(٢) حَكَمًا بِفَيْضِ مَدَامِجِ الْأَمَاقِ
وَحَفُوقُ تَجْدِي النَّسِيمِ إِذَا سَرَى أَذْكَى لَهَيْبِ فَوَادِي الْخَفَاقِ
أُمَعْلَلِي إِنَّ التَّوَاصِلَ فِي غَدٍ مَنْ ذَا الَّذِي لِعَدِّ قَدْ يَتُكُّ بَاقٍ؟
إِنَّ اللَّيَالِي سُبُّقٌ قَدْ^(٣) أَقْبَلَتْ وَإِذَا تَوَلَّتْ لَمْ تُنَلِّ بِلِحَاقِ
عُجْ^(٤) بِالْمَطِيِّ عَلَى الْحَمَى، سُقِيَ الْجَمَا صَوَّبَ الْعَمَامِ الْوَائِكِ الرُّقَاقِ
فِيهِ^(٥) لَذِي الْقَلْبِ السَّلِيمِ وَدَادُهُ قَلْبٌ سَلِيمٌ يَا^(٦) لَهُ مِنْ رَاقٍ^(٧)
قَلْبٌ غَدَاءٌ فَرَاقَهُمْ فَارَقْتُهُ لَا كَانَ فِي الْأَيَّامِ يَوْمُ فَرَاقٍ^(٨)
يَا سَارِيَا وَاللَّيْلُ سَاجٍ عَاكِفٌ يَقْرِي الْقَلَا^(٩) بِنَجَائِبِ^(١٠) وَنِيَاقِ
عَرُجٌ عَلَى مَثْوَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ ذِي الْمَحَلِّ الرَّاقِي^(١١)
وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَنْ لَهُ حَفَظَ الْعُهُودِ وَصَحَّةُ الْمِثَاقِ
الظَّاهِرُ الْآيَاتِ قَامَ دَلِيلُهَا وَالظَّاهِرُ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْرَاقِ
يَذُرُّ الْهَدَى^(١٢) الْبَادِي الَّذِي^(١٣) آيَاتُهُ^(١٤) وَجَبِيئُهُ كَالشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ

(١) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ٨٨ - ٩٠) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٥٩ - ٣٦٣).

(٢) في الأصل: «وَلَوْعَتُهُ أَشْوَاقٌ» والتصويب من المصدرين.

(٣) في المصدرين: «إِنَّ».

(٤) في الأصل: «فَصَفَحَ تَمَذُّونَهُ عَلَى...». وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٥) في الكتيبة: «فِيهِ». (٦) في النسخ: «مَا لَهُ».

(٧) جاء في الكتيبة بدل عجز هذا البيت عجز البيت التالي. والسليم: المريض. والراقي: الذي يستعمل الرقية لمداراة المرض. لسان العرب (سلم) (رقي).

(٨) هذا البيت غير وارد في الكتيبة.

(٩) في الأصل: «يَقْرِي لِلْعَلَا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(١٠) النجائب: الإبل السريعة. لسان العرب (نجب).

(١١) في الأصل: «المنخل البراق» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة. وفي النسخ: «المقام» بدل «المحل».

(١٢) في الكتيبة: «الهُدَى».

(١٣) كلمة «الَّذِي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.

(١٤) في النسخ: «... الْهَدَى وَهُوَ الَّذِي آيَاتُهُ».

الشافعُ المقبولُ مَنْ عَمَّ الورى
والصادق^(١) المامونُ أَكْرَمُ مُرْسَلِ
أعلى الكرام تُدَى وأبسطهم يدا
وأشدُّ خَلْقِ الله إقْدَامًا إذا
أَمْضَاهُمْ والخيلُ تعثرُ في القنا^(٢)
مَنْ صَيَّرَ الأديانَ دينًا واحدًا
وأَحْلَنَّا من حُرْمَةِ الإسلام في
لو أَنَّ لِبَندرِ المنيرِ كماله
لو أَنَّ لِبَحرينِ جُودَ يمينه
لو^(٣) أَنَّ لَلآباءِ رَحْمَةً قَلْبِهِ
ذو العلم^(٤) والحلم الخفي^(٥) المنجلي
آيأته شُهَبٌ وغُرٌّ بنائنه
ماجت^(٦) فُتُوْحُ الأرض وهو غيأها
ذو رَأْفَةٍ بالمؤمنين ورحمة
وخصالٍ مَجْدٍ أَفْرَدَتْ بِالْخُضْلِ في
ذو المعجزاتِ الغُرِّ والآي التي
ثَبَّتِ الْمُعَارِضَ حَائِرًا^(٧) لَمَّا حَكَتْ
يَقْظُ الْفُؤَادِ سُرَى وقد هَجَعَ الْوَرَى
وسما وأَمْلَأَ السَّمَاءَ تحفَه

بالجود والإرفاد والإرفاق
سارث رسالته إلى الآفاق
قَبَضَتْ عِنَانُ الْمَجْدِ باستحقاق
حَمِيَّ الوطيسُ وشَمَّرَتْ عن ساق
وتَجَوَّلَ سَبْحًا في الدَّمِ المِهْرَاق
من بَغْدٍ إِشْرَاكِ^(٨) مَضَى ونفاق
ظِلُّ ظَلِيلٍ وارِفِ الأوراق
ما ناله^(٩) كَشَفٌ ونكس^(١٠) مَحَاق
أَمِنَ السَّفِينُ غَوَائِلَ الإغراق^(١١)
ذابث نفوسهم^(١٢) من الإشفاق
والجاء والشرف القديم الباقي
سُحِبُ النُّوَالِ تُسَدُّ بِالْأَرْزَاقِ
وَرَبَّتْ رُبَى الإيمان وهو الساقى^(١٣)
وهْدَى وتَأْدِيبٍ بِحُسْنِ سِيَاقِ
مَرْمَى الْفَخَّارِ وَغَايَةِ السُّبَّاقِ
كَمْ آيَةٍ قُفِّدَتْ وَهْنٌ بِوَاقِي
قَلَّقَ الصَّبَاحَ وَكَانَ ذَا إِفْلَاقِ
لِمَقَامِ صَدَقٍ فَوْقَ ظَهْرِ بُرَاقِ
حَتَّى تَجَاوَزَهُنَّ مَبْعَ طِبَاقِ

(١) في النفع: «الصادق».

(٢) في الأصل: «إشراق»، والتصويب من المصدرين.

(٣) في الكتيبة: «ما طاله».

(٤) في النفع: «الإساق».

(٥) في الكتيبة: «قلوبهم».

(٦) في الأصل: «ذو العلم والخفي المنجلي» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٧) في الأصل: «فاحت فيوُح الأرض...»، والتصويب من النفع.

(٨) في الأصل: «وهو الشاق»، والتصويب من النفع.

(٩) في الأصل: «خيرًا»، والتصويب من النفع.

(١٠) في الكتيبة: «أو».

(١١) في الكتيبة: «ذو العلم والعلم».

(١٢) في الكتيبة: «أو».

(١٣) في الكتيبة: «أو».

منها:

يا ذا الذي اتصل الرجاء^(١) بحبله
 حُبِّي إليك وسيلتي وذخيرتي
 وإليك أَعَمَلْتُ الرُّواحِلَ ضُمْرًا
 نُجْبًا إِذَا نَشَرْتُ^(٥) حُلِي^(٦) تلك العلا^(٧)
 يَخْدُو بهنَّ من التَّحِيْبِ مُرَدَّدٌ
 عَرَضَ إِلَيْهِ فَوَقَّتْنَا^(٨) أَسْهُمَا
 وَأَنْخَتْنَا^(٩) بفنائك الرُّخْبِ الذي
 وَقَرَى^(١١) مؤمِّلُك الشِّفَاعَةَ فِي غَدٍ
 وَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْأَنَامِ تَحِيَّةٌ
 تَتَأَرَّجُ الْأَرْجَاءُ مِنْ نَفْحَاتِهَا^(١٢)
 منها^(١٣):

قَسَمًا بطيبِ ثَرَابٍ طَيِّبَةٍ إِنَّهُ
 وَيَشَانِ^(١٥) مسجدها الذي برحابه
 لَأَجُودُ فِيهِ بِأَذْمُجِ أَسْلَافِهَا
 بِسُكِّ الْأَنْوَابِ وَإِثْمَدُ^(١٤) الْأَحْدَاقِ
 لِمُعَايِلِ الرَّحْمَنِ أَيُّ نَفَاقِ
 مَنْظُومَةٍ بِتَرَائِبِ وَتَرَاقِ

(١) في الأصل: «الرجاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) في الأصل: «للورى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٣) الإملاق: الفقر. لسان العرب (ملق).

(٤) الرُّخْد والإعناق: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخد) و(عق).

(٥) في النسخ: «نشدت».

(٦) كلمة «حلى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من المصدرين.

(٧) في الأصل: «الفلا» والتصويب من المصدرين.

(٨) في الأصل: «فَوَقَّتْنَا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ. وفي الكتيبة: «فَوَقَّتْنَا».

(٩) في المصدرين: «فَأَنْخَتْنَا».

(١٠) في الأصل: «الدِّقَاقُ»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في الأصل: «وَقَرَى» والتصويب من المصدرين.

(١٢) في الأصل: «لفحانها» والتصويب من المصدرين.

(١٣) الأبيات التالية غير واردة في الكتيبة.

(١٤) الإثمد: حجر يُكْتَحَلُ به. محيط المحيط (ثمد).

(١٥) في الأصل: «وأبَار مسجده» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

أغدو بتقبيل على خضبايه
وعليك ذا النورين^(٢) تسليم له
كفؤ^(٣) النبي وكفؤ أعلى جنة
وعلى أبي السبطين^(٤) من سبق الألى
الطاهر الصهر^(٥) ابن عم المصطفى
مبدي القضايا^(٦) من وراء حجابها
يغزو العداة بغلظة فيهدهم^(٧)
رايائه لا شيء من عقبانها
وعلى كرام ستة عشر^(٨) بهم
ما بين أروغ ماجد نيرائه
وأخي حروب صده رشف^(٩) القنا
ما غرذت شجوا مطوقة وما
وعلى القرابة والصحابة كلهم

وعلى كرائم^(١٠) جذره بعناق
نور يلوح بصفحة السهرق
جيزت له بشهادة وصادق
سبقوا إلى الإسلام أي^(١١) سباق
شرف على التعميم^(١٢) والإطلاق
ومفتح الأحكام عن إغلاق
بصوارم تفري الفقار رفاق
بمطار يوم وغى ولا بمطابق
عند النظام ليالي^(١٣) النشاق
جنح الظلام تشب للطرار
عما قدود مثلهن رفاق
شقت كمام الروض^(١٤) عن أطواق
والتابعين لهم ليوم تلاق

ولما سنى الله في الروم الوقعة المبيدة والوقعة الشهيرة التي أجلت عن قتل
ملكهم معركتها، وانتهت للفتح معركتها وحركتها، وعمت الإسلام بإثعاس فل الكفر
بركتها، قديم مع الوفود من أهل بلده، وهنأ أمير المسلمين^(١٤) بفتحه ذلك، وطلوع

(١) في الأصل: «كرام جذره» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.
(٢) ذو النورين: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، تزوج بنتين من بنات رسول
الله ﷺ على التعاقب، فلقب بذى النورين.

(٣) في الأصل: «كفؤا لنبي وكفؤا على جنة»
خبرت
والتصويب من النفع.

(٤) أبو السبطين: هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

(٥) في النسخ: «يوم».

(٦) في النسخ: «التخصيص».

(٧) في الأصل: «القضا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٨) في الأصل: «فيهم»، والتصويب من النفع.

(٩) في النسخ: «عشرت».

(١٠) في النسخ: «رشق».

(١١) في الأصل: «روض» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٢) هو السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد، حكم غرناطة من
سنة ٧١٣ هـ إلى سنة ٧٢٥ هـ. راجع للمحة البدرية (ص ٧٨).

ولده، فقال: [الكامل]

أَمَلِيكَ أَمْ بَذَرُ الدُّجَى الرُّضَاخُ
أَعْلَى الْمَسَالِكِ مَا بَنَتْهُ يَدُ الثُّقَى
وَأَحَقُّ مَنْ يَدْعَى خَلِيفَةَ رَبِّهِ
كَأَمِيرِ أُنْدَلُسٍ وَنَاصِرِهَا الَّذِي
أَسْمَى الْمَلُوكُ أَبُو الْوَلِيدِ الْمُزْتَضَى
هُوَ دَوْحَةُ الْمَلِكِ الْعَلِيِّ فِرْعَوْنِهَا
وَبِمَحْوِ رَسْمِ عِدَاتِهِ بَلْبَانِهِ^(١)
بَذَرُ الْكَمَالِ لَوْ أَنَّ^(٢) بَذَرًا مِثْلَهُ
بَخَرُ الثَّوَالِ لَوْ أَنَّ^(٣) بَذَرًا مِثْلَهُ
وَلِمِثْلِهِ قَادَ الْجِيَادِ عِدْوُهُ
أَهْوَاهُ شَيْطَانِ الْهَوَى فِي لُجَّةِ
طَمَعِ الشَّقِيِّ أَضْلُهُ وَأَذْلُهُ
فَأَبَادَهُمْ وَمَلُوكُهُمْ فَتَحَّ بَدَا
وَفَوَاصِلُ تُبْرَى بِهِنَ مَفَاصِلِ
لَمْ تُفْنِ كُلُّهُمْ سَيُوفُ الْهِنْدِ بِلِ
مَا زَالَ حَيٌّ عُدَاكَ يَحْسُدُ مَيْتَهُمْ
فَأَقْتُلْ كَبِيرَهُمْ وَأَخْيِ صَغِيرَهُمْ
تُسَبِّحُ^(٤) مَا حَاطَ الْعُدَاةُ وَمَا حَمُوا
يَا أُمَّةَ الْكُفْرَانِ تَفْنِيذًا وَهَلِ
أَتَرَكْتُمْ بِطُرُو^(٥) وَحِيدًا مُفْرَدًا
وَجُؤَانِ^(٦) يَرْتَشِفُ النَّدَى فَنَدِيمُهُ

وَحُسَامُهُ أَمْ بَارَقَ لِمَاخُ؟
وَعِمَادُهَا الْأَعْلَامُ وَالْأَزْمَاخُ
مَلِكٌ خَلَاْفَتُهُ هُدًى وَنَجَاخُ
أَفْنَى الْعُدَاةِ حُسَامُهُ السُّفَاخُ
وَأَعَزُّ مَنْ شَرَّفَتْ بِهِ الْأَمْدَاخُ
وَبِرَاحَتَيْنِهِ تَرْزُقُ الْأَذْوَاخُ
نَطَقَ الْكِتَابُ وَخُطِبَتِ الْأَلْوَاخُ
لَمْ يُبْدِ خَشْيَةَ ثَوْرِهِ الْإِصْبَاخُ
لَارْتَاعَ خَشْيَةِ قَيْضِهِ الْمَلَاخُ
فَخَبَا لَهُ قِدْحٌ وَخَابَ قِدَاخُ
إِنَّ الْهَوَى بِالْأَيْفِ طَمَاحُ
كُلِ الْمَطَامِعِ لِلْعَبِيِّ فَصَاخُ
وَيَسْعُدُ جَدُّكَ رُبْنَا فَتَاخُ
وَصَفَائِحُ^(٧) يُفَرِّى بِهِنَ صِفَاخُ
لَسَيُوفِ جُودِكَ فِي النُّفُوسِ جِرَاخُ
وَيَحْتُ قَوْنًا عَاجِلًا فَيُجِرَاخُ
وَاسْبِ النِّسَاءِ^(٨) فَمَا عَلَيْكَ جُنَاخُ
وَجِمَاكَ يَا مَنْصُورَ لَيْسَ يُبَاخُ
لَجَفُونَ أَعْمَى يَنْجَلِي مُصْبَاخُ؟
يَشْدُو عَلَيْهِ الطَّائِرُ الصَّبَاخُ؟
غَرِيَابُهُ وَوَسَادُهُ الصُّفَاخُ^(٩)

(١) في الأصل: «بلبانه» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «أن» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا همزة القطع همزة وصل.

(٣) في الأصل: «وصفاخ» وكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «النساء» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «تسبيح» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) هو بطره بن الهونش بن هرائد بن شانجه، صاحب قشتالة. راجع اللمعة البدرية (ص ١١٩).

(٧) هو الدون خوان Don Juan، الوصي على ملك قشتالة.

(٨) الصفاخ: حجارة عريضة رقيقة. محيط المحيط (صفحة).

وكذلك المُطْرَانُ جاد رسومه
 أَرْوُسُ^(١) تَبْيَضُ النعمام بِمَرْجِنَا
 ما لِلْمَظَامِيرِ اشْتَكَّتْ مِنْ ضَيْقِهَا
 جَارَتْ بِكُمْ أَبْطَالُنَا فَكَأَنَّكُمْ
 تَبُّوا لِرُومِي يَهِيْمُ بِرَاحَةٍ
 قُضْتُ قَوَادِمُكُمْ فَمَا إِقْدَامُكُمْ
 هَذَا فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِبِلَادِكُمْ
 قَدْ إِنْثَنَتْ^(٢) بِطَحَاؤُنَا بِحَطَامِكُمْ
 تَالله مَا كُنْتُمْ بِأَوَّلِ عَسْكَرِ
 الْقُسُ غَرْكُمُ لِيَهْلِكُ نَسْلُكُمْ
 كَمْ ذَا يَسْخَرُكُمْ وَيَسْخَرُ مِنْكُمْ
 مِنْهَا:

وفوارس نَشَاوْ لِتَهَبِ فِرَاسِ
 أَرْبُوا عَلَى الْأَسَدِ الْهَزْبِ بِسَالَةٍ
 خَاضُوا بِحَارِ الْحَرْبِ يَطْمُرُ بِحَرْهَا
 مَا هُمْ بِبِذْلِ نَفُوسِهِمْ وَنَفِيسِهِمْ
 وَإِذَا هُمْ ذُكِرُوا بِنَادٍ فَانْتَشِقُ
 فَعْدَا وَرَاحِ النَّصْرُ يُقَدِّمُ جَمْعَهُمْ
 سَنَّاكَ مَوْلَانَا بِسَعْدٍ مُقْبِلِ
 وَيَنْجِلُكَ الْبَدْرُ الَّذِي آفَأَهُ
 بِدْرِ الْبَدُورِ فَلَا بَدَارَ عَلَيْهِ

طلبوا انتِشاءً للدُّمَا لَا الرَّاحَ^(٤)
 مَعَ أَنَّهُمْ غَرُّ الْوَجُوهِ صَبَاحُ
 وَوَطِيشُهَا حَامِي الصُّلَى لِفَاحُ
 وَعَنْ^(٥) النَّوَالِ أَوْ النَّزَالِ سِجَاحُ
 مَسْكًا تَضْوَعُ عَرْفُهُ النَّفَاحُ
 وَيَحْقُفُّهُمْ حَيْثُ اعْتَدُوا أَوْ رَاحُوا^(٦)
 خَلَصَاءُ قَدْ عَمَّتْهُمْ الْأَفْرَاحُ^(٧)
 مُلْكٌ وَهَالِثُهُ هُدَى وَصَلَاخُ
 وَبِذَا أَنْارَتْ^(٨) أَرْبَعُ وَبِطَاحُ

(١) في الأصل: «أَمْ تَبْيَضُ» وكذا يَنْكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «أَمْ».

(٢) في الأصل: «وَلِلَّيْلِ» وكذا يَنْكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «قَدْ انْثَنَتْ» وكذا يَنْكسر الوزن، لذا جعلنا همزة الوصل همزة قطع.

(٤) في الأصل: «انْشَاوْ الدُّمَا لِلرَّاحِ» وكذا لَا يَسْتَقِيمُ الوزن وَلَا المعنى.

(٥) في الأصل: «عَنْ النَّوَالِ وَالنَّزَالِ...»، وكذا يَنْكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «رَاحَ».

(٧) في الأصل: «لَهُ أَفْرَاحُ» وكذا لَا يَسْتَقِيمُ الوزن وَلَا المعنى.

(٨) في الأصل: «نَارَتْ» وكذا يَنْكسر الوزن. وَأَنَارَتْ وَنَارَتْ: كِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَهُوَ أَضَاءَ.

فلکم عدوّ ما^(١) أقلّ بزوغه
وهنا ونالك بالأمير تجدد
قد جاء بعد العشر يُسرّ شامل
فالحمد لله الذي قد خَصَّنَا
وعلى المقام المزلويّ تحية
ما خطّ مذحك في الطُروس مُحَبَّر

خَسَفَتْ به الأوجال والأتراح
كلُّ بحُبِّك تُفْسِه تراتح
قد جاء بعد الشدة الإنجاح
ولنا بحمدك بعده إفصاح
كالزُهر إذ تُهْدِي شذاه رياح
ومحا^(٢) دياجير الأصيل صباح

وقال يرثي الخطيب ببلده، الشهير الفاضل، أبا الحسن بن شعيب، رحمه الله:

[الطويل]

بِوَادِي لَقَدْ حَمَلْتِ مَا لَيْسَ لِقَوَاهُ
بُلَيْتِ بِذَا التَّفْرِيقِ فَاضِيرٍ فَرِيمَا
شَجَا كُلَّ نَفْسٍ فَقَدْ أَنْقَسَ جَوْهَرُ
بَكى كُلُّنَا حَزَنًا عَلَيْهِ كَمَا بَكَى
فَلِلَّهِ خَطْبٌ جَلِيلٌ لَقَدْ رَمَى
فَلَوْلَاكُمْ يَغْلِبُ تَأْسِينَا الْأَسَى
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ جَفَا جَفْنَهُ الْكَرَى
وَفَاءُ^(٥) الْمَرِيّ وَقَى فَوْقِي أَجْرَهُ
أَبِي الْحَسَنِ الْعَدْلُ الرِّضَا الْمُحْسِنُ الَّذِي
خَطِيبٌ جَلَا فَصَلَ الْخَطَابَ بَيَانُهُ
وَجَسْمُ الْهَدْيِ الرُّحْبُ السَّبِيلُ وَرُوحُهُ
مَطِيعٌ رَفِيعٌ خَاضِعٌ مُتَوَاضِعٌ
مَتَى يَمْشِ^(٦) هَوْنًا لَيْسَ إِلَّا لِمَسْجِدٍ
تَكَلَّمَهُ عَزْفٌ وَذَكَرَ وَحِكْمَةٌ

فِرَاقٌ وَلَا^(٣) مِنْ شَرَفِ الْأَرْضِ تَقْوَاهُ
بَلَّغْتَ بِحَسَنِ الصَّبْرِ مَا تَتَمَنَّا^(٤)
تُعَدُّ وَلَا تُخْصَى كِرَامِ سَجَايَاهُ
لِفَرْقَتِهِ مِخْرَابُهُ وَمُصَلَّاهُ
أَجَلٌ خَطِيبٌ بِالْجَلَالَةِ مَضْمَاهُ
وَلَمْ يَشْمَلِ الشُّمْلُ التَّفَجُّعُ لَوْلَاهُ
وَمَنْ جَائِبَتْ وَضَلَّ الْمَضَاجِعُ جَنْبَاهُ
وَأَضْفَى بِإِصْفَاءِ الْإِلَهِ وَصَافَاهُ
أَتَتْهُ بِأَضْعَافِ الزِّيَادَةِ حُسْنَاهُ
وَأَعْدَلُ قَاضٍ فَاضِلٌ فِي قَضَايَاهُ
وَلَفِظُ الْعُلَى الْفَخْرُ الْأَصِيلُ وَمَعْنَاهُ
كَرِيمٌ حَلِيمٌ طَاهِرُ الْقَلْبِ أَوَاهُ
تَمِيدُ^(٧) خَجَلًا أَرْضٌ بِهَا حَطُّ نَغْلَاهُ
تَلَذُّ بِهَا الْأَسْمَاعُ مَا كَانَ أَخْلَاهُ

(١) كلمة «ما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها لكي يستقيم الوزن.

(٢) في الأصل: «ومحي دجاجة» وكذا لا يستقيم لا المعنى ولا الوزن. والدجاجير: جمع ديجور وهو الظلام. محيط المحيط (دجا).

(٣) في الأصل: «ولى شرف» وكذا يتكرر الوزن.

(٤) في الأصل: «ما تمناه» وكذا يتكرر الوزن. (٥) في الأصل: «وفاة».

(٦) في الأصل: «يمشي» وكذا يتكرر الوزن.

(٧) في الأصل: «تميد» وكذا يتكرر الوزن. وهو فعل مجزوم لأنه جواب فعل الشرط.

كذا صَمَّمَتْهُ حَوَافٌ وَفَكَرَّ وَخَشِيَّةٌ
 يصوم وقد طال النهار مُهَجَّرًا
 فكم دارس أحياء من أربع الثقا
 فيا طَيِّبًا أَضَلًّا وَذَكَرًا وَتُرْبَةً
 وفي حرقه تحنو ومرأى وباطنا^(١)
 مُحَيًّا يُرَوِّي الناظرين تَهْلُلًا
 بحُبِّكَ هَامَتْ كُلِّ نَفْسٍ مُنِيبَةً
 فما أَنْعَمَ الْأَرْضَ الَّتِي بِكَ قُدِّسَتْ
 بُشْرَاكَ إِنَّا قَدْ شَغَلْنَا بِحَزْنِنَا
 عَزًّا لِأَهْلِيهِ الْأَهْلَةِ أَنْهَمَ
 نال شُعِيبٌ فِي الزَّمَانِ بِدَوْرِهِ
 أُعْزِي أُولِي الْإِيمَانِ كُلًّا بِفَقْدِهِ
 سقى الله وَسَمِيَّ الْحَيَا ذَلِكَ الثَّرَى
 كما قد سقاه لَيْلَةَ الدَّفْنِ رُبَّهُ
 تَرْضَوْا عَنِ الْقَاضِي الْإِمَامِ خَطِيبِكُمْ
 وصلُّوا عَلَى هَادِي الْأَنَامِ نَبِيِّكُمْ
 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا الرُّوضُ فَاحٌ إِنْ
 وفاته: توفي، رحمه الله، في رمضان، تحقيقًا من سنة خمس^(٢) على شك
 وسبعمائة، أخبرني بذلك مَنْ يُوَثِّقُ بِهِ.

محمد بن عبد الله بن الحاج البضيعة

من أهل مالقة، وتردّد كثيرًا على الحضرة، مُسْتَرْفَدًا وَمُنْشَدًا، وفي غير ذلك من
 الأغراض، يكتنى أبا عبد الله.

حاله وشعره: من الإكليل: شاعر اتخذ النظم بضاعة، وما ترك السعي في
 مذاهبه ساعة، أجرى في الملا، لا في الخلا، وجعل ذكره دلوّه من الدّلا، وركض

(١) في الأصل: «للنغمض» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «وفي حشقة نحن ومرتبًا وباطنا» وكذا لا يستقيم لا المعنى ولا الوزن.

(٣) الصواب أنه توفي سنة خمسين وسبعمائة كما جاء في بغية الوعاة (ص ٦٠). وجاء في الدرر
 الكامنة (ج ٤ ص ١٠٣) أنه مات بالطاعون عام ٧٤٩ هـ.

في حَلْبَةِ النجبا النجائب، ورمى في الخواطي بسهم صائب، فخرج بَهْرَجُهُ وَتَفَقَّ،
وارتَفَدَ يسببه وارْتَفَقَ. وهو الآن قد سالمته السنون، وكأثما أَمِنَ المَثُون، من رجل
مَكْفُوف الأذى، حسن الحالة إِلَّا إذا، هذا قُلْتُ، ثبت هذا والمذكور حي، وقد مات،
رحمه الله.

ومن شعره: [الطويل]

رجائي ^(١) في المولى العظيم عظيم	غَنَيْتَ به حيث الغِناء مُدِيمُ
وحسبي الرجا فيمن عليه مُعُولِي	حديث حديث لم يزل وخدمُ
وما عَرَفْتُ نَفْسِي سوى بابِ فَضْلِهِ	على ثِقَةٍ أَنَّ الكريم كريمُ
فإن قيل عَنِّي مُذنب قلت سيّدُ	كفيل بغفران الذنوب رحيمُ
وما اغتصم المملوك إِلَّا بِحَبْلِهِ	فجائِبُهُ تُغَمِّي لنا وتُعِيمُ
رضاء سبيلُ للنجاة وحبُّه	طريقُ لجنّاتِ التَّعِيمِ قديمُ

وأشدَّ يومًا الأمير ثالث الأمراء من بني نصر^(٢) يهنيه بالملك ويُعزِّيه^(٣):
[الوافر]

على مَنْ تُنْشَرُ اليومَ البُنودُ؟ وتحت لواء مَنْ تشري الجنودُ؟
وقال^(٤): على هذا الكذا، الذي بين يديك، فحجل، وعظم استظراف
الحاضرين لذلك.

وفاته: توفي في كذا وسبعمائة.

محمد بن عبد الله بن فطيس

يكنى أبا عبد الله، من أهل مالقة. وقال الأستاذ^(٥): من بيت فطيس
الأنبييين.

-
- (١) في الأصل: «رجاي» وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الحلقب بالمخلوع،
وقد حكم من سنة ٧٠١ هـ حتى سنة ٧٠٨ هـ. اللوحة البدرية (ص ٦٠).
(٣) الحكاية والبيت في اللوحة البدرية (ص ٦١).
(٤) في اللوحة البدرية أن ضمير «قال» يعود إلى السلطان أبي عبد الله المخلوع، وجاء هناك هذه
العبارة: «فقال له السلطان: على هذا الزيتلح الذي ترى قدامك - يعني نفسه - فاستطرفها الناس،
وحجل الشاعر».
(٥) الأستاذ: هو أبو جعفر بن الزبير، صاحب كتاب صلة الصلة.

حاله: قال: طيب ماهر، وأديب شاعر؛ كان في أيام بني حُسون، يخفُّ عليهم، وله فيهم أمداح كثيرة. يُذكر أنه دخل يوماً على القاضي أبي مروان بن حُسون، بعد انقطاع عن زيارته، فعَثَبه القاضي، فاعتذر، ثم أنشد: [مخلع البسيط]

يا حاملاً من عُلاه تاجاً ومن سنا وجهه سراجاً
لو كان رُودي عديل وُدي لكنتُ من بابك الرُتاجاً
إن لم يُعزج عليك شخصي نفسي وروحي عليك عاجاً
وذكره ابن عسك في كتابه.

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن
فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمي
ذو الوزارتين^(١)

يكنى^(٢) أبا عبد الله، رُندي النشأة، إشبيلي الأصل، يرجع بيته، وبيت بني حجاج، وبيت بني عباد، إلى جُرثومة واحدة. وانتقل سلفه إلى رُندة في دولة بني عباد، ويحيى جدّ والده هو المعروف بالحكيم لطفه. وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر، إثر قُفوله من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله بن رُشيد الفهري، فالحقه السلطان بكتّابه، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء، إلى أن توفي هذا السلطان، وتقلّد الملك بعده وليّ عهده أبو عبد الله المخلوع، فقلّده الوزارة والكتابة، وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدّاني، فلمّا توفي أبو سلطان أفرد السلطان بالوزارة، ولقّبها ذا الوزارتين، وصار صاحب أمره، إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلاً، نفعه الله تعالى، غُدوة يوم الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين، أبي الجيوش، مكانه.

حاله: كان^(٣)، رحمه الله تعالى، علماً في الفضيلة والسراوة، ومكارم الأخلاق، كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحُزمة، عالي الهمة، كاتباً بليغاً، أديباً،

(١) ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٠) و(ج ٨ ص ٤٢) ضمن ترجمة ولده أبي بكر محمد بن أبي عبد الله بن الحكيم الرندي.

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٢ - ٤٣). (٣) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٣).

شاعراً، حسن الخط، يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع، خطيباً، فصيح القلم، زاكي الشيم، مؤثراً لأهل العلم والأدب، بَرّاً بأهل الفضل والحسب، نفقت بمدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للفضائل آفاق^(١). ومن «عائد الصلة»: كان^(٢)، رحمه الله، فريد دهره سماحة، وبشاشة، ولؤذعية، وانطباعاً، رقيق الحاشية، نافذ العزمة، مُهْتَرِماً للمديح، طَلَقاً للأمل، كَهْفاً للغريب، بَرَمَكِي المائدة^(٣)، مُهَلِّبِي الحُلُوى^(٤)، رَيَّان من الأدب، مضطلعاً بالرواية، مستكثرًا من الفائدة. يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدم الناس في باب التَّحْسِين والتَّقْبِيح، ورَفَع راية الحديث والتَّحْدِيث، نَفَقَ بضاعة الطلب، وأخيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تَشْغَلْهُ السياسة عن النظر، ولا عاقَّة تديِّرُ الملك عن المطالعة والسماع والإفراط^(٥) في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزانها، وأثرت أُنْدِيَّتُهُ من ذخائرها. قام له الدَّهْرُ على رَجُلٍ^(٦)، وأخدمه صدور البيوتات، وأعلام الرِّياسات، وخُوطِبَ من البلاد النازحة، وأُمِّلَ من^(٧) الآفاق النائية.

رحلته ونباهته: رحل^(٨) إلى الحجاز الشريف من بلده، على فُتَاء سِنِّه، أول عام ثلاثة^(٩) وثمانين وستمائة، فحج وزار، وتجوَّل في بلاد المشرق، مُتَّجِعاً عوَالِي الرواية في مَظَانِّهَا، ومُنْقَرِّاً عنها عند مُسْنِي شيوخها، وقيد الأناشيد الغربية، والأبيات المَرْقُصَة، وأقام بمكة شَرْفَهَا اللهُ، من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة يأتي ذكرهم في مشيخته. وانصرف إلى المدينة المشرفة، ثم قَفَلَ مع الرَّكْبِ الشامي إلى دمشق، ثم كَرَّ إلى المغرب، لا يَمُرُّ بمجلس عِلْمٍ أو تَعَلُّمٍ إِلَّا رَوَى أو رُوِيَ. واحتلَّ رُندة، حرسها الله، أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة، وأقام^(١٠) بها عَيْنًا في قرابته، وَعَلَمًا في أهله، مُعَظِّمًا عندهم^(١١)، إلى أن أَرْقَعَ السلطان بالوزراء من بني حبيب، الوقيلة البَرَمَكِيَّة^(١٢). وورد رُندة في أثر ذلك، في شهر جمادى الآخرة من عام ستة وثمانين وستمائة، فتعرَّض إليه، ومدحه^(١٣)، وهتاه بقصيدة طويلة

(١) هنا ينتهي النص في نفع الطيب. (٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٧ - ٤٨).

(٣) برمكي المائدة: نسبة إلى البرامكة الذين كانوا مضرب المثل في الكرم والضيافة.

(٤) مهلي الحلوى: نسبة إلى بني المهلب بن أبي صفرة، وكانوا مضرب المثل في أكل الحلوى.

(٥) في النفع: «وأفراط».

(٦) قام له الدهر على رجل: كناية عن مطاوعة الدهر له.

(٧) في النفع: «في». (٨) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩).

(٩) في الأصل: «ثلاث»، وهو خطأ نحوي. (١٠) في النفع: «أقام».

(١١) في النفع: «الديهم». (١٢) المراد وقيلة هارون الرشيد بالبرامكة.

(١٣) كلمة «ومدحه» غير واردة في النفع.

من أوليات شعره، أولها^(١): [الرمل]

هل إلى رَدَّ عَشِيَّاتِ الوصالِ سَبَبٌ أم ذاك مِنْ ضَرْبِ المُحالِ؟

فلَمَّا أنشدَها إياه، أعجب به، وبَحُسْنِ خطِّه ونِصَاعَةِ ظَرْفِهِ، فأثنى عليه، واستدعاه إلى الوفادة على حَضْرَتِهِ، فوفد^(٢) إليها في آخر العام المذكور، فأثبتته في خواصِّ دولته، وأخطاه لديه، إلى أن رَفَّاه إلى كتابة الإنشاء ببابه. واستمرَّت حاله، مُعْظَمَ القَدْرِ، مخصوصًا بالمزية، إلى أن توفي السلطان، ثاني الملوك من بني نصر، وتقلَّد الملك بعده، وليُّ عهده أبو عبد الله، فزاد في إحضائه وتقريبه، وجمع له بين الكتابة والوزارة، ولقَّبه بذي الوزارتين؛ وأعطاه العلامة، وقلَّده الأمر، فَبُعِدَ الصَّبِيُّ، وطاب الذِّكْرُ، إلى أن كان من الأمر^(٣) ما يأتي به الذكر قريبًا إنشاء الله تعالى.

مشيخته: قرأ^(٤) بُرْنَدَةَ على الشيخ النحوي أبي الحسن علي بن يوسف العبْدَرِي السُّفاح، القرآن العظيم بالروايات السَّبع، والعربية وغير ذلك. وعلى الخطيب بها أبي القاسم بن الأيسر، وأخذ عن والده جميع مَرْوِيَّاتِهِ. واستجاز له في صغره أعلام ذلك الزمان، وأخذ في رحلته عن الجِلَّة من الجملة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر.

فمنهم أبو اليمن جارا الله ابن عساكر، لقيه بالحرَم الشريف، وانتفع به، واستكثر من الرواية عنه. ومنهم الشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرَّاني، المعروف بابن هبة الله الحرَّاني. ومنهم الشيخ الشريف^(٥) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري - جزائر المغرب - نزيل بغداد. ومنهم الشيخ أبو الصفا خليل بن أبي بكر بن محمد المرادي الحنبلي، لقيه بالقاهرة. ومنهم الشيخ رَضِي الدين القُسْطَمِينِي أبو بكر. ومنهم الشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدُمياطي، إمام الديار المصرية، في الحديث ومؤرخها وحافظها. ومنهم عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن أحمد الخيمي، شهاب الدين أبو عبد الله، نزيل مَشْهَد الحُسَيْن بن علي، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها^(٦): [البسيط]

يا مَطْلَبًا ليس لي في غيره أَرْبُ إليك آلُ التَّقْصِي وانتهى الطَّلَبُ

(١) هو مطلع قصيدة طويلة سترد في هذه الترجمة بعد قليل.

(٢) في النسخ: «فوفد آخر عام ستة وثمانين». (٣) في النسخ: «من أمره ما كان».

(٤) النص في النسخ (ج ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢). (٥) في النسخ: «الشرف».

(٦) البيت في نسخ الطيب (ج ٣ ص ٣٦١) و(ج ٧ ص ٢٤٦) وجاء في الجزء السابع: «التقصي» بالضاد المعجمة.

ومنها البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه^(١):

يا بارقاً بأعالي الرُّقْمَتَيْنِ بَدَا لقد حَكَيْتَ ولكنَّ فَاتَكَ السَّبَبُ^(٢)

ومنهم عبد المولى يحيى بن حماد البَغْلَبَكِي؛ مولده سنة إحدى عشرة وستمئة. ومنهم محمد بن بكر بن خلف بن أبي القاسم الصُّفَار. ومنهم الشيخ أبو الفضل الأديب جمال الدين بن أبي الخير بن علي بن عبد الله بن رواحة. ومنهم محمد بن يحيى بن عبد الله القرشي جمال الدين أبو صادق، ومن تخريجه «الأربعون المروية بالأسانيد المصرية»، وسمع الحَلَبِيَّات من ابن عماد الحرَّاني والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمئة. ومنهم الشيخ محمد بن عباس الأشعري تقي الدين الحافظ أبو القاسم. ومنهم الشيخ محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عبد المجيد الأنماطي. ومنهم أبو البدر بن عبد الله بن أبي الزبير، الكاتب المصري. ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن عبد المنعم بن خلف التُّدميري. ومن رؤساء شيوخه؛ الشيخ محيي الدين أبو الفضل. ومنهم زينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، تُكْنَى أم الفضل، وسمعت من أبيها. ومنهم محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الخُرَّاساني، أبو عبد الله مَوْفَّر الدين، وألبسه خِرْقَة التصوف. ومنهم الشيخ محمد بن يحيى بن هَيِّرة الشَّيباني شرف الدين. ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن عيسى بن عيسى بن يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل السُّلَفِي. ومنهم الشيخ علي بن عبد الكريم بن عبد الله الدَّمَشْقِي، أبو الحسن؛ ولد سنة سبع وتسعين وخمسمئة. ومنهم الشيخ غازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الجلاوي. ومنهم الشيخ نور الدين علي بن محمد أبي البركات الأنصاري المقرئ بَحْرَم الخليل، سمع من أبي الحسن علي بن شجاع. ومنهم يوسف بن داود بن عيسى بن أيوب الحنفي.

ومنهم الملك الأوحَد يعقوب بن الملك الناصر صلاح الدين^(٣) داود بن الملك المعظَّم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. ومنهم عبد المنعم بن يحيى بن إبراهيم بن علي بن جعفر القرشي الزُّهري خطيب القُدْس. ومنهم الشيخ عبد الحفيظ بن بَذْران، ويُدْعَى عليّ الدين من أهل بانياس، سمع من ابن صيصري. ومنهم الشيخ علي بن عبد الرحمن بن عبد المنعم المقدسي. ومنهم الشيخ محمد بن

(١) البيت في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦١). (٢) في النفع: «السَّبَب».

(٣) في الأصل: «صلاح الدين وداود»، والتصويب من النفع.

محمد بن سالم بن يوسف بن أسلم القرشي، جمال الدين. ومنهم عبد الواسع بن عبد الكافي شمس الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن أحمد الزجاجي البغدادي الإمام تقي الدين. ومنهم عبد الجميل بن أحمد بن الزجاج. ومنهم فاطمة بنت إبراهيم بن محمد بن محمود بن جوهر البعلبكي، الشیخة الکاتبة الخيرة أم الخير. ومنهم الشيخ يوسف ابن أبي ناصر السقاوي. ومنهم الشيخ عبد السلام بن محمد بن مزروع، أبو محمد عفيف الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن عثمان بن محمد الشافعي البخاري شمس الدين. ومنهم الشيخ عبد الله بن خير بن أبي محمد بن خلف القرشي. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الباقي بن علي الصواف شرف الدين. ومنهم الشيخ علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن زريق الكاتب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ سليمان بن علي بن عبد الله الكاتب التلمساني عفيف الدين الصوفي الأديب نزيل دمشق، ومولده بتلمسان. ومنهم الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد الميموني البستي القسطلاني قطب الدين، الإمام المفتي شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة المعزية. ومنهم الشيخ عبد الكريم بن علي بن جعفر القرشي جمال الدين. ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الظاهر جمال الدين. ومنهم محمد بن محمد بن إبراهيم النجاشي. ومنهم الشيخ عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر الطبري، إمام الروضة النبوية ثم الصخرة القدسية. ومنهم الشيخ فخر الدين عثمان بن أبي محمد بن إسماعيل بن جندرة. ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد القلي بن أنسكرت فخر الدين. ومنهم الشيخ ثابت بن علي بن عبد العزيز بن قاسم بن عبد الرازق، سمع على ابن المغيرة البغدادي. ومنهم الشيخ أمين الدين أبو الهامات جبريل بن إسماعيل بن سيد الأهل الغساني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الأندلسي الأصل شرف الدين، سمع من علم الدين الشيخخوني وغيره. ومنهم الشيخ محمد بن محمد الشامي الشافعي الدمشقي، إمام مسجد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يدعى شمس الدين، سمع من الزبيدي. ومنهم الشيخ يحيى بن الخضر بن حاتم الأنصاري، يعرف بابن عز الدولة.

وأجاز له جماعة، منهم ابن عماد الحزاني، ومنهم ابن يحيى بن محمد بن محمد الهمداني كمال الدين، وسمع من ابن الزجاج وابن رواح الجميري. ومنهم الشيخ عبد الملك أبو المعالي بن مفضل الواسطي، عرف بابن الجوزي، سمع على جماعة، منهم شعيب الزعفراني. ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن ياسر بن شاکر الحاکمي. ومنهم الإمام مفتي المسلمين، رضي الله عنه. ومنهم أبو عبد الله محمد بن

أبي بكر بن خليل العسقلاني المكي. ومنهم الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد بن محمد بن محمد بن رُحيمة الكِناني، خطيب بجاية. ومنهم قاضي القضاة ببلاد إفريقية أبو العباس ابن العَمَّاز البَلَنسي، لقيه بتونس. ومنهم الفقيه العلامة الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزي الكلبي. ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله بن يوسف الخلابي. ومنهم الشيخ المغربي أبو محمد الحجاج بن يوسف بن إبراهيم بن عتاب، لقيه بتونس. ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن يربوع السبتي. ومنهم الإمام قُدوة النحاة أبو الحسين عبيد^(١) الله بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن أبي الربيع القرشي. ومنهم الإمام أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبد الحق الزواوي المَشْدالي، من أهل بجاية. ومنهم الخطيب القاضي أبو عمرو إسحاق بن أبي إسحاق بن عبد الوهاب الرُندي، إلى طائفة كبيرة من أهل المشرق والمغرب.

محتنته: أغرَى به الأمير ولي العهد، بسبب أمور اختلف فيها، منها أبيات في هُجو الدولة النصرية، الله أعلم بصحة نسبتها إليه، فأوقع به، وناله بين يديه نكال كبير أفَلَّت منه برفق، واختفى مدة في المآذن المُقفلة والأماكن الخفية، حتى أصحى له جُز سخطه، وقضى الله برذ أمره إليه، واستيلائه على ما وراء بابه.

مَن روى عنه: أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاصي، وتَدَبَّح معه رفيقه عبد الله بن رُشيد وغير واحد. وكان ممدوحًا، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المُهيمن الحَضرمي، والرئيس أبو الحسن بن الجياب، وناهيك بهما. ومن بديع مدح ابن الجياب له، قصيدة رائية رائقة، يهنئه فيها بعيد الفطر، منها في أولها^(٢): [البسيط]

يا قادمًا عَمَّتِ الدنيا بشائِرُهُ	أَهْلًا بِمَقْدِمِكَ الميمونِ طائِرُهُ
وَمَرْحَبًا بِكَ مِنْ عِيدِ تَحُفِّ بِهِ	مِن السَّعَادَةِ أَجْنَادُ تَظَاهِرُهُ ^(٣)
قَدِمْتَ فَالْخَلْقُ فِي نَغْمِي وَفِي جَذَلِ	أُبْدَى بِكَ الْبَشَرَ بِأَدْيِهِ وَحَاضِرُهُ ^(٤)
وَالْأَرْضُ قَدْ لَبَسَتْ أَثْوَابَ مُنْذَرِهَا	وَالرَّوْضُ قَدْ بَسَمَتْ مِنْهُ أَزَاهِرُهُ
حَاكَتْ يَدُ الْغَيْثِ فِي سَاحَاتِهِ حُلَلًا	لَمَّا سَاقَهَا دِرَاكُمَا مِنْكَ بَاكِرُهُ
فَلَاحَ فِيهَا مِنَ الْأَنْوَارِ بَاهِرُهَا	وَفَاحَ فِيهَا مِنَ الثُّوَرِ عَاطِرُهُ

(١) في النسخ (ج ٣ ص ٣٦٢): «عبد الله».

(٢) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٣ - ٤٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٢ - ٣٤٤).

(٣) في المصدرين: «تظافره».

(٤) أراد بحاضره سكان الحاضرة.

وقام فيها خطيب الطير مرتجلا
 مرشئ نوب طواه الدهر آوئة
 فالغصن من نشوة يثني معاطفه
 ولكم انشقاق عن ازاهرها
 لله يومك ما اذكى فضائله
 فكم سريرة فضل فيك قد خبيث
 فافخر بحق على الايام قاطبة
 فانت في عصرنا كابن الحكيم اذا
 يلتاح منه بأفق الملك نوز هدى
 مجد صميم على عرش السماك سما
 وزارة الدين والعلم الذي رفعت
 وليس هذا ببذع من مكارمه
 يلقى الامور بصدر منه منشرح
 راعى امور الرعايا مغيلا نظرا
 والملك سير في تدبيره حكما
 سياسة الحكم^(١) لا بطش يكرها
 لا يضدر الملك إلا عن اشارته
 تجري الامور على أقصى إرادته
 وكم مقام له في كل مكرمة
 ففضلها طبق الآفاق أجمعها
 فليس يخجده إلا أخو حسد
 لا ملك أكبر من ملك يدبره
 يا عز أنبر به اشتدت مضاربه
 ثني البلاد وأهلوها بما عرفوا
 بشرى لآمله الموصول مأملة
 فالعلم قد أشرق نورا مطالعه

والزهر قد رصعت منه منابره
 فيها هو اليوم للأبصار ناشره
 والطير من طرب تشدو مزاهره
 كما بدت لك من خل ضمائره
 قامت لدين الهوى^(٢) فيه شعائره
 وكم جمالي بدا للناس ظاهره
 فما لفضلك من يد يظاهره^(٣)
 قيست بفخر أولي العلى مفاخره
 تضاءل الشمس مهما لاح زاهره
 طالت مبانیه واستغلت مظاهره
 أعلامه والتدى الفياض زاخره
 سارت أوائله فيه أواخره
 بخر وآراؤه العظمى جواهره
 كمثلي علياه مغدوما نظائره
 تنال ما عجزت عنه عساكره
 فهو المهيب وما تخشى بواده
 فالرشد لا تتعداه مصائره
 كأنما دهره فيه يشاوره
 أنست موارده فيها مصادره
 كأنه مثل قد سار سائره
 يرى الصباح فيغشى منه ناظره
 لا ملك أسعد من ملك يؤازره
 يا حسن ملك به ازدانت محاضره
 ويشهد الدهر آتیه وعابره^(٤)
 تغسا لحاسده المقطوع دابره
 والجود قد أسبلت سحا مواطره

(١) في المصدرين: «الهدى».

(٣) في المصدرين: «الحلم».

(٢) في أزهار الرياض: «ينظره».

(٤) في المصدرين: «وغابره» بالغين المعجمة.

والناس في بِسْر^(١) والمُلْك في ظَفِرِ
والأَرْضُ قد مُلِثَتْ أَمَّا جَوَانِبُهَا
والى^(٢) أياديهِ من مَثْنَى وواحدة^(٣)
فكلُّ يَوْمٍ تَلَقَّانَا عِوَارُفَهُ
فمن يُوْذِي لِمَا أَوْلَاهُ مِنْ نِعَمٍ
يا أيها العَبْدُ^(٤) بِادِرْ لَثَمَ رَاحَتِهِ
وافخرْ بَأَن قَدْ^(٥) لَقِيتَ ابْنَ الْحَكِيمِ عَلَى
وَلَى الصِّيَامِ وَقَدْ عَظُمَتْ خُرْمَتُهُ
وَأَقْبَلَ الْعَبِيدُ فَاسْتَقْبِلْ بِهِ جَذَلًا

عَالٍ عَلَى كُلِّ عَالِي الْقَدْرِ قَاهِرُهُ
بِئْمَنِ مَنْ خَلَصَتْ فِيهَا سِرَائِرُهُ
تُسَاجِلُ الْبَحْرَ إِنْ فَاضَتْ زَوَاحِرُهُ
كَسَاهُ أَمْوَالُهُ الطُّولَى دِفَاتِرُهُ
شَكَرًا وَلَوْ أَنَّ سَخْبَانًا يُظَاهِرُهُ
فَلَثُمَهَا خَيْرُ مَأْمُولٍ تُبَادِرُهُ
عَضِرُ يُبَارِيكَ أَوْ دَهْرٍ تُفَاخِرُهُ
فَأَجْرُهُ لَكَ وَافِيهِ وَوَافِرُهُ
وَاهْنًا بِهِ قَادِمًا عَمْتُ بِشَائِرُهُ

ومن مدح الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي له قوله: [الطويل]

تراءى سَحِيرًا والنسيم عليلُ
وللفجر نَهْرٌ خَاضَهُ اللَّيْلُ فَاغْتَلَتْ
بَرِيقٌ بِأَعْلَى الرُّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهُ
فَمَزَّقَ سَاجِي اللَّيْلِ مِنْهُ شَرَارَةٌ
تَبَسَّمَ تُغْرِ الرُّوْضَ عِنْدَ ابْتِسَامِهِ
وَمَالَتْ غُصُونُ الْبَانِ تَشْرَى كَأَنَّهَا
وَعَثَّتْ عَلَى تِلْكَ الْغُصُونِ حِمَاتِمُ
إِذَا سَجَعَتْ فِي لَحْنِهَا ثُمَّ قَرَزَتْ
سَقَى اللَّهُ رَبِّعًا لَا يَزَالُ يَشْوِقُنِي
وَجَادَ رَبَّاهُ^(٦) كَلَّمَا ذَرَّ شَارِقُ
وَمَا لِي أَسْتَسْقِيَ الْغَمَامَ وَمَذْمَعِي
وَعَاذِلَةٌ بَاتَتْ تَلُومُ عَلَى السُّرَى
تَقُولُ إِلَى كَمْ ذَا فِرَاقٍ وَغَرِيبَةٍ

وَلِلنَّجْمِ طَرْفٌ بِالصَّبَاحِ كَلِيلُ
شَوَى أَذْهَمَ الظُّلُمَاءَ مِنْهُ خَجُولُ
طَلَانِعُ شَهَبٍ وَالسَّمَاءُ تَجُولُ
وَحَرَّقَ بِسْثَرِ الْغَيْمِ مِنْهُ نُصُولُ
وَفَاضَتْ عَيُونٌ لِلْغَمَامِ هُمُولُ
يُدَارُ عَلَيْهَا مِنْ صَبَاءِ شُمُولُ
لَهْنٌ حَفِيفٌ فَوْقَهَا وَهْدِيلُ
يَطْبِيعُ خَفِيفٌ دُونَهَا وَثْقِيلُ
إِلَيْهِ رِسْوَمٌ دُونَهَا وَطُلُولُ
مِنَ الْوَذْقِ^(٧) هَتَانٌ أَجَشُّ هَطُولُ
سَفُوحٌ عَلَى تِلْكَ الْجِرَاصِ هُمُولُ؟
وَتُكْشَرُ مِنْ بَغْدَالِهَا وَتُطِيلُ
وَنَائِي عَلَى مَا خَيْلَتْ وَرَحِيلُ

(١) في أزهار الرياض: «بُسْر».

(٢) في الأصل: «والى» والتصويب من المصدرين.

(٣) في المصدرين: «وَمَوْحَدَةً».

(٤) في المصدرين: «العبد».

(٥) كلمة «قد» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من المصدرين.

(٦) في الأصل: «رباه» وكذا ينكسر الوزن. (٧) الودق: المطر. محيط المحيط (ودق).

دَرِينِي أُنْعِمِي لِّلَّتِي تُكْسِبُ الْعَلَا
 فَأَمَّا تَرِينِي مِنْ مُعَارَسَةِ الْهَوَى
 وَفَوْقَ أَنْبَابِ الْيَرَاعَةِ صَفْوَةَ
 وَلَوْلَا السُّرَى لَمْ يَخْتَلِ الْبَدْرُ كَامِلًا
 وَلَوْلَا اغْتِرَابُ الْمَرْءِ فِي طَلَبِ الْعَلَا
 وَلَوْلَا نَوَالُ ابْنِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٍ
 وَزَيْرٍ سَمَا فَوْقَ السُّمَّاكِ جَلَالَةَ
 مِنَ الْقَوْمِ أَمَّا فِي التُّدْيِ^(١) فَإِنَّهُمْ
 حَوَّزُوا شَرَفَ الْعَلْيَاءِ إِزْنًا وَمَكْسِبًا
 وَمَا جَوْنَةُ هَطَالَةِ ذَاتِ هَيْدَبٍ
 لَهَا رَجُلٌ مِنْ رَعْدِهَا وَلَوَامِعٍ
 كَمَا هَدَّرَتْ وَسْطَ الْقِلَاصِ وَأَرْسَلَتْ
 بِأَجْوَدَ مِنْ كَفِّ الْوَزِيرِ مُحَمَّدٍ
 وَلَا رَوْضَةً بِالْحَسَنِ طَيِّبَةَ الشُّذَا
 وَقَدْ أَذْكَيتَ لِلزُّهْرِ فِيهَا مَجَامِرَ
 وَفِي مُقْلِ الثُّوَارِ لِلطُّلِّ عَبْرَةَ
 بِأَطْيَبِ مِنْ أَخْلَاقِهِ الْغُرُّ كُلَّمَا
 حَوَيْتَ، أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ، مَنَاقِبًا
 فَغَرْنَاظَةً بِمَضْرُ وَأَنْتَ خَصِيْبُهَا
 فِدَاكَ رَجَالٌ حَاوَلُوا دَرْكَ الْعَلَا
 تَخَيَّرَكَ الْمَوْلَى وَزَيْرًا وَنَاصِحًا
 وَأَلْقَى مَقَالِيدَ الْأُمُورِ مُفَوَّضًا
 وَقَامَ بِحِفْظِ الْمُلْكِ مِنْكَ مُؤَيَّدٌ
 وَسَاسَ الرِّعَايَا مِنْكَ أَشْوَسُ بَاسِلٍ
 وَأَبْلَجُ وَقَادَ السَّجْبِينَ كَأَنَّمَا
 تَهِيمُ بِهِ الْعَلْيَاءُ حَتَّى كَأَنَّمَا
 لَهُ عَزَمَاتٌ لَوْ أُعِيرَ مَضَاوِهَا

سَنَاءٌ وَتُبْقِي الذِّكْرَ وَهُوَ جَمِيلٌ
 نَحِيلًا فَحَدُّ الْمَشْرِفِي نَحِيلٌ
 تَزِيرُ وَفِي قَدِّ الْقَنَاةِ ذَبُولٌ
 وَلَا بَاتَ مِنْهُ لِلشُّعُودِ تَزِيلٌ
 لَمَّا كَانَ نَحْوَ الْمَجْدِ مِنْهُ وَصُولٌ
 لِأَصْبَحَ رَنْجُ الْمَجْدِ وَهُوَ مَحِيلٌ
 وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا نَجُومٌ قَبِيلٌ
 هَضَابٌ وَأَمَّا فِي التُّدْيِ فَسَبُولٌ
 وَطَابَتْ فِرْعَوْنُ مِنْهُمْ وَأَصُولٌ
 مَرَّتْهَا شُمُولٌ مُزْجَفٌ وَقَبُولٌ
 مِنَ الْبَرْقِ عَنْهَا لِلْعَيُونِ كُلُّوْلٌ
 شَقَاشِقُهَا عِنْدَ الْهِيَاجِ فَحُولٌ
 إِذَا مَا تَوَالَتْ لِلْسَّنِينَ مُحُولٌ
 يَنْتَمِ عَلَيْهَا أَذْخَرٌ وَجَلِيلٌ
 تُعْطَرُ مِنْهَا لِلنَّسِيمِ ذَبُولٌ
 تَرْدُدُهَا أَجْفَانُهَا وَتُحِيلٌ
 تَفَاقَمَ خَطْبُ الْلِزْمَانِ يَهُولٌ
 تَفُوتَ يَدَيَّ مَنْ رَامَهَا وَتَطُولُ
 وَنَائِلُ يُمْنِكَ الْكَرِيمَةِ بَيْلٌ
 بِيخْلٍ وَهَلْ نَالَ الْعَلَاءُ بِخَيْلٍ؟
 فَكَانَ لَهُ مِمَّا أَرَادَ حَصُولُ
 إِلَيْكَ فَلَمْ يَغْدُلْ يَمِينِكَ سُولُ
 تَهَوَّضَ بِمَا أَعْيَا سَوَاكَ كَفِيلُ
 مَبِيدُ الْعِدَا لِلْمُعْتَفِينَ مُنِيلُ
 عَلَى وَجْنَتَيْهِ لِلتُّضَارِ مَسِيلُ
 بُثْنَةُ فِي الْحُبِّ وَهُوَ جَمِيلُ
 حُسَامٌ لَمَّا نَالَتْ ظُبَاهُ فَلُولُ

سرى ذكره في الخافقين فأصبحت
وأغدى قريضي جوده وثناؤه
إليك أيا فخر الوزارة أزلت
فلئت إلى لقياك ناصية الفلا
تسددني سهمًا لكل ثنية
وقد لفظتني الأرض حتى رمت إلى
فقيدت أفراسي به وركائبي
وقد كنت ذا نفس عزوف وهمة
وتهوى العلا حظي وتغري بضده
وتسألي لي الأيام إلا إدالة
فكل خضوع في جنابك عزة

إليه قلب العالمين تميل
فأصبح في أقصى البلاد يجول
برخلي هوجاء الشجاء ذلول
بأيدي ركاب سيرهون ذميل
ضوامر أشباه القسي نحول
دراك برحلي هوجل وهجول
ولذ مقام لي به وحلول
عليها لأحداث الزمان دحول
لذاك اغترته رقة ونحول
فصونك لي أن الزمان مديل
وكل اعتزاز قد عداك خمول

شعره: وبضاعته في الشعر مزجاة، وإن كان أعلم الناس بنقده، وأشدّهم تيقظا لمواقعه الحسنة وأضدادها. فمن ذلك قوله، ورفعته إلى السلطان ببلده رنّدة، وهو إذا ذاك فتى يملأ العين أبهة، ويستميل القلوب لباقه، وهي، ومن خطه نقلت^(١): [الرمل]

هل إلى ردّ عشيّات الوصال
حالة يسري بها الوهم إلى
وليل^(٢) ما تبقى بعدها
إذ مجال الوصل فيها مسرحي
ولحالات التراضي جولة
فبوادي الخيف خوفي مُسعد
لست أنسى الأتس فيها أبدا
وغزال قد بدا لي وجهه
ما أمال الشيء من أعطافه

سبب أم ذاك من ضرب المحال؟
أنها تُثبِت بُرءا باعتلال
غير أشواقى إلى تلك الليالي
وتعيمي أمر فيها ووال
مزجت^(٣) بين قبول واقتبال
وبأكناف مئى أسنى نوال^(٤)
لا ولا بالعذل في ذاك أبالي
فرايت البذر في حال الكمال
لم يكن إلا على فضل^(٥) اعتدال

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٢ - ٣٦٣).

(٢) في الأصل: «وليلي» وهكذا ينكسر الوزن، وهو خطأ نحوي، لذلك صوّناه من نفع الطيب.

(٣) في النسخ: «مزجج». (٤) في النسخ: «موال».

(٥) في النسخ: «خصل».

حُصَّ بالحسن فما أنت ترى
مَنْ تَسْلَى عن هَواه فأنَا
فلئن أتعبني حُبِّي له
إذ لآلي^(١) جِبيده مِنْ قِبَلِي
خَلَفَ النومُ لي الشَّهْدَ به
فَيُداوى^(٢) بِلَمَاهِ ظَمْنِي
أو إشارات^(٣) بِنَاءِ الْمَلِكِ الـ
مَلِكُ إِنْ قَلْتُ فِيهِ مَلَكًا
أَيَّدَ الإسلامَ بِالْعَدْلِ فما
ذُرَّ أَيْدٍ شَمَلْتُ كُلَّ الْوَرَى
هَيْمَةً هَامَتْ بِأَحْوَالِ التَّقَى
وَقَفَ النَّفْسَ عَلَى إِجْهَادِهَا
ومنها في ذكر القوم الموقع بهم^(٤):

وفريق من عُتَاة عاندوا
غَرَّهْمُ طَوْلُ التَّجَافِي عَنْهُمْ
فلقد كانت بهم رُنْدَةٌ أو
ولقد كان التُّفَاقُ مَذْهَبًا
ما يعود اليوم إلَّا بادرُوا
طَوَّقُوا التُّعْمَى فلَمَّا أَنْكَرُوا
ماطل الدهر بهم غريمه
ولقد كنت غريم الدهر إذ
ولكم نافرته مجتهدًا
أعقبوا جزاء ما قد أسلفوا

بعده للناس حظًا في الجمال
بسواه عن هَواه غيرُ سال
فكم نِلْتُ به أَنْعَمَ حال
ووشاحاهُ يميني وشمالي
وترامى الشَّخْصُ لا طيفُ الخيال
مَزَجَكَ الصُّهْبَاءُ بِالماءِ الرُّلال
أَوْحَدِ الأسمَى الهُمَامِ الْمُتَعَالِي
لم تكن إلَّا محققًا في المقال
أن ترى رَسْمًا لأصحاب الضلال
ومعالٍ يا لها خيرُ معال
وصفاتٌ بالجلالاتِ جِوال
بين صوم وصلاةٍ ونِوال

أمره فاستوجبوا سوء نكالٍ
مَعَ شَيْطَانٍ لَهُمْ كَانَ مُوَالٍ
أهلها في سوء تدبير وحالٍ
فاشيًا بين هاتيك التلال
برواة ونكيرات ثقال
طَوَّقُوا الْعَذْلَ بِذِي الْبَيْضِ الْعَوَالٍ
فهو الآن وفي بَغْدِ الْمَطَالِ
شدني جورُهُمْ شَدَّ عِقَالٍ
عندما ضاق بهم صَدْرُ احْتِمَالِي
في الدُّنَا ويعقبوه في المآل

(١) في الأصل: «الآلى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٢) في النفع: «فتداوى».

(٣) في الأصل: «أو أشادت ثنا الملك...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) من هنا حتى آخر البيت: (في المآل) غير وارد في نفع الطيب.

وهي طويلة ومنها:

أيها المولى الذي نعماءه ما أنا أنشدكم مهئنا
أعجزت عن شكرها كُنه المقال فأنا العبد الذي حُبكم
من بديع التظم بالسخر الحلال أوزقت روضة آمالي لكم
لم يزل والله في قلبي وبالي واقتنيت العجاة من خدمتكم
وتولأها الكبير المتعالي^(١) فهور^(٢) ما أذخره من كنز مال
ومنها:

يا أمير المسلمين هذه خدمة تنبىء عن أصدق حال
هي بنت ساعة أو ليلة سهلت بالحُب في ذاك الجلال
ما عليها إذ أجادت مدحها من بعيد الفهم يلغياها وقال
فهي في تأدية الشكر لكم أبدا بين احتفاء واحتفال
وكتب، رحمه الله، يخاطب أهله من مدينة تونس^(٣):

حي حي بالله يا ربح نجد وتحمّل عظيم شوقي ووجدي
وإذا ما بثت حالي فبلغ من سلامي لهم على قدر ودي
ما تناسيتهم وهل في مغربي هم^(٤) نسوني على تطاول بغدي
بي شوق إليهم ليس يغزى لجميل^(٥) ولا لسكان نجد
يا نسيم الصبا إذا جئت قوما ملئت أرضهم بشيح وزند
فتلطّف عند المرور عليهم وحقوقا لهم علي فأد
قل لهم قد غدوت من وجدهم في حال شوقي لكل زند وزند
وان استفسروا حديثي فلاني باعتناء الإله بلغت قصدي
فله الحمد إذ حباني بلطف عنده قل كل شكر وحمد

(١) في النفع: ... بكم مذ تولأها الرباب المتوالي.

(٢) في النفع: «فهي».

(٣) القصيدة في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٣ - ٣٦٤).

(٤) في النفع: «قد».

(٥) أراد جميل بن معمر، صاحب بشية.

قال شيخنا أبو بكر ولده: وجدت بخطه، رحمة الله عليه، رسالة خاطب بها أخاه أبا إسحق إبراهيم افتتحها بقصيدة أولها^(١): [الكامل]

دَكَرَ اللَّوَى شَوْقًا إِلَى أَقْمَارِهِ فَقَضَى أَسَى أَوْ كَادَ مِنْ تَذْكَارِهِ
وَعَلَا زَفِيرُ حَرِيقِ نَارِ ضُلُوعِهِ فَرَمَى عَلَى وَجَنَاتِهِ بِشَرَارِهِ
لَوْ كُنْتَ تُبْصِرُ خَطَهُ فِي خَدِّهِ لَقَرَأْتَ بَيْرَ الْوَجْدِ مِنْ أَسْطَارِهِ
يَا عَادِلِيهِ أَقْصِرُوا فَلَرَيْمًا^(٢) أَقْضَى عَتَابُكُمْ إِلَى إِضْرَارِهِ
إِنْ لَمْ تَعِينُوهُ عَلَى بُرَحَائِهِ^(٣) لَا تُشْكِرُوا بِاللَّهِ خَلَعَ عِذَارِهِ
مَا كَانَ أَكْتَمَهُ لِأَسْرَارِ الْهَرَى لَوْ أَنَّ جُنْدَ الصُّبْرِ مِنْ أَنْصَارِهِ
مَا ذَلَبُهُ وَالْبَيْزُ قَطَعَ قَلْبَهُ أَسْفَا وَأَذْكَى النَّارِ فِي أَغْشَارِهِ
بَخَلَ اللَّوَى بِالسَّاكِنِيهِ وَطِيفَهُمْ وَحَدِيثِهِ وَنَسِيمِهِ وَمَزَارِهِ
يَا بَرْقُ خُذْ دَمْعِي وَعَرِّجْ بِاللَّوَى فَاسْفَخْهُ فِي بَانَاتِهِ وَعَرَارِهِ
وَإِذَا لَقِيتَ بِهَا الَّذِي بِإِخَائِهِ أَلْقَى خُطُوبَ الدُّهْرِ أَوْ بِجَوَارِهِ
فَافْرَ السَّلَامَ عَلَيْهِ قَدْزَ مَحَبَّتِي فِيهِ وَتَرْفِيعِي إِلَى مَقْدَارِهِ
وَأَلِّمُ^(٤) بِسَائِرِ إِخْوَتِي وَقَرَابَتِي مَنْ لَمْ أَكُنْ لِحَوَارِهِمْ بِالْكَارِهِ
مَا مِنْهُمْ إِلَّا أَخٌ أَوْ سَيِّدٌ أَبْدَا أَرَى دَأْبِي عَلَى إِكْبَارِهِ
فَإِثْبَتْ^(٥) لَذَاكَ الْحَيِّ أَنَّ أَخَاهُمْ فِي حِفْظِ عَهْدِهِمْ عَلَى اسْتِبَارِهِ
مَا مَنُوزَ اللَّذَاتِ فِي أَوْطَانِهِ كَلَّا وَلَا السُّلُوفَ مِنْ أَوْطَارِهِ^(٦)

وقال، رحمه الله، في غرض كلّفه سلطانه القول فيه^(٧): [الوافر]

أَلَا وَأَصِلَ مُوَاصِلَةَ الْعُقَارِ وَدَغَ عَنْكَ التَّخَلُّقَ بِالْوَقَارِ
وَقُمْ وَاخْلَعْ عِذَارَكَ فِي عَزَالِ يَحُتُّ لِمَثَلِهِ خَلَعَ الْعِذَارِ
قَضِيبَ مَائِسٍ مِنْ فَوْقِ دِغْصِ تَعَمَّمَ بِالْدُجَى فَوْقَ النَّهَارِ
وَلَاخَ بِخَدِّهِ أَلْفَ وَلَا مَ فَصَارَ مُعَرِّقًا بَيْنَ الدَّرَارِ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٥) وورد البيتان الأول والثاني أيضًا في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٩).

(٢) في النفع: «فلشدّ ما».

(٣) في الأصل: «عليّ برجائه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «وألّم» وهكذا ينكسر الوزن. (٥) في النفع: «فأثبت».

(٦) هذا البيت لم يرد في النفع. (٧) الأبيات في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٥).

رمانى قاسم والسين صاَدَ
وقد قُسمت محاسنُ وجنتيه
فذاك الماء من دَمعي عليه
عَجِبْتُ له أقامَ برَّجِ قلبي
أَلِفْتُ الحبَّ حتى صارَ طبعًا
فما لي عن مذاهبه ذهاب
بأشفارِ تنوبٍ عن الشِّفار
على ضيدين من ماء ونار
وتلك النار من فرطِ استيعاري^(١)
على ما شَبَّ فيه من الأوار
فما احتاجُ فيه إلى أذكار
وهذا فيه أشعاري شِعاري^(٢)

وقال العلامة ابنُ رُشيد في «ملء الغنية»^(٣): لما قَدِمْنَا المدينة سنة ٦٨٤ هـ، كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم الحكيم، وكان أزمَد^(٤)، فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها، نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتسابًا لتلك الآثار، وإعظامًا لمن حلَّ في^(٥) تلك الديار، فأحسن بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله: [الطويل]

ولمَّا رأينا من ربوع حبيبنا
وبالتزب منها إذ كَحَلْنَا جفوننا
وحيث تَبَدَّى للعيون جمالها
نزلنا من^(٦) الأكوار نمشي كرامة
نُسيحُ سبجَالِ الدَّمعِ في عَرَصاتِها
وإن بقائني دونه لَحَسَارَةٌ
فيا عجبًا ممن يُجِبُّ بِزَعْمه
وَزَلَّاتٌ مثلي لا تُعَدُّ كثيرة^(٧)
ومن شعره قوله^(٨): [السريع]

ما أَحْسَنَ العَقْلَ وَأَثَارَهُ
لو لازم الإنسانُ إِثَارَهُ

(١) في الأصل: «استعار» والتصويب من النفع. (٢) في الأصل: «شعار» والتصويب من النفع.

(٣) النص مع الأبيات في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٥ - ٣٦٦).

(٤) الأرمذ: المصاب بمرض الرمذ. لسان العرب (رمذ).

(٥) كلمة «في» ساقطة في النفع. (٦) في النفع: «عن».

(٧) في النفع: «لا تُعَدُّ كثرة».

(٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٦). كما وردت في المصدر نفسه (ج ٤ ص ٣١٠) منسوبة إلى صالح بن شريف.

يَصُونُ بالعقل الفتى نَفْسَهُ كما يَصُونُ الحُرُّ أَسْرَارَهُ
لا سيما إن كان في غُرْبَةٍ يحتاج أن يَعْرِفَ مِقْدَارَهُ
وقوله رحمه الله^(١): [البسيط]

إني لأَغِيرُ أحيانا فيلحقني يُسِرُّ من الله إنَّ العُسْرَ قد زالَا
يقولُ خيرُ الورى في سُنَّةٍ ثَبَتَتْ (أَنْفَقَ ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالا)
وهو من أحسن ما قاله رحمه الله .
ومن شعره قوله^(٢): [الطويل]

فَقَدْتُ حياتي بالفراق^(٣) وَمَنْ غدا بحالٍ نَوَى عَمَّنْ يُحِبُّ فقد فَقَدَ
ومن أجل بُغْدِي من^(٤) ديارِ الْفُتْها جحيْمُ فؤادي قد تَلَطَّى وقد وَقَدَ
وحكي أن ذا الوزارتين المترجم، لما اجتمع مع الفقيه الكاتب ابن أبي مدين،
أنشده ابن أبي مدين^(٥): [الطويل]

عَشِيقْتُكُمْ بالسَّمْعِ قبل لِقائِكُمْ وَسَمِعُ الفتى يَهْرَى لِعَمْرِي^(٦) كَطَرْفِهِ
وحَبِّبَنِي ذَكَرُ العَليْسِ إليْكُمْ فلَمَّا التَقِينَا كُنْتُمْ فَوْقَ وَصْفِهِ
فأنشده ذو الوزارتين ابن الحكيم قوله^(٧): [البسيط]

ما زِلْتُ أَسْمَعُ عن عَلِيَّائِكَ كُلِّ سَنَا أبهى من الشمس أو أجلى من القمرِ
حتى رأى بَصْرِي فوق الذي سَمِعْتُ أذني فوقَ بَيْنِ السَّمْعِ والبَصْرِ
ومن نظمه مما يكتب على قوس^(٨): [الكامل]

أنا عُدَّةٌ للدين في يَدِ مَنْ عَدَا لله مُنْتَصِرًا على أعدائِهِ
أحكي الهلالَ وأُسْهُمِي في رَجْمِها لمن اعتدى تَحْكي رَجُومَ^(٩) سَمائِهِ
قد جاء في القرآن أَنِي عُدَّةٌ إذ نَصَّ خَيْرُ الخَلْقِ مُخَكِّمَ آيِهِ
وإذا العدوُ أَصابه سَهْمِي فقد سَبَقَ القضاءُ بهلكه وفنائِهِ

(١) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٦).

(٢) في النفح: «بالمرأى».

(٣) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٧).

(٤) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٧).

(٥) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٤٩ - ٥٠).

(٦) في النفح: «نجوم».

ومن^(١) توقيعه ما نقلته من خط ولده أبي بكر في كتابه المسمى بـ «الموارد المستعذبة»، وكان^(٢) بمدينة وادي آش الفقيه الكذا أبو عبد الله محمد بن غالب الطريفي، فكتب^(٣) يومًا إلى الشيخ خاصة والذي^(٤) أبي جعفر بن داود، قصيدة طويلة على روي السنين، يشتكي^(٥) فيها من جور^(٦) مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم بن حسان، منها: [البسيط]

فيا صَفِيَّ أبي العباس، كيف ترى وأنت كيُس^(٧) من فيها مِن أُكْيَاسٍ
ولَّوْه إن كان مَمَّنْ ترتضون به فقد دنا الفتحُ للأشراف في فاسٍ
ومنها يستطر ذكر ذي الوزارتين، رحمه الله:

للشرق فضلٌ منه أشرقَتْ شُهْبُ من نورهم أَقْبَسُونَا كلِّ مِقْبَاسٍ
فوقع عليها رحمة الله تعالى عليه ورضوانه^(٨): [البسيط]

إن أَفْرَطْتُ بَابَن حَسَّانِ غَوَائِلُهُ فالأمر يكسوه ثوبُ الذُّلِّ واليَاسِ^(٩)
وإن تَزِلْ به في جَوْرِهِ قَدَمٌ كان الجزاءُ له ضربًا على الرِّاسِ
فقد أقامني المولى بنعمته لبثَّ أحكامه بالعدل في الناس

كتابته: وهي مرتفعة عن نمط شعره، فمن ذلك رسالة كتبها عن سلطانه في فتح مدينة قيجاطة^(١٠):

من الأمير فلان، أيداه الله ونصره، ووقفه لما يحب حتى يكون ممن قام بفرض الجهاد ونشره. إلى ابننا الذي نمنحه الحب والرضى، ونسأل الله أن يهبه الخلاص التي تُستحسن والشيم التي تُرتضى، الولد الأتجب، الأرضى، الأنجد، الأزشد، الأسعد، محمد، وإلى الله تعالى إسماعده، وتولى بالتوفيق والإرشاد سَداده،

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٥٠).

(٢) في النفع: «وكان بوادي آش الفقيه الطريفي».

(٣) في النفع: «فكتب إلى خاصة والذي أبي جعفر».

(٤) في الأصل: «والذي وخاصة أبي...»، والتصويب من النفع.

(٥) في النفع: «يشتكى».

(٦) كلمة «جور» غير واردة في النفع.

(٧) في النفع: «أَكْيَسُ».

(٨) كلمة «ورضوانه» غير واردة في النفع.

(٩) في النفع: «ثوب الذكر والباس».

(١٠) قيجاطة، بالإسبانية Quesada: مدينة من أعمال ولاية جيان. الإحاطة (ج ٢ ص ٤٦٥)

وأطلع عليه من أنباء الفتوح المُبَشِّرة بالنصر الممنوح ما يكمل من بُغيته في نصر دين الإسلام ويُسني مراده.

أما بعد حمد الله، الذي جعل الجهاد في سبيله أفضل الأعمال، الذي يقربه إلى رضاه، وندب إليه بما وعد من الثواب عليه، فقال: يا أيها النبي، خَرُصْ المؤمنين على القتال، تنبيهًا على محل الثقة، بأن الفئة القليلة من أوليائه، تغلب الفئة الكثيرة من أعدائه، وتُدارك دين الإسلام بإنجاز وعده في قوله، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، على رغم أنف مَنْ ظن أنه خاذله، تعالى الله عن خِذْلَان جنده. والصلاة والسلام على نبيه ورسوله ومُجْتَبَاه، لهداية الخلق لسلوك سبيل الحق، والعمل بمقتضاه. قال تعالى فيما أنزل: ﴿تَنبِئُوا الَّذِينَ يَلُوكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾^(١) تحريضًا على أن يمحوا ظلام ضلالهم بنور هذه سورة، وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأشداء على الكفار، الذين جرّدوا في نُصْرَةِ دينه صُورَامَ العزم وأَمْضُوا طَبَاه، وفتحوا ما رَوَى له من مشارق الأرض ومغاريها حتى عمَّ الإسلام حدَّ المعمور ومنتهاه. فلَمَّا كَتَبْنَا لَكُمْ، كتب الله لكم من سماع البشائر ما يعود بتحويل الأحوال، وأطلع عليكم من أنباء الفتوح ما يلوح بأفاق الآمال، مُبَشِّرًا بِالْيَمْنِ وَالْإِقْبَال. من قيجاطة، وبركات ثقتنا بالله وحده، تُظْهِرُ لَنَا عجائب مكنونات أَلْطَافِهِ، وَتَجَنِّينَا ثَمَارَ النِّصْرِ فِي إِيَّانِ قُطَافِهِ، وَتُسَخِّرُ لَنَا وَزِدَ مَشْرِعَ الْفَتْحِ فَتْرَدَ عَذْبَ نِطَافِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لَأَنْ نَقُولَ نَجَادَهَا، وَنَمْتَطِي جَوَادَهَا، وَنُسْتَوِرِي زَنَادَهَا، وَنُسْتَفْتِحَ بِهَا مَغَالِقَ الْمَآرِبِ، وَلَطَائِفَ الْمَطَالِبِ، حَتَّى دَخَلْتَ الْمَلَّةَ الْحَنِيفِيَّةَ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ أَغْوَارَهَا وَأَنْجَادَهَا. وقد^(٢) تَقَرَّرَ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَاشْتَهَرَ فِي جَمِيعِ^(٣) الْأَقْطَارِ اِشْتِهَارُ الصَّبْحِ فِي سَوَادِ الظَّلَامِ، أَنَّا لَمْ نَزَلْ نُبْذَلْ جُهْدَنَا فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَنُسَمِّحَ فِي ذَلِكَ بِالنَّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ لَا لِفَرَضٍ^(٤) دُنْيَا. وَأَنَا مَا قَصْرُنَا فِي الْاِسْتَنْصَارِ وَالْاِسْتِغْفَارِ^(٥)، وَلَا قَصْرُنَا^(٦) عَنِ الْاِعْتِضَادِ لِكُلِّ مَنْ أَمَلْنَا مَعُونَتَهُ^(٧) وَالْاِسْتَظْهَارِ، وَلَا اِكْتِفِيْنَا بِمُطَوَّلَاتِ الرِّسَالِ وَبِنَاتِ الْأَفْكَارِ، حَتَّى اقْتَحَمْنَا بِنَفُوسِنَا لُجَجَ الْبَحَارِ، وَسَمَخْنَا بِالطَّارِفِ مِنْ أَمْوَالِنَا وَالثَّلَادِ، وَأَعْطَيْنَا رَجَاءَ نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ مَوْفُورَ الْأَمْوَالِ وَالْبِلَادِ، وَاشْتَرَيْنَا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا مَا قَرَضَ اللَّهُ عَلَى كَافَّةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْجِهَادِ، فَلَمْ

(١) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٣.

(٢) من هنا حتى قوله: «إلى بلوغ الأمانة والمأمول» وارد في نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٣) في النفح: «أفاق».

(٤) في النفح: «لا لفرض الدنيا».

(٥) في النفح: «في الاستغفار والاستنصار».

(٦) في النفح: «ولا أقصرنا».

(٧) في النفح: «معاملته».

يكن بين تلبية المدعو وزهده، وبين قبوله وردّه، إلّا كما يخسو الطائر ماء الثّمد ويأبى الله أن يكلّ نصر^(١) هذه الجزيرة إلى سواه، وأن يجعل فيها سبباً إلّا لمن أخلص لوجهه الكريم علانيته ونجواه. ولما أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغربية إلى مئاويه^(٢)، وبقي المسلمون يتوقعون حادثاً ساءت ظنونهم لمباديه، ألقينا إلى الثقة بالله تعالى وحده يد الاستسلام، وشمرنا عن ساعد الجد والاجتهاد^(٣) في جهاد عبدة الأصنام، وأخذنا بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤) أخذ الاعترام، فأمّنا الله تعالى بتوالي البشائر، ونصّرنا باللطاف أغنى فيها خلوص الضمائر عن قواد^(٥) العساكر، ونقلنا^(٦) على أيدي قوادنا ورجالنا من السبايا والغنائم ما عدّ^(٧) ذكره في الآفاق كالمثل السائر ﴿وَأَن تَعْلَمُوا أَنَّمَا اللَّهُ لَا تُشْبِهُهَا شَيْءٌ﴾^(٨)، وكيف يُخصيها المحصي أو يَحْصُرُهَا الحاصر. وحين أبذت لنا العناية الربانية وجوه الفُتوح^(٩) سافرة المُحيّا، وانتشّنا نسيم^(١٠) النصر الممنوح عبق الرّيا، استخزنا الله تعالى في الغزو بأنفسنا^(١١) ونغم المُستخار، وكتبنا إلى من قرب من عمّالنا^(١٢) بالحض على الجهاد والاستيفار. وحين وافى من خف للجهاد من الأجناد والمطوّعين، وغدّوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة الله مجتمعين، خرجنا بهم ونصّر الله تعالى أهدى دليل، وعناية الله بهذه الفئة المفردة من المسلمين، تقضي بتقريب البعيد من آمالنا، وتكثير القليل. ونحن نسأل الله تعالى أن يحملنا على جادة الرضا والقبول، وأن يرشدنا إلى طريق يُفْضي^(١٣) إلى بلوغ الأمانة والمأمول^(١٤)، إلى أن خللنا عشية يوم الأحد ثاني يوم خروجنا بمقربة حصن اللّوة فأدّرنا به التدبير، واستشرنا من أوليائنا من تحققنا نصحه فيما يشير، فاقضى الرأي المقرن بالرّشاد، المؤذن بالإسعاد، قصد قيجاطة لما رجي من تيسير فتحها، وأملا في إضاءة فجر الأمانى لديها، وبيان ضُبْحها، فسرنا نحوها في جيش يجرّ على المَجْرّة ذيل النقع المُشار، ويضيق عن كثرتّه واسع الأقطار، ويُقرّ عين الإسلام بما اشتمل عليه من الحُماة والأنصار، تطير بهم نيّاتهم بأجنحة العزم إلى

(١) في النفع: «نصرة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه، ولا يجمل فيها شيئاً إلّا...».

(٢) في النفع: «مئاويه».

(٣) كلمة «والاجتهاد» ساقطة في النفع.

(٤) في النفع: «قود».

(٥) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٥.

(٦) في الأصل: «ونقلنا» والتصويب من النفع. ونقل القائد جُلْدَه: أعطاهم ما غنموه. لسان العرب

(نقل).

(٨) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.

(٩) في النفع: «ما غدا».

(١٠) في النفع: «نسائم».

(١١) في النفع: «بغسنا».

(١٢) في النفع: «أعمالنا».

(١٣) في النفع: «تفضي».

(١٤) لهنّا ينتهي النص في النفع.

قبض أرواح الكفار. فلما وصلنا إلى وادي على مَقَرَّةٍ منها نزلنا به نريح الجياد، ونكمل التأهب للقتال والاستعداد، وبات المسلمون ليلتهم يسألون الله تعالى بأن يمنحهم الإعانة بتأييده والإمداد. وحين فجر الفجر وأنار النهار، وقدحت به الأصباح رُئِدُ الأنوار، رَكِبْنَا إليها والعساكر قد انتظمت عقودها، والسيوف قد كادت تلفظها غُمودها، وبصائر الأولياء المجاهدين قد لاح من نصر الله تعالى معهودها. فلما وصلناها وجدنا ناسنا قد سَبَقُوا إليها بالبُوس، وَهَتَكُوا سِتْرَ عِصْمَتِهَا المحروس، وَأُذِنَ لها بزوال النعم وذهاب النفوس، فعاجلها الأولياء بالقتال، وأهدوا إليها حُرَّ المنايا من رُزْقِ النِّصَال، وَرَشَقُوا جنودها بالنبال، وَجَدُّوا بنات الآجال، فلما رأوا ما لا طاقة لهم به لاذوا بالفرار من الأسوار، وولَّوْا الأدبار، وودَّعوا الديار وما فيها من الآثار. وَتَسَتَّمُ المسلمون ذِزْوَةَ البلد الأول فملكوه، وَخَرَقُوا حِجَابَ السُّتْرِ المسدول عليه وَهَتَكُوهُ، وتسرعوا إلى البلد الثاني وقد ملأ النصارى أسواره من حُماة رجالهم، وانتقوهم من مُتَخَيَّرِي أبطالهم، ممن وثقوا بإقدامه في حماية ضلالهم، فحمل عليهم المسلمون حَمْلَةَ عَرْفُوهم بها كيف يكون اللقاء، وَصَرَفُوهم إلى ما تنصرف إليه أرواحهم من الشَّقاء، وأظهروا لهم من صدق العزائم ما علموا به أن لدين الإسلام أنصارًا لا يرغبون بأنفسهم عن الذَّبِّ عنه وحماية راياته، ولا يَصُدُّون إلا إلى طاعة الله ابتغاء مُرَضَاتِهِ. وبادر جماعة إلى إضرام باب المدينة بالنيران، وعقدوا تحت سماء العجاج منها سماء الدُخان، ورموا النصارى من النبال بِشُهْبٍ تتبع منهم كل شيطان. فهزم الله النصارى، وولَّوْا أدبارهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فَأَخْلَوْا بروجهم وأسوارهم، وَتَسَتَّمُها المسلمون مُغْلِنِينَ شعار الإسلام، رافعين من الرايات الحُمْر كواكب في سماء السَّعَادَةِ تُبَشِّرُ بتيسير كل مرام. ودخلوا المدينة فآلفوا بها من القُوت والعتاد، والمتاع الفاخر الذي يربو على التَّعداد، ما ملأ كلَّ يمين وشمال، وظهروا عليها بعد بلوغ الأمانى على الكمال، وقتلوا بها من الحُماة أعداء أبدوا في حماية ضلالهم ماضي الفِئَا والاعتزام، وأعملوا فيهم ماضي العوامل وشبا الإضرام. وارتفع النصارى إلى القَصْبَةِ لاثنين بامتناعها، مُعْتَصِمِينَ بِغُلُوها وارتفاعها، مُتَخَيِّلِينَ لضلالهم، وعدم استبصارهم أن نور الهدى لا يحلُّ بديارهم. فرأينا أن نُرْقِي الرجال إلى أبراج البلد وأسواره، وأمرناهم أن يبيتوا طول ليلتهم مُضَيِّقِينَ على مَنْ اعتصم بالقصبة في حصاره، وَعَمَدْنَا بالعسكر المظفر إلى موضع استيطانه من المحلة المنصورة واستقراره. فلما بدا ضوء الصباح بنور الإشراق، ولاح وَجْه الغزاة طارحًا شعاعه على الآفاق، أمرنا بترتيب العساكر على القصبة للمحاصر، وعيَّنَّا لكل جماعة منهم جهةً يبادرون إلى منازلها بالقتال أشدَّ البدار، فانتهى المسلمون من ذلك إلى غاية لم تَخْطُر

للكافرين ببال، وجزعوهم كؤوس المنايا، وأداروا بها بنات الحنايا، فأفضت السجبال وأظهر الكفار، مع وقوعهم في بحر الموت صبراً وطمعوا أن يقيموا بذلك لصلبانهم عذراً. فلما رأوا من عزمنا ما لم تتخيله ظنونهم وأوهامهم، وصابروهم المسلمون عند النزال مصابرة عظم فيها إقدامهم وثبتت أقدامهم، ألقوا بأيديهم إلى التهلكة إلقاء من هاله لمعان الأسيئة واهتزاز رذائيات القنا، ولاذوا بطلب الأمان لياذ الغريق بالساحل بعد ما أشرف على الفناء، وهبط زعيمهم مقتحماً خطر تلك المسالك، متضرعاً تضرع من طمع في الحياة بعد ما أخذته أيدي المهالك، وشرط أن يملكنا القصة، ويبقى خديماً لنا بما بيده من البلاد الكثيرة والكثيية المنتخبة، فلم يظهر له عند ذلك قبولاً، ولم نجعل له إلى تكميل ما رغب فيه سبيلاً، ففاده البأس الشديد إلى الإذعان، ورغب أن يكمل ما نريده على شرط الأمان. فاستعفنا رغبته على شروط، بعد عهد المسلمين بمثلها، وهئئت الأسباب بما نعتمده من الثقة بالله وحده في أمورنا كلها، وذلك على كذا وكذا. وحين كملت الشروط حق التكميل، وظهرت لنا منه أمارات الوفاء الجميل، دخلنا القصة حماها الله، وقد أغنى يوم النصر عن شهر السلاح، كما أغنى ضوء الصبح عن نور المصباح، وزفعت على أبراجها حمر الأعلام، ناطقة عن الإسلام، بالتعريف والإعلام. وفي الحين وجهنا من يقبض تلك الحصون، ويزيل ما بها من جرم الكفر المأفون، أمناء رجالنا. فالحمد لله على هذه النعمة التي أحدثت للقلوب استبشاراً، وخففت علف التلثيث ورفعت للتوحيد منازاً، وأظهرت للملئة الحنيفة على أعدائها اعتلاء واستكباراً. وهذا القدر من الفتح وإن كان سامي الفخر، باقي الذكر بقاء الدهر، فإننا لنترجو من فضل الله أن يتبعه بما هو أعلى منه مثانة، وأعظم في قلوب أهل الإيمان موقعاً وأعز مكانة، وأن يرغم بما يظهر على أيدينا من عز الإسلام، أنف من أظهر له عناداً وخذلاناً. فاستبشروا بهذا الفتح العظيم وبشروا، واشكروا الله عليه، فواجب أن تشكروا. وقد كتبنا هذا، ونحن على عزمنا في غزو بلاد الكفار، والسعي الحميد إلى التنكيل بهم والإضرار، والمسلمون أعزهم الله في أرضهم يشنون المغار، ويمتلكون الأنجاد منها والأغوار، ويكثرون القتل والأسار، ويحكمون أينما نزلوا السيف والنار، والسلام.

ومن نثر آخر إجازة ما صورته^(١):

(١) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٥) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٦ - ٣٤٧)، وفي الأزهار يخاطب ابن الجياب الشيخ أبا علي عمر الجراوي.

وها أنا أجري منه^(١) على حُسنٍ مُعْتَقِده، وأَكِلُهُ في هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تَوُدِّه، وأَجِيزُ له ولولديه، أَقَرُّ الله بهما عَيْنَه، وجمع بينهما وبينه، رواية جميع ما نقلته وحملته^(٢)، وَحُسْنُ اِطْلَاعِهِ يُفْضِلُ من ذلك ما أَجْمَلْتُهُ، فقد أَطْلَقْتُ لَهُم الإِذْنَ في جميعه، وَأَبْخْتُ لَهُم الحَمْلَ عني ولهم الاختيار في تنويعه. والله سبحانه وتعالى^(٣) يُخَلِّصُ أَعْمَالَنَا لِدَازِئِهِ، ويجعلها في ابتغاء مَرْضَاتِهِ. قال هذا^(٤) محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عز وجل، ومصلئاً ومسلماً.

وفاته: قُتِلَ، رحمه الله، صَبِيحَةَ عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمئة^(٥)، وذلك لتاريخ خلع سلطانه. واستولت^(٦) يد الغوغاء على منازلها، شغلهم بها مُدَبِّرُ الفتنة خيفةً من أن يعاجلوه قبل تمام أمره، فضاغ بها مال لا يُكْتَب، وعروض لا يُعْلَم لها قيمة من الكُتُب، والدَّخِيرَةُ والفَرش والآنية والسلاح والمتاع والخُرَاقِي، وَأُخْفِرَتْ ذُمَّتُهُ^(٧)، وَتَبَعْدِي بِهِ عُدُوَّةُ القَتْلِ إِلَى المَثَلَةِ^(٨)، وقانا الله مصارع السوء، قَطِيفَ بِشْلُوهِ، وانْتَهَبَ فِضَاعَ وَلَمْ يُقَبِّرْ، وجرت فيه شناعة كبيرة، رحمه الله تعالى.

مولده: بُرُؤْدَةُ ظهر يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول المبارك، من عام ستين وستمئة. ومَنْ رثاه شيخنا أبو بكر بن شَبْرِينَ رحمه الله تعالى بقوله^(٩):
[الطويل]

سَقَى الله أَشْلَاءَ كَرُمَنْ عَلَى الْبَلَى	وَمَا غَضُّ من مقدارها حادثُ الْبَلَا
وَمِمَّا شَجَانِي أَنْ أَهِيَنَّ مَكَائِهَا	وَأَقْمَلُ قَدَرُ ما عهدناه مُهْمَلَا
أَلَا أَضْنَعُ بِهَا يَا دَهْرُ ما أنت صَانِعُ	فَمَا كُنْتُ إِلَّا عَبْدُهَا الْمُتَذَلَّلَا
سَفَكْتُ وما كان الرُّقُوءُ نَوَالَهُ	لَقَدْ جَتَّهَا ^(١٠) شَنْعَاءَ فَاضِحَّةَ الْمَلَا

(١) في المصدرين: «معه».

(٢) في أزهار الرياض: «والله عز وجل يخلص...».

(٤) في الأزهار: «قال هذا وكتبه محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد اللخمي بن الحكيم، عفا الله عنه، حامداً لله عز وجل، ومصلئاً على رسوله المصطفى، ومسلماً عليه وعلى آله، في منتصف جمادى الآخرة عام ثلاثة وسبعمئة».

(٥) كذا جاء في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٦٧). (٦) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٥١ - ٥١).

(٧) أُخْفِرَتْ ذُمَّتُهُ: نقضت عهوده ولم تحفظ حرمة. لسان العرب (خفر).

(٨) المَثَلَةُ: التمثيل بالقتل. لسان العرب (مثل).

(٩) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٨٥ - ٨٧).

(١٠) في النفع: «جتتها».

بِكَفِّي سَبْتَنِي أَرْقِي الْعَيْنِ مُطْرِقٌ^(١)
لِنَعْمَ قَتِيلُ الْقَوْمِ فِي يَوْمِ عِيدِهِ
أَلَا إِنَّ يَوْمَ ابْنِ الْحَكِيمِ لَمُثْكَلٌ
فَقَدْ نَاه فِي يَوْمٍ أَغْرُ مُحْجِلٌ
سَمَتْ نَحْوَهُ الْأَيَّامُ وَهُوَ عَمِيدُهَا
تَعَاوَزَتِ الْأَسْيَافُ مِنْهُ مُمَدِّحَا
وَخَانَتِهِ رِجْلٌ فِي الطَّوَابِ بِهِ سَعَتْ
وَجَدَلٌ لَمْ يَخْضُرْهُ فِي الْحَيِّ نَاصِرٌ
يَدُ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ مُمَرِّقَا^(٢)
وَمِنْ حَزَنِي أَنْ لَسْتُ أَعْرِفُ مَلْخَدَا
زُوْنِدَكَ يَا مَنْ قَدْ غَدَا شَامِتَا بِهِ
وَكُنَّا تُغَادِي أَوْ تُرَاوِجُ بَابَهُ
ذَكَرْنَاهُ يَوْمًا فَاسْتَهْلَتْ جَفُونُنَا
وَمَارَجَ مِنْهُ الْحَزَنُ طَوْلَ اعْتِبَارِنَا
وَهَاجَ لَنَا شَجْوًا تَذَكُّرُ مَجْلِسِ
بِهِ كَانَتْ الدُّنْيَا تُؤَخِّرُ مُذْبِرَا
إِتْبَافِكَ عِيُونُ الْبَاكِياتِ عَلَى فَتَى
عَلَى خَادِمِ الْأَثَارِ تُثْلِي صَحَائِحَا
عَلَى عَضْدِ الْمُلْكِ الَّذِي قَدْ تَضَوَّعَتْ

عَدَا فَعْدَا فِي غَيْهِ مُتَوَعِّلَا
قَتِيلٌ تُبْكِيهِ الْمَكَارِمُ وَالْعَلَا
فَوَادِي، فَمَا يَنْفَكُ مَا عَشْتُ مُثْكَلَا
فَفِي الْحَشْرِ نَلْقَاهُ أَغْرُ مُحْجِلَا
فَلَمْ تَشْكُرِ الثُّغْمَى وَلَمْ تَحْفَظِ الْوَلَا
كَرِيمًا سَمَا فَوْقَ السَّمَائِينَ مَثْرِلَا^(٣)
فَنَاءً يَصْدِرُ لِلْعُلُومِ تَحْمِلَا
فَمَنْ مُبْلَغُ الْأَحْيَاءِ أَنْ مَهْلَهْلَا^(٤)
تُبَارِكُ مَا هَبَّتْ جَنُوبًا وَشَمَالَا
لَهُ فَأَرَى لِلتُّرْبِ مِنْهُ مَقْبِلَا
فَبِالْأَمْسِ مَا كَانَ الْعِمَادَ الْمُؤَمِّلَا
وَقَدْ ظَلَّ فِي أَوْجِ الْعَلَا مُتَوَقِّلَا^(٥)
بِدَمْعٍ إِذَا مَا أَمَحَلَّ الْعَامَ أَخْضِلَا
وَلَمْ تَذَرِ مَاذَا مِنْهُمَا كَانَ أَطْوَلَا
لَهُ كَانَ يُهْدِي الْحَيِّ وَالْمَلَأَ الْأَلَى
مَنْ النَّاسِ حُثْمًا أَوْ تُقَدِّمُ مُقْبِلَا
كَرِيمٍ إِذَا مَا أَسْبَغَ الْعُرْفَ أَجْزَلَا
عَلَى حَامِلِ الْقُرْآنِ يُثْلِي مَفْضَلَا
مَكَارِمُهُ فِي الْأَرْضِ مِسْكًا وَمَثْلَا

(١) السَّبْتَنِي: النمر. محيط المحيط (سبت). وصدر هذا البيت عجز بيت من قصيدة تنسب إلى جزء بن ضرار، أخي الشماخ، قاله في عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، والبيت هو: [الطويل]

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ وَفَاتِهِ
طَبِيقَاتُ ابْنِ سَلَامٍ (ص ١١١).

(٢) فِي النَّفْحِ: «مَزْحَلًا».

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ فِي مَهْلَهْلِ بْنِ رَبِيعَةَ: [الكامل]

مَنْ مَبْلَغُ الْحَيِّينَ أَنْ مَهْلَهْلًا
أَضْحَى قَتِيلًا فِي الْفَلَاةِ مَجْنَدَلَا
هَذَا مِنْ قَوْلِ جُزْءِ بْنِ ضَرَّارٍ: [الطويل]

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ
الشعر والشعراء (ص ٢٣٥).

(٥) مُتَوَقِّلًا فِي أَوْجِ الْعَلَا: صَاعِدًا فِيهِ. لِسَانُ الْعَرَبِ (وَقُل).

على قاسم الأموال فينا على الذي
 وأنى لنا من بعده مُتَعَلِّلُ
 ألا يا قصيرَ العُمرِ يا كاملَ العُلا
 يسوءُ المُصَلَّى أن هَلَكَتْ ولم تُقَمْ
 وذلك لأنَّ الأمرَ فيه شهادة
 فيا أيها المَيِّتُ الكريمُ الذي قضى
 لِيَتَهَنَّكَ^(١) من ربِّ السماء شهادة
 رثيتك عن حبِّ نوى في جوانحي
 ويا رَبُّ من أوليتُهُ منك نعمةً
 تناساك حتى ما تَمُرُّ بباله
 يُرابضُ في مَثَواك كلَّ عَشِيَّةٍ
 لَحَى الله من ينسى الأذمةَ رافضاً
 خَنَائِكَ يا بَذَرَ الهُدَى فَلَسْتُ ما
 وكنتَ لآمالي حياةً هنيئةً
 فلا وأبيك الخيرِ ما أنا بالذي
 فأنت الذي أَوَيْتَنِي مُتَعَرِّباً
 فإن لم أتلُ منك الذي كنتَ آملاً
 فالكَيْتُ لا ينفكُ قلبي مُكَمِّداً

وضغنا لديه كلَّ إضرٍ على غُلا
 وما كان في حاجاتنا مُتَعَلِّلا
 يميننا لقد غادرتَ حُزْناً مؤثلاً
 عليك صلاةً فيه يشهدُها المَلا
 وسُئْتُها محفوفةً لن تُبَدَّلا
 سعيداً حميداً فاضلاً ومُفَضَّلاً
 تُلاقِي بِبُشْرَى وَجْهِكَ المُتَهَلِّلاً
 فما وَدَّعَ القَلْبُ العَمِيْدَ وما قَلا^(٢)
 وكنتَ له دُخْرًا عتيذاً وموئلاً
 ولم يَذْكُرْ^(٣) ذاك الندى والتَفَضُّلا
 صَفِيْفَ شَواهِ أو قديداً^(٤) مُعْجَلاً^(٥)
 ويُدْهَلُ مهما أصبح الأمرُ مُشْكَلاً
 تركتَ بُدُورَ الأفق بعدك^(٦) أَقْلا
 فغادرتَ مني اليومَ قَلْباً مُقْتِلاً
 على البُعْدِ يَنسى من ذِمَامِكَ ما خلا
 وأنت الذي أكرمتني مُتَطَفِّلاً
 فما كنتَ إلَّا المُحْسِنَ المُتَفَضِّلاً^(٧)
 عليك ولا ينفكُ دمعي مُسْبِلاً

محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوي

من أهل وادي آش، وسكن غرناطة.

(١) في الأصل: «لِيَتَهَنَّكَ» والتصويب من النسخ.

(٢) هذا من قول الله تعالى: ﴿يَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَانَ﴾ [الضحى: ٣].

(٣) يَذْكُر: يتذكر. محيط المحيط (ذكر). (٤) في النسخ: «قديراً».

(٥) أخذه من قول امرئ القيس في معلقته: [الطويل]

وظلَّ طُهاةَ اللحمِ من بَيْنِ مُنْضِجٍ
 ديوان امرئ القيس (ص ٢٢).

(٦) في الأصل: «بعد» والتصويب من النسخ. (٧) هذا البيت غير وارد في نفع الطيب.

حاله: فقيه أديب مُتَّكِبٌ، متفنن في علوم جمّة، شاعر مطبوع، يكتفى أبا بكر.
مدح الأمير علي بن يوسف اللمتوني بقوله: [مجزوء الكامل]

رحلوا الركائب موهناً فأذاع عَرْقُهُمُ السَّنا
والحَلْي قد أغرى بهم لَمَّا تَرْنَم مُغْلنا
كم حفّ حول جماهم من كلّ خطّار القنا

قال أبو جعفر بن الزبير، ينفك منها قصائد: [الكامل]

رحلوا الركاب موهناً ليكتّموا ظَنّ الحُمُول وهل تُوارى الأتْجُم؟
فأذاع سرُّهُمُ السَّنا ورمى بهم فلّ الذمّيل شذاهُمُ المُتَنَسِّمُ
كم حفّ حمل قبايهم وركابهم من ليثٍ غابٍ في برائنه الدُمُ
من كل خطّار القنا ممّوه بين الرحيل تُصْبُهُ يستسلم

وهي طويلة، خاطب بها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين. وقال في وصف القصيدة: [الطويل]

أيا ملكاً يسمو بسُغد مُساعد وقَدَّر على غُلّ الكواكب صاعد
نظمت قصيداً في علاك مُضْمُناً ثلاث قوافٍ في ثلاث قصائد
إذا قُصِلَتْ أغْنَى عن البعض بعضُها وإن وُصِلَتْ كانت ككعبٍ وساعد

فأجازه بظهير كريم بتحرير ماله وتوحيه.

محمد بن عبد الرحمن المُتاهل

من أهل وادي آش، يعرف بعمامي.

حاله: من التاج: ناظم أبيات، وموضح عُرر وشيات، وصاحب توقيعات رفيعات، وإشارات ذوات شارات. وكان شاعراً مكشّراً، وجوّاداً لا يخاف عِثاراً. أدخل على أمير بلده المخلوع عن مُلكه، بعد انتشار سُلْكه، وخروج الحضرة عن ملكه، واستقراره بوادي آش، مروج البال، معلّلاً بالأمال، وقد بلغه دخول طبرنش في طاعته، فأنشده من ساعته: [مجزوء الكامل]

خُذْها إليك طبرنشا شَقُّعُ بها وادي الأشا
والأمّ تتبع بنيتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة يطلب خطة الحسبة: [الطويل]

أَبْلَسْنِي يا خَيْرَ البريّة خُطَّةً تُرْفَعُنِي قَدْراً وتكسبني عزّاً

فأعترُ في أهلي كما اعتزَ بِنِدَقٍ على سُفرة الشطرنج لما انثنى فرزا
فوقع الأمر بظهر رقعته ما ثبت في حرف النون عند ذكره، والاحتجاج
بفضله.

وفاته: كان حياً بعد سنة سبع عشرة وسبعمائة. وفد على الحضرة مرات
كثيرة.

محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طُفَيْل القيسي^(١)

من أهل وادي آش، يكنى أبا بكر.

حاله: كان عالماً، صَدْرًا، حَكِيمًا، فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا
بالحكمة المشرقية، محققًا، متصوفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهاً، بارع الأدب، ناظمًا، ناثراً،
مشاركًا في جملة من الفنون.

مشيخته: روى عن أبي محمد الرُّشَاطِي، وعبد الحق بن عطية وغيرهما.

حُظُوتُهُ ودخوله غرناطة:

اختصَّ بالريس أبي جعفر، وأبي الحسن بن مَلْحَان. قال ابن الأبار في
تُخَفَّتِهِ^(٢): وكتب لوالي غرناطة وقتًا.

توَالِيْفُهُ: رسالة حيّ بن يقظان، والأرجوزة الطبية المجهولة، وغير ذلك.

شعره: قال: وهو القائل من قصيدة في فتح قَفْصَةِ سنة ست وسبعين^(٣)،
وأنْفَذَتْ إلى البلاد^(٤): [الطويل]

ولمّا انقضى الفَتَح الذي كان يُرتجى	وأصبح حزب الله أغْلَبَ غَالِبٍ
وأنجزنا وَغْدَ من الله صادق	كفيل بإبطال الظنون الكواذبِ
وساعدنا التوفيق حتى بيّنت	مقاصدنا مشروحة بالعواقبِ
وأذعن من عليا هلالُ بن عامر	أبي ولبى الأمر كلِّ مجانبِ

(١) ترجمة ابن طفيل في المعجب (ص ٣١١) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥) وعيون
الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٠) في ترجمة أبي الوليد بن رشد.

(٢) المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥).

(٣) في الأصل: «وتسعين»، وقد صوّناه عن ابن عذاري؛ إذ روى أن الخليفة يوسف بن
عبد المؤمن الموحدى فتح قَفْصَةَ في شهر رمضان من عام ٥٧٦ هـ. البيان المغرب - قسم
الموحدين (ص ١٤١).

(٤) القصيدة في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ١٤١ - ١٤٢).

ولم يتركوا بالشَّرق عِلْقَة آيب
وقد زاحموا الآفاق من كل جانب
بهم وخَضَمَ البحر بعض المذائب
يديه عظيم الروم في حال راغب
نَفْسُ مذعور ونُفْسُ راهب
وما^(٦) وضَحَّت^(٧) عنه فصاح القَواضبِ
عليه وإضراره في كفِّ حالب
وعُجْبًا عليكم من صدور الركائب
بمن حلَّ فيها من ولي^(٨) وصاحب
توافيهم بين الصُّبا والجَنائب

وهبوا إذا^(١) هبَّ النسيم كما^(٢) سرى
يُغْصُ بهم غُرض الفلا وهو واسع^(٣)
كَأَنَّ بسِيط الأرض خَلْقَة خانم
ومَدَّ على حكم^(٤) الصغار لسلما
يُصرِّح بالرؤيا^(٥) وبين ضلوعه
وعى من لسان الحال أفصح خُطبة
وأبصر مَثَن الأرض كفة حامل
أشرنا بأعناق الجياد إليكم
إلى بُقعة قد بيَّن^(٨) الله فضلها
على الصُّفوة الأذنين منّا تحية
وله أيضًا^(١١): [الطويل]

وأشرت إلى وادي^(١٢) العقيق من الحمى
ومَرَّتْ بنُعمان فأضحى مُنْعَمَا
فما زال ذاك الشُّرب نهبًا مقسما
ويحملة الداري^(١٧) إِيَّانَ يَمُما
وَأَنَّ سُرَها فيه لن يَسْكُما
فأبدت شُعاها يرفع اليوم مظلمًا^(١٩)

أَلَمْتُ وقد نام الرقيب^(١١) وقوما
وراحت^(١٣) إلى تَجِدُ فَرُحْتُ مُنْجِدا
وجَرَّتْ على ثُرْبِ المُحْصِبِ^(١٤) ذيلها
تناقله^(١٥) أيدي الثُّجار^(١٦) لطيمة
ولَمَّا رَأَتْ أن لا ظلامَ يَجِثُها
سَرَتْ^(١٨) عَذِبات الرُّيْطِ عن حُرِّ وجهها

(١) في البيان المغرب: «كما».

(٢) في البيان المغرب: «... عرض الفيافي وطولها».

(٣) في البيان المغرب: «رغم».

(٤) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن. (٥) في البيان المغرب: «وما صمت».

(٦) في البيان المغرب: «يمن».

(٧) في المصنوع في المعجب (ص ٣١٢ - ٣١٣) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٨) في المعجب: «المُشيع».

(٩) في الأصل: «وأسرت الوادي...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين السابقين.

(١٠) في الأصل: «وراح»، والتصويب من المقتضب.

(١١) في الأصل: «المُحْصِب»، والتصويب من المصدرين. مكان بين مكة ومنى.

(١٢) في المعجب: «تناوله».

(١٣) في الأصل: «الدارين» والتصويب من المصدرين. والداري: الملاح الذي يلي الشراع.

(١٤) في المعجب: «نَفَّتْ».

(١٥) في المعجب: «فأبدت مُخَيَّا يَدْهَش المتوسِّما». وفي المقتضب: «... شعاعًا يرجع الصبح».

فَكَانَ تَجَلِّيَهَا حِجَابَ جَمَالِهَا
وَلَمَّا رَأَتْ زُهْرَ الْكَوَاكِبِ أَنَّهَا
بَكَتْ أَسْفًا أَنْ لَمْ تَفُزْ بِجَوَارِهَا
فَجَلَّتْ يَمُجُّ الْقَطَرِ رَيَّانُ بُرْذَا
يَضُمُّ عَلَيْنَا الْمَاءَ فَضْلَ زَكَاتِهَا
وَيَفْتَقُ نَضْحَ الْغَيْثِ طَيْبَ عَرْفِهَا
جَلَّتْ عَنْ ثَنَائِهَا وَأَوْمَضَ بَرَقُهَا^(١)
وَسَاعَدَنِي جَفْنُ الْغَمَامِ عَلَى الْبُكََا
وَنَظَمَ سِمْطِي ثَغْرَهَا وَوَشَاحَهَا
تَقُولُ وَقَدْ أَلَمَّتْ أَطْرَافُ كُمِهَا
نَشْدُوكَ لَا يَذْهَبُ بِكَ الشُّوقُ مَذْهَبًا
فَأَقْصَرْتُ^(٢) لَا مُسْتَغْنِيَا عَنْ نَوَالِهَا
وقال^(٣): [الوافر]

أَتَذَكَّرُ إِذْ مَسَحْتُ بِفِيكَ عَيْنِي^(٤)
ذَكَرْتُ بِأَنْ رِيْقَكَ مَاءٌ وَزِدَ
وقد حَلَّ الْبُكََا فِيهَا عُقُودَةٌ
فَقَابَلْتُ الْحَرَارَةَ بِالْبُرُودَةِ

وقال: [الوافر]

سَأَلْتُ مِنَ الْمَلِيحَةِ بُرْءًا دَائِي
فَمَا زَالَتْ تُقْبِلُ فِي جَفُونِي
وَقَالَتْ إِنَّ طَرْفَكَ كَانَ^(٥) أَصْلًا
بَرَشَفٍ بِرُودِهَا الْعَذْبِ الْمَزَاجِ
وَتُبْهَرَنِي بِأَصْنَافِ الْجِجَاكِ
لِدَائِكَ فَلْيَقْدِّمُ فِي الْعِلَاجِ

وفاته: توفي بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وحضر السلطان^(٨) جنازته.

= معلما.

(١) في الأصل: «كمل» وكذا يتكرر الوزن، ولا معنى له.

(٢) في المعجب: «بارق». (٣) في المعجب: «دمتا».

(٤) في المعجب: «فأمسكت».

(٥) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥).

(٦) في المقتضب: «ذمعي».

(٧) كلمة «كان» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٨) السلطان هو المنتصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحيدي، وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٨٠ هـ إلى سنة ٥٩٥ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم =

محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله
ابن عيَّاش التَّجِيبِي البُرْشَانِي^(١)

من أهل حصن بُرْشَانَة المحسوب في هذه العِمالة، يكنى أبا عبد الله، كاتب الخلافة.

حاله: قال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك^(٢): كان كاتبًا بارعًا، فصيحًا، مُشرقًا على علوم اللسان، حافظًا للغات والآداب، جَزَلًا، سَرِيَّ الهمة، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع^(٣)، نَفَاعًا بجاهه وماله، كثير الاعتناء^(٤) بطلبة العلم والسعي الجميل لهم، وإفاضة المعروف على قُصَّاده، مستعينًا على ذلك بما نال من الثروة والحُظوة والجاه عند الأمراء من بني عبد المؤمن، إذ كان صاحب القلم الأعلى^(٥) على عهد المنصور وابنه، رفيع المنزلة والمكانة لديهم، قاصدًا^(٦) الإعراب في كلامه، لا يخاطب أحدًا^(٧) في كلامه من الناس، على تفريق أحوالهم، إلَّا بكلام مُعَرَّب، وربما استعمله^(٨) في مخاطبة خُدُمته^(٩) وأمته، من حُوشِي الألفاظ، ما لا يكاد يستعمله^(١٠)، ولا يفهمه إلَّا حُقَاط اللغة من أهل العلم، عادة أَلَقَّها واستمرت حاله عليها.

مشيخته: روى^(١١) عن أبي عبد الله بن حُميد، وابن أبي القاسم السُّهَيْلي، وابن حُبَيْش، وروى عنه بنوه أبو جعفر، وأبو القاسم^(١٢) عبد الرحمن، وأبو جعفر بن عثمان، وأبو القاسم البلوي.

= الموحدون (ص ١٧٠) والمعجب (ص ٣٣٦) والحلل الموشية (ص ١٢١).

(١) ترجمه ابن عيَّاش في التكملة (ج ٢ ص ١١٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٤). والبرشاني: نسبة إلى بُرْشَانَة Purchena وهي عمل ألمرية، وهي حصن على مجتمع نهريْن، من أمنع الحصون. الروض المطار (ص ٨٨) والتكملة (ج ٢ ص ١١٦).

(٢) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٥). (٣) في الذيل والتكملة: «الطبع».

(٤) في المصدر نفسه: «الاعتبار».

(٥) في المصدر نفسه: «الأعلى عند المنصور منهم قابله الناصر، قابله المستنصر، رفيع...».

(٦) في المصدر نفسه: «عامدًا».

(٧) في المصدر نفسه: «أحدًا من أصناف الناس...».

(٨) في المصدر نفسه: «استعمل».

(٩) في الأصل: «قدّمته» والتصويب من الذيل والتكملة.

(١٠) في الذيل والتكملة: «يستعمل».

(١١) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٤ - ٣٨٥).

(١٢) في الأصل: «وأبو القاسم، وعبد الرحمن» والتصويب من الذيل والتكملة.

تواليقه: له^(١) اختصار حسن في إصلاح المنطق، ورسائل مشهورة، تناقلها الناس، وشيخ يُخِين في بعضه.

جاءه: حَدَّثَ الشيخ أبو القاسم البلوي، قال^(٢): كنت أخِفُّ إليه^(٣)، وأشفع عنده في كبار المسائل، فيسرع في قضائها. ولقد عَرَضْتُ لبعض أصحابي من أهل بلاد الأندلس حاجةً مُهِمَّةً كبيرة، وجب عليّ السعي فيها، والتماس قضائها وفاء لربِّها، ولم يكن لها إلا ما قَدَّرْتُهُ من حسن نظره فيها، ورجوته من جميل أثره في تيسير أمرها، وكان قد أصابه حيثُذُّ التَّيَأُّ لَزِمَ من أجله داره، ودخلت^(٤) عليه عائداً، فأطال السؤال عن حالي، وتبسَّط معي في الكلام، مبالغة في تأنيسي، فأجَلْتُ ذكر الحاجة^(٥)، ورغبت منه في الشفاعة عند السلطان في شأنها، وكان مضطجعا، فاستوى جالساً، وقال لي: جَهِلَ النَّاسُ قَدْرِي، وكَرَّرْهَا ثَلَاثًا، في^(٦) مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين؟ هات الدَّوَاةَ والقرطاس، فناولته إياهما، فكتب برغبتي، ورفعني إلى السلطان، فَصُرِفَ في الحين مُعَلِّمًا، فاستدعاني، ودفعه إليّ، وقال: يا أبا القاسم، لا أَرْضَى مِنْكَ أَنْ تُخْجِمَ عَنِّي فِي التَّمَّاسِ حَاجَةً تَعْرُضُ لَكَ خَاصَّةً، وَإِنْ كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ مَعَارِفِكَ عَامَّةً، كَبُرَتْ أَوْ صَغُرَتْ، فَالْتَزِمْ قَضَاءَهَا، وَعَلَيَّ الْوَفَاءُ، فَإِنْ لَكُلِّ مَكْتَسَبٌ^(٧) زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَاهِ بِذَلِكَ.

وحدَّثني شيخني أبو الحسن بن الجيَّاب، عمن حدَّثه من أشياخه، قال: عرض أبو عبد الله بن عيَّاش والكاظم ابن القالمي على المنصور كتابين، وهو في بعض العَرَوَاتِ، في كَلْبِ الْبَرْدِ، وبين يديه كائون جَمْرٍ. وكان ابن عيَّاش بارِعَ الْخَطِّ، وابن القالمي رَكِيكُهُ، ويفضُّلُهُ في البلاغة، أو بالعكس الشكُّ مني. وقال المنصور: أَيُّ كُتُبٍ لَوْ كَانَ بِهَذَا الْخَطِّ؟ وَأَيُّ خَطٍّ لَوْ كَانَ بِهَذَا الْكُتُبِ؟ فرضي ابن القالمي، وسَخِطَ ابن عيَّاش. فانتزع الكتاب من يد المنصور، وطرحه في النار وانصرف. قال: فتغيَّر وجهُ المنصور، وابتدر أحد الأشياء، فقال: يا أمير المؤمنين، طَعَنَ لِي فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي عَرَفْتَهُ بِبَابِكُمْ، فَعَظُمَتْ غَيْرَتُهُ لِمَعْرِفَتِهِ بِقَدْرِ السَّبَبِ الْمَوْصِلِ إِلَيْكُمْ. فَسُرِّي عَنْ الْمَنْصُورِ، وَقَالَ لِأَحَدِ خِدَمَائِهِ: اذْهَبْ إِلَى السَّبَبِ، فَاخْتَرْ أَجْمَلَ نِسَاءِ الْأَبْكَارِ؛ وَأَبِ بَابِنِ عِيَّاشٍ فَقُلْ لَهُ: هَذِهِ تُطْفِئُ مِنْ خُلُقِكَ. قَالَ ابْنُ عِيَّاشٍ يَخَاطِبُ وَلَدَهُ، وَقَدْ حَدَّثَ الْحَدِيثَ: هِيَ أُمُّكَ، يَا مُحَمَّدُ، أَوْ فَلَانُ.

(١) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٥). (٢) النص في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٦).

(٣) في الذيل والتكملة: «عليه». (٤) في الذيل والتكملة: «فدخلت».

(٥) في الذيل والتكملة: «ذكر تلك الحاجة». (٦) في الذيل والتكملة: «أني».

(٧) في المصدر نفسه: «مكتسب».

بعض أخباره مع المنصور ومحاورته الدالة على جلالته قدره:

قال ابن خميس: حدثني خالي أبو عبد الله بن عسكر أن الكاتب أبا عبد الله بن عيَّاش، كتب يومًا كتابًا ليهودي، فكتب فيه، ويحمل على البرِّ والكرامة. فقال له المنصور: من أين لك أن تقول في كافر، ويحمل على البرِّ والكرامة؟ فقال: ففكرت ساعة، وقد علمت أن الاعتراض يلزمني، فقلت: قال رسول الله ﷺ: إذا أناكم كريم قوم، فأكرموه، وهذا عام في الكافر، وغيره. فقال: نعم هذه الكرامة، فالمبرة أين أخذتها؟ قال: فسكتُ ولم أجد جوابًا. قال: فقرأ المنصور: ﴿أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١) ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢). قال: فشهدتُ بذلك، وشكرته.

شعره: من شعره^(٣): [الطويل]

بلنسية، بيني عن العليا^(٤) سلوة
وكيف يُحبُّ المرءُ دارًا تُقسِّمَتْ
فإنك روضٌ لا أجنُّ لزمركِ
على صارمي^(٥) جوع^(٦) وفئتة مُشركِ؟

وذكره الأديب أبو بحر صفوان بن إدريس في «زاد المسافر» عند اسم ابن عيَّاش، قال: اجتمعنا في ليلة بمراكش، فقال أبو عبد الله بن عيَّاش: [البيسط]

وليلة من ليالي الصَّفْحِ قد جَمَعَتْ
كانوا على سُنَّةِ الأيام قد بَعُدُوا
إخوانٌ صِدْقٍ ووضِّلُ للدهر مُخْتَلِسُ^(٧)
فألقتُ بينهم لو ساعد الغَلَسُ

وقال من قصيدة: [الكامل]

أشفارها أم صارمُ الحجاج؟
فإذا نظرتُ لأرضها ومسمائها
وجفونها أم فشنةُ الحلّاج؟
لم تَلَفَ غير أسنةٍ وزجاج

(١) سورة النحل ١٦، الآية ٩٨. وصواب الآية: ﴿فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

(٢) سورة الممتحنة ٦٠، الآية ٨. وصواب الآية: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾.

(٣) البيتان في الروض المعطار (ص ١٠١) ونفع الطيب (ج ١ ص ١٧٢) ومعجم البلدان (ج ١ ص ٤٩١) وفيه ينسبهما ياقوت إلى ابن حريق.

(٤) في الأصل: «العليا» وكذا ينكسر الوزن. وفي سائر المصادر: «عن القلب».

(٥) في معجم البلدان: «على ضاربي».

(٦) في الأصل: «جذع» والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٧) في الأصل: «للدهر غير مختلس» وكذا لا يستقيم لا الوزن ولا المعنى، لذا حذفنا كلمة «غير».

وقال في المصحف الإمام، المنسوب إلى عثمان بن عفان، لما أمر المنصور بتخلّيته بنفيس الدرّ من قصيدة^(١):

وَنُقِلَتْهُ^(٢) مِنْ كُلِّ مَلِكٍ ذَخِيرَةٌ كَأَنَّهُمْ كَانُوا بِرَسْمٍ مَكَاسِبَةٍ
فَإِنْ وَرِثَ الْأَمْلَاكُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَكَمْ قَدْ أَخْلَوْا جَاهِلِينَ بِوَاجِبَةٍ
وَالْبَسْنَتْهُ الْيَاقُوتُ وَالدرُّ^(٣) جَلِيَّةً وَغَيْرُكَ قَدْ رَوَاهُ مِنْ دَمٍ صَاحِبَةٍ

كتابته: قال ابن سعيد في المرقصات والمطربات^(٤): أبو عبد الله بن عياش، كاتب الناصر وغيره، من بني عبد المؤمن، وواسطة عقد تزييله، قوله في رسالة كتبها في نزول الناصر على المهديّة بحرًا وبرًا، واسترجاعها من أيدي المؤمنين:

ولما حَلَلْنَا عُرَى السَّفَرِ، بَأَن حَلَلْنَا حِمَى الْمَهْدِيَّةِ، نَفَاءً لَنَا بِأَن تَكُونَ لِمَنْ خَلَّ
بِسَاحَتِهَا هَدِيَّةً، فَأَخَذْنَا بِهَا إِحْدَاقَ الْهَذَبِ بِالْعَيْنِ، وَأَطْرَزْنَا لِمَخْتَلَسٍ وَصَالِهَا غِزْبَانِ
الْبَيْنِ، فَبَانَتْ بَلِيلَةٌ بِاسِنِيَّةٍ، وَصَاحِبٌ يَوْمًا صَافَحَتْهُ فِيهِ يَدُ الْمَنِيَّةِ. وَلَمَّا اجْتَلَيْنَا مِنْهَا
عُرُوسًا قَدْ مَدَّ بَيْنَ يَدَيْهَا بِسَاطَ الْمَاءِ، وَتَوَجَّهَتْ بِالْهَلَالِ وَقَرَطَتْهُ بِالْثُرَيَّا وَوُشَّجَتْ بِنُجُومِ
السَّمَاءِ، وَالسُّحُبِ تَسَحَّبَ عَلَيْهَا أَزْدَانُهَا فَتَرْتَدِّيْهَا تَارَةً مُتَلَثِّمَةً، وَطُورًا سَافِرَةً، وَكَأَنَّمَا
شُرُفَاتُهَا الْمُشْرِفَةُ أُنَامِلُ مُخَضَّبَةٍ بِالْذِيَّاجِيِّ، مُخْتَتَمَةٌ بِالْكُوكَبِ الزَّاهِرَةِ، تُضْحِي عَنْ
شَسْبٍ لَا تَزَالُ تُقْبَلُهُ أَفْوَاهُ الْمَجَانِيْقِ، وَتُنْسِي بِاسْمَةٍ عَنْ لَعْسٍ لَا تَبْرَحُ تَرْشِفُهُ شِفَاهُ سِيْهَامِ
الْحَرِيقِ، خَطْبِنَاهَا فَأَرَادَتْ التَّنْبِيْهَ عَلَى قَدْرِهَا، وَالتَّوْفِيرَ فِي إِعْلَاءِ مَهْرِهَا، وَمَنْ خَطَّبَ
الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ الْمَهْرُ فَتَمَنَعَتْ تَمَنُّعَ الْمُقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ، وَأَطَالَتْ إِعْمَالُ الْعَامِلِ
فِي خِدْمَتِهَا وَتَجَرِيدِ الْحَسَامِ، إِلَى أَنْ تَحَقَّقَتْ عِظَمَ مَوْقِعِهَا فِي النُّفُوسِ، وَرَأَتْ كَثْرَةَ مَا
أَلْقَى لَهَا مِنْ نِثَارِ الرُّؤُوسِ، جَنَحَتْ إِلَى الْإِخْصَانِ بَعْدَ النُّشُوزِ، وَرَأَتْ اللَّجَاجَ فِي
الْإِمْتِنَاعِ مِنْ قَبُولِ الْإِحْسَانِ لَا يَجُوزُ، فَأَمْكَنْتْ زَمَامَهَا مِنْ يَدِ خَاطِبِهَا، بَعْدَ مِطَاوَلَةِ
خَطْبِهَا وَخِطَابِهَا، وَأَمْتَعَتْهُ عَلَى رَغْمِ رُقِيَّهَا بِعِنَاقِهَا وَرَشْفِ رُضَائِهَا، فَبَانَتْ مُعْرُوسًا حَيْثُ
لَا جِجَالُ إِلَّا مِنَ الْبُنُودِ، وَلَا خُلُوقُ إِلَّا مِنْ دِمَاءِ أَبْطَالِ الْجُنُودِ، فَاصْبَحَ وَقَدْ تَلَالَتْ
بِهَذِهِ الْبَشَائِرِ وَجُوهَ الْأَفْكَارِ؛ وَطَارَتْ بِمَسَارِهَا سَوَائِحُ الْبَرَارِيِّ وَسَوَائِحُ الْبَحَارِ. فَالْحَمْدُ

(١) الأبيات في التكملة (ج ٢ ص ١١٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٨٧).

(٢) في الأصل: «وَنُقِلَتْ» وكذا ينكسر الوزن. والتصويب من الذيل والتكملة. وفي التكملة: «وَنُقِلَتْ».

(٣) في الأصل: «الدرّ والياقوت». وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٤) لم يرد شيء من هذا في المرقصات والمطربات، وجاء فيه (ص ٩٢) بيتان من الشعر لأبي جعفر بن عياش، شاعر المائة السابعة، وليس لأبي عبد الله بن عياش.

الله الذي أقرَّ الحقَّ في نصابه، واشترَّجه من أيدي غُصابه، حمداً يجمع شمل النعم، ويُلقِّحها كما تُلقِّح الرياح الدِّيم، فشَنَّفوا الأسماع بهذه البشائر، واملئوا الصُّدور بما يرويه لكم من أحاديثها كل وارد وصادر، فهو الفتحُ الذي تفتَّحت له أبواب السماء، وعمَّ الخير واليمن به بَسِيطِي الشَّرْقِ والماء؛ فشكر الله عليه، فرض، في كل قَطْرِ من أقطار الأرض.

دخل غرناطة، مُرتاداً، ومُتعلماً، ومُجتازاً.

مولده: بئرشانة بلده، عام خمسين وخمسمائة.

وفاته: توفي بمراكش في شهر رجب^(١) الفرد من عام ثمانية عشرة وستمائة، رحمه الله.

محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهمداني

من أهل وادي آش، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن البراق^(٢).

حاله: قال ابن عبد الملك^(٣): كان محدثاً حافظاً، راويةً مكثراً، ثقةً ضابطاً^(٤)، شهير بحفظ كتب كثيرة من الحديث وغيره، ذا نظر صالح في الطب^(٥)، أدبياً بارعاً، كاتباً بليغاً، مكثراً لجيده^(٦)، سريع البديهة في النظم والنثر، والأدب أغلب عليه. قال أبو القاسم ابن الموائيني: ما رأيت في عباد الله أَسْرَعَ ارتجالاً منه.

مشيخته: روى^(٧) عن أبي بحر يوسف بن أحمد بن أبي عَيشون، وأبي بكر بن رَزَقون، وابن قيد^(٨)، وابن إبراهيم بن المل، وابن النُّعْمة وصُخْبِه^(٩)، ولقيَه بمراكش، ووليد بن موفَّق، وأبي عبد الله بن يوسف بن سعادة، ولازمه أزيد من ست سنين وأكثر عنه، وابن العُمَرسِي، وأبي العباس بن إدريس، والخُرُوبِي، وتلا عليه بالسَّبع،

(١) في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٨٧): «توفي بمراكش لخمس بقين من جمادى الآخرة...».

وفي التكملة (ج ٢ ص ١١٦): «توفي بمراكش في العشر الأواخر من جمادى الآخرة...».

(٢) ترجمة ابن البراق في رايات المبرزين (ص ١٦٦) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣٣) وزاد المسافر (ص ١٥١) والمطرب (ص ٢٤١) والتكملة (ج ٢ ص ٧٦) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٧) وبغية الملتبس (ص ١١٤) والمغرب (ج ٢ ص ١٤٩) وكنيته فيه: أبو عمرو، ونفع الطيب (ج ٥ ص ٥٣).

(٣) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٧). (٤) في الذيل والتكملة: «ضابطاً ثقة».

(٥) في الأصل: «في الطلب» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٦) في المصدر نفسه: «مكثراً مجيداً». (٧) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٥٨).

(٨) في الذيل والتكملة: «ابن فيد». (٩) في الذيل والتكملة: «ونجبة».

وأكثر عنه، وعَرَضَ عليه من حفظه كثيرًا، وابن مضاء، وأبي علي بن عرب^(١)، وأبي القاسم بن حَبِيش، وابن عبد الجبار، وأبي محمد بن سهل الضرير، وعاشر وقاسم بن دُخْمان، وأبي يوسف بن طلحة. وأجاز له أبو بكر بن العربي، وابن خير، وابن مُنْدَلَة^(٢)، وابن تَمَارَة^(٣)، وأبو الحسن شريح، وابن هُذَيْل، ويونس بن مُغِيث، وأبو الجليل^(٤) مفرج بن سلمة، وأبو عبد الله حفيد مكِّي، وأبو عبد الرحمن بن مساعد، وأبو عامر محمد بن أحمد السالمي، وأبو القاسم ابن بشكوال، وأبو محمد بن عبيد الله، وأبو مروان البياضي، وابن قُزْمان، وأبو الوليد بن حجاج.

مَنْ رَوَى عَنْهُ: روى^(٥) عنه ابنه أبو القاسم، وأبو الحسن بن محمد بن بقي الغَسَّاني، وأبو عبد الله محمد^(٦) بن يحيى السُكْرِي، وأبو العباس الثُّبَاتِي، وأبو عمرو بن عِيَاد، وهو أَسْنُ منه، وأبو الكرم جودي.

توَالَفَهُ: صَنَّفَ^(٧) في الأدب^(٨) مصنفات منها «بَهْجَةُ الْأَفْكَارِ، وَفَرْجَةُ^(٩) التَّذْكَارِ، في مختار الأشعار»، و«مباشرة ليلة السَّفْح»^(١٠)، ومقالة في الإخوان، خَرَّجَهَا من شواهد الحكم، ومصنَّف في أخبار معاوية، و«الدُّر المنظم في الاختيار»^(١١) المعظم، و«مجموع في الألغاز»^(١٢)، و«روضة الحقائق، في تأليف الكلام الرائق»، مجموع نظمه ونثره، وملقى^(١٣) السبيل في فضل رمضان، وقصيدته في ذكر النَّبِيِّ ﷺ، وخطرات الواجد في رثاء الواحد، ورجوع^(١٤) الإنذار بهجوم العذار، إلى غير ذلك.

مَحْتَتُهُ: غَزَبَهُ الأمير ابن سعد^(١٥) من وطنه، وألزمه سكنى مُرْسِيَّة، ثم بَلَنْسِيَّة. ولما مات ابن سعد آخر يوم من رجب سبع وستين وخمسمائة، عاد إلى وطنه واستقرَّ به يفيدة الدِّيَّة، إلى آخر عمره.

(١) في الذيل والتكملة: «عريب».

(٢) في الذيل والتكملة: «ابن نمارة».

(٣) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٧).

(٤) قارن بالذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٨).

(٥) في الأصل: «وفرسة» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٦) في الذيل والتكملة: «ومباشرة ليلة السَّفْح، من خبر أبي الأصمغ عبد العزيز ابن أبي الفتح...».

(٧) في الأصل: «الإحسان» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٨) في الذيل والتكملة: «في ألغاز».

(٩) في الأصل: «ورجوم» والتصويب من الذيل والتكملة.

(١٠) في الذيل والتكملة: «ملقى السبيل...».

(١١) هو الأمير محمد بن سعد بن مردنيش الجذامي، أمير بلنسية ومرسية، وقد تقدمت ترجمته في هذا الجزء.

شعره: وشعره كثير. فمن ذلك القصيدة الشهيرة في مدح رسول الله ﷺ، وذكر صحابته^(١): [الكامل]

بالهَضْبِ هَضْبٍ زَرَدٍ أَوْ تَلْعَاتِهَا شَاقَتَكَ^(٢) هَاتِفَةً عَلَى نَعْمَاتِهَا
مَصْدُورَةً تَفْتَنُ فِي تَرْجِيْعِهَا^(٣) فَيَبِينُ نَفْثَ السُّحْرِ فِي نَفْثَاتِهَا
إِنْ رَاقَهَا^(٤) رَأْدُ الضَّحَى أَوْ رَاعِهَا جَنَحُ الدُّجَى سَيَانٍ فِي ذِكْرَاتِهَا
هَذَا يُمَتِّعُهَا وَذَاكَ يَشْوِقُهَا وَالْمَوْتَ^(٥) فِي يَقْظَاتِهَا وَسِنَاتِهَا
وَلَوْ^(٦) التَّعَلُّ بِالْكَرَى يَنْتَابُهَا نَضَحَتْ قَرْوَرُ^(٧) الطَّيْفِ بَرَحَ شَكَاتِهَا
لَكُنْ بَيْنَ جُفُونِهَا وَمَنَامِهَا^(٨) حَزْبًا^(٩) نَشِيرَ النَّهَبِ فِي كَرَاتِهَا
وَلَشَنْ نَطَقَتْ لَهَا بِهِ فَتَقُولُ مَنْ لِلرِّيَّاحِ^(١٠) بَمُلْتَقَى هَبَاتِهَا؟
مَطْلُولَةُ الْفَرْعَيْنِ تُلَحِّفُهَا الرُّبَى كَنْفًا^(١١) وَتُلْثِمُهَا لَمَى زَهْرَاتِهَا
وَيُسَيِّفُهَا^(١٢) مَاءُ التُّخَيْلَةِ جَرْعَةً لَغِيَاضِهَا^(١٣) مِنْ مُجْتَنَى نَخْلَاتِهَا
منها:

يَا مَنْ تَبَلَّجَ نَوْرَهُ عَنْ صَادِعٍ بِالْوَاضِحَاتِ الْغُرِّ مِنْ آيَاتِهَا
يَا شَارِعًا فِي أُمَّةٍ جُعِلَتْ بِهِ وَسَطًا نَالَتْ^(١٤) مُسْتَدَامَ حَيَاتِهَا

(١) هي مخمسة، وهي طويلة، وقد وردت كاملة في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٦٩ - ٤٨٢) ومطلعا:

يَا مُسْبِلًا مِنْ عَيْنِهِ عِبْرَاتِهَا أَشَجَّتَكَ هَاتِفَةً عَلَى أَثْلَاتِهَا
أَمْ سَمِعْتَ بَارِقَةً يَمْزِيهِ فَلَاتِهَا بِالْهَضْبِ هَضْبٍ زَرَدٍ أَوْ تَلْعَاتِهَا؟
شَاقَتَكَ هَاتِفَةً عَلَى نَعْمَاتِهَا

(٢) في الأصل: «شاقتك» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٣) في الأصل: «في بجمها» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٤) في الأصل: «إن راعها راد»، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٥) في الذيل والتكملة: «فالموت».
(٦) في الأصل: «ولولا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(٧) في الذيل والتكملة: «بِزُرُور».
(٨) في الأصل: «ومنامها» والتصويب من الذيل والتكملة.
(٩) في الأصل: «حزبا» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٠) في الأصل: «من يلقى الرياح بملتقى...» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.
(١١) في الأصل: «كنفاً ويلثمها المعنى...» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٢) في الأصل: «وتسيفها» والتصويب من الذيل والتكملة.
(١٣) في الذيل والتكملة: «لغياضها».
(١٤) في الأصل: «فغالت» والتصويب من الذيل والتكملة.

في دارِ خُلْدٍ لا يَشِيبُ وليدُها حيثُ الشَّبَابُ يَرِفُ في جَنَاتِها
وتَسْنَمُ^(١) الرُّضْوَانُ في أَكْنافِها وتَسْنَمُ^(٢) الرِّيحَانُ من جَنَبَاتِها
يا مُضْطَفَّاهَا يا^(٣) مُرْقِعَ قَدْرِها يا كَهْفَها يا مُنْتَهَى غَايَاتِها^(٤)
يا مُنْتَقَاهَا من أَرْوَمَةِ هَاشِمٍ يا هَاشِمِ الصُّلْبَانِ في نَزَاوَتِها
يا خَاضِدًا لِلشَّرْكِ شَوْكَةً حَزْبِها يا يَافِعًا^(٥) لِلْمَرْبِ في جَمَرَاتِها

قلت: نقل الشيخ^(٦) أزيد من ذلك أو ضعفه أو نحوه. إلى أن قال: وهي طويلة، قلت: وثقيلة الروح. ولقد صدق في قوله.

ومن شعره: [السريع]

يا بَذَرَ تَمِّ طَالَعًا في الحَشَا بَرَّحَ بي منك أوان المَغِيْبِ
حَظُّكَ من قَلْبِي تَعْذِيبُ وحَظُّهُ منك الأَسَى والوَجِيبِ
فَمَنْ يَكُنْ يُزْهِى بلبسِ المُنَى فإن زَفْوِي بِلحاسِ التُّحِيبِ
فِي سَاعَةِ قَصْرِ أنْيَابِها غِيبَتُهُ لي وحُضُورِ الرَقِيبِ
لَعَلَّ مَنْ بَاعَدَ ما بَيْنَنَا يُفَرِّجُ الكَرْبَةَ عَمَّا قَرِيبِ

وقال: [الكامل]

رَشُوا^(٧) القِيَابَ بِأَدَمْعٍ مَفْضُوضَةٍ ذَوَى لِفِرَاقٍ وَأَكْبَدِ تَتَصَرُّمِ
فَللنَّفْسِ فِي تِلْكَ الرُّبُوعِ حَبِيبَةٌ والقَلْبِ فِي إِثْرِ الودَاعِ مُقَسِّمِ
هَلْ لِي بِهَاتِيكَ الطُّبَا إِمَاعَةٌ؟ أَمْ هَلْ لِذَاكَ السَّرْبِ شَمْلٌ يَنْظُمُ؟
حَقًّا فَقَدْتُ الذَّاتَ عِنْدَ فِرَاقِهِمْ فَالشَّخْصَ يُوجِدُ والحَقِيقَةَ تُغْدمُ

وفاته: توفي ببلده لثلاث بقين من رمضان ست وتسعين وخمسمائة^(٨). قال أبو القاسم المواعيني: عثر في مشيه فسقط، فكان سبب مميته، ودخل غرناطة في غير ما وجهة منها، راويًا عن أبي القاسم بن الفرس، ومع ذلك فهو من أحوازاها وبنياتها.

(١) في الأصل: «وتسنم» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٢) في الأصل: «وشيم» والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) كلمة «يا» ساقطة في الأصل، وقد أضفتها من الذيل والتكملة.

(٤) في الأصل: «يا كنفها... عليانها»، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٥) في الذيل والتكملة: «يا نابغا». (٦) هو الشيخ أبو الحسن الرعيني.

(٧) في الأصل: «رثوا» بالثاء.

(٨) في بغية الملتبس: توفي في سنة ٥٩٥ هـ. وولادته في المصادر: سنة ٥٢٩ هـ.

محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد
ابن خاتمة الأنصاري^(١)

من أهل المرية، يكنى أبا عبد الله.

حاله: من كتاب الإكليل ما نصه^(٢): ممن تكلته البراعة، وفقدته البراعة، تأدب بأخيه^(٣)، وتهذب، وأراه في النظم المذهب، وكساه من التفهم والتعليم البزد^(٤) المذهب، فاقتفى واقتدى، وراح في الحلبة واغتنى، حتى نبّل وشدا، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى. وأما خطه فقيد الأبصار، وطرفة من طرف الأمصار، واغبط^(٥) يانع الشبية، مخضّر الكتبية.

شعره: [البسيط]

كفوا الملام فلا أضغي إلى العذل عقلي وسَمعي عن العذال في شغل
يقول في هذه القصيدة:

هزلُ المحبة جدُّ والهوان هوى
مَنْ مُسْعِدِي وفؤادي لا يساعدي
أعللُ النَّفْسَ بالآمالِ أَطْمِعُهَا
لئن كنت تجهل ما في الحب من مَحْنٍ
أنا الذي قد حَلَبْتُ الحبَّ أَشْطَرَهُ
لا أشرب الزّاح كي أخلو براحتها
ولا أجول بطرفي في الرياض سوى
أنا العَهْدُ مضى ما كان أعذبه
كم قَدَيْتُكَ يا قلبي وأنت على
فاختر لنفسك إما أن تُصاحبني
فقد تبعثك حتى سرت من شغفي
والصَّبُّ يثلف بين الجدِّ والهزل
أو مَنْ شَفِيعِي وذلي ليس يشفع لي
حتى وقعت من التعليل في علل
أنا الخبير فغيري اليوم لا تسلي
فلم يُفدني لا حولي ولا حيل
لكن لأدفع ما بالنفس من كسل
ذكرني لأيامنا في ظلها الأول
لم يبق لي غير آيات من الخبل
تلك الخواية لم تَبْرَحْ ولم تزل
حُلُوا وإلا قدغني منك وارثجل
ولوعتي في الهوى أعجوبة المثل

(١) ترجمة ابن خاتمة الأنصاري في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٠١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٤).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٤ - ٣٦٥).

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد، ويعرف أيضًا بابن خاتمة، المتوفى سنة ٧٧٠ هـ، وترجمته تقدمت في الجزء الأول، وله ديوان شعر مطبوع، حققه الدكتور محمد رضوان الداية.

(٥) اعتبط: مات شابًا. لسان العرب (عبط).

(٤) في النفع: «الرداء».

ومن شعره^(١): [الرمل]

وَمَضَى الْبَرْقُ فَتَارَ الْقَلْقُ وَمَضَى النَّوْمُ وَحَلَّ الْأَرْقُ
وَيَنْعَانِي مِنْ غَرَامِي قَدْ شَكَا وَدَمْعِي مِنْ وَلَوْعِي تَنْطَقُ^(٢)
وَدَلِيلِي فِي غَلِيلِي زَفَرَتِي وَعَذَابِي بَانَتْحَابِي أَضْدَقُ
وَحُسُودِي مِنْ وَفُودِي رَقُّ لِي^(٣) ضَمْنَا فِيهَا الْحَمَى وَالْأَبْرَقُ^(٤)
وَعَشِيَّاتٍ تَقْضَتْ بِاللَّوَى فِي مُحَيَّا^(٥) الدَّهْرِ مِنْهَا رَوْنُ
إِذْ شَبَابِي وَالتَّصَابِي جُمِعَا وَرِيَاضُ الْأَنْسِ غَضُّ مُوْتَقٍ^(٦)
شَتْ^(٧) يَوْمَ الْبَيْنِ شَمْلِي لَيْتَ مَا خُلِقَ الْبَيْنُ لِقَلْبٍ يَعِشِقُ
أَوْ مِنْ يَوْمٍ قَضَى لِي فُرْقَةً شَابَ مَنِّي يَوْمَ حَلَّتْ مَفْرِقُ
وَمِنْ ذَلِكَ: [الطويل]

أَيَا جَبْرَةَ الْحَيِّ الْمُمْنَعِ جَارُهُ سَقَى رَيْقُكُمْ ذَنْعِي إِذَا بَخَلَ الْوَبْلُ
مَتَى غَبِثْتُ عَنِّي فَأَنْتُمْ بِخَاطِرِي وَإِنْ تَقْصِدُوا ذُلِّي فَقَدْ لَذْنِي الذُّلُّ
عَذَابُكُمْ قُرْبٌ وَيُخْلِكُكُمْ نَدَى وَإِذَا لُكُمُ عَزٌّ وَمُخْجَرَاتُكُمْ وَضَلُّ
وَأَنْتُمْ تَعِيمِي لَا تَعِمْتُ بِغَيْرِكُمْ وَرَوْضِي لَا مَاءَ^(٨) أَرِيدُ وَلَا ظِلُّ
وَمِنْ ظَرِيفِ نَزَعَاتِهِ قَوْلُهُ^(٩): [البسيط]

الرَّفْعُ نَعْتُكُمْ لَا خَانَكُمْ^(١٠) أَمْلُ وَالْخَفْضُ شِمَّةٌ شَانِي^(١١) وَالْهَوَى دَوْلُ
هَلْ مِنْكُمْ لِي عَطْفٌ بَعْدَ بُعْدِكُمْ؟ إِذْ لَيْسَ لِي مِنْكُمْ يَا سَادَتِي بَدَلُ

(١) ورد منها ستة أبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥).

(٢) هذا البيت والذي يليه لم يردا في نفع الطيب.

(٣) رواية صدر البيت في النفع هي: مَذْ تَذَكَّرْتُ لَأَيَّامٍ حَلَّتْ.

(٤) في الأصل: «والأيفق»، والتصويب من النفع. و«الأبرق»: غَلَطَ فِيهِ حَجَارَةٌ وَرَمَلٌ وَطِينٌ مُخْتَلَطَةٌ، وَالْجَمْعُ أَبَارِقُ. مُحِيطُ الْمَحِيطِ (برق).

(٥) في الأصل: «مختلى» وكذا ينكسر الوزن والتصويب من النفع.

(٦) في النفع: «مُورِق». (٧) شَتْ: فَرَّقَ. لِسَانُ الْعَرَبِ (شنت).

(٨) في الأصل: «ما» وكذا ينكسر الوزن.

(٩) البيتان في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٠١) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٦٥).

(١٠) في الأصل: «خابكم» والتصويب من النفع. (١١) في النفع: «مثلي».

وفاته: اعتُبط في الطاعون في أوائل ربيع الأول عام خمسين وسبعمائة. وَرَدَ إلى الحضرة غير ما مرة.

محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزْمان الرُّهْري^(١)

من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر.

حاله: نسيجٌ وخده أدبًا وظرفًا ولَوْدَعِيَّةٌ وشهرة. قال ابن عبد الملك: كان أدبياً بارعاً، محسنًا، شاعرًا حُلُو الكلام، مليح التَّنْدير، مبرزًا في نظم الطريقة الهزلية، بلسان عوام الأندلس، الملقب بالزُّجَل. قُلْتُ^(٢): وهذه الطريقة بديعةٌ يتحكم فيها ألقاب البديع، وتُفَسِّخ لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر. ويلغ فيها أبو بكر مَبْلَغًا حَجَرَهُ الله عن سواء؛ فهو آيُّها المعجزة، وحجَّتُها البالغة، وفارسها العَلَم، والمُبْتَدَى فيها والمُتَمِّم، رحمه الله. وقال الفُتُوح فيه^(٣): «مبرزٌ في البيان، ومُحرزُ السُّبْق»^(٤) عند تسابق الأعيان، اشتمل عليه المتوكل^(٥) على الله اشتمالًا رَقَاهُ^(٦) إلى مجالس، وكساه ملابس، واقتطع^(٧) أسمى الرُّتَب وتبَوَّأها، ونال أسنى الخُطَط^(٨) وما تما لها.

شعره: قال الفُتُوح^(٩): وقد أثبت له ما يُعلم^(١٠) به رفيع قدره، ويُعرف كيف أساء الزمن^(١١) بغيره، قوله^(١٢): [الكامل]

ركبوا السيولَ من الخيول وركبوا فوق العوالي السُّمِرَ رُزْقَ نِطَافٍ^(١٣)

(١) ترجمة ابن قُزْمان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٩٥) ورايات المبرزين (ص ١٢٦) والوافي بالوفيات (ج ١ ص ٥٤) ونفع الطيب (ج ٥ ص ١٧٢) (ج ٦ ص ٧٠) و(ج ٩ ص ٢٤١).

(٢) القول لابن الخطيب معلقًا على قول ابن عبد الملك المراكشي.

(٣) يخلط ابن الخطيب هنا بين المترجم له وبين عمه أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قُزْمان القرطبي، المتوفى سنة ٥٠٨ هـ. وقول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان (ص ١٨٦).

(٤) في القلائد: «الخصل».

(٥) هو المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس، في عصر ملوك الطوائف، وقد قتله المرابطون سنة ٤٨٨ هـ.

(٦) في القلائد: «أرقاه».

(٧) في المصدر نفسه: «فاقتطع».

(٨) في المصدر نفسه: «الحظوظ».

(٩) في القلائد: «ما تعلم به حقيقة قدره، وتعرف...».

(١٠) في المصدر نفسه: «الزمان».

(١١) في المصدر نفسه: «فمن ذلك قوله» والبيتان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) منسوبين إلى أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قُزْمان، عم المترجم له.

(١٢) في الأصل: «نِطَاف» والتصريب من القلائد والمغرب.

وتجَلَّلُوا الْخُدْرَانَ مِنْ مَادِّيهِمْ مُرْتَجَّةً إِلَّا عَلَى الْأَكْتَفِ
وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال^(١) يستدعيه إلى مجلس
أنس: [البسيط]

إني أهزك هز الصَّارمِ الْخَذِمِ وبيننا كلُّ ما تَذْريه من ذَمِّ
ذا شاكٍ^(٢) من قَطْعِ أنسٍ أنتَ واصلُهُ بما لديك من الآداب والحكم
وشكَّ شملُ كِرامٍ أنتَ ناظِمُهُ ورَدُّ دعوة أهل المجد والكرم
ولو دُعيت إلى أمثالها لسَعَتْ إليك سَعْيِي مَشْوَقي هائمٍ قديمٍ
وإنْ نَشِطْتَ لتصريفي صرفتُ له وجهي وكنْتُ من الأعوان والخدم
وما أريد سوى عفوٍ تجود به وفي حديثك ما يُشفي من الألم
أنتَ الْمُقَدَّمُ في فخرٍ وفي أدب فاطلَع علينا طلوع السيد العِمِّم
فأجابه رحمه الله: [البسيط]

أتى من المجد أمرٌ لا مَرَدُّ له نمشي على الرأس فيه لا على القَدَمِ
لُبِّيك لَبِّيك أضعافاً مضاعفة إني أَجَبْتُ ولكنَّ داعي الكَرَمِ
لي همةٌ ولأهل العِزِّ مَطْمَحُها لا زلتُ في كلِّ مُجدٍ مطمح الهممِ
وإنْ حَقَّقَ معروفٌ وملْتَزَمَ وكيف يُوجد عندي غيرُ مُلْتَزِمٍ؟
زَفَنُ^(٣) وَرَقَصَ وما أَحْبَبْتُ من مُلَحٍ عندي وأكثر ما تَذْريه من شِيمِ
حتى يكون كلامُ الحاضرين بها عند الصَّباح وما بالعهد من قَدَمِ
يا ليلة السُّفْحِ هلاً عُدَّتْ ثانية سقى زمانك هطالاً من الدُّيَمِ
وقال في غرض التَّسْبِيبِ^(٤): [السريع]

يا رَبُّ يوم زارني^(٥) فيه مَنْ أَطْلَعَ من غَرْبِهِ^(٦) كوكبا
ذو شَفَةِ لَمِياءٍ معسولةٍ يَنْشَعُ مِنْ خَذِيهِ ماء الصُّبا

(١) تقدمت ترجمة ابن أبي الخصال في هذا الجزء من الإحاطة.

(٢) في الأصل: «ذاك شاكٍ» وكذا يتكسر الوزن.

(٣) الزَفَنُ: الرقص. لسان العرب (زفن).

(٤) الأبيات في المقتضب (ص ٩٥) ونفع الطيب (ج ٥ ص ١٧٢).

(٥) في الأصل: «زادني» والتصويب من المصدرين.

(٦) في الأصل: «غربه» وكذا يتكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

قُلْتُ لَهُ هَبْ^(١) لِي بِهَا قُبْلَةً
فَذَقْتُ شَيْئًا لَمْ أَذُقْ مِثْلَهُ
أَسْعَدَنِي اللَّهُ بِإِسْعَادِهِ
وَقَالَ: [المنسرح]

جَلْتُ لَتَوْدِيعِهِ وَقَدْ ذَرَقْتُ
فِي مَوْكِبِ الْبَيْنِ بِأَكْيَيْنِ^(٢) وَلَا
مَعَانِقًا جَمِيدَةً عَلَى حَذَرٍ
نَغْصَ تَوْدِيعِهِ لِعَاشِقِهِ
وَقَالَ يَعْذَرُ ارْتِجَالًا وَأَحْسَنَ مَا أَرَادَ^(٣): [البسيط]

يَا أَهْلَ ذَا الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ سَرَاوَتِهِ^(٤)
وَإِنْ^(٥) أَكُنْ مُطْفِئًا^(٦) مِصْبَاحِ بَيْتِكُمْ
وَقَالَ يُهْنِئُ بِعَرَسٍ: [الكامل]

صَرَقْتُ إِلَيْكَ وَجُوهَهَا الْأَفْرَاحُ
فَاقْضِ الْمَآرِبَ فِي زَمَانٍ صَالِحٍ
إِنْ كَانَ كَالشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ حُسْنَهَا
لَا فَرْقَ بَيْنَكُمَا لِرَأْيٍ فَاسْتَوَى
هَلْ يُوقِدُ الْمِصْبَاحَ عِنْدَكُمَا مُهْجَا
أَخْرَزْتُ يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ مُحَاسِنَا
يَا مَنْ لَهُ كَفٌّ تَجُودٍ وَأَضْلَعُ
وَتَكْتَفُّكَ سَعَادَةٌ وَنَجَاحُ
لَا سُدَّ عَنْكَ مِنَ الزَّمَانِ صِلَاحُ
فَالْبَذْرُ أَنْتَ وَمَا عَلَيْكَ جُنَاحُ
زَيْ النِّسَاءِ قِلَادَةٌ وَوَشَاحُ
وَكِلَاكُمَا بِبَهَائِهِ مِصْبَاحُ؟
كَثُرَتْ فَلَمْ تَسْتَوْفِهَا الْأَمْدَاحُ
مَطْوِيٌّ عَلَى حِفْظِ الْوَدَادِ سَجَاحُ^(٧)

(١) في الأصل: «وَهَبْ» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٢) الشَّقْوَةُ: الشَّقَاءُ. لسان العرب (شقا).

(٣) في الأصل: «بَاكَيْنِ» بياء واحدة، وكذا ينكسر الوزن.

(٤) البيتان في المغرب (ج ١ ص ١٠٠) وجاء فيه أنه قالهما وقد رقص في مجلس شرب، فاطفا السراج بأكمامه.

(٥) في المغرب: «مِرَارَتِهِ».

(٦) في الأصل: «مُظْلِعًا» والتصويب من المغرب.

(٧) في المغرب: «فَكُلْ مِنْ قَدْ حَوَاهِ الْبَيْتِ...».

(٨) في الأصل: «شَجَاحُ» بالشين المعجمة. والسَّجَاح: الذي يحسن العفو. لسان العرب (سجج).

ما أَلَقْتُ الحاجات دوني قُفْلها
في كل ما تنحو إليه ملاحَةٌ
ومن حكمه قوله^(١): [الوافر]

كثِيرُ المال تَبْذُلُهُ فيبْقَى
ومن غَرَسَتْ يداهُ ثِمَارَ جُودٍ
وقال رحمه الله^(٣): [الوافر]

وعهدي بالشُّبابِ وحُسنِ قُدِّي
فصُرْتُ اليومَ مُنَحْنِيًّا كَأني
وقال رحمه الله^(٦): [الرملي]

يُمسِكُ الفارسُ رُمْحًا بيدٍ^(٧)
وكلانا^(٨) بَطْلٌ في حَرْبِهِ
وَأنا أُمسِكُ فيها قَصَبَهُ
إنَّ الأَقلامَ رِمَاحُ الكَتَبَةِ

قال ابن عبد الملك: أنشدت على شيخنا أبي الحسن الرُّعيني، قال: أخبرنا الراوية أبو القاسم بن الطُّيَّلسان، قال: سألتُه، يعني أبا القاسم أحمد بن أبي بكر هذا، أن ينشد شيئًا من شعر أبيه المُغْرِب، فأخرج لي قطعة بخط أبيه وأنشده. وقال: أنشدني أبي رحمه الله لنفسه: [المنسرح]

أَحْسَنُ ما نِيَطُ في الدُّعاءِ^(٩) لِمَن
خَلَصَكَ اللهُ مِن عَوائِقِها
مُقَرَّبًا مِنْكَ ما تُسَرُّ بِهِ
الكلُّ بالعدلِ مِنْكَ مُغْتَبَطُ
رُتِبَ في خُطْبَةٍ مِنَ الخُطَطِ
وَدُمْتُ في عِصْمَةٍ مِنَ الغَلَطِ
وكل مَكْرُوهَةٍ على شَحْطِ
وليس في الناسِ غَيْرُ مُغْتَبَطِ
من عَمَلٍ بِالنَّجاةِ مُرْتَبَطِ
ليس يَخْلِيكَ مِنْ أنا لَكْها

(١) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٩٥) ونفع الطيب (ج ٦ ص ٧١).

(٢) في المقتضب: «وقد يبقى من الذكر القليل».

(٣) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة النادم (ص ٩٥ - ٩٦) ونفع الطيب (ج ٥ ص ١٧٢).

(٤) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ، يضرب به المثل بحسن خطه. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٣٥٤، ٣٥٧).

(٥) في المصدرين: «على شياي». (٦) البيتان في المقتضب (ص ٩٦).

(٧) كلمة «ييد» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المقتضب.

(٨) في المقتضب: «فكلانا». (٩) في الأصل: «الدعاء» وكذا ينكسر الوزن.

فأُفِذْ بِعَوْنِ اللَّهِ^(١) مُجْتَهِدًا بَقَلْبِ صَافِي الضَّمِيرِ^(٢) مُرْتَبِطٌ
يَا صَاحِبَ الْأَمْرِ وَالَّذِي يَدُهُ نَائِلُهَا لِلْعَفَاةِ غَيْرِ بَطِي^(٣)
رَفَعْتُمْ يَا بَنِي رَفَاعَةٍ مَا كَانَ مِنَ الْمَعْلُوفَاتِ فِي هَبِطٍ
وَيُسَبِّرُ الْحَقُّ مِنْ سِوَاهُ بِكُمْ فَهِيَ هِيَ الْآنَ غَيْرُ مُخْتَلِطٍ
وَأَنْضَبِطَ الْأَمْرُ وَاسْتَقَامَ لَكُمْ وَلَمْ يَكُنْ^(٤) قَبِيلٌ ذَا بُمُنْضَبِطٍ
أَتَيْتَ فِي كُلِّ مَا أَتَيْتَ بِهِ فَالغَيْثُ بَعْدَ الرَّجَاءِ^(٥) وَالْقَنْطِطُ
جَلَلْتُ عَنْ سِوَاكَ مَنْزِلَةً فَلَسْتُ بِمَنْ سِوَاكَ فِي نَمَطٍ
أَنْتَ مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَا طَرَفٌ وَكُلُّهُمْ فِي الْعُلَا مِنَ الْوَسَطِ

كتابتة: وقفت من ذلك على أفانين. منها في استهلال شهر رمضان قوله:

سلام على أنس المجتهدين، وراحة المتهجدين، وقرة أعين المهتدين، والذي
زَيْنَ الله به الدنيا وأعزَّ به الدين. شَرَّفَ الله به الإسلام، وجعل أيامه رُقُومًا في عَوَاتِقِ
الأيام، وشهوره غُرَرًا في جِبَاهِ الأعلام، وحلَّ به عن رقاب الأمة قَلَائِدَ الآثام، ونَزَّه
فيه الأسماع عن المكاره وصان الأفواه من رَقَبِ الكلام. أشهد أن الله أَثْنَى عليك،
وأدخل مَنْ شاء الْجَنَّةَ على يديك، وخَصَّكَ من الفضائل بما يمشي فيه التفسير حتى
يَكُلَّ، وَيَسَامُ ذلك اللسان ويملُّ، وأبادت ذنوب الأمة بمثل ما أبادت الشمس الظِّلَّ،
ذلك الذي يتهلل للسماء هلاله، ويهتزُّ العرش لجلاله، وترتج الملائكة في حين
إقباله، وتدخل الحُور العين في زينتها تَكْرِيمًا، وتلتزم إجلاله وتعظيمًا، ويهتدي فيه
الناس إلى دينهم صراطًا مستقيمًا، وتُغْلَى الشياطين على ما خِيلَتْ، وتذوق ويال ما
كادت به وتخيَّلَتْ، ويشمُّرُ النَّفْيُ لعبادة ربِّه ذِيلاً، وتهبط الملائكة إلى سماء الدنيا
ليلاً، وينتظم الْمُتَّقُونَ في ديوانه انتظام السِّلَكِ، ويكون خُلُوفُ قَمِ الصائم عند الله
أطيب من ريح المسك، وتفتح الجنة أبوابًا، ويُغْفَرُ لمن صامه إيمانًا واحتسابًا، جزاء
من ريك عطاءً حسابًا، وبما فَضَّلَكَ الله على سائر الشهور، وقضى لك بالشرف
والفضل المشهور. فَرَضَكَ في كتابه، ومدحك في خطابه، حيث قال: شهر رمضان
الذي أنزل فيه القرآن، هُدًى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان، يعني تكبير الناس

(١) في الأصل: «الله» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «صَفِيَّ بالضمير» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «بط».

(٤) في الأصل: «ولم يكن من قبل...»، وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «من».

(٥) في الأصل: «الرجاء» وكذا ينكسر الوزن.

عليك، وتقليب أحداقهم بالنظر إليك، حين لُيِّمت بالسحاب، ونظرت من تحت ذلك الثُّقاب، وقد يمتاز الشَّيب وإن استتر بالخضاب، حتى إذا وقف الأئمة منك على الصحيح، وصرَّحوا برؤيتك كلَّ التصريح، نَظَّرت كل جماعة في اجتماعها، وتأهَّبت القراء لإشفاعها، واندفعت الأصوات باختلاف أنواعها، وتضرعت الأبواب، وطلبت المواقف أواخر الأعشار والأحزاب، وابتدئت آلم ذلك الكتاب، عندما أوقدت قناديل كأنما قد بدَّت من الصباح، ورقصت رقص النواهد عند هبوب الرياح، والله نُور السموات والأرض مثلُ نوره كمشكاة فيها مصباح، فأَمَلَكَ المسلمون في سرٍّ وجهه، وحُطَّت أثقال السيئات عن كل ظَهْر، والتمست الليلة التي هي خيرٌ من ألف شهر، فنشط الصالحون بك صومًا، وهجر المُتَهَجِّدون في ليلك نومًا، وأكَمَلْتَنَّاكَ إن أذن الله ثلاثين يومًا. فيا أيها الذي رَحَلَ، رحل بعد مُقامه، وقام للسفر من مقامه، ورأى مَنْ قضى حقَّه وَمَنْ قَصَّر في صيامه، فمشى الناس إلى تَشْييعه، وبَكَوا لفراقه وتوديعه، وتَدِيم المُضَيِّع على ما كان من تَضْييعه، ولم يثق بدوام العيش إلى وقت رجوعه، فعَضَّ على كَفِّه ندما، وبَكَت عينه ماءً وكَبِدُه دما. رويدًا حتى أَمْرَح في ميدان فِرَاقك، وأنْضَرَّجَ إلى حَنَانِكَ وإشْفَاقِكَ، وأنشَفَى من تَقْبِيلِكَ وعَنَاقِكَ، وأسألُ منك حاجةً إن أراد الله قضاءها، وشاء نفوذها وإمضاءها، إذا أنت وَقَفْتَ لربِّ العالمين، فَقَبَّلِكَ من قوم وردُّكَ في وجوه آخرين. إن تُثْنِي جميلًا، فعسى يصفح لعهدِهِ وإن أساء، فعَلِمَ الله أَنِي نَوَيْتُ التَّوْبَةَ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَأَمَلْتُ الأَدَاءَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَكُنْتُ عَلَى ذَلِكَ لو هَدَى اللهُ قَادِرًا، وَإِنَّمَا عَلِمَ، من تقصير الإنسان ما عَلِمَ، وللمرء ما قُضِيَ عَلَيْهِ به وَحُكِمَ، وإن النفس لَأَمَارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا من رَحِمَ، فَإِنْ غَفَرَ فَبَطُولُهُ وإِحْسَانُهُ، وإن عَاقِبَ فيما قَدَّمْتَ يَدُ العَبْدِ من عَصِيَانِهِ، فَيَا وَخْشَةَ لِهَذِهِ الفِرْقَةِ، وَيَا أَسْفًا عَلَى بَعْدِ الشُّقَّةِ، وَيَا شِدًّا مَا خَلَّفْتَنِي لَنَا بِفِرَاقِكَ مِنَ الْجَهْدِ والمَشَقَّةِ، وَلَطَالَمَا هَجَرَ الإنسان بك ذَنْبَهُ، وَرَاقِبَ إِعْظَامًا لِكَرْبِهِ، وَشَرَّخَتْ إِلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ قَلْبَهُ. ومع هذا أَتَرَاكَ تَرْجِعُ وتَرَى، أَمْ تُضَمُّ عَلَيْنَا دُونَكَ أَطْبَاقُ الثَّرَى؟ فَيَا وَيْلَتَا إِنْ حُلَّ الْأَجَلُ، وَلَمْ أَقْضِ دَيْنَكَ، وَرَجَعْتَ وَقَدْ حَالَ المَوْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَغْرَبَ، لَا جَعَلَ اللهُ آخِرَ التَّوْدِيْعِ، وَأَيُّ قَلْبٍ يَسْتَطِيعُ.

وقال في استهلال شوال:

ولكل مقام مقال. الله أكبر هذا هلالُ شَوَّالٍ قد طَلَعَ، وَكَرَّ في منازلِهِ وَقَطَعَ، وغاب أحد عشر شهرًا ثم رَجَعَ. ما لي أراه رقيق الاستهلال، خَفِيَ الْهَلَالُ، وَرَوَّحَا تَرَدَّدَ في مثل انملاال؟ ما باله أَمْسَى اللهُ رُسْمَهُ، وَصُحَّحَ جِسْمُهُ، وَرَفَعَ في شهور العام اسمه؟ على وجهه صُفْرَةٌ بَيِّنَةٌ، وَنَارُ إِشْرَاقِهِ لَيِّنَةٌ، وَأَرَى السَّحَابَ تَعْتَمِدُهُ وَتَقِفُ،

وتغشاه سُوءة وتنصرف، ما أراه إلا يطول ذلك المقام، وتوالي الأهوال العظام، أصابه مرض في فضل من فصول العام، فعادته كما يُعاد المريض، وبَكَتْهُ الأيام العُزُّ والليالي البيض، وَقُلْنَ: كلاك الله وكفاك، وحاطك وشفاك، وَقُلْ: كيف نجدك لا فض فاك، هذا على الظن لا على التحقيق، ومجاز لا يحكم التصديق. وَلَيَعُدُّ مثل هذا المقدار، أن يَقْدَح فيه طول الغيب وتواتر الأسفار. اليس هو قد أَلَفَ مجالي الرياح، وَصَحِبَ بَرْدَ الصُّباح، وشاهد الأهوية مع الغدو والزَّواح، وطواها بتجربته طيِّ الوِشاح؟ ما ذاك إلا أنه رأى الشمس في بعض الأيام ماشية، والحُسن يأخذ منها سَطًا وحاشية، ودلائل شبابها ظاهرة فاشية، فوقع منها في نفسه ما وقع، وثَبَّت على قلبه من النُّظر ما زرع، ووقع في شَرَكها وحق له أن يقع. فَوُثِّتَ هي لحاله وأشفقت، ونَهَجَتْ بوصالها وتَأَنَّتْ، وقطعت من معدن ثيلها وأنفقت، ورأى أنها له شاكلة يبلغ أَمَلُها، وتبلغ مَأْمَله، ولذلك ما مدَّت لذيذ السُّماح، فتعرَّضت بالعِشي وارتصدها في الصُّباح، مع ما أبقا به من الانقطاع، ويمسنا من الاجتماع، كما نَقِدَ القَدَر، وصدر الخبر، وقال: تعلن لا الشمس ينبغي لها أن تُدْرِكَ القمر، فَوَجَدَ لذلك وَجْدًا شديدًا، وأذاقه مع الساعات شوقًا جديدًا، وأصبح بها دَنَقًا، وأمسى عميدًا، حتى سَلَبَ ذلك بَهاه، وأذهب سَناءه، وردَّه النحول كما شاه، ولقي منها مثل ما لقي غَيْلانٌ من مَيَّته، وجميلٌ من بُشَيَّته، وحنَّ إليها حنين عُرْوَة إلى غُفراء، وموعدهما يوم وهب ناقته الصُّفراء. على رِسْلِكَ أني وَهَمْتُ، وَخَسِبْتُ ذلك حقًا وتَوَهَّمْتُ، والآن وقد قُطِنْتُ، وأصبت القَصَّ فيما ظننت، إنه لقي رمضان في إقباله، وَضَمُّهُ نُقْصان هلاله، وصامه فجأة ولم يَكْ في باله، فأثَّر ذلك في وجهه الطُّلق، وأضعفه كما فعل بسائر الخَلْق، وها هو قد أقبل من سفره البعيد، فَقُلْ هو هلال الفَطَر أو قُلْ هو هلال العيد، فَلَقَّه صباح مَشَى الناس فيه مَشَى الحَبَاب، ولبسوا أفضل الثياب، وبرزوا إلى مُصَلَّاهم من كل باب، فارتفعت هِمَّةُ الإسلام، وشَرُفَتْ أمة محمد عليه السلام، وَخَطَبَ بالناس ودعا للإمام، عندما طلعت الشمس بوجه كدُورِ المرأة، ولونٍ كصفا المهرة، وخرج لا يُنْسِيها رِيَمُ الفلاة. وقضوا السُّنة، وبذلوا الجهد في ذلك واليَمَّة، وسألوا من الله أن يُدْخِلَهُم الجَنَّة، ثم خطبوا حمدًا لله وشكرًا، وذكروه كذكورهم آباءهم أو أشدُّ ذكرا، ثم انصرفوا راشدين، وافترقوا حامدين، وَشَبَّكَ الشيخ بيديه، ونظر الشاب في كُفَّيه، ورجعوا على غير الطريق الذي أتوا عليه، فلقد اسْتَشْفَى من الرُّؤية ذو عَيْنين، وتذكَّر العاشق موقف البَيْن، وشقَّ المُنْتَزَه بين الصُّففين، فنقل عينيه من الوُشي إلى الدُّباج، ووجوه كضوء السُّراج، وعيونُ أَقْتَل من سيف الحُجَّاج، ونظرات لا يُدْفَع داؤها بالعلاج، وقد زُيِّنَت العيون بالتَّكْحِيل، والشعور بالتَّرجيل، وكُرِّرَ السُّواك على مواضع التَّقْبِيل، وطُوقَت الأعناق بالعقود، وَضُرِبَ الفِكر في صفحات الخُدود، ومُدُّ بالغالية الإحاطة في أخبار غرناطة/ ج ٢ / م ٢٣

على مواضع السجود، وأقبلت صنعاء بأوشيتها، وعنت بأرديتها، ودخلت العروس في جلّيتها، ورُقمت الكفوف بالحناء، وأثني على الحُسن وهو أحقُّ بالثناء، وطلّقت الثوبة ثلاثاً بعد البناء، وغصّ الذراع بالسّوار، وتُختم في اليمين واليسار، وأمسكت الثياب بأيدي الأبيكار، ومشت الإمام أمام الأحرار، وتقدمت الدّيات بالأطفال الصُّغار، وامتلأت الدنيا سروراً^(١)، وانقلب الكلُّ إلى أهله مسروراً. وبينما كانت الحال كما نصّصت، والحكاية كما قصّصت، إذ تلالأت الدنيا بزّقا، وامتدّ مع الأفقين غرباً وشرقاً، ورَدّ لمعانه عيون الناظرين رُزقا، ولولا أنه جَرَب حتى يذري، لقليل قد طلعت مع الشمس شمسٌ أخرى، حتى أقبل من شَرُقت العربُ بنسبه، وفَخَّر الإسلام بسببه، مَنْ انتسب إلى زَهْرَةِ وقُصَيٍّ، وازدانت به آل غالب وآل لُوي، مَنْ إذا ذُكر المجد فهو مُنسك بعده، أو الفضل فهو لابسٌ بُزْدَه، أو الفخر فهو واسِطَةُ عِقْدَه، أو الحُسن فهو نسيج وحده، الذي رفع لواء العليا، وعارضت مكارمه صوب الحيا، وحَكَّت محاسنه زهرة الحياة الدنيا. فأما وجهه فكما شَرُقت الشمس وأشرقت، وغَرِبت كواكب سمانها وشَرُقت، وتفتّحت أطواق الليل عن غُرر مجده وتشقّقت. ولولا حيّا يغلب عليه، وخَفَرٌ يصحبه إذا نظرت إليه، لاستحال النهار، وغارت لنوره كواكب الأسحار، ولكاد سَنَا بَرَقَه يذهب بالأبصار، لا يحفل بالصبح إذا انقلّبت، ولا بالفجر إذا عمّ آفاق الدُّجا وطبّق، ولو بدا للمسافر في ليله لطَرَق، وقد عجم الأبنوس على العاج، وأدار جَفَنًا كما عَطَف على أطفالها التّعاج، يَضْرِب بها ضرب السيف، ويَلَمّ بالفؤاد إمام الطّيف، ويتلقّاها السّحر تلقّي الكريم للضيف. لو جرّدها على الرّزيم لوقف، أو على فِزعون ما صرف من سِخره ما صرف، أو على سِظام ابن قَيْس لألقي سِلاحه وانصرف. وأما أدواته فكما انشَقَّت الأرض عن نباتها، وأخذت رُخْرُفها في إنباتها، ونَفَحَ عَرَف التّسيم في جَنِّباتها، يتفَنّ أفانين الزهر، ويتقلب تقلّب الدهر، وتطلّع له نوادر كالنجوم الزهر، لو أبصره مُطَرِّف ما شهر بخطّه، ولا جرّ من العُجبِ ذيل مِرْطَه، ولا كان المخبر معه من شَرطه. وأما أنه لو قُرئ على سحبان كتابه، وانحدر على نهريه عُبابه، وملأت مسامعه أطنابه وأسبابه، ما قام في بيانه ولا قعد، ولنزل عن مقامه الذي إليه صعد، ولا خَلَف من بلاغته ما وعد. لعمرك ما كان بشر بن المعتمر يتفَنّ للبلاغة فنوناً، ولا يتقبّلها بطوناً ومُتوناً، ولا أبو العتاهية ليُشْرِطَها كلاماً موزوناً، ولا نَمُقُ الحَسَن بن سهل الألفاظ، ولا رَقَعَ قس بن ساعدة صوته بُمُكاظ، ولا أغاظ زيد بن علي هشامًا بما أغاظ، وأما مكارمه

(١) في الأصل: «سرّاً».

فكما انسكب الغيث عن ظلاله، وخرج الودق من غلاله، فتدارك النعمة عن فوتها، وأحيا الأرض بعد مموتها، ذلك الشريف الأجل، الوزير الأفضل، أبو طالب ابن القُرشي الزُهري، أدام الله اعتزازه، كما رَقَم في حُلل الفخر طرازه، فاجتمعت به السيادة بعد افتراقها، وأشرق وجه الأرض لإشراقها، والتفت الشيايب بالشيايب، وضم الركاب بالركاب، ولا عهد كأيام الشيايب، فوصل القريب البعيد، وهنؤه كما جرت العادة بالعيد، فوقف مع ركابه وسلمت، وجرت كلاماً وبه تكلمت، فقلت: تقبل الله سعيك، وزكى عملك، وبلغك فيما تودّه أملك، ولا تأملت وجهها من السرور إلا تأملت، ونفعلك بما أوليت، وأجزل حظك على ما ضمت وصليت، ووافقتك لعلّ وساعدتك ليئت، وهنالك عيد الفطر وهنائه، وبدأك بالمسرات وبدأته، وتبرأ لك الدهر مما تحسد وبرأته. وهكذا بحول الله أعياد واعتياد، وعمر في دوام وعز في ازدياد، والسنة تفصح بفضلك إفصاح الخطباء من إيد، وأقرأ عليك سلام الله ما أشرق الضحى، ودام الفطر والأضحى.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة، وتردد إليها غير ما مرة، وأقام بها، وامتنح ابن أضحى^(١) وابن هاني، وابن سعيد وغيرهم من أهلها. قال ابن سعيد في «طالعها»: وقد وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة، واجتماعه بجنته بقرية الزاوية من خارجها، بنزهون القليعية الأدبية، وما جرى بينهما، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع، وكان لبس غفارة صفراء: أحسنت يا بكرة بني إسرائيل، ألا أنك لا تسر الناظرين، فقال لها: إن لم أسر الناظرين، فأنا أسر السامعين، وإنما يطلب سرور الناظرين منك، يا فاعلة يا صانعة. وتمكن السكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى رموه في البركة، فما خرج منها إلا وثيابه تقطر، وقد شرب كثيراً من الماء، فقال: اسمع يا وزير ثم أنشد^(٢): [السريع]

يَذْفَعُ أَغْيَانٍ وَأَنْذَالَ	إِيَّ أَبَا بَكْرٍ وَلَا حَوْلَ لِي
بِالْمَاءِ يَحْكِي حَالَ أَذْيَالِي ^(٣)	وَذَاتَ فَرْجٍ ^(٤) وَاسِعٍ دَافِقِي
كَفَّرَهُ بِالتَّغْرِيقِ فِي الْمَالِ	غَرَّقْتَنِي فِي الْمَاءِ يَا سَيِّدِي

(١) هو الوزير أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى، من بيت عظيم بغرناطة، ثار بها ودعا لنفسه بعد مقتل تاشفين بن يوسف بن تاشفين المرابطي سنة ٥٣٩ هـ. توفي سنة ٥٤١ هـ. وقد تقدم التعريف به في الجزء الأول من الإحاطة في ترجمة أبي بكر المعزومي الأعمى. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

(٢) الأبيات في نفع الطيب (ج ٦ ص ٧١). (٣) في الأصل: «جرح» والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «أذيال» والتصويب من النفع.

فأمر بتجريده، وخلع عليه ما يليق به، ولم يمر لهم بعد عهدهم بمثله.
ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة، إلا بعد ما أجزل له من الإحسان، ومدحه بما
هو في ديوان أزجاله.

محتته: جرت عليه بابن حَمْدِين^(١) محنة كبيرة عظم لها نكاله، بسبب شكاسة
أخلاق كان موصوفاً بها، وحدة شقي بسببها. وقد ألمّ الفتح في قلائده بذلك،
واختلّت حاله بآخرة، واحتاج بعد انفصال أمر مخدمه الذي نؤّه به.

وفاته: توفي بقرطبة ليلة بقيت من رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة،
والأمير ابن سعد يحاصر قرطبة رحمه الله.

محمد بن غالب الرّصافي^(٢)

يكنى أبا عبد الله، بلنسي الأصل، سكن غرناطة مدة، ثم مالقة.

حاله: قال الأستاذ^(٣): كان فحلاً من فحول الشعراء، ورئيساً في الأدباء،
عفيفاً، ساكناً، وقوراً، ذا سُمّت وعقل. وقال القاضي^(٤): كان شاعراً مُجيداً، رقيق
الغزل، سلس الطبع، بارع التشبيهات، بديع الاستعارات، نبيل المقاصد والأغراض،
كاتباً بليغاً، دبتاً، وقوراً، عفيفاً، متققها، عالي الهمة، حسن الخلق والخلق والسّمّت،
تام العقل، مُقبلاً على ما يعنيه من التّعيش بصناعة الرّفي التي كان يعالجها بيده، لم
يَتَذَلْ نفسه في خدمة، ولا تعرض لانتجاع بقافية، خلا وقت سُكناه بغرناطة، فإنه
امتدح واليها حينئذ، ثم نَزَعَ عن ذلك، راضياً بالخمول حالاً، والقناعة مالاً، على
شدّه الرغبة فيه، واغتنام ما يصدر عنه.

أخبار عقله وسكونه: قال الفقيه أبو الحسن شاعر بن الفخّار المالقي، وكان
خبيراً بأحواله: ما رأيت عمري رجلاً أحسن سَمْتاً، وأطول صَمْتاً، من أبي عبد الله
الرّصافي. وقال غيره من أصحابه: كان رقاء، فما سمع له أحد من جيرانه كلمة في
أحد. وقال أبو عمرو بن سالم: كان صاحباً لأبي، ولقيته غير ما مرة، وكان له

(١) هو أبو جعفر بن حمدين، قاضي قرطبة، الذي ثار بها في رمضان من العام ٥٣٩ هـ. وتم له
الأمر إلى أن ثار عليه ابن غانية في شعبان من عام ٥٤٠ هـ. راجع الجزء الرابع من الإحاطة في
ترجمة يحيى بن علي بن غانية.

(٢) ترجمة ابن غالب الرّصافي في مقدمة ديوانه بقلم محققه الدكتور إحسان عباس، وفيها ثبت
بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٣) المراد بالأستاذ أبا جعفر ابن الزبير صاحب كتاب: صلة الصلة.

(٤) المراد بالقاضي: ابن عبد الملك المراكشي صاحب كتاب: الذيل والتكملة.

موضع يخرج إليه في فصل العصور، فكنت أجتاز عليه مع أبي فألثم يده، فربما قبل رأسي، ودعا لي، وكان أبي يسأله الدعاء فيخجل، ويقول: أنا والله أصغر من ذلك. قال: وكان بإزائه أبو جعفر البلنسي، وكان متوقفاً الخاطر، فربما تكلم مع أحد التجار، فكان منه هقوة، فيقول له جلساؤه: شتان والله بينك وبين أبي عبيد الله في العقل والصمت، فربما طالبه بأشياء ليجاوبه عليها، فما يزيد على التبسم. فلما كان أحد الأيام، جاء البلنسي ليفتح دكانه، فتعمد إلقاء الغلق من يده، فوقع على رأس أبي عبد الله، وهو مقبل على شغله، فسأل دمه، فما زاد على أن قام ومسح الدم، ثم ربط رأسه، وعاد إلى شغله. فلما رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه، وجعل يقبل يديه، ويقول: والله ما سمعت برجل أصبر منك، ولا أعقل.

شعره: وشعره لا نهاية فوقه رونقاً ومائية، وحلاوة وطلاوة، ورقة ديباجة، وتمكن الفاظ، وتأصل معنى. وكان، رحمه الله، قد خرج صغيراً من وطنه، فكان أبداً يكثر الحنين إليه، ويُقصر أكثر منظومه عليه. ومحاسنه كثيرة فيه، فمن ذلك قوله^(١): [الطويل]

خليلي، ما للبيد قد عيقت نَشراً؟ وما لرووس الرُكب قد رُنحت^(٢) سُكراً؟
هل المسك مَفْتُوقاً^(٣) بمذرجة الضبا أم القوم أجروا من بلنسية ذُكراً؟
خليلي، عوجا بي قليلاً^(٤) فإنه حديث كبرذ الماء في الكبد الحزى
قفا غير مأمورين ولتَصْصِديا^(٥) على ثقة للمزن^(٦) فاستسقي القطرا
بجسر معان والرُصافة أنه على القطر أن ينقي الرُصافة والجسرا^(٧)
بلادي التي ريشت قويدمتي^(٨) بها فريخاً وأورثنني قرارئها وكرا
مبادىء^(٩) أنيق^(١٠) العيش في ريق الضبا أبى الله أن أنسى اغتراري بها غراً^(١١)

(١) القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٦٨ - ٧١).

(٢) في الأصل: «رجحت» والتصويب من الديوان.

(٣) في الأصل: «مفتوقاً» والتصويب من الديوان. (٤) في الديوان: «عليها».

(٥) في الديوان: «ولتصديا بها». (٦) في الديوان: «للقيث».

(٧) الرصافة: من أيدع منازله بلنسية تقع بين بلنسية والبحر. الروض المعطار (ص ٢٦٩)، والمغرب في حلى المغرب (ج ٢ ص ٢٩٨). وجسر معان: أغلب الظن أنه جسر نهر معان، وهو نهر بلنسية؛ يذكر الحميري أن بلنسية تقع على نهر جارٍ يُتَفَعُّ به، وتدخله السفن.

(٨) القويدمة: تصغير القادمة وهي إحدى القوادم أربع ريشات في مقدم الجناح. لسان العرب (قدم).

(٩) في الأصل: «فبادى» والتصويب من الديوان. (١٠) في الديوان: «لأين».

(١١) في الديوان: «... أنسى لها أبداً ذكراً».

لبسنا بها ثوب الشباب لباسها
أمنزلنا عصر الشبيبة ما الذي
محل أغر العهد لم تبذ ذكره
أكل مكان كان^(٢) في الأرض مسقطاً
ولا مثل مذخو من المسك ثزنة
نبات كأن الخد يحمل نوزة
وماء^(٥) كترصيع المجره جاللت
أنيق كريان^(٨) الحياة التي خلث^(٩)
وقالوا: هل الفردوس ما قد وصفته؟
بلنسية تلك الزمردة^(١٢) التي
كان عروساً أبدع الله حسنها
تؤيد^(١٣) فيها شغشعانية الضحى^(١٤)
تزاحم^(١٦) أنفاس الرياح بزهرها
وان كان قد مدت يد البين بيننا
ولكن غرينا من حلاه، ولم تغرا^(١)
طوى دوننا تلك الشبيبة والعصرا؟
على كبد إلا امترى أذمعا حنرا
لرأس الفتى يهواه ما عاش مضطراً^(٣)
تملي الصبا فيه حقيبتها^(٤) عطرا
تخال لجيننا في أعاليه أو تبرا
نواجيه^(٦) الأزهار واشتبكت^(٧) زهرا
طليق كريعان^(١٠) الشباب الذي مرّا
فقلت: وما الفردوس في الجنة الأخرى^(١١)
تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا
فصير من شريح الشباب لها غمرا
مضاحكة الشمس البهيرة والبحرا^(١٥)
نجوما فلا شيطان يقربها^(١٧) دغرا
من الأرض ما يهوى المجد به شهرا^(١٨)

(١) هذا البيت والبيتان التاليان لم ترد في الديوان.

(٢) في الديوان: «راح».

(٣) مضطراً: أي أنه يهوى مسقط رأسه اضطراراً دون حاجة إلى إقناع.

(٤) في الأصل: «حقيقتها» والتصويب من الديوان.

(٥) في الأصل: «وما» والتصويب من الديوان.

(٦) في الأصل: «نواجيه» والتصويب من الديوان.

(٧) في الديوان: «فاشتبكت».

(٨) في الديوان: «كريعان».

(٩) في الديوان: «خلث» بالحاء المهملة.

(١٠) في الديوان: «كريان».

(١١) في الديوان: «الزرجدة».

(١٢) في الأصل: «يؤيد منها» والتصويب من الديوان. وتؤيد فيها: تقيم فيها ولا تبرح.

(١٣) في الأصل: «يؤيد منها» والتصويب من الديوان.

(١٤) في الديوان: «إذا ضاحك الشمس...» والبحيرة: هي بحيرة بلنسية التي تزيد في ضياء بلنسية

(١٥) في الديوان: «إذا ضاحك الشمس...» والبحيرة: هي بحيرة بلنسية التي تزيد في ضياء بلنسية

(١٦) في الأصل: «تراجم» والتصويب من الديوان.

(١٧) في الأصل: «يقربها» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(١٨) هذا البيت لم يرد في الديوان.

هي الدُرَّةُ البيضاء من حيث جِئَتْهَا^(١)
 خليلي، أن أصدر لها فإنها^(٢)
 ولم أظهِر عنها الخطر هجراً لها إذا
 ولكن إجلالاً لشريتها النبي
 أكارم، عاث الدهر ما شاء فيهم
 هجوع ببطن وأرض قد ضرب الردى
 تقصّوا فمن نجم سالك ساقط^(٣)
 ومن سابق هذا إذا شاء^(٤) غايّة
 أناس إذا لاقيت من شئت منهم
 وقد درجت أعيمازهم فتطلّعوا
 ثلاثة أمجاد من الثغر الألى
 اككلتهم^(٥) ثكلاً دعى العين والحشا
 كفى حزننا أني تباعدت عنهم
 وإلا^(٦) متى أسلو^(٧) بهم كل راكب
 أباحته عن صالحات عهدتها
 محيا خليل غاض ماء حياته
 وأزهر كالإصباح قد كنت أجتلي
 فتى لم يكن خلّو الصفات من الندى
 يصرف ما بين البراعة والقنا
 طويل نجاد السيف لان كأنما
 سقته على ما فيك من أريحية

أضاءت ومن للدر أن يشبه البذرا^(٨)
 هي الوطن المحبوب أوكله^(٩) الصدرا^(١٠)
 فلا لثمت تغلي مساكنها الخضرا
 تضم فتاها الثذب أو كهلها الحرى
 فبادت لبالهم فهل أشتكي الدهرا؟
 عليهم قبيبات فويق الثرى غبرا
 أبى الله أن يرعى السماك أو التثرا
 وغير محمود جياذ العلا خضرا^(١١)
 تلقوك لا غث الحديث ولا غمرا
 هلال ثلاث لو شفا رق أو بذرا
 زكوا خبرا بين الورى وزكوا خبرا
 فعجر ذا أما وسجر ذا جمرًا؟
 فلم ألق من سري منها ولا سزا
 ليظهر لي خيرا نابط لي سزا
 هناك فيسبيني^(١٢) بما يقصم الظهرا
 وساكن قصر ضر^(١٣) مسكنه القبرا
 سناء كما يستقبل الأرق الفجرا
 ولم يتناس الجود أضرم أم أثرا
 أنامله لا بل هواطله العسرا
 تخطى به في البرد خطية سنرا
 خلائق هن الخمر أو تشبه الخمرا

(١) في الأصل: «جئتها» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٢) في الأصل: «الذرا» والتصويب من الديوان. (٣) صدر هذا البيت منكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «أوكله» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) من هنا حتى آخر الأبيات غير وارد في الديوان.

(٦) صدر البيت مختل الوزن والمعنى.

(٧) عجز البيت مختل الوزن والمعنى.

(٨) في الأصل: «أشلى» وكذا ينكسر الوزن.

(٩) في الأصل: «أضر» وكذا ينكسر الوزن.

(١٠) في الأصل: «فيسبني» وكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «أشلى» وكذا ينكسر الوزن.

وَتَشْرُ مُخَيًّا لِلْمَكَارِمِ لَوْ سَرَتْ
 هَلِ السُّعْدُ إِلَّا حَيْثُ حَطَّ صَعِيدُهُ
 طَوَيْنَ اللَّيَالِي طَيِّهْنَ وَإِنَّمَا
 فَلَا حَرِمَتْ سَقِيَاهُ أَدْمَعُ مُزْنَةٍ
 وَمَا دَعَوْتِي لِلْمُزْنِ عُذْرًا لِدَعَوْتِي
 حُمَيَّاهُ فِي وَجْهِ الْأَصِيلِ لَمَّا أَصْفَرَا
 لَمَنْ بَلَّ فِي شَفْرِي ضَرِيحَ لَهُ شَفْرَا؟
 أَطَوَيْنَ^(١) عَنِّي التَّجْلُدَ وَالصُّبْرَا
 تَرَى مَبْسَمَ الثَّوَارِ عَثْبَرَ مُفْعَرَا
 إِذَا مَا جَعَلْتَ الْبُعْدَ عَنْ قُرْبِهِ عُذْرَا

وقال يرثي أبا محمد بن أبي العباس بمالقة^(٢): [الكامل]

أَبْنِي الْبَلَاغَةَ، فَيَمَّ حَفْلُ النَّادِي؟
 أَمَّا الْبَيَانُ، فَقَدْ أَجَزَّ لِسَانُهُ
 عَرَشَتْ سَمَاءُ^(٣) عُلَاكِمُ^(٤) مَا أَنْتُمْ
 حُطُّوا عَلَى عُمَدِ الطَّرِيقِ فَقَدْ خَبَا^(٥)
 مَا قُلَّ لَهُذْمُهُ^(٦) الصَّقِيلُ وَإِنَّمَا
 إِلَيْهِ عَمِيدُ الْحَيِّ غَيْرُ مُدَافِعِ
 مَا عُذْرُ سَيْلِكَ كُنْتَ عَقْدَ نِظَامِهِ
 حَسْبُ^(٨) الزَّمَانِ عَلَيْكَ تُكْلَا أَنْ يُرَى
 يُومِي بِأَنْجُمِهِ لِمَا قَلَّدَتْهُ
 كَثُفُ الْحِجَابِ فَمَا تَرَى مُتَفَضِّلَا
 أَلَيْمٌ بِرَبِّعِكَ غَيْرُ مَأْمُورٍ فَقَدْ
 خَبَرَا يُبَلِّغُهُ إِلَيْكَ وَدُونَهُ
 قَدْ طَاطَأَ الْجَبَلُ الْمَنِيْفُ قَذَالَهُ
 أَعِدِ التَّفَاتِكَ نَحُونَا وَأَظَنَّهُ
 هَبْنَاهَا عُكَاظًا، فَأَيْنَ قَسُ إِيَادِي؟
 فَيَكُمُ بِفَتْشَكْتِهِ الْجِمَامِ الْعَادِي
 مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ الشُّهَابِ الْهَادِي
 لِأَلَاءِ^(٦) ذَاكَ الْكُوكَبِ الْوَقَادِ
 نُثِرَتْ كَعُوبُ قَنَاكُمُ الْمَنَادِ
 إِلَيْهِ فِدَى لَكَ غَابِرُ الْأَمْجَادِ
 إِنْ لَمْ يَصِرْ بُزْدًا إِلَى الْآبَادِ؟
 مِنْ طَوْلِ لَيْلٍ فِي قَمِيصٍ جِدَادِ
 مِنْ دُرِّ الْفَاطِ وَبِيضِ إِيَادِ
 فِي سَاعَةٍ تُصْغِي بِهِ وَتُنَادِي^(٩)
 غُصَّ الْقَنَاءِ^(١٠) بِأَرْجُلِ الْقَصَادِ
 أَمْنُ الْعُدَاةِ وَرَاحَةُ الْحُسَادِ
 لِلْجَارِ بَعْدَكَ وَاقْشَعِرَّ الْوَادِي^(١١)
 مِثْلَ الْحَدِيثِ لَدَيْكَ غَيْرُ مَعَادِ

(١) في الأصل: «طوين» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) هو الفقيه الأديب عبد الله بن أبي العباس الجذامي المالقي، وله شعر في مدح يوسف بن عبد المؤمن الموحد. المغرب (ج ١ ص ٤٢٦). والبيت الأول في المغرب (ج ١ ص ٤٢٦) وبعض أبيات هذه القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٦٠ - ٦١).

(٣) في الأصل: «سما» وكذا ينكسر الوزن. (٤) في الأصل: «علايكم» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «خبت». (٦) في الأصل: «لألى» وكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «لهزمه» بالزاي. واللهم: اتحاد القاطع من الأمته. محيط المحيط (لهزم).

(٨) في الأصل: «حيث» والتصويب من الديوان. (٩) في الأصل: «وتناد» بدون ياء.

(١٠) في الأصل: «القنا» بدون همزة وكذا ينكسر الوزن.

(١١) في الأصل: «الواد» بدون ياء.

وامسح لنا عن مقلتيك من الكرى
 هذا الصباح ولا تهب إلى متى
 وكأنما قال الردى نم وادعنا
 أموسدا تلك الرخام بمرقد
 خصبث بقدرك حفرة فكانها
 وتزل لجنبك من أثاث مخيم
 يا ظاعنا ركب السرى في ليلة
 أعزز علينا إن حططت بمنزلي
 جار الأفراد هنالك جيرة^(٣)
 الساكنين إلى المعاد، قبايهم
 من كل ملقية الجراب بمضرب
 بمعرس السفر الألى ركبوا السرى
 سيان فيهم ليلة ونهارها
 لحق البطون من اللعب على الطوى^(٤)
 لله هم فلشد ما نقضوا من أم
 يا ليت شعري والمنى لك جئة
 هل للملا بك بغدها من نهضة
 بأبي وقد ساروا بتغشك صارم
 دلت عواتق حامليك فلانهم
 نعم الذماء^(٥) البر ما قد غوروا
 علياء^(٨) خص بها الضريع وإنما

نوما تكابد من بكاء وسهاد
 طال الرقاد ولات حين رقاد
 سبقت إلى البشرى بخسن معاد
 أخشن به من مرقد ووساد
 من جوفها في مثل حرف الضاد
 تذب الندى^(١) وصفائح أنضاد
 طار الدليل بها وحاد الحادي
 تبلى^(٢) عن النهار والغواد
 سقيًا لتلك السجيرة الأفراد
 منشورة الأطناب والأعماد
 ناب البلى فيه عن الأوتاد
 مجهولة الغيات والآماد
 ما أشبه التأويب بالإسناد
 وعلى الزواحل عنفوان الزاد
 شعة الحياة^(٥) حقائب الأجساد
 والحال مؤذنة بطول إبعاد
 أم لانقضاء نواك من ميعاد؟
 كثرت حمائله على الاكتاد^(٦)
 شاموك في غمد بغير إجاد
 جثمانه بالأبرق المُنقاد
 نعم الغوير بأبؤس الأنجاد

(١) في الأصل: «ند» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «تبلى» وكذا لا يستقيم لا الوزن ولا المعنى.

(٣) صدر البيت منكسر الوزن.

(٤) صدر البيت غير مستقيم الوزن والمعنى. والطوى: الجوع. محيط المحيط (طوى).

(٥) في الأصل: «... الحياة في حقائب...» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «في».

(٦) الاكتاد: جمع كتد وهو مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).

(٧) أصل القول: «الذماء» بدون همزة، وكذا ينكسر الوزن.

(٨) أصل القول: «علياء» بدون همزة، وكذا ينكسر الوزن.

أبني العباس، أي حلاحل
هل كان إلا العين وافق سَهمها
أخلل بمجد لا يُسد مكانه
ولكنم يرى بك من هضاب لم يكن
ما زلت تُنعشها بسنينك قابضاً
حتى أراك أبا محمد الرُدى
يا حرها من جفيرة مشبوبة
كيف العزاء وإنها لرزية
صدع الثعاة بها فقلت لمدمعي
لك من ذبي ما شئت غير مُتهني
بقصير مجتهد وحسبك غاية
أما الدموع فهن^(١) أضعف ناصر
ثم السلام ولا أغب قراره
تسقيك ما سَفَحَتْ عليك يراعة

سَلَبَتْكُمْ الدُّنْيَا وَأَيَّ مَصَادٍ
قَدَرًا فاقْصِدْ أَيْمًا إِقْصَادًا؟
بِالإِخْوَةِ التُّجِبَاءِ وَالْأَوْلَادِ
لَوْلَاكَ غَيْرُ ذَكَادِكَ وَوَهَادٍ
مِنْهَا عَلَى الْأَضْبَاعِ وَالْأَعْضَادِ
كَيْفَ انْهِدَادِ بَوَاذِخِ الْأَطْوَادِ
يَلْقَى لَهَا الْأَيْدِي عَلَى الْأَكْتَادِ
خَرَجَ الْأَسَى فِيهَا عَنِ الْمَغْتَادِ
كَيْفَ انْسِكَابِكَ يَا أَبَا الْجَوَادِ؟
صَبَّ كَيْفَ شَتَّتْ مُعْصِفِرَ الْأَبْرَادِ
لَوْ قَدْ بَلَّغْتَ بِهَا كَبِيرَ مُرَادِ
لَكُنَّ كَثِيرَةُ التَّعْدَادِ^(٢)
وَأَرْثُكَ صَوْبَ رَوَائِحِ وَغَوَادِ
فِي خَذِّ قِرطَاسٍ دَمُوعٍ مِدَادِ

ومن غرامياته وإخوانياته قوله من قصيدة^(٣): [البسيط]

عادَ الحديثُ إلى ما جَرَّ أَطْيَبُهُ
إِيهِ عَنِ الكُذْبَةِ البِيضَاءِ إِنَّ لَهَا
رَاوِخَ بِهَا^(٤) السَّهْلَ مِنْ أَكْنَافِهَا وَأَرْخَ
وَأَضْخَ نَوَاجِيهَا^(٥) مِنْ مُقْلَتِكَ وَنَسْلَ
وَقُلْ لِسَرَحَتِهِ يَا سَرَحَةَ كَرُمَتْ
يَا عَذْبَةَ المَاءِ وَالظِّلِّ اتَّعَمِي طِفْلاً
مَاذَا عَلَى ظِلِّكَ الْأَلْمَى وَقَدْ قَلَصَتْ

وَالشَّيْءُ يَبْعَثُ ذِكْرَ الشَّيْءِ عَنْ سَبَبٍ
هَوَى بِقَلْبٍ^(٦) أَخِيكَ الْوَالِدِ الْوَصِيبِ
رِكَابَنَا لَيْلَنَا^(٧) هَذَا مِنَ التَّعْجِبِ
عَنْ^(٨) الْكَيْبِ الْكَرِيمِ الْعَهْدِ فِي الْكُتُبِ^(٩)
عَلَى أَبِي عَامِرٍ: عَزَّيْ عَنِ السُّحْبِ
حَيِّتِ مُفْسِيَةً مَيَادَةَ الْقُضْبِ^(١٠)
أَفْيَاؤُهُ لَوْ ضَفًّا شَيْثًا لِمُفْتَرِبِ

(١) في الأصل: «فهي» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الديوان: «الأعداد».

(٣) القصيدة في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٣١ - ٣٤).

(٤) في الأصل: «يغلب» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «بنا». (٦) في الديوان: «ليلها».

(٧) في الديوان: «جوانبها». (٨) في الأصل: «من» والتصويب من الديوان.

(٩) في الديوان: «الكتب» بالطاء المثناة.

(١٠) في الأصل: «الغضب» والتصويب من الديوان.

أهكذا تنقضي نفسي لديك ظمًا
لولاك يا سَرَحَ لم يبق^(٢) الفلا عَطَلًا
ولم نَبِثْ نتقاضى مِنْ مدامعنا
إِنَّا^(٣) إِذَا مَا تَصَدَّى مِنْ هَوَى طَلَلِ
مُسْتَغْطِفِينَ سَخِيَّاتِ الشُّوْنِ لَهُ
سَلِي حَمِيلَتِكَ الرُّيَا بَائِةٍ^(٦) مَا
عَنْ فُتْيَةٍ نَزَلُوا عَلَيَا^(٧) سَرَارَتِهَا
مَحَافِظِينَ عَلَى الْعَلَيَا وَرُبَّمَا
حَتَّى إِذَا مَا قَضَوْا مِنْ كَأْسِهَا وَطَرَا
رَاحُوا رَوَاحًا وَقَدْ زِيدَتْ عَمَائِمُهُمْ
لَا يُظْهَرُ الشُّكْرُ^(١٠) حَالًا مِنْ^(١١) ذَوَائِبِهِمْ
الْمُنْزَلِينَ الْقَوَانِي مِنْ مَعَاقِلِهَا
ومن مقطوعاته قوله^(١٣): [الطويل]

دعاك خليل والأصيل كأنه
إلى شَطِّ مُنْسَابٍ كَأَنَّكَ مَاؤُهُ
ومَهْوَى جَنَاحٍ لِلصَّبَا يَمْسَحُ الرُّيَا
وفَتِيَانِ صَدْقٍ كَالنَّجُومِ تَأَلَّفُوا

عَلِيلٌ يَقْضِي مَدَّةَ الزَّمَنِ الْبَاقِي^(١٤)
صَفَاءَ ضَمِيرٍ أَوْ عَذُوبَةَ أَخْلَاقٍ^(١٥)
خَفِيَّ الْخَوَافِي وَالْقَوَادِمِ خَفَاقٍ
عَلَى الثَّأْيِ مِنْ شَيْءٍ بِرُوحٍ وَأَفَاقٍ

(١) الجار الجُنُب: الذي يجاور واحدًا ونُسَبُّه في قوم آخرين، فهو في الأصل غريب.

(٢) في الديوان: «لم يبق».

(٣) في الديوان: «أخًا».

(٤) في الأصل: «يحاك» والتصويب من الديوان.

(٥) في الأصل: «مَمْرُوق»، وكذا يتكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٦) في الديوان: «لأية».

(٧) في الأصل: «على» والتصويب من الديوان. والسرارة من الشيء: وسطه وأفضله.

(٨) في الأصل: «لدى جَدَّ» والتصويب من الديوان.

(٩) في الأصل: «أسفى من الشَّهْب» والتصويب من الديوان.

(١٠) في الأصل: «الشُّكْر» والتصويب من الديوان.

(١١) في الأصل: «في» والتصويب من الديوان.

(١٢) في الأصل: «التفات» والتصويب من الديوان.

(١٣) ورد منها في الديوان (ص ١١٧) فقط البيت الثاني.

(١٤) في الأصل: «الباق» بدون ياء.

(١٥) في الأصل: «صَفًا ضَمِيرًا وَعَذُوبَةَ أَخْلَاقٍ» وكذا يتكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

على حين راح البرق في الجو مُغمداً .
وجالت بعيني في الرياض التفانة
على سطر خيرى ذكرك فانثنى
وقف وقفه المحبوب منه فإنها
وصل زمرات منه صُفر كأنها

وقال، وكلفها في حائك، وهو بديع^(٢): [البسيط]

قالوا وقد أكثروا في حبه عدلي^(٣)
فقلت لو أن أمرى في الصبابة لي
في كل قلب عزيزات مُدلة
علقتُه حبيبي^(٥) الثغر عاطره
إذا تأملته أعطاك ملتفتنا
هيهات أبغى به من غيره بذلاً
عزّيل لم تزل في العزل جائلة
جذلان تلعب بالمحواك^(٨) أنمله
ما إن يني تعب الأطراف مُشتغلاً
ضرباً^(١٠) بكفيه أو فخصاً بأخمصه

وقال^(١١): [الكامل]

ومُهفَهف كالحُصن إلا أنه سلب التثني النوم عن أثنائه

(١) في الأصل: «الساق» بدون ياء.

(٢) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٢١ - ١٢٢). وجاء في المغرب (ج ٢ ص ٣٥٢): «وقوله في غلام حائك».

(٣) في الأصل: «عدل» والتصويب من الديوان.

(٤) في الأصل: «بمزال» بالزاي، والتصويب من الديوان. والمُذال: الممتهن، المبتذل.

(٥) في الأصل: «حبيبي». وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٦) في الديوان: «ألمى المُقبل أخرى ساجر المُقل».

(٧) في الديوان «العزل».

(٨) في الأصل: «بالمحواك»، والتصويب من الديوان.

(٩) في الديوان: «بالدول». (١٠) في الديوان: «جذباً».

(١١) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٢٨).

أضحى ينام وقد تحدد^(١) خده
وقال^(٢): [الوافر]

أدزها فالغمامة قد أجالث
وراق الروض طاورسا بهيّا
تقول وقد ثنى قُزَح عليه
خذوا للضحو أمبتكنم فلاني
وقال^(٣): [الطويل]

أدزها على أمر فما ثم من باس
وما هي إلا ضاحكات غمائم
ووفد رباح زُغزُع الثُهر مده
وقال في وصف مغنٍ مُحسن^(٤): [الكامل]

ومطارج ممّا تجسّ^(٥) بنائهُ
يثنى الحمام فلا يروُح لُوكرِه
وقال يصف جدول ماء عليه سَرَحَة، ولها حكاية معروفة^(٦): [الكامل]

ومَهْدَلِ الشُّطَيْنِ تَحْسَبُ أَنه
فَاءَتْ عليه مع العَشِيَّة^(٨) سَرَحَة
فتراه أَرْزَقُ فِي غِلَالَةِ سُفْرَةٍ
نثره: قال من مقامة يصف القلم^(٩): [المقارب]

قصيرُ الأنابيبِ^(١٠) لكنه يطول مضاء^(١١) طَوَالِ الرُّمَاحِ

(١) في الديوان: «تَحَبَّبَ».

(٢) هذه الأبيات لم ترد أيضًا في ديوان الرصافي البلنسي.

(٣) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٠١).

(٤) في الأصل: «تَحْسَنُ» بالحاء المهملة، والتصويب من الديوان.

(٥) في الديوان: «لَحْنًا».

(٦) الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي (ص ٢٦ - ٢٧).

(٧) في الديوان: «الهجرة».

(٨) لم ترد هذه الأبيات في ديوان الرصافي البلنسي.

(٩) في الأصل: «كالأنابيب» وكذا ينكسر الوزن. (١١) في الأصل: «مضًا».

إذا عبَّ للنفس في دأيسٍ ودبَّ من الطُّرس فوق الصَّفاح
تجلَّت به مُشكلاتُ الأمور ولان له الصُّعْبُ بعد الجِماح

فلولا هو^(١) لَغَدَّت أغصان الاكتساب ذاوية، وبيوت الأموال خاوية، وأسرعت إليها البُوسى، وأصبحت كفؤاد أم موسى، فهو لا محالة تَجَرُّها الأريج، وميزانها الأرجح. به تَدُرُّ ألبانها، وتثمر أفنانها، وتستمرُّ أفضالها وإحسانها، وهو رأس مالها، وقُطْبُ عُمَّالها وأعمالها. وصاحب القلم قد حوى المملكة بأسرها، وتحكَّم في طيِّها ونَشَرها، وهو قُطْب مدارها، وجُهيْنَة أخبارها، وبيْر اختيارها واختيارها، ومظهر مجدها وفخارها، يعقد الرّايَات لكل والٍ، ويمنحهم من المبرة كلُّ صافية المقيل ضافية السُّربال، يُطفي جَمرة الحرب العَوان، ويكايد العَدُوّ بلا صارم ولا سِنان، يَقْدُ المفاصل، ويتخلل الأباطح والمعازل، ويقمع الحوasd والعوذال.

وفاته: توفي بمالقة يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من رمضان سنة اثنتين^(٢) وسبعين وخمسمائة. وقبره مشهور بها.

محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي

من أهل مالقة، وسكن غرناطة وتردد إليها.

حاله: كان لبيباً لودعياً، جامعاً لخصال؛ من خطِّ بارع، وكتابة، ونظم، وشطرنج، إلى نادرٍ حار، وخاطر ذكي، وجُرأة. توجَّه إلى العُدوة، وارْتَسَم بها طبيياً؛ وتولَّى النظر على المارِستان بفاس في ربيع الثاني من عام أربعة وخمسين وسبعمئة.

شعره: أنشدني بمدينة فاس عام ستة وخمسين، في وُجهتي رسولاً إلى المغرب، قوله في رجل يقطع في الكاغد: [المجتث]

أبا عليَّ حُسينا	أين الوفا منك أيناً؟
قد بيتن الدمع وَجدي	وأنت تزداد بَيْننا
بَلْتُ لحاظك قلبي	تالله ما قلْتُ مينا
قطَّ المقصُّ لهذا	سبب الصَّبِّ مينا
بقيتْ تفتُرُ حُسنا	ودمَّتْ تزداد رَيْننا

(١) أي: فلولا.

(٢) في الأصل: «اثنتين» وهو خطأ نحوي.

وقال أيضًا: [البسيط]

فُضِّلُ التجارات بادٍ في الصناعات لولا الذي هو فيها هاجر عاتٍ
حاز الجمال فأعياني وأعجزني وإن دعيتُ بموصافٍ ونعاتٍ

وكان شديد المغالطة، ذاهبًا أقصى مذاهب القحّة، يحرك مَنْ لا يتحرك، ويُغضب مَنْ لا يغضب. عتب يومًا جدّته على طعام طبخته له، ولم يستطِبه، وكان بين يديه القط يصدعه بصياح طلبه، فقال له: ضجّرا، خمسمائة سوط، فقالت له جدّته: لم تعط هذه السياط للقط، إنما عيّنتني بها، وأعطيتها باسم القط، فقال لها: حاش لله يا مولاتي، وبهذا البخل تدريني أو الزحام عليها، بل ذلك للقط حلالًا طيبًا، ولك أنت ألف من طيبة قلب، فأرسلها مثلاً، وما زلنا نتفكّه بذلك، وكان في هذا الباب لا يُشَقُّ غباره.

مولده: بمالقة عام ثلاثة وسبعمئة.

وفاته: بعث إليّ الفقيه أبو عبد الله الشّديد، يعرفني أنه توفي في أواسط عام سبعة وخمسين وسبعمئة.

محمد بن سليمان بن القصيرة^(١)

أبو بكر، كاتب الدولة اللّتونية، وعلم وقته.

حاله: قال ابن الصيرفي: الوزير الكاتب، الناظم، النائر، القائم بعمود الكتابة، والحامل لواء^(٢) البلاغة، والسابق الذي لا يُشَقُّ غباره، ولا تخمد أبدًا أنواره. اجتمع له براءة النثر، وجزالة النظم، رقيق النّسيج، خفيف المَثَن، رُقعته ما شئت في العين واليد. قال ابن عبد الملك^(٣): وكان كاتبًا مجيدًا، بارع الخط، كتب عن يوسف بن تاشفين^(٤).

مشيخته: روى عن أبي الحجاج الأعلام، وأبي الحسن بن^(٥) شريح، وروى عنه أبو الوليد هشام بن يوسف بن الملعوم، لقيه بمراكش^(٦).

(١) ترجمة ابن القصيرة في اللّخيرة (ق ٢ ص ٢٣٩) والمغرب (ج ١ ص ٣٥٠) والمطرب (ص ٧٦) والمعجب (ص ٢٢٧) والوافي بالوفيات (ج ٣ ص ١٢٨) والمحمدون من الشعراء (ص ٣٥٨) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٧) وقلائد العقيان (ص ١٠٣) والصلة (ص ٨٣٠) والبيان المغرب (ج ٤ ص ٦٠) ونفع الطيب (ج ٦ ص ١٣٠) (ج ٩ ص ٢٥٧).

(٢) في الأصل: «الواء». (٣) الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٧).

(٤) في الذيل والتكملة: «كتب عن أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللّتونى».

(٥) في الذيل والتكملة: «أبي الحسن شريح».

(٦) في الذيل والتكملة: «لقية بمراكش سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة».

شعره: وهو عندي في نمط دون ما وُصف به. فمن ذلك قوله من قصيدة أنحى فيها على ابن ذي الثون، ومدح ابن عباد، عند خلع ابن جهور، أبي الوليد، وتضير قرطبة إليه: [الطويل]

فَسَلْ عَنْهُ أَحْشَاءُ ابْنِ ذِي النُّونِ هَلْ سَرَى
وَهَلْ قَدَّرْتَ مَذْ أَوْحَشْتُهُ طَلَانُحُ الـ
أَلَمْ يَخْجُنْ يَحْيَى مِنْ تَعَاطِيكَ ظِلَّهُ
لَجَارَاكَ وَاسْتَوْفَيْتَ أَبْعَدَ غَايَةِ
فَأَحْرَزْتَ فَضْلَ السَّبْقِ عَفْوًا وَكُفَّهُ
وَيَا شَدَّ مَا أَغْرَثَتْهُ قَرْطَبَةُ وَدَدَ
وَمُسْنَهَا:

أَتَتْكَ وَقَدْ أَرَزَى بِبِهْجَةٍ حُسْنُهَا
فَالْبَسْتَهَا مِنْ سَابِغِ الْعَدَلِ حَلَّةَ
وَجَاءَتْكَ مَتَفَالًا قَضَمَخَ حَيْثُهَا
وَأَجَرَيْتَ مَاءَ الْجُودِ فِي عَرَصَانِهَا
وَطَابَ هَوَاءٌ^(٤) أَقْبَقَهَا فَكَأَنَّهَا
وَمَا أَذْرَكْتُهُمْ فِي هَوَاكَ هَوَادَّةَ
وَمَا قَلَّدُوكَ الْأَمْرَ^(٥) إِلَّا لَوَاجِبَ
وَبَوَّأَهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ مَغْقِلًا
وَأَوْرَدَهُمْ مِنْ فَضْلِ سَنِيكَ مَوْرَدًا
فَلَوْلَاكَ لَمْ تُفْصَلْ عُرَى الْإِضْرَ عَنْهُمْ
أَعَدَّتْ نَهَارَ لَيْلِهِمْ وَلَطَالَمَا
وَلَا زِلْتَ تُؤْوِيهِمْ إِلَى ظِلِّ دَوْحَةٍ

وَلَا أَنَّهَا^(٢) مِنْ جُورِ مَالِكِهَا طِمْرُ
زَهَايَا بِهَا تَبَةً وَغَاظِلَهَا كِبَرُ
وِلَازِدَانِهَا^(٣) مِنْ ذِكْرِكَ الْمُغْتَلِي عِطْرُ
فَرُوضٍ حَتَّى كَادَ أَنْ يُورِقَ الصُّخْرُ
تَهَبُّ نَسِيمًا فِيهِ أَخْلَاقُكَ الزُّهْرُ
وَمَا أَتَمَمْتُمْ إِلَّا لِمَا أَمَرَ الْبِرُّ
وَمَا^(٦) جَنَّتْهُ فِيهِ الْمُجْرِبُ وَالْعَمْرُ
حَرَامٌ عَلَى الْأَيَّامِ إِلِمَامُهُ حَجَرُ
عَلَى كَثْرَةِ الْوَارِدِ مَشْرَعُهُ غَمْرُ
وَلَا انْفَكَّ مِنْ رَبِّقِ الْأَذَى لَهُمْ أَسْرُ
أَرَاهُمْ نَجْوَمَ اللَّيْلِ فِي أَفْقِهِ الظَّهْرُ
مِنْ الْعَزِّ فِي أَرْحَابِهَا النَّعْمُ الْخَضْرُ

(١) في الأصل: «أن» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «ولا لأنها» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) همزة الوصل هنا جعلناها همزة قطع لكي لا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «هوا» وهكذا ينكسر الوزن. (٥) في الأصل: «لأمر» وهكذا ينكسر الوزن.

(٦) كلمة «وما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى.

كتابته: وهي من قلة التصنع والإخشوشان، بحيث لا يخفى غرضها، ولكل زمان رجاله. وهي مع ذلك تزينها السذاجة، وتشفع لها الغضاضة. كتب عن الأمير يوسف بن تاشفين ولاية عهده لولده:

«هذا كتاب تولية عظيم جسيم، وتوصية حميم كريم، مهدت على الرضا قواعد، وأكدت بيد التقوى مواعده ومعاقده، وسدّدت إلى الحسنى مقاصده، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره وموارده. أنفذه أمير المسلمين، وناصر الدين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، أدام الله أمره، وأعز نصره، وأطال فيما يرضيه منه، ويرضى به عنه عمره، غير مُحابٍ، ولا تارك في النصيحة لله ولرسوله والمسلمين مَوْضِعَ ارْتِيَابٍ لمرتاب، للأمير الأجل أبي الحسن عليّ ابنه، المُتَقَبِّلُ هَمِّهِ وَشِيمِهِ، المتأثّل جِلْمِهِ وتَحَلَّمِهِ، الناشئ في جَنَرِ تَقْوِيهِ وتَأْدِيبِهِ، المتصَرِّف بين يدي تخريجه وتدريبه، أدام الله عزّه وتوفيقه، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه، وقد تهمّم بمن تحت عصاه من المسلمين، وهدى في انتقاء مَنْ يخلفه هدى المتّقين، ولم ير أن يتركهم بعد سُدى غير مدينين، واعتماد في التّصاب الرفيع واختار واستنصح أولي الرأي والدين، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل، وتراخي مدة، وتمثل اختياره، واختبار مَنْ فاضه في ذلك من أولي التقوى والحُكْمَةِ واستشارة الأغلبية، ولا صار بدونهم الارتياح والاجتهاد إلّا إليه، ولا التقى زُؤاد الرأي والتشاور إلّا لديه. فولّاه عن استحكام بصيرة، وبعد طول مَشُورَة، عهده، وأفضى إليه الأمر والنهي، والقَبْضُ والبَسْطُ عنده بعده، وجعله خليفته السّاد في رعاياه مَسْدّه، وأوطأ عَقْبَهُ جماهير الرجال، وناط به مهمات الأمور والأعمال، وعهد إليه أن يتّقي الله ما استطاع، ولا يعدل عن سَمْتِ العدل وحُكْمِ الكتاب والسُّنّة في أحد عصا أو أطاع، ولا ينأ عن حماه الخيف والخوف بالاضطجاع، ولا يتلَيَّنْ دون معلن شكوى، ولا يتصام عن مُستصرخ لذي بَلْوى، وأن ينظم أقصى البلاد وأدناها في سِلْكِ تدبيره، ولا يكون بين القريب والبعيد بَوْنٌ في إحصائه وتقديره. ثم دعاء، أدام الله تأييده، لمبايعته، أدام الله عزّه ونصره، مَنْ حضر ودنا من المسلمين، فلبّوا مسرعين، وأتوا مُهْطِعِينَ، وأعطوا صِفْقَة إيمانهم متبرّعين متطوعين، وبابعوه على السمع والطاعة، والتزام سَنَنِ الجماعة، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة، ومناصفة مَنْ ناصفه، ومُحاربة مَنْ حاربه، ومكايده مَنْ كايده، ومُعاندة مَنْ عانده، لا يَدْخِرُونَ في ذلك على حال المَنَشْطِ مقدرة، ولا يحتجون في حالتي الرضا والسخط إلى مَعذَرَة. ثم أمر بمخاطبة سائر أهل البلاد لمبايعته، كل طائفة منهم في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر صِفْقَة يدها، حتى ينتظم في التزام طاعته القريب والبعيد، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغائب الإحاطة في أخبار غرناطة/ ج ٢ / م ٢٤

والشهيد، وتطمئن من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة، وتنام عيون لم تزل مخافة إقذائها موروقة، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار، وتتمكن لديهم الدعة ويتمهد القرار، وتنشأ لهم في الصلاح آمال، ويستقبلهم جَدُّ صالح وإقبال. والله يبارك لهم بئعة رضوان، وصفقة رُجحان، ودعوة يُمن وأمان، إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو، نعم المولى ونعم النصير. شهد على إشهد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنه فوق هذا من بيعته، ولقيه حَملة عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل، وأعطى صفقته طائعا متبرعا بها. وبالله التوفيق. وكتب بحضرة قرطبة في ذي الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة.

دخل غرناطة غير ما مرة، وخُده، وفي ركاب أميره.

وفاته: توفي في جمادى الآخرة من عام ثمانية وخمسمائة.

محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني

من أهل سَرْقُسْطَة، ودخل غرناطة، وروى عن أبي الحسن بن الباذش بها، يكنى أبا الطاهر. وله المقامات اللزوميات المعروفة.

حاله: كان كاتباً لغوياً شاعراً، مُعْتَمِداً في الأدب، فرداً، متقدماً في ذلك في وقته، وله المقامات المعروفة، وشعره كثير مُدَوَّن.

مُشِيخته: روى عن أبي علي الصُّدْفِي، وأبي محمد بن السيد، وأبي الحسن بن الأخضر، وأبي عبد الله بن سليمان، المعروف بابن أخت غانم، وأبي محمد بن عتاب، وأبي الحسن بن الباذش، وأبي محمد عبد الله بن محمد التُّجِيبِي الدُّكْلِي، وأبي القاسم بن صوابه، وأبي عمران بن أبي تَلِيد، وغيرهم. أخذ عنه القاضي أبو العباس بن مضاء، أخذ عنه الكامل للمُبَرَّد، قال: وعليه اعتمد في تقييده. وروى عنه المُقْرِئ المُمِين الخطيب أبو جعفر بن يحيى الكتامي، وذكره هو وابن مضاء.

وفاته: توفي بقرطبة ظهر يوم الثلاثاء، الحادي والعشرين من جمادى الأولى، سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، بِزَمَانَةٍ^(١) لازمته نحواً من ثلاثة أعوام، نفعه الله.

شعره: [الوافر]

أيا قَمَرُ، أطلُعْ من وشاح على غض فاخر من كل راح؟

(١) الزمالة: العاعة. لسان العرب (زمن).

أدار السُّخْرَ مِنْ عَيْنِيهِ خَمْرًا
وَأَهْدَى إِذْ تَهَادَى كُلُّ طَيْبٍ
وَأَخْيَا حِينَ حَيَا نَفْسَ صَبٍّ
وَسَوَّغَ مِنْهُ عَثْبِي بَعْدَ عَثْبٍ
وَأَجْنَانِي الْأَمَانِي فِي أَمَانٍ
وَقَالَ أَيضًا: [الكامل]

وَمُنْعَمٍ الْأَعْطَافِ مَعْسُولِ اللَّمَى
لَمَّا ظَفِرْتُ بَلِيلَةَ مِنْ وَصْلِهِ
أَنْضَخْتُ وَرْدَةً خَذَهُ بِنَفْسِي
وَقَالَ أَيضًا: [الكامل]

حَكَتِ السُّلَافُ صِفَاتِهِ بِحَبَابِهَا
وَتَوَرَّدَتْ فَحَكَتِ شَقَائِقَ خَذَهُ
وَصَفَّتْ فَوْقَ أَدِيمِهَا فَكَأَنَّهَا
لَعِبَتْ بِالْبَابِ الرِّجَالِ وَغَادَرَتْ
مِنْ ثَغْرِهِ وَمَذَاقِهَا مِنْ رَشْفِهِ
وَتَأَزَّجَتْ فَيُسَيِّمُهَا مِنْ عَزْفِهِ
مِنْ حُسْنِ رَوْنَقِ وَجَنَّتِيهِ وَلُطْفِهِ
أَجْسَامَهُمْ صَرَعَى كِفْعَلَةَ طَرْفِهِ

«ومن الغرباء في هذا الحرف»

محمد بن حسن العُمَرَانِي الشَّرِيف^(١)

من أهل فاس.

حاله: كان جَهْوِيًّا سَادَجًا، خشن البزة، غير مُرْهَف التَّجَنُّد، ينظم الشعر، ويذكر كثيرًا من مسائل الفروع، ومعاناة الفرائض، يُجَفِّعُجِعُ بِهَا فِي مَجَالِسِ الدَّرُوسِ، فشقي به المدرسون، على وتيرة من صحة السُّجِّيَّة، وحسن العهد، وقلة التصنع.

وجرى ذكره في الإكليل^(٢): كريم الانتماء، مستظل^(٣) بأغصان الشجرة الشَّعَاء، من رجل سليم الضمير، ذي باطن أَضْفَى من الماء التُّمِير، له في الشعر طبع يشهد بعروية أصوله، ومضاء نصوله.

(١) ترجمة الشريف العمراني في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ٤٦) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤). (٣) في النفع: «متظلل».

فمن ذلك قوله يخاطب السلطان أمير المسلمين، وقد أمر له بكسوة:
[الطويل]

مَنْحَتْ مُنَحَّتِ التُّضَرُّ والعُرُّ والرضا	ولا زَلَّتْ بالإحسان منها ^(١) مَقْرُضًا
ولا زلت للعَلْيَا جَنَى ومكارمًا ^(٢)	وللأمر، للملِكِ ^(٣) العزيز، مُقَيِّضًا
ولا زالت الأملاك باسمك تُتَقَى	وجيشك وفَرًا يملأ الأرض والفضا
ولا زلت ميمون الثَّقِيبة ظافرًا	مهيبًا ووهابًا وسيفك مُنْتَضِي
تُقَرُّ به الدين الحنيف وأهله	وتقمع جَبَّارًا وتَهْلِك مُبْغِضًا
وَصَلَتْ شريف البيت من آل هاشم	وَحَوَّلَتْهُ أَسْنَى مرادٍ ومُقْتَضِي
وَجُدَتْ بإعطاء اللُّجَيْنِ وكُسوة	سَتَكْسَى بها ^(٤) ثوبًا من النور أبيضًا
وما زالت الأنصار تفعل هكذا	فَعَالَ ^(٥) عَلِيٍّ في الزمان الذي مضى
هُمُ نصرُوا الهادي وآووا وجَدَلُوا	بَحْدَ دُبَابِ السيف مَنْ كان مُعْرَضًا
فَحَذَّ ذَا أبا الحجاج من خير مَادِح	لخير مَلِيكَ في البرية مُرْتَضِي
فقد كان قبل اليوم غاض قريضة	فلَمَّا رَأَى الإحسان منك نَقِيضًا
وَنَظَّمُ الفتى يسمو على قدر ما يرى	من الجُود مهما ينقضي تَبْلُهُ انقَضَى
ومن حكم القول اللّهُي مَتَحَ اللّهُي	وَمَنْ مَدَحَ الأملاك يرجو التَّعْرَضَا
فلا زال يهديك الشريف قصائدًا	ينال بها منك المودة والرضى

وقال يخاطب مَنْ أخلفته بوارق الأمل فيه، وخابت لديه وسائل قوافيه:
[البسيط]

الشَّغَرُ أَسْنَى كلام خُصَّ بالعرب	والجود في كل صِنْفٍ خيرٌ مكتسِب
وأَفْضَلُ الشعرِ أبيات يقدِّمُها	في صدر حاجته مَنْ كان ذا أدب
فما يُوقِي كَرِيمٌ حقَّ مادحه	لو كان أولاه ما يحويه من نَشَب
المال يَفْنَى إذا طال الشَّوَاءُ به	والمدح يبقى مدى الأزمان والِحَقَب
وقد مدحتُ لأقوام ذوي ^(٦) حسب	فيما ظننْتُ وليسوا من ذوي حسب

(١) في الأصل: «له»، وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «مكارمًا»، وكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «الملك»، وكذا ينكسر الوزن.

(٤) كلمة «بها» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن.

(٥) في الأصل: «نال» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٦) في الأصل: «ذي» وكذا ينكسر الوزن.

مدحتهم بكلام لو مدحتُ به دهري أمنتُ من الإملاق والنصب
فعاد مدحي لهم هجواً يصدقه من لؤمهم عودتي عنهم بلا أرب
فكان ما قلتُ من مدحهم كذباً أستغفر الله من زورٍ ومن كذب

وقال في غرض يظهر من الأبيات، يخاطب السلطان: [الكامل]

ما لي أرى تاج الملوك وحوله عَبدانٍ لا حلم ولا آداب
فكانه البازي الضيود وحوله نُعْرٌ^(١) يقلب ريشه وغراب
يا أيها المَلِكُ الكرامُ جدوده أسنى المحافل غيرُها أتراب
أبدلها بالبيض^(٢) من صفئهما إن العبيد محلها الأبواب

وفاته: توفي في حدود ثمانية وأربعين وسبعمائة أو بعد ذلك^(٣).

محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب^(٤)

قرطبي الأصل، تونسي الولادة والمنشأ، ابن نعمة وغذي جاه وحرمة.

حاله: كان حياً فاضلاً كريماً، سخياً. ورد على الأندلس، مُقلّناً من نكبة أبيه، وقد عَزَّكَهُ عَزَّكَ الرُّحَى لثقالتها، على سُنَن من الوقار والديانة والجماء، يقوم على بعض الأعمال النبيلة.

وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه^(٥): جواد لا يُتعاطى طَلْقُهُ، وصُنِّح فضل لا يُمائل قَلْقُهُ. كانت لوالده^(٦)، رحمه الله تعالى^(٧)، من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل، ومفاوضة في العقد والحل، ولم يزل تسمو^(٨) به قدم النجابة، من العمل إلى الحجابة. ونشأ ابنه هذا مَقْضِي الديون، مُقْدَى بالأنفس والعيون. والدهر ذو ألوان،

(١) الثَّعْر: البلب. محيط المحيط (نغر).

(٢) في الأصل: «من البيض» وكذا ينكسر الوزن، لذا حذفنا كلمة «من».

(٣) قال في النفع (ج ٨ ص ٣٧٤): «وذكر في الإحاطة أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة».

(٤) ترجمة ابن العشاب في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤) وجاء فيه: «أبو عبد الله العشاب». وله ترجمة أخرى في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤) وجاء فيه: «محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب».

(٥) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٤ - ٣٧٥).

(٦) في النفع: «الآية».

(٧) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٨) في الأصل: «يسمو» والتصويب من النفع.

ومارِقُ حربِ عَوان^(١)، والأيامُ كُرَاتُ تُتَلَقَّف، وأهوال^(٢) لا تتوقَّف، فألوى بهم الدهر وأنحى^(٣)، وأغام جُوههم بِعَقَبٍ ما أضحى^(٤)، فشملمهم الاعتقال، وتعاورتهم^(٥) الثوب الثقال، واستقرَّتْ بالمشرقِ رِكاياه، وحطَّتْ به أقتابه، فحجَّ واعتمر، واستوطن تلك المعاهد وعَمَر، وعكف على كتاب الله تعالى^(٦) فجوَّد الحروف، وأحكم^(٧) الخلف المعروف، وقَيَّد وأسند، وتكرَّر إلى دور الحديث وتردَّد، وقدم على هذا الوطن قدومَ التَّسيم البليل، على كَبَد العليل. ولَمَّا استقرَّ به قَراره، واشتمل على جَفَنه غِراره، بادرتْ إلى مؤانسته، وثابرتْ على مجالسته، فاجتليتْ للسُّرو^(٨) شخصًا، وطالعتْ ديوان الوفاء مُستقصًا.

شعره: وشعره ليس بحايد عن الإحسان، ولا عُقْلٍ من النكت الجِسان. فمن ذلك ما خاطبني به^(٩): [الطويل]

يُيْمَنُ أَبِي عَبْدِ الإِلَهِ ^(١٠) مُحَمَّدٍ	تَيَمَّنَ هَذَا الْقَطْرُ وَانْسَجَمَ الْقَطْرُ
أَفَاضَ عَلَيْنَا مِنْ جَزِيلِ عَطَانِهِ	بَحُورًا تَدِيمُ ^(١١) الْمَدِّ لَيْسَ لَهَا جَزْرُ
وَأَنَسْنَا لَمَّا عَدِمْنَا مَغَانِيًا	إِذَا ذُكِرَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِهَا عِبْرُ ^(١٢)
هَنِيئًا بَعِيدِ الْفَطْرِ يَا خَيْرَ مَا جِدِ	كَرِيمٍ بِهِ تَسْمُو السِّيَادَةُ وَالْفَخْرُ
وَدُمْتَ مَدَى الْأَيَّامِ فِي ظِلِّ نِعْمَةٍ	تُطِيعُ لَكَ الدُّنْيَا وَيَعْتَوُ ^(١٣) لَكَ الدَّهْرُ

ومما خاطب به سلطانه في حال الاعتقال: [البسيط]

لعلَّ عَفْوِكَ بَعْدَ السُّخْطِ يَغْشَانِي يَوْمًا فَيُنْعَشِ قَلْبَ الْوَالِدِ الْعَانِي^(١٤)

(١) الحرب العوان: الشديدة التي قُوتل فيها مرة بعد مرة. لسان العرب (عون).

(٢) في النفع: «وأحوال».

(٣) ألوى بهم الدهر، وأنحى عليهم الدهر: أهلكهم. لسان العرب (لوى) و(نحا).

(٤) في الأصل: «ما أضحى» والتصويب من النفع.

(٥) تعاورتهم: تداولت عليهم. لسان العرب (عور).

(٦) كلمة «تعالى» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من النفع.

(٧) في النفع: «وقرأ المعروف».

(٨) في النفع: «للسُّرو». والسُّرو: الفضل. محيط المحيط (سرو).

(٩) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).

(١٠) في الأصل: «عبد الله محمد يُيْمَنُ هَذَا الْقَطْرُ...» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من النفع.

(١١) في الأصل: «بحور الدِّيم...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٢) في النفع: «... القلب ليس لها دَعْرُ». (١٣) يعنو: يخضع. لسان العرب (عنا).

(١٤) في الأصل: «العان» بدون ياء.

مولاي، رحماك، إني قد عهدتُك ذا
فاصرفَ حنانك ثمَّ أعْطِفْ^(١) عليَّ وجُدْ
فقد تناهى الأسى عندي وعذبني
وحقُّ آلائك الحُسنى وما لك من
إني ولو حلتِ البلوى على كَيْدي
لَوائتُ بحنانٍ منك يَطرُقْني
دامتْ سعودُك في الدنيا مضاعفة

حلم وعفو وإشفاق وتُحنانٍ
برحمةٍ منك تُخَيِّي جِسمي القاني^(٢)
وشردَ النوم عن عيني وأعياني^(٣)
طوُلٍ وفضلٍ وإنعام وإحسان
وأسكبتُ فوق خدِّ دمعِي القاني^(٤)
عمّا قَريبٍ وعَفْوٍ عاجلٍ دان
تذلَّ مَنْ دانَ^(٥) طوعاً كلُّ سلطان

محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي^(٦)

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن عبد الملك، من أهل مراكش، وسكن غرناطة.
حاله: من عائد الصلة^(٧): كان، رحمه الله، غريب المنزغ، شديد الانقباض،
محجوب المحاسن، تنبو العين عنه جهامة، وغبابة شكل، ووَحْشَة ظاهر^(٨)، في طيِّ
ذلك أدبٌ غَضٌّ، ونَفْسٌ حرّة، وحديث ممتع، وأبوة كريمة، أحد الصابرين على
الجُهد، المتمسكين^(٩) بأسباب الحشمة، الراضين بالخصاصة. وأبوه قاضي القضاة،
نسيجٌ وخده، الإمام العالم، التاريخي، المُتَبَحَّر في الأدب^(١٠)، تقلبت به أيدي
الدهر^(١١) بعد وفاته لِتَبِعَةِ سُلْطَتٍ على نسبه^(١٢)، فاستقرَّ بمالقة، متحارفاً مقدوراً
عليه، لا يَهْتَدِي لمكان فضله، إلّا مَنْ عثر عليه جُزْأً.

شعره: ^(١٣) [السريع]

من لم يَصُنْ في أَمَلٍ وَجْهَهُ عنك فَصُنْ وَجْهَكَ عن رَدِّهِ

-
- (١) في الأصل: «واعطف» وكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «القان» بدون ياء.
(٣) في الأصل: «وأعيان» بدون ياء. (٤) في الأصل: «القان» بدون ياء.
(٥) قوله: «من دان» ساقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم المعنى والوزن معاً.
(٦) ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).
(٧) النص في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥) بتصرف.
(٨) في النفح: «ظاهرة». (٩) في النفح: «المستمسكين».
(١٠) في النفح: «الأدب». وهنا يشير إلى والد محمد، القاضي ابن عبد الملك المراكشي، صاحب كتاب «الذيل والتكملة».
(١١) في النفح: «الليالي». (١٢) في النفح: «نسبه».
(١٣) البيتان في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥).

وأعرف له الفضلَ وعَرَفَ به^(١) حيث أحلَّ النَّفْسَ مِنْ قَضْدِهِ

ومما خاطبني به قوله^(٢): [الوافر]

وَلَيْتَ وَلَايَةً أَحْسَنَتْ فِيهَا لِيُعْلَمَ أَنَّهَا شَرُفَتْ بِقُدْرِكَ

وكم وإلِ أساءَ فقيلَ فيه دَنِي الْقَدْرَ لَيْسَ لَهَا بِمُذْرِكَ

وأنشدني في ذلك أيضًا رحمة الله عليه^(٣): [الوافر]

وَلَيْتَ فَقِيلَ أَحْسَنَ^(٤) خَيْرُ وَإِلِ ففأق^(٥) مَدَى مَدَارِكِهَا بِفَضِيلَةِ

وكم وإلِ أساءَ فقيلَ فيه^(٥) دَنَا قَمَحًا مُحَاسِنُهَا بِفِعْلِهِ

ومما خاطب به السلطان يستعديه على من مَطَّلَه من العمال، وعذَّر عليه واجبه من الطعام والمال: [مخلع البسيط]

مولاي نصرًا^(٦)، فكم يُضَامُ مَنْ مَا لَهُ غَيْرُكَ اعْتِصَامُ

أمرت لي بالخلاص فامررت^(٧) لي عنده المَالُ والطعام

فقال ما اعتاده جوابًا وخَسِبِي الله والإمام

هذا مقام ولا فعال بغير مولاي والسلام

وفاته: فقد في وقعة على المسلمين من جيش مالقة بأحواز إستبة^(٨) في ذي قعدة من عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة.

محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد

ابن خميس الحنجري حنجر ذي رعين التلمساني

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن خميس^(٩).

(١) في النفع: «له». (٢) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢٤).

(٣) في الأصل: «أحسن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(٤) في الأصل: «فعاق»، والتصويب من النفع.

(٥) كلمة «فيه» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفتها من النفع.

(٦) في الأصل: «انصيرًا» وهكذا ينكسر الوزن. (٧) في الأصل: «فمر» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) إستبة: كورة تابعة لقرطبة، كما جاء في المغرب في حلى المغرب (ج ١ ص ٣٥). وأغلب الظن أن المراد هنا: إستبونة Estepona، الواقعة على البحر المتوسط على مقربة من مالقة.

(٩) ترجمة ابن خميس في بغية الوعاة (ص ٨٦) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠١) ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٣٤).

حاله: من عائد الصلة^(١): كان، رحمه الله، نسيج وَخْده زهْدًا وانقباضًا، وأدبًا وهمة، حَسَنَ الشَّيْبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التَّصْنُوع، بعيدًا عن الرِّياء والهوادة^(٢) عاملاً على السياحة والعزلة، عالماً^(٣) بالمعارف القديمة، مضطلعًا بتفاريق النحل، قائمًا على صناعة^(٤) العربية والأصليين، طبَّقة الوقت في الشعر، وفحل الأوان في النظم^(٥) المَطْوَل، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج^(٦) الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها، شديد الانتقا والإرجاء، خامد نار الرؤية، منافسًا في الطريقة منافسة كبيرة. كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان، ثم فر عنهم، وقد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجري بأبواب الملوك. وبعد ذلك بمدة، قدم غرناطة، فاهتز الوزير ابن الحكيم لتلقّيه، ومثَّ إليه بالوسيلة العلمية، واجتذبه بخُطبة التلميذ، واستقرَّه بتأنيسه وبرّه، وأقَّعه للإقراء بجواره. وكان يروم الرُّحلة، وينوي السفر، والقضاء يُثْبِطه. حدَّثني شيخنا الرئيس أبو الحسن بن الجياب، قال: بلغ الوزير أبا عبد الله^(٧) الحكيم أنه يروم السفر، فشقَّ ذلك عليه، وكلفنا^(٨) تحريك الحديث بحضرته. وجرى ذلك، فقال الشيخ: أنا كالدَّم بطبيعي، أتمحرك في كل ربيع.

شعره: وشعره بديع، فمن ذلك قوله يمدح أبا سعيد بن عامر، ويذكر الوخشة الواقعة بينه وبين أبي بكر بن خَطَّاب^(٩): [الوافر]

مَحَا آثارَ وَمَنْتَهَا التَّشَامَا ^(١٠)	مَشْشَوْقُ زَارَ زَنْعَكَ يَا إِمَامَا
فَمَا ^(١١) نَفَعَتْ وَلَا نَفَعَتْ أَوَامَا	تَثْبِيعَ رِيْقَةِ الطَّلِّ ارْتِشَافَا
وَمَا رَاعَى لَضُرَّتْهَا ذِمَامَا	وَقَبْلَ خَدِّ وَرَدَتْهَا جَهَارَا
وَلَا لِعَلِّي ^(١٢) قَذْرَكَ أَنْ يُسَامَا	وَمَا لِحَرِيمِ بَيْتِكَ أَنْ يَدَانِي

(١) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٣٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) هذه الكلمة غير واردة في النفع. وفي أزهار الرياض: «والهوى».

(٣) في النفع وأزهار الرياض: «عارفًا».

(٤) كلمة «صناعة» ساقطة من المصدرين السابقين.

(٥) كلمة «النظم» غير واردة في المصدرين السابقين.

(٦) من هنا حتى قوله: «أبو الحسن بن الجياب» غير وارد في المصدرين السابقين.

(٧) في المصدرين السابقين: «أبا عبد الله بن الحكيم».

(٨) في المصدرين السابقين: «وكلفه».

(٩) ورد فقط البيتان الأول والثاني في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥).

(١٠) في أزهار الرياض: «الشَّامَا».

(١١) في المصدر السابق: «فلا».

(١٢) في الأصل: «لعلّا» وهكذا ينكسر الوزن.

ولكن عاش في رسم لِمَعْنَى^(١)
تَنَفَّسَ روضة المَطْلُولِ وَهنا
تلقى طيب ب... ته^(٢) حديثا
فيا نَفْسَ الصُّبَا إن جئت ساحا
وأخطأت الطريق إلى جماها
فلا تُبَصِّرْ بِسَرِّحَتِها قضيبي
وعانق قُرْبَانَتِها ارتباطا
ونافح عَزَفَ زَهْرَتِها كِبَا
ويا بَرْقَا أضاء على أوال
أنغر إمارة أنت ابتساما
خَفَقَتْ بِبطن واديهَا لَوَا
أَمْشِيهِ قَلْبِي الْمُضْنِي احتداما
ولم أنهرتني وطردت عني
وأبلغ منه تأريفا لجفني
تعرض لي فأيقظت القوافي
وقيل وما أرى يومي كاميسي
وجرعت العدو سُمَا زُعَافَا
دعوت زعيمهم ذاك ابتياسا
نزعت شواه كبشهم نطاحا
أضام وفي يدي قلبي لماذا
به وبما أذلق من لساني
وغرام الوزير أبي سعيد
به وينجله البر انتصاري
اعثمن بن عامر لا تَكِلْنِي
وردت فلم أريد إلا سرايا

تَجَسَّمْه سَلَامَا واستلاما
فَحَرْنُ وَشَمٌ^(٢) رِيَاه فهاما
رَوَتْ مُسْنَدًا عَنْهُ التُّعَامَا
ولم تعرف لساكنها مقاما
فردتكَ العرادة والخزاما
ولا تُذْعِرْ بِمَسْرَحِها سواما
وصافح كف سَوَيْنِها التزاما
تعاطك ماء ريقِها مُدَامَا
بمانيًا متى جئت الشَّامَا
أم الدَّرْ الأوامي انتظاما؟
ولُخْتُ على ثَنِيَّتِها حُسامَا
على م دُذْتُ عن عيني المنامَا
خيالًا كان يأتيني إمامَا؟
كلام أنخن الأحسا كلاما
ولو تُرِكَ القَطَا يومًا لناما
جَدَعْتَ رَوَاطِبَا وَقَلْبَتِها هاما
فكان لحسد مَوْتَا زُوامَا
وزُغْتَ خميسهم ذاك اللُّمَامَا
ولم أترك لِقَرْمِهم سِنَامَا
أضام أبا سعيد أو عَلَامَا؟
أفل الصارم العَضْب انهما
أصرفه إذا شئت انتقاما
لما أكلوه من لَحْمِي حراما
لدهرٍ عَلِمَ الشَّخَّ الغماما
وَشِمْتُ فلم أئيم إلا جهاما

(١) في الأصل: «معنى» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «وشم» وهكذا ينكسر الوزن، ولا يستقيم المعنى.

(٣) بياض في الأصل.

قَطَعْتُ الْأَرْضَ طَوْلًا ثُمَّ عَرَضًا
وَجَاجَانِي عَلَى كَرَمٍ نَدَاهُمْ
وَذَلَّتْ الْمَطَامِعُ مِنْ إِيَّائِي
وَمَنْ أَدْبَى نَصَبْتُ لَهُمْ حَبَالًا
فَلَمْ أَرِ مِثْلَ رُبْعِي دَارِ أَنْسٍ
وَلَا كَأَبِيهِ أَوْ كُنْى أَبِيهِ
كَفَانِي بَابِنِ عَامِرٍ خَفَضُ غَيْشٍ
وَإِنِّي مِنْ وَلَائِكَ فِي يَفَاعٍ
وَمِنْ شَعْرِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قَوْلُهُ^(١): [الطويل]

تُرَاجِعُ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَنْتَ تَارِكُ
تُؤْمَلُ بَعْدَ التُّرُكِ رَجْعَ وَدَادِهَا
حَلَا لَكَ مِنْهَا مَا خَلَا^(٢) لَكَ فِي الصَّبَا
تَظَاهَرُ بِالسُّلُوَانِ عَنْهَا تَجْمُلًا
تَنْزَعَتْ عَنْهَا نَخْوَةٌ لَا زَهَادَةً
لِيَالِي تُغْرِي بِي وَإِنْ هِيَ أَعْرِضَتْ
غُصُونُ قُدُودٍ فِي جِقَافِ رَوَافِدٍ
تُطَاعِنُنِي مِنْهُمْ فِي كُلِّ مَلْعَبٍ
وَكَمْ بِلَاةٍ فِيهَا هَتَكْتُ وَدُونَهَا
وَلَا خِذْنِ إِلَّا مَا أَعَدْتَ رَدِينَهُ
تُضِلُّ فُؤَادَ الْمَرْءِ عَنْ قَصْدِ رَشْدِهِ
وَفِي كُلِّ سِنٍّ لِابْنِ آدَمَ وَإِنْ تَطُلَّ
وَأَلَّا فَمَا لِي بَعْدَ مَا شَابَ مَفْرِقِي

وَتَسْأَلُهَا^(٣) الْعُثْبَى وَهِيَ فَارِكُ^(٤)
وَشَرُّ وَدَادٍ مَا تَوَدُّ الثَّرَائِكُ
فَأَنْتَ عَلَى حُلُوتِهِ مِنْهَا لَكُ
فَقَلْبُكَ مُحْزُونٌ وَتُغْرِكَ ضَا حَكُ
وَشَغْرُ عِذَارِي أَسْوَدَ اللَّوْنِ حَالِكُ
زَنَابٍ مِنْ ضَوَاتِهَا وَعَوَاتِكُ
تَمَائِلُ مِنْ ثِقَلٍ بَيْنَ الْأَرَائِكُ
تُدِي كَأَسْنَانِ الرَّمَاحِ فَوَاتِكُ
صُدُورِ الْعَوَالِي وَالسُّيُوفِ الْبَوَاتِكُ
لَطَالِبُهَا أَوْ مَا تَحْيِّرُ هَالِكُ
فَوَاتِرُ الْحَافِظِ لِلطُّبَا الْفَوَاتِكُ
سَنُوهُ طِبَاعِ جُمَّةٍ وَعَوَاتِكُ
وَأَعْجَزُ رَأْيِي عَجْزُهُنَّ^(٥) الرُّكَارِكُ

(١) بعض أبيات هذه القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٧ - ٣٣٨) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣٠٦).

(٢) في الأصل: «وتسألها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفح وأزهار الرياض.

(٣) الفارك: المرأة التي تكره زوجها. العُثْبَى: الاسترخاء. لسان العرب (فرك) و(عثب).

(٤) في النفح وأزهار الرياض: «ما خلا».

(٥) في الأصل: «عَجَزُ من» وهكذا ينكسر الوزن، ويصح في القافية عيب الإقواء.

أجوب إليها كلَّ بَيْداءٍ مُنْلقِي
وأسترشد الشَّهْبَ الشَّوَابِكِ جارِ
نُهازِزِ أمثال الجِيادِ تَزوْدَة
ظَماءٍ وما غير السَّمَاوَةِ مُوردِ
ذواهُلٍ عن عَضِّ الرِّجالِ ظهورها
إذا ما ثَبَا عن سُنْبُكِ الأرضِ سُنْبُكِ
تَقْدُ بنا في كلِّ قاعٍ وَقَدْ قَدِ
فأمامها رِيٌّ كالسَّحابِ مَوَالِغِ
قِلاصٍ بأطوافِ الجُدَيْلِ بَوَالِغِ
تراصِي بها نِياقُها كلَّ مُرْتَمِي
وكم منزل خَلِيثُهُ لطلابِها
يَمُرُّ به زُؤاره وعُفاته
وآثارتنا تَقْدامِ عهدهم
لوارِبِ أفراسٍ ونَوَى حِذَاةِ
تَمُرُّ عليه نَسْمَةُ الفَجْرِ مِثْلُما
وَأَزْكَبُ كالشَّهْدِ يَنْفَحُ بُزْدَهُ
ويطلبها مِنِّي غَريمٌ مُماحِكِ
أحاول منها ما تَعَدَّرُ في الصُّبَا
يُسَلِّي الفتى منها وإن راق حُسْنُها
فمنها مَلالٌ دائِمٌ لا تَمْلَهُ
تُهاونُ بالإفكِ الرِّجالَ جِهالَةً
تَزنُ طولَ تَسْهادِي وقَدْرِي تَمْلَمِي
تَغْيِرُ على الدَّهْرِ مِنْهُ جَحافلِ
فليت الذي سَوَّدَتْ فيها مُعَوَّضُ
ألا لا تُدَكِّرْني بِلَمْسِسانِ والهوى
فإنَّ أذكارَ ما مَضَى مِنْ زَمَانِها

ترافقني فيها الرجال الحواتك^(١)
إذا اشْتَبَهَتْ فيها عَلَيَّ المسالكِ
أغوارِبِ أمثال الهَضابِ تَوامِكِ
وَيُنْحَى وما دون الصَّاةِ مَبَارِكِ
إذا ما اشْتَكَّتْ عَضُّ السُّروجِ المَوارِكِ
هَلَعْنَ فَلانَتْ تَحْتَهُنَّ السُّنابِكِ
بِوَائِكُها والمُنْغِياتِ الدَّراهِكِ
وأمامها زَكَا كالرِّياحِ بَواشِكِ
وَجُرْدُ لَأوْساطِ الشُّكَيْمِ عَوالِكِ
فَهِنْ نَواحٍ لِلرُّدى أو هَوالِكِ
تُعَفِّيهِ تَعْدِي السَّافِياتِ السَّواهِكِ
وما إنَّ به إِلا لَصَوْقُ حَبائِكِ
وهِنْ عَلَيْهِ جائِياتُ بَوارِكِ
ثَلاثُ أَثافٍ كالخَمامِ سَوادِكِ
تَمُرُّ على طيِّبِ العُروسِ المَدَواكِ
لَمْجَهِولٍ خَسِيٍّ ما لَه لِلدَّهْرِ مُبانِكِ
وَيَمْطُلُنِي مِنْها عَدِيْمٌ مُمَاعِكِ^(٢)
ومن دونه وَقَعُ الجِمامِ المُواشِكِ
خَسائِفُ لا تُحْصى هَنا وَمَبَارِكِ
تَزُورُ إِفْكَ عَنِ رِضىِ الحَقِّ أَفْكَ
وما أَهْلَكَ الأَحْياءُ إِلا الأَفْياكِ
طَوالِ اللَّيالي والنَّجومِ التَّوابِكِ
كَأَنَّ مُدَوِّمَ الرِّجَمِ فِيها نِيازِكِ
بِما بَيَّضَتْ مِنِّي دُجاها الحَوالِكِ
وما دَهَكَتْ مِثْما الخُطوبِ الدَّواهِكِ
لِجَسْمِي وَلِلصُّبْرِ الجَميلِ لَناهِكِ

(١) الحواتك: من حتك، أي أسرع في السير. لسان العرب (حتك).

(٢) المماعك: «المماطل». لسان العرب (معك).

ولا تَصِفَنَّ أمواها لي فإنها
ومن حال عن عهدٍ أو أخفر ذمّة
سقى منزلي فيها وإن مخّ رسمه
وجادت قرى قبر بمسجد صالح
ولا أفلعت عن دار يونس مُزنة
إلى أن يروق الناظرين رواها
ويصبح من حول الحيا في عراصها
ولا برحت منه ملائكة الرضى
وطوبى لمن روى منازلها الحيا
ألا ليت شعري هل تُقضى لبائتي
وهل مكّن الطيف المغيب زيارة
وهل تغفل الأيام عنها بقدر ما
ويا ليت شعري أي أرض تقلني
وأي غرار من صفاها يحثني
إذا جهل الناس الزمان فلانني
تثبت إذا ما قمت تعمل خطوة
ولا تبدّلن^(٢) وجهها لصاحب نعمة
تجشّم إن^(٣) استطعت واحذر أذاهم
فكل على ما أنعم الله حاسد
ولا تأس^(٤) ريبة الزمان فإنه
تمنى مصاب بربر وأعاره
وبذرت ليل الجون حوض لجاجها^(٥)
فما أدعنت إلا إليّ عشار
ولا قصدت إلا قناتي وقودها
به شرفت أذواها وملوكها

لنيران أشواقى إليها مُحارك
فلاني على تلك العهود لرامك
عهد العوادي والدُموع السوافك
رواعدها والمُذخّمت الحواشك
يروي صداه قطرُها المُتدارك
ويرضى الرعاوى نبثها المُتلاحك
زراق تحاكي بسطّها ودّرانك^(١)
تصلي على ذاك الصدى وتبارك
ويُشرى لمن صلت عليه الملائك
إذا ما انقضت عشرٌ عليها دكادك
فيرقب أو تلقى إليه الروامك
تؤدي إليها بالعتاب الحالك
إذا كلّ عن رحلي الجلال اللكالك
إذا فقدتني منها والدكادك
بدونهم دون الأنام لحايتك
فإن بقاع الأرض طرا شوائك
فما مثل بذل الوجه للمستر هاتك
ولا تلقههم إلا وهرك شأنك
وكل إذا لم يغصم الله حاسك
بمن فات منا لا محالة فاتك
وترضى ذكامي فارس والهنادك
وتعرف إقدامي عليها المهالك
ولا أضفقت إلا عليّ الشكاشك
ولن أملت إلا قتامي الضرارك
كما شرفت بالتؤيهار البرامك

(١) الدراتك: ضرب من البسط.

(٢) في الأصل: «تبدّل» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «ما» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «تأس» وهكذا ينكسر الوزن.

(٥) في الأصل: «وبذرت الليالي الجون حوضي لجاجها» وهكذا ينكسر الوزن.

فلا تَدْعُونُ غَيْرِي لِدَفْعِ مُلِمَةٍ
فما إنْ لَذاكَ الصَّوْتُ غَيْرِي سَامِعٌ
يَعْصُرُ وَيَسْجَى نَهْشَلٌ وَمُجَاشِعٌ
تَفَارِقْنِي رُوحِي^(٤) الَّتِي لَسْتُ غَيْرَهَا
وماذا عسى تَرجو لِدَاتِي وَأَرْتَجِي
يَعُودُ لَنَا شَرُحُ الشَّبَابِ الَّذِي مَضَى
ومن شعره أيضًا قوله: [الكامل]

سَحَّتْ بِسَاجِكَ يَا مَحَلَّ الْأَدَمِ
ولطالما جَادت ثرى الآمالِ مِنْ
لِلَّهِ أَيْامٌ بِهَا قَضَيْتُهَا
فَلَقَدْ رَشَفْتُ بِهَا رُضَابَ مُدَامَةٍ
فِي رَوْضَةٍ يَرْضِيكَ مِنْهَا أَنِهَا
تَجْرِي بِهَا فَقَرٌّ سَكَنَتْ رَهَانَهَا
فَقَرٌّ كَرِيمَانَ الشَّبَابِ وَعَهْدُنَا
نَقَاطَةُ الْأَنْوَاءِ فِي عَقْدِ الثَّرَى
حَتَّى إِذَا حَاكَ الرَّبِيعُ بِرُودِهَا
بَدَأَتْ كَمَاثِمُ زَهْرِهَا تُبْدِي بِهَا
قَدْ صُمَّ مِنْهَا مَا تَجْمَعُ مُغْلَقٌ
وَكَلَاهُمَا مَهْمَا أَرَذَتْ مُسَالِمٌ
كُلُّ لَهْ شَرُوعِ السَّبِيانِ مُحَلَّلٌ
حَيْثُ أَزْدَهَتْ أَنْوَارُ كُلِّ حَدِيقَةٍ

وَتَصَرَّمَتْ سَقًّا عَلَيْكَ الْأَضْلَعُ
جَاوِي مَوْمَلِكِ الْغُيُوثِ الْهَمْعُ
قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَرْجِعُ
بِنَسِيمِ أَنْفَاسِ الْبَدِيعِ تُشْغِيْعُ
مَرْعَى لَأَفْكَارِ النَّدَامِ وَمَشْرِعُ
أَجْدَى بِمِيدَانِ الْكَلَامِ وَأَسْرَعُ
بِجَنَابِهَا وَهُوَ الْجَنَابُ الْأَمْنَعُ
وَالنُّفْتُ فِي عَقْدِ الثَّرَى لَا يَمْنَعُ
وَكَسَا رُبَاهَا وَشَيْهِ الْمُتَنَوِّعُ
يَدْعَا تُفَرِّقُ تَارَةً وَتُجْمَعُ
إِذْ بُتُّ مِنْهَا مَا تَفَرِّقُ مُضْغَعُ
وَمُحَارَبٌ وَمُؤْمِنٌ وَمُرَوِّعُ
وَمُنْكَرٌ^(٩) فِي مِثْلِ هَذَا مُذْغَعُ
أَدْبَا يُنَظِّمُ تَارَةً وَيُسَجِّعُ

(١) الداهك: الطاحن الكاسر. لسان العرب (دهك).

(٢) السامك: الرافع للقواعد المحلي للبناء. لسان العرب (سمك).

(٣) نهشل ومجاشع وحيمر والسكاسك: قبائل عربية.

(٤) في النفع وأزهار الرياض: «الروح».

(٥) في الأصل: «ئنأي» وهكذا ينكسر الوزن والتصويب من النفع وأزهار الرياض.

(٦) الصائك: اللاحق. محيط المحيط (حوك). (٧) في النفع وأزهار الرياض: «مني».

(٨) الأفانك: جمع إنيك وهو مجمع اللحين. لسان العرب (فك).

(٩) في الأصل: «المُنْكَر» وكذا ينكسر الوزن.

فَمُرْجَلٌ مِنْ رَقْمِهَا وَمُهْلَلٌ
أَبْدَى الْبَدِيعِ بِهَا بَدَائِعَ صُنْعِهِ
وَمَوْشِخٌ وَمُرْشِخٌ وَمُصَدِّرٌ
كُلٌّ يَرُوقُ بِهَا بِخُنَنِ زَوَانِهِ
وَلَقَدْ غَدُوْتُ بِهَا وَفِي وَكُنَاتِهَا
بِمُطَهِّمِ الْفِكْرِ الَّذِي مَا إِنَّ لَهُ
قَيْدَ الْمَطَالِبِ لَا نِزَالَ^(١) نَحْبُهُ
أَرْمَى بِهِ الْأَمَدَ الْبَعِيدَ وَإِنَّهُ
مِنْ بَغْدٍ مَا عَفَّتِ السُّوَارِي سُبُلَهُ
لَكِنْنِي جَدَّدْتُ دَائِرَ رَسْمِهِ
أَوْضَحْتُ فَهَمَّ حُدُودَهُ وَضُرُوبَهُ
حَتَّى وَرَدْتُ مِنَ السَّمَاعِ مَوَارِدًا
مَعَ كُلِّ مَصْقُولِ الذِّكَاءِ فَحَدَّشَهُ
يَرْتَادُ مِنْ تَجْعِجِ الْعُنَاصِرِ نُجْعَةً
لَا شَيْءَ أَبْدَعُ مِنْ تَجَاوُرِهَا وَمَا
فَإِذَا تَشَعَّشَعَ مَرْجُهَا أَوْرَى بِهَا
فَمَكِينُ سِرِّ حَيَاتِهِ بِحَبَابِهَا
وَهَنَا تُفَاضُ عَلَيْهِ صُورَتُهُ الَّتِي
مِنْ وَاهِبِ الصُّوْرِ الَّتِي قَدْ خَضَّهَا
رَبُّ لَهْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حِكْمَةً
وَحَلَلْتُ مِنْ أَرْضِ الرِّيَاضَةِ أَرْبُعًا
قَامَتْ زَوَايَاهَا فَمَا أَوْتَادَهَا
وَتَنَاسَبَ أَقْدَارُهَا نَسَبًا لَهَا
فَأَجَلٌ مَا قَدْ شَمَّتْهُ بِحُلُولِهَا
لَا شَكَّ أَنَّ وَرَاءَهُ مَطَرًا لَهُ
بَحْرُ زَوِيٍّ مُثْرِغٌ مُلَاحَهِ

وَمُسَمِّطٌ مِنْ نَظْمِهَا وَمُصَرِّعٌ
فُمُجَنِّسٌ وَمُبَدِّلٌ وَمُرْصَعٌ
وَمُكَرَّرٌ وَمُقَرَّرٌ وَمُتَّبِعٌ
وَإِذَا تَزَيَّنَ بِهِ كَلَامُكَ تَبَرَّعٌ
طَيَّرَ لَهَا فَوْقَ الْغُصُونِ تَرْجِعُ
إِلَّا بِمُسْتَنْزِلِ الْأَدَلَّةِ مَرْتَعٌ
بَيْنَ الْجِبَادِ لَعَنَتُهُ أَوْ يَوْضَعُ
جَمْلٌ يَضِلُّ بِهِ الدَّلِيلُ الْأَصْمَعُ
وَمَحَتْ مَعَالِمَهُ الرِّيَّاحُ الْأَرِيعُ
فَطَرِيقُهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَهْيَعٌ
وَالْكُلُّ فِي كُلِّ الْمَسَالِكِ يَنْفَعُ
فِيهَا لَظْمَانُ الْمُبَاحِثِ مَكْرَعُ
لِذِكَا أَسْرَارِ الطَّبَائِعِ مَطْلَعُ
فِيهَا مَصِيفٌ لِلْعُقُولِ وَمَرْزِعُ
يُبْدَى^(٢) بِهَا ذَاكَ التَّجَاوُرِ أَبْدَعُ
نَارُ الْخُبَابِ مَرْجُهَا الْمُتَشَفِّعُ
مِنْ بَعْدِ قَدْحِ زَنَادِهَا مَسْتَوْدَعُ
لِبَهَائِهَا شَمُّ الطَّبَائِعِ تَخَضُّعُ
بِبَدِيعِ حِكْمَتِهِ الْحَكِيمِ الْمَبْدَعُ
يَقْضِي بِهَا الْبَدْعِيَّ وَالْمُتَشَرِّعُ
نَفْسِي الْفِدَاءَ لَهَا وَهَذَا الْأَرِيعُ
إِلَّا تَقْوَمُ مَا تَقِيمُ الْأَضْلَعُ
لَوْ كُنْتُ تُبْنِصُهَا فَرُوعُ قُرْعُ
مِنْ بَارِقِ لَجْنَابِ رُشْدِي يَلْمَعُ
فِي كُلِّ ضَرْبٍ مِنْ قِيَاسِي مَوْقِعُ
مِنْ فَيْضِهِ هَذَا الرُّوِّيُّ الْمُثْرِغُ

(١) في الأصل: «لا يزال».

(٢) في الأصل: «يتبدى» وكذا ينكسر الوزن.

لَمْ لَا أَضِيعُ بِهَا عَهَادَ مَدَامَعِي
 خَلِّيْ، لَوْ لَمْ تَسْعِدَانِي فِي الْبُكَاءِ
 أَرَأَيْتُمَا نَفْسًا تَفَارِقُ جِسْمَهَا
 عَظُمَتْ رِزْيُتُهَا وَأَيُّ رِزْيَةٍ
 هَذِي خَمَامُكَ، يَا عَلِيٌّ، سَوَاجِعُ
 إِنْ طَارَخْتَنِي وَزَقَهَا فَبِأَضْلَعِي
 آهَ عَلَى جِسْمِي الَّذِي فَارَقْتُهُ
 وَمِنَ الْعُجَابِ رَجُوعُ مَا أَوْدَى بِهِ
 الْجَوْرُ مِنْهُ إِذَا اسْتَمَرَّ طَبِيعَةً
 هَذِي عَقُوبَةُ زَلَّةٍ سَلَفَتْ بِهَا
 قَدْ كُنْتُ أَمْنَعُ رَسْخِ نَفْسِي قَبْلَهَا
 لَمْ لَا وَقَدْ أَصْبَحْتُ بَعْدَ مُحَلَّةٍ
 دَارَ يَدْرُ الرِّزْقِ مِنْ أَخْلَاقِهَا
 وَكَأَنَّ مَجْلِسَهَا الْبَهِيِّ بِصَدْرِهَا
 وَكَأَنَّ مَجْمَرَ عَنَبِرٍ بِفَنَائِهَا
 وَكَأَنَّهَا الْمُتَوَكِّلِيَّةُ بِهَجَّةٍ
 فِي حَجَرٍ ضَبُّ خَافِضٍ بِجَوَارِهِ
 يَا نَفْثَةَ الْمَصْدُورِ كَمْ لَكَ قَبْلَهَا
 وَعَسَاكَ تَنْقَعُ غُلَّةٌ بِكَ إِنَّهَا
 اللَّهُ أَنْتَ مَذَاعَةٌ أَوْدَعْتَهَا
 بِدَوِيَّةٍ فِي لَفْظِهَا وَنِظَامِهَا
 لَمْ لَا تَشْفَعُ فِي الَّذِي أَشْكُو بِهَا
 كَمَلْتُ وَمَا افْتَرَعْتُ فَأَيُّ خَرِيدَةٍ
 بَارَتْ عَلَيَّ فَأَصْبَحْتُ لِحَيَاتِهَا

إِنِّي إِذَا لَعُوهَا^(١) لَمْضِيْعُ
 لِقَطْعْتُ مِنْ حَبْلَيْكُمَا مَا يُقْطَعُ
 وَبِهِ تَنْعُمُهَا وَلَا تَتَوَجَّعُ؟
 ظَلْتُ لَهَا أَكْبَادُنَا تَنْصَدِّعُ
 وَأَخَالُهَا أَسْفًا عَلَيْهَا تُسْجِعُ
 شَوْقُ يَطَارِحُهُ أَذْكَارُ مُوجِعُ
 لَا كُنْتُ مِنْ جِسْمِهِ لَا يَزْجَعُ
 دَفَرُ بَتَشْتِيَتِ^(٢) الْأَجْبَةُ مَوْلَعُ
 وَالْعَذْلُ مِنْهُ إِذَا اسْتَقَامَ تَطْبِيعُ
 مِنْ أَكْلِ طُعْمَتِهِ الَّتِي لَا تُشْبِعُ
 وَالْيَوْمَ أَوْجِبُ أَنَّهُ لَا يُمْنَحُ
 فِيهَا السَّحَابُ بِالرَّغَائِبِ تَهْمَعُ؟
 وَلَكُمْ دَعَا دَاعٍ بِهَا مِنْ يُوْضَعُ
 مَلِكٌ بِأَعْلَى دَسْتِهِ مَتَرَبُّعُ
 يُذَكِّي وَمَا^(٣) قَدْ سَيْفٌ مِنْهُ يَسْطَعُ
 وَعَلِيٌّ بْنُ الْجَهْمِ فِيهَا يُبْدَعُ
 مِنْ كَانَ قَبْلُ لَهُ الْعَوَامِلُ تُرْفَعُ
 مِنْ زَفَرَةٍ بَيْنَ الْجَوَانِحِ تُسْفَعُ
 بِجَحِيمٍ مَا أَشْبَلْتُهُ لَا تَنْقَعُ
 مِنْ كُلِّ مِيرٍ بِالضَّمَائِرِ يُودَعُ
 حَضْرِيَّةٌ فِيمَا بِهِ يُتَرَجَّعُ
 وَمِثَالُهَا فِي مِثْلِهِ يُتَشَفَّعُ؟
 لَوْ كَانَ يَفْرَعُهَا هِمَامُ أَرْوَعُ
 مِنْي بِضَافِي مِزْطِهَا تَتَلَفَّعُ

(١) في الأصل: «لعوها» وكذا لا يستقيم المعنى ولا الوزن.

(٢) في الأصل: «بتشتت»، وكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «ما»، وكذا ينكسر الوزن.

ومن شعره قوله يمدح ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم، وهي من مشاهير أمداحه^(١): [الطويل]

سَلِ الرِّيحَ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الشُّفْنَ أَنْوَاءَ فَعِنْدَ صَبَاها مِنْ يَلِمْسَانَ أَنْبَاءَ
وَفِي خَفَقَانِ الْبَرْقِ مِنْهَا إِشَارَةٌ إِلَيْكَ بِمَا تُشْمِي إِلَيْهَا^(٢) وَإِيمَاءَ
تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَلِلأَذُنِ إِصْفَاءَ وَلِلْعَيْنِ إِكْلَاءَ^(٣)
وَإِنِّي لِأَضْبُو لِلضُّبَا كُلَّمَا سَرَتْ وَلِلنَّجْمِ مَهْمَا كَانَ لِلنَّجْمِ إِضْبَاءَ^(٤)
وَأَهْدِي إِلَيْهَا كُلَّ حِينٍ^(٥) تَحِيَّةً وَفِي رَدِّ إِهْدَاءِ التَّحِيَّةِ إِهْدَاءَ
وَأَسْتَجْلِبُ النَّوْمَ الْغِرَازَ وَمُضْجَعِي قَتَادَ كَمَا شَاءَتْ نَوَاهَا وَسُلَاءَ^(٦)
لَعَلَّ خَيْالًا مِنْ لَدُنْهَا يَمُرُّ بِي فَفِي مُرِّهِ بِي مِنْ جَوَى الشُّوقِ إِهْرَاءَ
وَكَيْفَ خُلُوصُ الطَّيْفِ مِنْهَا وَحَوْلَهَا^(٧) عَيْوَنٌ لَهَا فِي كُلِّ طَالَعَةٍ رَاءَ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَيْهَا وَمُنِيَّةٌ بِبَعْضِ اسْتِيقَايَ لَوْ تَمَكَّنَ إِثْبَاءُ
وَكَمْ قَائِلٍ تُفْنِي غَرَامًا بِحُبِّهَا وَقَدْ أَخْلَقْتُ مِنْهَا مِلَاءَ وَأَمْلَاءَ^(٨)
لِعَشْرَةِ أَعْوَامٍ عَلَيْهَا تَجَرَّمْتُ إِذَا مَضَى قَيْظٌ بِهَا جَاءَ إِهْرَاءَ^(٩)
يُطَطَّبُ فِيهَا عَائِثُونَ وَخُرَبٌ^(١٠) وَيَرْحَلُ عَنْهَا قَاطِنُونَ وَأَخْيَاءَ^(١١)
كَأَنَّ رِمَاحَ الذَّاهِبِينَ^(١٢) لِمُلْكِهَا قِدَاحَ، وَأَمْوَالَ الْمَنَازِلِ أَبْدَاءَ^(١٣)
فَلَا تَبْغِينَ فِيهَا مَنَاحًا لِرَاكِبٍ فَقَدْ قَلَصْتُ مِنْهَا ظِلَالُ وَأَفْيَاءَ
وَمِنْ عَجَبِي^(١٤) أَنْ طَالَ شَقْمِي وَتَزَعُّهَا وَقُسِّمَ إِضْنَاءُ عَلَيْنَا وَإِطْنَاءَ^(١٥)
وَكَمْ أَزَجَّفُوا غَيْظًا بِهَا ثُمَّ أَزْجَأُوا فَيَكْذِبُ إِرْجَافٌ وَيَضْدُقُ إِرْجَاءَ

(١) القصيدة في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٣٦ - ٣٤٠) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٥١ - ٣٥٣).

(٢) في أزهار الرياض: «إليك».

(٣) الإكلاء: ترديد البصر. محيط المحيط (كلا).

(٤) في أزهار الرياض: «إشراء». (٥) في المصدرين: «كل يوم».

(٦) القتاد والسُّلَاء: شوك. لسان العرب (قتد) و(سلا).

(٧) في المصدرين: «ودونها».

(٨) أخلقت: بليت. الملاء: جمع ملاءة. الأملاء: جمع ملاء وهو الأرض الواسعة. لسان العرب (خلق) و(ملاء).

(٩) الإهراء: شدة البرد التي تهرأ الأجسام. لسان العرب (هرا).

(١٠) في الأصل: «عائشون وخُرَب»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في أزهار الرياض: «وثناء». (١٢) في المصدرين: «الناهيين».

(١٣) الأبداء: جمع بَدء وهو التصيب من الجُزور. محيط المحيط (بدأ).

(١٤) في المصدرين: «ومن عجب». (١٥) الإطناء: الداء. لسان العرب (طنأ).

بردها عَيَابُهَا^(١) الدَّهْرَ مثلما
 فيا منزلاً نال الردى منه ما انتهى
 وهل لِلظَى الحربِ التي فيك تَلْتظي
 وهل لي زمانٌ أرتجي فيه عودةً
 فواسيني حالي^(٢) إن هلكْتُ ولم أفل
 ولم أَطْرِقِ الدَّيْرَ^(٣) الذي كنتُ طارقاً
 أَطيفُ به حتى تَهَرَّ كلابُهُ
 ولا صاحبٌ إِلَّا حُسَامٌ^(٤) وَلَهْذَمُ
 وَأَسْحَمُ قاريٌّ كَسَفَرِي حُلْكَهَ
 فما لِشرابي في سواك مرارةً^(٥)
 ويا دارِي الأولى بدربِ حلاوة^(٦)
 أما آن أن يُخْمى جِمالُك كعهده
 أما آن أن يَغْشَوْ لِنارك طارقُ
 يُرَجى نوالاً أو يُؤْمَلُ دَعْوَةٌ
 أَجِنُ لها ما أَطْبِ الثَّيْبُ حولها
 فما فاتها مني نزاع على النوى

يُرَدُّ حرفُ الفاء في النطق فأفاء
 تُرى وهل لِعُمُرِ الأنسِ بعدك إنساء^(٧)؟
 إذا ما انقضت أيامُ بوسك إطفاء؟
 إليك وَوَجْهُ البِشْرِ أزهَرُ وضاء؟
 لصحبي بها الغُرُّ الكرامُ ألا هاؤا
 كعادى^(٨) وَيَذُرُ الأفقُ أَسْلَعُ مِشْناء^(٩)
 وقد نامَ غُساسٌ وهَوِّمَ سُبَّاء
 وطِرْفٌ لخدِّ الليلِ مذ كان وَطَاء
 تلالاً فيه من سَنَى الصبحِ أضواء
 ولا لطعامي دون بابِك^(١٠) إمراء
 وقد جَدَّ عَيْتٌ في بلاها وإزداء
 وتجتاز أحماشُ^(١١) عليك وأحماء؟
 جَنِيْبٌ له رَفَعُ إِلَيْكِ ودأء؟^(١٢)
 فما زال قسارٌ في ذراك وقُراء
 وما عاقها عَنْ موردِ الماءِ أظماء^(١٣)
 ولا فاتني منها على القُرْبِ إجشاء^(١٤)

(١) في الأصل: «عَيَابُهَا» والتصويب من المصدرين.

(٢) الإنساء: التأخير. لسان العرب (نساء).

(٣) في أزهار الرياض: «فيا هَيَّ ما لي». ومن هنا حتى البيت (يرجى نوالاً) غير وارد في نفع الطيب.

(٤) في أزهار الرياض: «الدرب». (٥) في المصدر نفسه: «لعايد».

(٦) في الأصل: «أسلع مسناء». والتصويب من أزهار الرياض. والأسلغ: الذي به البرص. والمشناء: الذي يبيغضه الناس.

(٧) في الأصل: «الأحسام» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من الأزهار.

(٨) في أزهار الرياض: «مزاة». (٩) في أزهار الرياض: «مائك».

(١٠) في أزهار الرياض: «مخيلة». (١١) في أزهار الرياض: «ويجتال أحماس».

(١٢) الرفع: المبالغة في السير. والدأء: أشدَّ العدو.

(١٣) أظمت: صوّتت. الثيب: الإبل، واحدها ناب. الأظماء: جمع ظم وهو المدة التي تنقطع فيها عن ورود الماء. لسان العرب (أظط) و(ناب) و(ظماً).

(١٤) الإجشاء: مصدر أجشأ؛ يقال: جشأت نفسه من حزن أو فزع: ثارت وجاشت. والإجشاء أيضاً: تحرك النفس بالشوق. لسان العرب (جشأ).

كذلك جَدِّي في صحابي وأُسرتي
ولولا جوارُ ابنِ الحكيم محمد
حمانِي قَلَم تَنْتَبَ محلِّي نوائِبُ
وأَكْفَاء^(٤) بيتي في كَفَالَة جَاهه
يُؤْمُون قَصْدِي طَاعَة ومَحَبَة
دعاني إلى المجد لذي كُنْتُ أَمَلًا
ويؤاني من هَضْبَةِ الْعِزِّ تَلَعَة
يُشَيِّعُنِي مِنْهَا^(٥) إِذَا سِرْتُ حَافِظُ
ولا مثلُ نومي في كَفَالَة غيره
بَغِيضَة لَيْثٍ أَن بمرقِبِ خَالِب
إِذَا كَانَ لِي مِنْ نَائِبِ الْمُلْكِ كَافِلُ
وإِخْوَانُ صَدِيقٍ مِنْ صَنَائِعِ جَاهه
سِرَاعٌ لَمَّا يُزْجَى مِنَ الْخَيْرِ عِنْدَهُمْ
إِلَيْكَ أبا عبدِ الإله صَنَعَتْهَا
مُبَرَّاةٌ مِمَّا يَعِيبُ لَزُومَهَا
أَدْعَتْ بِهَا السُّرَّ الَّذِي كَانَ قَبْلَهَا
وإن لم يكن كُلُّ الَّذِي كُنْتُ أَمَلًا
وَمَنْ يَتَكَلَّفُ مُفْخَمًا شُكْرَ مِثَّةٍ
إِذَا مُنْشِدٌ لَمْ يَكُنْ عَنْكَ وَمُنْشَى

وَمَنْ لِي بِهِ مِنْ^(١) أَهْلِ وَدْيٍ إِنْ فَازُوا^(٢)
لَمَّا فَاتَ نَفْسِي مِنْ بَنِي الدَّهْرِ إِقْمَاء^(٣)
بَسُوءٍ وَلَمْ تَزْزَأْ فَوَادِي أَزْزَاءِ
فَصَارُوا عَبِيدًا لِي وَهَمٌ لِي أَكْفَاءِ
فَمَا عَفَّتْهُ عَاقُوا وَمَا شِئْتُهُ شَاءُوا^(٥)
فَلَمْ يَكْ لِي عَنْ دَعْوَةِ الْمَجْدِ إِيطَاءِ
يُنَاجِي السُّهَاءَ مِنْهُ^(٦) صَعُودَ وَطَاطَاءِ^(٧)
وَيَكْلَأُنِي مِنْهَا إِذَا نَمْتُ كَلَاءِ^(٨)
وَلِلذَّنْبِ إِلْسَامٌ وَلِلصُّلِّ إِلْمَاءِ
تَبِيدَ^(٩) كُفَا فِيهِ وَتَقَطَّعَ أَكْسَاءِ
فَفِي حَيْثُمَا هَوْنَتْ كِبْرٌ وَإِذْفَاءِ
يُبَادِرُنِي مِنْهُمْ قِيَامٌ وَإِيْلَاءِ
وَمَنْ كُلُّ مَا يُخْشَى مِنَ الشَّرِّ أَبْرَاءِ^(١١)
لِزُومِيَّةٍ فِيهَا لَوْجِدِي إِفْشَاءِ
إِذَا عَابَ إِكْفَاءُ سَوَاهَا وَإِيطَاءِ^(١٢)
عَلَيْهِ لِأَخْنَاءِ الْجَوَانِحِ إِضْنَاءِ
وَأَعْوَزَ إِكْلَاءِ فَمَا عَازَ إِكْمَاءِ^(١٣)
فَمَا لِي إِلَى ذَاكَ التَّكَلُّفِ إِلْجَاءِ
فَلَا كَانَ إِنْشَادٌ وَلَا كَانَ إِنْشَاءِ

(٢) في أزهار الرياض: «ودّي إرفاء».

(١) في النسخ: «في».

(٣) الإقماء: الإذلال. لسان العرب (قما).

(٤) في المصدرين: «وأَكْفَاءُ»؛ يقال: أَكْفَأَ الْبَيْتَ إِذَا سَتَرَهُ. لسان العرب (أكفا).

(٥) في الأصل: «شاء». والتصويب من المصدرين.

(٦) في المصدرين: «منها».

(٧) الطَّاطَاءُ: المنخفض من الأرض. لسان العرب (طاطأ).

(٨) في الأصل: «يشاعني فيها» والتصويب من المصدرين.

(٩) الكَلَاءُ: الحافظ. لسان العرب (كلأ). (١٠) في المصدرين: «تَبِيدَ».

(١١) الأبراء: جمع بريء وهو الذي لا ذنب له. لسان العرب (برأ).

(١٢) الإكفاء والإيطاء: عيان من عيوب القافية. راجع: كتاب القوافي للأخفش (ص ٤٣، ٥٥).

(١٣) الإكماء: كثرة الكماء. لسان العرب (كما).

ومن شعره قوله : [المقارب]

أطار فؤادي بَرْقُ الأحـ
كَانَ تَأَلَّفَهُ فِي الدُّجَى
أضَاءَ وَلِلْعَيْنِ إِغْفَاءُ
كَمَعْنَى خَفِيٍّ بَدَأَ بَغْضُهُ
كَأَنَّ النُّجُومَ وَقَدْ عَرُبَتْ
لِوَاغِبٍ بَاتَتْ تُجَدُّ الشُّرَى
وَقَدْ لَبَسَ اللَّيْلُ أَسْمَالَهُ
وَأَيَّقَظَ رَوْضَ الرُّبَا زَهْرَهُ
كَأَنَّ النَّهَارَ وَقَدْ غَالَهَا
أَتَى يَسْتَفِيضُ دَمْعِي أَمْتِيَا
فَلَمْ يَلْقَ دَجْنَ انتحابي شَحِيحَا
وَلَوْلَا تَوَقُّدُ نَارِ الْحَشَا
وَمِمَّا يُشْرِدُ عَنِّي الْكَرَى
يَنْوَحُ عَلَيَّ وَأَبْكِي لَهُ
أَعْيُنُ، أَرِنَحِي أَطْلُتِ الْأَسَى
دَعَيْنِي أَرْدَ مَاءَ دَمْعِي فَلَمْ
أَحْنُ إِلَيْكَ إِذَا سَفَتْ رِيحَا
وَأَفْنَى التِّيَا حَا إِلَيْكَ وَكَمْ
وَلَوْلَا سَخَائِمُ قَوْمِ أَبْوَا
أَبَا حُوا جِمَائِي وَكَمْ مَرَّةً
وَدَافَعْتُ عَنْهُمْ بِشُعْرِي انْتِصَارَا
أَبَاعُوا وَدَادِي بَخْسًا قَسَلَنَ
وَأَغْرُوا بِنَفْسِي طَلَابَهَا
وَأَلَوْا بِمِيئًا عَلَى أَنْ مَا
فَشَاوَزْتُ نَفْسِي فِي ذَا فَمَا
فَبِتُّ أُنَاغِي نَجُومَ الدُّجَى

وَقَدْ ضَمَّ بَعْدَ لَوْكِرٍ جَنَاحَا
حُسَامُ جَبَانٍ يَهَابُ الْكَفَاحَا
تَلَدُّ إِذَا مَا سَنَا الْفَجْرَ لَاحَا
وَزَيْدُ بَيَانَا فَزَادَ أَتْصَاحَا
نَوَاهِلُ مَاءٍ صَدَزْنَ قُمَاحَا
فَادْرَكَهَا الصَّبْحُ رُوحِي طِلَاحَا
فَمَحَّتْ عَلَيْهِ بَلًّا وَانْصِيَا
فَحَيًّا نَسِيمُ صَبَاهُ الصُّبَا
مَبِيتُ مَالٍ حَوَاهُ اجْتِيَا
وَيُلْهَبُ نَارَ ضُلُوعِي اقْتِدَا
وَلَمْ يُلْفِ زَنْدَ اشْتِيَاقِي شَحَا
لَأَتَقَدَّتْ مَاءَ جَفُونِي أَمْتِيَا
هَدِيلُ حَمَامٍ إِذَا نَمْتُ صَاحَا
فَاقْطَعْ لَيْلِي بَكَا أَوْ نِيَا
عَلَيْكَ وَمَا زِدْتُ إِلَّا انْتِزَا
أَرْدَ بَعْدَ مَائِكَ مَاءَ قَرَا
وَأَبْكِي عَلَيْكَ إِذَا دُقَّتْ رَا
أَشْخَعْتُ بِوَجْهِي عَنْكَ أَتْشَا
إِيَابِي رَكِبْتُ إِلَيْكَ الرُّيَا
حَمِيْتُ جَمِي عَرَضَهُمْ أَنْ يُبَا
فَكَانَ الْجَزَاءُ جَلَانِي الْمَتَا
أَكَانَ سَمَاحَهُمْ بِي رِيَا
سَرَّازًا فَجَاءُوا لِقَتْلِي صَرَا
تَوَهَّمْتُ لَمْ يَكْ إِلَّا مَزَا
رَأَتْ لِي بِغَيْرِ الْفَلَا فَلَاحَا
نَجَاءَ فَلَمْ أَلْقَ إِلَّا نَجَاحَا

أجوب الدياجير وحدي ولا
ولأ الشعالب تحتس في
أجوز الأفاحيص فيحاً قفارا
فأعبي شوارد هذي عداء
وجواب بدو إذا استنبحو
يرون قتالي في الحجر جلاً
قصذت هناهم فلم أخطهم
فسل كيف كان خلاصي من
ولا مثل بيت تيممته
عيابا ملاء ونيبا ممانا
ولأ أعاريسب شمس الأنوف
ولأ يعافير سود العيون
يُرذذن فينا لحاظا مراضا
وتحت الوجاح طلا زيرب^(٥)
أراني محاسن منه فلم
محيًا وسيما وفرعا أثينا
وأبذى لمعيني بدائع لم
إذا لم يرذ غير سفك دمي
وما زلت سَمَحًا بنفسي كذا
وبابن رُسَيْد تَعَوَّذْتُ من
وقد ضاق صدري عن كُثْمه

مؤانس إلأ القطا والسَراحا^(١)
مبيتي فتملا سمعي ضباحا^(٢)
وأعرو الأداحي غبرًا فساحا^(٣)
وأعلو لَواغي تلك صياحا
أجابوا عواء وأموا الثباحا
واذهب نَفْسِي فيه مُباحا
أعاجم شوس العيون قباحا
أسارهم أسرى أم سَراحا؟
فلم أَلَفَ إلأ الغنا والسَماحا
وغَيِّدا جَدالًا وعودًا أقاحا^(٤)
كرام الجدود فصاحا صباحا
يَرَيْنُ فسادَ المُجِبِّ صلاحا
يُمَرِّضُن مَنَّا القلوب الصُحاحا
لَوْ أَنَّ^(٦) القيان رفغن الوجاحا
أطق عن جماء بقلبي بِراحا
وقدًا قويمًا ورذفا رداحا
يدغ لي غفلاً بها حين راحا
فَجَلَّ وِبَلٌ^(٧) له ما استباحا
متى ما رأيت الوجوه الملاحا
هواه فقد رذت فيه افتضاحا
وأودغته جفن عيني فباحا

(١) السراح: جمع سرحان وهو الذئب. محيط المحيط (سرح).

(٢) الضباح: صوت الثعلب. محيط المحيط (ضبح).

(٣) الأفاحيص: جمع أفحوص وهو الموضع الذي تبيض فيه القطا. الأداحي: جمع أدحي وهو مبيض النعام. محيط المحيط (فحص) و(دحا).

(٤) العياب: جمع غيبة وهي ما يجعل فيها الثياب. والنَّيب: جمع نيباء وهي الناقة المستنة. والنَّيْد: الخدال: الغليظة الممتلئة. محيط المحيط (عيب) و(نيب) و(خدل).

(٥) الوجاح: السَّتر. الريب: القطيع من بقر الوحش. محيط المحيط (وجع) و(ريب).

(٦) في الأصل: «لَوْ أَنَّ» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.

(٧) جَلَّ وِبَلٌ: حلال رباح. محيط المحيط (حلل).

ويابن رُشَيْدٍ تَعَوَّذْتُ مِنْ
 السَّخِّ الزَّمَانِ بِأَحْدَاثِهِ
 أَعَادَ شَبَابِي مَشِيئًا كَمَا
 وَفَّرَقَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَهْلِيلِ
 أَخِي وَسَمِيئِي، أَصْبَحُ مُسْنَعِدًا
 فَقَدْ جَبَّ ظَهْرِي عَلَى ضَعْفِهِ
 وَطَوَّحَ بِي عَنْ تِلْمِسَانٍ مَا
 وَأَعَجَلَ سِيرِي عَنْهُ وَلَمْ
 نَأَى بِصَدِيقِكَ عَنْ زَنْجِهِ
 وَكَانَ عَزِيزًا عَلَى قَوْمِهِ
 فَهَا هُوَ إِنْ قَالَ لَمْ يُلْتَفِتْ
 عَجَبْتُ لِدَهْرِي هَذَا وَمَا
 لِقَدْ هَدُؤْتُ رَكْنًا شَدِيدًا
 وَقَبِيتُ الرُّدَى مِنْ أَخٍ مُخْلَصٍ
 وَإِنِّي عَلَى فَنِيحٍ مَا بَيْنَنَا
 أَحَنُّ إِلَيْهِ حَنِينَ الْفَحُولِ
 وَأَسْأَلُ عَنْهُ هَبْرَبَ التُّسِيمِ
 وَإِنْ شِئْتَ عِزْفَانِ حَالِي وَمَا
 فَقَلْبُ يَذُوبُ إِلَيْكَ اِشْتِيَاقًا
 وَغَرَسَ وَدَادٍ أَصَابَ قَضَاءُ
 كَرَاخٍ مَجْدٍ تَأْتَلْتُهُ
 وَعَلِيَاءَ بُؤِثْتُهَا لَوْ بَغَى
 مَكَارِمُ جَمُغَتْ أَفْذَاذُهَا
 وَدَرَسَ عُلُومُ تَهِيمَ بِهَا

خُطُوبٍ أَجَلْنَ عَلَيَّ الْقِدَاحَا
 فَأَلْقَيْتُ طَوْعًا إِلَيْهِ السُّلَاحَا
 سَمِعْتُ وَصِيرَ نَشْكِ طَّلَاحَا^(١)
 وَلَمْ يَرِذَا عَلَيْهِ جُنَاحَا
 لَشَجْوِ حَزِينٍ إِلَيْكَ اسْتِرَاحَا
 كُدَامَا وَأَذْهَى شَوَاتِي نَطَاحَا^(٢)
 ظَنَنْتُ فِرَاقِي لَهَا أَنْ يُتَاحَا
 يَدْعُنِي أَوْدَعُ تِلْكَ الْبِطَاحَا
 فَكَانَ لَهُ الثَّأْيُ مَوْتًا صَرَاحَا^(٣)
 إِذَا هَاجَ خَاضُوا إِلَيْهِ الرُّمَاحَا
 إِلَيْهِ امْتَهَانًا لَهُ وَأَطْرَاحَا
 أَلَا قِي مَسَاءً بِهِ وَصَبَاحَا
 وَذُلُّ مَنِّي حَيَاءً لِنِقَاحَا
 لَوْ أَسْطَفَعْتُ^(٤) طَرْتُ إِلَيْهِ ارْتِيَا
 لَاتَّبَعُ ذَاكَ الشَّدَا حَيْثُ فَاحَا
 وَتَوَّحَ الْحَمَامُ إِذَا هُوَ نَاحَا
 وَخَفَقَ الرُّومِيضُ إِذَا مَا أَلَا حَا
 يُعَانِيهِ جِسْمِي ضَنْئِي أَوْ صَحَا حَا
 وَصَدْرُ يَفَاحٍ إِلَيْكَ انْشِرَاحَا
 نَدِيًا وَصَادَفَ أَرْضًا بَرَاحَا
 فَلَمْ تَخْشَ بَغْدُ عَلَيْهِ امْتِصَاحَا
 سُمُورًا إِلَيْهَا السُّمَّاكُ لَطَاحَا
 فَكَانَتْ لِعُطْفِ عُلَاكِ وَشَاحَا
 عَمَزَتْ الْعُدُورُ بِهِ وَالرَّوَاحَا

(١) الطَّلَاح: ضدّ الصلاح. محيط المحيط (طلع).

(٢) جَبَّ: قطع. والكدام: أصل المرعى وهو نبات يتكسر على الأرض. محيط المحيط (جيب) و(كدم).

(٣) الصُّرَاح: الخالص من كل شيء. محيط المحيط (صرح).

(٤) في الأصل: «استطعت»، وكذا يتكسر الوزن.

نشأت عن الخير واغتذته
وقُنت لها أيما رحلة
بهزت رجال الحديث اقتداءً
فما إن جليس إذا قلت قال
ولو لم نحج بها مكة
وأما أنا بعد نهي النهى
أدير كؤوس هواي اغتبقا
فبرذ جواي برذ جواب
وهن بُنيات فكري وقد
فلم تذر إلا الثقى والصلاحا
كسخت المعارف فيها اكتساحا
وقت رجال الكمال اقتراحا
أو أن^(١) الخطيب إذا لخت لاحا
لحج الملايك عنك صراحا
فما زادني الطبع إلا جماحا
وأشرب ماء دموعي اضطباحا
توئخ فيه مشي الوقاحا
أثيتك فاخفص لهن الجناحا

ومن شعره، رحمه الله، وله يمدح ذا الوزارتين المتقدم ذكره، ويذكر غفارة وجهها له مع هدية: [الكامل]

كبت العدى، إنعامك البغت
يا من إلى جذوى أنامله
لولاك لم يوصل بناحية
لولاك لم يطلع بها نشر
خولتني ما لم تسغه يدي
شئى إباد كلما عظممت
يغيا لسانى عن إذاعتها
وطأت لي الدنيا فلا عوج
أفكنتني منها فما ليدي
بالغت في برى ولا نسب
قلي الهناء^(٢) وللعدى الكبت
يزجى السفين وتزجر البخت^(٣)
وخذ ولم يقطع بها دشت^(٤)
منه ولم يهبط بها خبت
فأصابني من كثره غمت^(٥)
عندي تلكأ خاطري الهت^(٦)
ويضيئ عن شكري لها الوقت
فيما أرى منها ولا أمت
رده ولا لمقالتى عت
أذلي إليك به ولا حنب

(١) في الأصل: «أو أن» وكذا ينكر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة قطع.

(٢) في الأصل: «الهناء» وكذا ينكر الوزن.

(٣) في الأصل: «للسفين» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى. والسفين: جمع سفينة وهي المركب. والبخت، بضم الخاء: الإبل الخراسانية. محيط المحيط (سفن) و(بخت).

(٤) الدشت: الصحراء. محيط المحيط (دشت).

(٥) الغمت هنا بمعنى: التخممة؛ يقال: غمته الطعام؛ ثقل على قلبه فصيره كالسكران. محيط المحيط (غمت).

(٦) الهت: المكسور؛ يقال: هت الشيء إذا كسره وقته. محيط المحيط (هت).

لكنْ حَسْبِي إِنْ مَتَّتْ بِهِ يَوْمًا إِلَيْكَ وَدَادِي الْبَحْثُ
 بِوَرَكْتَ مِنْ رَجُلٍ بِرُؤَيْتِهِ يُوسَى الضَّنَى وَبُعَالِجُ الْغَثِّ^(١)
 لَوْ سَارَ فِي بِهِمَاءَ مُقْفِرَةٍ فِي حَيْثُ لَا مَاءَ وَلَا نَبْتُ
 لَتَفْجَّرَ الْمَاءُ الثَّمِيرَ بِهَا وَلَأَعْشَبَتْ أَرْجَاؤُهَا الْمَرْثُ
 لَا تَحْسَبَنَّ الْبَحْثُ نَيْلَ غَنَى نَيْلُ الرِّضَا مِنْهُ هُوَ الْبَحْثُ
 أَلَّتْ جَلَالَتُهُ وَحَقُّ لَهَا أَنْ لَا يَحِيطَ بِكُثْبِهَا نَغْثُ
 أَظْهَرْتَ دِينَ اللَّهِ فِي زَمَنِ مَا زَالَ يَغْلِبُ حَقُّهُ الْبَهْثُ
 شَيْدَتُهُ وَهَدَدَتْ مُنْتَعِضًا لَضِياعِهِ مَا شَيْدَ الْجِبْتِ^(٢)
 أُمِنْتَ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا ذَنْبَ يُخَافُ بِهَا وَلَا لِيَصْتُ^(٣)
 وَحَفِظْتَهَا مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ تُخْشَى فَاَنْتَ حَفِيطُهَا الْغَيْبُ
 وَنَهَجْتَ سُبُلَ^(٤) الْمَكْرُمَاتِ فَمَا لِمُؤْمِلٍ عَنْ غَايَةِ أَلْكُ^(٥)
 لَمْ تُبْقِ غُفْلًا مِنْ مَتَالِعِهَا إِلَّا وَفِيهِ لِحَائِرٍ بُرْتُ^(٦)
 هَادِنٌ طُغْيَاةَ الْكُفْرِ مَا هَدَأَتْ حَتَّى يَجِيءَ نَهَارُهَا الْمَحْتُ^(٧)
 دَغَهَا تَوَدَّعَ فِي مَعَاقِلِهَا مَا لَمْ تَعُدْ جُفَاتِهَا الْعَفْتُ^(٨)
 كَمْ دُذَّتْهَا عَنَّا وَقَدْ مَبَرَّتْ لِهَرَاثِنَا أَشْدَاقُهَا الْهَزْتُ^(٩)
 بِوَقُوفِ طَرْفِكَ عِنْدَ شِدَّتِهِ يَبْنَى وَيَفْخَرُ مَلْكُهَا الرُّثُ^(١٠)
 وَالشُّكْرُ^(١١) مَا أَظْهَرْتَ مِنْ كَرَمِ فِي ذَاكَ تَفْصِحُ عُجْمَتِهَا الْمَرْثُ
 لَكَ مِنْ مِمَالِكِهَا وَإِنْ رَغِمَتْ مَا جَالَ فِيهِ جَوَادِكُ الْحَثِّ^(١٢)
 وَلِكُلِّ أَضْيَدٍ مِنْ بَطَارِقِهَا فِي كُلِّ أَزْيٍ لَهُ دَغْتُ^(١٣)

(١) الْغَثُ: الغنم والحزن. لسان العرب (غت).

(٢) الْجِبْتُ: الذي لا خير فيه. محيط المحيط (جبت).

(٣) اللَّصْتُ: اللص. محيط المحيط (لصت). (٤) فِي الْأَصْلِ: «سِيل» وكذا ينكسر الوزن.

(٥) الْأَلْتُ: مصدر أَلَتْ، أي حبسه وصرفه عن وجهه. محيط المحيط (ألت).

(٦) الْبُرْتُ: الدليل الماهر. محيط المحيط (برت).

(٧) النَّهَارُ الْمَحْتُ: الحار. محيط المحيط (محت).

(٨) الْعَفْتُ: مصدر عَفَّتْ؛ يقال عَفَّتْ الشَّيْءُ إِذَا لَوَاهُ وَكَسَرَهُ. محيط المحيط (عفت).

(٩) الْأَشْدَاقُ الْهَزْتُ: الراسعة. محيط المحيط (هرت).

(١٠) الرُّثُ: الرئيس. محيط المحيط (رتت). (١١) فِي الْأَصْلِ: «ويشكر»، وكذا ينكسر الوزن.

(١٢) الْحَثُّ: الساقط. محيط المحيط (حتت).

(١٣) الدَّغْتُ: الدَّفْعُ الشَّدِيدُ. محيط المحيط (دعت).

لولا لباك البيض ما أرقّت
عندي^(١) لِمَنْ يَلْتَأِبُهُ مَقَّةٌ
ولو أن^(٢) بِيضَكَ لَمْ تَسَلْ لَمَّا
يا ابن الحكيم أَمِنْتَ صَرْفَ رَدَى
وبِئْسَ مِنْهُ أَنْشَتْ مِنْ أَمَلِي
مَثْنَى الْوِزَارَةِ مَوْثَلِي وَلَهُ
وَبِأَسَمِهِ أَطْفِي شَرَارَةَ مَنْ
عَمَّ الْوَرَى جَوْدًا وَفَضْلَ غِنَى
وَهَمِي عَلَى عَالٍ وَمُنْخَفِضِ
ظِلٍّ إِذَا نَصْطَافٌ مَعْتَدِلٌ
يَنْضَاءُ الصَّبْحَ الْمَنِيرَ إِذَا
حَتَّى كَانَ شَمْسُ الضُّحَى قَمَرٌ
وَعَرِيبَةٌ فِي لُطْفِ صَنَعَتِهَا
يَنَاشِئُ التَّدَى بِهَا إِذَا لَبَسَتْ
زَنْجِيَّةً لَكِنْ لِمَحْتَدِهَا
مِثْلُ الْعُرُوسِ عَلَى مِئْصَتِهَا
لَا كَوْنَ أَتَحَلَّ مَا أَكُونُ هُدَى
وَبِمِثْلِ شَيْبِي فَوْقَ حُلْكَتِهَا
تُظْهِرُنِي^(١٢) بِلِبَاسِهَا وَبِهِ

للقائها أفراسنا الكُفْتُ
ولمن يُنِيبُ لغيره مَفْتُ
ذَلَّتْ أَثَوَفُ طُغْيَانِهَا السُّلْتُ
أَبْدًا لَهُ فِي أَثْلَتِي نَحْتُ^(٣)
ما لم يكن يومًا له عَزْتُ^(٤)
ما دُمْتُ أَمْلِكُ قُدْرَتِي أَقْتُ^(٥)
يَعْثُو وَأَقْدَحُ أَنْفَ مَنْ يَغْتُو^(٦)
حتى تساوى العَدُو والغُلْتُ^(٧)
لم يبق فوقَ لا ولا تَحْتُ
عَطِرُ الشَّدَا وَخِيَا إِذَا تَشْتُو^(٨)
لاقي سَنَاهُ جَبِينِكَ الصُّلْتُ
وَكأنَّ ضَوْءَ شِعَاعِهَا فَخْتُ^(٩)
يَمْضِي الزَّمَانُ وَمَا لَهَا أُخْتُ
وَيَتِيهِ إِنْ طَوَيْتَ بِهَا التَّخْتُ
فِي الرُّومِ يَعْنُو الْقَمْسُ وَالشُّنْتُ^(١٠)
من شَأْنِهَا التَّزْيِينُ وَالزُّنْتُ^(١١)
فِيهَا فَيَغْبِلُ جَسْمِي الشُّخْتُ
يَبْدُو الْوَقَارُ وَيَحْفَظُ السُّنْتُ
عندي لها الإِشَارُ مَا عِشْتُ

(١) في الأصل: «عنده»، وكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «ولو أن» وكذا ينكسر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.

(٣) الأثلة: الأصل؛ وقوله: له في أثلتي نحت: أي يطعن في حسي. محيط المحيط (أثل).

(٤) العَزْتُ: الشدة والاضطراب. محيط المحيط (عرت).

(٥) الأَقْتُ: الوقت الممين. محيط المحيط (أقت).

(٦) في الأصل: «يعت» بدون واو. (٧) الغُلْتُ: الغلط. محيط المحيط (غلت).

(٨) في الأصل: «تشت» بدون واو.

(٩) القَمْخْتُ: ضوء القمر أول ما يبدو. محيط المحيط (فخت).

(١٠) الشُّنْتُ: كلمة إسبانية Santo، وتعني القديس.

(١١) زُنْتُ العروس: تزيينها. محيط المحيط (زنت).

(١٢) في الأصل: «تظهرني» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

لا زِلْتَ تُؤَثِّرُنِي بِهَا أَبَدًا ولا تَفِ من يَشْقَى بِذَا السَّلْتِ
وبَقِيَتْ تَدْرِكُ ما تُرِيدُ وما تَهْوِي بِقَاءِ ما لَه فَتُ

ومن شعره أيضًا في المدح قوله، رحمه الله، من قصيدة ثبتت في ديوان مجموع
من أمداحه منها قوله: [الكامل]

طَرَقَتْكَ وَهْمًا أَخَذَ آلَ عِلاجٍ والرُّكْبُ بَيْنَ ذَكَادِكَ وَجِراحٍ
فِي لَيْلَةٍ لَيْلَاءَ لَمْ يَنْبِخْ بِهَا كَلْبٌ وَلَمْ يَصْرُخْ أَذِيئُ دِجَاجٍ
أَتَى أَهْتَدَتْ لِمُضَلِّلِينَ تَوَقَّنُوا مِنْهَا لِيَهْتَكِ دِياجِرُ وَدِياجٍ
مُتَسَرِّبِلِي بُزْدِ الظُّلَامِ كَأَنَّهُمْ فِيهِ قِدَاحٌ فِي رَمَايَةِ سَاجٍ
وَرُثِقُوا بِمَحْمُودِ السُّرَى وَتَسَلَّمُوا لِمَخَارِمِ مَجْهُولَةٍ وَفَجَاجٍ
وَمَنَازِلُ دُزْمُ الرُّسُومِ بِلَاقِعُ أَخْوَيْنَ مِنْ هَيْجٍ وَمِنْ هَجْهَاجٍ
مَحْتُ مَعَالِمُهُنَّ غَيْرَ مُثَلَّمٍ كَسِوارِ تَاجٍ أَوْ كَدِفَمَلَجٍ عَاجٍ
وَمَوَائِلُ مِثْلِ الحَمَامِ جَوَائِمُ وَزُقَى وَأَسْمَجُ دَائِمِ التُّشْحَاجِ
وَمُشْجِجٌ ما زالَ مَنهَلُ الحَيَا يَبْكِي صَداهُ بِدَمْعِهِ التُّجْجَاجِ
حَتَّى أَعَادَ لِعُودِهِ أَوْرَاقَهُ خُضِرَ الظُّلَالِ ذَكِيَّةُ الْآرَاجِ
وَكَسَا عِرَاقَ عِرَاصِهِ مِنْ وَشِيهِ خُلَلًا تُبَوِّرُ صَنْعَةَ الدِّيَبِاجِ
لا مِثْلَ لَيْلَاتِ مَضْيُنٍ سَرِيعَةٍ بَرَدَتْ حَرَارَةَ قَلْبِي المِهْتَاجِ
أَدْرَكْتُ مِنْهَا فِي صَبَإِي مَطالِبِي وَقَضَيْتُ مِنْهَا فِي شَبَابِي حَاجِي^(١)
كَمْ لَيْلَةٌ مَرَّتْ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا غَيْرِي وَغَيْرُ مَنْادِمِي وَسَراجِي^(٢)
بِثْنَا نُدِيرُ إِلَى انْبِلاجِ صَباحِها كَأَسِ الهَوَى صِرْقًا بِغَيْرِ مِزَاجِ
وَتُدِيرُ أَعْيُنُنَا حَدِيثَ غَرَامِنَا بِمَرَامِيٍّ مِنْ فُضْها وَأَحَاجِ
بِمَآرِجِ التُّفَحَّحَاتِ مِنْ دَارِينِ أَوْ بِمَدَارِجِ التُّسَمَّاتِ مِنْ دَرَّاجِ
وِخْلُوصِ وَدٍّ فِي نَقَاءِ سَرِيرَةٍ كَسُلاَفِ رَاحٍ فِي صَفَاءِ رُجَاجِ
أَمَحْضَتُهُ حَظِّي مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي أَغْيَا مَرَامِي أَهْلِهِ وَعِلاجِي^(٣)
وَاخْتَرْتُ قَرَبَ جِوارِهِ لِخْلُوصِهِ وَتَرَكْتُ كُلَّ مُمَازِقٍ^(٤) مَرَّاجِ
ما فِي زَمَانِكَ غَيْرِهِ فَاخْلُصْ لَهُ غَيبًا وَدَاهِنًا مَنْ أَرَدْتَ وَدَاجِ
لا تَحْفَلَنَّ بِغَيْرِهِ وَاسْتَغْفِيَنَّ بِوَقَارِهِ عَنِ كُلِّ غَمَرٍ مَاجِ

(١) في الأصل: «حاج» بدون ياء.

(٢) في الأصل: «وعلاج» بدون ياء.

(٣) في الأصل: «وسراج» بدون ياء.

(٤) مماذق: غير مخلص. محيط المحيط (مذق).

اثرك بني الدنيا وأعرض عنهم
 نزلت نفسي عنهم بنواله
 أصبخت من آلائه وولائه
 ولو أنني^(١) عجت الركاب ميمما
 طلق إذا احتلك الزمان أنار في
 طود الرصانة والرزانة والحججا
 وغمامه الهامي على آماله
 وهزبر أجام القنا الضاري إذا
 ضمن الإله له على أعدائه
 أبقى أبو عبد الإله محمداً
 وبني أبو إسحق قبل وصنوه
 وجرى على آثار أسلاف لهم
 ما منهم إلا أعز مبارك
 بيت بنوه من سراوة جفير
 كم كان في الماضين من أسلافهم
 أساس كل رئاسة ورؤوس كل
 أغيت نجوم الليل من سهر وما
 حتى أصارته لرحمة ربه
 وأقيم نجل أخيه بعد مقامه
 فردا يلف كتائب بكتائب
 حتى تجلى دجن كل عجاجة
 من مثل يوسف في قراع كتائب
 أو من يشق من الأنام غباره

فمساك تطعم لذة الإثلاج
 وحفظتها من جاهه بسياج
 في عزه ضحيا وعز داج
 أحدا سواه ما حيدت معاجي^(٢)
 ظلمائه كالكوكب الوقاج
 بحر الندى المتلاطم الأمواج
 من غير إزعاد ولا إزعاج
 سقطت عراتمها على الأزجاج
 ما شاء من ظفر ومن إفلاج
 ما شاد والده أبو الحجاج^(٣)
 ركننا الضعيف ومعدنا المحتاج
 درجوا وكلهم على منهاج
 مصباح ليل أو صباح عجاج
 في الذروة العلواء من صنهاج
 من رب إكليل وصاحب تاج
 لي سياسة وليوث كل هياج
 أعيأ أبو موسى من الإدلاج
 يوم العقاب وقيعة الأغلاج
 فيهم يطاعن مثله ويواج
 ويكب أفواجا على أفواج
 عنهم وأمسك رعد كل ضجاج
 ولقاء أعداء وخوض لججاج
 في رد آراء ونقض حججاج

(١) في الأصل: «ولو أنني» وكذا يتكرر الوزن، لذا جعلنا الهمزة الأصلية همزة وصل.

(٢) في الأصل: «معاج» بدون ياء.

(٣) أبو عبد الإله محمد هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، وقد تقدمت ترجمته في أول هذا الجزء من الإحاطة. والده أبو الحجاج هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر، وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

إن خاض يوماً في بيان حقيقة
 وإذا تكلم في الغريب وضبطه
 أنست قصائد جزول أشعاره
 جمع الفصاحة والصباحة والتقى
 تخشاه أسد الغاب في أجمانها
 إنا بني قحطان لم نُخلق لغير
 بُري طلى الأعراب في الهيجا وفي الد
 بسيفنا البيض اليمانية التي
 تأبى لنا الإحجام عن أعدائنا
 أنصار خير العالمين وحزبه
 وفداته بنفوسهم ونفيسهم
 هم صفوة الخلق التي اختيرت له
 إلا الألى سبقوا بباهر فضلهم
 وكفى بحكمتنا إقامة حجة
 ولنا مفاخر في القديم شهيرة
 من الثبابعة الذين ببابهم
 ولامرهم كانت تُدين ممالك ال
 من يقتدح رثداً فإن زنادهم

أنهى عن الثوري والحلاج^(١)
 لم يعبأ بالعُثبي والزجاج^(٢)
 وأرجز العجلي والعجاج^(٣)
 والوجود في وجد وفي إحراج
 والروم في الأسوار والأبراج
 بر غياث ملهوف ومنعة لاج
 أوأ سوف ثماري الأعراجي^(٤)
 طبعث لحرز غلاصم ووداج
 يوم اللقاء طهارة الأمشاج
 وحمائه في الجحفل الرجزاج
 من عذر مُغتال وسُبة هاج
 وسواهم فَمَج من الأهماج
 من سائر الأصحاب والأزواج
 وبركننا من كغبة الحجاج
 كالصُبح في وضح وفي إنلاج
 كانت تُنيخ جُباة كل خراج
 لدنيا بلا قهر ولا إحراج
 في الجود وارية بلا إخراج

(١) الثوري: هو سفيان بن سعيد الثوري، إمام علم الحديث وغيره من العلوم. توفي سنة ١٦١ هـ. وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٢٢). والحلاج: هو الحسين بن منصور، الزاهد المشهور، والمتوفى سنة ٣٠٩ هـ. الفهرست (ص ٣٢٨).

(٢) العُثبي: هو محمد بن عبيد الله بن عمرو، الذي اشتهر بالفصاحة. توفي سنة ٢٢٨ هـ. معجم الشعراء (ص ٤٢٠). والزجاج: هو إبراهيم بن محمد بن السري، النحوي، المتوفى سنة ٣١٠ هـ. بنية الوعاة (ص ١٧٩).

(٣) جزول: هو جزول بن أوس بن مالك، المعروف بالخطيئة. توفي نحو ٣٠ هـ. فوات الوفيات (ج ١ ص ٢٧٦). والعجلي: هو الأغلب بن عمرو بن عبيدة، شاعر راجز، توفي سنة ٢١ هـ. الأعلام (ج ١ ص ٢٣٥) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له. والعجاج: هو عبد الله بن روبة، راجز مجيد، توفي نحو ٥٩٠. الأعلام (ج ٤ ص ٨٦) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٤) في الأصل: «الأعراج» بدون ياء. والطلّى: جمع طلية وهي العنق. واللاواء: الشدة والمحنة. ونماري: نجادل. محيط المحيط (لأى) و(مرى).

أبوابُهُمْ مَفْتُوحَةٌ لَضِيُوفِهِمْ أَبَدًا بَلَا قُفْلٌ وَلَا مِزْلَاجٌ

ومما اشتهر من شعره قوله^(١): [السريع]

أَرْقَ عَيْنِي بَارِقٌ مِنْ أُنَالٍ كَأَنَّهُ فِي جُنْحٍ لَيْلِي ذُبَالٌ
أَنَارَ شَوْقًا فِي^(٢) ضَمِيرِ الْحِشَا وَعَبَّرْتِي فِي صَحْنِ خُدْيِ أَسَالٍ
حَكَى فَوَادِي قَلْقًا وَاشْتَعَالَ وَجَفَّنَ عَيْنِي أَرْقًا وَانْهَمَالَ
جَوَانِحَ تَلْفَحَ نِيرَانُهَا وَأَذْمَغَ تَنْهَلُ مِثْلَ الْعَزَالِ^(٣)
قُولُوا وَشَاءَ الْحُبِّ مَا شِئْتُمْ مَا لَذَّةَ الْحَبِّ سِوَى أَنْ يُقَالَ
عُذْرًا لِلْوَامِي^(٤) وَلَا عَذْرَ لِي فَرَلَّةَ الْعَالِمِ مَا إِنْ تُقَالَ
قُمْ نَطْرِدِ الْهَمَّ بِمَشْمُولَةٍ تُقْصِرُ اللَّيْلُ إِذَا اللَّيْلُ طَالَ
وَعَاطِهَا صَفَرَاءَ ذَمِيَّةٍ تَمْنَعُهَا الذُّمَّةُ مِنْ أَنْ تُنَالَ
كَالْمِسْكِ رِيحًا وَاللُّمَى مَطْعَمًا وَالتَّبَرُّ لَوْنًا وَالْهَوَى فِي اعْتِدَالٍ
عَثَقَهَا فِي الدُّنْ خَمَارُهَا وَالبِكْرُ لَا تَعْرِفُ غَيْرَ الْحِجَالِ
لَا تُثَقِّبِ الْمَصْبَاحَ^(٥) لَا وَاسْقِنِي عَلَى سَنَى الْبَرْقِ وَضَوْءِ الْهَلَالِ
فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالرَّدَى يَفْظَةُ وَالْمَرْءُ مَا بَيْنَهُمَا كَالْخِيَالِ
خُذْهَا عَلَى تَنْغِيمِ مِسْطَارِهَا^(٦) بَيْنَ خَوَابِيهَا وَبَيْنَ الدَّوَالِ
فِي رَوْضَةٍ بَاكِرٍ وَسَمِيئِهَا أَخْمَلَ دَارِينَ وَأَتَسَى أَوَالِ^(٧)
كَأَنَّ فَاَرَ الْمِسْكِ مَغْبُوقَةً^(٨) فِيهَا إِذَا هُبْتُ صَبَا أَوْ شَمَالَ
مِنْ كُلِّ^(٩) سَاجِي الطَّرْفِ الْحَاطِظَ مُفَوِّقَاتٍ أَبَدًا لِلنَّضَالِ
مَنْ عَازِرِي وَالْكُلُّ لِي عَازِلُ^(١٠) مِنْ حَسَنِ الْوَجْهِ قَبِيحِ الْفِعَالِ
مَنْ خُلْبِي الْوَعْدِ كَذَابِهِ لَيْتَانَ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ الْمِطَالِ

(١) القصيدة في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٣٨ - ٣٣٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٦ - ٣٠٨).

(٢) في أزهار الرياض: «من صميم».

(٣) أراد العزالي وهي جمع عزلاء، والعزلاء هو مصب الماء من الراوية. محيط المحيط (عزل).

(٤) في أزهار الرياض: «أغيز لوامي».

(٥) أثقب المصباح: جعل ضوءه ساطعًا. لسان العرب (ثقب).

(٦) المِسْطَار، بضم الميم وكسرهما وسكون السين: الخمرة الصارعة لشاربها. محيط المحيط (سطر).

(٧) الوسمي: مطر الربيع الأول. وأوال: الاسم القديم للبحرين.

(٨) في المصدرين: «مفتوتة». (٩) في المصدرين: «من كف».

(١٠) في المصدرين: «عاذر».

كانه الدهرُ وأي امرئ
أما تراني آخذًا ناقصًا
ولم أكن قَطُّ له عائبًا
يأبى ثراء المال علمي، وهل
وتأنف الأرضُ مُقامي بها
لولا بنو زيانَ ما لَدَّ لي الـ
همُ خوَّفوا الدهرَ وهم خفقوا
ورثت^(٤) من عامرهم سيِّدًا
وكعبةً للجود منصوبةً
خُذها أبا زيانَ من شاعر
يَلْتَفِظُ الألفاظَ لَفْظَ الثوى
مُجَارِيًا مهيار^(٧) في قوله
يبقى على حال^(١) إذا الدهرُ حال
عليه ما سوَّعني من محال؟
كمثل ما عابته قُبلي رجال
يجتمع الضُّدان: علمٌ ومال؟
حتى تهاداني ظهورُ الرجال^(٢)
عَيشُ ولا هانت عليَّ الليال
على بني الدهر^(٣) خطاه الثقال
عَمَرَ رداءَ الحَمْدِ عَمَرَ^(٥) الثوال
يسعى إليها الناسُ من كل حال^(٦)
مُسْتَمْلِحِ النَّزْعَةِ عَذْبِ المقال
وَيَنْظُمُ الآلاءَ نَظْمَ السَّلالِ
(ما كنتُ لولا طمعي في الخيال)

ومما قال أيضًا، واشتمل ذلك على شيء من نظمه ونثره، وهذا الرجل مُخَرَّبُ
النزعة، في شغف نظمه على نثره^(٨): [الكامل]

عجبًا لها أيدوق طعم وصالها
وأنا الفقيرُ إلى تَجِلَّةِ ساعةٍ
كم ذاذ عن^(١٠) عيني الكَرَى متأنف^(١١)
مَنْ ليس يطمع^(٩) أن يَمُرَّ ببالها؟
منها، وتمنعني زكاةَ جمالها
يبدو ويخفى في خفي مطالها

(١) في المصدرين: «على الدهر».

(٢) في المصدرين: «الدنيا».

(٣) في النسخ: «لقيت»، وفي أزهار الرياض: «الفيت».

(٤) في المصدرين: «جَمَ».

(٥) في المصدرين: «بال».

(٦) هو مهيار الديلمي، وعجز هذا البيت هو مطلع قصيدة [السريع]:

ما كنتُ لولا طمعي في الخيال أنشد ليلى بين طول الليال
ديوان مهيار الديلمي (ج ٣ ص ١٦٦) ونفح الطيب (ج ٧ ص ٣٣٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٠٨).

(٨) القصيدة في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٤٣ - ٣٤٤) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٢).

(٩) في المصدرين: «يأمل».

(١٠) في الأصل: «كم ذا وعن»، والتصويب من المصدرين.

(١١) في المصدرين: «متألّق».

يسمو لها بذر الدجى متضائلًا
وابن السبيل يجيء يقبس ناراها
يعتادني في النوم طيف خيالها
كم ليلة جادت به فكأنما
أسرى قعطلها^(٤) وعطل شهبها
وسواد طرته كجشج ظلامها
دغني أشم بالوهم أدنى لمحة^(٥)
ما راد طرفي في حديقة خذها
أنسيب شغري رق مثل نسيمها
وانقل أحاديث الهوى واشرخ غري
وإذا مررت برامة فتوق من
وانصب لمغزلها جبالة قانص
وأيل جداولها بفيض دموعها
أنا من بقية معشر عركتهم
أكرم بها فئة أريق نجيها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم
بلغت بهزيم غاية ما نالها
وعدت على سقراط صورة^(٦) كأسها

كتضاؤل الحسناء في أسماها^(١)
ليلاً فتمنح عقيلة مالها^(٢)
فتصيبني ألحاطها بنبالها
رقت علي ذكاء^(٣) وفت زوالها
بأبي شذا المغطار من مغطالها
وبياض غرته كضوء هلالها
من ثغرها وأشم مسكة خالها
إلا لفشتته بخسن دلالها
فشمول راحك مثل ربح شمالها
ب لغاتها وأذكر ثقات رجالها
أطلالها^(٧) وتمش في أطلالها
ودع الكرى شركاً لصيد غزالها
وانضح جوانحها بفضل سجالها
هذي الثوى عرك الرحي بثقالها^(٨)
بغيا فراق العين حسن جمالها^(٩)
فإن انتشوا فيخلوها وخالها
أحد وناء بها لبعيد منالها
فهريق ما في الدن من جزيالها

(١) أخذه من قول أبي تمام [الكامل]:

كُيِّبَتْ مَبَائِبُ لَوْمٍ فَتَضَاعَلَتْ

ديوان أبي تمام (ص ١٣٤).

(٢) عقيلة المال: أكرمه. محيط المحيط (عقل). (٣) ذكاء: اسم الشمس. محيط المحيط (ذكور).

(٤) في الأصل: «أسرى قعطرها وعطل شهبها يابى...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٥) في المصدرين: «لمحة».

(٦) الأطلال: جمع طلا وهو ولد الظبية. لسان العرب (طلا).

(٧) في الأصل: «بثقالها» والتصويب من المصدرين. وهنا يعتمد الشاعر على قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

فتعرككم عرك الرحي بثقالها

المعلقات العشر (ص ١٢٢).

(٨) في المصدرين: «مالكها».

(٩) في المصدرين: «سورة».

وسرّت إلى فاراب منها نفحةً
ليصوغ من الحانه في حانها
وتعلقت^(٢) في شهروزد^(٣) فأشهرت
فخبا شهاب الدين لما أشرق
ما جن مثل جنونه أحد ولا
وبذت على الشوذى^(٥) منها نفحة^(٦)
بطلت حقيقته وحالت حاله
هذي صبابتهم ترق صباية
اعلم أبا الفضل بن يحيى أننى
فإذا رأيت مؤلها^(٩) مثلي فخذ
لا تغجب لما ترى من شأنها
فصلاحها بفسادها ونعيمها
ومن العجائب أن أقيم ببلدة
شغلوا بذنياههم أما شغلهم
حجبوا بجهلهم فإن لاحث لهم
وإن انتسبت فإننى من دوحه
من جنير من ذي رعين من ذرى^(١٢)
وإذا رجعت لطينتي معنى فما

قُدسيّة جاءت بنُخبه إليها^(١)
ما سوغ القسيس من أزمالها
عينًا يورقها طروق خيالها
وخبا^(٤) فلم يثبت لنور جلالها
سمحت يد بيضا بمثل نوالها
ما لاح منها غير لمعة آله
فيما يعبر عن حقيقة^(٧) حالها
فيروق شاربها صفاء زلالها
من بعدها أجري على آسائها^(٨)
في عدله إن كنت من عدائها
في حلها إن كان أو ترحالها
بعذابها ورشادها بضلالها
يومًا وأسلم من أذى جهالها
عني فكم ضيغت من أشغالها
شمس الهدى عبثوا^(١٠) بضوء دبالها
تتقيل^(١١) الأقيال بزد ظلالها
خجر من العظماء من أقيالها
سلسألهم^(١٣) بأرق من صلصالها

(١) إشارة إلى الفارابي الفيلسوف وقدرته في الموسيقى.

(٢) في المصدرين: «وتغلغلّت».

(٣) هنا إشارة إلى الشهروزدي المتصوف.

(٤) في المصدرين: «وخوى».

(٥) الشوذى: هو الشيخ أبو عبد الله الحلوي، أحد فقهاء مرسية، والشوذية طريقة صوفية تشبه طريقة ابن عربي، إلا أنها أكثر إيجابية.

(٦) في المصدرين: «نشوة».

(٧) في الأصل: «حقيقته» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٨) من هنا حتى آخر القصيدة غير وارد في نفع الطيب. وفي أزهار الرياض: «أحرى على آمالها».

(٩) في أزهار الرياض: «مذلها».

(١٠) في الأصل: «عشوا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(١١) في أزهار الرياض: «ينقيا الإنسان بزد...» (١٢) في الأزهار: «ذري».

(١٣) في الأزهار: «سلسألهم».

لله درك أي نجل كريمه
 ولأنت لا عديمك والد فخرها
 اغلظ على من عات من أنذالها
 والبس بما أوليتها من نعمة
 خذها أبا الفضل بن يحيى تحفة
 ما جال في مضمارها شعز ولا
 وإبل أبا البركات من بركاتهما
 ولدته فاس منك بغد حبالها^(١)
 وسماك سؤددها وبذر كمالها
 واخشع لمن تلقاه من أبدالها
 حلل الثناء وجز من أذبالها
 جاءك لم ينسج على مئوالها
 سمحت قريحه شاعر بمثالها
 واذفع محال شكوكه بمحالها^(٢)

هذه، أمتع الله ببقائك، وأسعد بلفائك، وأراها بما تؤمله من شريف اعتنائك، وترجوه من جميل احتفائك، ما تعرف به من احتذائك، وتعرف له ببركة اعتفائك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقبال، ومقصورة الأسيرة والحجال، بل أسيرة الأساوير والأخجال، على أنها حليفة آلام وأوصاب، واليفة أشجان وأطراب، صباة أغراب من صباة أعراب، جاوزت سيف بن ذي يزن في رأس غمدان، وجاوزت مسلمة بن مخلد يوم جابية الجولان، ودلقت لسان ابن أخته حسان، فتضاءلت لرقه حذو جسم بني عبد المدان، وقرية وما شيم من غمده قيد ابن الإطنابة بين يدي الثعمان، قربت ببني جفنة مزار جلق، وسعرت لبني تميم نار مخلق، ومرت على معتاد غالب فما أنست ناره، وطأنت بيت عبد الله بن دارم فلم ترض جواره، ولو حلت بقتائه، واستحلت ما أحل لها من مبدول جباهه، لاغفر لها ما جنته بيطن أواره، ولحلت لها حبوتا مجاشع وزراره، مزقت على مزيقها خللا، وأذهبت يوم حليلة مثلاً، وأركبت عنزا شرب يومها يجذع جملاً، وناطت بأذن مارية قزطها، وجزت على أثر الكندي مزطها، وقفها بين الدخول فحومل فوقفت، وأنفها يوم دارة جلجل فأنفت منه وما ألقت، عقر ناقته وانتهس عبيطها، ودخل جذر عتيزة وأمال عبيطها. أغرت أبا قابوس بزياد، وأسرجت للزبيدي فرس أبي داود ونافرت بحاتم طي كعب إياد، وساورت للمساور، بمثل جوده السائر. ولئن بلت الجعفري ليبدأ، فلقد استعبدت الأسدي عبيداً، وقطعت به في أثر سليمان الأسدي بيذاً، أرتة المنية على حربة هندها المملحوب، وما حال قريضه، دون جريضه، وأقفر من أهله ملحوب، وما زالت تخبط في شعاب الأنساب فترشد، وتثشد ضالتها اليمانية، فتشدد:

[الكامل]

إن كنت من سيف بن ذي يزن فانزل بسيف البحر من عدن

(١) في الأزهار: «حيالها».

(٢) في الأزهار: «من أكلها».

وَذَرِ الشَّامَ وما بناه به الرُّومِيُّ من قصر ومن قَدَنٍ

تعلف سَيْلُ العِرم وتردغسان، وتمهد لها أهضام تباله فتقول: مَرْعَى ولا كالسَّغْدَان^(١)، تساجل عن سَمِيحة بابن خُرام، وتناضل بسمير يوم خُرام، وتَنسَى قاتل ستة آلاف، وكاسي بيت الله الحرام ثلاثة الأفواف، فلو ساجَلَتْ بَنبُعها أبا كَرْب، وأرته ضراعة خذها الثَّرب، لساجَلَتْ به أخضر الجلدة في بيت العرب، ماجدًا يملأ الدُّلو إلى عَقْد الكَرْب، بل لو حطت بفناء بيتها الحجري رَحْلها، وساجلت بفناء جَدِّها ذي رُعين لاستَوَفَّت سجلها. كم عاذت بسيفها اليَزَنِي، فأدركت ذحلها، ولاذت بركنها اليميني، فأَجْزَل محلها، ولو استسقت بأوديتها لأذهبت مَحْلها. كافحت عن دينها الحنيفي، فما كُهم حُسامها، ونافَحَتْ عن نبيها الأُمِّي فأيدت بروح القدس سهامها. سَدَّت باب الدرب دون بني الأصْفَر، وشَدَّت لموته ثوب موت أحمر، وما شَغَلها كَسْرُ تاج كِسْرَى عن قَرْع هامة قَيْصَر. ولقد حَلَّت من سنام نسبها اليعربي باسمك ذُرْوَة، وتعلَّقت من ذمام نبيها العربي بأوثق عُزْوَة. تفرَّد صاحب تيماء بأبْلَقه الفرد فعزَّز، وتمرَّد ربُّ ذُؤمة الجَنْدَل لما كان من مارد في جِرْز، فما ظنك، أعزك الله، بمن حلَّ من قُدسي عقله، بِمَعْقِل قُدس، يُطار إليه فلا يُطار، وراذ من فردوس أدبه في جنة لا يُضام راثها ولا يُضار. زها بمجاورة المُلك، فازدهى رؤساء الممالك، وشَغِف بمجاورة الملك، فاشتغل عن مطالعة المسالك، أَيْشَقُّ غُبَّاره، وعلى جبين المرزم مَناره، أو يُنتَهك ذماره، وقلْبُ الأسد بيته ودار أخيه أسامة زاره. ولما قَضَتْ من أنديتها العربية أوطارها، واستَوَفَّت على أشرف منازعها الأدبية أطوارها، وعَطَّرت بنوافح أنفاسها الذُكِيَّة آثارها، وأطلعت في ظَلَم أنفاسها الدُّجُوجية كواكبها النيرة وأقمارها، عطفَت على مَعْقِلتها الشاذلية فحلَّت عِقَالها، وأمر لها فراق الوطن فلما استمرَّ لها حلالها، استودعت بطنان تباله أَلها، وتركت أهضامها المُخَصِّبة وحلالها، أطلَّت على دارات العرب فحيت أطلالها، ودعت لزيارة أختها اليونانية أدواء جَمِير وأقبالها. أطمعتها بلمعية ألمعيَّتها الأعجمية، ومثلها يُطمع، وجاء بها من قُدماء الحُكماء كلُّ أوْحدي الأحوذية، فبانت تخبُّ إليه وتوضع، باحثة عن مركز دارتهم الفيشاغورية، آخذة في إصلاح هيئتهم الإنكساغورية، مؤثرة لما تدلَّ عليه دقائق حقائق بقايا علوم مقاييسهم البرهانية، وتشير إليه رموزُ كنوز وصايا علماء نواميسهم الكَلْدَانِيَّة، من ماثور تأثير لاهوتية قواهم

(١) «مَرْعَى ولا كالسَّغْدَان» مثل، والسَّغْدَان: نبت ذو شوك كأنه قلْكة، ينبت في سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٢٧٥) ولسان العرب (سعد).

السيماوية، رغبةً فيما يُفاض على مادتها الجُسمانية، ويطراً على عاقلِيَّتِها الهَيولانية، من عُلُويّات آثار مواهبها الربّانية، موافقةً لمثلهم المفارقة أفضل موافقة، موافقةً لما وافق من شوارد آرائهم المُوافقة أحسن موافقة. وتحت هذه الأستار مُخَذّرات أسرار أضرب بها الإسرار، وطالما نكر معارفها الإنكار، ونقلت من صدور أولئك الصدور إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فلسفِيّات معاني علومهم الرُّقّاق. وفي تلك المغاني، أبكار معاني، سكن الجوانح والصدور، بدل الأرائك والخدور، ولحن في دياجي، ظلّم هذه الأحاجي، كاقمار في أطمار بهّزن وما ظهّزن، وسَطّغن وما لَمغن، فَعَشِقْن وما زَمغن، واستَمَلَحْن وما لَمغن. أدزن خمور أجفانهم، على ماخوريّات الحانهم، فهيجت البلبل، نغم هذه البلبل، واستقرّغته الأكياس، مُترعات تلك الأكواس. ما سخرُ بابل، كخمر بابل، ولا منتقى أغانيهن الأوائل، كحمانمكم الهَوّادل، إن وصلت هديلاً بحفيف، وصلن ثَقِيلهن بحفيف. إيه أيها الشُمري المشمعل، دعنا من حديثك المُضْجَل، سيز بنا أيها الفارس النُّدس^(١)، من حظيرة النّفس، إلى حضرة القُدس، صرّح بإطلاق الجمال، وجُلّ من عالِيَّتِكَ المَلَكُوتية في أفسح مجال، تَمْش بين مقاصر قُصورها، ومعاصر خمورها، رخي البال، مرخي السريال، فما ينسج لك على منوال، نادّم عليها من شَغَف دَن سُقراط، إن استَحَسَنَتْ لها جِسان فما يَضْلُح لك صالح بن علاط، بت صريع مُحَيّاها فقد أَوْصَتْ بمعالجة عفير مُعاقرة عُقارها بقراط، لا تخش صاحب شُرطتها فلا شَرَط له عليك ولا اشتراط، ما لك غير مبديك الأول، من قال امْتِثِل الأمر وما عليك من أمر وال. على رِسلِك ما هذا العَجَل، لا خطأ تتوقعه ولا حَظَل، أمكّره أنت في هذه الكريهة، أم بَطَل. لو علّم أنك ضبارية هذا الخميس، وخبعتة ذلك الخميس، لما عانى اليم رسيس، شوقاً إليك محمد بن خميس، على أن لا غالب اليوم لأنّي غالب، ولا طالب يُدْرِك شأو هذا الطالب، ففّة بلا تفهق، وجذّق في تَحَذُّق. أقسم أبا الفضل بما لك على أبي البركات من الفضل، ذلك العراقي الأرومة، لا هذا الفارسي الجرثومة، وإن يك ذلك، إسرائيلي الأصل، وهذا إسماعيلي الجنس، عُلوي الفضل. فلتلك الذات، شرف تلك الأدوات. قدّم لي غالبنا المذكور، من بأسه العُرّ لأرفع وأسمى من مقعد رقوطيهم المشهور، من إغَرناطة الحَمراء، ومن مُتَبَوِّأ أبي أميَّتهم المرحوم من جنات جزيرتهم الخضراء، فيما لنت أبا الفضل من هذه العريجة، والوك، أرايت في عمرك مثل هذا الصعلوك؟ لا والله ما على ظهر هذه الغبرا، مَن يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غبرا. فأي

(١) الفارس النُّدس: السريع في الطفن. لسان العرب (ندس).

شيء هذا المنزع؟ إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، من يضحك على هذا الطيش. ما هذا الخبل، أخمار بك أم ثمل؟ ارجع إلى ما كنت بضدّه وقيت الزلل، خذ في الجدّ فما يليق بك الهزل، رقّ عن ذلك فحكّ لنا منه أرقّ غزل، ماذا أقول؟ وأي عقل يطاوعني على هذا المعقول؟ أفحمتني، والله، عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم ما لكم عليّ في دنياكم هذه من الإحن. إن تكلمت كلّمت، وإذا استعجمت عجمت. أما لهذه العلة آس، أم على هذه الفيلة مواس؟ ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي؟ أما يلين لضعفي، أما يرقّ قلب زمانكم القاسي؟ ما هذه الدمن، يا بني خضراوات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظهر الميّن^(١). إن مرّ بكم الولي حمّتموه، وإن زجركم العالم فجّرتم عليه فسفّتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم غصبتم به، فكفّرتموه وزندقتموه. كونوا فوضى، فما لكم اليوم مسرى سواه واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث شئتم، فقد أهملكم الرعاة. ضيعتم النص والشرائع، وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع. نفقتم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق. استضعفتم الكبار، وأبختم الصغار، أين غنيكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر؟ أين عالمكم الماهر، يرشد متعلّمكم الحائر. مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء. جرّد لنا شريعتك يا أفضل الشارعين، أتمّ فيها موعظتك يا أفصح التابعين. لا، والله، ما يوقظكم من هذا الوسن، وغظ الحسن، ولا ينقذكم من فتن هذا الزمن، إلّا سيف معلّمه أبي الحسن، والسلام.

قدم غرناطة في أواخر عام ثلاثة وسبعمائة. وتوفي في يوم مقتل صاحبه الوزير أبي عبد الله بن الحكيم؛ فرّ من دهليز جاره فيمن كان بها من الأعلام، بعد أن نهبت ثيابه، حسبما جرى على غيره من الحاضرين، وهو يقول: هكذا تقوم الساعة بقتل. ولقيه بعض قرابة السلطان، ممن كان الوزير قد وثّره، فشرع الرّشح إليه، فتوسّل إليه برسول الله، فلم يقبل منه، وطعنه، فقتله يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعمائة، وآخر العهد به، مطرّحاً بالعراء، خارج باب الفخارين، لا يُعلم قبره؛ لمكان الهرج في تلك الأيام، نَسأل الله جميل ستره، وساء بأثر قتله إياه حال ذلك الرجل وقسّد فكره، وشرّد نومه وأصابته علّة رديّة، فكان يثب المرة بعد الأخرى، يقول: ابن خميس يقتلني، حتى مات لأيام من مقتل المذكور.

(١) أخذه من المثل: «قلب له ظهر الميّن»، وهو يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٠١).

محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكشي^(١)

يكنى أبا عبد الله.

حاله: كان فاضلاً، متخلقاً، أديباً، شاعراً، صوفياً، جميلَ العشرة، حسنَ الخلق، كريمَ العهد، طيبَ النفس. كتب عن الأمراء بإفريقية، ونال حظوة، ثم شَرِقَ وحجَّ، ولقي جلَّة، ووصل الأندلس عام ثمانية عشر وسبعمئة، فلقي بغرناطة حفايةً، وأنسَحَبَتْ بها عليه جِراية، ثم انصرف إلى وطنه، وناله به اعتقال، ثم تَخَلَّصَ من الثَّكْبَةِ، وأقام به، يُزجى وقته إلى آخر عمره.

وجرى ذكره في «الإكليل الزاهر»^(٢): كاتِبُ الخلافة، ومُشَفِّعُ الأدب المُرْزِي^(٣) بالسُّلافة، كان، يرحمه الله، بطلَ مَجَال، وربُّ رويةٍ وارتجال، قدَّم على هذه البلاد وقد نَبَا به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عَطَنه، فتلَوَّم بها تلَوَّم النسيم بين الخمائل، وحلَّ بها^(٤) محلَّ الطَّيف من الوشاح الجائل، ولَبِث مدة إقامته تحت جِراية واسعة، وميرة^(٥) يانعة. ثم آثر قُطْره، فولَّى وجهه شَطْره، واستقبله دهره بالإنباء، وقلَّده خُطَّةَ الكتابة، فاستقامت^(٦) حاله، وحُطِّت رِحالُه. وله شعر أنيق، وتصوُّف وتحقيق، ورحلته^(٧) إلى الحجاز سببها^(٨) في الخبر وثيق، ونسبتها^(٩) في الصالحات عريق.

شعره: نقلت من خطِّ الوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين، مما قَيَّدَ عنه، وكان خبيراً بحاله^(١٠): [الطويل]

رَضَى نَلَبَ ما تَرْضِين^(١١) من كلِّ ما يَهْوَى فلا تُوقِفِينِي^(١٢) موقفَ الذلِّ والشُّكْوَى
وصَفَّحًا عن الجاني المسيء لنفسه كفاه الذي يَلْقَاه مِن شِدَّةِ البَلْوَى

(١) ترجمة محمد بن عمر المليكشي في نيل الابتهاج (ص ٢٣٧) والدرر الكامنة (ج ٤ ص ٢٢٦) ورحلة البلوي (الورقة ٢٢) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥). (٣) في النفع: «الذي يزري».

(٤) في المصدر نفسه: «منها».

(٥) في الأصل: «وميرة» والتصويب من نفع الطيب.

(٦) في الأصل: «واستقامت» والتصويب من نفع الطيب.

(٧) في النفع: «ورحلة». (٨) في النفع: «سببها».

(٩) في النفع: «ونسبها». (١٠) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥).

(١١) قوله: «ما تَرْضِين» ساقط في الأصل، وقد أضفناه من نفع الطيب.

(١٢) في الأصل: «فلا توقفني» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

بما بيننا من خلوة معنوية
 قفي أتشكى لوعة البين ساعة
 قفي ساعة في عرصة الدار وانظري
 وكم قد سألت الريح شوقاً إليكم
 فيا ريح، حتى أنتِ بمن يغار بي
 خلقت ولي قلب جليد على الثرى

وحدث^(٦) بعض من عني بأخباره، أيام مقامه بمالقة واستقراره، أنه لقي ليلة^(٣)
 بباب الملعب من^(٤) أبوابها ظبية من ظبيات الإنس، وفئة من فتن^(٥) هذا الجنس،
 فخطب وصالها، وأتى بفؤاده نصالها، حتى همت بالانقياد، وانعطفت انعطاف الغصن
 المياد، فأبقى على نفسه وأمسك، وأنف من خلع العذار بعد ما تنسك، وقال^(٦):
 [الكامل]

لم أنس وقفتنا بباب الملعب
 وعدت فكنت مراقباً لحديثها
 وتذلل^(٧) فذللت بعد تعزُر
 بدوية أبدى الجمال بوجهها
 تدنو وتبعد نفرة وتجنياً^(٩)
 ورئت بلحظ فاتر لك فاتن^(١١)
 وأرتك بابل سخرها بجفونها
 وتضاحكت فحككت بنير ثغرها
 بمنظم في عقد سيمطي جوهر

بين الرجا والياس من متجئب
 يا ذل وقفة خائف مترقب
 يأتي الغرام بكل أمر معجب
 ما شئت من خد شريك^(٨) مذهب
 فتكاذ تحسبها مهة الرئرب^(١٠)
 أنضى وأمضى من حسام المضرب
 فسبت، وحق لمثلها أن تستبي^(١٢)
 لمعان^(١٣) نور ضياء بزق خلبي^(١٤)
 عن شبه نور الأقحوان الأشنب

(١) في النفع: «علي».

(٢) النص والقصيدة البائية في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٥ - ٣٧٦).

(٣) كلمة «ليلة» ساقطة في النفع.

(٤) في الأصل: «في» والتصويب من النفع.

(٥) في النفع: «وقينة من قينات...».

(٦) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٦).

(٧) في الأصل: «وتذلل» والتصويب من النفع.

(٨) الشريك: المشرق. لسان العرب (شرق).

(٩) في الأصل: «وتجنياً» والتصويب من النفع.

(١٠) المهة: البقرة الوحشية. والريوب: القطيع من بقر الوحش. لسان العرب (مها) و(ريوب).

(١١) في النفع: «بلحظ فاتن لك فاتر».

(١٢) في الأصل: «لمعان» والتصويب من النفع.

(١٣) في الأصل: «لمعان» والتصويب من النفع.

(١٤) البرق الخلب: المطيع المخلف. محيط المحيط (خلب).

وتمايلت كالغصن أخضله الندى^(١) رَيَّانَ من ماء الشبيبة مُخْصِب
تُفْنِيهِ أرياح^(٢) الصُّبابةِ والصُّبا فتراه بين مُشْرِقٍ ومُغْرَب
أَبَتْ الرُّودف أن تَمِيلَ بِمِيلِهِ فَرَسَتْ وِجَالَ كَأَنَّهُ فِي لَوْلَب
مُتَوَجِّجًا بِهَلَالٍ وَجْهِ لَاح فِي خَلَلِ السَّجُوفِ^(٣) لِحَاجِبٍ وَمُحَجَّب
يَا مَنْ رَأَى فِيهَا مُحِبًّا مُغْرَمًا لَمْ يَنْقَلِبْ إِلَّا بِقَلْبٍ قُلُوبَ
مَا زَالَ مَذْ وَلَّى بِحَاوِلٍ حِيلَةً تُذْنِيهِ مِنْ نَيْلِ الْمُنى وَالْمَطْلَبِ
فَأَجَالَ نَارَ الْفِكْرِ حَتَّى أَوْقَدَتْ فِي الْقَلْبِ نَارَ تَشْوِيقٍ وَتَلْهَب
فَتَلَقَّتِ الْأَرْوَاحُ قَبْلَ جَسْمِهَا وَكَذَا الْبَسِيطُ يَكُونُ قَبْلَ مَرْكَبِ

ومن مقطوعاته البديعة، مما سمع منه بغرناطة، حرسها الله، أيام مقامه بها قوله^(٤): [الطويل]

أرى لك يا قلبي بقلبي محبةً بَعَثْتُ بِهَا سِرِّي إِلَيْكَ رَسُولًا
فَقَابِلُهُ بِالْبُشْرِ^(٥) وَأَقْبِلْ عَشِيَّةً فَقَدْ هَبَّ مِنْكَ^(٦) لِلنَّسِيمِ عَلِيلًا
وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْقَطْرِ أَوْ بِلَلِ الْندَى فَأُخَسِّنْ مَا يَأْنِي النَّسِيمُ بَلِيلًا

ونقلت من خط الفقيه القاضي أبي جعفر الرُّعَيْنِي، مما أملاه عليّ بمنزله بغرناطة، قال: وحضرت في عام ثلاثة عشر وسبعمائة، يوم إحرام الكعبة العلية، وذلك في شهر ذي القعدة على اصطلاحهم في ذلك، وصِفْتُه أَنْ يَتَزَيَّنَ سَدَنَةُ الْبَيْتِ مِنْ شَيْبَةٍ بِأَحْسَنِ زِيٍّ، وَيَعْمَدُوا إِلَى كُرْسِيٍّ يَصُلُّ فِيهِ صَاعِدُهُ إِلَى ثَلَاثِ الْكُسُوفِ، وَيَقْطَعُهَا مِنْ هُنَالِكَ، وَيَبْقَى الثَّلَاثَانِ إِلَى الْمَوْسَمِ، وَهُوَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ عِنْدَ سُكَّانِ الْحَرَمِ، يَحْتَفِلُ لَهُ، وَيَقُومُ الْمُنْشِدُونَ أَدْرَاجَ الْكَعْبَةِ يَنْشُدُونَ. فقلت في ذلك: [الطويل]

أَلَمْ تَرَهَا قَدْ شَمَّرَتْ تَطْلُبُ الْجَدَا وَتَخْبِرُ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ بَلَغَ الْحَدَا؟
فَجَدْتُ كَمَا جُدْتُ إِلَيْهَا وَشَمَّرَ عَنْ السَّاعِدِ الْأَقْوَى تَنَلُّ عَنْدَهَا سَعْدَا
طَوْتُ بُزْدَهَا طَيِّ السَّجَلِ كُنَايَةً لِأَمْرِ خَفِيِّ سِرِّهِ طَوْتُ الْبُزْدَا
وَأَنْدَثُ مُحَيَّاها فَحَيِّي^(٧) جَمَالَهُ وَقَبَّلْ عَلَى صَوْتِ الْمُقَى^(٨) ذَلِكَ الْخَدَا

(١) أخضله الندى: بلّله. لسان العرب (خضل). (٢) في النفع: «أرواح».

(٣) في النفع: «السحاب».

(٤) في النفع: «بالشهر» والتصويب من النفع. (٥) في الأصل: «مسكي» والتصويب من النفع.

(٦) في الأصل: «فحيا».

(٧) في الأصل: «المقلة» وكذا لا يستقيم الوزن، والمُقَى: جمع مُقْيَةٍ وهي المأق. لسان العرب =

فكم سَتَرَتْ سَوْدُ البُرودِ جمالها
وكم خال ذاك الخال عما مُقْصِر
لقد سَفَرَتْ عن وجهها الكعبة التي
وقالت ألا أين مُكَلَّلِي، قصدوا إلى^(٣)
فلبَّت لها العشاق من كل جانب
فمن نَدِبَ أشقى على تلفٍ ومن
ومن ساهر على النجوم ولم يَذُقْ
يسائل عن بدرٍ وبدرٍ تجاهه
ومن مُسْتَهَامٍ لا يقرُّ قراره
يُقَلِّبُ قَلْبًا بين جنبيه موريا
إذا ما حدا حادي الرُكَّاب ركابه
أحد بها إن أنت جئت بها مئى
ولا خوف هذا الخَيْفُ^(٥) والتربة التي
وفي عرفاتٍ فاعترف وانصرف إلى
وإن كنت من أوفى العبيد جرائم
لئن صدقت فيك الوعيد جرائم
وعُدَّ مفضيًّا للبيت طُفَّ واستلم وقم
وزد في الثنا والحمد والشكر واجتهد
وعج نحو فرض الحب وأقضى حقوقه

وغطته لكن عن سننها الرمدا^(١)
عن العلم بالأنساب لا يعرف الحدا
لها الحَجَرُ^(٢) المَسْنِي في حُسْنها المُبْدَا
جمالي فقد أبدى الحجاب الذي أبدا
يؤمنونها يستقربون لها البُعْدَا
مُحِبٌّ على قربٍ يهيم بها وَجْدَا
بعينه طعم النور أو يبلغ القصدا
كذاك^(٤) اشتراك اللفظ قد ينغص الخدا
كأن به من حرٍّ أشواقه وَقْدَا
أوار الأسى فيه فتحسبه زُنْدَا
كأن قلوب الراكبين له نَجْدَا
ونلت المنى والأمن فانزل وزد وزدا
سرت بهما^(٦) قد عَيْن المصطفى عدا
مشاعر^(٧) فيها يرحم المالك العَبْدَا
فَحَسَنُ نبيل العقد من ربك العَقْدَا
فعفوا جميل^(٨) الصفح يصدقك الوعدا
بها للمقام الرحب واسجد وكُن عبدا
فمن عَرَفَ الإحسانَ زادته حمدا
وزر قَبِرَ مَنْ أولاك من هذيه رُشْدَا

قال: وكنت في زمن الحداثة، أفضل الأصيل على السُخر، وأقول فيه رقة
المودع ورقة المعتذر. فلما كان أوان الأسفار، واتصلت ليالي السير إلى أوقات

= (مقي).

- (١) عجز هذا البيت مختل الوزن والمعنى معًا.
- (٢) كلمة «الحجر» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.
- (٣) صدر هذا البيت مختل المعنى والوزن معًا. (٤) في الأصل: «كذلك» وكذا يتكرر الوزن.
- (٥) الخَيْف: غُرَّة بيضاء في الجبل الأسود الذي هو خلف جبل أبي قبيس، وبها سمي مسجد الخَيْف. محيط المحيط (خيف).
- (٦) كلمة «بهما» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.
- (٧) المشاعر: مناسك الحج، مفردا مَشعر. محيط المحيط (شعر).
- (٨) في الأصل: «الجميل» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

الأسحار، رأيت أفق الشرق أشرق، ووجدت القائل بفضل السحر أصدق، فابتدأت راكبًا، فلما جئت لذكر الجنب العلي النبوي، أتممت ماشيًا، وأنا في رملة بين مصر وعقبة إيله، وقلت: [البسيط]

ما أحسن الأفقَ الشرقيَ إسفاراً
إذا بدا سارت الأظعانُ هاديةً
يجلو غياهب ليل طالما سدلت
ونمّ منه نسيم ثم ذا بعد
سرت سحيراً فبرت سِرّ ذي سحر
سرت ببيانات أكناف اللوى فعدت
طابت بطيبة أرواح معطرة
كأنما قلّق الإصباح حين بدا
حقى بدث وتبدث حسن صورتها
كانه دعوة المختار حين بدث
من نوره كل نور أنت تُبصره
هدا به الله أقواماً به سعاداً^(١)
هو الشفيع الذي قالت شفاعته
هو العفو^(٢) عن الجاني وإن عظمت
هو الكريم الذي ما ردّ سائله
هو الحبيب الذيلقى محبته
أحبّه كل مخلوق وهام به
وانشقّ بدر الدجى من نور عُزته

فكم هذا في دجى الإدلاج أسفاراً
له وصارت به الظلماء أنواراً
على المحبين في الظلماء استارا
على أحاديث كانت ثم أسراراً
أهدت له ريح من يهواه معطاراً
كان دارن قد أصبحت داراً
بها فأصبح أفق الشوق عطّاراً
خذّ وبهجة^(٣) حسن الشمس قد وارى
فعمّت^(٤) الأرض أنجاداً وأغواراً
دانت لها الخلق إعلناً وإصراراً
ونوره زاد للأبصار^(٥) إبصاراً
لولاه كانوا مع الكفر كُفّاراً
للمؤبّقين ألا لا تدخلوا الثارا
من المسيء ذنوب كان غفّاراً
يومًا ولو كرّر التّسأل تكراراً
في كل قلب فقلبي نحوه طاراً
حتى الجمادات أحجاراً وأشجاراً
وانهلّت السُخب من كفيه أنهاراً

ومن مقطوعاته، قال: ومما نظمته في ليل السرى، وتخيل طيف الكرى، مبدأ قصيد قصده، أي معنى أردته، أشغل عنه ما بي منه: [الخفيف]

منع الهجر من سُلّيمي هجوعاً فانثنى طبعُها يريدُ الرُّجوعاً

(١) في الأصل: «خدر بهجة» وكذا لا يستقيم الكلام ولا الوزن.

(٢) في الأصل: «فعمّت» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٣) في الأصل: «الأبصار» وكذا يتكرر الوزن. (٤) في الأصل: «سعداء» وكذا يتكرر الوزن.

(٥) العفو، بفتح العين وضَمّ الفاء: العافي الكثير العفو. محيط المحيط (عفا).

بَعَثْتُهُ لَيْلًا يُعَلِّلُ قَلْبًا مُسْتَهَامًا بِهَا مُجِبًّا وَلَوْعَا
 لَمْ يَجِدْ غَيْرَ طَرَفٍ جَفْنٍ قَرِيحٍ شَاخَصًا نَحْوَهَا يَذُرُّ الدُّمُوعَا
 وَكَتَبَ إِلَى صَدِيقِهِ شَيْخِنَا أَبِي بَكْرٍ مِنْ شَبْرِينَ مِنْ بَجَايَا، وَهُوَ مَعْتَقِلٌ بِقَصَبَتِهَا،
 وَقَدْ امْتَحَنَهُ بِذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ: [الخفيف]

شَرَحُ حَالِي لِمَنْ يَرِيدُ سَوَالِي إِنِّي فِي اعْتِقَالٍ مَوْلَى الْمَوَالِي^(١)
 مُطْلَقُ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَهُوَ لِلْعُطْفِ وَالْجَمِيلِ مُوَالٍ
 لَا أَرَى لِلْوَلَاةِ فِيَّ احْتِكَامًا وَلِيَّ مَالٍ عَلَى كُلِّ وَالٍ
 أُرْتَجِي بِالصَّابِ تَكْفِيرَ ذَنْبِي حَسْبَمَا جَاءَ فِي الصُّحَاكِ الْعَوَالِي^(٢)
 لَا تَدُومُ الدُّنَا وَلَا الْخَيْرُ فِيهَا وَكَذَا الشَّرُّ ذَا وَذَا لِلزُّوَالِ
 فَاعْتَنِمْ سَاعَةَ الْوَصَالِ وَكَمْ مِنْ مُحَنَةٍ وَهِيَ مَنَحَةٌ مِنْ نَوَالٍ
 فَإِذَا غَبَتْ عَنْكَ فَاحْضِرْ تَجِدْهَا لِلْجَوَابِ الْمَفِيدِ عَنِ السُّوَالِ^(٣)
 فَهِيَ نُورُ النَّهَارِ^(٤) وَالنُّورُ مِنْهَا وَهِيَ الْأَنْسُ فِي اللَّيَالِي الطَّوَالِ
 فَاسْتَدِينْهَا تَذُمُّ وَلَا تَضْجُ مِنْهَا وَأَذْرِهَا عَلَى الْيَمِينِ وَوَالٍ

فَإِنَّ الْكَأْسَ مَجْرَاهَا عَلَى الْيَمِينِ، وَمَسْرَاهَا لَفِي الصَّبْحِ الْمُبِينِ، تَغْنِي عَنْ
 الْإِصْبَاحِ وَالْمُصْبَاحِ، وَتُذْنِي لَهُمْ مَعْنَى النُّورِ الْمَشْرِقِ فِي الْوُجُوهِ الصُّبَاكِ، وَتَجْرِي فِي
 الْأَشْبَاحِ، فَتَسْرِي فِي الْأَرْوَاحِ. وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ طَوِيلَةٌ، فِيهَا كُلُّ بَدِيعٍ مِنْ نَظْمٍ وَنَثَرٍ.

فَأَجَابَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الخفيف]

أَرْغَمَنْ هَذِهِ الْقَيُودُ الثَّقَالِ رَبُّ وَدِّ مَصِيرُهُ لِلتُّغَالِي^(٥)
 طَالَ صَبْرِي عَلَى الْجَدِيدِينَ حَتَّى كَذَبْتُ مِمَّا لَقِيتُ أَنْ يُشْفَقَا لِي^(٦)
 إِنَّ بَعْضَ الرِّضَا لَدِيهِ فَسِيحٌ أَيْ مَدَّ^(٧) بِهِ وَأَيُّ ابْتِقَالٍ
 حَاشَ اللَّهُ أَنْ أَكُونَ لِشَيْءٍ شَادَهُ الصَّانِعُ الْقَدِيمُ بَغَالٍ
 إِنْ عِنْدِي مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ لِأَمَانِي لَمْ يُمْلِهِنَّ الْقَالِي^(٨)
 يَا إِمَامِي الَّذِي بَوَّذِي لَوْ أَمَّ كُنْ تُضْلِي^(٩) إِلَيْهِ أَوَّارٍ قَالٍ

(١) في الأصل: «الموال» بدون ياء.
 (٢) عجز البيت منكسر الوزن.
 (٣) في الأصل: «للتغال» بدون ياء.
 (٤) في الأصل: «مدد» وكذا ينكسر الوزن.
 (٥) في الأصل: «ال» بدون ياء.
 (٦) في الأصل: «القال» بدون ياء.
 (٧) في الأصل: «نصي»، ولا معنى له.
 (٨) في الأصل: «الموال» بدون ياء.
 (٩) في الأصل: «الللنهار» وكذا ينكسر الوزن.

ازجُ دنياك وازجُ مولاك واعلم
وابتغاء الثواب من ربك اعمل
واغتنم غيبة الرقيب ففيها
واجل في الوجود فكّر غني
وإذا الوقت ضاق وسَّغ بالصَّب
ربما تكره النفوس من الأُم
أن راجي سواه غير مُقال
فهو يُجزى الأعمال بالمثقال
لقلوب الرجال أي صقال
عن ضروب الإنعام والأخقال
ولا تُنس من شهير المقال
ر له فرحة كحلّ العقال

لا غرو أن وقع توان، أو تلوم دهر ذو ألوان، فالأمر بين الكاف والنون، ومن صبر لم يبوء بصفقة المغبون، وللسعداء تخصيص، ومع التقريب تمحيص، وما عن القضاء محيص، والمتصرف في ماله غير مغتوب، وقديم الحقيقة إلى الحيف ليس بمنسوب. وقد ورد خطاب عمادي أطاب الله محضره، وسدد إلى المرامي العلوية نظره، ناطقًا بلسان التفويض، سارحًا من الرضا في الفضاء العريض، لاثدًا بالانقياد والتسليم، قائمًا على أسكفة^(١) باب الأدب لمثابة حكم الحكيم.

ومنها: والوقائع عافاكم الله وعَاظ، ونحن هُجود وفي الحيّ أيقاظ، وما كل المعاني تؤديها الألفاظ. وهذا الفنا الذي نشأ عن الوقت، هو إن شاء الله عين البقا. وإذا أحب الله عبدًا حمّاه الدنيا، وما هي إلا فنون، وجنون فنون، وحديث كله مجون. وقد يجمع الله الشيتين، ولن يغلب عسرٌ يُسرين ولا باس، ويا خَطْب لا مساس، وأبعد الله الياس، وإنما يوفي الأجر الصابرون، ولا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون. وهي طويلة بديعة.

أسمع بحضرة غرناطة لما قدم عليها وارنسم في جملة الكتاب بها، وحذث عن رضي الدين أبي أحمد إبراهيم الطهري، بسماعه من الشريف يونس بن يحيى الهاشمي، بسماعه من أبي الوقت طراد. وعن الإمام سراج الدين أبي حفص عمر بن طراد المعري القاضي بالحرم الشريف، وعن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الحميد الهمداني، وعن الإمام بهاء الدين الخميري عن أبي الطاهر السلفي، وعن جماعة غيرهم، وكان وروده على الأندلس في أوائل عام خمسة عشر وسبعمائة، وحضر بها غزوات، ولقي من كان بها من الأعلام. ثم انصرف عنها في أوائل عام ثمانية عشر، وأحلّ بسبته، فأكرم رئيسها أبو عمر يحيى بن أبي طالب الغزفي قدومه، وأنزله بدار جليلة كان بها علو مطلق على البحر، لم يتمكن من مفتاحه، لأمر اقتضى

(١) أسكفة الباب: خشبة التي يوطأ عليها. محيط المحيط (سكف).

ذلك، فكتب إليه: [الكامل]

يا صاحبَ البلدِ المليحِ المشرقِ ما مثله في مَغربٍ أو مَشرقِ
منها:

وَحَفِضْتَ عِيشِي فِيهِ فَارْفَعْ مَنْزِلِي حَتَّى أَرَى الدُّنْيَا بِطَرْفِ مُطَرِّقِ
وتجول في البلاد، ولقي مَنْ بها، واتصل بالأمير أبي علي بسجلماسة، ومدحه
بقصيدة حُفِظَ له منها: [الطويل]

فيا يوسفِي الحُسْنِ والصَّفْحِ والرِّضَا تَصَدَّقْ عَلَى الدُّنْيَا بِسُلْطَانِكَ الْعَدْلِ
ثم اتصل بوطنه.

وفاته: نقلت من خط شيخنا أبي بكر المذكور: وفي عام أربعين وسبعمائة،
توفي بتونس صاحبنا الحاج الفاضل المتصوِّف، الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي
المليكي الشهير بابن عمر. صَدُرَ في الطلبة والكتاب، شهيرٌ ذو تواضع وإيثار،
وقبول حسن، رحمه الله.

محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني^(١)

من أهل تونس، يكنى أبا عبد الله.

حاله: هذا^(٢) الرجل الفاضل، صاحب زُواء وأئمة، نظيفُ البرّة، فارهُ المَرْكَب،
صدوف عن المَلّة، مقيم للرسم، مطفّف في مكيال الإطراء، جَمُوحٌ في إيجاب
الحقوق، مترامٍ إلى أقصى آماد التَوَعُّل، سخيُّ اللسان بالثناء لثَناءه، فكةٌ مطبوعٌ،
حسن الخلق، عذب الفكاهة، مخصصٌ حيث حلّ من الملوك والأمراء بالآثرة،
ومُتَنٌ دونهم بالمُداخلة والصُّحبة، ينظم الشعر، ويحاضر بالأبيات، ويتقدّم في باب
التحسين والتّقييح، ويقوم على تاريخ بلده، ويثابر على لقاء أهل المعرفة والأخذ عن
أولي الرواية. قَدِمَ على الأندلس في إحدى جمادين، عام خمسين وسبعمائة، مُفْلِتًا
من الوقعة^(٣) بالسلطان أبي الحسن بالجهات الشرقية، بأيدي بني زِيَّان وأخلافهم،

(١) ترجمة ابن راجح في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).

(٢) راجع نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) هي الوقعة التي دارت بين أبي الحسن المريني، صاحب المغرب، وبين بني زيان، أصحاب
تلمسان، وقد هزم فيها أبو الحسن المذكور.

فمهّد له سلطانتها، رحمه الله، كتّف برّه، وأواه إلى سعة رَغِيهِ، وتأكّدت بيني وبينه صعبة.

شعره: كتبتُ إليه لأول قدومه بما نصّه: أأخذو حذو أبيات، ذكّر أنّ شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبته بها^(١): [الطويل]

أَمِنْ جَانِبِ الْغَرْبِيِّ نَفْحَةٌ بَارِحٌ
قَدَحْتُ بِهَا رَنْدَ الْغَرَامِ وَإِنَّمَا
وَمَا هِيَ إِلَّا نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ
رَجَحْنَا لَهَا مِنْ غَيْرِ شَكِّ كَانِهَا
فَتَى هَاشِمٍ سَبَقًا إِلَى كُلِّ عَلِيَّةٍ^(٢)
أَصِيلُ الْعَلَاءِ جُمُ السِّيَادَةِ، ذَكَرَهُ
وَفُرْقَانُ مُجِدِّ يَصْدَعُ الشُّكَّ نُورُهُ
وَفَارِسُ مِيدَانِ الْبَيَانِ إِذَا انْتَفَضَى
رَقِيقٌ كَمَا رَاقَتْكَ نَعْمَةٌ سَاجِعٌ
إِذَا مَا احْتَبَى مُسْتَحْفَظًا^(٣) فِي بِلَاغَةٍ
وَقَدْ شُرِعْتُ فِي مَجْمَعِ الْحَقْلِ نَحْوَهُ
فَمَا ضَغَضَعْتُ مِنْهُ لَصُولَةَ صَادِحٍ^(٤)
تَذَكَّرْتُ قُسًا قَائِمًا فِي عُكَاظِهِ
لِيَهْنِكَ شَمْسُ الدِّينِ مَا حُزَّتْ مِنْ عَلَا
رَعَى اللَّهُ رَكْبًا أَطْلَعَ الصَّبِيحَ مُسْفَرًا

ومنها:

أقول لقومي عندما حطّ كورها وساعدها السعدان وسطّ المسارح^(٥)

(١) القصيدة في نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٠ - ٢٢١).

(٢) في النفح: «الجوارح». (٣) في النفح: «غاية».

(٤) في الأصل: «مغار الجبل» والتصويب من النفح.

(٥) الفادح: الخطب الذي يتقلّ حمله. يقول امرؤ القيس من معلقته: [الطويل]
فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومه بكلِّ منار القتل شدّت بيدبلي

ديوان امرئ القيس (ص ١٩).

(٧) في النفح: «وخوض».

(٦) في النفح: «مستحضراً».

(٩) في النفح: «خواتمه».

(٨) في النفح: «صادح».

(١١) في النفح: «الأباطح».

(١٠) في الأصل: «والباطح».

دَرُوهَا وَأَرْضَ اللَّهِ لَا تَغْرِضُوا لَهَا
إِذَا مَا أَرَدْنَا الْقَوْلَ فِيهَا^(١) فَمَنْ لَنَا
بَقِيَتْ مُنَى نَفْسٍ وَتُحْفَةٌ رَائِدٌ^(٢)
وَلَا زَلَّتْ تَلْقَى الرَّحْبَ^(٣) وَالْبَرَّ حَيْثَمَا
فَأَجَابَنِي بِمَا نَصَهُ^(٤): [الطويل]

بَمَغْرِضٍ سُوءٍ فَهِيَ نَاقَةٌ صَالِح
يَطْوِعُ الْقَوَافِي وَانْبِعَاطُ الْقِرَائِحِ
وَمُورِدٌ ظِمَّانٌ وَكَعْبَةٌ مَادِح
أَرْخَتِ السُّرَى مِنْ كُلِّ غَادٍ وَرَائِحِ

تُعَارِ لِمَفْقُودٍ^(٥) عَنِ الْحَيِّ نَازِحٍ؟
غَلِيلٌ عَلِيلٌ لِلتَّوَاصِلِ جَانِحٍ؟
وَرُنْدٌ الْحَمَى وَالشَّيْخُ شَيْخُ الْمَشَايِحِ^(٦)
فَسَقِيَا لَهَا سُقِيَا لِنَاقَةٍ صَالِحِ
جَمِي لِمَحَابِّ الْعَيْنِ عَنِ لَمَحٍ سَامِحٍ^(٧)
حَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسْنَى وَحَلَى الْمَلَامِحِ
يَدُلُّ، وَهَلْ حَسَمَ لِدَاءِ الثَّبَارِحِ؟
لَعَقَرُ عُقَارٍ^(٨) الْأُنْسَ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ؟
تُنْقُصُ نَوَادِيهَا بِغَادٍ وَرَائِحِ
لِتَرْتِيلِ آيَاتِ الثُّدَى وَالْمَنَائِحِ
وَأَوْتَرِ بِالسُّورَةِ شَفَعِ الْمَدَائِحِ
نَاطٍ عَنِ رَشَادٍ فِيهِ مَعْنَى^(٩) النَّصَائِحِ
لِكُلِّ هَدَى هَادٍ لِأَرْجَحِ رَاجِحِ
وَأَوْزَى الْهُدَى لِلرُّشْدِ أَوْضَحِ وَاضِحِ

أَمِنْ مَطْلَعِ الْأَنْوَارِ لَمَحَةٌ لَامِحِ
وَهَلْ بِالْمُنَى مِنْ مَوْرِدِ الْوَضَلِ يَرْتَوِي
فِيَا فَيُضْ عَيْنِ الدَّمْعِ مَا لَكَ وَالْجَمَى
مَرَابِعُ آرَامِي وَمُورِدُ نَاقَتِي
سَقَى اللَّهُ ذَاكَ الْحَيِّ وَذَقَا^(١٠) فَلَمَنَهُ
وَأَبْدَى لَنَا حُورَ الْخِيَامِ تُزَفُّ فِي
تَرَى حَيٌّ تِلْكَ الْحُورِ لِلْحُورِ مَهْيَعٍ^(١١)
وَيَا دُوحَةَ الرِّيحَانِ^(١٢) هَلْ لِي عَوْدَةٌ
وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا طَلَّةٌ^(١٣) حَاتِمِيَّةٌ
أَقَامَ بِهَا الْفَخْرَ الْخَطِيبُ^(١٤) مَنَابِرًا
وَشَفَعَ بِالْإِنْجِيلِ حَمْدَ مَدِيحِهِ
وَقَرَّقَ بِالْفُرْقَانِ كُلَّ قَرِيقَةٍ
وَهَلْ هُوَ إِلَّا لِلْبَرِيَّةِ مُرْشِدٌ
فَبُشْرَى^(١٥) لِسَانَ الدِّينِ سَادَ بِكَ الْوَرَى

(١) في النفع: «فيه».

(٢) في النفع: «البرّ والرحب».

(٣) القصيدة في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢١ - ٢٢٣).

(٤) في النفع: «تُعَاد لِمَفْقُودٍ».

(٥) في النفع: «الأشايح».

(٦) الودق: المطر. لسان العرب (ودق).

(٧) في النفع: «لامح».

(٨) المهيح: الطريق الواضح. محيط المحيط (هيج).

(٩) في الأصل: «الرُّوِيحَان» وهكذا يتكرر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٠) في النفع: «العفر عفار».

(١١) في الأصل: «ابن الخطيب» وهكذا يتكرر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٢) في النفع: «محض».

(١٣) في الأصل: «بشراك شمس الدين» والتصويب من النفع.

متى قلت لم تترك مقالاً لقائل
فمن حام بالحي الذي أنت أهله^(٣)
يحق له أن يشفع الحمد بالشنا
ويا فوزاً ملك دمت صدر صدره
بأرائك التي تدل على الهدى
ملكك خصال السبق في كل غاية
مطامح آمال لأشرف همه
فدونكها يا مهدي المدح مدحة
تهنئك^(٨) بالعام الذي عم حمده^(٩)
فخذها سمي الفخر يا خير مسبل
ودم خاطب العليا لها خير خاطب

وتلقاني بمالقة عند قدومي من الرسالة إلى المغرب، في محرم عام ستة وخمسين وسبعمائة، ونظم لي هذه الأبيات، ولا حول ولا قوة إلا بالله: [الطويل]

قدومك ذا أبدى لذي الراية الحمرا
وأينع فخر الرشد من قلق الهدى
سرينا له كي يحمد السير والسرى
ونصبح في أحياء للمن^(١١) نستلم
ونخطب ما، يا ابن الخطيب، تشاء^(١٢) من
فقابلت بالإقبال والبر والرضى
فأبناء قدس الحمد حضرة قدسنا

تغور الرضى تغبر عن شئب البشر
وكونه نهرا وفجره فجرا
ونرقب شمس الدين من فرعك الفجر
مواطنكم شفعا وآثاركم وثرا
كرائم ذاك الحي إذ نهز الشغرى
وأقررت من يقرأ وأقررت من قرأ
وأقدامنا تملا وأمداحكم تقرأ

(٢) في النسخ: «مدح».

(٤) في النسخ: «عطائك».

(٦) في النسخ: «ما».

(٧) الجحاجح: جمع جحجاج وهو السيد السمع الكريم. لسان العرب (جحجج).

(٨) في الأصل: «تهنئك»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

(٩) في النسخ: «مدحه».

(١٠) في الأصل: «أغضا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النسخ.

(١١) في الأصل: «في أحياء المن» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(١٢) في الأصل: «تشاء» وكذا ينكسر الوزن.

هنيئاً لنا نلنا ولننا ولم نزل
 رأينا وزير الملد والمُلك واللوى
 سجدنا وكبرنا وقلنا: رسولنا
 ويهني الورى هذا الإياب فإن في
 أراننا سنا ذا اليوم أجمل منظر
 أما والذي أوليت من نعمة غدت
 لأنك لسان الدين للدين حجة
 بقيت لنا كثفاً منيعاً مشرقاً
 ودُمننا بكم في كل أمني ومئة
 ومن أمثل ما مدح به السلطان لأول قدومه بالنسبة إلى غير ذلك من شعره:

[الطويل]

أما والعيون الثجل ترمق عن سخر
 وريحانه والراح والطلّ والطلّى
 ونور جبين الشمس في رونق الضحى
 لقد قلدت آراء يوسف مُلكه
 وقد أيد^(٢) الإسلام منه بناصر
 هم القوم أنصار النبي محمد
 وحسبك من قوم حموا سيد الورى
 سقى شريعة الإسلام وذوق سيفهم
 فأصبح روض الرشد يعبق طيبه
 فيا سائلي عنه وعن سطواته
 وجز^(٤) مع الإقدام جيشاً عرمرما

ووزد رياض الخد والكأس والخمر
 وترجسه والزهر والثور والتهر
 وهالة بذر التّم منتصف الشهر
 قلائد نصير لن تبعد مع الدهر
 نصير وخير النصر نصير بني نصر
 به^(٣) غضة الأعلام في اليسر والعسر
 وقاموا بنصر الحق في السر والجهر
 رحيق الأمانى طيب العزف والنشر
 ودوخ الهدى بالزهر أزهاره تزي
 إذا لاح محفوظاً براياته الحمر
 وشرّد بالتأييد شرذمة^(٥) الكفر

(١) في الأصل: «أو نصلي» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى.

(٢) في الأصل: «أيد» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٣) في الأصل: «وحزبه وعصبة...» وكذا ينكسر الوزن.

(٤) في الأصل: «وجز» وكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له.

(٥) الشرذمة: الجماعة القليلة من الناس. محيط المحيط (شرذم).

لخَلِيلَةٍ تَنْبِيكَ عَمَّا وَرَاءَهَا
فِيَا فَوْزَ مَنْ أَدْنَاهُ بِالْغُثِّ وَالْغِنَى
يَمِينًا بِمَا اخْتَارَتْ يَدَاكَ وَأَخْرَزَتْ
لَقَدْ أَضَعَدْتَ مَجْدِي مَدَائِحُكَ الَّتِي
وَحَقٌّ لِمَثَلِي يُشْفَعُ الْحَمْدُ بِالْقَنَا
فَأَجْنِي ثِمَارَ الْأَنْسِ مِنْ رَوْضَةِ الْمُنَى
وَأَشْرِبْ مَاءَ الْفَوْزِ عَذْبًا خَتَامَهُ
وَلَا بَرِحْتَ أَمْدًا حُكْمَ تَعَجُّزِ النَّهْيِ
وَلَا زَالَتْ الْأَقْدَارُ تَخْدُمُ رَأْيَكُمْ

وكتب إلي في غرض يظهر منه نص المراجعة، وحسبنا الله^(٣): [الطويل]

أما والذي لي في حُلاكَ مِنَ الْحَمْدِ
لَقَدْ أَشْعَرْتَنِي النَّفْسُ أَنَّكَ مُعَرَّضٌ
فَإِنْ زَلَّةً مَنِيَّ^(٦) بَدَتْ لَكَ جَهْرَةٌ

فراجعته بقولي^(٨): [الطويل]

أَجْلُكَ عَنْ عَثَبٍ يَغْضُ مِنْ الْوُدِّ
وَلَكِنِّي أَهْدِي إِلَيْكَ نَصِيحَتِي
إِذَا مَقُولُ الْإِنْسَانِ جَاوَزَ حَدَّهُ
فَأَصْبَحَ مِنْهُ الْجِدُّ هَزَلًا مُدَمَّمًا
فَمَا اسْتَطَعْتَ^(٩) فَيْضًا^(١٠) لِلْعَيْنَانِ فَإِنَّهُ

(١) في الأصل: «شعر» بدون ياء. (٢) في الأصل: «زهير» وكذا ينكسر الوزن.

(٣) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩). (٤) في النفع: «الدي».

(٥) في الأصل: «يستجد» بدون ياء. وفي النفع: «الآتي لفضلك يستجدي».

(٦) كلمة «مني» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

(٧) في النفع: «... والله أذنبت عن قضي». (٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢١٩).

(٩) في الأصل: «استطعت» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

(١٠) في النفع: «قبضا».

(١١) في الأصل: «بالعلاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من النفع.

توفي يوم الخميس الثالث لشعبان عام خمسة وستين وسبعمائة، وقد ناهز السبعين سنة، ودفن بروضتنا بباب البيرة، وأغني شارب الشعر من نابي^(١) يقصه. وغير هذه الدعوى قرارها تجاوز القضية.

محمد بن علي بن عمر العبدري^(٢)

من أهل تونس، شاطبي الأصل، يكنى أبا عبد الله، صاحبنا.

حاله: كان فاضلاً من أبناء النعم، وأخلاف العافية، ولّي أبوه الحجابة بتونس عن سلطانها برهة، ثم عدا عليه الدهر، واضطر ولده هذا إلى اللحاق بالمشرق، فاتصل به سكناه وحج، وآب إلى هذه البلاد ظريف النزعة، حلو الضريبة، كثير الانطباع، يكتب ويُشعر، ويكلف بالأدب، ثم انصرف إلى وطنه. وخاطبني إلى هذا العهد، يُعرفني بتقلده خُطة العلامة، والحمد لله.

وجرى ذكره في كتاب «الإكليل» بما نصّه^(٣): غَذيي نعمة هامية، وقريع رتبة سامية، صُرِفْتُ إلى سلفه الوجوه، ولم يبق بإفريقية^(٤) إلّا مَنْ يَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف، الغاية من الترف. ثم قلب الدهر له ظهر المجن، واشتد به الحُمار^(٥) عند فراغ الدن، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوط مبيرة^(٦) وشدة كبيرة، فامتزج بسكانه وقطانه، ونال من اللذات ما لم ينله في أوطانه؛ واكتسب الشمائل العذاب، وكان كابن الجهم^(٧) بُعِثَ إلى الرصافة ليرق فذاب، ثم حوّم على وطنه تحويم الطائر، وألم بهذه المدينة^(٨) إمام الخيال الزائر، فاغتنمت صَفْقَةً وَذَهَ لحين وروده، وخَطَبْتُ موالاته على انقباضه وشروده، فحصلت منه على دُرّة ثقتي، وحديقة طيبة الجنى.

شعره: أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا بيرة^(٩): [الطويل]

لكل أناس مَذْهَبٌ وَسَجِيَّةٌ وَمَذْهَبُ أولادِ النظامِ المكارمِ

(١) في نفع الطيب (ج ٨ ص ٢٢٣): «ثاني».

(٢) ترجمة محمد بن علي العبدري في الدرر الكامنة (ج ٤ ص ١٩٨) ونفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧).

(٣) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧). (٤) في النفع: «من إفريقية».

(٥) الحُمار، بضم الخاء: الأكم في الرأس يصيب شارب الخمر. لسان العرب (خمر).

(٦) مبيرة: مُهلكة. لسان العرب (بير).

(٧) هو علي بن الجهم، من شعراء المتوكل العباسي.

(٨) في النفع: «البلاد». (٩) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧).

إذا كنتَ فيهم ثاوياً كنتَ سيِّداً وإنْ غِبْتَ عنهم لم تَنَلْكَ المظالمَ
أولئك صَحْبِي، لا عَدِمْتُ حَيَاتَهُمْ ولا عَدَمُوا السُّعْدَ الَّذِي هُوَ دَائِمٌ!
أُعْنِي بِذِكْرَاهُمْ وَطِيبْ حَدِيثَهُمْ كما غَرَّدَتْ فوقَ العُصُونِ الحمامُ

ومن شعره يتشوق إلى تلك الديار، ويتعلل بالتذكار، قوله^(١): [الوافر]

أَجَبْتُنَا بِمَصْرِ لَوْ رَأَيْتُمْ بكائِي عند أطرافِ النهارِ
لكنتم تُشْفِقُونَ لفرطِ وَجْدِي وما أَلْقَاهُ مِنْ بُغْدِ المزارِ^(٢)

ومن شعره: [الطويل]

تَغْنَى حَمَامُ الْأَيْكِ يَوْمًا بِذِكْرِهِمْ فَأَطْرَبَ حَتَّى كَذْتُ مِنْ ذِكْرِهِمْ أَفْنَى
فَقُلْتُ: حَمَامُ الْأَيْكِ لَا تُبْكِ جَبْرَةً نَأْوًا^(٣) وَانْقَضَتْ أَيَّامُ^(٤) وَضْلِهِمْ عَنَّا
فَقَالَ وَلَمْ يَرُدُّ جَوَابًا لِسَائِلِ أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا جَمِيعًا بِذَا حِجَّتِنَا^(٥)

ومن جيد شعره الذي أجهد فيه قريحته، قوله يمدح السلطان المعظم أبا الحسن في ميلاد عام سبعة وأربعين وسبعمائة: [الطويل]

تَقَرُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ أَنَّكَ مَوْلَاهَا وَأَنْ الدُّنَا وَقَفَّ عَلَيْكَ قَضَايَاهَا
ومنها:

طَلَعْتَ بَأْفَى الْأَرْضِ شَمْسًا مَنِيرَةً أَنَارَ عَلَى كُلِّ الْبِلَادِ مُحَيَّاها
حَكَيْتَ لَنَا الْفَارُوقَ^(٦) حَتَّى كَانَا مَضِينَا^(٧) بَعِينَ لَا تُكَذِّبُ رُؤْيَاهَا
وَسَرَتْ عَلَى آثَارِهِ خَيْرٌ سِيرَةٍ قَطَعْنَا بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكَ يَرْضَاهَا
إِذَا ذُكِرَتْ سِيرُ الْمُلُوكِ بِمَحْفَلِ وَنَادَى بِهَا النَّادِي وَحَسَنَ دُنْيَاهَا
فَجُودُكَ زَوَاهَا وَمُلْكُكَ زَانَهَا^(٨) وَعَذْلُكَ زَانَهَا^(٨) وَذَكَرَكَ خَلَاهَا
وَأَنْتَ لَهَا كَهْفٌ حَصِينٌ وَمُعْقِلِ تَلُوذُ بِهَا أُولَى الْأُمُورِ وَأَخْرَاهَا

(١) البيتان في نفع الطيب (ج ٨ ص ٣٧٧). (٢) في النفع: «الديار».

(٣) في الأصل: «ناهوا» وكذا ينكسر الوزن ولا يستقيم المعنى.

(٤) كلمة «أيام» ساقطة في الأصل. (٥) في الأصل: «ألحقنا» وكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «للفاروق»، وكذا ينكسر الوزن. والفاروق هنا: هو لقب عمر بن الخطاب، سمي بذلك لأنه فُزق بين الحق والباطل. محيط المحيط (فرق).

(٧) كلمة «مضينا» ساقطة في الأصل.

(٨) في الأصل: «زاهها» وكذا لا معنى له، وفي الوقت نفسه يختل الوزن.

ومنها بعد كثير:

ومنكنم ذوو التيجان والهمم التي	أناف على أعلى السماكين أذناها
إذا غاب منهم مالك قام مالك	فَجَدَدُ ^(١) للبيت المقدس عليها
بناها على التقوى وأسس بيتها	أبو يوسف الزاكي وسيّر مبنها
وأورثها عثمان خير خليفة	وأخلم من ماس الأنام وأنداهها
وقام علي بعده خير مالك	وخير إمام في الورى راقب الله
علي بن عمر بن يعقوب ذو العلا	مذيق الأعادي حيثما سار بلّواها
أدام الله وأعطى الخلافة وقتها	ونور أخلاك الخطوب وجلاها

ووصلني كتاب منه مؤرخ في التاسع عشر من شهر شعبان المكرم من عام أربعة وستين وسبعمائة، جدّد عهدي من شعره بما نصّه: [الطويل]

رَحَلْنَا فشرقنا وراحوا فغرّبوا	ففاضت لروعات الفراق عيون
فيا أدمعي مُنْهَلَةٌ إثر بينهم	كان جفوني بالدموع عيون
فيا مَعْهَدًا قد بَنُتْ عنه مكلفا	بديلي منه أنة وحنين
سَقَّتْكَ غواذي المَزْنِ كُرْ عَشِيَّة	وداك محلول النطاق هُتُون
فإن تكن الأيام لم تُقْضَ بيننا	بوضل فما يُقْضَى فسوف يكون
يعز علينا أن نُفارق رَنَعُكُمْ	وأنا على أيدي الخطوب نُهون
ولو بَلَّغْتَنِي العَيْرُ عنكم رسالة	وساعد دهر باللقاء ضنين
لكنّا على ما تعلمون من الهوى	ولكن لأحداث الزمان فُنون

(١) في الأصل: «مَجْدَدُ» وكذا ينكسر الوزن.

فهرس المحتويات

٣ الخزر جي	محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر
٥ شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره	
٩ الأحداث في أيامه	
١١ الحادثة التي جرت عليه	
١٤ ترتيب الدولة الثانية السعيدة الدور إلى بيعة الكور	
١٨ ظَرْفُ السلطان وحسن توقيعه	
٢١ ومن ملوك النصارى	
٢٤ بعض مناقب الدولة لهذا العهد	
٤٣ الجهاد في شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة	
٤٥ الغزاة إلى حصن أشر	
٤٥ الغزاة المُعملة إلى أطرية	
٤٦ الغزاة إلى فتح جيان	
٤٦ الغزاة إلى مدينة أبدة	
٥٠ مولده السعيد التَّشِيَّة، الميمون الطلوع والجيتة	
٥١ الأنصاري	محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزر جي
٥٤ الملوك على عهده	
٥٧ الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، المنصور بن أبي عامر	محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن أبي
٥٨ غزواته وظهوره على أعدائه	
٦١ عباد بن عمرو بن أشلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، لخمى النسب	محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ابن قرش بن
٦٦ توقيعه ونثره في البديهة	
٧٠ محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مُزْدَنِش الجُدَامِي	

٧١	ما نقم عليه ووصم به
٧٣	بعض الأحداث في أيامه، ونبد من أخباره
٧٤	محمد بن يوسف بن هود الجذامي
٧٥	بعض الأحداث في أيامه
	محمد بن أحمد بن زيد بن أحمد بن زيد بن الحسن بن أيوب بن حامد بن
٧٧	زيد بن منخل الغافقي
٧٧	حاله ونهايته ومحتة ووفاته
٧٨	خير في وفاته ومقرجه
٧٩	محمد بن أحمد بن محمد الأشعري
٨٠	محمد بن فتح بن علي الأنصاري
٨٠	محمد بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن الزيات الكلاعي
٨١	محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج
٨٢	محمد بن رضوان بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أرقم الثميري
	محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن
	محمد بن سليمان بن سوار بن أحمد بن حزب الله بن عامر بن سعد
٨٣	الخير بن عيَّاش
١٠١	محمد بن عبد الله بن منظور القيسي
١٠٣	محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني
	محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سعد
١٠٦	الأشعري المالقي
	محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن
	محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد ابن ناصر بن حيَّون بن
	القاسم بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله
١١٠	تعالى عنه
١١٤	محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي
	محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي
١١٦	بكر بن علي بن داود القرشي المقرئ
١٢٥	من فصل الإقبال
١٤٤	محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى اليحصبي
١٤٥	محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض اليحصبي ..
	محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن جبير بن
١٤٦	محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الكِنَاني .
	محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن
١٥٢	عبد الرحمن بن علي بن شبرين
١٥٩	محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي

١٦١	محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٢	محمد بن محمد بن محمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٢	محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٣	محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قُطبة الدُّوسي
١٦٣	محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى ابن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَي الكَلْبِي
١٧٢	محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن الحكيم اللخمي
١٧٤	محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن علي بن محمد اللُّوشي
١٧٦	محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحكيم اللخمي
١٨١	محمد بن محمد بن علي بن العابد الأنصاري
١٨٢	محمد بن مالك المُرِّي الطُّغْثَرِي
١٨٣	محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الملك الأوسي
١٨٤	محمد بن علي بن عبد الله بن علي القيسي المرادي
١٨٥	محمد بن علي بن العابد الأنصاري
١٨٦	محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأزدي الإلبيري القرناطي
١٩٠	محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم بن علي الغساني البرجي القرناطي
١٩٦	محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد الصُّريحي
٢٠٧	ومن السفر السابع المُفْتَتَح بقوله ومن الطَّارئين منهم في هذا الباب
٢٠٧	محمد بن أحمد بن محمد بن أبي خيثمة الجبائي
٢٠٧	محمد بن أحمد بن عبد الله بن أحمد الإستجبي الحميري
٢١٦	محمد بن أحمد بن علي الهواري
٢٢٠	محمد بن أحمد بن الحدَّاد الوادي آشي
٢٢٣	محمد بن إبراهيم بن خيرة
٢٢٤	محمد بن إبراهيم بن علي بن باق الأموي
٢٢٦	محمد بن إبراهيم بن سالم بن فضيلة المعافري
٢٢٨	محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم
٢٢٩	شعره ودخوله غرناطة
٢٣٣	محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري
٢٤٣	محمد بن محمد بن أحمد بن شلبطور الهاشمي
٢٤٦	محمد بن محمد بن جعفر بن مُشْتَمَل الأسلمي
٢٤٩	محمد بن محمد بن حزب الله
٢٥٢	محمد بن إبراهيم بن عيسى بن داود الحميري

٢٦١	محمد بن محمد بن عبد الله بن مقاتل
٢٦٢	محمد بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيسي
٢٦٢	محمد بن محمد بن عبد الواحد بن محمد البلوي
٢٦٧	محمد بن محمد بن الشُّدَيْد
٢٦٩	محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج بن مجاهد بن أبي الخصال الغافقي
٢٨٨	محمد بن مُفَضَّل بن مُهَيْب اللخمي
٢٩٥	محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي
٢٩٩	محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي
٣٠٨	محمد بن عبد الله بن الحاج البضيعة
٣٠٩	محمد بن عبد الله بن قُطَيْس
	محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن فتوح بن محمد بن
٣١٠	أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمي ذو الوزارتين
٣٣٢	محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوي
٣٣٣	محمد بن عبد الرحمن المتأهل
٣٣٤	محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طُفَيْل القيسي
٣٣٤	حُظُوتُهُ ودخوله غرناطة
٣٣٧	محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عيَّاش التَّجِيبِي البُرْشَانِي ..
٣٣٩	بعض أخباره مع المنصور ومحاورته الدَّالَّة على جلالته قدره
٣٤١	محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الهَمْدَانِي
٣٤٥	محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري
٣٤٧	محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قُزَّمان الزُّهْرِي
٣٥٦	محمد بن غالب الرُّصَافِي
٣٦٦	محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي
٣٦٧	محمد بن سليمان بن القصيرة
٣٧٠	محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني
٣٧١	«ومن الغرباء في هذا الحرف» محمد بن حسن العُمَرَانِي الشريف
٣٧٣	محمد بن محمد بن إبراهيم بن المرادي ابن العشاب
٣٧٥	محمد بن محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسي
	محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحَجْرِي
٣٧٦	حَجْر ذِي رُغَيْن التَّلَمْسَانِي
٤٠٥	محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المليكي
٤١٢	محمد بن علي بن الحسن بن راجح الحسني
٤١٨	محمد بن علي بن عمر العبدري